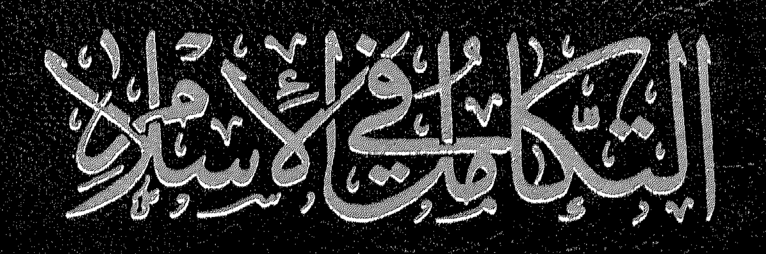
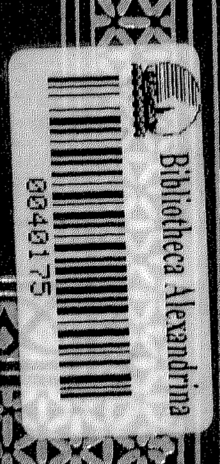


بقلم
أحمد أمين

المجلد الأول



دار المعرفة
بيروت - لبنان







التكامل في الإسلام

الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار المعرفة
DAR EL-MAREFAH
للطباعة والنشر والتوزيع
Publishing & Distributing



مستديرة المطار - شارع البرجاوي ص.ب ٧٨٧٦ تلفون: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢ - برقيا معرفكار بيروت - لبنان -

التكامل في الإسلام

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل، باذن الله، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافي بينه وبين العلم الصحيح، (لا الظنون والأهواء!)

بقلم

أحمد أمين

خريج كلية الزهية وجامعة استنبول

الجزء الأول

دار المعرفة

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال علي عليه السلام:

عباد الله زِنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا. وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عُنف السياق. واعلموا أنه مَن لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وصلى الله على أفضل خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد،

إن الانسان في عصرنا اليوم، قد اختمرت في ذهنه جملة من الأسئلة والشكوك، وما يؤسف له أن هذا كله يتم دون محاولة منه التحرك والتحقيق والبحث للوصول إلى الحقيقة، حتى تحولت إلى شكوك اجتماعية وقف منها القيّمون على الشأن، موقف الصمت، دون التوجيه لتبصّر أسبابها ودوافعها ودراسة المواضيع التي أثيرت حولها تلك الشكوك والمسائل.

إن عصرنا اليوم عصر الاضطراب السياسي والاجتماعي، عصر التردد والانقسام الثقافي والروحي، عصر التغير والتبدل العقائدي والايديولوجي.

إن عصرنا اليوم عصر التيارات الفكرية المتصارعة المستندة والمدعومة من قوى ومؤسسات بدورها تستند إلى تنظيم يدفعهافي مختلف الاتجاهات.

هذه الآراء والتيارات تغلّفت برداء العلمية والتقدم والتنظيم الاقتصادي فخلبت ألباب كثير من الناس.

هذه التيارات وجدت كلها لمحاربة الاسلام وقد استخدمت كافة الأساليب الملتوية ومارست وتمارس شتى أنواع الخداع للوصول إلى أهدافها.

إن إيصال كلمة الحق اليوم إلى أذهان الناس وعقولهم، عمل ليس باليسير، بعد هذا الغزو المنظم، وفي ظل هذا الانحراف الخطير، وفي خضم هذه الفِكَر الوافدة التي فرزتها مختلف التيارات والتي طالت جوهر عقيدتنا، بل تعدتها إلى النفس الانسانية في الصميم.

هذه الفِكَر والنظم عششت ونمت في المجتمع الغربي، فأخرجته عن فطرته الانسانية وسلخت النفس هناك صفاءها ونقاءها، ومنذ أجيال بعيدة، حتى أصبح الانسان محكوماً بتوجه مادي محض.

ولا ننكر أن هذا الانسان قد استطاع أن يحقق درجات مهمة من التألق والتقدم في مجالات مادية عديدة كالاقتصاد والعلوم وغيرهما لكنه إنطلق بعيداً عن سمو الذات الانسانية التي أضاعتها وغمرتها إنتصارات واكتشافات التطور المزعوم والتقدم العلمي الموهوم.

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. إن العلوم الحديثة، رغم ما حققته بقيت ضيقة، مبتورة، وناقصة لأنها لم تعتنِ بتنمية السلوك الإنساني ولا بإعداد النشء ولا بتطهير النفس، ولا بتطوير حياة اجتماعية لممارستها في تكوين وإيجاد مجتمع سليم تسوده المحبة والتعاون.

ولم يتطلع، الأوروبي، والغربي عموماً، إلى نفسه إلا من خلال شهواتها وغريزتها وحيوانيتها فاعتبر أن لكل زمن منطقاً ودساتير وقوانين تتغير وتتبدل حسب ميول الناس ورغباتهم.

واعتبر أن لا تسافل ولا تكامل، بل التكامل ما عليه الناس اليوم، وما هو عليه واقعهم، وما هي عليه عاداتهم وتقاليدهم وسبل معيشتهم.

ولقد بلغ من السخافة والجهل وعدم الاطلاع مرتبة ينكر معها الحقائق الأصلية، والعلم الصحيح الذي يهدف إلى تربية الانسان مادياً وروحياً، لنقص متأصل فيه منذ أن اقتلعت نفسه من فطرتها.

هذا النقص الذي أحاط به فسلبه عقله وأضاعه وقد أصبح منذ زمن طويل ينفذ رغبات النفس الأمارة بالسوء والتي مهما أوتيت من عقلٍ وتدبير وتفكير فهي محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها.

ولعب العقل دور المدبر والمنفذ لمتطلبات تلك النفس الغارقة في الشذوذ فابتعد في تقييمه وتحليله واستنتاجاته عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب

البحث واعتمد في ادعاءاته على السفسطة والخيال وابتدع نظريات ومفاهيم لا يدعمها العلم الصحيح، بل إن العلم منها براء.

وقد بلغ الانسان من التسافل مرتبة لم يعد يشعر معها بما هو فيه من تردٍ مرير. بل لم يكتف بهذا الحد فاستهزأ بمن لم يوافقه سلوكه وهذيانه، وافتراضاته، وبمن اعترض وحاكم نظرياته فوصمه بالرجعية والجهل والتخلف. متناسياً قوله تعالى: ﴿. . . هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ وفيه صح قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه، فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكِنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان تدعهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبداً﴾. وقوله في آية كريمة أخرى: ﴿. . . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

وبذل جهوداً مضنية للدفاع عما أسماه بالمدنية والتي رأى فيها الحياة والنجاة من عقائد بالية وأفكارٍ خرافية لا تتلاءم ومفاهيم ونظم القرن العشرين.

هذه الجهود لم تسهم في معالجة النواحي الأخلاقية التي تعاني منها المجتمعات فأدت إلى انهيار اخلاقي شبه كامل وانحلال اجتماعي أودى بحياة الانسان إلى التسافل والانحطاط.

بهت الشرق من تقدم أوروبا الاقتصادي، واعتقد خطأ، أن تقدمها هذا إنعكس تطوراً وسمواً وتكاملاً في حياة مجتمعاتها العلمية والروحية والانسانية فظن تقديماتها صحيحة واعتبرها دفعاً له وناصراً نحو الانفلات والتحرر والانعتاق من عهود التخلف والظلم.

فاستقى من فلسفاتها الكثير، وإقتبس من نظرياتها، المغلفة بشعارات العدالة والمساواة، القشور والسفاسف قبل أن يمحص وينقب فيأخذ المهم منها.

دب التبلبل في الشرق وتشتت الأفكار والآراء، فنسي الانسان نفسه التي تدانت إلى أسفل سافلين وهي على كلٍ أقرب إلى التأثر بالقذارة والفسق أكثر منها تطلعاً إلى السمو والعلى.

تأثر الشرق بتقاليد أوروبا فابتعد عن روحياته التي تسمو به نحو كمال يكون فيه الانسان أعلى منزلة من الملائكة فترك لنفسه العنان حتى صح فيه قوله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

هذه البلبلة الفكرية التي غمرت الوسط الاجتماعي، الشرقي والاسلامي، لم ينج منها بعض العاملين في الحقل الفكري والذين تصدوا لطرح الفكر الاسلامي وبلورته ومنهجته. ففسروا الشريعة والعقيدة وقدموها متأثرة بالسموم والأفكار التي تفاعلت في أذهانهم ومفاهيمهم فجاءت تفسيراتهم واجتهاداتهم فارغة من كل محتوى، بل أفرغت الدين من محتواه الانساني والروحي وما يرمي إليه من تربية النفس الانسانية وتهذيبها وإبلاغها إلى أرقى درجات كمالها وتعميق معرفتها لتقترب وتدنو من الله.

وقد نسي هؤلاء أن القوانين والنظم التي ترشحت من الاسلام إنما هي قوانين ثابتة وصالحة لحل مشاكل الانسان، وترد على حاجاته ومتطلبات حياته في كل زمان ومكان.

وامتد التأثير إلى الشبيبة المثقفة بثقافة العصر، وهؤلاء قد التبس عليهم أن التقدم الاقتصادي والمادي والعلمي وحتى النبوغ في هذا المجال لا علاقة له بتربية النفس وكمالها. فالنبوغ في معالجة أمراض النفس وتربيتها وإيصالها إلى حقيقتها، إلى معرفة الخالق عز وجل.

واعتبر هؤلاء أن الدين، دينهم، دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وهو لا يصلح ولا يستطيع أن يحقق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات التقدم والرقي.

وقد تركز في عقولهم أن ما طُرح من نظريات أمامهم مؤكدة الصحة، فنفوا احتمال نقضها، أو تبدّلها ولم يدركوا أن كل ما نصادفه من تصورات العقل البشري وإدراكاته نسبي يحتمل الصحة والبطلان وليس صادقاً تماماً. ولم يدركوا أن قصورنا عن ادراك الحكمة، والوصول إلى قوانين علمية معينة، لا يعني انتفاءها وإنما يعني أننا بمستوانا الذهني قاصرون عنها حتى يأتي الوقت المناسب لادراكها.

وقد غاب عن هؤلاء أيضاً أن الايمان التقليدي مردود ومرفوض وأنه يجب الوقوف على أصول الدين بالبرهان العقلي والدليل المنطقي فتنتفي عندئذ حجتهم بأن الدين لم يصل إلى مستوى تقديم الحلول للمشاكل العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها الانسان.

ونسي هؤلاء أو تناسوا، أن نبوغ أوروبا وتقدمها في مختلف المجالات وحتى العلمية منها، لم يرقَ بالنفس الانسانية ولم يهذبها بل ساهم في تحطيمها وتدنيسها فانزلقت، وتاه مع انزلاقها العقل وإبتعد بها عن معرفة الله. «فليس بين الايمان والكفر إلا قلة العقل» كما روي عن الامام الصادق (ع): « أن رواة العلم كثير، ورعاته قليل» كما نقل عن الامام علي (ع).

إن العمل الصادق المخلص من أجل قلع واجتثاث الخرافات والأباطيل التي لوثت بل دخلت عمق جذورنا. لضروري تكثيفه.

ونحن نبذل قصارى جهدنا، في مضمار صد ما انزلق إليه الفكر وما لوثت به أحكامنا... ونرى في ذلك قضاء لبعض الواجب.

والتزاماً منا في متابعة الرحلة الصعبة الطويلة لنشر الكلمة الحق ومساهمةً في محاولة تطهير النفس من الأدران التي علقت بها بوحي قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير... ﴾.

واليوم، إلى قارئنا الكريم، إلى شبابنا المثقف الذي تاه وبهرته المظاهر البراقة الفارغة من أي محتوى.

نقدم كتاب ـ التكامل في الاسلام ـ هذا الكتاب الذي ارتفع فيه مؤلفه بالانسان إلى المكان اللائق الذي يجب أن يكون فيه من سمو النفس وكمال الروح معتبراً أن حياته تجربة واستعداد وتهيؤ وأنها ليست إلا لحظة من لحظات الأبدية. وما هي إلا امتحان لصبره عندما يجيء ذلك اليوم الذي يقف فيه على أعتاب الآخرة.

ابتعد في معالجته عن التعصب والغوغاء وبرهن أن الدين الاسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعمق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن العصبية والخيال.

في موضوعاته أعطى العقل الدور الأهم في حياة الانسان من خلال هدايته له وإيصاله مهتدياً به إلى أحسن وأفضل السبل للاعتراف بوحدانية الخالق.

ولم يقصر، بل رد على مستغلي الانسان وموجهيه الوجهة المادية والذين استعملوا العقل لاهداف ابتعدت بالانسان في مجاهل تردي حياته الاجتماعية والخلقية. ولم تكن ردوده غوغائية وبعيدة عن المنطق السليم فقد اعتمد ما استطاع آيات كريمة من القرآن الكريم، وأحاديث شريفة تضع العقل في صدر معالجة الانسان لما اعترضه وما قد يعترضه من مشاكل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

إلى أن انتهى بموضوع العقل فاعتبره السلّم الذي يتدرج به الانسان إلى السمو والتكامل. ﴿ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. وما نقل عن الامام علي (ع): «ما عبد الله بشيء أفضل من العقل».

وعالج فيما عالج قضية النفس الانسانية وتكاملها، واعترض محاكماً المجتمعات الغارقة في الفساد، والتي تحطمت فيها النفس الانسانية فهوت إلى أدنى مراتب الفجور.

فاعتبر أن قضية الاعتراف بالخالق ليست قضية منطقية وعلمية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية الأصيلة، حتى أنه اعتبر انها بحث نفسية لا أثر للمنطق فيها.

وأوضح أن غاية العلم مهما تألقت وسمت فدورها ينحصر أساساً في الارتقاء بالنفس الانسانية وإيصالها إلى الله، والعمل بما يرضيه، حيث النور والسعادة الأبدية والحياة.

وخلص إلى أن الايمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، إن لم يخضع هذه الايمان والنفس معه إلى امتحانات دقيقة وصعبة إن تغلبت وانتصرت فيها النفس وابتعدت عن المعاصي والآثام والشرور، عندئذ تسمو فتتكامل. وأوضح أن الدين الاسلامي يربي

المسلم بصورة عملية من خلال اهتمامه بشتى نواحي حياته المادية والروحية والأخلاقية. فإنه إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» روي عن النبي (ص) ليؤكد إهتمام الدين بتربية الانسان ليصل به إلى الكمال.

فالدين الاسلامي دين صناعة النفس، وتكوينها وهو يهدف إلى إبلاغها أعلى مراتب التكميل بمعرفتها الله.

أخي الكريم،

نقل عن الامام علي (ع): «إن البحث عن العلم جهاد، وسلاح على الأعداء، ونور الأبصار من العمى، وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد».

تدعوك لقراءة هذا الكتاب... لعله ينير أمامك الطريق ويسد بعض الثغرات... ويجيب على بعض الأسئلة والشكوك.

لعله يزيل بعض الأوهام التي علقت في الأذهان.

لعله... كما نستنتج من قوله تعالى:

﴿... إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

﴿... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

لعلنا نوفق في الوصول.

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل؛ ويوفقنا لمتابعة الطريق...

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إذا صفت النفس الانسانية مما علق بها من أدران وأوساخ، ونظر الانسان نظرة دقيقة فيما جاء في الدين الاسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواه لرأى أنها برمتها ترمي إلى تكميل النفس الانسانية وإبلاغها إلى أسمى مراتب الكمال، كمال منَّ الله تعالى به على البشر، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم، ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾، ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير (وأعني به: التفكير في العلوم المادية) للقيام بهذه التجربة الحيوية المنجية وأعني بها تطبيق الدساتير الاسلامية دون أن يستثنوا منها شيئاً كتحليل الربا والنظر إلى ما حرّم الله تعالى أو. . . حتى يروا في أنفسهم ذلك التقدم الروحي والتكامل النفسي، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا إليه من حالة قدسية حديثة، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. فقد جاء في الحديث: «الناس كلهم بهائم إلا قليلاً من المؤمنين». وان الله تعالى يقول: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم﴾. ولكن هيهات. لا ينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له، على الأقل، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتي به من حين إلى حين. ان الله تعالى يقول: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. إنما تنذر من تبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾. فلا يوفق إلى هذه التجربة إلا من خشي الرحمن في خلواته ولو قليلاً: هيئت له موائد الخمر ولا حرج عليه، فلم يشرب، أو كان وصولاً لأمه وأبيه، أو كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر، أو كان عطوفاً على جاره ببعض ما يتمكن منه إلى غير ذلك.

ولكن انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لا يبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً.

«ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون».

فمثل هذا الشخص لا يوفق للقيام بهذه التجربة التي بها حياة الانسان وسعادته الأبدية. حتى أنه ليستسخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافات. أنه قد عمى قلبه فأمسى لا يبصر شيئاً. ﴿وإن أعمى العمى عمى القلب﴾ كما في الحديث. ان الله تعالى يقول:

﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين﴾. ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدي إلى الضلال ولا يقسو القلب إلا من ارتكاب الجرائم.

إن الله تعالى يقول: ﴿أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ ولا يأتي هذا العمى إلا من جراء الفسوق. ولا يأتي الكفر إلا من جراء الفجور. لقوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾.

إن القلب ليصدأ من جراء المعاصي والآثام وأعني بذلك النفس أو الروح، فيكون هذا الصدأ حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، لقوله تعالى: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

وإن هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس، كما أن هناك تلازماً بين المعاصي وتسافل النفس. فلا يجزى الانسان إلا من نوع عمله. صالحاً أو فاسداً ان الله تعالى يقول: ﴿إنما تجزون ما كنتم تكسبون﴾.

وفي آية أخرى: ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾.
وفي أخرى: ﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

وإن هذا الحجاب الحاجز عن رؤية الحق قد يكون كثيفاً إلى درجة يجعل صاحبه ساخراً من الذين آمنوا متهماً إياهم بالخرافة والرجعية، والواقع ان الرجعية هي الرجوع عن الحق إلى الجاهلية الجهلاء. ان الله تعالى يقول:

﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾.

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم إلا لاجرامهم السابق. ثم يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وإذا مرُّوا بهم (أي بالمؤمنين) يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين﴾.

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم عن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصليها لربه.

﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

نعم، فقد ذهبت عقولهم، ذلك العقل الفطري الذي أودعه الله في الانسان، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل. ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه. إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً» (٥٧ ـ سورة الكهف).

فالله جعل على قلوبهم أي عقولهم أكنة، أغطية وأستاراً حتى أمسوا لا يرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها وإصلاحها. إن الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾.

ومعنى ذلك: أن تماديهم في فسوقهم جعلهم ينسون أنفسهم ويهملوها، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبي

لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم (ع) نبياً. لتسبق الهداية الخلق اهتماماً بأمر تكامل البشر. ولكنهم لكثرة ذنوبهم وبغيهم أصبحوا لا يعون ولا يشعرون، فلا يفيد فيهم النصح والهداية. إن الله تعالى يقول: «ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. أي أن التمادي في الجرائم والموبقات حجبت الأنوار الإلهية عنهم حتى صاروا لا يفكرون في مصيرهم موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء. وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده حتى جاء في الحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب عليه). فالله تعالى قد أفاض برحماته على البشرية جمعاء. ولكن أكثر الناس أبوا إلا الخروج عن طاعته. أنه يقول:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

وإن ما يصيب الانسان في حياته الدنيوية من فقر وسقم و. . . إنما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه. فهي رحمات وألطاف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب. وفي الحديث: ﴿ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر﴾ وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج إلا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة. ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال إلا به. وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول‌الله (ص) ان الله تعالى يقول: ﴿وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده أو بضيق في رزقه وأما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة﴾.

دين الاسلام دين التكامل البشري بكل ما في التكامل من معنى سامٍ رفيع. تكامل في عالم النفس والروح لا في عالم المادة فحسب. ذلك لأن الانسان انسان بنفسه وروحه وليست المادة من حقيقة الانسانية في شيء.

لذلك جاء في الحديث (الصلاة معراج المؤمن). والتقوى أساس التكامل النفسي قال رسول الله (ص): «ما اتقى الله امرؤ إلا جعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لا يحتسب». والتزكية هي نوع تكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً. إن الله تعالى يقول: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. وفي آية أخرى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾.

فالعمل بما أنزل الله مؤدٍ إلى التزكية والتطهير. وإعطاء الزكاة مزكٍ للمال ومزكٍ للنفوس. والكفارات ورد المظالم مزكية للنفوس عن الذنوب. والحدود والقصاص كذلك. وكلها مراحل يدرج فيها الانسان في ساحات الكمال. ساحات ليس لعقولنا أن تحدَّها. فالكمال الذي منَّ الله به على الانسان كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى. حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي: ﴿عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. وذلك باذنه تعالى كما كان لأنبيائه (ص) وأوصياء أنبيائه (ع) باذنه تعالى. وينحط الانسان في أودية الضلال والتيه والتسافل إلى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾. (١٧٨: آل عمران). ان الله تعالى يقول: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

أنظروا إلى هٰذا الحديث النبوي لتروا مدى اهتمام الدين الاسلامي بنظرية التكامل والكمال البشري. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من استوى يوماه فهو مغبون. ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون. ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله. ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته».

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الاسلامي الذي أخذ

يجاهد نفسه ويخالفها في مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية «ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي» كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الامارة بالسوء. ان الله تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.

وعن الامام موسى بن جعفر (ع) عن أبيه أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس، ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه». وفي حديث علي عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

إن الله تعالى يقول: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾. كل ذلك يشير إلى أن درجات الهداية والكمال درجات عديدة لا يمكن للبشر تحديدها: ﴿هم درجات عند الله﴾. (١٥٧: آل عمران) وفي آية أخرى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾. (٢: سورة الأنفال).

فالمؤمنون متفاوتون في درجاتهم عند ربهم حسب مراتب تكاملهم النفسي. تكامل ليس للانسان أن يحيد عنه، فإذا حاد عنه رجع إلى تسافل حيث لا تسافل بعده. وهذه هي الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة. وكان من الذين خسروا أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (١٠٤: الكهف) فمآله جهنم حتى يطهر في لظاها وسعيرها. لأن الله لا يريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق. فكما أن الجراثيم والمكروبات المؤذية تعقم بالماء المغلى هكذا الجراثيم البشرية تعقم بالنار. ونستجير بالله من ذلك.

فأنت أيها القارىء الكريم ترى في فصول هذا الكتاب بعض ما جاء في

الدين الاسلامي من أحكام، وكيفية تكميل هذه الأحكام النفوس البشرية، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة في مال أو سمعة، وترى كيف تنقشع أمامك بعضُ الشبه التي أولدتها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات.

وبالختام أسأل الله تعالى أن تستفيد الشبيبة بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرك جوارحهم إلى العمل بما أمر الله تعالى خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين، فتطهر بذلك نفوسهم وتتكامل أرواحهم فيرون أنفسهم في عالم من القدسية بعيد عن حدود الوصف والبيان. وأن يمنَّ عليَّ بتقديم كتب أخرى على هذا المنوال تتناول عملية تكامل الدين الاسلامي للنفوس البشرية التائهة لا سيما في عصر طغت عليه المادة، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات. فأصبح الرجل الديني مهيناً ممقوتاً وذنبه أنه يعبد الله تعالى، مؤتمراً بما أمر الله، متناهياً عمّا نهى الله، والمتجاهر بالفسق موقراً محبوباً. وليعلم الشاب أن الدين الاسلامي دواء الروح وقانون تكامل النفس الانسانية والمجتمع الانساني، وان العمل بنصوص الدين الاسلامي يؤدي إلى تكامل في المعارف الإلهية وإلى تكامل اجتماعي. قال علي (ع): «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوي: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحاً قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وأصلحوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا. أيها الناس أن أكيبكم أكثركم للموت ذكراً وأن أحزمكم أحسنكم استعداداً له. وان من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور».

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين.

* * *

لماذا وجدنا؟

سؤال يتبادر إلى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت إليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته. فمنهم من يقول وجدنا لكي نأكل ونشرب ونتلذذ في هذه الحياة ونفنى. لذلك يحاول أن يزداد تلذذاً وسروراً. فيسعى ليأكل لذيذاً ويشرب مريئاً وينام هنيئاً. وليست له غاية سوى الأكل والشرب والنوم. ومنهم من يقول: وجدنا لكي نخدم الغير فهو يعمل في خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه. وقد يكون هو أحوج الناس إلى الاصلاح لما في نفسه من الدنس والرجس. ومنهم من يقول وجدنا للشقاء. فالحياة كلها شقاء. فهو متشائم معذب. ونريد الآن أن نتحقق عن السبب الذي وُجدنا لأجله. فإذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا عملنا وفق تلك الغاية ونلنا السعادة. لأن السعادة إنما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة.

لننظر إلى ما حوالينا من نبات وحيوان وجماد. نرى أنها كلها خلقت لأجلنا. هذه الأزهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والأشجار المختلفة والعقاقير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغذي والتداوي إلى ما هنالك. يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[1]. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[2].

---

(١) أي: ترعون ماشيتكم. ذرا: أي خلق مؤاخر: أي جارية في الماء.

(٢) سورة النحل: ١٠ ـ ١٤.

وأما الحيوانات فقد سخّرت لنا للأكل والركوب والستر. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد من تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم﴾.

وأما الجماد فسخّر لنا للبناء والزينة والتداوي وفوائد أخرى لا تعد. يقول الله: ﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

إذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خلقت لأجلنا وكذا الجماد والنبات، فلماذا خُلقنا نحن مع علمنا أننا غير مسخرين لموجودات أخرى. وكلها مسخرة لنا، إذن ما الغاية من وجودنا؟.

مع العلم أن الذي خلق الأكوان بهذا الترتيب الرائع البديع، الذي نظم الأفلاك بدساتير رصينة رياضية متقنة يحار فيها علماء الفلك العالي، الذي شكّل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسية منظمة. أشكال مجسمة منتظمة الوجوه، الذي حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلومتر في الساعة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يلهو أبداً.

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾. ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾.

فتبين من نظم خارقة رائعة نشاهدها في المخلوقات أن الحكمة متجلية في كل زاوية من زوايا الكون. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾. فكيف يجوز على الله أن يخلق الانسان ويخلق لأجله جميع ما حواليه ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله.

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الانسان غاية دقيقة وهدفاً عالياً يجب أن نتحراه. نرى أن ما حوالينا من الأشياء في غاية الكمال: فالحشرة كاملة في العالم الذي هي فيه. والذرة كاملة غاية الكمال: الألكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام. يتجـاذب الجسمان بقـوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما مضروباً في النسبـة الثابتة. ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودَع من قبل الخالق جل جلاله في هذا الكون، لأمكن إملاء كتب عدة بل كتب لا تتناهى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله أن الله عزيز حكيم﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

إذن كل شيء في هذا العالم ينادي بكمال الله تبارك وتعالى وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسّبح بحمده﴾.

فكيف يجوز على الانسان أن يحيد عن سنّة الكمال في عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً في عالم التكامل.

للانسان جنبتان: جنبة مادية وهي البدن الذي رسمه الله تبارك وتعالى واتقن صنعه. فيه حركات غير إرادية لا دخل للانسان فيها. وجنبة روحية هي حقيقة الانسانية وهي الانسان حقاً. فالانسان انسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه. نعم، لقد بلغ المذهب المادي في أوروبا في القرن التاسع عشر إلى حد قال أحد رجال المادة فيها: ان الانسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الاوكسيجين وكذا غراماً من الكالسيوم... الخ كمعادلة كيمياوية وليس وراء ذلك شيء!...

والفرق بين تكامل الإنسان الروحي وتكامل المادة بأن كمال المادة كمال قسري قهري وكمال الانسان الروحي كمال اختياري.

اتضح مما ذكرنا أن الانسان خلق ليتكامل. والآن نتساءل بم يحصل هذا الكمال الروحي؟ وهل هذا الانسان المملوء من الشهوات؟ وهل هذا الانسان

الذي يحمل نفساً أمارة بالسوء يستطيع أن ينظم لنفسه مناهج روحية صحيحة تؤدي به إلى الكمال المنشود، ذلك الكمال الذي خلق الله الانسان لأجله؟. وهل لفيلسوف من الفلاسفة أن يضع منهجاً روحياً يؤدي بالانسان إلى الغاية التي خلق لأجلها ويحقق علة الوجود. فما هذا الاختلاف إذن بين آراء الفلاسفة وما هذا التضارب في أفكارهم؟ وهل الفلاسفة استطاعوا أن يوجدوا انسانية متكاملة، كما يريده الله تعالى أم هل تمكنوا من إصلاح أنفسهم؟!.

إن الكمال النفسي أمر غير عادي، وان الانسان كثيراً ما يوفق في اصلاحات مادية واكتشافات مادية كما شاهدنا ذلك لا سيما في القرن الأخير. ذلك لأن الخواص المادية ثابتة لا تتغير ويصل اليها الانسان بأسلوب مادي وأعني به الاختبار والتجربة والمشاهدة، ولكنه لا يقوى على وضع مناهج روحية صحيحة تأخذ بالروح الانساني إلى ذروة الكمال. وقد قال كوستاولوبون: «علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فلا بد لنا من أطباء روحيين عالمين بخصائص الروح كي يأخذوا على عواتقهم تكامل الانسان الروحي، وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين. فهم بمناهجهم المتينة التي تأتي من وراء المادة لاصلاح ما هو وراء المادة (أي النفس) يوصلون الانسان إلى ذروة الكمال، فيعرفون الله ويبينون الحلال والحرام والمدارج التي لو سلكها الانسان لبلغ مرتبة الكمال المنشود، ولتقرب شيئاً فشيئاً من معرفة رب العباد. وقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف».

أترى أن من لم يتبع مناهج الأنبياء الروحية تكون له نفس قمينة بأن يحلّ فيها حب الله، وبأن يعرف الله تبارك وتعالى. فإن معرفة الله تتناسب مع الكمال النفسي: «من عرف نفسه فقد عرف ربه... الحديث» ولا تتأتى هذه المعرفة إلا بعبادة الله تبارك وتعالى. فكلما عبد الانسان ربه بخشوع وخضوع، عبده بصلاة مقبولة وحج مقبول وزكاة مقبولة وصدقات مقبولة وخمس مقبول وجهاد مقبول وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر خالصاً لوجهه الكريم، عبده بأعمال صالحة كان أقرب إلى معرفة الله تبارك وتعالى، قريباً من الغاية التي وجد لأجلها. وما قدمناه شرح للآية الشريفة: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا

ليعبدون﴾. فالعبادة ليست الصلاة والصوم فحسب بل تتجلى العبادة في الصلاة والصوم والزكاة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأعمال الصالحة كقضاء حوائج الناس وصلة الرحم وبر الوالدين والتخلق بالأخلاق الاسلامية والتفقه في الدين والاعتبار بما أودع الله في الطبيعة من قوانين وخواص. نعم تتجلى العبادة في تطبيق السنن والفرائض التي بها يكون الانسان انساناً كاملاً. فتزداد بدرجة تطبيقه وإخلاصه معرفته بالله تعالى. فان الله لم يخلقنا إلا لأجله أي لأجل أن نعرفه ونزداد معرفة به يوماً بعد يوم. فقد جاء في حديث قدسي: ﴿خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي﴾.

فطوبى لمن أدرك الغاية وعمل في تحقيقها ولم تخدعه زبارج الدنيا ومغرياتها ومناصبها فخرج من هذه الدنيا طاهراً مطهراً نقياً فقد ﴿حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات﴾.



ماذا يراد من الدين؟

كثيراً ما يدور على ألسنة بعض الشبيبة المثقفة: أن الدين لم يعلمنا شيئاً عن الكيمياء والفيزياء، ولم يقدم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكي وغير ذلك. وان المكتشفين والمخترعين كنيوتن، وهرتز، وأديسون، ودالامبر قدموا إلى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ووسعوا أفق العلم وفتحوا أذهان الناس وسخروا الطبيعة، فأفادوا العالم بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم. فأي اكتشاف قدمه أحد الأنبياء؟ وأية ماكنة اخترعها الأوصياء؟ فيصغر في أنظارهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين ويصغر الدين معهم، فيرونه فارغاً خالياً من مادة مفيدة، فيعدونه خرافة وزخرفاً من الزخارف، أو بلاءاً مانعاً عن التقدم. فتراهم يأبون من أن يوردوا اسم الله أو يقولوا «بسم الله الرحمن الرحيم». ويعدونها تقهقراً إلى الوراء أو منقصة في لغة الثقافة الحديثة أو وصمة خرافية يوصم بها قائلها، يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ويوقرون الفلاسفة أحسن توقير، فإذا ذكر اسم أحد الأنبياء سخروا منه وتبسموا تبسماً فيه شيء من الازدراء والتوهين. كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيمياوية ودساتير فيزياوية. أو معادلات تفاضلية أو دستور الكسوف في الفلك العالي أو معادلات الحركة في الميكانيك الرياضي!..

وقد فاتهم أن الانسان مكوّن من نفس وبدن فكما أن للبدن أمراضاً وحاجات، فكذلك للنفس أمراض وحاجات. وأن حاجات البدن ترجع إلى قوانين ثابتة مستقرة يصل إليها الانسان بالاختبار والتجربة والمشاهدة عاجلاً أو آجلاً. فان الخاصية المودعة من قبل الله تبارك وتعالى في الأجسام ثابتة لا تتغير، بل يظفر بها الانسان عن طريق الفحص والتتبع والتجربة والصدفة.

(الأجسام تسقط. حجمان من غاز الايدروجين وحجم من غاز الاوكسيجين بعد إمرار تيار كهربائي يتحدان ويشكلان ماءاً. الحرارة تمدد الأجسام. إلى ما هنالك). فالمخترع لا يأتي بشيء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله في هذا الكون بتجارب ومحاكمات، وعقل منحه

الله إياه، ولولا العقل والمحاكمات والاستنتاج والاستقراء لما قوى على ذلك. وبالعقل يمتاز الانسان عن الحيوان. وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة.

وهل يستطيع مخترع أن يأتي بخاصية غير ما أودعه الله في الأجسام؟ كلا. فالاختراعات أمور مادية ثابتة لا تغير فيها، يصل اليها الانسان باختباراته، ولا حاجة إلى نبي يملي على الناس الدساتير الفيزياوية والكيمياوية. والدليل على ذلك وصول الانسان بنفسه إلى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه ولا يعلم هل تقدم الانسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحياً وأخلاقياً أم تقهقر؟ وهل استفادت الانسانية وقطعت بذلك أشواطاً في الكمال النفسي والسمو الخلقي أم لا؟ ثم أترى أن لخواص الأشياء ودساتير الفيزياء حداً ونهاية؟ فان علم الله لا نهاية له، والخواص والدساتير التي أودعها الله في هذا الكون لا نهاية لها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

الأنبياء سلام الله عليهم بعثوا لاصلاح النفس وتهذيب الروح. لأن الانسان انسان بنفسه وروحه، وان أمراض الروح أعقد من أمراض البدن، وإن معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن. إن وصفات الأطباء تعالج الأبدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط وكان التشخيص صحيحاً. إلا أن الوصفات الروحية تؤثر في كل نفس حسب قابلية تلك النفس. فهي مشتبكة مرتبكة.

إئتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالملاريا. فانهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلاً أو آجلاً. ولكن لو أعطى لنفس هؤلاء الثلاثة دساتير روحية وطبقوها لا يصلون إلى نفس النتيجة. وكل يصل إلى غير ما وصل إليه الآخر لو عورة أمر النفس وصعوبته. وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول. وعلى فرض وجود قوانين نفسية ثابتة ليس للانسان بما هو انسان أن يكتشفها وإن ما يكتشفه في هذا الحقل خيالات وأوهام. يظنها حقائق ويتلذ

بها. ذلك لأن الأساليب المادية لا تقوى على حل غوامض ما وراء الطبيعة. وقد يمكن تشبيه ذلك بالمعادلات العالية في الرياضيات كـ (ع = جا س) التي لا تقبل فيها (س) و(ع) التضعيف والتنصيف في وقت واحد أو بمعادلات الكميات المبهمة أو المحدثة التي نشاهدها في الهندسة التحليلية أو الجبر العالي، وان بعد التشبيه. نعم إنا كثيراً ما نشاهد في كتب الفلسفة وعلم النفس استعمال الحساب التكاملي Integration عند البحث عن الاحساس والشعور ولكن ذلك غير ثابت ولن يثبت وإنما مجرد اقتراح واحتمال. فلا سبيل إلى قياس القضايا الروحية بمقاييس مادية.

الأنبياء (ع) بُعثوا ليعالجوا ما لا يصل الانسان بنفسه إلى طريق معالجته. بعثوا ليعالجوا أمراض النفس، هذه النفس الأمارة بالسوء التي يرقبها الشيطان في كل آن وهو لها بالمرصاد.

بُعثوا ليقرروا دساتير روحية بها يتكامل الانسان ويخرج من دور الطفولة والبهيمية والوحشية فيكون انساناً كاملاً بل أعلى مرتبة من الملائكة فتكون الملائكة إذ ذاك خداماً له.

بُعثوا ليحرروا النفس الانسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولؤم. بعثوا ليقرروا الآداب التي لو عمل بها الانسان كان جديراً بأن يخلد مع الأنبياء والصديقين في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾. بعثوا ليعلمونا الطرق المقربة إلى الله، وكيفية عبادته تعالى وطرق الشكر.

بعثوا ليعلمونا الحلال والحرام، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال. بعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع. بعثوا ليعلمونا الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس وتخرج من الظلمات إلى النور: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. بعثوا ليبينوا للانسان ما له وما عليه، ليحاسب نفسه كل يوم ولا يتكبر فان الله تبارك وتعالى يقول: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾.

بعثوا ليجعلوا الانسان بين الخوف والرجاء فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح، ويبعد الانسان عن الموبقات والمناهي. فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح: «لو وُزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما. وإذا عظم الخوف كان أدعى إلى السلام». وفي حديث آخر:

«إن الله أنزل في بعض كتبه وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين. إذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»، وقوله تعالى في امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام: ﴿انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾. وهي ذكر الآخرة والتهيؤ لها.

بُعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقرباً بالطاعة. فان الكمال الانساني يتناسب تناسباً طردياً مع التقرب إلى الله جلّ شأنه، ثم يزداد اطمئناناً كلما زادت هذه الرابطة فأنه تعالى يقول: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

بُعث الأنبياء لإبلاغ الانسان إلى ﴿ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾.

فالأنبياء يخاطبون النفس، لأن هدفهم تكامل النفس وما جاء في تعاليمهم صلوات الله عليهم مما يتعلق بالبدن والمأكل والمشرب إنما هو من باب اللطف، أو لأن لذلك أثراً حسناً في تكامل النفس. إذ أنه ما من شيء يدخل في جوف الانسان وما من حركة يقوم بها الانسان إلا ولها أثر في تكامل النفس. ولعلنا نوفق إلى تفصيل ذلك في كتاب آخر إن شاء الله.

وقد بلغني أن شاباً كان يفاضل بين سياسي فتح الامصار وبين نبي هدى الناس سواء السبيل. حين أن ذلك السياسي لم يعمل إلا في تعمير المعدة والامعاء، والنبي (ص) يعمل في تعمير النفوس والأرواح. وما قيمة عمران تفسد فيه الروح. ولو كان في استطاعة الانسان أن يصل بعقله إلى الدساتير المثلى التي بها كمال النفس ونجاتها وفوزها لما أرسل الله الأنبياء ولـو كل الانسان إلى عقله. ولكن العقل تغلب عليه الشهوات فينقلب إلى أهـواء بصورة عقل ويؤدي بالشخص إلى أسفل درك من الجحيم. يقول الله تبارك

وتعالى: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾. ولقد توالى عدد غير قليل من الفلاسفة ورجال الأخلاق: اختلفت مشاربهم ومآربهم وآراؤهم ولم يتمكنوا إصلاح أنفسهم فكيف بالآخرين.

الأنبياء بُعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التي بها كمال الروح والسعادة الأبدية ولكي يكونوا قدوة صالحة.

فمن من هؤلاء الذين هم خطباء الأخلاق، وبتعبير أقرب: كتاب الفضيلة بلغ من الفضيلة مرتبة سامية تؤهله ليكون قدوة لغيره كما يرتضيه الله تبارك وتعالى. فقد رأيت أستاذ فلسفة الأخلاق في احدى الجامعات أبعد شخص عن الأخلاق وأسوأ قدوة للمثل العليا، ما ترك منكراً إلا وارتكبه، فإذا سألته عن سبب ذلك أجاب بجواب خيالي سوفسطائي شعري لا قيمة له.

وإن بعض الأنبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم ما به يدفع الشر ويجلب الخير. فهذا داود عليه السلام، علم الناس ـ بعد أن علمه الله تعالى ـ عمل الدروع وهو قوله تعالى: ﴿وسلسلة صنعة لبؤس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾. وأن النبي صلى الله عليه وآله قد سئل عن مسائل عدة في فنون مختلفة لا علاقة لها بالدين فأجاب عنها بوحي من الله دونما تفكير. وتفصيل ذلك يحتاج إلى مقال خاص، وان علياً (ع) سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل في الفيزياء والفلك والحيوان والنبات عجز عنها الناس فحلها بصورة مرتجلة. وان الصادق (ع) أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفي خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية. وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ يروون عن علي (ع) موازين الصناعة. فالنبي على ما نعتقد هو أعلم أهلٍ زمانه حتى في علوم لا تمت إلى الدين بصلة تمييزاً له عن سائر الناس وتفضيلاً له على الآخرين.

فمن أراد الحياة الأبدية، حياة رفيعة متصلة بالكمال الأبدي، حياة ليس فيها خوف ولا حزن، حياة فوق حدود التصور والخيال، فليعمد إلى تطبيق

تعاليم الدين الحنيف ليرى كيف يتجلى يوماً بعد يوم وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائراً إلى أوج الملكوت. ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.



دين العقل

يمتاز الدين الاسلامي عن سائر الأديان بأن كل ما جاء فيه يوافق العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية غير الملوث بالمعاصي والآثام. وقد أعطى للعقل قيمة سامية وجعله آلة التمييز. فقد قال تعالى: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾. ولا يمكن تشخيص أحسن القول إلا بالعقل المجرد عما يلوث النفس ويوبقها ويرديها. فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال: «ولما خلق الله العقل استنطقه ثم قال: أقبل فأقبل. ثم قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما أني إياك آمر وإياك أنهي وإياك أعاقب وإياك أثيب». نستنتج من هذا الحديث بقول الله: (أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر): أن العقل بصورة فطرية وطبيعية يطيع أوامر الله تعالى. إذ أن أوامر الله منطقية وطبيعية ولا تخالف الفطرة وان الاطاعة صفة غريزية في العقل. وهذا هو معنى الفطرة. وبهذا أتم الله الحجة على عباده، فلا يغفر الله لمن أشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء: ﴿ان الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾. (سورة النساء: ٥٢). يقول الله إتماماً لحججه على الخلق أجمعين: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾. فالله تبارك وتعالى قد أشهد الناس في عالم الذر على أنفسهم وأخذ منهم الاقرار والاعتراف بربوبيته تعالى. فليس لأحد أن يقول: لو شاء الله لكنت مؤمناً، لأن الله الآمر بالايمان والغارس روح الطاعة والتمسك بالوحدانية في عقل الانسان ونفسه لا يريد بالانسان إلا الايمان به والاطاعة له. ثم جاء في ذيل الحديث: ﴿ولا أكملتك إلا فيمن أحب﴾. أي أن الله لا يكمل إلا عقل من يحبه. وكيف تحصل هذه المحبة؟ أليس بالطاعة؟ أي باجتناب كل ما نهى عنه العقل والشرع، وبالقيام

بكل ما أمر به العقل والشرع. اذن أقرب الناس إلى الله أكملهم عقلاً. وأبعد الناس منه تعالى أضعفهم عقلاً. فالعقل: ﴿ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان﴾ كما جاء في الحديث.

إن الدين الاسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعمق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن كل عصبية ووسوسة. وهو القائل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾. ان الله تبارك وتعالى قد عظم أمر العقلاء وخصص التدبر في آياته بهم بقوله: ﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾. وبقوله: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾. وبقوله: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. فالقرآن يدعو الناس إلى التعقل ويخاطب العقل في كثير من آياته. ولا يريد بالناس أن يقبلوا شيئاً دونما تعقل ودونما برهان. فدين الاسلام دين البرهان ودين الدليل. يقول الله تعالى في لزوم اتباع البرهان والدليل: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. نعم، هناك آيات كثيرة في القرآن تأمر بالتعقل، وتحذر العباد من عدم التعقل والتفكر بقوله: ﴿ومنهم من يستمعون اليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾. ثم أنه يمدح المتفكرين بقوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذلك يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. فطريقة القرآن في الدعوة إلى الحق هي طريقة العلوم الطبيعية الحاضرة. تستند إلى التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج. نعم، ان موضوع الآيات الكريمة المتقدمة وكثير من آيات أخرى هو نفس موضوع العلم الطبيعي بأوسع معانيه ما عرفه الانسان وما سيعرفه. لأن العلم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونية طبائعها وخواصها والعلاقات التي بينها

ولكنها لا تصل إلى حقيقتها. فالعلم الطبيعي موضوعه آيات الله المودعة في الأشياء كلها. ان القرآن جاء بأصول المشاهدة والطريق البرهاني في وقت كان الغرب فيه جاهلاً هذه الأصول. لأنهم كانوا يعتقدون أن الانسان يصل إلى ما يشاء بطريق عقلي بحت دون أن يحتاج إلى التجربة والمشاهدة. كانوا كثيراً ما يكتفون للوصول إلى الحقائق العلمية وأسرار الكون بالجلوس والتفكر. فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق دون أن يدعمها دليل. ثم يبنون على هذه القضايا الموهومة قضايا أخرى هي أوهن من بيت العنكبوت. كان يقول فيثا غورث عن الكون: أنه متفرد كامل كروي، لأن الكرة أكمل الأشياء. وأنه حي عاقل، لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي وعاقل. فان القرآن ينكر مثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي. وقد أدى بالفلاسفة التخيل الباطل في ساحات العلم حتى قالوا: ان للأجرام السماوية في أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها، وان لهذه الأجرام أثراً كبيراً فيما يصيب الانسان من نحس أو سعود. وقد سرت هذه الفلسفة الزائفة إلى الشرق وأدت إلى تبلبل العقائد وإدخال كثير من الخرافات في الدين الاسلامي. وان فلاسفة الاسلام أخذوا يفسرون الدين الاسلامي على ضوء هذه الخرافات ويؤولون القرآن وفق نظريات أفلاطون وأرسطو. ذلك لأن علماء القرون الوسطى وهم تلامذة الفلسفة اليونانية ما كانوا يعتمدون على عقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم وإنما كان الدليل رأي الفيلسوف. فكل ما وافق رأي الفيلسوف فذاك علم وذاك هو الحق، وما خالف فليس بعلم. إلا إذا أمكن ارجاع ذلك بتأويل ما إلى ما يقوله أفلاطون أو أرسطو مثلاً، دون أن ينظروا في حجة أرسطو وأنه منطقي تؤيده التجارب والمشاهدات والمحاكمات الصحيحة أم لا. فابتلى الدين الاسلامي بشتى الخرافات وشتى المذاهب أتته من الفلسفة اليونانية. وقد عالج ذلك بعض علماء الاسلام ولكنهم لم يستطيعوا قلعها وقمعها. مع أن الدين الاسلامي ينهي عن كل خرافة وكل ما لا يؤيده العقل والمنطق الصحيح والحجة القطعية وينهي عن اتباع الظنون والتخيلات الواهية، بقوله: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وأن أنتم إلا تخرصون﴾، وقد أمر باتباع العلم الصحيح وأثنى على العلماء ومدحهم في كتابه المجيد بقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر

والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾. ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾.

أنظروا كيف يؤيد القرآن طريقة التجربة والمشاهدة واستعمال الحواس الخمس. يقول الله تعالى في لزوم استعمال البصر والعقل: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾. ﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت﴾. ويقول تعالى في لزوم استعمال السمع مع العقل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾. ويقول جل جلاله في لزوم استعمال السمع والبصر مع العقل: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾. ويقول تعالى في لزوم استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾. وهكذا يحث القرآن الكريم على استعمال جميع الحواس والمواهب للوصول إلى أحسن سبل الهداية بقوله تعالى: ﴿فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾. (سورة الزمر).

فالدين الاسلامي يخاطب العقل ويحث على التمسك بالبرهان والدليل وينهى عن الظن والتخيل والخرافات ويأمر باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج وينهى عن المغالطة والتدليس. ولا أعلم ديناً أو مبدءاً أو مسلكاً أو طريقة عدا الدين الاسلامي جعل البرهان شعاراً وطرق التجربة والمشاهدة معياراً وترك الظن والخيال دثاراً. ذلك لأنهم إن فعلوا ذلك أخفقوا ولم يجدوا من تابعين.

(٢)

قد بينا في المقال السابق أن الله تعالى قد أودع في الانسان عقلاً لو لم يلوث بالذنوب والمعاصي ولم يترد ولم يتسافل يهتدي به الانسان إلى أحسن

السبل وأنجعها، ويعترف بربوبيته تعالى وبوحدانيته، وتكون درجة هدايته متناسبة مع درجة طهارة عقله ونفسه. هذا مونتني الفيلسوف المربي قد وصل بعقله أي بطريق المشاهدة والتفكير إلى وحدانية الله تعالى وأنه خالق كل شيء. أنه كان يقول: ليس للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، لأنه عاجز عن أن يتصرف في نفسه، فلا بد أن يكون خالق الذكر هو الذي قد خلق الأنثى لإدامة النسل البشري. وان الله يقول في قرآنه الكريم: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها﴾. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. فقد بلغ مونتني بتفكيره الطبيعي إلى مفاد الآية الشريفة المذكورة. ذلك لأن الله تعالى قد أودع قابلية التفكير والتدبر في خلق السموات والأرض في الانسان بصورة طبيعية: ﴿أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. فالانسان يصل إلى الاعتراف بالله وبوحدانيته تعالى لا محالة إن لم تدنس نفسه بالجرائم والموبقات والانغماس في الشهوات، فتفسد هذه القابلية وتمحى هذه الموهبة. فيكون أعمى لا يبصر الحق في الدنيا ويحشر أعمى في الآخرة. إذ يقول عند الحشر: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾.

وقد قلنا في مقال سابق أن الفلسفة اليونانية المملؤة بشتى الخرافات قد أثرت في الدين الاسلامي وأدخلت فيه جملة من الخرافات: كالاعتراف بأثر النجوم وحركاتها وأوضاعها في سعادة الانسان وشقائه. وقد نفى الاسلام ذلك وشدد النكير عليه وعلى أمثاله وفسر القضاء والقدر تفسيراً هو غاية المنطق وتمام الحكمة ولا مجال هنا لتفصيل ذلك. وان امير المؤمنين علياً عليه السلام: أظهر لبعض أصحابه عزمه على المسير إلى الخوارج، فقال له أحدهم: يا أمير المؤمنين ان سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم، فأجابه (ع): «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر. فمن صدق

بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه. لأنك بزعمك، أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر. ثم أقبل (ع) على الناس فقال: «أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فانها تدعو إلى الكهانة والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار، سيروا على اسم الله». فبدد علي (ع) شمل الخوارج وكان النصر حليفه، خلافاً لما ادعاه من كان يعترف بتأثير النجوم في الفتح والنصر.

إن الدين الاسلامي يشجع كل علم يؤدي إلى انفتاح البصائر وينير الطريق ويهدي الناس إلى الفلاح والصلاح ويحبذ تعلم علم الفلك أو الهيئة، ويُدرس علم الهيئة مع العلوم الدينية في كليات العلوم الدينية على اختلاف مناهجها. وقد ألفت كتب جمة من قبل علماء المسلمين في علم الفلك لمعرفة القبلة والاستهلال والوقوف على بعض ما أودع الله تعالى من نظم ثابتة متقنة ودساتير رياضية محكمة في سير الأفلاك والأنجم. ولكن الدين الاسلامي يستنكر كل خرافة تؤدي إلى الوسوسة ورخاوة الأعصاب والفتور والقنوط كالاعتقاد بتأثير أوضاع النجوم في نحس أو سعود. فعن النبي (ص): من صدق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد (ص). وعن الصادق (ع): «إن المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون» وفي رواية عبد الملك بن أعين المروية عن الفقيه: «قلت لأبي عبد الله (ع): أني قد ابتليت، فأريد الحاجة. فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها، فإذا رأيت الطالع الخير، ذهبت في الحاجة. فقال لي تقضى، قلت نعم. قال: أحرق كتبك».

إن الدين الاسلامي ينهي عن كل ما يجعل الانسان خيالياً خاملاً ذليلاً في حياته ويأمر بكل ما يجعل الفرد كاملاً نشيطاً، فعالاً، مقداماً في حياته. إنه ينهي عن السحر والعمل به ويعدها من المعاصي الكبيرة. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل

هاروت وما روت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق. ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾.

ان الله تعالى يقول: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾. فتعليم السحر كفر بنص هذه الآية الشريفة، والعمل به وإضرار الناس بسببه معصية كبيرة. وكذا يستفاد من قوله تعالى: فلا تكفر، أن العمل بالسحر على حد الكفر. ثم يقول الله تعالى في الآية الثانية: ﴿إن الايمان والتقوى بابان لنيل مثوبة الله تعالى وطريقان قويمان للسعادة. فلا ينبغي أن يسلك أحد لنيل مآربه المشروعة طرق السحر والخيال، بل ينالها من طريق الايمان والتقوى والعمل الصالح والفعالية والجد في الطرق المشروعة الموافقة للشرع والعقل﴾. ان الدين الاسلامي ينهى عن اتباع الخيال وكل خرافة مبدؤها الخيال والظنون. لذلك يعبر عن السحر بالخيال بقوله جل من قائل: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

إن الدين الاسلامي حرَّم إحضار الأرواح وإحضار الجن والاعتماد على هذه الوسائل الخيالية، على أن هذه الأمور الخيالية التي لا يدعمها دليل قطعي علمي، قد أثرت إلى حد ما في توجيه أوربا نحو الاعتقاد إلى ما بعد الموت وخلود الروح توجيهاً ناقصاً لا يرتضيه العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية.

أنظروا كيف يعظم الدين الاسلامي التفكر والتعقل والتدبر. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ». وقد جاء في الحديث: «تفكر ساعة خير من عيادة سنة». وكان علي عليه السلام يقول: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرىء حتى تكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، فضل ماله مبذول وفضل قوله مكفوف.

نصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، والذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره. والتواضع أحب اليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه. ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر».



العقل والايمان

إن العقل الانساني قد جهز بقابليات ربانية يتوجه بسببها بصورة طبيعية إلى الحق والواقع ويعترف بربوبية الله تعالى وأنه خالق كل شيء وان من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى يجز جزاء حسناً وان من أساء من ذكر أو أنثى يجز حسب عمله، إن لم يمح ذلك بأعمال صالحة أخرى وتوبة واستغفار. ولسائل أن يسأل: فماذا الجحود الذي نشاهده في كثير من الناس، وما هذا الانكار لعظمة الله تعالى؟ ولما يعبد بعض الناس مع مالهم من عقول ما يصنعونه بأيديهم من صنم أو ما يقومون بتربيته وإعاشته من حيوان؟ ألم يمن الله عليهم بعقل أم جردوا من القابليات الفطرية؟ إذن ما معنى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً. فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. لماذا نرى بعض الفلاسفة مع ما أوتوا من قابليات عقلية فائقة ملاحدة جاحدين؟ لماذا بعض علماء الطبيعة أو الفلك غير موحدين؟ لماذا نرى نفراً من الشبان مع دراسات سطحية ناقصة ينكرون الخالق الذي خلقهم وقد تأثروا بسخافات المتطرفين، ونرى شباناً آخرين في مستواهم يعبدون الله تعالى بخشوع وخنوع، يصلون ويصومون، لا تأخذهم في الله لومة لائم؟ نرى علماء درسوا دراسات عالية عميقة متمسكين بالدين غاية التمسك عن دليل وبرهان ويقين، ونرى آخرين مثلهم يحسبون الدين من الأمور الكمالية، لا يفكرون في مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم بعد الموت، ولا يكادون يعتقدون بأمور الآخرة والمعاد؟ ماذا التفاوت وماذا الاختلاف؟ ولقد يحار بعضهم بادىء ذي بدء ويظن أن الله تعالى هدى ثلة من الناس دون بعض، فيسند عدم العدالة إلى الله الذي تنزه عن كل نقص. «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً». ولو رجع إلى نفسه، تلك النفس التي تلوثت بأنواع المعاصي وضروب الآثام، تلك النفس التي لم تطع الله طرفة عين أبداً وقد ملئت ظلماً وجوراً، تلك النفس التي خالفت كل ما أملى عليها العقل بشأن الوالدين والأهل والأرحام والأصحاب وكل ما يحوط به، لعلم أن نفسه هي التي أغلقت عليه أبواب الهداية وأنه هو سبب ضلال شخصه. نعم قد

هيأ الله تعالى له أسباب الهداية ووسائل التوبة والانابة فأبى إلا أن يشرد ويحجم ويثابر في غيه وطيشه حتى اسودت من أوساخ الآثام والاجرام نفسه فأصبحت عمياء لا ترى ولا تبصر الواقع. ﴿ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً﴾. ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾. ﴿إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. فان الاخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الالهية والنفحات القدسية. إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها لم تنضح لها جلية الحق اتضاحاً. وكيف والقلوب كالأواني، فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء. فالقلوب المشغولة بغير الله لا تلج فيها معرفة الله وحبه وأنسه وإلى ذلك أشار النبي (ص): «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض». نعم أن هذه النفوس تضيء وتتلألأ بدرجة تطهرها من الخبائث والأرجاس، فتظهر لها الحقائق بصورة جلية واضحة. فان رسول الله (ص) يقول: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»، فان التعرض للنفحات القدسية الربانية لا يتيسر إلا إذا تجردت هذه النفوس عن الاكدار الناجمة عن الأخلاق الذميمة فكل إقبال على طاعة وإعراض عن سيئة يؤدي إلى جلاء نور القلب فيصبح مستعداً ليفيض بإذن الله علماً ويقيناً وهو القائل: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين». وعن النبي (ص): «من عمل بما علم ورثه علم ما لم يعلم». والضيمر يعود إلى الله. وإن الله تعالى لا يبخل بإفاضاته وأنواره القدسية على عبده وقد وسعت رحمته كل شيء. وإنما العبد هو الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله تعالى وأبواب هداية الله وأبواب المعارف الربانية لقيامه بذمائم الأخلاق وارتكابه ما يؤدي بنفسه المسكينة إلى أسفل السافلين. أنه يطيعها في مشتهياتها ويأتمر بأوامرها، فتحجب عنه تلك الفيوض الرحمانية التي يرافقها من السرور المعنوي ما لا يقوى على وصفه إلا من تشرف به، سرور يفوق أنواع الملذات المادية وأعلاها. «فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». واليه يشير مولانا أمير المؤمنين علي (ع): «ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على

نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه». ويقول صلوات الله عليه في مكان آخر: «قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم الا هماً واحداً، انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

أنظروا ماذا يقول الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام في هذا المقام لهشام. انه صلوات الله عليه يقول: «يا هشام، من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله. ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه. يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك».

فللعقل الانساني افاضات وتوجيهات، لو خلي ونفسه ولم يدنس بالموبقات والشهوات باطاعة النفس الأمارة بالسوء افاضات توصل الانسان إلى أعلى عليين، فيكون أعلى منزلة من الملائكة. فماذا ينتظر هذا الغربي المطيع لشهوات نفسه مذ نهوضه من فراشه إلى حين عودته اليه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله، فان الشهوات قد أغلقت عليه أبواب الفيوضات الربانية والأنوار القدسية الالهية، أنه يعصى الله بنظراته وحركاته وسكناته في كل طرفة عين. حتى أصبح لا يشعر أنه يعصى الله. فقد أمسى الانهماك في الملذات المحرمة والشهوات المنهى عنها عادة ثانية وطبيعة راسخة فيه، لا يتصور طبيعة غيرها. لذلك لا يعد نفسه مجرماً أو عاصياً، فيقول اذا اعترف بالله حيناً، لو شاء الله لاهتديت. والله سبحانه كيف لا يريد هداية عبده؟ فقد أتم الحجة على عباده بتزويدهم بالعقل وبالفطرة التي توجه الانسان إلى الاعتراف بالله وجليل قدرته، وبارساله الرسل مبشرين ومنذرين. وبقوله: «وهديناه النجدين» وبقوله: «فألهمها فجورها وتقواها». ولكنه خالف عقله وأفسد الفطرة بذمائم الأخلاق ومدنسات النفس فأمست هذه الذمائم وتلك

المدسات حجاباً كثيفاً يمنع نفوذ نور الهداية إلى نفسه.

يقول الله تبارك وتعالى: «ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن». ومعنى ذلك: أن الاساءات والأعمال التي تفسد النفس ونفوساً أخرى وكل ما يؤدي إلى الفساد في الأرض لها آثار طبيعية، آثارها التكذيب بآيات الله تعالى وكتبه ورسله والاستهزاء بجميعها. «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». فقد رأينا أناساً كانوا يعتقدون بالله وكتبه ورسله، يصلون ويصومون ولكن غلبت عليهم شقوتهم وأطاعوا شيطانهم ومالوا إلى الدنيا وزبرجها، شهواتها ونزواتها، فدنسوا ولوثوا أرواحهم فانسلخ منهم نور الايمان شيئاً فشيئاً، وتركوا الصلاة وودعوا الصيام. فتركهم اليقين وودعهم الصراط المستقيم، فأخذوا يستهزئون بالمؤمنين. «وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا أن هؤلاء لضالون». ويختلقون لهم ألفاظاً كالرجعية والدروشة والتصوف، وأمثال ذلك، حين أنه لا رجعية ولا دروشة ولا تصوف في الاسلام، وإنما رجوع إلى الحق الصريح الذي يؤيده العقل المجرد عن مدنسات النفس، المنزه عن كل خرافة ووسوسة.



منزلة العقل والعلم

في الدين الاسلامي

بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الدين مجموعة تقاليد لا يدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبر والسؤال والاعتراض، في وقت كان شعار قادة الاديان في مشارق الأرض ومغاربها: (أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى).

جاء الاسلام وهو ينادي بصوت رفيع: «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له». وقد نهى عن التقليد الأعمى وعن قبول شيء دونما برهان ودليل. فقال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله. قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون». وقال أيضاً: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون».

فأول شيء وجه الاسلام عنايته اليه هو تحطيم القواعد التي يقوم عليها الدين من قبل. وهي التقليد الأعمى وإهمال النظر الشخصي وإغفال التفكير الحر ومنابذة العلم إلا ما كان فيه موافقاً للدين في نظرهم ومؤيداً لسلطان المتحكمين في إرادات الناس وعقولهم. ينادي الاسلام بصوت رفيع أن لا اعتبار إلا للعقل وأن لا سيادة إلا للعلم، ودعا إلى النظر والتفكير وتطلب البرهان بقوله في القرآن الكريم في آيات كثيرة: ﴿أفلا تعقلون، أفلا تذكرون، لعلهم يتفكرون﴾، وقوله: ﴿وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾، وبقوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءاً ونداءاً، صم بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون﴾، وقوله: ﴿ومنهم من يستمعون اليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون». وعظم أمر العلماء حتى جعلهم من الشهود على وحدانيته: ﴿شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾. وقد وعدهم درجات رفيعة

بقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. وقد دعا الناس إلى التدبر في أسرار هذا الكون بقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾. وبقوله: ﴿وكأين، من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون﴾. وبقوله: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾.

وقد قرر الأصوليون من علماء الاسلام أن الايمان التقليدي مردود. وعلى كل مسلم الوقوف على أصول دينه بالبرهان العقلي والدليل المنطقي. ولا تقليد إلا في الفروع كأحكام الصلاة والصوم والحج والمتاجر والحدود والديات والفصاص إلى ما هنالك. أن علماء الاسلام يعترفون بمستقلات عقلية. أي أن هناك حسناً عقلياً وقبحاً عقلياً يستقلُّ العقل بادراكهما ويقولون: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل إذا كمل العقل وتجرد عما يلوثه ويدنسه. فان هناك أحكاماً شرعية قد لا يصل العقل إلى معرفة أسرارها وآثارها في تكامل النفس وتزكيتها وتصفيتها حتى تكون قمينة للخلود في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين﴾. ولكن العقل سوف يدرك أسرار تلك الأحكام الشرعية مع تكامل الانسان العلمي والخلقي، فليس من الصواب أن يعترض على بعض الأحكام الاسلامية منَ عليه أن يعترف أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً وأن مجهولاته أضعاف معلوماته، وقد اشتبه في كثير من محاكماته طوال حياته مرات ومرات وقد خطأ نفسه وفند رأيه بعقله وهو يرى أن القوانين الوضعية البشرية تصلح وتعدل من حين إلى حين مع أن الظروف نفس الظروف لم تتبدل ولم تتغير. ولا يعلم أن هذا التعديل كان اصلاحاً أو إفساداً. فمن لم يفهم حكمة حكم من أحكام الدين الاسلامي ولم يقف على علة أمر من أوامر الشريعة الاسلامية، فليتهم نفسه وليسأل من هم أكثر منه علماً وإيماناً ويقيناً، كي يزداد بصيرة وإطلاعاً واطمئناناً. فقد قال علي عليه السلام: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

نعم، قد فتح الاسلام البصائر للنظر والعقول للفهم والقلوب للشعور، لذلك يقول المؤرخ الكبير (سديو): «لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في

تلك القرون المظلمة، فنشروا العلم حيث وطئت أقدامهم». وقد روى اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق (ع): «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة». وعنه (ع): «ليس بين الايمان والكفر إلا قلة العقل». قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال: «إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيته لله لآتاه الذي يريد في أسرع من ذلك». وان هذا لدستور تربوي عظيم يبعث على الاعتماد على النفس بعد الاتكال على الله تعالى ويحذر عن الطريقة الاتكالية. أي الاتكال على الغير سوى الله تعالى. تلك الطريقة التي بسببها ذلت أمم وتدهورت أخرى.

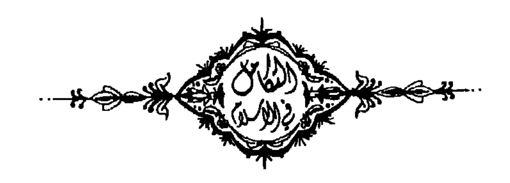
وقد أعطى الدين الاسلامي للعقل منزلة فوق ما أسلفنا، فقد جعله ميزاناً للثواب والعقاب. فعن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا». وقد ذكر عند أبي عبد الله (ع) عبادة رجل ودينه وفضله. فقال عليه السلام: كيف عقله؟ فقيل له: لا ندري، فقال: «إن الثواب على قدر العقل. ان رجلاً من بني اسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة، كثيرة الشجر، ظاهرة الماء وان ملكاً من الملائكة مرَّ به، فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك، فاستقله الملك، فأوحى الله اليه أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي، فقال له مَن أنت؟ فقال: أنا رجل عابد، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: ان مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة، فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً، فقال: وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار، رعيناه في هذا الموضع، فان هذا الحشيش يضيع، فقال له (ذلك) الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك، إنما أثيبه على قدر عقله.

ثم أن الدين الاسلامي قد حذر عن اتباع الوساوس الشيطانية التي تظهر بمظهر العقل والتفكير وهي وبال. فعن عبد الله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة[1] وقلت هو رجل عاقل،

(١) أي كان يعيد وضوءه وصلاته مرات وقد أصيب بمرض الوسوسة فيهما.

فقال (ع): أي عقل لـه وهو يـطيع الشيـطان، فقلت له: وكيف يـطيع الشيطان؟ فقال: سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو، فانه يقول لك من الشيطان». وقد جاء في الحديث: «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً». فترون أن قيمة المرء تتناسب في الدين الاسلامي مع درجة عقله، والعقل حجة الله بينه وبين عباده، فان رسول الله (ص) يقول: «إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة وكثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله».

هذا دين يعلن للناس كافة أن كل ما فيه يوافق آخر ما استطاع أن تصل اليه العقول البشرية، وفيه من الدساتير الحكيمة ما هو فوق العقل البشري، يصل العقل إلى بعض محسناته وفوائده ولا يبلغ كنهه. دين لا يريد بمعتنقيه أن يخفوا ما لديهم من سنن وآداب خشية أن تتحداه بقية الأديان. دين أجدر بعلماء العلوم المادية أن ينكبُّوا على اعتناقه والعمل بنواميسه إن كانوا للعقل والعلم خاضعين، فقد قال رسول الله (ص): «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل فيـه العقل ويكون عقله أفضل من (جميع عقول) أمته. وما يضمر النبي (ص) في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العـاقل، والعقـلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وما يتذكر إلا أولو الألباب﴾.



تأخر العلوم الحديثة عن الدين

إن تقدم العلوم المادية في أوروبا ومعارضة الكنيسة لها أوجدت رد فعل أدى إلى مقت الدين ونبذه ثم إلى معتقدات وظنون بعيدة عن الواقع، ناتجة عن أهواء وشهوات لا يؤيدها أي منطق ودليل. فقلد الشرق الغرب في ذلك، وظن البعض أن دين الاسلام لا يماشي العلوم الحقيقية ويعارضها كما تعارضها الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية اللتين حكمتا على اعدام كل من (سرفيتوس) في ١٥٣٣ م و(جورداتلو برونو) في ١٦٠٠ م، نعم، ان هذا العداء أوجد هذه الفكرة التي أدت بالفيلسوف (كونت) أن يقول: «ويجب أن يتحول الاخلاص الديني من خدمة آله غير معروف إلى خدمة الانسانية! وبهذه الطريقة يصبح الدين وسيلة لضمان وحدة الانسانية وقوتها بدلاً من أن يكون مثاراً للانقسامات والمنازعات». ولم يعلم أنه لم يظفر بدين تطمئن اليه نفسه (وأعني به الدين الاسلامي)، دين يقول لمعتنقيه: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)، (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً). ومتى كانت أوروبا تدين بدين؟ أن أوروبا جبلت على حب المادة وطبعت على حب الشهوات والملاذ من أي وجه حصلت. وقد كان فيها منذ زمن بعيد من مجالس الرقص والمجون والتبرج والفسوق والفجور والخمور والميسر والربا والظلم ما لم يكن في بلاد أخرى. ولا مراءَ أن هذه الموبقات تؤثر في النفس تأثيراً بالغاً وتؤدي بها إلى تسافل مرير، فتظلم النفس ويعمى القلب وتفسد الفطرة وينطفىء ضوء العقل الفطري ويحل مكانه: جحود وانكار واستهزاء بالمقدسات وعبادة المادة بشتى الألوان. ونتيجة ذلك تكذيب لما أنزل الله تعالى وتحريف وتغيير. إن الله تعالى يقول: ﴿ويل للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. وفي آية أخرى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة الصف: ٥).

فكل دين، مهما كان مبالغاً في تزكية النفس وآمراً بالتقوى والورع إلى أقصى حد ممكن، إذا حلَّ في أوروبا أثرت فيه مادية أوروبا فأرجعته إلى

مجالس الأنس والملذات والشهوات، تختلف عن مجالس أخرى بأن فيها مسحة دينية ضئيلة، تنطفىء تحت نير الشهوات وحبائك الشيطان. وهذا أحد أسباب عدم ظهور الأديان الحقة في أوروبا. لأن أوروبا (أو الغرب) بمبادئها وشهواتها ومجونها غالبة مغيرة. والأديان كسائر العناصر الحية تتغير وتنحرف وتأخذ أشكالاً تطابق المحيط والبيئة: (Adaptation) إذا كان قد قدر لها ذلك، أو تموت. ولقد سمعت من أحد الوزراء السابقين (وقد توفى رحمه الله) ما مفاده: لماذا ظهرت الأديان في الشرق ولم تظهر في الغرب؟ غير مميز بين الأديان الحقة والأديان المختلفة البشرية، غير فارق بين البيئة الملائمة لنشر التعاليم الآلهية الحقة والبيئة التي تؤثر في تلك التعاليم. فتمسى مضطهدة متأثرة، آخذة طوراً يناسب ذلك المحيط وتلك البيئة. وهذا الفرق يظهر بين البلدان المختلفة التي يعتنق أهلها ديناً واحداً.

إن طابع أوروبا طابع مادي منذ عهد الرومانيين وقبلهم والدين يحتم على الانسان أن يؤمن بما وراء المادة. وأن يعمل حسب التعاليم التي أرسلها الله من وراء المادة على لسان أنبيائه (ص)، دون أن يغير فيها شيئاً. ولكن المدنية الغربية لا تخضع إلا لما تحتمه المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والقومية وكل ما هو مادي يؤدي إلى الراحة والرفاهية. فأوروبا مادية بكل ما في المادية من معنى وتعبد المادة منذ زمن بعيد وقد ألبستها لباس الحضارة. إن مدنية أوروبا اليوم هي نفس المدنية الرومانية القديمة التي لا تعترف لغير المادة الصماء، فهي نفعية بحتة. ولم توفق المسيحية في أوروبا في تخفيف هذا الجشع المادي الموروث بل أثرت مادية أوروبا فيها. فكانت إسماً بلا مسمى وتقاليد بلا روح. يريد الغربي أن يرى شيئاً عن (ما وراء الطبيعة) وعن الروح وعن مصير الانسان بعد الموت في الطبيعة المادية نفسها أي في مختبراتها. وحيث لا يمكن ذلك، لأنهما من واديين مختلفين وعالمين متباينين، أمسى لا يقر لغير المادة، ولا يعمل إلا في تحقيقها والتزود منها بأوسع مقياس. إن الغربي يريد أن يرى الله تعالى في تحليلاته الكيمياوية وفي أجهزة الاختبارات الفيزياوية! في حين أن الله تعالى مُظهر في ذلك جليل قدرته وعظمة صنعه. ولا ترتيب إلا بمرتب ولا تنظيم إلا بمنظم لا سيما إذا كان هذا الترتيب يحير العقول ويدهش الألباب.

يقول الله تعالى:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

فدين الاسلام بهذه الآيات البينات يدعو إلى التفكر والعلم واستماع القول الحق والتعقل. لا إلى خرافات وضعها الاتجاه المادي المتغلغل في أوروبا ولا إلى شهوات من تربوا تربية مادية حتى أدى بهم إلى روح مادية مدلهمة لا تستنبط من خواص المادة ونظمها وقوانينها عظمة واضعها وخالقها. و﴿ان أعمى العمى عمى القلب﴾. كما جاء في الحديث. نعم أخطأ الغربي في التطبيق لظلمة في النفس. وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس ومعايير تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات! ان الغربي أراد أن يجد دساتير الكمال الانساني وقوانين الشريعة التي تبلغ بالانسان ذروة الكمال تحت المجاهر والمخابر. وقلده الشرقي، فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته التي تفوح كمالاً وجمالاً، روحيات بها يسمو الانسان فيكون أعلى منزلة من الملائكة. أجل! استقى الشرق من فلسفة أوروبا المادية أكثر من أن يأخذ من رياضياتها وطبيعياتها وصنائعها، بل أخذ من فساد أخلاقها واستهتارها وخلاعتها ومراقصها ومجونها وطيشها وترفها قبل أن يأخذ من مخترعاتها ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس الانسانية تميل إلى التسافل والتدنس، وان في اقتباس المخترعات والنظريات الدقيقة لتعباً تفر منه النفس الشهوانية الميالة إلى الراحة. كان يفتش الشرقي عن مسلك يستريح به من القيود فوجدها في المدنية الغربية المادية. وهل الدين إلا قيود تتكامل بها النفس، وهل تكمل النفس إلا بارادة قوية تقيدها عن المدنسات وهي كل ما حرّم الله تعالى على لسان نبيه الكريم (ص). ان الله تعالى يقول: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ (سورة القلم: ٣٥). فجعل

الاسلام مضاداً للاجرام، ومعنى ذلك أن الاسلام الحقيقي موقوف على عدم الاجرام وعدم التصدي إلى الموبقات والمدنسات. لأن الاسلام مطهر الفرد عن كل ما يلوث النفس الانسانية، موصل إياه إلى أعلى مراتب الكمال. وليس الاسلام تسمية وأسماء فحسب، حتى يعد الشخص مسلماً بمجرد حمله هذا الاسم. نعم، ان النفس البهيمية تفهم الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية، فتلبسها لباس المدنية والحضارة، فيكون هذا الاسم الكاذب مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبَّ في الشرق تبلبل في العقائد والأفكار وأخذ يغالي البعض فيريد قلب البلاد الاسلامية إلى بلاد غربية بجميع مظاهرها وويلاتها. نعم قلد الشرقي الغربي تقليداً أعمى لجهله دينه وظنه أن دين الاسلام لا يساير الحياة العلمية وأن لمعطيات القرن العشرين في العلوم القول الفصل، وأن كل ما جاء في الدين مخالفاً للنظريات العلمية مردود. ولم يفرق بين العلم الحقيقي الناصع وبين (الفرضيات!) الموضوعة المتحولة من وقت إلى وقت على قدر جهود المخترعين والمكتشفين. وان نظرة بسيطة إلى تاريخ العلوم والفلسفة ترينا مدى تغير الحقائق العلمية ووضع نظريات جديدة «أو فرضيات!» والغاء نظريات قديمة كان البشر يظنها حقائق راهنة ينازع فيها رجال الدين ويصمهم بالخرافة والجهل. ﴿زيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

كان يرى العلم الحديث إلى عهد قريب أن الشمس ثابتة وكان القرآن ينادي منذ مئات السنين أنها متحركة بقوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. ثم عدل العلم الحديث عما كان يعتقده بعد تقدم العلوم الرياضية وآلات الرصد فقال بحركة الشمس لمستقر لها سائرة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع، على شكل لولبي، وقال بحركة كثير من النجوم الثوابت بعد أن كان يراها ثابتة لا تتحرك. كم مرة عدل العلم عما قرره بعد العثور على حقائق جديدة وكم مرة سوف يعدل في ا لمستقبل عما يقرره الآن لا يعلم ذلك إلا الله. فما جاء في الدين ثابت لا تغير فيه والعلم متأخر عنه، يصل إليه مع تقدم الوسائل والمخترعات إلا ما كان من أمر النفس فانه سيبقى

مجهولاً أبد الآبدين. ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. ويقول تعالى أيضاً: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾. فما لا يدركه العلم من الدين ويعجز عن تفسيره ليس إلا لقصور فيه وانقباض في سعة مداه الحاضر وقلة الوسائل ووجود الحاجة إلى اكتشافات أخرى ومخترعات جديدة وصفاء في النفس.



تأخر العلوم عن الحقائق الدينية

قد ثبت في العلم الحديث في زمن متأخر ما نطق به القرآن الكريم أن مبدأ الحياة وجد بالماء. والماء من أهم البواعث في تكون الحياة وكان يقول الله تعالى قبل مئات السنين في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾. ثم اكتشف العلم الحديث أن الزوجية متأصلة في الأشياء كلها حتى أن الذرة مركبة من (ألكترون وبروتون): كهربائية سالبة وكهربائية موجبة. وكان القرآن الكريم ينطق بذلك قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. أي لعلنا نتذكر أن الوحدانية له تعالى لا يشاركه فيها أحد. أنه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

كان الطب يجهل أدوار الجنين في الرحم إلى زمن غير بعيد، وكان القرآن ينطق قبل أربعة عشر قرناً تقريباً: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم جعلنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. ثم أنه تعالى قد أوضح مراحل تشكل الأمطار في آيات شتى تبهر العقول. يقول جلّ وعلا في سورة فاطر: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾.

إن للرياح أثراً فعالاً في حدوث الأمطار. ذلك لأن الرياح تعمل في تكوين السحاب وتكثيفه مطراً مستعينة بفعل الجبال والكهربائية الجوية. فإذا حملت الرياح السحاب كانت الجبال مكثفات هائلة تساعد على تكثيف السحاب. إن الرياح تزجى السحاب بأمره تعالى فيقترب السحاب الموجب من السحاب السالب مقداراً كافياً يؤدي إلى التجاذب وزيادة في كهربائية مجموعة السحاب بالحث. نعم ان هذا التقارب ليتزايد بصورة تدريجية حتى تتحد كهربائيتهما عن بعد، فيحدث هذا البرق الذي نشاهده. ومن ثم يحدث

المطر. وان دراسة الجو أمر معقد، لتشعب مسائله ولزوم توحيد جهود الأمم وارتباط الحوادث الجوية بعضها ببعض ارتباطاً قوياً، حتى أن حادثة جوية تقع في شرق العالم لتؤثر في الأوضاع الجوية في غرب العالم. فإذا هبت الرياح على بلدة في العراق مثلاً أو هطلت الأمطار عليها فان سبب ذلك لا ينحصر في جو هذه البلدة فحسب بل يجب أن نبحث عن السبب خارج هذه البلدة. نعم، قد يكون من السهل القيام بأعمال رصدية قريباً من سطح الأرض ولكن القيام بأعمال رصدية في مناطق عالية عسير جداً. ذلك لأن معلوماتنا عن حقيقة الرياح ومصيرها وعن الكهربائية الجوية وكل ما يتعلق بالجو قليلة جداً. ولعل الأقمار الصناعية تزيد في معلومات البشر في هذه النواحي المجهولة. على أن هذه المجاهيل تبقى متنوعة وكثيرة أبد الآبدين. وذلك لأننا كلما فتح لنا أفق من العلم تجلت لنا مجاهيل متعددة ومتنوعة لا تحصى. فسبحان الذي نظم هذا العالم بعلم لا يتناهى وقدرة لا تتناهى وحكمة لا تتناهى. وقد علم علماً يقيناً أن الرياح تثير السحاب (كما جاء في القرآن الكريم) أو بخار الماء. أي أنها تظهره بعد أن كان كامناً. يسوق الله تعالى السحاب حيث يشاء، ولم يتكلم العلم الحديث عن كيفية هذا السوق، لتعدد العوامل وتشعبها، ولا رابط بينها إلا الله تعالى.

إن المطر ليحدث بعوامل عدة: منها زيادة تشبع الهواء ببخار الماء، ومنها البرودة في المناطق العلوية ومنها قلة الضغط في المناطق العالية ومجيء الرياح الباردة من المناطق القطبية، ومنها الجبال، ومنها نويات التكاثف كدقائق الغبار الخفية أو المرئية، ومنها تأين الهواء أي تكوين الايونات فيه والـ(إيون) هو الذرة المكهربة أو الجزيء المكهرب أو الهباءة المكهربة وان الجو ليتأين بعوامل مختلفة، البحث فيها من أصعب المواضيع.

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءاً، فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾. إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لواقح للزرع بل تقول: إن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين، أي أن الرياح تعمل

في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة، فتقع الملاقحة بين سحابتين. فهذه الآية معجزة خالدة، لأنها تخبر قبل ١٣٩٠ سنة تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث. وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والدين في الاسلام وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية.

وهناك آية أخرى أدل من الآيتين المتقدمتين على كيفية حدوث الأمطار، يطابق آخر ما وصلت إليه الاكتشافات الأخيرة. وهو قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾. ففي هذه الآية خلاصة كثير من المكتشفات الحديثة في تشكل المطر فخص بالذكر قوله: ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب. وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية. فان التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبرد. وإن عملية الركام تأتي بعد عملية التأليف. على أن الله جلّ جلاله لا يريد بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئاً من العلوم الكونية لأن كلمات الله وما أودعه في الأجسام من خواصٍ لا تتناهى. ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾. ولكن الله يريد أن يُرى العباد جليلَ قدرته وعظيم صنعه إتماماً للحجة. ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون﴾. ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾. ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾. نعم، ان الانسان يصل إلى العلوم الكونية عاجلاً أو آجلاً بفكر أودعه الله فيه، ولثابتية خواص الأجسام وقوانينها. وقد عاش الانسان آلاف السنين دون أن يعلم قوانين (لورد كلوين) في الكهرباء ودساتير ليبنيتز (Leibnitz) في التحليل الرياضي أو معادلات (دكارت) في الهندسة التحليلية. أعلم هل تكامل البشر روحياً بعد الوقوف على هذه القوانين، أم رجع القهقرى يأكل

بعضهم البعض؟ والمهم بل الغاية الأسمى التي خلق الانسان لأجلها هي تزكية هذه النفس التي لا تقر على حالة ثابتة خلافاً للجمادات التي لها قوانين ومعادلات ثابتة يظفر بها الانسان بلطف من الله. وكثيراً ما يظفر بها بطريق الصدفة مناً منه تعالى. والبشر المادي أقل من أن يأتي بنظام يكفل سعادة البشر في الدارين. أما الدين فحقائقه ثابتة ترمي إلى غايات بعيدة قد يفهمها العلم وكثيراً ما يتأخر عن فهمها.

ونسأل الله تعالى نفوساً صافية وآذاناً واعية تعي الحق فتتبعه، ولا تغتر بما يكتشف في هذا العصر مما أودع الله من كنوز ومعادلات في هذا الكون المادي. فان الغرور يبعد الانسان عن رؤية الحق واتباعه أيما تبعيد. ان الله تعالى يقول: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾.



علاقة الدين بالعلم والظن

إن الدين الاسلامي حثّ على تحصيل العلم إلى حد بعيد، ولم تقع معارضة بين الدين والعلم في العالم الاسلامي شبيه المعارضات التي حدثت بين الكنيسة والعلماء الكونيين في القرون الوسطى فأدت إلى الشنق والنفي والسجن. فان الدين الاسلامي يحبذ العلم الصحيح الذي لا شبهة فيه ويؤيده أيما تأييد. ولكنه يندد بأولئك الذين يتبعون الظن ويعتبرونه علماً ويبنون على هذا العلم الباطل أشياء كثيرة لا أساس لها، تفسد بذلك عقائدهم وأخلاقهم فيكونون من الأخسرين أعمالاً. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وإن أنتم الا تخرصون﴾ (سورة الانعام: ١٤٨).

فنهى الدين الاسلامي عن اتباع الظنون وهي النظريات التي لا تستند على دساتير رياضية رصينة ولا تؤيدها التجارب بصورة مطردة وإنما هي أهواء ووساوس تتجلى بصورة العلم. يقول الله تبارك وتعالى: «وما يتبع أكثرهم إلا ظناً أن الظن لا يغني من الحق شيئاً، ان الله عليم بما يفعلون». وفي مكان آخر: ﴿وما لهم به من علم، ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾. وقد قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. فنهى عن الظن بقوله: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. وبقوله: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾. وبقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله أن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾ (أي يكذبون).

وقد حثّ القرآن الكريم على التمسك بالعلم القطعي الصحيح واتخاذه أساساً للمعتقدات والحياة الاجتماعية بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾. فخص الله التذكر والوعي الديني والقيام بما فرض الله. بأولي الألباب والعقول: أولئك الذين يتبعون

العلم الصحيح، لا الظنون والأهواء. وان الله تعالى أمر نبيه (ص) مع ما آتاه من العلم والحكمة أن يدعو ربه لمزيد العلم بقوله: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾. وهذا يشير إلى عدم انتهاء مدى العلوم. ويقول جلّ من قائل: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾. ولا مراء أن العلم الصحيح الناصع الذي يوصل الانسان إلى الاعتقاد بالله والعمل بما يرضيه، فيه النور والحياة والسعادة الأبدية، وهذا هو العلم الذي يهيىء لنا سعادة الدارين.

قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «تعلموا العلم فان تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح على الأعداء، وزين الاخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم وترمق أعمالهم وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم. لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف. ينزل الله حامله منازل الأبرار ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة. وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام. والعلم أمام العقل والعقل تابعه. يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء».

وقد قال رسول الله (ص): «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» «ألا أن الله تعالى يحب بغاة العلم». وان الاسلام عظم منزلة العلماء الحقيقيين أيما تعظيم حتى جعلهم ورثة الأنبياء. وفي حديث: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

ما هذا العلم الذي يعطيه الدين الاسلامي هذه المنزلة الرفيعة؟ هو كل علم يوصل الانسان إلى توحيد الله تعالى والخشوع والخنوع بين يديه، علم يؤثر في النفس الانسانية فتنقشع عنها الرذائل والخبائث ويزول عنها الرجس والدنس، فيكون هذا الانسان بشراً على شكل ملك أو ملكاً على صورة انسان، هذا العلم الذي يتخلله التوحيد والاعتبار بعظمة الله تعالى ثم القيام بتكميل النفس.

ولا شك أن الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض وغير ذلك من العلوم نوافذ منها يتمكن العالم أن يبصر عظمة الله وجليل قدرته، فيزداد تسبيحاً وتحميداً لله تعالى.

إذن فما الذي أدى بفريق من الناس حتى أصبحوا من عباد المادة؟رجعوا وثنيين يعبدون المادة الصماء بعد الاطلاع على كثير من خواصها؟ ذلك لأنهم لم يستنتجوا من هذا العلم المادي استنتاجاً يوافق المنطق وإنما اتبعوا الظنون. أثرت فيهم ضوضاء المعامل والانقلاب الميكانيكي فاغتروا بها واستعملوا ذلك في الترف وإيجاد أسباب الراحة والركون إلى الدنيا وشهواتها وملذاتها، فعميت أبصارهم وتحلت إذ ذاك لهم الظنون علماً، فقالوا: لا شيء وراء المادة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾. أي أن هذه الطائفة الضالة غفلت عن اتباع العلم الصحيح واتبعت ظنونها وشهواتها. ذلك لأن النفس الانسانية إذا انطمست في الموبقات والمنكرات لا تبصر الحق ولا ترى سبيلاً إلى العلم الصحيح. لأن الموبقات والمنكرات والمعاصي تشكل حجاباً كثيفاً مدلهماً يحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع، فتظهر لها الظنون بلباس العلم وهي في أسفل درك من الظلمات. يقول الله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

ظهرت المادية بأجلى مظاهرها في أوربا في القرن التاسع عشر، وكان من أبشع مظاهرها ظهور المبدأ الشيوعي، حتى أنكروا وجود الخالق: ﴿أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾.

وقد سمعت من أحد كبار المبشرين بالدين الاسلامي: أنه قد أوفدلينين مندوبه إلى سمرقند ليهدم المساجد والكنائس، ويفهم الناس أن لا شيء وراء المادة، وأن هذه العبادات ليست إلا سخافة. فجاء المندوب وطلب إلى الناس أن يجتمعوا في ساحة كبيرة وقد أخبر العالم الديني (العالم بالدين الاسلامي) في

سمرقند بما سيكون من أمر هذا المندوب، واجتمع إليه رؤساء الدين من أهل الكتاب، وقالوا أن البلية عامة وفوضوا اليه أمر الدفاع. حتى كان اليوم الموعود. فقام الشيوعي قائلاً: ماذا تعبدون؟ إن كان هناك آله فَلِمَ لا نراه بأبصارنا؟ ولم لا نلمسه بأيدينا؟ ولماذا لا نتذوقه بألسنتنا ونشمه بأنوفنا ونسمعه بآذاننا؟ إذن ليس وراء المحسوسات شيء. أهدموا الجوامع والكنائس ودور العبادة.

فقام إليه العالم المسلم، وكان قد أحضر قبلاً كرتين بحجم واحد. احداهما من خشب والأخرى من حديد ملونتين بنفس اللون، وقد وضعهما على المنضدة. فخاطب الشيوعي قائلاً: قل لي أي الكرتين أثقل، استعمل في ذلك حواسك الخمس كما استعملتها لمعرفة الخالق. فأبصرهما الشيوعي، ثم شمهما، ثم لمسهما، ثم ذاقهما، ثم وضع أذنه بالقرب منهما ليسمعهما. فقال: لا أهتدي بالحواس الخمس إلى معرفة أثقلهما، إلا أن عقلي يقول لي: ارفعهما وحركهما بيديك كي تعلم أيهما أثقل.

فقال له العالم المسلم: إذن العقل هو المرجع الوحيد عند قصور الحواس الخمس وعجزها وأخطائها، وبالعقل يدرك الخالق الذي جهزك بأعضاء لو تعطل عضو رئيس منها لما استطاعت المعامل بأجمعها أن تعوض عنه. فكم تخطىء الحواس الخمس ويكون العقل مصححاً لها. هل الشمس بهذا الحجم الذي نشاهده؟ وهل النجوم بهذه الصغر؟ وهل الخطان المتوازيان الممتدان إلى حد بعيد يتلاقيان حقاً؟ وأمثال ذلك من أخطاء الحواس في الهندسة والفيزياء كثير. إن الله تعالى يقول: ﴿ألا أن لله من في السموات ومن في الأرض، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون﴾. ويحق لي أن أكرر الآية الآتية لمطابقتها العصر الحاضر: ﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾.

ونسأل الله توفيق اتباع العلم الصحيح وترك الظنون والأهواء. فـ «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان».

الدين والعلوم الحديثة

عندما يرى الطالب المعلومات الحديثة في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافية والرياضيات ويرى مختلف التآليف وشتى المختبرات يندهش أمام العلم الحاضر ويظن بل يقطع أن العلم الحاضر له القول الفصل في كل ناحية من نواحي الكون. وان ما يقوله حقٌ لا يشك فيه. هذه العقيدة تكون قوية في المدارس المتوسطة أكثر من الثانويات وفي الثانويات أكثر من المدارس العالية، إذا كان الطالب ممن لا يسلم بما يلقى عليه دون تعمق وتدبر. وأما إذا كان من البسطاء الذين لا ينظرون إلى القول، بل القائل أهم منزلة عندهم مما يقول، بقي ثابت العقيدة في أن العلم الحاضر حلال المشكلات، وموصل الانسان إلى أقصى مرتبة من مراتب التحقيق. وما يقوله لا يناقش فيه. ويزداد تعجباً عندما يرى المعادلات التفاضلية التي تستعمل لحل غوامض القوانين الكهربائية ومباحث الحركة والحرارة الحركية من مباحث الفيزياء العالية.

وقد رأيت ذات يوم وأنا أقوم بتجربة فيزياوية: أن طالباً دُهش لما رأى أن التجربة تدل على صحة القانون الفيزياوي وقال: هذا هو العلم! معجباً بالتجربة فرحاً مغروراً، وقد فاته أن ذلك ليس إلا ظاهرة من ظواهر العلم، ظاهرة بسيطة لا تدل على حقيقة إلا بعد استنتاج صحيح، وانك لو سألت من تخصص في الكيمياء: كيف أن الغازين (الأوكسيجين والهيدروجين) يشكلان بالنسبة المعلومة الماء بعد إمرار تيار كهربائي، وما تأثير الكهرباء هنا؟ يبقى حائراً صامتاً لا جواب له. وغاية ما يقول: إن التجربة تدل على ذلك. وما التجربة إلا حادثة أو ظاهرة يجب تفسيرها. وان المدقق المفكر من علماء الكيمياء الاختصاصيين يعترف بأن إرادة ربانية تعمل في تركيب هذه العناصر ولولاها لما حصل هذا المعجز. إذ لا مناسبة بين الاوكسيجين الغازي والماء. وقد زعم آينشتاين وكان من كبار الفيزياويين الرياضيين بل كاد أن يكون

أعظمهم بعد كشف النظرية النسبية (Relativite) : أن أقصر الخطوط هو الخط المنحني وأن الضوء يسير على خط منحن غير مستقيم، وكان فيما يقوله يستند على تجاربه واستنتاجاته السابقة، ثم أُتيح له أن رصد بآلات أتقن من الآلات السابقة وقام بحسابات أخرى فعدل عن رأيه وقال: إن أقصر الخطوط هو الخط المستقيم، وان الضوء يسير على خط مستقيم. فالتجارب الثانية والمشاهدات والحسابات التالية قد أصلحت الأخطاء الناتجة عن التجارب والمشاهدات والحسابات الأولى. إذ ليست التجربة كل العلم وإنما حسن الاستفادة وحسن الاستنتاج هو الذي يجب أن يعتمد عليه. والانسان معرض للخطأ والزلل وقلَّ أن يسلم منهما أحد إلا من عصمه الله.

كما أن النظريات أو بالأحرى (الفرضيات) التي توضع (لا عن تحقيق علمي وإنما لامكان تفسير الحوادث أو التجارب) تتغير من حين لآخر. لأن الفيزياوي يضع (فرضية: Hypothese) تدل مثلاً على ماهية الكهرباء ويفسر الحوادث والمشاهدات الكهربائية على ضوء تلك (الفرضية)، حتى إذا رأى حادثة أو ظهرت له ظاهرة عفواً لا قصداً، تخالف (الفرضية) الموضوعة عمد إلى وضع (فرضية) جديدة صالحة لتفسير الحوادث السابقة واللاحقة، فلو كانت (الفرضية) الأولى صحيحة فما هذه الثانية؟ وان كانت الثانية صحيحة فاذن بقينا في خطأ وضلال طيلة تمسكنا بالفرضية الأولى. ومن يقوى على القول بأن (الفرضية) الثانية صحيحة، ذلك لأنه ستظهر حوادث أخرى لا تفسر بالفرضية الثانية. كما أن (فرضية لابلاس) في تشكل النظام الشمسي ليس بالشيء الذي يعتمد عليه. على أنها لا تضبط بحسابات ودساتير، وقد جرحت وعدلت كثيراً. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿أو لم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (سورة الأنبياء: ٣١). ويقول الله في مكان آخر: ﴿يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا أنا كنا فاعلين﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٤). على أنه ليس من وظائف الدين تعليم الناس علم طبقات الأرض أو علم الاحياء، بل وظيفته إعطاء الدساتير المؤدية إلى تزكية النفس وتقريب الفرد إلى الساحة القدسية الإلهية وإيجاد سعادة الدارين.

وإن ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التكوينية إشارة إلى خلاصة ما يمكن أن يصل اليه العلماء المحققون وتبيان لعظمته وجليل قدرته تبارك وتعالى. يقول جلّ وعلا في سورة نوح (ع): ﴿ألم ترَوا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً، والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها، ويخرجكم إخراجاً﴾.

ولا مراء أن مشاهدات محدودة في ناحية خاصة أو ناحيتين أو ثلاث لا توجب حكماً كلياً علمياً. كقولنا: إذا أضيفت أشيـاء متساويـة إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية، أو مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين. وكل من تتبع العلوم العالية يرى ضعف العلماء وعجزهم عن استقصاء حقائق كثيرة لا تعد ولا تحصى، ويرى اعترافهم بجهلهم أكثر من اعتزازهم بعلمهم. هذا أفلاطون يقول: علمت أني لا أعلم شيئاً. وهذا نيوتون يقول: إن علمي بحقائق هذا الكون أقل بكثير من علم طفل صغير جالس على شاطىء بحر يلعب بالحصى بما في أعماق هذا البحر. كيف لا يكون كذلك وان الخواص التي أودعها الله في تركيب هذا الكون ونظامه تكاد لا تتناهى لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾. وإن كلمات الله هي الخواص والنظم والدساتير المودعة في مطاوي هذا الكون. تلك النظم التي تربط الكون بعضه ببعض: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرَّتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (سورة الملك: ٤).

نعم، نرى أن كثيراً من دساتير الفيزياء العالية ناقصة وكثيراً من الاتمامات (Integration) تكاد تكون لغزاً من الألغاز لا يتاح لأحد أن يحلها. ونرى أن العالم الفلاني قد وضع دستوراً لمحاسبة سرعة الصوت مثلاً في وسط معلوم وقد خطأه العالم الآخر وأصلح دستوره، ثم أتى آخر وأصلح خطأ الثاني. ثم أن التخمين ضارب أطنابه في قياس الحوادث والتجارب ولا تكاد ترى نتيجة من النتائج بعدد حقيقي خالٍ عن التقريب. ترى يعطيك الفيزياوي دستـوراً لاختلاف الضعف بنسبة الارتفاع إلى حد معين ثم يقف ويعطيك معلومات

مضطربة تقريبية لارتفاعات أعلى ثم يسكت إذا تجاوز الارتفاع حداً معيناً.

فالعلوم الثابتة التي لا مراء فيها والتي يعتمد عليها هي العلوم الرياضية (Mathematiques pures) كالحساب النظري والهندسة النظرية بأنواعها والهندسة التحليلية والحساب الأعلى والجبر العالي والتحليل الرياضي لأنها مجردة عن المادة. وسنعلم أنه لا تنافي بين القسم الصحيح من العلوم غير الثابتة وما جاء في الدين الاسلامي تبياناً لعظمة الله تبارك وتعالى وجليل قدرته.



لا تنافي بين الدين والعلم الصحيح

إن العلوم الثابتة التي لا مراء فيها هي العلوم الرياضية البحتة كالحساب النظري والهندسة التحليلية والتحليل الرياضي (Analyse Mathematique) . وعندما تتدخل فيها المادة تخرج عن كونها علماً قطعياً لا يشك فيه: كالميكانيك الرياضي والفيزياء والفلك، وكذا الحال في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض. لا سيما (الفرضيات): (Hypotheses) أو الموضوعات، فانها ليست حقائق ناصعة وإنما مقترحات يقترحها العالم ظاناً أنها أقرب إلى الواقع من احتمالات أخرى، والاحتمال ليس من العلم الحقيقي في شيء. ثم ان فساد (الفرضيات، أو العنديات) والتخمين يتجليان لـلانسان في العلوم التربـوية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والقانونية أكثر من بقية العلوم. وحقاً أنها علوم غير ثابتة، لأنها تبتني على (فرضية) واضعها فما رآه حسناً أقرّه. وان البيئة كافية لاثبات ما يدعيه! لسيطرة المادية على النفوس حين أن مدعاه شيء كلي عام، يتجاوز البيئة التي شاهد فيها الحادثة. حتى آل الأمر إلى أن العالم الاجتماعي يقول بالقطع والبت في نظرياته وأفكاره. وهذا ما يعبر عنه عندهم بـ (Determinisme). وقد يبالغ العالم النفسي فيظن أنه وصـل إلى حقائق النفس فيضع منحنيات تقريبية وجداول مشوشة وإحصاءاً ناقصاً تقريباً . حين أن كل ما يعلمه إنما هو في ظواهر النفس، وذاك بشكل ناقص مبتور. والدليل على ذلك تضارب الآراء في مسألة واحدة في وقت واحد.

والنقطة الرئيسة في وضع النظريات: (الفرضيات) أو (العنديات) سواء في التربية والاجتماع وغيرهما هي البلوغ إلى تحقيق غاية قد تكون غير مشروعة وغير صحيحة، فيؤلف العالم أو المتظاهر بالعلم الكتب الضخام ويفسر جميع الحوادث النفسية والاجتماعية تفسيراً يحقق تلك الغاية أو النظرية. فان كان مادياً، فان المادة تتدفق خلال أسطره، حين أن الأصل فاسد منتقض مردود. وإن كان ملحداً يترشح من نظرياته ونتائج تفكراته الالحاد! والمرجع هنا أيضاً تلك المادية المدلهمة الظلماء بشكل خدّاع.

إن بعض الشبيبة ليندهش عندما يرى تزاحم الكتب وتراكم المجلات، فلا يكاد يجعل لنفسه بين الآراء رأياً أو يتصور لنفسه بين الأوزان الخيالية وزناً. فيفند كل رأي يخالف نظريات (كلابارد) مثلاً أو (بنتهام) أو (شوبنهاور) أو (دوركايم) أو لا سمح الله (بوخنر) المادي المعروف. وإذا طالع الكتب الدينية ظن أن هناك تضارباً بينها وبين العلم الحقيقي الناصع المجرد عن كل شائبة، فيعمد إلى السخرية والاستهزاء بالمتدينين ويحكم بأنهم خرافيون بعيدون عن العلم. حين أنه لا تضارب ولا منافاة بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة وبين العلم الصحيح الثابت، لا النظريات: (الفرضيات) المضطربة والأهواء الباطلة التي ليست من العلم الحقيقي في شيء.

كان يقول الفلكي إلى وقت قريب: أن الشمس ثابتة وكان القرآن الكريم ناطقاً قبل مئات السنين بهذه الآية المنيفة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. وكان الطالب في المدارس المتوسطة يبقى حائراً لا يعلم هل يأخذ بقول الفلكي فيقول بسكون الشمس، أم بقول الله في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، فيقول بحركتها. فان كان مؤمناً حقاً خطأ نفسه في فهم القرآن الكريم وحاول التأويل. ولكن الحقائق التي بينها الله إظهاراً لعظمته وجليل قدرته لا تماشي أهواء العلماء وأخطاءهم، أنها ثابتة لا تغير فيها. نعم، كان هذا التبلبل سائداً إلى زمن قريب حتى تقدمت العلوم الرياضية بفضل ما ألهم الله تعالى المشتغلين في العلوم الرياضية العالية. فتقدم الميكانيك الرياضي والسماوي (Mecanique Celeste) وأثبت الفلكيون أن الشمس متحركة بحركة خاصة بها وتجري لمستقر لها بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلومتر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. ووصلوا إلى الحقيقة التي نطق بها القرآن في دور جاهلي ووسط جاهلي حيث لا فيزياء ولا فلك ولا ميكانيك.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، إن الله كان حليماً غفوراً﴾. أي ما أمسكهما من أحد من بعده. هذه الآية الشريفة تدل دلالة واضحة على أن النجوم ثوابتها وسياراتها معلقة وسابحة في الفضاء

ويجذب بعضها البعض بارادته تعالى حسب دساتير متقنة رياضية أودعها الله فيها وهو الذي يمسكها من أن تزول وتنحرف عن مواضعها ومسيرها. فان زالت وتخطت ـ لا سمح الله ـ فليس لأحد بعد الله تعالى أن يمسكها عن الاضطراب والتصادم والتدهور. ولولا قدرته وإرادته جلَّ وعلا لما كان للجسم الجامد الصامت أن يتحرك بانتظام ودستور رياضي في مدار خاص محدود. وقد وقف على القليل منها الفلكيون بعد عناء شديد. وقد كشف اسحق نيوتون دستور الجاذبية العامة وكشفت بواسطته سيارة مجهولة من قبل عالمين في وقت واحد ولكنه عجز هو ومن جاء بعده عن تفهم حقيقة الجاذبية ولا يزال العلم عاجزاً عن فهم حقيقة الجاذبية وحقيقة الكهرباء والضوء والنفس الانسانية وكل شيء قواني (منسوب إلى القوة) وسيبقى عاجزاً إلى الأبد ما دامت هذه النفس مرتبطة بالبدن. فقد جاء في الحديث: (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا). ذلك لأنه لا يمكن قياس ما هو غير مادي بمقاييس مادية. كما لا يمكن قياس طول الغرفة بالغرام وان بعد التشبيه. وان العلم الحديث لا يعمل إلا في كشف خواص المادة والتأثرات المتقابلة المادية بين المواد. وليس له أن يتجاوز حدود المادة وأن يتغلغل في ما وراء الطبيعة ما دام يعمل في الطبيعة نفسها وبمقاييس طبيعية مادية: (غرام، سانتيمتر، ثانية) فتكلم العالم المادي في ما وراء الطبيعة سفسطة وهراء.

وغريب أن بعض شباننا الذين يرون لزوم الاختصاص في كل شعبة من شعب الطب أو الهندسة مثلاً، يفوتهم أن يعترفوا اختصاصاً للعلوم الدينية أو علوم ما وراء الطبيعة. فيتقبلون ما يمليه عليهم أستاذ الكيمياء مثلاً (من العلوم المادية البحتة) في ما يتعلق بتكامل النفس وأمور ما بعد الموت ومنازل الآخرة. إن شبابنا يرى أن أستاذه يبرهن بمعادلات متقنة على صحة دستور في الفيزياء أو الفلك مثلاً، فتزداد ثقته به ويراه حجة في ما يقول حتى في شيء لم يشتغل فيه ولم يتصدَّ له! بل بعكس ذلك أخذ يتسافل فيه ويبتعد عنه كل البعد. انه يصدِّق استاذه حتى يستهزىء بالمقدسات الدينية وبما أخبره به الأنبياء عليهم السلام عن مراحل الآخرة. ذلك لأن معتمده أي أستاذه في الكيمياء مثلاً أملى عليه فكرة مغلوطة عن المقدسات وما بعد الموت فصار يوافقه على استهزائه

وجحوده. على أني أعتقد أن كلمات الأستاذ في ما وراء الطبيعة (أي في ما لم يختص فيه) وفي الأمور الدينية لا تؤثر في الطالب كثيراً ما لم تكن نفس هذا الطالب مستعدة لقبول هذه الأفكار الفاسدة الملوثة. ولا تكون النفس مستعدة للقبول ما لم تتلوث بالمعاصي والآثام والاجرام وبما يدخل في جوف الانسان من مآكل محرمة مغصوبة أو مشتبهة. وتفصيل ذلك يطول.

على أن للمحيط أثراً فعالاً في التوجيه التكاملي أو التسافلي. فالنفوس تؤثر بعضها في بعض، كتأثير المجال الكهربائي في المجال المغناطيسي. يقول الله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا أن أرضي واسعة فاياي فـاعبدون﴾. أي هاجروا إلى أرض تتيسر فيها العبادة. وفي الحديث: «عاشروا من يذكركم الله». فلو كانت هيأة المدرسة من مدير ومدرسين وكتاب وخدم متدينين عاملين بأوامر الدين، منتهين عما نهى الدين لألفيت الطلاب على غير ما هم عليه الآن.



لا تنافي بين الدين والعلم الحديث

دين الاسلام دين الفطرة، لذلك يتوصل الانسان إلى التوحيد أي إلى لباب الاسلام وعصارته بالفطرة، دون أن يحتاج إلى معلم أو مرشد، ان لم يدنس الفطرة بما يلوث النفس الانسانية من معاصي وآثام وظلم وبغي ولؤم ونفاق وغيبة ونميمة وكل ما حرم الله تعالى على لسان أنبيائه (ع) وتأباه الفطرة الانسانية غير المدسوسة منها. وليست الفطرة إلا من معطيات العقل، كما أن العلم حديثه وقديمه من معطيات العقل أيضاً. إذن وجب أن لا يكون تناف بين العلم الحديث والدين، إذا كان هذا العلم الحديث قد بلغ من الصحة والتأييد ما يجعله علماً حقيقياً لا غبار عليه وقد خرج عن مرحلة الظن والشكوك. فالفرضيات التي توضع لتفسير بعض الحوادث الفيزياوية أو بعض المشاهدات في عالم الطبيعة ليست من العلم الحقيقي في شيء. لذلك نراها تتغير من حين لآخر وتعدل. فالفرضيات تعيش مدة من الزمن ما دامت مفسرة لجملة من الحوادث. فاذا ما شوهدت حادثة لا تتفق والنظرية الموضوعة عدل العالم الطبيعي إلى وضع نظرية أخرى تفسر الحوادث السابقة واللاحقة. وقد خلط بعض المتعلمين بين الفرضية والعلم الصحيح الثابت الذي لا تبديل له ولا تغيير: كالرياضيات البحتة. فقالوا: .إن هناك تنافياً بين ما جاء في الدين .ومعطيات العلم الحديث. فاتهموا الدين ووصموه بما هو منه براء. ان الله تعالى يقول: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

فإن الله عدَّ الذين يحيون الليل بالعبادة ساجدين راكعين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم (وهم بين الخوف والرجاء) من العلماء وأولي الألباب. إذن، ما هو ذلك العلم الذي يميز الانسان عن الجاهل ويجعله في عداد العلماء؟ هو العلم بعظمة الله وجليل قدرته، هو ذلك العلم الذي يؤثر في النفس فتؤثر في الجوارح وتنشطها للعبادة. هو ذلك العلم الذي يحمل النفس على الأعمال الصالحة وكل ما من شأنه التطهير والتزكية. هو ذلك العلم الذي

ينمي الفرد ويكمله حتى يكون أعلى منزلة من الملائكة. فالعلم الحديث الذي لا يتجاوز سماء الأرض ولا يبلغ بصاحبه إلى معرفة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه لا يطهر النفس ولا يزكيها، أنه علمٌ ضيق ناقص مبتور. علم مادي حالك، بل وبال على البشرية جمعاء إن لم يستعمل في صلاح النفس وتكاملها. وان قول الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ لا تفسر إلا على ما ذكر. أي أن العلماء الذين أدى بهم علمهم إلى توحيد الله وطاعته وتقديسه واتباع شرائعه هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه. فالعلم الناقص أي العلم الذي لا يبلغ بالفرد إلى المعارف الالهية لا يورث الخشية. وكم رأينا من علماء في الطبيعة والرياضيات وغيرها ملاحدة جاحدين يرتكبون المعاصي ولا يخشون الله. ذلك لأن علمهم مادي لم يتجاوز حدود المادة. فلم يسم بهم إلى ما وراء الطبيعة.

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والرياضيات وغيرها. ذلك لأن العلوم لا تتناهى، وكلما كشف للعالم شيء بفضل الله أو بطريق الصدفة بفضله أيضاً شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل. إن الله تعالى يقول: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ وإنما أنزل الله تعالى القرآن ليهدي الناس إلى الطريق المؤدية إلى تكميل النفس والبلوغ إلى معرفة الله بدرجة تكاملها. ذلك لأن الكامل على الاطلاق، وهو الله لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً. وقد سنَّ للانسان الناقص سنن الكمال على لسان أنبيائه (ع). وان أكملها وأسماها سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾. وما جاء في القرآن الكريم من آيات كونية كقوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ إنما هي عصارات العلوم وخلاصاتها، يصل اليها العلم الحاضر كلما نما وتكامل. كان العلم الحديث إلى زمن قريب يقول: بسكون الشمس وان السيارات تدور حولها. وكان القرآن الكريم ينادي منذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1]. حتى إذا تكاملت المجاهر وتقدمت

(١) إنما كررت هذه الآية لأهميتها في تحقيق الموضوع.

الرياضيات العالية بما فيها (الميكانيـك الريـاضي) Mecanique Rationnelle اعترف العلم الحديث بحركة الشمس وقال: إنها تجري بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلو متر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. أي أنها تقطع مع سياراتها المنجذبة اليها في الثانية ٢٠ كيلو متر ولذلك يتغير مدار الأرض من حين لآخر في الفضاء، والمحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع.

واعترف العلم الحديث أن ليس هناك شيء ساكن وأن الثوابت (من النجوم) بالرغم مما اصطلح عليه، متحركة وتتحرك في الفضاء بسرعة معينة. وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات في الثانية وان الكواكب لبعدها عنا لا نشاهد لها حركة ولكن الشكل الظاهري أو الصورة الظاهرية للسماء تتغير خلال كل مائة سنة. وهذا مما يدل على تأخر العلوم الطبيعية والرياضية عن الحقائق القرآنية.

فلا ينبغي أن يتسرع الشاب المتعلم في حكمه على الدين الاسـلامي بقوله: ان بينه وبين معطيات العلم الحديث تنافياً. ذلك لأن العلم الحديث ما هو إلا خصائص وقوانين أودعها الله في مخلوقاته في هذا العالم. وليس الدين إلا قوانين ونظماً أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين. فالمنبع واحد والمبدأ واحد، ولا يعقل التنافي مع وحدة المنبع الفياض. ثم أنا إن شاهدنا بعض الاختلاف بين بعض المظاهر الطبيعية والحقائق الدينية ما علينا إلا أن نتهم المشتغل في علم الطبيعة في استنتاجه أو قلة عدد التجارب التي قام بها أو عدم الاحاطة بتمام الموضوع. ذلك لأن مشاهدة عدد قليل من النماذج في ظروف خاصة لا تعطي حكماً ثابتاً صحيحاً. فإذا كانت العلوم المستندة على الرياضيات تتغير وتفند من حين لآخر فكيف بالمشاهدات الطبيعية وما يستنتج عنها.

ولنعم ما ناقش به عالم ديني فيلسوفاً كان يخالفه في العقيدة والمبنى. كان يدعى هذا الفيلسوف: أنه نبي وأن كل ما يقوله وحيٌ يوحى إليه، وأن كل عالم أو فيلسوف نبي أيضاً وما يقوله وحي يوحى إليه!... فأجابه هذا العالم الديني قائلاً: إن كان كل ما تقوله أنت أيها الفيلسوف وحياً يوحى اليك، وإن

كل ما أقوله أنا أيضاً وحي يوحى إلي، والمبدأ واحد. إذن فماذا الاختلاف بيني وبينك؟ فلم يحر الفيلسوف جواباً.

ذلك لأن النفوس مختلفة. منها ما هي طاهرة بعيدة عن الخبائث والأدناس ومنها ما هي ملوثة بفسوق سابقة وملذات محرمة: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾. ولكل من هذه النفوس رشحات ومظاهر ومعطيات. فلا يترشح من الناس الخبيثة إلا الخبث والالحاد، ففلسفتها خبيثة مضلة، ولا يترشح من النفس الزكية إلا الخير والصلاح والهدى، ففلسفتها نقية هادية. لذلك أوجب العلماء العصمة للأنبياء (ص) وقالوا بوجوب عصمتهم وطهارتهم عن الذنوب صغائرها وكبائرها.

فالعلم الذي يوصل الانسان إلى المعارف الالهية ويؤدي إلى تكامله إلى حيث لا يعلمه إلا الله هو ذلك العلم الذي يصح أن يقال عنه أنه من الدين ومن مكملات الدين. فلا يرى العالم، الذي لم يدنس عقله بالموبقات والجرائم ولم يلوث الفطرة بالفسوق والكبائر، تنافياً بين العلم الصحيح (ذلك الذي قد خرج من مرحلة الظنون والشكوك) وبين الدين، بل يراه من الدين. لأنه يذكر الانسان بعظمة خالقه: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾. ﴿فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء﴾ ولا يقذف هذا النوع من العلم إلا في قلب أو نفس أخذت تتطهر بعبادات وأعمال صالحات وأخلاق اسلامية رفيعة وخشوع وخضوع لله تعالى وذكر الله بصورة دائمة، حتى صارت قمينة لافاضات ربانية ونفحات قدسية. وقد جاء في الحديث: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها». والنفحات هي الافاضات المعنوية. ونسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بتوفيق العبودية وإفاضات نخرج بها عن حضيض المادة إلى قدسية تجعلنا أهلاً لتقديسه وتسبيحه.

رأس الحكمة مخافة الله

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى وترده عن ردى». أريد بمقالي هذا أن أزيل بفضل الله بعض الشبهات عن بعض الشبيبة المثقفة علهم يرجعون إلى تعاليم الدين الاسلامي فيعملون بموجبها حرفياً ولا يكتفون باسم الاسلام، فان «الاسم» لا يغني عن الواقع شيئاً.

عندما كنت في الجامعة اعترض أحد طلاب فرع الفلسفة على هذا الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». فقال: كان الأولى أن يقال: رأس الحكمة محبة الله. ولم يرده أحد. وقد فاته أن الحكمة ومعرفة أسرار الكون لا تتجلى إلا في قلوب قد طهرت وتزكت بترك المعاصي واجتناب المحرمات وبعبادات وأعمال صالحات. ولا تترك المعاصي ولا تجتنب المحرمات إلا بخوف الله تبارك وتعالى. لا تترك المعاصي إلا بوازع نفسي وهو خشية الله. فالنفس الملوثة بالذنوب والآثام، النفس المدلهمة بظلمات المعاصي والاجرام لا ترى إلى الحكمة سبيلاً ولا تفتح لها أبواب أسرار الكون. لقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه، انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً﴾.

فترون أن من ذكر بآيات ربه بعد إرسال الرسل سلام الله عليهم أجمعين، وأعرض عنها ولم يؤمن لما اقترفت يداه من الذنوب، تسد عليه أبواب الهداية وتغلق عليه أبواب الرحمة فيكون بينه وبين الحق حجاب حاجز يمنعه عن رؤية الحق فلا يرى الحق وينسى نفسه، وقد قال تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾. فلا يفكر في مصيرها وتهذيبها وتوجيهها إلى الغاية التي خلقت لأجلها، فيكون من الأخسرين أعمالاً. وقال تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾. فالله تبارك وتعالى يسد أبواب الحكمة على من أتم عليه

الحجة ولم ينتبه وتوغل في الذنوب وتدنس بالموبقات، بقوله: ﴿أنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾. أي أنا جعلنا على قلوب الذين عصـوا الله ولم يتذكروا بما ذكرهم به أغطية وأستاراً تمنعهم عن أن يفقهوا الدين ويقفوا على أسرار الكون وحكمة الوجود. فيعترضون ويتذمرون وينكرون ويتفلسفون. وليس هذا الاعتراض والتذمر والانكار والتفلسف إلا رشحات نفس تلوثت بالذنوب ومظاهر قلب عمى عن رؤية الحق والواقع. فانه تعالى يقول: ﴿أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. وجاء في الحديث: ﴿إن أعمى العمى عمى القلوب﴾. ونستجير بالله من ذلك.

فلا يمكن أن تتجلى الحكمة في النفس الانسانية إلا إذا طهرت بالعبادة وترك المعاصي والتزكية والتجلية والتحلية. وهذه لا تحصل إلا بعد أن يخاف الانسان ربه ويخشاه فيؤاخذ نفسه على كل صغيرة وكبيرة، ويلومها ويؤنبها ويستغفر الله منها بأنواع الاستغفار.

إن الله تعالى يقسم بالنفس اللوامة تقديراً لها بقوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾. فإذا لام الانسان نفسه وكفر عن سيئاته أخذت نفسه تتزكى وتتطهر شيئاً فشيئاً بنتيجة خوفه من الله تبارك وتعالى، فتنفتح عليه إذ ذاك أبواب الحكمة وتطمئن نفسه وتحلُّ أمامه كل ما يختلج في نفسه من اعتراضات وتنقشع عنه الشكوك والريب والأوهام. إن الصادق (ع) يقول: «ليس العلم في السماء فتستنزلوه أو في الأرض فتستخرجوه، وإنما هو كامن في جبلتكم، تخلقوا بأخلاق الروحانيين يكشف لكم». ومن كان في نفسه شك فيما أقول فليعمد إلى التجربة. فان المريض بأمراض بدنية يطيع الطبيب فيما يقول ويعمل حسب وصفة الطبيب فيبرأ من مرضه. فمن كان يرتاب في ما أقول، فليدرس الدين الاسلامي ليقف على المناهي والمحرمات والمباحات، ليقف على الآداب الاسلامية. ليطلع على العبادات التي بها تزكو النفس، ثم يعمل مستعيناً بالله حسب علمه ليرى بعد زمن قليل كيف تتجلى في نفسه الحكمة وكيف يتقرب يوماً بعد يوم إلى الله تعالى وكيف يدخل في عالم جديد، عالم فـرح واطمئنان، عالم كله نور وصفاء.

إن رسول الله (ص) قرأ على ثلة من الشبان سورة الزمـر التي فيها:

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين﴾. ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين﴾. فبكوا خوفاً من الله تبارك وتعالى، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. فلماذا نرى علماء لا يخشون الله تبارك وتعالى ويرتكبون أنواع المعاصي؟ نرى علماء في الرياضيات العالية، في الكيمياء العالية، في الفلك العالي، في الفيزياء العالية، في الفلسفة بأنواعها، في التأريخ والجغرافية وفي بقية العلوم يعصون الله تبارك وتعالى ولا يبالون فرحين، كأن ليس وراءهم حساب. فليس إذن مراد الله من كلمة (العلماء) هذا العلم المادي الذي يحصل بعملية تفكير تشبه عمل النجار الذي اعتادت يداه فن النجارة بنتيجة الممارسة والتمرين. وإنما مراد الله من هذا العلم: هو العلم الذي يحصل نتيجة خشية الله ونتيجة خوف الله تبارك وتعالى وأعمال تترتب على هذه الخشية وذاك الخوف. وهذا العلم هو الحكمة التي مدحها الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

وقد عرَّف الله الحكمة بقوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة، أن أشكر الله﴾. فأعلى مراتب الحكمة شكر المنعم وهو بابها. وهذا الشكر يتجلى في جميع العبادات والأعمال الصالحة. فكلها مظهر من مظاهر الشكر، ولا يحصل ذلك إلا بعد خوف الباري جل جلاله. ومن ثم تتجلى الحكمة وتطمئن النفس. إذن «رأس الحكمة مخافة الله».

يقول الله تباركَ وتعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾. (سورة النور: ٥٢). وفي موضع آخر: ﴿فذكر إن نفعت

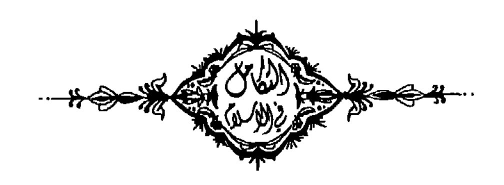
الذكرى، سيذكر من يخشى﴾. فعلق التنبه والهداية والاستبصار على الخوف والخشية بقوله: ﴿سيذكر من يخشى﴾. وهل الحكمة غير الهداية والاستبصار.

ويمدح الله في مكان آخر الذين يخشونه ويخافونه بقوله: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء العذاب﴾. ثم يبشرهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾.

وعن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا اسحاق خف الله كأنك تراه، وإن كنت لاتراه فأنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك».

وعنه عليه السلام، أن النبي (ص) قال: «يا أيها الناس، ان لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. ألا أن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار».

فمن أراد أن تفتح عليه أبواب الحكمة وأن يتفهم الدين تفهماً يؤدي به إلى تكميل نفسه ليكون بشراً على شكل ملك أو ملكاً بصورة انسان، فليس عليه إلا أن يخاف الله جل جلاله بترك المحرمات جميعاً وأن يكون مسلماً حقاً، عاملاً بكل ما يأمر به الدين المبين، دين العقل والتفكير الصحيح.



أثر الخشية في تكامل النفس

إن خشية الله جل وعلا هي خير صفة يتحلى بها الانسان فتصرفه عن الولوج فيما حرَّم الله تعالى. فهي رادع نفسي يمنع الفرد عن ميول النفس الأمارة بالسوء. وان هذا الرادع ليكون مع الانسان في خلواته وحيث لا يعلم بسرائره إلا الله. فهو يمنعه عن الموبقات والمدنسات وكل ما يؤدي إلى تسافل النفس.

إن الله تبارك وتعالى قد أودع هذه الخشية في الانسان بصورة فطرية بقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر، وقوله في سورة الشمس: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي ألهم الله تعالى الانسان طرق الفجور وسبل التقوى.

وقد أتم الله تعالى على عباده الحجة بهذا الالهام وفتح لهم بعد ذلك باب الاستغفار والتوبة والانابة ليستغفروا ويتوبوا. ألا ترى أن الانسان عند محاولته أول كذبة أو أول افتراء أو أول سرقة أو أول ظلم أو أول دع لليتيم تشمئز روحه ويحتبس طبعه. فوازع باطني يلومه ومؤنب داخلي يؤنبه ويوبخه.

ثم انه إذا تمادى في الفجور والفسوق والمعاصي خفَّ أثر ذلك الوازع شيئاً فشيئاً حتى ينطفىء ويزول أثره. فيقسو القلب إذ ذاك وأعني به النفس الانسانية، فتكون كالحجارة أو أشد قسوة. ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله!﴾. وما قدمناه تفسير لقوله تعالى: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

قال آنس بن مالك: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال يا رسول الله، أشكو اليك قسوة قلبي، فقال له: ﴿اطلع إلى القبور واعتبر بيوم النشور﴾. لذلك يجب على المربين أن ينبهوا الطلاب منذ نعومة أظفارهم بعواقب المعاصي الوخيمة وأن يحذروهم عنها أيما تحذير. وأن يبينوا جسامة كل

من المعاصي عند الله والحدود التي قررها الله تعالى لكل من المعاصي والجرائم، لئلا يرتكبوا المعاصي أبداً. وأن يتجنبوا المعصية الأولى اجتناباً لا مزيد عليه. فأنها مفتاح المعاصي والسبب الرئيس للولوج في معاصى أخرى. يقول الله تبارك وتعالى في مدح الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً﴾.

فالخشية صفة الأنبياء عليهم السلام وبها امتازوا عن سائر الخلق، لأنها طريق الحكمة وطريق الوصول إلى الحق وإلى الكمال المنشود.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾. فجعل الله تبارك وتعالى الخشية والحذر باب العلم بالحقائق بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. وأراد بالانسان أن يكون بين الخوف والرجاء. فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ويبعد الانسان عن المناهي والموبقات. فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح: ﴿لو وزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما وإن عظم الخوف كان أدعى إلى السلام﴾[1].

وفي الحديث: «إن الله أنزل في بعض كتبه: ﴿وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة﴾. وقوله تعالى في امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾. وهي ذكر الآخرة.

وقال الله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾. فصفاء القلب وانابته وتزكيته تتوقف على الخشية. وقوله تعالى أيضاً: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فان الجنة هي المأوى﴾. فعلق كمال النفس والفوز بالجنة على مخافته تعالى. وقال سبحانه عن هابيل يروي قوله لأخيه:

---

(١) قد أكرر الآية أو الحديث لأهمية هناك أو مناسبة. ولا شك أن في هذا التكرار تأثيراً في النفس.

﴿أني أخاف الله رب العالمين﴾. وقال تعالى في مدح قوم: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾. وقال: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾. وقال: «وإياي فارهبون﴾. وقال أيضاً: ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ .

وقال رجل لرسول الله (ص) في قوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ يعني بذلك: الرجل الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو خائف ؟ قال: لا، ولكن الرجل الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف أن لا يقبل منه . وقد جاء في الحديث: ﴿إياكم ومحقرات الذنوب، فان لها من الله طالباً، وانها لتجتمع على المرء فتهلكه﴾. وقال لقمان (ع) لابنه: «يا بني، خف الله خوفاً لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك».

وقال الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول الله ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرائيل كئيباً حزيناً، فقال له رسول الله (ص): يا أخي جبرائيل، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ جهنم اليوم. فقال: وما منافيخ جهنم؟ قال: ان الله أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت. فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها. فبكى رسول الله (ص) وبكى جبرائيل (ع). فأوحى الله اليهما قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار، ولكن هكذا كونا».

وروي أن ابراهيم (ع) كان يسمع منه أزيزٌ كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره. وكان سيدنا رسول الله (ص) كذلك. وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام إذا قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» يتغير وجهه ويصفر لونه فيعرف ذلك في وجهه من خيفة الله تعالى. وقد اعتق الف مملوك من كد يمينه. وكان يغرس النخل ويبيعها ويشتري بثمنها العبيد ويعتقهم، ويعطيهم مع ذلك ما يغنيهم عن الناس. وأخبره بعض مواليه أنه

قد نبع في بستانه عين ينبع منها الماء مثل عنق البعير فقال: «بشر الوارث، بشر الوارث، بشر الوارث. ثم أحضر شهوداً فأشهدهم أنه وقفها في سبيل الله حتى يرث الأرض ومن عليها، وقال: إنما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهي النار».

وشاهد رجل علياً عليه السلام وهو يناجي ربه. وإذا به أضحى كالخشبة اليابسة. فجاء مسرعاً إلى بيت فاطمة عليها السلام يخبرها بأن بعلها قد مات. فقالت: في أية حالة رأيته؟ قال: رأيته يعبد ربه. قالت: انه يغمى عليه كل ليلة مرات من خشية الله تعالى.

وجاء في الحديث: ﴿حرمت النار على عين بكت من خشية الله﴾. وعن أبي أمامة، قال: قال النبي (ص): «ما يقطر في الأرض قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل من خشية الله لا يرا أحد إلا الله عز وجل». وعنه عليه السلام: «إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها».

وإن فاطمة سلام اللهعليها أوصت بأن تدفن معها قارورة كانت تجمع فيها دموعها من خشية الله جوف الليل. وعن الصادق (ع) قال: حدثني أبي عن أبيه: «أن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم. وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها. وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عز وجل، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار».

كل ذلك مع عصمتهم وطهارتهم سلام الله عليهم بنص من الكتاب والسنة.

فنسأل الله تعالى توفيق الخشية والخيفة، واجتناب الآثام صغائرها وكبائرها، ونستعيذ به من الركون إلى الشهوات والأماني، فكم من أناس خرجوا من هذه الدنيا وهم يمنون أنفسهم بالاستغفار والانفاق في سبيل الله،

فلم تتح لهم الفرص وألهتهم شهواتهم، وأبعدتهم عن توفيق الملافاة والانابة معاصيهم وما اجترحت أيديهم، فذهبوا بلا زاد ولا عمل، فخسرت صفقتهم، فخسروا أنفسهم ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾. أنه تعالى يقول: ﴿والعصر ان الانسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.



قيمة البلايا في تكامل النفس

ما من شخص إلا ويصاب في حياته بنوع أو أنواع من البلايا والنوائب. يختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأفراد. فمنهم من يبتلى بين آن وآخر بضيق في العيش أو مرض بسيط لا يستغرق زمناً طويلاً، بينما نرى الآخر يبتلي طيلة حياته بمرض مزمن أو عاهة مزمنة أو فقر مدقع مستمر أو علة لا مفر منها. أو نراه مقعداً يتمنى المشي أو مصاباً بمرض في المعدة لا يقوى على الأكل كما يجب، ويتمنى لو أنفق نصف ماله فيأكل كما يأكل أحد عماله الذين لا يملكون إلا قوت يومهم.

نرى أشخاصاً يبتلون بأنواع من الأمراض في أواخر عمرهم وهم مترفون في أوائل حياتهم منعمون مع كمال الصحة.

نرى أشخاصاً بعكس ذلك مصابين بأنواع البلايا من فقر ومرض وغيرهما في أوائل حياتهم، مترفين منعمين في أواخر حياتهم الدنيوية مع صحة كاملة. وقد نسمع كثيراً من الشكاوى من الطبقة المريضة أو المبتلاة بالفقر. يقول بعضهم: لماذا فلان مع عدم قيامه بأمور خيرية وأكله أموال الناس منعم مرفه؟ لماذا فلان مع تقواه وورعه مبتلى بأنواع المرض والفقر؟ ما هذا الاختلاف؟ ألا يحب الله الصالحين من عباده فيبتليهم بأنواع الأسقام ومختلف النوائب؟.

ونسمع أيضاً بعض الشكاوى من الطبقة المنعمة لخسارة تصيبهم، أو فقدهم ولداً أو لطمعهم في مال أكثر.

وقد سمعت رجلاً متوسط الثقافة وقد علّ، ينسب عدم التدبير إلى مدبر هذا الكون ويتهم العالم بعدم الانتظام والتبلبل!!.

وقد ينسب بعضهم الظلم إلى الباري وينفي عنه العدل والرحمة، نستجير بالله من ذلك. ولذلك ظهرت مذاهب فلسفية كمذهب التشاؤم ومذهب التفاؤل. فالفيلسوف المبتلي في حياته بأنواع البلايا والمحن يرى الدنيا كلها محناً ونوائب، والفيلسوف الذي عاش وديع الخاطر، مترفاً منعماً يرى الدنيا كلها

مسرات. فالأول متشائم والثاني متفائل. ولم تفسر لنا الفلسفة علل ذلك. إنما تعزو بعض الموفقيات إلى فعالية الانسان الشخصية لا سيما مذهب (Pragmatisme) . وهذا لا يحل لنا مسألة النوائب السماوية والأمراض والأسقام والأضرار غير المنتظرة مهما بذل الانسان كفاءته وجهوده في دفعها.

ولا شك أن السعي في أمور الدنيا يؤدي إلى نتيجة ملموسة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. وان السعي في أمور الآخرة، من عبادات وأعمال صالحة نافعة وخدمة الغير قربة إلى الله تعالى يؤدي إلى نتيجة محمودة لقوله تعالى: ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾. (سورة النجم).

ولكن كيف تفسر هذه المحن والأمراض والنوائب. أو في استطاعة الانسان رفعه أو دفع كل ذلك؟ كلا. ولا مراء أن لا حقيقة بعد حقائق القرآن. وقد فسر لنا ربنا جل وعلا كل ما يختلج في صدورنا عن الجهل ويؤدي بنا إلى الاعتراض الواهي: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ (سورة الأنعام). ولكن لبعدنا عن تفهم القرآن والعمل بما فيه أصبحنا مجموعة شكوك واعتراضات واهية، فنسمي هذه الاعتراضات فلسفة وهذه الشكوك حكمة. مع أنه لا مجال إلى الشك والريب بعد تفهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

فهذا قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعاً بصيراً﴾. أي خلق الله الانسان للامتحان والاختبار. وكيف يكون هذا الاختبار؟ هذه اختبارات تختبر بها النفس ولا تشبه اختبارات الحوادث الفيزياوية أو الكيمياوية، وإنما هي امتحانات تتوجه إلى النفس مباشرة. فاما أن تتوفق فيها النفس فتتقبلها بصدر رحب وتعمل فيها حسب أمر الله تعالى، أو تراها ثقيلة فترفضها وتتبع شهواتها وميولها الجامحة الامارة بالسوء، أو تكون بين هذا وذاك، فتكتب له درجة في الكتاب الخاص بها حسب ما تقوم به من أعمال.

يُختبر الغني بالفقير: يأتي الفقير الغني فأما يستقبله هذا الغني استقبالاً شيقاً. استقبالاً فيه من البشر والحنان فيعطيه ما يغنيه، إن أمكن، أو يعطيه حسب وسعه، وأما أن يخفي نفسه في بيته فيقول لخادمه: قل لهذا الفقير العاجز: أني لست في البيت أو مسافر! فيرجع المسكين العاجز خائباً منكسراً يائساً من جود هذا الغني أو بالأحرى من عدم قيام هذا الغني بواجبه، غير يؤوس من رحمة الله تعالى. لذلك يجيب أصحاب الشمال عندما يسألهم أصحاب اليمين: ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾. فأنهم يذكرون عدم إطعامهم المسكين بعد عدم أدائهم الصلاة مباشرة. وهذا دليل على ما لإطعام المسكين في الاسلام، من أهمية فائقة. لذلك يقول الله تعالى في مقام آخر: ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾.

إن الله يمتحن الفقير بالصبر فإن لم ييأس من رحمة الله وصبر فقد فاز في هذا الامتحان العالمي. وإن تذمر وتضجر واعترض على حكمة الله وأساء الظن في جعله فقيراً بعد عن رحمة الله مع فقره ومسكنته. فالله يقول: كما في الحديث القدسي: ﴿إني عند حسن ظن عبدي﴾. وجاء في الحديث القدسي أيضاً: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك». يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾. فجعل علة الخلق: الابتلاء. أي أن الله إنما خلقنا ليبلونا ويمتحننا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وغيرها.

يكون الانسان في تمام الصحة فيأخذه الغرور ويمنّي نفسه طول العمر، فلا يسعى في تزكية نفسه وتطهيرها ويمني نفسه: انه سوف يكون انساناً صالحاً في أواخر أيام حياته. فالله يمرضه كي ينتبه ويعلم أن ليس هناك وقت معين للموت (كما يخمن الانسان)، فان صبر على ما يصيبه في مرضه وشكر الله على بلائه كان له، كما يقال: (أجر وعافية)، فيكون هذا المرض سبباً لتنبهه واستبصاره وسقوط شيء من ذنوبه السابقة. فقد جاء في الحديث: ان الله تعالى يقول:

«ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده. فان كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيقت عليه رزقه. فان كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا شددت عليه الموت حتى يأتيني ولا ذنب له ثم أدخله الجنة». «وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فان كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا أمنت له من سلطانه. فان كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت حتى يأتيني ولا حسنة له، ثم أدخله النار».

وحاش الله أن يريد بعبد دخول النار إلا إذا أتم عليه الحجة مرات ومرات وتمادى في البغي والفجور والضلال وانقطع الاتصال ويئس من رحمة ربه ولم تفد فيه أية هداية وأية رحمة واستحق العقوبة فأصبح لا يطهره إلا النار. وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾.



أثر النوائب في تطهير النفس وتكاملها

يشكو كثير من الناس عندما تنتابهم النوائب وتكتنفهم المصائب. يشكون متذمرين غير شاكرين ولا صابرين. ذلك لأن حكمة النوائب والبلايا قد خفيت عليهم، ولو أنهم علموا أسباب ذلك لصبروا بل ولشكروا واستغفروا.

فلقد رأينا أحب الخلق إلى الله أنبياءه وأولياءه قد ابتلوا ببلايا جمة ومصائب عدة، لم يبتل بمثلها غيرهم وهم أعزاء الله وخيرة خلقه.

نرى كثيراً ممن أفسدوا في الأرض واستوجبوا سخط الله، مترفين منعمين لا يبتلون في حياتهم بما يبتلي به غيرهم من أصفياء الله وصالحي عباده.

ولو تتبعنا القرآن الكريم وتعمقنا فيه لعلمنا أن النوائب والمصائب، وان شئت فقل، ان الاختبارات والامتحانات تتوجه إلى كل نفس لا محالة لتبدي ما عليها من صبر وشكر واستغفار وعزم وتوكل وانفاق لجبران ما فات، أو لتظهر ما تحمل من غي وطيش وكبر وتذمر وكفر وجحود أي أما إلى تكامل أو إلى تسافل وتدهور ما بعده انحطاط. ان الله تعالى يقول: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

فان الاقرار بالايمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، أي في: «ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ولا بد من اجتياز امتحانات صعبة دقيقة أصعب بكثير من الامتحانات المدرسية مهما كان الموضوع صعباً والنجاح فيها عسيراً. كي يعلم الانسان حقيقة نفسه، حتى إذا عوقب بعد الموت أو قبل الموت اعترف بأنه إنما عوقب لسوء سريرته واتباع هوى نفسه وسقوطه في الامتحانات الالهية، تلك الامتحانات التي كان بامكانه أن ينجح فيها.

هذا رجل قد أنعم الله عليه بمال كثير، يأتيه جاره المسكين العاجز، فلا ترق له نفسه ولا يعطيه مما فرضه الله عليه، وهذا مريض بائس، قد أشرف

على الموت وهو طبيب ذو ثراء، فلا ينهض لمداواة أخيه المسلم ولا يعينه من فضول ماله، ألم يكن ذلك في امكانه؟ ما الذي منعه عن ذلك؟ أليست نفسه الأمارة بالسوء؟ ولو حكم عقله في وقت لا يغلب عليه هواه، في وقت أزيح عنه شيطانه، لعلم أنه خان نعماً أنعم الله بها عليه، بل خان نفسه وخسرها. فكان من الذين «خسروا أنفسهم».

إن الله تعالى يقول: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

فكما أن الانسان يُمتحن في حياته بالمال الكثير والعلم الغزير وأنواع الفنون والصنايع وملكات وقابليات ومواهب ونبوغ واستعداد فائق وأمثال ذلك من أنواع الكمال والجمال، يُمتحن أيضاً بكل ما يؤدي إلى الخوف والجوع والفقر وفقد الأولاد والأعزة وقلة الثمرات، ليؤدي امتحانه بالصبر على كل ذلك.

فبالصبر يبرز الإيمان العملي، الايمان الفعلي، كما أن بالنطق يظهر الإيمان القولي، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿أحسبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟﴾. لأن مجرد القول بالايمان لا يظهر حقيقة الإيمان، ولكن الصبر وتفويض الأمر إلى الله وتطمين النفس بنعيم الآخرة والرجوع إلى الله هو الذي يظهر إيمان الشخص الفعلي الواقعي. لأن حقيقة الإيمان تتجلى بالاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة والثواب والعقاب. فمن زاد إيمانه بالبعث والحياة الآخرة قوي على الصبر. فكأن معيار الايمان الحقيقي هو الصبر على النوائب والمصائب على أنواعها. لذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون﴾. ثم أعقبه بمنزلتهم العظيمة ويا لها من منزلة بقوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

نعم: «إن عظيم الأجر مع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم» ـ كما جاء في الحديث.

فالنوائب والمصائب إنما هي بمثابة الأعمال الكيمياوية التي تجري على قطعة من المعادن المختلفة لاستخراج الذهب الخالص منها، فان الانسان تجري عليه أنواع الامتحانات حسب منزلته ولياقته ليخرج إن كان مؤمناً حقاً من هذه الدنيا بالذهب الخالص. ولنعم ما قال الشاعر: عليٌّ الدر والذهب المصفى.

وعن أبي عبد الله (ع): «أربع لا يخلو منهن المؤمن أو واحدة منهن: مؤمن يحسده، وهو أشدهن عليه، ومنافق يقفو أثره، وعدو يجاهده، وشيطان يغويه».

هذه هي سنة الله في الأولين والآخرين، ان الله تعالى يقول: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾.

تتبعوا أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأحوال الأئمة الأطهار عليهم السلام وأحوال المؤمنين، ترووا أن أقربهم إلى الله كان أشدهم ابتلاء وأكثرهم غرضاً لسهام المنافقين والأعداء. وهم على حسب مراتبهم يتفاوتون في درجات الصبر، وإن نبينا محمد (ص) وهو سيد المرسلين كان أكثر الأنبياء ابتلاءاً. لذلك قال صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين: «ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت».

وممن صبر على المصيبة صبراً لا يقوى عليه غيره، صبراً يتجلى فيه الاباء والبطولة الخالدة: الحسين (ع). وهو القائل: «رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين». ويقول (ع) في مكان آخر مخاطباً رب العباد: «رضى بقضائك لا معبود سواك». فوليُّ الله جعل دائماً غرضاً لعدو الله، فقد قال أبو عبد الله (ع): «ان الله جعل وليه في الدنيا غرضاً لعدوه».

إن البلايا لتختلف شدة وضعفاً، كما أسلفنا، حسب قابلية الممتحن واستعداده. وهذا من عظيم لطف الله وجزيل سيبه. فلا يمتحن المؤمن كما يمتحن النبي أو الوصي. لذلك يقول لنا أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: «أشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل». ولذلك يقول

رسول الله (ص) لسبطه الحسين (ع): «يا بني، أخرج إلى العراق، شاء الله أن يراك قتيلاً وأهل بيتك سبايا، وان لك درجة لن تبلغها إلا بالشهادة». نعم، «إن المؤمن بمنزلة كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عز وجل ولا خطيئة له». كما يحدثنا موسى بن جعفر (ع).

وإن درجة الايمان تتناسب مع تحمل عظيم البلاء، فان الانسان قد يعرض عليه المال الكثير من مورد مشكوك أو محرم أو تعرض عليه رئاسة فيها هتك حرمات الله والتصدي إلى أنواع الجور والظلم فقلَّ من ينجح في هذين الامتحانين بترك المال لحرمته والرضا بالفقر والمسكنة، أو رفض الرئاسة والعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾.

فالتقوى: أن ترى وجه الحيلة ويصدك عن ارتكابها خوف الله. لذلك يقول الحسين (ع) في كلمته الخالدة: «الناس عبيدُ الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون».



أثر الصوم في تكامل النفس

الانسان في طريقه إلى التكامل يحتاج إلى ما يطهر نفسه ويزكيها فيخرجه من ماديته الحالكة إلى معنوية وضاءة تؤدي به إلى التقرب إلى الله تعالى وإلى حلول حب الله، جل وعلا، في نفسه. ولا يحلُّ هذا الحب العظيم إلا في نفس لها من الكمال نصيب، ولا كمال إلا بما يبعد الانسان عن أدران المادة.

فالصوم عدا ما فيه من معنوية ذاتية، لو قصد به التقرب إلى الله تعالى، تقرباً لا شائبة فيه وأريد به إطاعة الله وابتغاء مرضاته، يذيب المادية التي تعارض معنوية النفس وسير تقدمها نحو الكمال المنشود. لذلك كان من المستحب أن يصوم الانسان يوماً في أول الشهر ويوماً في وسطه ويوماً في آخره، وثواب ذلك ثواب من صام الشهر كله. فهو بعمله هذا يذيب المادية ويدخل في عالم قدسي فيه حب الخالق جل شأنه والتفكر في عظمته وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وزبرجها.

فإن تكامل الانسان إنما يتناسب مع درجة تفكره في الآخرة وعدم رغبته في الدنيا. ان الله تعالى يقول: ﴿من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. (سورة هود: ١٥ و١٦).

وإن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «صوموا تصحُّوا» يشمل الصحة في النفس والصحة في البدن، ولا ريب أن صحة النفس هي الغاية القصوى التي يجب على الانسان أن يسعى لتحقيقها، ولا تصحُّ هذه النفس إلا إذا سلمت من أسر الهوى والشهوات. إذ ذاك يعمل عقله الفطري فيصدق بما أنزل على محمد (ص). يقول علي (ع): «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى»، وإن الصوم خير قامع لهوى النفس والأهواء الفاسدة.

لذلك جاء في الحديث: ﴿خصاء أمتي الصوم﴾. أي أن الصوم خير قامع للشهوات، فلو تعوَّد الشاب في عنفوان شبابه أن يصوم أكثر أيامه، فانه لا يتصدى إلى ما حرم الله تعالى من أعمال قبيحة وفعال شنيعة وينتظر حتى يرزقه الله تعالى زوجة صالحة. فيكون ملكاً على شكل انسان، فيه من الروحانية وصفاء النفس ما لا يوصف. ومن كان غير مصدق فليجرب، فالتجربة سند العلوم الحديثة ومدارها.

ومما لا مراء فيه أن الانسان لم يؤت به إلى هذه الدنيا بهذه الصورة التي يولد إلا ليتكامل. ذلك لأنه ناقص حين يولد. والله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فوجب على الانسان أن يتكامل لا محالة، فان أبى فمصيره النار ليطهر فيها. فإذا تكامل كان أهلاً ليخلد في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين﴾ ولذلك يقول الله تعالى في كتابه المجيد، حين يتساهل مع من لا يقوى على الصوم إلا بمشقة لا تكاد تطاق بقوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾. ذلك لأن ما يستفيده هذا البشر (رغم تحمله مشقة كبيرة) من المعنوية الفائقة والفوز بمعرفة الله تعالى هو أضعاف هذا العناء. فليس للبشر إلا أن يتبع ما سنه الله لتكميله على لسان أنبيائه (ع)، ان أراد الفوز والنجاح في دوره التكاملي، وإلا كان من الأخسرين أعمالاً وممن خسروا أنفسهم، على حد قوله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

ولا ريب أن الشيطان هذا الذي يرانا ولا نراه (وكم من أشياء لا نراها وهي ترانا) هو عدوُّ الانسان اللدود. يقول الله جلَّ وعلا: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾، (سورة فاطر: ٦). ولولا إتباعنا إياه وإطاعتنا له لعرجنا في ساحات القدس.

على أن ليس للشيطان أية سلطة علينا أو نفوذ، على حد قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من إتبعك من الغاوين﴾. (سورة الحجر). وقوله تعالى أيضاً: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾. (النحل: ٩٨ ـ ١٠٠).

فلا سلطان ولا سيطرة للشيطان على الانسان، خلافاً لما يقوله بعض من يريد تبرير موقفه عند ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات. إنما الشيطان يدعونا فحسب ولا يتعدى أمره (الدعوة). فما علينا إلا أن لا نلبي دعوته. وإن الشيطان ليعترف يوم القيامة قائلاً: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾. (سورة ابراهيم: ٢٢). وقد جاء في الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السموات».

إن الشيطان يدخل فينا كـالأشعة السينيـة (Rayons x) وقد جـاء في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش».

إن أول من ظفر بأن في الفضاء أمواجاً كهربائية ـ مغناطيسية تشبه أمواج الضوء المرئي في خواصها وقوانينها هو (جيمز). أنه أثبت بمعادلات رياضية وجود هذه الأمواج في الجو. وما كان ليصدقه أحد لأن غيره ما كان يرى ما يراه (جيمز) بعقله! فان ما لا يرى بالعين المجردة أكثر مما يرى بها وهو موجود. وان الموجات التي لا ترى بالعين أكثر فعالية وتأثيراً مما يـرى بالعين. فالكهـرباء أكثـر فعاليـة من الخشبة، والشمس أكثـر فعاليـة من الكهرباء، والعقل أكثر فعالية من النفس وهكذا. فكلما كان الشيء دقيقاً لا تراه العيون (المحدودة في قابلياتها) كان أكثر تأثيراً وهيمنة. وكلما كان إلى المادية والتجسم أقرب كان محكوماً لما هو أدق منه خلافاً لما يهذي الماديُّ الطائش.

إن الشيطان موجود كوجود النفس والعقل والجن والأمواج الهرتزية، وهو يرانا من حيث لا نراه، فالله تعالى يقول: ﴿أنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾. وفي آية أخرى يقول الشيطان: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

فالشيطان يدخل في جوف الانسان من طرق شتى ويقوم بمحاكمة مع العقل الانساني. أرأيت أنك إذا أردت أن تعطي مسكيناً عشرة دنانير وأنت

لك حاجة كمالية يمكنك أن تستغني عنها، كيف يحدث بينك وبين ناطق في خلدك محاكمات ونقاش، أنت تريد العطاء وهو يسول لك الدنيا ويزينها ويعدُّ لك حاجات عدة. يدعوك إلى أن تعدها من الواجبات، فتنصرف عن هذا العطاء الذي يقربك إلى الله ويزكي بدنك ومالك ونفسك. هذا الناطق هو الشيطان. . .

أرأيت إذا كان وقت السحر (قبل طلوع الفجر) وأردت النهوض إلى صلاة الليل والتهجد بين يدي رب العباد، تأخذ بنفسك لتعرج بها إلى الملكوت الأعلى، كيف يخدعك ناطق في جوفك قائلاً: أنك متعب، فنم هُنيهة، النوم عافية، ولا بد لك من أن تحافظ على صحة بدنك فانك إذا قمت إلى صلاة الليل لا تقوى على انجاز الأعمال التجارية في النهار، فتكون متعباً. . . إلى ما هنالك، حتى جعلك تنام وتندم في آخر ساعة حياتك على ضياع عمرك وعدم زرعك في دنياك ما تحصده: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، الا من أتى الله بقلب سليم﴾. ذلك لأن ﴿الدنيا مزرعة الآخرة﴾ كما جاء في الحديث. ولا ريب أن القلب لا يكون سليماً إلا بأعمال يتعلمها الانسان من خاتم النبيين محمد وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ويعمل بها باخلاص ولوجه الله الكريم.

فلو تمكن الانسان أن يسيطر على هذا العنصر الذي لا يراه بباصرته (هذه الباصرة التي تبصر إلى مسافة محدودة وأجساماً معينة في الصغر ولا تتعداها) وأعني به الشيطان، لولج في عالم من المعنوية والقدسية فيه من السرور ما لا يوصف، ومن الحبور ما لا يحد. ولا تتحقق له هذه السيطرة إلا بما يخفف وطأة المادة في بدنه ومنه الصوم والصلاة وكل ما يؤدي إلى تخفيف الذنوب وتكفيرها ومحوها. لذلك جاء في الحديث: «الصلاة صابون الخطايا».

واني أذكر فقرة من دعاء يقرأ كل يوم من أيام شهر رمضان يتعوذ فيه المؤمن بالله من عدوه الشيطان لأهميته: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وأعذني فيه من الشيطان الرجيم وهمزه ولمزه ونفثه ونفخه ووسوسته وتثبيطه

كيده ومكره وحبائله وخدعه وأمانيه وغروره وفتنته وشركه وأحزابه وأتباعه أشياعه وأوليائه وشركائه وجميع مكائده».

تتكامل النفس الانسانية بمقدار ما تـذوب فيها المـادية وتقتلع عنهـا لصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة، فمعالجة النفس غير معالجة البدن ولها طرق خاصة ومن أهمها الصوم. فله أثر فعال في تكامل النفس.

أنظروا إلى بعض ما جاء في دعاء اليوم الخامس من شهـر رمضان المبارك. انه معالجة للروح والنفس والقلب. فان القلوب مريضة ومعالجتها لا تكون إلا بمـا يناسبها. ولا يعلم طرق هذه المعالجة إلا أطباء الأرواح وهم الأنبياء والأوصياء من بعدهم سلام الله عليهم أجمعين بما أوحى أو ألهم اليهم من جانب الله تعالى.

يقول الصائم وهو خاشع ذليل بين يدي ربه في اليوم الخامس من شهر الغفران: «أللهم صلّ على محمد وآل محمد وانزع ما في قلبي من حسد أو غل أو غش أو فسق أو فرح أو مرح أو بطر أو أشر أو خيلاء أو شك أو ريبة أو نفاق أو شقاق أو غفلة أو قطيعة أو جفاء أو ما تكرهه مما هو في قلبي». إلى أن يقول: «أللهم أرزقني سلامة الصدر وانفتاحه إلى ما تحب وترضى، ونور القلب وتفهمه لما تحب وترضى، وضياء القلب وتوقده في ما تحب وترضى، وحسن القلب وإيمانه بما تحب وتـرضى. يا من بيـده صلاح القلب، أصلح لي. يا من بيده سلامة القلب، فاجعله سالماً لي».

عندما كنت أدرس في الجامعة حاولت أن أحقق أول مادة من هذا الدعاء وهو قلع (الحسد) عن نفسي. فصرت أترجم بعض المسائل الصعبة من كتب مهمة أخرى وأقدمها قبل أن أحلها إلى من كـان ينافسني في الصف، وأقدم له الحل إن تعسر عليه، ولا أضنّ عليه بشيء مما أعلم أو أوفق إلى حله بلطفه تعالى.

إن الصوم والدعاء (والجوف في معزل عن المادة) وما يقوم به المؤمن في ليالي القدر، خير وسيلة لتعمير القلب وإصـلاح النفس حتى تصبح

النفس مصداق هذا الحديث: «من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن».

فكما أن لضغط الجو مقياساً (بارومتر) ولحرارة الجو مقياساً (ترمومتر) كذلك لدرجات سمو النفس وتكاملها مقياس بل مقاييس. من تلك المقاييس: الحديث المتقدم. ومنها مفاد هذه الآية الشريفة: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾.

فالوجل والخوف من الله تعالى عند ذكره وانهمال الدموع عند سماع آي الذكر الحكيم من علائم الايمان. ان الله تعالى يقول (عندما يمتدح خواص عباده: الأنبياء عليهم السلام): ﴿وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً﴾.

أتذكر ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، كنت في روضة علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام بعد منتصف الليل. وكان بجنبي رجل يقرأ دعاء (أبي حمزة الثمالي) من أدعية السحر. رأيته يبكي بكاء الثكلى حتى ابتلت لحيته. وكان يعلوه من الانكسار والخنوع والانقطاع والابتهال ما لا يوصف. ولا يعلم قيمة ذلك إلا من علم ما عليه نفسه من ذنوب وآثام ومعاصي وخطايا وهو نادم عليها. ذنوب احتطبها على ظهره، فأثقلت كاهله.

والانسان ليشعر برفع هذا الثقل عن كاهله إذا ناجى ربه وذرفت عيناه بالدموع. لا سيما إذا قرأ دعاء السحر (دعاء أبي حمزة الثمالي) وخشع في دعائه وجرت دموعه على خديه. أنه ليشعر بعد الانتهاء من الدعاء كيف تخفّ نفسه، كأنه قد وضع حملاً ثقيلاً عن كاهله، وكيف يعلوها سرور وابتهاج بصورة لا شعورية. فان من علائم الايمان دمعة الفرح والانجذاب إلى آيات الله، دمعة هي أمارة التسليم والانقطاع. ان الله تعالى يقول: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. (سورة المائدة: ٨٣).

إن القلب ليصدأ إن لم يبك الفرد على ذنوبه أو حباً لله تعالى. وان صدأ القلب أمر معنوي، وإزالته لا تكون إلا بشكل معنوي، والبكاء أمارة هذا الانقلاب المعنوي. ثم أن الدمعة على ما ثبت في الطب الحديث تدفع مئآت الأمراض عن البدن.

ومما لا ريب فيه أن الله لو أراد أن يهدي عبداً (حين يتوجه إليه العبد مكفراً عن ذنوبه) وأحب أن يغفر له جعله يبكي على ذنوبه جوف الليل وأوقات العبادة. وهذا من علائم التقرب اليه تعالى.

تلا رسول الله (ص) على ثلة من الشبان آياً من سورة الزمر: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا. قالوا بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين. وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾. فبكوا وفاضت عيونهم بالدموع، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً علياً عليه الصلاة والسلام: «يا علي، كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضّت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله». ومن جرب القسم الأخير شعر بما يعلوه من سرور وحبور نزيهين طاهرين لا يضاهيهما أي سرور.

يقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين حين تتلى عليهم آياته: ﴿ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾. فهذه الدموع في شهر رمضان المبارك عند تلاوة القرآن وقراءة أدعية النهار وأدعية الليل وأدعية السحر وفي صلاة الليل ولا سيما في ركعة الوتر تذيب المادية المتأصلة في النفوس وتزيل الأدران والأرجاس وذمائم الأخلاق فيرى الانسان نفسه، بعد ذلك، في عالم من القدسية جديد. تصفو النفس بهذه الدموع، فإذا صفت رشحت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليها المعارف الالهية من عالم القدس، فتزداد معرفة بالله تعالى وهي غاية الغايات. فغاية ما يتكامل به الانسان أن يزداد معرفة بالله تعالى، أي أن تكامل الانسان يتناسب طردياً مع درجة معرفته بالله تعالى. فكلما كانت معرفته بالله تعالى أكثر كان سائراً في مدارج الكمال أكثر فأكثر. وان شهر رمضان المبارك يهيىء الوسائل التي تصفو بها النفس لتنال نصيبها من الكمال ومن المعارف الالهية.

وفي الحديث: «أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة». وفي حديث آخر: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب. فان القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء».

نعم، ان المعارف الالهية لا تحصل إلا إذا أذيبت المادية في الانسان كما جاء في الحديث. فإذا ذابت المادية بالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانفاق والايثار ومجاهدة النفس والأعمال الصالحة إزداد الانسان معرفة بالله وأفيضت عليه المعارف الالهية، فان الصادق سلام الله عليه يقول: «ليس العلم بالتعلم. إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه. فإذا أردت العلم، فاطلب أولاً في نفسك العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك».

فالعبودية أساس العلم ومقدمة للافاضات الربانية والمعارف الالهية. وان الصوم من أجلى مظاهر العبودية، وخير وسيلة لتكامل النفس الانسانية.

أثر الحج في تكامل النفس

نرى جميع ما حوالينا من حيوان ونبات وجماد في غاية الكمال. أي أن العالم المادي بما أودع الله تعالى فيه من دساتير دقيقة وخواص متعددة وقابليات خطيرة قد بلغ الغاية من الكمال. وأن أجزاءه مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بدساتير رياضية رصينة، مما يدل على أن الكمال قد بلغ منتهاه فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

وإن العلم الحاضر لم يكتشف عشر معشار ما أودعه الله تعالى من قوانين وخواص في هذا الكون المادي. وإنما قلت (الكون المادي)، ذلك لأن العلم الحاضر علم مادي بجميع شراشره. لا يعمل إلا في المادة ولا يقف إلا على جزء ضئيل مما أودع الله تعالى من خواص ومعادلات لقوانين تربط عوالم المادة بعضها ببعض.

على أن ما ظفر به المتتبعون والمجربون (بفضل الله تعالى) من بعض الدساتير والخواص المودعة في هذا الكونَ بأمره تعالى، لا يزال في حضيض لا يتناهى (الأصغر غير المتناهى). وسيبقى كذلك أبد الآبدين. ذلك لأن علم الله لا يتناهى، ونسبة المحدود إلى غير المحدود صفر: ($\frac{ب}{\infty} = ٠$). إن الله تعالى يقول: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

والعالم الحقيقي، كلما فتح الله باباً من أبواب معرفة الحقائق المادية اعترف بعظم جهله وأنه في اللانهاية من مراتب الجهل. ولا يأتي الغرور إلا من ناحية الجهل. ان الانسان مركب من روح وجسم، فجسمه في غاية الكمال ولكن الانسان ليس بجسم فحسب، بل ليس من الجسم في شيء. انه انسان بروحه ونفسه وهو مخلوق الله الكامل على الاطلاق. والكامل (وهو الله تعالى) لا يصدر منه إلا الكمال. ولذلك تفضل الله على الانسان بغية تكميل نفسه

الناقصة، تكميلاً يناسبها، بأنبياء (ص) ومن بعدهم بأوصياء (ع) يهدونه سواء السبيل ويتصدون لتكميل نفوس البشر وابلاغها إلى حيث يشاء الله تعالى من مراتب الكمال. ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

فالغاية الحقيقية من خلق الانسان: هو أن يعرف الله تبارك وتعالى وأن يزداد معرفة به تعالى بتزكية نفسه. ذلك لأن حب الله ومعرفة الله لا يحلان نفوساً مدلهمة حالكة بذنوب وأخلاق ذميمة وفسق وفجور. فوجب تطهيرها وتزكيتها. ولا تزكو إلا بالعبادة وأعمال صالحة. والأعمال الصالحة هي نوع من أنواع العبادة إذا كانت لوجه الله وطلباً لمرضاة الله.

إننا خلقنا لمعرفة الله تعالى كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف». والعبادة باب معرفة الله تعالى ولا تحصل هذه الغاية الرئيسية من خلق الانسان (وهي معرفة الله) تعالى إلا بالعبادة. قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾ فهم إذا عبدوا الله فتحت عليهم أبواب المعارف الآلهية، وازدادوا معرفة بالله تعالى كلما ازدادوا اهتماماً بالعبادة باخلاص، دونما رياء أو حب لجاه أو طلب للرئاسة.

ومن جملة تلك العبادات المطهرة للنفوس والفاتحة على الانسان أبواب المعارف الالهية: الحج. ولا مراء أن المال يقسي القلب ويؤدي إلى شيء من الغرور والكبرياء ويبعد الانسان ـ بما يترشح منه من ذمائم الأخلاق ـ عن الله تعالى: ﴿ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾. وقد جاء في الحديث القدسي: ﴿وان من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك﴾، فوجب ملافاة ذلك، لئلا توصد على الثري أبواب المعرفة. فشرع الشارع الزكاة والخمس والزكاة المندوبة والصدقات، وأوجب أمراً عبادياً فرضه على أولي الاستطاعة تفضلاً منه عليهم. حتى لا يكون هذا المال حجر عثرة في طريق تقدمهم في مجالات المعارف الالهية الواسعة التي لا تتناهى. فهيأ لهم في بيته الحرام موقف تذرف فيها دموعهم وتخشع فيها قلوبهم وتلطف بها نفوسهم. يشاهدون المقامات القدسية ويتقربون فيها إلى ربهم مخبتين، فلا يبقى حاجب يحجبهم عن الله تعالى لقدسية تلك المواقف. فيذكرون ذنوبهم ثم يبكون عليها

ندماً وحزناً منيبين خاضعين. وان لكل عمل في الحج أثراً في تكميل النفس الانسانية والتساوي بين الوضيع والشريف. فليس هناك اعتبارات دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان. ذلك لأن الله تعالى قد جعل المفاضلة بين الناس بالتقوى فحسب، أي بحسب سمو نفوسهم في حقول التزكية ومجالات التصفية، لقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، على أن في الحج فوائد اجتماعية أيضاً لا تعد ولا تحصى لو استفاد منها المسلمون.

وقد جعل الله المقامات التي يتقرب فيها اليه في مثل مكة وجبالها القاحلة الجرداء لينصرف العبد إلى عبادته، لا يلهيه الشيطان بزخارف الدنيا وجمالها الخداع، لذلك يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«ألا ترى أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل تتائق الأرض مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة (أي قليلة الماء) وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه. فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم. تهوى اليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة. حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له: قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا باعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته. لو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار، جم الأشجار داني الثمار ملتف البنى متصل القوى، بين بره سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كان الأساس المحمول عليها والأشجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة ابليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس (أي زال الريب والشك من

صدور الناس). ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم واسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه».

فلا بيان بعد هذا البيان، فلقد أوضح صلوات الله عليه علة التكليف وحكمة الحج بأبلغ تبيان. فعباد الله الصالحون كانوا، طمعاً في الثواب الجزيل ومزيداً للخشوع والخضوع، يحجون ماشين على أقدامهم أذلاء صاغرين وان الحسن عليه السلام كان يقول: «أني لأستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته». فمشى عشرين مرة من المدينة إلى مكة على رجليه، وان النجائب لتقاد معه.

فالله تبارك وتعالى قد أوجب الحج على المستطيعين من عباده بقوله: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً، ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾. فالمتخلف عن الحج مع الاستطاعة كافر، لأنه لم يشكر ربه على ما تفضل عليه من نعم وقد مكن له أن يحج بيته الحرام ليزداد تقرباً إليه ومعرفة به. فقد جاء في خبر عن الصادق عليه السلام في تفسير: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ ذاك الذي يسوف الحج أي (حجة الاسلام) حتى يأتيه الموت. وعنه عليه السلام: «من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

وعن الصادق (ع): «من مات ولم يحج حجة الاسلام، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه، فليمت يهودياً أو نصرانياً». وقد بني الاسلام على خمس: الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية.

فالحج عظيم فضله، خطير أجره، جزيل ثوابه، جليل جزاؤه. وكفاه ما تضمنه من وفود العبد على سيده ونزوله في بيته ومحل ضيافته وأمنه وعلى الكريم أكرام ضيفه وإجارة الملتجيء إلى بيته. فعن الصادق (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وان دعوه أجابهم، وان شفعوا شفعهم، وان سكتوا بدأهم، ويعوضون بالدرهم ألف ألف درهم» وإن من الذنوب ما لا يكفره إلا الوقوف بعرفة، كما جاء في الحديث.

وقال النبي (ص) لرجل فاته الحج والتمس منه ما به ينال أجره: «لو أن أبا قبيس لك ذهبة حمراء فانفقته في سبيل الله تعالى ما بلغت ما يبلغ الحاج».

وقال: «إن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات، وإذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه، قال: فعد رسول الله (ص) كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرجَ من ذنوبه. ثم قال: أنى لك أن تبلغ الحاج؟».

ويكره ترك الحج للموسر في كل خمس سنين.

فترون: كيف يتكامل الانسان لما يراه من مواقف قدسية تذهب عنه الذنوب وتطهر النفوس عندما يوفق إلى حج بيت الله. فان هذه المواقف وما يقرأ فيها من أدعية وما يقوم به الحاج من أعمال تذيب المادية التي تصيب الثري من جراء المادة. فما على الحاج إلا أن يحتفظ بهذا الصفاء الذي منَّ الله به عليه في بيته، فلا يلوث نفسه بآثام جديدة، ليذهب من هذه الدنيا إلى حيث الخلود نقي الثوب طاهر الضمير.



كل منا ممتحن لا محالة

يقول الله جل شأنه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾. فاللام في (ولنبلونكم) للقسم والنون المشددة للتوكيد ومعنى ذلك: إن الله تعالى بصورة حتمية وقطعية يختبر كل فرد، على اختلاف الطبقات: بالطاعة والصبر على الفقر والسقم وفقد الأولاد والأرحام وبأنواع البلايا والمنايا والحوادث المحزنة والمفرحة والرخاء والشدة إلى ما هنالك. كي يتضح لدى شخص الانسان مبلغ جهاده مع نفسه الامارة بالسوء وعدم إطاعته لها وعدم طغيانها في السراء وعدم الجزع في الضراء.

وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر. وان هذا الجهاد على ما نرى لأصعب بكثير من حل أغمض مسألة في التحليل الرياضي Analyse Mathematique أو الفيزياء العالية. ذلك لأن الذي أوتي موهبة فائقة قد يتمكن بتلك الموهبة وبتمارين متتابعة وجد متواصل من حل تلك المسألة الصعبة، ولكن هذا الشخص نفسه لا يقوى على كبح الشهوات إلا بنفس لها من الجلد والعزم وخوف الله تعالى والتقوى الشيء الكثير. لذلك من السهل جداً أن يبلغ الانسان مرتبة (الدكتورا: Doctorat) إذا أتيحت له الفرص (لا سيما في العلوم الاجتماعية) أو يكون عالماً في فرع من الفروع. ومن الصعب جداً أن يكون انساناً كاملاً.

وكم رأينا من علماء متضلعين فيما اختصوا فيه، مغلوبين تجاه شهواتهم، مستضعفين أمام ميولهم.

قد عرفت أستاذاً (شيخاً للمدرسين: Doyen) في إحدى الجامعات كان يدرس الفيزياء الرياضية العالية. وكان قد ألف ثلاثة مجلدات عن ما دوّنه المسلمون في القرنين الثالث والرابع الهجري في الرياضيات.

فاستأذنت منه الولايات المتحدة (في أمريكا) لتقوم بترجمة ما ألف تجاه مبلغ جسيم. فأذن واستلم المبلغ. فلم يشاهد هذا الأستاذ بعد استلامه المبلغ

إلا بعد انتهاء العطلة وهو مبتلي في عقله! فجاء إلى الجامعة ليدرس الفيزياء الرياضية في الصف الذي كان يدرس فيه. وإذا به يقول: أريد أن أدرسكم اليوم (التاريخ)! ويخاطب أحد طلابه فيشتبه فيه ويظنه غيره. وإذا به مجنون! يحمل إلى دار المجانين ويموت هناك وهو مجنون. ذلك لأنه بعد استلامه المبلغ أزاء جهوده ذهب مباشرة إلى دور البغاء والعواهر وابتلى بمرض الزهري (Syphilis) وإن مكروب هذا المرض يهجم على أضعف عضو في الشخص، فهجم على مخه وأدى به إلى الجنون.

فلو كانت الاتمامات(Types) الصعبة التي لا تنطبق على ما دون من نماذج: (Integrations) تكفي لردعه عن المدنسات وعما حرّم الله تعالى لما ابتلى بالجنون.

فالشيطان لا يخشى شيخ الأساتذة في الجامعة ولا من حمل لقب (الدكتورا: (Doctorat ، سواء كان قد حملها بحق أو بغير حق، وسواء ثابر بعد حمله هذا اللقب على التتبع أو اكتفى باللقب فحسب، وسواء بلغ من التتبع درجة يحق له أن يحمل لقب (الدكتورا) ولكن الظروف لم تساعده لعرض آثاره على جامعة من الجامعات، أو لم يبلغ.

إن الشيطان ليهجم على النفس الانسانية مهما كان نوعها. فيدعوها إلى ما يدنسها ويرديها. وان العلم حديثه وقديمه ليس بالشيء الذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان. ذلك لأن (العلم) عملية فكرية وليس بعملية نفسية.

فالذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان، إنما هو خشية الله وخوف الله إنما هو العبادات وعلى رأسها الصلاة المقبولة: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ صلاة فيها خشوع وخضوع وتفكر وتدبر.

جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له». ويراد بهذا العلم: العلم الالهي والمعارف الالهية. أي أن المعارف الالهية لا تحل إلا في نفس تخاف الله كثيراً وتخشاه كثيراً. فالعلم الكثير في غير طاعة الله مد الذنوب كما أثر عن علي عليه الصلاة والسلام حيث يقول: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب».

ويستفاد من الأحاديث الآتية: ان العالم يؤاخذ على ذنبه أضعاف ما يؤاخذ عليه الجاهل. قال رسول الله (ص): «ان الله تعالى يغفر للجاهل أربعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً». وقال أيضاً: «زلة العالم كبيرة». وقال علي عليه السلام: ان الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون الناس لباس الضأن وقلوبهم قلوب الذئب، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم أمر من الصبر، إياي يخادعون وبي يغترون وبديني يستهزئون﴾.

وقال الامام الباقر (ع): «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس، فليتبوأ مقعده من النار، ان الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها». وفي حديث آخر: «لا طاعة إلا بعلم، ولا علم إلا بتعلم، والتعلم من معلم رباني».

عرفت أستاذاً في علم التربية وعلم النفس بلغ مرتبة (الدكتورا) كان يدرس في المعاهد العالية، أنه لم يقو على كبح نفسه عن شرب الخمور فكان يشرب بدرجة تؤدي به إلى تشويه سمعته مع علمه أن: ﴿شارب الخمر كعابد وثن﴾، كما جاء في الحديث.

فقد ذكر لي أحد تلاميذه أنه شاهده ذات ليلة ملقى على قارعة الطريق في الأوحال وهو ثمل لا يشعر ويقول: اني أردت أن اؤدي ما للاستاذ على التلميذ من حقوق، فدعوت سيارة وحملته مع السائق ووضعناه في السيارة ونقلناه إلى فندق كان يسكن فيه. قمت باسعافه قليلاً قليلاً حتى صحا. فقلت: يا أستاذ، أنت تلقي علينا دروساً في ضبط النفس وفي التحلي بالأخلاق الفاضلة ومجاهدة النفس البهيمية. فما هذا الذي أرى بك يا سيدي؟ فأجاب جواباً سوفسطائياً بقوله: إنما أنا أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة! وقد فاته أنه يقتل نفسه.

فترون أن ليس هناك أية علاقة بين ما تحمله الحافظة من معادلات وقوانين وخواص وما يقوى عليه التفكير المجرد من استنتاج واستقراء أو تجريد

وتعميم، وبين اتجاه النفس نحو المبدأ الأعلى وإطاعة الله تعالى وردعها الشهوات المميتة وقمعها المرديات، انهما من واديين مختلفين فالأول من وادي الحافظة والتفكير والذكاء، والثاني من عالم النفس، وبينهما بون شاسع. فلو انطفأ العقل بما يلوث به من موبقات وجرائم حل محله الشيطان والخداع والنكراء ومنى النفس بما يبعدها عن الله تعالى حتى تبلغ أسفل سافلين.

ان الله تعالى يقول: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾. والهداية عند البعض، في يومنا هذا، أن ينال الشخص شهادة عالية فهو مثقف مهدي.

ان الله تعالى يقول: ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾ فقدم الله تعالى (الايمان) على (العلم)، ذلك لأن العلم الحقيقي وأعني به المعارف الالهية لما يترشح من (الايمان)... فكلما قوي الايمان بتطهير النفس، بالعبادة والأعمال الصالحات، ترشح من هذا الايمان «العلم الصحيح» الموصل إلى معرفة الله تعالى. وإذا أردنا أن نفسر هذه الآية على غير ما قلنا نقع في مشكلة. ذلك لأنا نرى علماء في بعض ما أودع الله في هذا الكون من خواص ودساتير رياضية، مجردين عن المعارف الالهية. بل البعض منهم زنادقة ملحدون. فكيف يرفع الله (حسب الآية المتقدمة) هؤلاء الزنادقة والملاحدة درجات؟!.

ولا فرق في هذا المقام بين العلوم الدينية من فقه وأصول وفلسفة... وغيرها وبين العلوم الرياضية والفلكية والكيماوية الخ... فيجوز أن يكون الشخص قد درس الحكمة الالهية ولكنه مع ذلك ضعيف الايمان، يشوبه كثير من الشكوك، أو درس القرآن دراسة متقنة مع مراجعة كثير من التفاسير ولا يؤمن به كما نرى ذلك في المستشرقين.

ذلك لأن الايمان ليس بالشيء الذي يترشح من الذكاء أو الحافظة بل هو عصارة كف النفس عن المحرمات والقيام بالأعمال الصالحات لوجه الله تعالى. إن الله تعالى يقول: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾ أي أنه لا

يؤمن بآيات الله إلا المتقون الذين يخافون ربهم من فوقهم فلا يعصون الله في السر والعلن.

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير. وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا نذير﴾. (فاطر: ١٨ ـ ٢٣). فالمواعظ والارشاد والانذار لا تؤثر إلا في من يخاف الله بالغيب، (أي بينه وبين الله، لا يعلم بذلك أحد) وفي من أقام الصلاة لوجه الله. وهما بابان عظيمان لتزكية النفس.

ومن كان لا يخاف الله ويرتكب المعاصي في السر والعلن، يظلم نفسه ويظلم الناس، فنتيجة ذلك: الجحود وعدم الايمان عاجلاً أو آجلاً. ان الله تعالى يقول: ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. (الانعام: ٣٣). أي أن الظلم لا يترشح منه إلا الجحود بآيات الله تعالى مع تصديقهم بالنبوة أحياناً.

فإذا رأيت شيخاً أو مراهقاً أو شاباً جاحداً مستهزئاً، مكذباً بآيات الله تعالى فاعلم أنه مجموعة ظلم وجور وعقوق وخيانة وفجور وفسوق... سواء أتيحت له الفرص فحقق ما ذكر أو لم تتح. فان عقيدة الانسان خلاصة حالته النفسية سواء أظهرت إلى الوجود أم لم تظهر.

ثم أن معيار الاختبار يجب أن يكون عاماً، يعم أفراد البشر قاطبة بلا تفريق وتمييز، أوتوا بعض المواهب أم حرموا. ولا يمكن ذلك إلا إذا توجه الاختبار إلى النفس التي ألهمت طريقي الخير والشر. بقوله تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾، كي يشترك في ذلك الوضيع والشريف والغني والفقير والرئيس والمرؤوس. فتكون التقوى إذن معياراً للمفاضلة وأساساً لفوز الشخص بسعادة الآخرة، فقد قال تعالى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

الدنيا أشبه شيء بمدرسة يطبق فيها طلابها دروس تكامل النفس. وتعطى

لهم عليها درجات. درجات موجبة لأعمال صالحة بما فيها العبادات ودرجات سالبة لأعمال سيئة بما فيها العقائد. ثم تجمع هذه الدرجات، فان كانت النتيجة موجبة فهو من أصحاب الجنة، وإن كانت سالبة فهو من أصحاب النار، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية﴾. ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾.

ليس في هذه الامتحانات الالهية مجال للاكمال كالامتحانات المدرسية فاما إلى الجنة واما إلى النار. لأن الانسان ينقطع عمله بعد موته. فلا عمل ولا تحضير ولا تزود بعد الموت. (فالدنيا دار عمل ولا حساب، والاخرة دار حساب ولا عمل).

وقد جاء في الحديث ما مؤداه: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاثة: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يستغفر له. ان الصدقة الجارية تحتاج إلى مال ونفس سخية وقل من يوفق اليها، وأما العلم الذي يأخذ بالفرد إلى ساحات القدس والتقرب منه تعالى فقل من يوفق إلى بثه ونشره اليوم، وان ما يكتب اليوم عن الطبيعة والفلك وغيرهما إنما يكتب بأسلوب مادي، ولا يذكر العبد بعظمة الله وجليل قدرته وحسن ابداعه، وأما الولد الصالح فأصبح نادراً جداً. كم ألفيت آباء يحزنون على سلوك أبنائهم، ورأيت البعض منهم يبكون حزناً على ما عليه أبناؤهم من نهج معوج، واتجاه سقيم، لا يصلون ولا يذكرون الله أداء لواجب الشكر. ورأيت بعض الآباء يقدم مبلغاً يعتد به إلى ولده يريد أن يصلي فلا يلبي طلبه! ورأيت آباء آخرين يبغضون أبناءهم غاية البغض لعدم قيامهم بواجباتهم الدينية حتى أنهم لا يريدون أن ينظروا إلى وجوههم. كل ذلك لشدة إيمانهم.

إن الله تعالى يقول: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها

الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾. على أن إطاعة الوالدين أمر واجب بعد توحيد الله تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا اياه وبـالوالـدين إحسانـاً﴾. وفي الحديث: ﴿نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة﴾. وما أقل الأبناء العاملين بهذا الحديث!.

فالعاقل هو الذي لا يعتمد على ما سيقوم به أرحامه وذووه بعد موته من أجله من مبرات وخيرات، فيبادر بتعمير آخرته قبل حلوله أجله.

وقد قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً في ما تركت، كلا، أنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جمع الأقربين من قريش: «إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم. والله الذي لا اله إلا هو: أني لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وانها للجنة أبداً أو النار أبداً». ولذلك قال تعالى: ﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب﴾.

فتعديل امتحان درجات الله تبارك وتعالى إنما يكون في هذه الدنيا. فمن حصل على درجة (ـ ٥) مثلاً لعدم الصبر على نائبة جزع فيها يعدله بالصبر على فقر يصاب به، فينال فيه (+ ٦) مثلاً، فتكون النتيجة (+ ١) وهو فوق الصفر. وعن علي (ع): «وإذا صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور، وإذا جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور».

ومن بخل في مال أعطاه الله إياه ولم ينفق منه فأمست درجتـه لعدم الاتفاق الواجب (− ١٠) مثلاً، فانه يعدله بفقر يصاب به، فيعطي من هو أفقر منه من ماله الضئيل أضعاف ما كان يعطي حين كان غنياً، مع مراعاة النسبة، فينال (+ ١٥) مثلاً، فتكون النتيجة (+ ٥). فيصفي حسابه في دنياه

قبل أن يحاسب في الآخرة. ولا أعني بهذه الأرقام التي جئت بها على سبيل المثال، ان الله يحاسب العباد على طبقها، وإنما تمثيل وتقريب وتفسير.

لا ريب أن حساب الآخرة لدقيق جداً. والدرجات في غايةالدقة أيضاً ولا تقبل الشفاعة فيها إلا إذا كانت الشفاعة مقرونة برضا الله تعالى. لقوله عزّ من قائل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. فان الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين لا يشفعون إلا إذا اطلعوا على مرضاة الله تعالى. فانهم: ﴿عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾.

وعن علي عليه السلام: «وان من شيعتنا لمن لا تدركه من لا تناله شفاعتنا إلا بعد عذاب الله له ثلاثمائة الف سنة».

قال طاووس: رأيت علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد. فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه وقال: «الهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحاتٌ للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله في عرصات يوم القيامة». ثم بكى وقال: «وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى علي. فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني، فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحيي من ربي». ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قبائح زرية وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: «سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم». ثم خرّ إلى الأرض ساجداً. فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: «من الذي

أشغلني عن ذكر ربي؟» قلت: أنا طاووس، يا ابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا نحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله (ص) فالتفت إليّ وقال: «هيهات هيهات يا طاووس، دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يُتساءلون﴾، والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح».

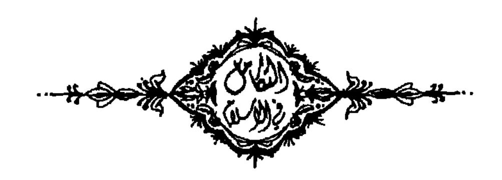
فإذا كان علي بن الحسين عليه السلام يفعل مثل ذلك مع عصمته وطهارته بنص من الكتاب والسنة، فكيف بنا ونحن ملئنا معاصي وآثاماً؟ كل ذلك ليعلمونا سلام الله عليهم آداب التقرب إلى الله، آداب الدعاء والخضوع، آداب التوبة والاستغفار، لكي تطهر هذه النفوس الملوثة بدموع تذرفها جوف الليل نادمة على صنيعها، آسفة على فعالها.

إن الأئمة سلام الله عليهم كانوا يعبدون الله تعالى بهذه الآداب العالية أداء لواجب الشكر، لما ميزهم الله تعالى عن سائر البشر.

يدخل جابر رضوان الله عليه على علي بن الحسين (ع) يقول: يا بن رسول الله أما علمت أن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم. فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك. ﴿ذلك لأن زين العابدين عليه السلام قد انخرم أنفه وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه مما أدأب نفسه في العبادة حتى سمي بذي الثفنات)، فيجيبه الامام عليه السلام قائلاً: «يا صاحب رسول الله، أما علمت أنجدي رسول الله (ص) قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

إن الله تبارك وتعالى قد امتحن أنبياءه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام امتحانات صعبة شاقة لا يقوى عليها البشر العادي، هذا ابراهيم (ع) قد

امتحنه الله تعالى بأن ألقي في النار فكان له برداً وسلاماً. وامتحنه بذبح ولده اسماعيل، وامتحنه بأن أرسل له ملكاً على شكل انسان فقال: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح. فافتتن ابراهيم (ع) بهذا النداء اللاهوتي. فطلب إليه أن يعيد ما قال. فأجابه: أنه لا يعيد حتى يعطيه نصف غنمه، فأعطاه. فقالها ثانية: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح». ثم أن ابراهيم (ع) طلب إليه أن يقولها ثالثة. فقال: إلا أن تعطيني بقية غنمك، فأعطاه. وقالها ثالثة. فهذه مرتبة من مراتب الولاء». لا يصل إليها البشر العادي.



مراتب الامتحان الالهي

إن الله تبارك وتعالى يختبر عباده حسب عظم نفوسهم وقابلياتهم، فيبوؤهم ما يستحقون من المنازل الدنيوية والأخروية. قال نبينا صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت». فكان ابتلاؤه أعظم من ابتلاء من سبقه من الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين.

وأما علي عليه السلام، فقد امتحن امتحانات تزيد عن العد والاحصاء منها مبيته على فراش النبي (ص) وعرضه نفسه للقتل. ومنها برازه إلى عمرو بن ود الذي كان يعد بألف فارس في غزوة الخندق، وقد قال فيه رسول الله (ص): «برز الايمان كله إلى الشرك كله»، وقال فيه أيضاً كما رواه الحاكم في المستدرك: لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة». وقد روى الحاكم أيضاً أن النبي (ص) قال: «قتل علي لعمرو بن ود أفضل من عبادة الثقلين».

وأما الحسين (ع) فقد امتحن بما لم يمتحن به من قبله ولن يمتحن به من بعده. والأئمة كلهم امتحنوا بامتحانات صعبة جداً لا يقوى عليها البشر العادي، ولا مجال لذكر ما امتحن به الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من امتحانات شاقة جداً يفر منها غيرهم.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أشد الناس بلاء النبيون، ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله، قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض، ذلك: ان الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر».

والامتحان أو البلاء إما أن يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء (ص) والأوصياء (ع) ثم الأمثل فالأمثل، وإما أن يكون

لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ: ذنوب وآثام. فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة ونميمة وكل ما نهى عنه الدين.

فعن أبي جعفر (ع) قال: ان الله عز وجل إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب، ابتلاه بالسقم، فان لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فان لم يفعل ذلك به شدَّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه، وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فإن لم يفعل به هون عليه الموت، فيكافيه بتلك الحسنة».

وعن أبي عبد الله (ع) قال: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال الغم والهم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً».

أنظروا كيف يأمرنا الإمام (ع) بمحاسبة نفوسنا. فعن أبي الحسن الماضي (ع)[1]: قال: «ليس منا من لم يُحاسب نفسه في كل يوم. فان عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه».

إن العبد ليمتحن في كل يوم من حياته امتحانات عدة حسب قابليته واستعداده. فطوبى لمن وُفق في امتحانات الله تعالى بعزم ثابت وإرادة قوية مستمداً التوفيق منه تعالى. فهذه هي الارادة الحقيقية التي يجب أن تبحث عنها التربية الحديثة: (Pedagogie Moderne) وأن تعمل في تنميتها.

يقول أحد رجال التربية في الغرب: كان لي صديق وقد زرنا معاً الهند. فرأيته يغيب بعض الليالي. فسألته السبب قال: أني لأجد في إرادتي ضعفاً وأحب تقويتها. أخرج جوف الليل إلى الغابة أو إلى الصحراء وأبارز الأسد وبعض الحيوانات المفترسة وأهيىء ناراً إن أنا تأخرت عن القائها عليها ثانية واحدة كان في ذلك موتي المحتوم، وبهذا أجد أن مقاومتي للشدائد أصبحت أكثر من ذي قبل.

---

(١) انه الامام السابع: موسى بن جعفر (ع).

نعم، إن هذا النوع من الأعمال التربوية تقوي الارادة وإن كتب التربية مشحونة بهذه الأساليب التربوية. ولكن للتوجيه أثراً عظيماً في مستقبل الانسان الديني وتوجهه نحو خالقه أي في تكامل نفسه. فرُبَّ قوي الارادة يصرف إرادته في أمور محرمة وأشياء تافهة.

إن الله تعالى يقول: ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾. أو يصرف إرادته في دنيا محضة أي في تقوية جانب المادة مع إهمال جانب تكامل النفس: الأمر الذي وجد الانسان على وجه البسيطة لأجله. فلو عنيت التربية بناحية التوجيه كما تهتم بناحية تقوية الارادة لجمع الشاب بين سعادة الدنيا والآخرة. ولكن تربيتنا الحاضرة تربية مادية بنتائجها. تنظر إلى الحياة المادية كأنها الهدف الأسمى وتربي الشاب للتزود من هذه الحياة المادية وإن فسدت في الأثناء النفس وانحطت الملكات الأخلاقية والدينية.

وليس تكامل النفس بشيء يمكن قياسه بأسئلة امتحانية تلقى على الطلاب في الامتحانات النهائية، لأن أعمال وملكات أكثر منها نظريات وعبارات أدبية. لذلك انحطت الأخلاق الاجتماعية والاخلاقية الاسلامية الموروثة: أعني الصفات الانسانية الكاملة التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فناب منابها مجاملات صورية لا تتجاوز الحنجرة وحركات الوجه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. قد خلق الله جل شأنه من النعم والمآكل والمشارب والملابس والمساكن ما يجذب الانسان ببهجته وروائه فيطمع الانسان فيها. ولا تتأتى كلها لكل شخص من مورد حلال طيب. فتغلب الشهوة وينقاد اليها الانسان، فإذا به يفسد نفسه ويرتكب الظلم والبغي ليتزود من هذه النعم والمآكل ويتزين بأنواع الزينة فيرسب في هذا الاختبار النفسي العسير. ان الله لم يحرم على الناس الاستفادة من نعيم الدنيا وزينتها وزبرجها إذا كان من مورد حلال شرعي واستعمل حسبما عينه الشرع: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا،

خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾. (سورة الأعراف). ففي هذه الدنيا يشترك المؤمن مع الكافر في التنعم بالطيبات من الرزق وزينة الدنيا الفانية، أما في الآخرة فيكون ذلك للمؤمنين خالصة خاصة بهم، بمقياس لا يحيط به العقل البشري.

فالدنيا بمظاهرها الخلابة وجمالها الفتان وأشجارها ونباتها ومائها وهوائها مواد للامتحان: (كالفيزياء والهندسة المجسمة وعلم الهيئة وحساب الاحتمالات و...)، ولا يقوى على ردع النفس عن الشهوات المحرمة إلا من أوتي يقيناً صادقاً وتوجهاً خالصاً ولطفاً ربانياً: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾. (سورة محمد ص: ١٩).

قد يصادف الانسان في عنفوان شبابه مائدة خمر جلس عليها أصحابه فيلحون عليه بالشرب وهو يمتنع لطهارة أودعها الله تعالى فيه بالفطرة، ثم يلحفون عليه ثانية وثالثة والشيطان بالمرصاد. فهنا صراع بين العقل والنفس الأمارة بالسوء أو بالأحرى بين العقل (إن لم يُحجب وبقي على فعاليته) وبين الشيطان. فإن غُلب الشاب على أمره فقد سقط في هوة سحيقة. وان تذكر أمر الله واليوم الآخر وعزم على الرفض واستعان بالله جل وعلا في خلاصه ونجاته فان الله يهيء له أسباب النجاة. وان ارتداعه هذا في هذا الاجتماع الفاسد وكبحه شهوته بعزم رصين يفتحان عليه أبواب رحمة الله فيزداد بفضله هدى وتقوى وصلاحاً. فقد جاء في الحديث: «لو مشى العبد نحوي شبراً لمشيت نحوه ذراعاً». وما من تقي إلا ويُمتحن في حياته بامتحان وامتحانات نظائر هذا الامتحان.

كثيراً ما تقوى إرادة الانسان على النجاح في أمور دنيوية ولكن نفس هذه الارادة تراها مغلوبة تجاه الشهوات والمغريات، ضعيفة أمام محارم الله تعالى. فالارادة كل الارادة إذا استطاع المرء أن يكبح شهواته ويجعل رزقه من مورد حلال طيب. فان الأموال المحرمة أو المشتبهة لها آثار سلبية في اتجاه الانسان نحو خالقه وفي قمع الشبهات وحصول اليقين.

أرأيت مرابياً بلغ من الايمان مرتبة تذكر، أم رأيت سارقا تخشع نفسه عندما يسمع كلمات الله تعالى. ولا فرق بين السرقة وبين المتاجر المحرمة والمعاملات غير المشروعة والنجاح في مهمة باستعمال المكر والخديعة. فكل عضو من أعضاء الانسان يمكن استعماله في حلال أو حرام. وهذا هو معنى الاختيار. فالعين يمكن استعمالهافي الحرام بالنظر إلى أعراض الآخرين ويمكن صرفها عن الحرام بالتجنب عن النظر إلى المحرمات. فقد جاء في الحديث: «الأولى لك والثانية عليك». أي أن الله يغفر لك النظرة الأولى التي جاءت عفواً وأنت آثم في الثانية مدنس فيها نفسك. واليد يمكن استعمالها في دع اليتيم وضربه ويمكن استعمالها في المسح على رأس اليتيم وأعمال صالحة أخرى كالكسب والعمل في المعامل وأمثال ذلك. وكذلك الرجل يمكن استعمالها في الذهاب للسرقة أو دور البغاء، ويمكن استعمالها في حمل طعام إلى أرملة بائسة أو السؤال عن حال مريض معوز ومساعدته.

وقد بين الله تعالى كل ما من شأنه ارتقاء النفس وكل ما من ورائه انحطاط النفس على لسان نبيه الأمي (ص): ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (سورة النساء: ١٦٣). وقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علياً عليه السلام بهذه الوصية:

«سر ميلاً عُد مريضاً، سر ميلين شيع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستة أميال أنصر المظلوم وعليك بالاستغفار».

قال الله تعالى: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾. (سورة الأنفال: ٤٤).

إنما المؤمنون أخوة

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فانما أداة حصر، أي أن المؤمنين لا يكونون إلا أخوة يتوادُّون ويتحابون. يؤازر بعضهم بعضاً ويعاضد أحدهم الآخر. فالايمان هو الرابطة القوية فيما بينهم. ذلك لأن الايمان شعور مشترك يجمع القلوب فيقرب فيما بينها. فكأن الايمـان سيال كهربائي أو خطوط مغناطيسية تؤثر في الكون فتجذب ما يناسبها وان بعد التشبيه.

ذلك لأن الانسان مجموعة طاقات، والمادة تشع فتتحول إلى طاقة. فكما أن المجال المغناطيسي يتأثر بالمجال الكهربائي فيكون بين الجسمين الحاملين لهذين المجالين تقارب أو تباعد كذلك النفوس تتجاذب بعضها مع بعض لو كانت مؤمنة بنفس الدرجة من الايمان أو مع تفاوت يسير وتبتعد بعضها عن بعض لو كان الاختلاف كبيراً. ووفقاً لهذه النظرية اختار النبي (ص) علياً (ع) أخاً له في الدنيا والآخرة وآخى بين المهـاجرين ثم آخى بـين المهاجـرين والأنصار. ولذلك كان يقول علي (ع) كما يحدثنا النسائي: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصدِّيق الأكبر».

لو أمررنا تياراً كهربائياً على سلك وعلقنا بجنبه إبْرة مغناطيسية لرأيناها تتحرك يميناً أو يساراً حسب جهة التيار، كما هو ثابت في الفيزياء. أي يتأثر المجال المغناطيسي بالمجال الكهربائي، لأنهما من واد واحد على وجه التقريب. كذلك تؤثر النفوس بعضها في بعض، تتباعد أو تتقارب، لأنها أيضاً من مفاهيم القوى.

فكر في رجل يمشي أمامك تفكيراً مجرداً عن كل شيء إلا في نفس ذلك الرجل، فتراه يدير بوجهه اليك. ذلك لأن نفسك قد أثرت في نفسه فوجهته اليك. على أن هناك قواعد يجب أن تراعى: من قوة النفس ودرجة هيمنتها على نفس أخرى.

قد طرد في أمريكا صاحب معمل أحد عماله، وبقي هذا العامل لا شغل

له. وتأثر كثيراً، فعمد إلى عمل لعله يؤذي به صاحب المعمل وكان يعلم شيئاً من آثار النفس، فأحضر تصوير صاحب المعمل وأخذ ينظر إليه بحدة ضارباً بمطرقته على سندان بصورة مستمرة، فصار يحس صاحب المعمل بوجع شديد في رأسه ويشعر بضربات في مخه، راجع الأطباء فلم يتمكنوا من معالجته، يئس من الحياة، فأراد أن يسترضي من ظلمه. قيل له: انك طردت عاملاً لك دونما مبرر. فتوجه إلى بيت العامل ورأى ما كان يقوم به العامل، فأرجعه إلى محله وشفي مما ألمَّ به.

إن هذه الحادثة تعلمنا أن هناك خطوطاً مغناطيسية أو ما يشابهها تأثرت بهذه الدقات العنيفة على السندان، فأثرت في رأس صاحب المعمل وكادت أن تقضي عليه.

فالتجاذب والتحابب والأخوَّة من آثار الايمان الحقيقي، فكلما زاد إيمان الشخص أصبح له أخوة مؤمنون بصورة طبيعية وهذا من النظم الروحية التي أودعها الله تعالى في الكون.

وقد روي أنه كان يقاس إيمان الشخص في زمن رسول الله (ص) بحب علي عليه السلام. فكلما كان حب الشخص لعلي (ع) أكثر كان إيمانه أقوى، على أن لا يبلغ هذا الحب مرتبة الغلو والتأليه، فقد قال رسول الله (ص): «يا علي، هلك فيك اثنان: محب غال وعدو قال».

إني أعتقد أن هناك سيالاً إيمانياً (كالسيال الكهربائي) يوصل الفرد المؤمن بعلي عليه السلام وهو شمس الايمان فيحبه. ففي قلب كل مؤمن شعاع من تلك الشمس حسب درجة إيمانه. فقد قال رسول الله (ص) حين برز علي (ع) إلى عمرو بن ود: «برز الايمان كله إلى الشرك كله».

فعلي (ع) الايمان كله على حد تعبير رسول الله (ص) والمؤمنون لهم نصيب من هذا الايمان بدرجة حبهم لعلي، على أن لا يبلغ هذا الحب درجة الغلو، فبعد أن كان موجباً يصبح سالباً، مثال ذلك: (ع = ظاس[1]. وعندما تكون

(١) لا يخفى أن هذا المثال الرياضي لا ينطبق على الموضوع. وإنما ذكر للتقريب والتوضيح.

س = ٩٠°، - ، أو ٢٧٠°، ينتقل الظل من + ٨ إلى - ٨) فيكون المغالي مخلداً في النار: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

ويؤيد ما قلنا ما روي عن النبي (ص) في حديث قدسي: «إن الله عهد لي في علي عهداً. قلت يا رب بينه لي. قال: إن علياً آية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبني أحبه ومن أطاعني أطاعه».

وعن حلية الأولياء عن النبي (ص): «قسمت الحكمة عشرة أجزاء. فأعطى علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً منها».

ترى شخصاً لا تعرفه من ذي قبل، فتحبه حباً جماً وتود أن تجالسه وتعاشره. كلما تفتش عن السبب لا تهتدي إليه. السبب: هو انجذاب الأرواح المؤمنة بعضها إلى بعض بصورة طبيعية.

رآني يوماً مؤمن من أهل الفضل. فقال: أني كنت أحبك عن بعد. وان حبي إياك يزداد يوماً فيوماً. فلم أقو على الكتمان وأظن أنا قد تحاببنا في عالم الذر. فأرجو أن تجعل فطورك غداً عند الصباح في بيتي، وقرأ لي هذا الحديث: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها أئتلف وما تناكر منها اختلف». فالله تعالى بنص الآية: ﴿إنما المؤمنون إخوة...﴾ أراد بالمؤمنين أن يكونوا إخواناً يساعد بعضهم البعض.

يحدثنا سعيد بن الحسن عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه، فقلت لا، فقال: ليس هؤلاء شيعة.. إلى آخر الحديث»... وهذا غاية الكمال في الأخوة، أو ليس ديننا دين الكمال. أو ليس هذا الدين قد جاء به الرسول الأمين ليخرج الناس «من الظلمات إلى النور باذن ربهم». وليس النور إلا ما يبلغ اليه الشخص من الكمالات النفسية من توحيد الله والقيام بما أمر به الله.

ولم نبلغ من العلم درجة تمكننا من وضع دساتير رياضية لقضايا نفسية. ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾. ومعنى ذلك أن الله يحدث في قلوب المؤمنين حباً ووداً للذين آمنوا به تعالى وقاموا بأعمال صالحة. فان الايمان والأعمال الصالحة لها آثار طبيعية ذاتية، وهي حدوث مودة طبيعية في قلوب المؤمنين. فقد جاء في الحديث: «من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾. النعمة هي نعمة الاسلام ونعمة الايمان. فالمؤمنون متآخون فيما بينهم بنص القرآن الكريم. لا تباغض بينهم ولا تشاحن بل هم «كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً». هذه أخوة المؤمنين في الدنيا. وهناك أخوة أبدية بعد الموت في عالم الخلود في ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾. وهو قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون. أدخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾.

فمن لم يدخل في الأخوة الاسلامية، فليس من الايمان في شيء، وان الايمان لم يلج في قلبه.

وعن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما المؤمنون أخوة بنو أب وأم. فإذا ضرب على رجل منهم غرق سهر له الآخرون». ومعنى ذلك أن المؤمنين يتألم بعضهم لبعض وأنهم يعملون ساهرين، لأجل دفع المكروه عن إخوانهم وإسعافهم وإزاحة الكربة عنهم.

نعم، إن المؤمنين يتألم بعضهم لألم الآخر بصورة غير اختيارية (لا عن شعور). ذلك لأن أشعة الايمان توصل بعضهم ببعض، فيشعر هذا بحزن ذاك فيحزن، ويحس بسروره فيسر.

هذا جابر الجعفي يقول: تقبضت بين يدي أبي جعفر (ع) فقلت: جعلت فداك ربما حزنت من غير مصيبة أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي. فقال: «نعم يا جابر، ان الله عز وجل خلق المؤمنين من

طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه. فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منه». وفي حديث آخر: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه».

إن للإيمان حيوية تربط نفوس المؤمنين بعضها ببعض وتجعلهم كنفس واحدة. وان هذه الرابطة لا يضاهيها أية رابطة أخرى، هي رابطة معنوية رفيعة أودعها الله الصلحاء من خلقه. وهو قول أبي عبد الله عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهم واحدة، وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها». وهذا حفص بن البحتري يقول: «كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) فدخل عليه رجل. فقال لي: تحبه؟ فقلت: نعم. فقال لي: ولم لا تحبه وهو أخوك وشريكك في دينك وعونك على عدوك ورزقه على غيرك». نعم، المؤمنون يخدم بعضهم بعضاً ويفيد بعضهم بعضاً كما هو مضمون الحديث.

إن الدين الاسلامي قد فرض حقوقاً على كل من المؤمنين، عليهم أن يؤدوها وهو قول محمد الباقر (ع): «من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج كربته ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده».

وهل يتصور البشر أخوَّة أعلى من هذه الأخوة، وهل يتصور سلام في الكون أرفع شأناً من سلام يتأتى من تطبيق الدستور المذكور. نعم يصل الانسان إلى تطبيق هذاالدستور حرفياً لو قوي إيمانه وزاد يقينه وصار مظهراً للتقوى والورع. فالكمال: فرع الايمان ورشحات التقوى وآثار الورع. فمن فتش عن الكمال الانساني في واد آخر فقد تاه وضل. ولا تطمئن نفس امرىء ولا تعترف بفعالية آثار الايمان والتقوى فيها إلا إذا كان ممن جرب وسار في مجالات تكميل النفس بتزكيتها وتحليتها.

هذا معلى بن خنيس يروي عن أبي عبد الله (ع) يقول: «قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبعة حقوق واجبات، ما منهن حق إلا وهو

عليه واجب، ان ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن له فيه نصيب. قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلى، أني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل. قال قلت له: لا قوة إلا بالله، قال: أيسر حق منها. أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته. والحق الخامس: لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى. والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه. والحق السابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادرها مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتنا».

هذه درر من درر هذا الدين القويم ولآلىء من لآلىء هذا الناموس العظيم تتلألأ بكل وضوح وجلاء. لآلىء لا يصل إلى عمقها فيلسوف تربى في أحضان المادة الدكناء ولا تعيها إلا قلوب زكية وأرواح نقية. ونسأل الله تزكية قلوبنا وتطهير أرواحنا وأن يجعلنا مؤمنين متآخين.



التراحم في الاسلام

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجَّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾. فالمؤمنون متراحمون فيما بينهم متعاطفون، يرحم بعضهم بعضاً ويعطف كل منهم على الآخر، فانهم راكعون ساجدون «سيماهم في وجوههم من أثر السجود». وان الركوع والسجود باخلاص وإقبال ليؤثران في توجيه النفس إلى الله تعالى فتشعُّ منهما أنوار من أنوار الله القدسية فتلطف النفوس وتندرج في مجالات الكمال فتكتسب الفضائل والمكارم ومنها التراحم والتعاطف. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، ان الله عزيز حكيم﴾.

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، يتوادُّون ويتحابون ويتراحمون فيما بينهم. فلا ترى فيهم محتاجاً ولا بائساً ولا مسكيناً. لأن المستطيع منهم يبادر إلى مد يد المعونة إلى الضعيف، يفتش عن الفقراء والمساكين ويجهد نفسه في سد حاجاتهم ورفع الكرب عنهم. لماذا؟ لأن المؤمن المتخلق بهذه الأخلاق الكريمة القائم بهذه الأعمال الواجبة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله وإطاعة رسوله (ص) لايكون إلا ولي المؤمن الآخر، يساعده ويؤازره ويضحي بنفسه ونفيسه في سبيل إنقاذه مما أصابه، حتى يكون موضع رحمته تعالى. لقوله تعالى: «سيرحمهم الله» فان الحياة الاجتماعية السعيدة لا تتحقق إلا إذا توادت القلوب وتراحمت وتعاطفت. وإن التراحم لا يحصل إلا إذا تمركز الايمان في قلوب الناس وكانوا مؤمنين حقاً.

إن القوانين المدنية الحاضرة أو التربية الاجتماعية الخالية من الأسس الروحية ومن التوجيهات النفسية الدينية لا تقوى على ربط أفراد المجتمع ربطاً عميقاً يؤدي إلى سعادة الدارين. ذلك لأن هذه القوانين قيود ميكانيكية لا

تلج النفوس ولا تربيها تربية تجعلها متآزرة متحابة متراحمة فيما بينها. ولا شك أن أقل حظ للأمة من الأخلاق ما أمرت به القوانين المدنية وقامت الشرطة بحراسته. فخير رابطة تربط البشر بعضهم ببعض هي رابطة الايمان. يقول (كوستاو لوبون): «من الخطأ الضار محاولة بناء الأخلاق على المعقول وحده كما ذهب إليه كثير من الفلاسفة، لأنه إذا لم يكن للأخلاق سند من المشاعر والروح الديني، فلا بقاء لها ولا قوة». وقد فاته أن ما جاء في الدين الاسلامي من الأسس الأخلاقية، منطقي معقول يتفهمه المؤمن بنور الايمان ويعمل به بتساند عقلي. إذ أن دين الاسلام دين العقل. وكل ما أمر به الدين أمر به العقل المتكامل. فإذا كان العقل لا يدرك حكمة بعض الأوامر الدينية فذلك لنقص فيه. وكم من الأوامر الدينية قد ظهرت حكمها بعد تقدم العلوم والفنون وكان يحار الانسان في تعليلها قبل ذلك.

نعم، ان حضارة الأمة في المقياس الصحيح تتناسب مع مقدار تمكنها من ضبط نفسها وقيامها بواجباتها الأخلاقية. تلك الأخلاق التي أقرها الدين الاسلامي، تلك الأخلاق التي لا يصل البشر إلى تأسيسها مهما تكاملت نفسه، تلك الأخلاق التي تجعل الانسان أعلى منزلة من الملائكة.

قال الصادق (ع): «إن أشد ما فرض الله على خلقه ثلاثة: إنصاف المرء من نفسه حتى لا يرضى لأخيه من نفسه إلا بما يرضى لنفسه منه، ومؤاساة الأخ في المال، وذكر الله على كل حال... ليس سبحان الله والحمد الله ولكن عندما حرم الله عليه فيدعه». يريد الامام (ع) بذلك أنه لا ينبغي للمؤمن أن يكتفي بقوله: سبحان الله والحمد لله، بل عليه أن يذكر الله عند كل ما حرمه الله عليه. من استعمال الحيل في الربا، والكذب ومخادعة المؤمن في المعاملة ومطالبة أخيه المؤمن ما ليس له. ان المؤمن يواسي أخاه المؤمن في المال، ويساعده ويقرضه. فلماذا نرى أناساً يحملون اسم الاسلام، فإذا أتتهم امرأة بائسة بذهب لها يسير، تريد أن ترهنه لديه كي تستقرض مبلغاً لاداء كراء دار حقيرة، فيجيب بخشونة: ليس عندي شيء ولكن إن كنت ترجعين المبلغ وزيادة فأني مستعد لذلك، مع أن لهذا الرجل كسباً يكتسب به أو صنعة يعيش من ورائها، وإن لم يكن هذان متوفرين لديه فأن أبواب الكسب

مفتوحة له. ماذا تصنع هذه المسكينة؟ تأخذ من هذا المرابي (١٢) ديناراً مثلاً وترجع إليه بعد ٣ أشهر (١٥) ديناراً فتكون قد دفعت ربحاً قدره مائة في المائة بحساب السنة. أهذه هي المواساة في المال؟ ألم ينه الله عن الربا وتوعد عليه العذاب الشديد. ألم يقل (جلّ من قائل): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون، واتقوا النار التي أعدّت للكافرين﴾. ألم يبلغه هذا الحديث: «درهم ربا عند الله أعظم من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام».

نعم، ان للمؤمن على المؤمن حقوقاً يجب عليه أن يؤديها حتى يستحق لقب الايمان. وليست العبادة الصلاة والصوم والحج... فحسب، بل تتجلى العبادة في كل عمل اجتماعي أمر به الله، فيه التحابب والتوادد والتراحم والتعاطف وإيجاد حياة اجتماعية سعيدة. وهو قول أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن».

هذا دين جعل القيام بأداء حقوق المؤمن أفضل العبادات وأجلها. أفلا يجدر بالعالم أن يتخذ هذاالدين ديناً عالمياً وتربية عالمية لانقاذ هذا البشر مما ينتابه من شرور وويلات؟ أفلا يليق بفلاسفة الأخلاق وعلمائها أن يجتمعوا أياماً وأشهراً وأن يتتبعوا هذا الدين بامعان وانعام وأن يتفقهوه بتبصر وأرواح مجردة عن العصبية والحمية الجاهلية فيقرؤا «الاسلام» كدين عالمي ويجبروا الحكومات على تقبله وتطبيقه.

نعم، من نواميس هذا الدين ما يقول جعفر الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم متراحمين، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم... على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله».

هذا دين اجتماعي يجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع، وسعادة الانسان بعد الموت تلك السعادة التي تستغرق ملايين السنين، لا نفاد لها ولا

انتهاء. تلك السعادة التي هي فوق حدود التصور ودائرة التفكير. نعم، لا يمكن الوصول إلى هذه السعادة إلا إذا طبق دستور أبي عبد الله (ع) وهو القائل: «اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه».

ونسأل الله التوفيق للايمان الصادق والأخوة الكاملة والتحابب والتواصل والتراحم والتزاور والتلاقي وإحياء أمر الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام.



التآلف في الاسلام

الاسلام دين الألفة والتوادد والتحابب في الله، دين الاجتماع والتعاون والتعاضد، دين لو عمل بنواميسه وطبقت قوانينه ونظمه لرأيت الأرض جنة من الجنان وفردوساً كان يحلم به أفلاطون، بل فوق ما كان يتصوره أفلاطون وغير افلاطون من الفلاسفة بدرجات. ذلك لأن ما كان منبعه فياضاً، منبعه الافاضات الربانية لا ينضب ولا يغور بل يزداد بصورة لا تتناهى نحو الكمال إذ أن المنبع الفياض لا نهاية له ولا أمد. ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾. ﴿وان تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

إن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة معظماً شأن الائتلاف: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾. وهو القائل: ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ أي بنعمة الالفة. ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. ان هذا لدستور هام للأمم الاسلامية يأمرهم بوجوب الاتحاد والاتفاق متمسكين بحبل الله المتين جميعاً وهو دينه القويم، عاملين به، غير منحرفين عنه قيد شعرة. وقد قدم التمسك بحبل الله والتدين بدينه القويم على عدم الفرقة، مشيراً إلى أن التمسك بالدين تمسكاً صحيحاً يؤدي إلى عدم الفرقة وتمام الالفة، لأن الايمان يلقي في النفس الانسانية نوراً يتجاذب مع بقية الأنوار الايمانية التي تماثله، فألفة المؤمنين أمر طبيعي وخاصية طبيعية كخواص الأجسام المادية.

أنظروا ماذا يقول سيد البشر المربي الأعظم خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله في هذا المقام: أنه صلوات الله عليه يقول: «المؤمن إلف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف». وهذا هو السر في أن الدين الاسلامي يرغب الناس كثيراً في التسليم والمصافحة والمعانقة.

قال رسول الله (ص): «أولى الناس بالله تعالى وبرسوله من بدأ بالسلام». فان رسول الله (ص) والأئمة الأطهار (ع) كانوا يبدأون الناس

بالسلام مع مقاماتهم الرفيعة التي انحصرت فيهم، فان البدء بالسلام يكسر كبرياء النفس وغرورها. ولا يبعد العبد عن الافاضات الربانية شيء كالكبرياء والتبختر. وقال علي عليه السلام: «لا تغضبوا ولا تقبضوا، أفشوا السلام وأطيبوا الكلام. وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وقد جاء في الحديث: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين يغسل أحدهما الأخرى» ما تلاقى المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً.

إن علياً عليه السلام صاحب ذات ليلة مسيحياً في الكوفة، وهو خليفة المسلمين، حتى كانا في مفترق الطريق، فلم يفارقه علي (ع) بل صاحبه ماشياً نحو بيت المسيحي إلى مسافة ما، ثم ودعه وأمَّ الرجوع، فقال له المسيحي: ظننت أن لك في هذه الحارة شغلاً، فقال عليه السلام ما مؤداه: كلا، بل من شأن المصاحب أن يشايع صاحبه إلى مسافة ما. هذه أخلاق خليفة المسلمين مع مسيحي وهو دستور رائع يجب أن يقتدى به. فان الاسلام إنما جاء لاتمام مكارم الأخلاق.

ثم ان الدين الاسلامي قد نص على أن تكون الألفة مع مؤمن يذكر الله ويذكر الله. لأن الألفة كثيراً ما تؤدي إلى الفساد والافساد. فكم من أناس بسطاء اكتسبوا صفات ذميمة وأخلاقاً سيئة بنتيجة الألفة والمصاحبة، لأنهم لم يفكروا في ديانة المصاحب وأخلاقه ونبله، وان هذه النقطة الدقيقة يجب أن تلاحظ في عنفوان الشباب ودور المراهقة حيث تتهيج في الشباب احساسات شتى وميول عدة. فان صادق أصدقاء طيبين أتقياء سلم واجتاز هذه المرحلة العصبية بسلام وإلا وقع في أشراك شياطين الأنس حيث الهوة السحيقة والتسافل المرير. فخير لشاب لا يجد صديقاً تقياً نجيباً أصيلاً أن يبقى وحيداً فريداً لا يعاشر أحداً. فان العزلة خير من الوقوع فيما يدنس النفس الانسانية ويلوثها ويبعدها عن الساحة القدسية الالهية. لذلك يقول رسول الله (ص): «عاشروا من يذكركم الله» وفي حديث آخر: «لا تجالس شراب الخمر فان اللعنة إذا نزلت عمت من في المجلس». وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فترون أن الألفة مقيدة بذكر الله وطاعة الله وإقامة حدود الله، وقد قال الصادق عليه السلام: «إن المسلم إذا رأى أخاه كان حياة لدينه إذا ذكر الله». وقال (ع) لأبي خديجة: «كم بينك وبين البصرة؟ قال: في الماء خمس، إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان أو نحو ذلك. فقال ما أقرب هذا، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضاً، فإنه لا بد يوم القيامة أن يأتي كل انسان بشاهد يشهد له على دينه».

وقد نهى الدين الاسلامي عن التباغض والتدابر وهو القائل: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا». وقد قال رسول الله (ص): «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، والسابق إلى كلام أخيه أسبقهما إلى الجنة». ويراد من الأخ هنا: الأخ المسلم. وكم رأينا اخواناً من أبوين هجر أحدهم الآخر لأمر تافه. ولو رجعوا إلى عقولهم لعلموا أن الشيطان هو الذي ألقى بينهم العداوة والبغضاء وأرادهم متفرقين، متباغضين.

جاء في أعمال ليلة القدر أن أول عمل وأفضل عمل يقوم به المؤمنون هو قلع الضغائن والأحقاد من القلوب. قال رسول الله (ص): «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». وقال أيضاً: «أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجين من الاسلام ولم يكن بينهما ولاية، فأيهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب». فحري بكل مسلم حدث بينه وبين مسلم آخر احنة أو سوء تفاهم أن يسبق إلى منزله، يسلم عليه ويتفاهم معه ويقلع الاحنة والبغضاء بكلمات طيبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ليكون هو السباق إلى الجنة.

أنظروا ماذا يقول الصادق (ع) في هذا المقام: «لا يفترق رجلان على الهجران إلا استحق أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما. فقال له، معتب: جعلني الله فداك، هذا الظالم، فما بال المظلوم؟ قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته ولا يتعامس[1] له عن كلامه. سمعت أبي (ع) يقول: إذا تنازع إثنان فعادى أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول

(١) لا يتعامس: لا يتغافل ولا يتجاهل.

لصاحبه، أي أخي، أنا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فان الله تعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم».

هل يتصور انسان أن هناك دستوراً يؤلف بين الناس أعظم من هذا الدستور الالهي، يأتي الصديق المظلوم إلى صديقه الظالم فيتهم نفسه ويقول أنا الظالم، ليرفع ما بينهما من تشاحن وتباغض، فيحزن الشيطان إذ ذاك، إذ أنه لتباغض المسلمين بالمرصاد. فقال أبو عبد الله (ع): «لا يزال ابليس فرحاً ما تهاجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله، ونادى يا ويله، لما لقي من الثبور».

قال الباقر (ع): «أن الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال: فزت. فرحم الله أمرأ ألف بين وليين لنا، يا معاشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا».

ومن أفضل أنواع التآلف صلاح ذات البين وإدامة المودة والمحبة بين الأرحام. فان علياً عليه السلام يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وان البغضة حالقة الدين، ولا قوة إلا بالله، أنظروا ذوي أرحامكم، فصلوهم، يهون الله عليكم الحساب».

وقال عليه السلام: «عليكم بالتواصل والتباذل والتبار وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله أن الله شديد العقاب». يقول الله جل وعلا: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾. ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم﴾.

التزاور في الاسلام

الاسلام دين جامع لجميع الكمالات التي تؤدي إلى كمال الفرد وكمال المجتمع، وليس ديناً يأمر بالعبادة فحسب. فالمؤمن مستجمع لجميع الكمالات الفردية والاجتماعية وما به يكون الانسان انساناً كاملاً.

وقد زعم بعض من أخذ طرفاً من مدنية الغرب وآدابها الاجتماعية أن الاسلام: دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وأنه لا يصلح لتحقيق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات الرقي والتقدم، وأخذ يلتمس الرقي في تقليد الغرب ـ تقليداً أعمى ـ في حياتها الاجتماعية الخالية من أسس الكمال، تلك الحياة العارية عن الأسس الروحية والفضائل العليا التي يبلغ بها الانسان ذروة الكمال. كل ذلك لجهله نواميس الاسلام وآداب الاسلام وأوامره ونواهيه. ذلك لأن المدارس لم تهتم بهذه الناحية وأهملتها إهمالاً أدى إلى مقت الشاب الدين الاسلامي وطلبه السعادة والنور في أحضان الغرب.

نعم، ان طالبنا ليعلم عن جبال استراليا وجزر الفليبين أكثر مما يعلمه عن دينه: ذلك الدين الذي منَّ الله تبارك وتعالى به عليه من بين سائر الأمم، وبعث نبيه (ص) في خير بقاع الأرض وهي مكة المكرمة. ولا تزال مدارسنا لا تدرس الدين الاسلامي تدريساً يشبع الطالب بحقائقه وجلائل سننه وتعاليمه وكم مدرساً تجدون في العراق قد أحاط بفلسفة الدين الاسلامي وعمل به عملاً يستوجب الاقتداء والاتعاظ.

ولم يحصل هذا التبلبل في العقائد وهذه الاتجاهات الباطلة الفاسدة والمبادىء الهدامة إلا من جراء عدم وجود مدرسين أكفاء يدرسون الدين الاسلامي في المدارس بعقيدة راسخة وإيمان رصين مع تطبيق حقيقي. وعدم تخصيص حصص كافية تتناسب وسعة هذا الموضوع الحيوي.

بديهي أن الانسان لا يخلو من اتجاه، كما لا يخلو مكان على وجه الأرض

من هواء بصورة اعتيادية. فان لم يتجه الفرد إلى الحق والصواب، فهو متجه لا محالة إلى الباطل والفساد: «إن النفس لأمارة بالسوء».

أنظروا إلى ما يقوله هذا الدين القويم في حسن التعارف وإيجاد حياة سعيدة اجتماعية. قال رسول الله (ص): «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه». هذا دين يوفق بين سعادة المجتمع وسعادة الفرد بربط أعمال الفرد إلى الله وتقريبه إليه. ويقوي رابطة العبد والمعبود إلى حد بعيد. لأن الكمال الانساني يتناسب مع قوة هذه الرابطة. ومن أين يستقي هذا الانسان المخلوق من نطفة مذرة الفضائل والكمالات؟ أليس من خالقه العظيم المنعم المتفضل المنان، وهو القائل: ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾. الغربي لا يدخل ضمن روابطه الاجتماعية مفهوم التقرب إلى الله والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله، بل روابطه نفعية مادية حالكة، لا يرجو من ورائها إلا المنافع الخسيسة، فهي مظلمة، قاتمة دكناء، ألا ترى أن الغربي إذا فكر في مصيره بعد الموت تختلج أعصابه وترتبك أفكاره، فيزيحها بخمرة أو مجلس قمار أو رقص، فيدنس بها نفسه أكثر مما هي عليه كي لا يشعر بمصيرها: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

وعن أنس قال: «كان الرسول صلى الله عليه وآله إذا افتقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فان كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره وان كان مريضاً عاده».

وعن أبي حمزة عن أبي عبد الله الصادق (ع) أنه قال: «من زار أخاه لله لا لغيره التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة».

هذا خيثمة يقول: دخلت على أبي جعفر «وهو الامام الباقر عليه السلام» أودعه فقال: يا خيثمة، أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، وأن يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فان في لقيا بعضهم بعضاً حياة

لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا، يا خيثمة أبلغ موالينا: أنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولا يتنا إلا بالورع. وأن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالف إلى غيره».

هذا دين جعل زيارة الاخوان في الله بمثابة زيارة الله على سبيل المجاز تعظيماً لشأن المؤمن واهتماماً بالتربية الاجتماعية. فقد قال جعفر الصادق عليه السلام: «من زار أخاه في الله، قال الله عز وجل: إياي زرت وثوابك علي ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة».

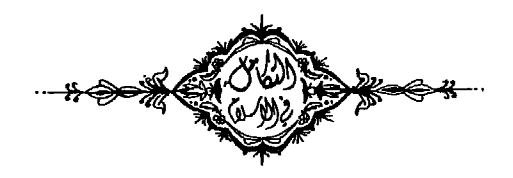
فهذه الزيارة لله وفي الله وابتغاء لوجه الله الكريم. لا يرجى من ورائها تثبيت في وظيفة حكومية أو مقدمة لنيل درجة أو مقام من المقامات أو جلب نفع مادي، بل يؤتى بها أداء لحقوق المؤمن فحسب وتعظيماً لشأنه.

هذه زيارة لا يتخللها غيبة ولا اتهام ولا افتراء. هذه زيارة لا ترى فيها محلاً للقمار والميسر ولا أثراً للخمرة ونظرات السوء. هذه مجالس لا ترى فيها التلذذ بأعراض الآخرين من رقص وغرام وتغزل بالباطل. هذه مجالس يذكر فيها اسم الله تعالى ويتخللها تسبيح وتحميد والتحدث في ما يهم المسلمين وقضاء حوائجهم. هذه مجالس تذكر الآخرة وتوجه الانسان إلى محاسبة نفسه فقد جاء في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوها قبل أن توزنوا». هذه مجالس تكفر عن الذنوب بما يتخللها من انابة واستغفار فقد جاء في الحديث: «عاشروا من يذكركم بالله». هذه مجالس ينظر اليها الله بنظر الرحمة ويتغمدها بعظيم ألطافه.

نعم، في هذه المجالس تزاور يصفه أبو عبد الله عليه السلام بقوله: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه أن طبت فطابت لك الجنة. فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله. فقال له بشير (وهو أحد أصحابه) جعلت فداك، فان كان المكان بعيداً؟ فقال عليه السلام: نعم يا بشير، وان كان المكان مسيرة سنة، فان الله جواد، والملائكة كثير يشيعونه حتى يرجع إلى منزله».

أنظروا إلى أثر زيارة الأخوان في حسن العاقبة فان الامام محمد الباقر عليه السلام يقول: «ان الله عز وجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله». فان «لقاء الأخوان مغنم جسيم وان قلوا» كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام.

لا أعلم نظاماً اجتماعياً أعلى من هذا النظام يكفل سعادة النشأتين ويبلغ بالانسان إلى أقصى حد من مراتب الكمال، ولا أرى تحاباً فوق التحابب في الله ولله، ولا أرى فضيلة أسمى مما نصت عليه التعاليم الاسلامية الرفيعة. ونسأل الله تطهير القلوب وتوفيق التحابب والتراحم والتزاور في الله... وما أحوج العالم الاسلامي إلى التفاهم والتآزر وصرف هذه الطاقات، التي يتجلّى فيها الايمان لدعوة شاملة ورفع لواء الاسلام في أصقاع الأرض عالياً، حتى لا تكاد تسمع في أية بقعة من بقاع الأرض إلا قائلاً يقول: لا إله إلا الله... محمد رسول الله...



التعاطف في الاسلام

إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. لذلك اهتم الدين الاسلامي بتقويم الأخلاق اهتماماً بالغاً فوق حدود التصور والخيال وجاء بدساتير متينة مثالية لا يضاهيها أي دستور بشري. فقد قال رسول الله (ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فإنما أداة حصر، أي أن علة بعث الرسل وإرسال نبينا محمد بن عبد الله (ص) إنما هي تكميل مكارم الأخلاق وإبلاغ الانسان إلى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية، لكي يخرج من هذه الدنيا زكياً نقياً طاهراً حرياً ليحشر مع «الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

فمن جملة تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ما يرويه محمد بن يحي عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان عن كليب الصيداوي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما أمركم الله عز وجل».

هذا دستور اجتماعي قويم لو عمل به المسلمون لأضاؤا العالم بأنوارهم ولكانوا خير وسيلة لاخراج البشر من دياجير المادية الدكناء.

فعلى المسلمين أن يربوا أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التراحم والتعاطف والتوادد والتحابب بصورة عملية: يرسل الوالد ولده لمساعدة جاره العاجز في شؤونه البيتية، أو يرسل معه ثيابه التي لا يحتاجها إلى أناس فقراء، أو يرسل معه ما فضل من طعامهم إلى بيت مسكين من المساكين أو يعطيه مبلغاً ليقدمه إلى مقعد أو ذي عاهة لا يطيق عملاً. وليعلم ولده أن يجعل عمله هذا لوجه الله الكريم وأن يرجو بذلك رضا الله تبارك وتعالى. فان كثيراً من الناس يقومون بأعمال صالحة ولكنهم لجهلهم أو ظلمة نفوسهم لا يقومون بها ابتغاء مرضاة الله تعالى بل خدمة للانسان. فان هؤلاء قد يجازون ازاء خدمتهم هذه جزاء حسناً في الدنيا من عز دنيوي ورفاهية وصحة وطول في

العمر ولكن ليست لهم مكافأة أخروية بعد الموت، ولا يفيدهم عملهم الصالح يوم «لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». في يوم «يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه، كلا أنها لظى نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى». في يوم ﴿يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾. ذلك لأن كمال النفس الانسانية إنما يحصل بتوجهها إلى الله تعالى وشكرها لله وخضوعها لله وربط الأعمال كلها الى الله. وكلما قويت هذه الرابطة ـ أي الرابطة بين العبد والمعبود ـ سطعت من الأنوار الالهية على العبد أنوار قدسية وسار العبد في ساحات الكمال بسرعة متناهية وخرج من عالم الناسوت وتخلص من براثن المادة العمياء، وما بيناه تفسير لقوله تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾. فان رضا الله تبارك وتعالى منوط بأن تكون الأعمال الصالحة ابتغاء لوجهه الكريم وتقرباً اليه، ولا تفيد الخدمات الانسانية المجردة عن روح الشكر والتقرب إلى الله تعالى.

ويا حبذا لو قامت المدارس بتأسيس جمعيات اسلامية أو لجان للارشاد الديني لتطبيق ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير التراحم والتعاطف بصورة عملية. تجمع هذه الجمعية أو لجنة الارشاد الديني من الطلاب الأغنياء بعض المبالغ اليسيرة وما خلق (بلى) من ثياب وحذاء فتذهب بها إلى بيوت الأرامل والأيتام، فتقدمها بكل احترام وبآداب اسلامية وتعمل في إقامة الصلاة داخل المدرسة وفي المساجد والقاء خطب دينية، إلى ما هنالك...

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلف له في أهله والنصرة له على من ظلمه، وإن كان نافلة في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه، وإذا مات، فالزيارة إلى قبره، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذبه وأن لا يقول له أف، وان قال له: أف، فليس بينهما ولاية، وان قال له أنت عدوي فقد كفر أحدهما، وإذا اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء»: (انماث: ذاب).

فترون أن الايمان يتناسب مع القيام بالواجبات الأخلاقية، فكلما قام الانسان بالواجبات الاخلاقية لوجه الله الكريم وطلباً لمرضاته تعالى قوي إيمانه وزاد يقينه وكلما تماهل وتكاسل في تطبيق الأوامر الأخلاقية الاسلامية ضعف إيمانه وتضعضع يقينه.

هذا أبان بن تغلب كان يطوف مع أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) حول البيت والطواف أمر واجب لا يتم الحج إلا به. فعرض له رجل يسأله حاجة يريد به الذهاب معه، فكره أن يدع أبا عبد الله (ع) ويذهب لقضاء حاجة أخيه المؤمن، وقد أشار اليه صاحب الحاجة مرة ثانية. وإذا بأبي عبد الله (ع) يراه، فأمر أبان بن تغلب بقطع الطواف والذهاب إلى قضاء حاجة الأخ المؤمن، ولو كان هذا الطواف طواف الفريضة. ثم يسأل أبان الامام (ع) عن حق المسلم، فيجيب (ع): حق المؤمن أن تقاسمه شطر مالك. ثم نظر على أبان أمارات التعجب. فيقول الامام (ع): يا أبان، أما تعلم أن الله عز وجل ذكر المؤثرين على أنفسهم. فيقول أبان: بلى، جعلت فداك، فيقول الامام (ع): «أما إذا قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر». وقد جاء في حلية الأولياء: أن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام قاسم الله ماله مرتين.

يقول محمد بن عجلان: كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) فدخل رجل فسلم. فسأله كيف من خلفت من اخوانك؟ فأحسن الثناء وزكى وأطرى فقال له (ع): «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم. فقال: قليلة. قال: فكيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة. قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ قال: أنك لتذكر أخلاقاً قل ما هي في من عندنا. قال: فقال (ع): فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة».

يقول أبو اسماعيل: قلت لأبي جعفر ـ وهو الامام محمد الباقر (ع) جعلت فداك: ان الشيعة عندنا كثير. فقال: «هل يعطف الغني على الفقير ويتجاوز المحسن عن المسيء ويتواسون. فقلت: لا. قال: ليس هؤلاء شيعة. إنما الشيعة من يفعل هذا».

وقد سأل معلى بن خنيس الصادق عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سبعون حقاً. لا أخبرك إلا بسبعة، فاني عليك مشفق، أخشى أن لا تحتمل فقلت بلى، إن شاء الله تعالى. فقال (ع): «لا تشبع ويجوع ولا تكتسي ويعرى وتكون دليله وقميصه الذي يلبسه ولسانه الذي يتكلم به وتحب له ما تحب لنفسك وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى في حوائجه بالليل والنهار. فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله عز وجل».

هذا دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وإيجاد حياة سعيدة للجميع الى حد بعيد حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه، وعد ذلك من أفضل العبادات. فان علياً عليه الصلاة والسلام يقول: «إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها. فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم».

ليست السعادة الحقيقية في جمع المال فحسب، بل في بذله وإنفاقه لوجه الله الكريم. فبذلك تتكامل النفس وتتخلص من براثن المادة وتتصل بالملكوت الأعلى وتكون انساناً كما يرتضيه الله تبارك وتعالى، ونسأل الله أن يوفقنا إلى إتباع سنة الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام، فنكون متعاطفين متراحمين مؤمنين.



آداب السلام في الاسلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ ومعنى ذلك: لو أن أحداً سلم عليك بقوله: السلام عليك. فيجب عليك إما أن تقول: (السلام عليك ورحمة الله) أو (وعليك السلام ورحمة الله). أو تقول: (وعليك السلام). فإن قلت: (وعليك) ولم تزد فقد عصيت. كل ذلك لأن الدين الاسلامي يحافظ على حقوق الأفراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض. فالذي يسلم أولاً هو ذو حق وفضل فينبغي أن يجازى بأحسن مما أتى به. وهذا ما يقره العقل ويأمر به الدين الاسلامي. وهل لأحد أن يجد في الدين الاسلامي أمراً أو نهياً أو تكليفاً يخالف العقل المتكامل. وعن ابن عباس في تفسير الآية المتقدمة: «إذا قال المسلم: السلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقد حييته بأحسن منها وهذا منتهى السلام». وروى: «أن رجلاً دخل على النبي صلى الله عليه وآله، فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال النبي (ص): عليك السلام ورحمة الله وبركاته. فجاءه آخر يقول: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال النبي (ص): وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقيل يا رسول الله: زدت للأول وللثاني في التحية ولم تزد للثالث فقال: أنه لم يبق لي من التحية شيئاً. فرددت عليه مثله».

روى الواحدي باسناده عن أبي امامة عن مالك بن التيهان. قال: «قال رسول الله (ص): من قال: السلام عليكم، كتب له عشر حسنات ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب له عشرون حسنة. ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب له ثلاثون حسنة». وقال رسول الله (ص): «السلام تطوع والرد فرض». ثم الرد ربما يكون من فروض الكفاية ومعنى ذلك: لو أن رجلاً دخل مجلساً وسلم لا على شخص معين. فان رد عليه: (السلام) شخص من الجالسين أو أشخاص عدة سقط التكليف عن الآخرين. وإن خص بالسلام أحداً من الحاضرين فقد تعين عليه الرد. وقال أيضاً: القليل

يبدأون الكثير بالسلام والراكب يبدأ الماشي وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير. وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال. كل ذلك لتعليم الغني التواضع للفقير بما أنعم الله عليه. وقد دلت الأخبار أن رسول الله (ص): كان يسلم على النساء ويرددن عليه. وان السلام على الشابة مكروه تخوفاً من استحسان صوتها. فيدخل على المسلم من الاثم أكثر مما يطلبه من الأجر.

وقد مر رسول الله (ص) على صبيان فسلم عليهم. وان الشارع قد أوجب رد السلام وإن كان المخاطب بالسلام في حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة. فان كنت في صلاة وسلم عليك رجل او امرأة بان قال أحدهما: سلام عليكم، وجب أن تقول في الجواب. سلام عليكم وان تسمعه. ففي الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد وهو المسلم، فالله تعالى لعظيم لطفه آثر حق العبد على حقه وأمر بأن يرد المصلي السلام وأن يستمر في صلاته من حيث انتهى اليه. وهذا شأن الدين الاسلامي في جميع أحكامه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: إذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلم واحد منهم وإذا سلم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يرد واحد منهم. وقد قال رسول الله (ص): إبدأوا بالسلام قبل الكلام. فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه. وقال أيضاً: «أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام». وقال أبو جعفر الامام الباقر عليه السلام: «ان الله يحب إفشاء السلام». وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من التواضع أن تسلم على من لقيت»، وقال أيضاً: يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير.

هذه آداب يقرها الدين الاسلامي احتراماً لحقوق الأفراد مهما كانت مراتبهم. ومع الأسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الاسلامي الرفيع. نرى أناساً يردون السلام مع شيء من الكبرياء والتبختر أو لا يردونه رداً تاماً، فيكونون آثمين. نرى قسماً من الناس يردون السلام بصوت خشن قائلين (عليك) أو (عليكم). تكبراً على من تفضل فسلم عليهم. ولا شيء أبغض عند الله من الكبر. فان الله تعالى يسلب إيمان المتكبر لكبره. فالكبرياء خاصة به تعالى. ان الله تعالى يقول: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق». وان الكبر من أصول الكفر

ويؤدي إلى ضعف الايمان بل سلبه. ففي الحديث، أصول الكفر ثلاثة: الحسد والبخل والكبر. ثم يستحسن رد السلام مع البشر والابتسام. فان المؤمن هش بش. وان رسول الله (ص) كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب فلا يحسن بالمسلم أن يرد السلام بإمتعاض وخشونة بل يستحب له أن يجازي المحسن مع زيادة لسابق فضله.

قرأت للأستاذ محمد علي الحوماني مقالاً قبل حوالي خمسة عشر عاماً يقول فيه ما مؤداه: بينما كنت أسير في طرقات لندن، عند الزوال وإذا بي أشاهد رجلاً كبير السن واقفاً على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر، فانتظرت حتى أنهى الآذان. فسلمت عليه قائلاً: السلام عليكم، فأجاب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. عملاً بالآية المباركة: ﴿وإذا حُيِيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾. ثم تعارف معي وطلب الي الدخول إلى البيت، فدخلت، فرأيت أنه قام مع عقيلته فصليا صلاة الظهر، ثم جلسا على مائدة الطعام وألحا عليّ أن أتناول معهما الطعام وقد لفت نظري أنهما لم يبدءا بالأكل حتى قالا: (بسم الله الرحمن الرحيم) ولما انتهيا من الطعام، قالا: (الحمد لله رب العالمين). ان الشيخ كان أحد كبار الأساتذة في جامعة لندن، قد اعتنق الدين الاسلامي عن تتبع وتنقيب وبحث عميق. وكم من رجال في الغرب: أولئك الذين لم يلوثوا أنفسهم بالخمور والفجور والمراقص والمجون والربا وأكل لحم الخنزير، اعتنقوا الدين الاسلامي وخرجوا من الظلمات إلى النور. ذلك لأنه لا مجال للضوء والنور (وأعني به الايمان) أن يدخل نفوساً مدلهمة حالكة بالمعاصي والآثام. ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً واستكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (سورة فاطر: ٤٣)، لا سيما إذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتى صارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، أي بلغت درجة من الانحطاط حتى انطفأت آثار الفطرة، فأمست لا تبصر الحق، بل الحق لديها ما هي عليه من تساهل مرير: «فأنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

ونرى بعض المسلمين إذا دخلوا مجلساً عند الصباح قالوا: صباح الخير. وقالوا عند المساء: مساء الخير. أو رفعوا أيديهم كعلامة للتحية. فلا يحيون الحاضرين بتحية الاسلام، اقتباساً عما جاءنا من الغرب. ما أثر رفع اليد في جلب الخير للمخاطب. وما معنى صباح الخير؟ أي أرجو أن يكون صباحك خيراً. وما قيمة هذا الرجاء إن لم يقترن بمشيئة الله تعالى. وما قيمة الرغبات الشخصية، والأمر كله لله. فقول المسلم: السلام عليكم ورحمة الله، وتعقيب ذلك بـ(صبحكم الله بالخير) هو إرجاع الصحة والسلامة والخير إلى الله تعالى وطلب ذلك كله للشخص المخاطب، من الله تعالى.

وقد سمعت في لبنان يقول أحدهم لآخر عند ملاقاته ليلاً: (سعيدة) أي لتكن ليلتك سعيدة. ما أثر هذا الأمل في جعل الليل سعيداً، لو لم يرد الله تعالى ذلك. فالأمور كلها بيده تعالى. فطوبى لمن توكل عليه وعمل بما أمر به، ليفوز بسعادة حقيقية أبدية. ان المدنية الحاضرة في تحياتها تمثل الدور الجاهلي، فلا تجد لذكر الله فيها أثراً. وان تقليد الغرب في الآداب الاجتماعية هو الارتجاع (أي الرجعية) بالمعنى الصحيح.

نعم، أنا قد تأثرنا بمدنية الغرب المادية في آدابنا الاجتماعية وأصبحنا مقلدين حتى في ما تعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرناً. إذا دخل الرجل منا قال: مرحباً. عوضاً عن أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله. لأنه يرى ذلك أقرب إلى القبول وأطيب إلى القلوب. مع أن الله يريد بنا أن نذكره دائماً كي تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى ونستقي من ينبوعه الفياض جميع الكمالات التي بها يكون الانسان انساناً. فان «ذكر الله حسن على كل حال». ولم يستثن الشارع موضعاً لا يذكر فيه اسم الله.

ولا ريب أن لذكر الله تعالى أثراً عظيماً في ردع النفس عن غلوائها وشهواتها ونزواتها. فقد جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا﴾. وقوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾. وقال تعالى: «فاذكروني أذكركم».

كثيراً ما نجد أناساً تغلغلوا في المدنية الغربية لا يذكرون اسم الله في كل يوم وليلة ولا مرة واحدة. انهم قد يحترمون آباءهم ويقدسون أمهاتهم وهو ما أمر الله تعالى به، ولكنهم لا يذكرون ولا يعظمون من تفضل عليهم بالآباء والأمهات. وقد جاء في حديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

إن العلامة الفارقة بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربية: أن شعار الثانية رفع مفهوم الله عن الحياة الاجتماعية وربط الأمور بحبول مادية مقتضبة خسيسة والاعتماد على الوسائل المادية. ولذلك تتحجر النفس في هذه المدنية فلا تشعر بما وراء الطبيعة ولا تعترف به. «فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعلمون». وان هذا البشر لميال إلى رفع القيود والتدهور والتسافل. فيتقبل ما يؤدي إلى التسافل وينطبع عليه أسرع مما يؤدي إلى التعالي والتكامل. وان المادية بآثارها ومظاهرها ونتائجها وخلاعتها ومجونها وصحافتها ومسارحها ومراقصها واعلاناتها تدهور وتسافل. لذلك تجد قبولاً بسائق الغريزة من أناس غلبوا على أمرهم فخالفوا ما تمليه عليهم عقولهم، فتراءت لهم الشهوات بلباس العقل والفكر والثقافة فاتبعوها حتى صاروا لا يشعرون إلى أين هم سائرون. فطوبى لمن حكم عقله ولم تغره المظاهر الخلابة والمناظر الخداعة، المبعدة عن ذكر الله والآخذة بهذا الانسان المسكين((المغرور بلفظ الثقافة) إلى أسفل سافلين: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

آداب التلاقي في الاسلام

إن الدين الاسلامي قد استوعب كل ما من شأنه ابلاغ البشر إلى أعلى مراتب الكمال. فأعطى حكمه في كل أمر اجتماعي أو خلقي أو حقوقي أو عبادي. حكماً هو غاية الأحكام، حكماً يؤيده العقل السليم، ذلك العقل الذي لم يتلوث بالمدنسات والجرائم، حكماً يصل الانسان إلى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه. ومن جملة تلك الأحكام وتلك الآداب: ما يقوم به الانسان الاجتماعي عندما يلاقي إنساناً آخر.

فيستحب أن يلاقي المرء أخاه المسلم بالبشر وأن يبدأه بالسلام وان يظهر اليه أنه يوده ويحبه. فعن أبي عبد الله (ع): «مجاملة الناس ثلث العقل». وقد قال رسول الله (ص): «ثلاث يصفين ود المرء لأخيه المسلم: يلقاه بالبشر إذا لقيه، ويوسع له في المجلس إذا جلس اليه، ويدعوه بأحب الأسماء اليه». وان من التواضع: أن يبدأ المسلم أخاه بالسلام لينال الأجر والزلفى. فـ«البادىء بالسلام أولى بالله وبرسوله» و«من أخلاق المؤمن الانفاق على الاقتار والتوسع على قدر الوسع وانصاف الناس وابتداؤه إياهم بالسلام عليهم». كما جاء في الحديث. وقد نهى الدين الاسلامي عن الكلام قبل السلام، فقد قال رسول الله (ص): «إبدأوا بالسلام قبل الكلام فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه».

ومن جملة تلك الآداب المصافحة. فيستحب أن يصافح المسلم أخاه المسلم، فان الذنوب تتساقط عنهما، لأن الله يريد بالمسلمين أن يكونوا متحابين متوادين، متآزرين متعاضدين، وهو القائل: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾. وقد بالغ الدين الاسلامي في ذلك فعد المتباغضين من المؤمنين خارجين عن الاسلام حتى يصطلحا. روى أبو عبيدة الحذاء، قال: «كنت زميل أبي جعفر عليه السلام وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو، فإذا استوينا سلم وسائل مسائلة من لا عهد له بصاحبه وصافح، وكان إذا نزل قبلي، فإذا أستويت أنا وهو على الأرض سلم وسائل مسائلة من لا عهد له بصاحبه، فقلت له يا ابن

رسول الله، أنك لتفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا وان فعل مرة فكثير، فقال: «أما علمت ما في المصافحة، ان المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه، فما تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر اليهما حتى يفترقا». وفي حديث آخر: «ان المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه، فإذا أقبل الله عز وجل عليهما بوجهه تحاتت عنهما الذنوب كما يتحات الورق عن الشجر». ومعنى أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما. أي أنزل عليهما عظيم رحماته وجزيل بركاته. على حد قوله تعالى: «يد الله فوق أيديهم». فان الله تعالى لا يشبه مخلوقاته في شيء: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

فيستحب للمسلم أن يلاقي أخاه المسلم بالتسليم والتصافح وأن يفارقه بالاستغفار، وأن من يلزم التصافح أعظم أجراً من الذي يدع. وكان رسول الله (ص) إذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتى جعله أعلى منزلة من الملائكة، وقد جاء في الحديث: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة».

كل هذه الآداب، ليستكمل المؤمن مكارم الأخلاق ويتكامل في عالم الوجود. وأهم أدب يتأدب به المؤمن ويقربه إلى الله بل يجعله أهلاً ليكون من المقربين هو التواضع وقلع الكبرياء عن نفسه، فان في كثير من النفوس شيئاً من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف، ولا تخضع هذه النفس لله الذي خلقها ولا تسجد له ولا تطيعه في عالم التكامل ما لم تقلع داء الكبرياء عنها، فالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهدات لقلع صفة الكبر وقمعها. وإن طرد ابليس عن الساحة القدسية الالهية لم يكن إلا لتكبره وخيلائه. فـ «أكثر أهل النار المتكبرون» كما جاء في الحديث.

وفي تحف العقول: ان الامام موسى بن جعفر عليهما السلام مر برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثم عرض (ع) عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له. فقيل يا ابن رسول الله أتنزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو اليك أحوج؟ فقال عليه السلام:

«عبد من عبيد الله وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم (ع) وأفضل الأديان الاسلام ولعل الدهر يرد من حاجتنا إليه فيرانا ـ بعد الزهو لا عليه ـ متواضعين بين يديه، ثم قال (ع):

نواصل من لا يستحق وصالنا مخافة أن نبقى بغير صديق

وكان علي بن موسى الرضا عليهما السلام إذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس. وقد روى الكليني في الكافي أن الرضا (ع) دعا يوماً في سفره إلى خراسان بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقال له بعض أصحابه، جعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال (ع): «إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد والجزاء بالأعمال».

لنتعلم مكارم الأخلاق من أئمة نوروا الأرض بنور كمالهم وكانوا مثلاً علياً للفضائل وكمال الصفات، لا في إعطاء الدساتير فحسب، بل كانوا في حياتهم العملية فوق ما يملونه من دساتير. فقد روى إبراهيم بن العباس أن الرضا (ع): «ما جفا أحداً بكلام قط ولا قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما رد أحداً عن حاجة قدر عليها، ولا مد رجليه ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا شتم أحداً من مواليه ومماليكه ولا تفل قط ولا قهقه في ضحكه، بل كان يتبسم».

نعم هذه صفات يحق للانسان أن يدعى بها خليفة الله في أرضه. فقد جعل الله للانسان مثلاً أعلى لا يعقل أن يتصور مثلاً أسمى منه مهما حلقنا في جو الخيال واستلهمنا العلم والحكمة، ذلك المثل الأعلى هو انسان قد بلغ مراتب من الكمال، يحق له أن يدعى خليفة الله في أرضه على حد قوله تعالى: «وإذا قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال أني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم

بأسمائهم، قال ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم المثل العليا وخلفاء الله في أرضه.

إن هذه الآيات الشريفة تصرح بأن أنواع العلوم والمعاني التي لم تصل اليها الملائكة مغروسة في جبلة الانسان، وإذا كان الانسان من سمو الفطرة وشرف التكوين في درجة تسجد له الملائكة فأي وازع أقوى من هذا يزعه عن مقارفة الرذائل ومقارنة الخسائس. وأي دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة وبلوغ النهايات القصوى وذلك بالتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عليهم السلام.

لو تتبعتم الدين الاسلامي لرأيتم أنه يهدف في جميع دساتيره ونظمه وتعاليمه إلى تكميل النفس الانسانية وابلاغها أعلى مراتب الكمال.

أنظروا كيف يعرف علي (ع) الايمان ويحصره في مقدسات أخلاقية فيها الكمال الانساني. أنه (ع) يقول: «الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك». ولا يخفى أن الانسان لا يبلغ هذه الدرجة من الكمال الأخلاقي إلا بالتقوى ولا تعلم مراتب التقوى ولا تدرك إلا بأداء واجب الشكر لله تعالى، ولا يمكن أداء واجب الشكر إلا بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وإقبال نفسي حقيقي. فمن ظن أنه يبلغ مراتب أخلاقية دون أن يعبد الله حق عبادته فهو كـ «من أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين».

نعم، إن العبادات واجباتها ومستحباتها، والمدنسات محرماتها ومكروهاتها وما قرره الشرع من زكاة وخمس وصدقات واجبة ومستحبة وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر إلى غير ذلك توصل الانسان إلى الغاية العظمى التي خلق من أجلها الانسان وهي الكمال النفسي، ان الفيلسوف قد يعين بصورة ناقصة المثل الأعلى ولكنه لا يقوى أبداً على عرض الوسائل الناجعة التي يبلغ بها الانسان إلى تلك المثل العليا. والدليل على ذلك هو نفس الفيلسوف

الناقصة، تلك النفس التي لم تخط في ساحات الكمال في مجالات تزكية النفس وتطهيرها شبراً. فكيف يريد أن يكون مربياً للعالم وهو أحوج الناس إلى التربية النظرية والعملية في حقل الكمال النفسي.

فطوبى لمن وعى الحق والحقيقة وأقبل على نفسه فأصلحها ولم تأخذه في الله لومة لائم، وارتحل من هذه الدنيا بنفس زكية إلى خلود كله سرور وحبور وجله سعادة وهناء لا يتخلله كدر ولا شقاء.

«وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان أوكانوا يعلمون».



التربية الاجتماعية في الاسلام

الانسان اجتماعي بالطبع، فلا يمكن أن يعيش بصورة منفردة. ولا بد له من الاجتماع والتعاون ولكن إن لم يبنَ هذا الاجتماع على أسس مشروعة صحيحة أدى إلى الفساد والافساد كما نشاهد اليوم. وقد يشذ الانسان عن الاجتماع المرضي عند الله تعالى أو لا يؤدي واجبه نحو المجتمع. أو لا يعلم كيف يقوم بواجبه الاجتماعي في كثير من الأحيان. لذلك عنيت الأديان السماوية بالتربية الاجتماعية والأخوة والتراحم والتعاطف والتوادد وصلة الرحم والرفق واطعام البؤساء والمساكين وإكسائهم. وأكملها وخاتمها الدين الاسلامي. فقد اهتم بالتربية الاجتماعية وشؤون المجتمع إلى حد بعيد.

ففي الحديث: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». وقال رسول الله (ص): «أنسك الناس نسكاً: أنصحهم حباً وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين».

إن المربين لشعورهم بحاجة المجتمع الانساني وحيوية قوة الاجتماع أدخلوا التربية الاجتماعية في مناهجهم وخصصوا لها أبحاثاً وفصولاً وكتباً خاصة. ان التربية الفردية أو الاستقلالية كانت قد تغلغلت في المدارس منذ زمن غير بعيد. ومن مظاهرها تخصيص رحلة خاصة لكل طالب وخزانة خاصة ومختبر خاص ومجموعة خاصة من نماذج النبات والحيوان والأحجار أو قطعة أرض يزرعها الطالب بيده إلى ما هنالك.

لم يكن هنالك اهتمام خاص بالتربية الاجتماعية، ولكن (فروبل) مؤسس جنينات الأطفال قد تنبه إلى هذا النقص، فقال: «إن المجتمع الحاضر يختلف عن الجمعيات القديمة بأن لها روحاً تسمى بالروح الاجتماعي. فعلى الأفراد أن يوحدوا قواهم المعنوية لينجحوا ويحصلوا على نتيجة محسوسة كما هم فاعلون في الحياة المادية وعلينا تقوية التشبث الفردي في التلاميذ بالألعاب على

أن تعقب غاية مشتركة اجتماعية فيكون سرور اللعب مخلوطاً بعمل اجتماعي».

ان الله تبارك وتعالى قد أودع في الطفل جميع القابليات التي من جرائها يكون الطفل فرداً كاملاً مفيداً لنفسه ولمجتمعه. إلا أن الانسان لعدم تفهمه الحياة قد يضغط على هذه القابليات فلا يدعها أن تبرز وتنمو. فالوالدان أو المدرسة كثيراً ما يمنعون الأطفال من الألعاب الاجتماعية أو الفعاليات المشتركة الاجتماعية، ساهين أن ما من طبيعة أو غريزة أودعها الله تبارك وتعالى في الطفل إلا ولها فائدة تعود عليه وعلى المجتمع بالخير لو استعملت واستخدمت حسب قوانين يقرها العقل والشرع. كان علماء التربية إلى زمن غير بعيد يعترفون بمبادىء ثلاثة للطفل: بدنية وعقلية وخلقية وقد فاتهم أن يضيفوا عليها المبدأ الاجتماعي الذي أوشك اليوم أن يسود على المبادىء الأخرى.

يقول (جون دوي) الفيلسوف المربي الامريكي في مقاله: (المدرسة والرقي الاجتماعي): «الجمعية مؤسسة من أفراد يسعون بفكرة واحدة وشعور واحد معقبين غاية مشتركة. فان اشتراك الآمال والحاجات في الجمعيات مما يزيد في تصادم الأفكار ويؤدي إلى تجاذب متقابل. وان ما يمنع مدارسنا عن الرقي الاجتماعي خلوها عن الوحدة الاجتماعية في الألعاب والنزه. فالأطفال حين شروعهم بلعب يقسمون الأعمال فيها بينهم ويعينون وظيفة لكل واحد منهم. وان أفدح نقص في مدارسنا اليوم اهتمامها بتربية الطلاب في بيئة غير جامعة لمزايا اجتماعية». نعم، ان المدارس الحديثة قد أخذت تربي الطلاب تربية اجتماعية بتوزيع مقدمات الدرس ووسائل الايضاح على ثلة من الطلاب وحملهم على التتبعات المشتركة بشكل اجتماعي. وتشكيل جمعيات مختلفة إلى ما هنالك.

وقد يظن أن التربية الاجتماعية من مكتشفات القرن العشرين، مع أن الدين الاسلامي قد أيد الناحية الاجتماعية إلى حد بعيد. بل ان الدين الاسلامي دين اجتماعي بجميع مظاهره وتعاليمه وذلك بشكل يتناسب مع التكامل الروحي، يتناسب مع الغرض الأسمى الذي خلق الانسان لأجله.

وأي اجتماع خير من اجتماع المسلمين عدة مرات في صلاة الجماعة في جو تعلوه الطمأنينة وتغشاه رحمة رب العالمين.

يعيش الانسان في حياته اليومية في عالم من عـدم المساواة وعـالم من منازعات وعداء وبغضاء. وان حيـاة الأخوة الالهيـة التي تتجلى في صـلاة الجماعة تعدل نواقص الحياة الاجتماعية وتلقي دروساً قيمة عن الـود والمحبة والمساواة وتدعم قواعد الوحدة ورفاهية الجنس البشري.

إن صلاة الجماعة درس عملي لتطبيق قواعد الأخاء والمودة الالهية وإيجاد مجتمع متآزر متعاضد على أساس الايمان الصحيح. وهكذا تتجلى الأخـوة الاسلامية في صلاة العيد وصلاة الجمعة والحـج وتشييع الجنـائز والتـزاور والتلاقي والمصافحة والمعانقة.

والفرق الأساسي بين التربية الاجتماعية الاسلامية والتربية الاجتماعية الغربية أن التربية الاجتماعية الاسلامية ترمي إلى تربية النفس والبدن معاً، فتزكو النفس وتسير إذ ذاك في ساحات الكمال حيث لا حد ولا انتهاء. ولكن التربية الاجتماعية الغربية مادية بحتة ونفعية محضة عليها طابع مادي وهو التقدم في عالم الصناعة وإيجاد وسائل الراحة فحسب، فلا تنفذ إلى الروح الانسانية ولا تعمل في تكميلها وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس. ومن آثارها: هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر.

فجدير بالمسلم أن لا ينخدع بمظاهر الغرب، فان النفوس غير المؤمنة لا يرتجى منها الخير، وأن يعلم أن تراثه في عالم التربية وتكامل النفس غني وغني جداً ولا يحتاج أن يأخذ شيئاً من الغربي في التربية الاجتماعية والاخلاقية والمدنية ففي شريعة الاسلام الغراء يجد الانسان الكمال الأخلاقي بأوسع معانيه الفلسفية السامية. ومما يؤسف له أن ثلة من شبابنا يذهبون إلى الغرب لتعلم بعض العلوم الاجتماعية والتخصص فيها! فيحسبون أن ما يمليه الاستاذ أو الدكتور حقائق ثابتة لا شبهة فيها، ويزعمون أن الدين الاسلامي لم يعالج القضايا الاجتماعية ولم يقل فيها قوله الفصل المؤدي إلى الكمال البشري، فيسخرون من الدين ويهزأون بعلماء الدين ويعبرون عنها بكتب صفراء شأن

الجاهل الذي يعادي ما جهله. ولو أن هؤلاء تخصصوا في الفلسفة الاسلامية وآدابها أو درسوا الدين الاسلامي وعملوا به قبل التخصص في فرع آخر، وورعوا واتقوا وجانبوا المعاصي والآثام، لعدوا هفوات دكاترة الاجتماع وأساتذة الأخلاق، وخرجوا من حدود التقليد الأعمى إلى التفكير الصحيح والجرح والتعديل. ولكن هيهات!.

﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾. (سورة آل عمران: ١٧٩).

ومن هؤلاء الذين يتخصصون في الدراسات الاجتماعية من يركبه الغرور إلى درجة يستهزيء في كتاباته بعبارات المتدينين التي مفادها: التوكل على الله تعالى في الأمور، وتفويض الأمر اليه مع عمل متواصل وجد واجتهاد. فيقول دونما مناسبة: (معاذ الله) وأمثال ذلك. فكأنه غني عن التعوذ بالله تعالى من مكائد الشيطان. وقد فاته أن الدراسات الاجتماعية من أسهل المواضيع تخصصاً، وأسرعها تناولاً، ولو أدخل هذا المتخصص في فرع من فروع علم الاجتماع، جبراً، في فرع من العلوم الرياضية أو الفلكية أو الفيزياوية لرسب حتماً ولما نال هذا اللقب المغري (دكتوراه: Doctorat) ولما تكبر وتجبر ولاعترف بالجهل، والاعتراف بالجهل يفتح على الانسان أبواب الهداية.

إن العلوم الاجتماعية لا تضبط بضابط من حيث الصحة والسقم كالعلوم الرياضية والكيمياوية والفيزياوية. فليس هناك كما يدعى (Determinisme) لتضارب الآراء فيها وتغير هذه الآراء من حين لآخر؛ حتى أنك ترى أن الفيلسوف يغير رأيه في موضوع واحد طيلة حياته مرات مع اتحاد الظروف.

فإذا كان العالم الاجتماعي غير عامل بالدين ومستهتراً بالمقدسات، فلا يترشح من كتاباته في موضوع الدين إلا ما يناسب نفسيته التي أخذت تتسافل بالمعاصي والآثام. لأنه أمسى بذلك لا يبصر الحق ويظن (الشهادة قد نالها) أنه قد بلغ الغاية من التتبع والتحقيق. ان الله تعالى يقول:

﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

فلو أحاطت الخطايا بفرد من الأفراد فلا يترشح منه إلا ما يناسب تلك الخطايا والسيئات. ﴿وكل إناء ناضح بالذي فيه﴾. وبديهي أن الانسان لو حاد بسوء اختياره عن الصراط السوي فان الله تعالى يبعده عن ساحة القدس، وهذه سنة الله في خلقه ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده﴾. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

ولو كان يشك هذا العالم الاجتماعي في ما أقول فليعمد إلى تجربة منجية: فليقم بتطبيق جميع ما أمر به الدين ولينته عما نهى عنه الدين ثم ليأت بشيء من المستحبات، فأنه سوف لا يقول بما كان يقول به قبلاً متبختراً مغروراً. بل يندم على مقالاته المضلة ويبرأ إلى الله تعالى منها، مستغفراً منيباً.

ولنختم هذا المقال بذكر درر من الأحاديث في التساند الاجتماعي. تساند يأمر به الدين الاسلامي ولا يعمل به (مع الأسف) المسلمون إلا أفراداً قلائل.

يقول أبو عبد الله عليه السلام: «عليك بالنصح لله في خلقه. فلن تلقاه بعمل أفضل منه».

ويقول سلام الله عليه أيضاً: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم».

وعن النبي (ص): «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم».

وعن رسول الله (ص): «الخلقَ عيال الله. فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً».

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «من رد عن قوم من المسلمين عادية: ماءاً أو ناراً، وجبت له الجنة».

وقال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: «وجعلني مباركاً أينما كنت» قال: نفاعاً.

فيجدر بالمسلم أن يطلع على هذه الكنوز الثمينة من آداب دينه وأن يمليها بلسان فلسفي وتحليل علمي والهام رباني (يأتيه من ناحية التقوى والورع) على أساتذة الغرب وفلاسفتها، فيكون معلماً قبل أن يكون متعلماً. ومؤثراً قبل أن يكون متأثراً. ومن الله التوفيق ولا توفيق إلا بعمل صالح.

الانفاق في الاسلام

إن الأديان السماوية برمتها تأمر بالرحمة والشفقة والرفق والاحسان، وخاتمها وأكملها الدين الاسلامي الذي جاء به خاتم النبيين محمد (ص) رحمة للعالمين لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾. فكل أمة تعمل بنصوص هذا الدين تكون في سلام ودعة وطمأنينة، لا ترى فيها فقيراً ولا مسكيناً ولا بائساً ولا جائعاً ولا عارياً. فالناس كلهم، إذ ذاك، في دعة ورغد ورفاهية تامة كل بحسبه. وهذا شأن الدين الكامل، فأنه يؤسس مدنية فاضلة لا ترى في أية ناحية منها خللاً يحتاج إلى إصلاح بشري.

وقد شاهدنا النظم البشرية والقوانين الموضوعة، تتبدل من وقت إلى وقت ومن حين إلى حين. يشعر الواضعون فيها بالنقص، فيصلحون ما أعوج منها وإذا بهم أمام نقص آخر أو عيب آخر. فالواضعون يضعون القوانين والمصلحون يصلحون والبشر في تعب وعناء وفي خسر ووبال.

أنى لهذا البشر الذي قد حدد عقله أن يأتي بشيء كامل لا نقص فيه، أما أن يأتي بشيء خيالي لا مجال لتطبيقه، وأما أن يأتي بشيء يصلح ناحية ويفسد نواحي عدة، ذلك لأن النفس التي تضع هذا القانون مهما أوتيت من عقل وتفكير محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها وانطباعاتها السابقة والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها.

يقولون: يجب أن يتناسب النظام مع البيئة. أو يجب أن يؤخذ القانون من روح المحيط. فنجيبهم ما قولكم في بيئة فاسدة، في بيئة متفسخة؟ أو هل يصلحها نظام يضعه من هو حامل جراثيم تلك البيئة؟.

يقولون: ان الحاجات تتجدد من وقت إلى وقت، فيجب أن تتغير التعاليم الدينية حسب الحاجات الحادثة. فنقول: ان الله تبارك وتعالى أعلم بحاجات البشر الحقيقية التي تضمن سعادة الدارين من هذا البشر الناقص. وان الحاجات الجديدة تعالج، وتسن لها قوانين على ضوء المبادىء الاسلامية

العامة والأصول المقررة في علم أصول الفقه. نعم، ان النظام يجب أن يكون مجرداً عن الأهواء والتأثيرات الخارجية والداخلية آتياً من منبع فياض زكي نقي لا كدر فيه.

النظام هو نظام الأنبياء، والقانون هو ما سنوه ودونوه. فلا سعادة للبشر ولا هناء إلا إذا اتبعت النظم السماوية. وإن أكملها وأسماها هي النظم الاسلامية الخالدة التي تكفل سعادة الانسان في جميع مرافق الحياة الدنيوية فضلاً عن الحياة الأخروية الخالدة. فان الدين الاسلامي ليس مجموعة عبادات فحسب بل هو مجموعة قوانين رصينة وتعاليم خالدة تعين وظيفة الانسان في معاملاته ومتاجره وفي حياته الشخصية والاجتماعية والمدنية. الا أن الأهواء البشرية قد طغت عليها، فمنعت تعميمها في أرجاء العالم وبذلك بغت على البشرية المسكينة فتاه الناس في دياجير الظلمات وكانت نتيجة ذلك ظهور مبادىء هدامة. وان أشنع هذه المبادىء الهدامة وأفسدها لهو المبدأ الشيوعي، وهذا المبدء هوعصارة المذهب المادي الذي انتشر في اوروبا باسم العلم والعلم منه براء. هو نتيجة شيوع الفحشاء والمنكرات في الغرب، فرجع بثلة من البشرية المسكينة إلى جاهلية جهلاء.

وما أثر العلم إن لم يقترن بالدين، أي يتحد بنفس زكية طاهرة تعمل حسبما أمر به الدين. وان ظهور مثل هذا المبدأ المميت لأمر طبيعي إذا ما درسنا طيش أوروبا وانغمارها في الشهوات والمنكرات طيلة قرون. «فكل اناء بالذي فيه ينضح».

لو أردنا أن نعلم صحة مسلك من المسالك فلننظر إلى واضعيه، فإن كانوا أناساً صلحاء في حياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية، يخافون الله ويؤمنون باليوم الآخر لا تجرفهم أطماع الدنيا وزينتها وحب الرئاسة جاز لنا أن نفكر في تحقيق هذا المسلك وأن نعرضه على النصوص القرآنية والسنة النبوية والنظم الاسلامية الخالدة فان وافق فذاك، وإلا ضربنا به عرض الحائط.

إن الدين الاسلامي حث على الانفاق والبذل والكرم وإقراء الضيف

والتصدق وإيتاء الزكاة والخمس ضمن آيات عديدة في القرآن الكريم وأحاديث جمة عن النبي (ص) والأئمة (ع). وقد عمل بذلك النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام بمقياس مثالي واسع. فلنقتف آثارهم ليسود السلام في العالم ويهنأ البشر قاطبة.

إن الانفاق في الدين الاسلامي على نوعين: مستحب مؤكد، يكاد يكون واجباً، وواجب مفروض.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾. ماذا يريد الانسان؟ أجزاء أعظم من هذا الجزاء، وهذا هو الانفاق المستحب استحباباً مؤكداً، لو عمل به لأصبح الناس كلهم في رفاهية تامة ولزال الفقر، وهو غير الزكاة الواجبة.

إن الزكاة الواجبة نفسها تكفي الفقراء والمعوزين والمحتاجين. ذلك لأن الامام أبا عبد الله (ع) يقول: «إن الله فرض الزكاة كما فرض الصلاة، فلو أن رجلاً حمل الزكاة وأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب وذلك أن الله فرض في أموال الأغنياء للفقراء ما يكتفون به ولو علم أن الذي فرض لا يكفيهم لزادهم، وإنما يؤتى الفقراء فيما أتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة[1]. يقول الله جل وعلا: ﴿والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. هذا، حسين عليه السلام يفد عليه أعرابي وهو في المسجد فيراه مصلياً يقف بإزائه وينشىء قائلاً:

لم يخب الآن من رجاك ومن	حرك من دون بابك الحلقه
أنت جواد وأنت معتمد	أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم	كانت علينا الجحيم منطبقه

فسلم الحسين (ع) من صلاته وقال: «يا قنبر، هل بقي من مال الحجاز

(١) معنى يؤتى الفقراء فيما أتوا: أي يبتلون بما يبتلون به.

شيء؟» قال: «نعم أربعة آلاف دينار». فقال: «هاتها، قد جاء من هو أحق بها منا». ثم نزع بردته ولف الدنانير بها وأخرج يده من شق الباب حياءاً من الاعرابي وأنشأ يقول:

خـذهـا فـإني اليـك معتـذر واعـلم بـأني عليـك ذو شـفقـه
لـو كان في سيرنـا الغـداة عصـا أمست سمـانـا عليـك مندفقـه
لـكـن ريـب الـزمـان ذو غـير والـكـف منـا قـليلة النـفـقـه

فأخذها الأعرابي وبكى، فقال الحسين عليه السلام: «لعلك استقللت ما أعطيناك» قال: «لا، ولكن كيف يأكل التراب جودك».

هـذا نموذج من الكمـال الانساني في الانفـاق، لا يقوى عليـه البشر العادي.



المثل العليا في الانفاق

إن الدين الاسلامي حث كثيراً على الانفاق المستحب وهو غير ما فرض الله تعالى من زكاة وخمس. يقول الله جل وعلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾. قال أبو عبد الله عليه السلام: «ان الزكاة ليس يحمد بها صاحبها وإنما هو شيء ظاهر، إنما حقن بها دمه وسمى بها مسلماً». فقلت: «أصلحك الله، وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟». فقال: «سبحان الله، أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم﴾. قال: «قلت: ماذا الحق المعلوم الذي علينا؟» فقال: «هو والله الشيء الذي يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر، قل أو كثر. غير أنه يدوم عليه». قال: «قلت: قوله عز وجل: ﴿ويمنعون الماعون﴾ فقال: «هو القرض يقرضه، والمعروف يصطنعه ومتاع البيت يعيره وليس منه الزكاة». فقلت له: «إن لنا جيراناً، إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم؟» قال: «لا، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك». قال قلت له: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً؟» قال: «ليس من الزكاة». قال: «فقلت له: قوله عز وجل: ﴿ان تبدوا الصدقات فنعماً هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم؟﴾ قال: «ليس من الزكاة. وصلتك قرابتك ليس من الزكاة».

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ما لفظه: «ان الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصواع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت منه خمسة أقراص على عددهم. فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل. فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين،

أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنة. فآثروه وباتوا لم يدوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه. ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي (رض) بيد الحسن والحسن وأقبلوا إلى رسول الله (ص) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسؤوني مما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك. فنزل جبرائيل عليه السلام وقال خذها يا محمد، هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة وهي سورة الدهر ومنها: ﴿ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً. يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً. ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. . . الخ﴾.

وأما علي عليه السلام فقد روى المفسرون أنه كان لا يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية فأنزل الله فيه: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾، وكان يستقى بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه ويتصدق بالأجرة ويشد على بطنه حجراً.

قال الشعبي: «كان علي أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، وما قال: لا، لسائل قط». وقد قال فيه معاوية: «لو ملك علي بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفق تبره قبل تبنه». وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها وهو القائل: «يا صفراء ويا بيضاء غري غيري». ولم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام. وهو الذي عمل بآية النجوى وتصدق دون غيره.

وأما الحسن بن علي عليهما السلام، فكما روى أبو نعيم في الحلية، قاسم الله ماله ثلاث مرات. وقد روي في المناقب أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار. وقال: أئت بحمال يحمل لك. فأتى بحمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كراء الحمال. وجاءه أعرابي فقال الحسن (ع): : أعطوه ما في الخزانة. فوجد فيها عشرون ألف درهم. فدفعها اليه. فقال الأعرابي يا

مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشرمدحتي، فأنشأ الحسن عليه السلام يقول:

نحن أناس نوالنا خضل يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا خوفاً على ماء وجه من يسأل

وروى المدائني قال: خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً في خباء، فاستسقوها فقالت: هذه الشويهة، احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا. واستطعموها فقالت: ليس إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم. فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا عندها. فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه. فإذا عدنا فألمي بنا فانا صانعون بك خيراً. ثم رحلوا، فلما جاء زوجها أخبرته. فقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش.

ثم مضت الأيام فأضرت بها الحال. فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن عليه السلام فعرفها. فقال لها: «أتعرفينني». قالت: «لا» قال: «أنا ضيفك يوم كذا وكذا». فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين (ع) فأعطاها مثل ذلك ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك.

والحسن صلوات الله عليه كان مع هذا الجود المثالي في غاية التواضع. يمر على الفقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها. فقالوا هلمّ يا ابن رسول الله إلى الغذاء. فنزل وقال: الله لا يحب المتكبرين. وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته. ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم. فهذا نموذج من الأخلاق الاسلامية المثالية.

وفي المناقب عن يعقوب بن اسحاق النوبختي، قال: «مر رجل بأبي الحسن الرضا (ع) فقال له: أعطني على قدر مروءتك، قال: لا يسعنى ذلك. فقال: على قدر مروءتي. قال: أما هذا فنعم. ثم قال: يا غلام، أعطه مائتي دينار». قال: «وفرق (ع) بخراسان ماله كله في يوم عرفة» فقال له الفضل بن

سهل: «ان هذا المغرم». فقال: «بل هو المغنم. لا تعدن مغرماً ما ابتعت به أجراً وكرماً».

وروى الكليني في الكافي بسنده عن اليسع بن حمزة قال: كنت في مجلس أبي الحسن الرضا (ع) وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم. فقال: «السلام عليك يا ابن رسول الله. رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك. مصدري من الحج وقد فقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلة. فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي. ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك. فلست موضع صدقة». فقال له: «أجلس رحمك الله». وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقي هو وسليمان الجعفري وخيثمة وأنا. فقال: «أتأذنون لي في الدخول». فقال له سليمان: «قوَّم الله أمرك». فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة، ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال: «أين الخراساني؟» فقال: «ها أنا ذا». فقال: «خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها ولا تتصدق بها عني وأخرج فلا أراك ولا تراني». ثم خرج فقال سليمان، جعلت فداك، لقد أجزلت ورحمت. فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: «مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله (ص): المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له». أما سمعت قول الأول:

متى آتـه يـومـاً لأطلب حـاجـة رجعت إلى أهـلي ووجهي بمـائـه



الصدقات في الاسلام

إن الدين الاسلامي قد حث الناس على الانفاق حثاً لا مزيد عليه، لو عملوا به لسادت الطمأنينة في العالم ولما وجد على وجه الأرض فقير. وهذا قوله تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾. فجعل الله مآل: دع اليتيم وعدم الاهتمام بطعام المسكين: التكذيب بآياته تعالى ورسله وكتبه. فكأن من دع اليتيم ولم يرفه عنه من فضول ماله ولم يحض على طعام المسكين تنسلخ عنه العقيدة الدينية شيئاً فشيئاً، تتوارد عليه الشكوك والأوهام وهو لا يعلم من أين أتاه هذا الانقلاب، وكيف أمسى مظلماً لا يرى شيئاً وراء المادة الزائلة، فلا تتسلى نفسه إلا باتخاذ مبادىء فاسدة تتناسب ونفسه المريضة الطائشة، ويزعم أنه بلغ من التفكير مرتبة أو وجد طريقاً جديداً يحل به مشاكل الحياة. وهذا عقاب لمانع اليتيم حقه والمسكين طعامه، وابتعاد عن رحمة الله وانطماس في ظلمات ما فوقها ظلمات. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

فتشوا عن أناس سخت نفوسهم فاهتموا بأمر اليتيم وحضوا على طعام المسكين، تروا نفوسهم منيرة وضاءة تحب الله وتحب الحق، تميل إلى الخشوع وتتوجه نحو صانعها وتعبده على قدر ما قامت بالأعمال الصالحة لوجه الله الكريم.

فالايمان إذن عصارة الأعمال الصالحة، والتصديق بالدين مآل الاهتمام بأمر اليتيم والحض على طعام المسكين. لذلك كله قد حث الدين الاسلامي على الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين وندب إلى العطف على الضعفاء والأيتام بإعطاء زكاة واجبة ونفقات مندوبة وصلة الرحم وصدقات مستحبة. وقد يراد بالصدقات: الزكاة الواجبة، ولسنا بصدد بيانها الآن.

ولقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه أربع خصال: يحسن خلقه، وتسمو نفسه، ويمسك الفضل من قوله، ويخرج الفضل من ماله». ولقد كان في وصية رسول الله (ص) لأمير المؤمنين (ع):

أوصيك في نفسك بخصال، احفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه... إلى أن قال: «وأما الصدقة فجهدك جهدك، حتى تقول قد أسرفت ولم تُسرف» لذلك يبيع علي (ع) بستاناً له. فيعلم بذلك فقراء المدينة، فيرجع إلى بيته وليس معه شيء. ويستأجر داراً للسكنى في الكوفة وهو خليفة المسلمين، ويحمل الطعام إلى فقراء الكوفة جوف الليل، حتى أن الحسن (ع) بعد رجوعه ليلاً من دفن والده سمع أنين مسكين عاجز في إحدى خرائب الكوفة، فجاءه يسأله عن حاله، فقال: كان لي رجل يأتيني كل ليلة بما احتاجه من طعام وشراب وقد مضت ثلاث ليال لا أراه يأتيني، فقال الحسن عليه السلام: ذاك أبي، قد قتل في محرابه.

وقد جعل الدين الاسلامي التصدق بالليل أفضل من التصدق بالنهار لأن صدقة السر تطفي غضب الرب، كما جاء في الحديث. كان أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم طاف به على أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسمه فيهم وهم لا يعرفونه، فلما مضى جعفر الصادق فقدوا ذلك فعلموا أنه كان أبا عبد الله، أي الصادق عليه السلام. نعم، هذا دين يقول «أصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله فان لم يكن هو أهله فكن أنت من أهله».

هذا دين يقول: «إن الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من البلاء وانها تطفيء غضب الرب».

هذا دين يقول: «يستحب للمسلم أن يعود أهل بيت المسلمين ويختار ذلك على الحج وعلى العتق».

هذا دين يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

هذا دين يقول: «داووا مرضاكم بالصدقة» اهتماماً بأمر الفقراء.

هذا دين يقول: «يستحب لمعطي الصدقة أن يقبل يده بعد العطاء»، ذلك لأن يده قد تبركت وتيمنت ببركة عطفه على الفقير، وفي الخبر: إذا أعطيته فأغنه. وقال علي (ع): «إذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده إلى فيه، فيقبلها، فان الله عز وجل يأخذها».

هذا دين يقول: «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة». لذلك يقول الصادق عليه السلام لابنه محمد: «يا بني كم فضل معك من تلك النفقة، قال: أربعون ديناراً. قال: أخرج فتصدق بها. قال: أنه لم يبق معي غيرها. قال: تصدق بها فان الله يخلفها. أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها. ففعل. فما لبث أبو عبد الله إلا عشرة أيام حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار. قال: يا بني أعطينا الله أربعين ديناراً فأعطانا أربعة آلاف دينار.

يأتي شيخ من مهاجرة العرب رسول الله (ص) وهو في المسجد والناس حوله وعلى الشيخ سمل قد تهلهل وأخلق وهو لا يكاد يتمالك ضعفاً وكبراً فيقول: يا رسول الله، أنا جائع الكبد، فأطعمني وعاري الجسد فاكسني وفقير، فأثرني. فيقول له رسول الله (ص): ما أجد لك شيئاً، ولكن الدال على الخير كفاعله. انطلق إلى ابنتي فاطمة. وأمر بلالاً فوقف به على منزل فاطمة (ع) فنادى بأعلى صوته: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة... يا بنت محمد، أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة، عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني، يرحمك الله. وكان علي وفاطمة (ع) ثلاثاً ما طعموا طعاماً.

فتعمد فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين (ع) وتعطيه الشيخ قائلة: عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه فيقول الشيخ أنا شكوت اليك الجوع، فناولتيني جلد كبش فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب؟

فتعمد فاطمة (عليها السلام) إلى عقد في عنقها، أهدتها اليها فاطمة بنت عمها حمزة، فتقطعه من عنقها وتنبذه إلى الاعرابي، وتقول: خذه وبعه. فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه. فيأتي الشيخ إلى المسجد ويبيع العقد، فيشتريه عمار بعشرين ديناراً ومائتي درهم وبردة يمانية وراحلة تبلغ الشيخ إلى أهله، فيقول رسول الله (ص): «لو اشترك في شراء هذا العقد الثقلان ما عذبهم الله بالنار».

فينطلق عمار بالاعرابي ويفي بما ضمن له، وعاد الاعرابي إلى النبي (ص) فقال له: أشبعت واكتسيت؟ قال: نعم، واستغنيت بأبي أنت وأمي. فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: فاجز فاطمة في صنعها معك خيراً. فيقول: «أللهم أنت اله ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، أنت رازقنا، فأعط فاطمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت».

فأمن رسول الله على دعائه وأقبل النبي (ص) على أصحابه وقال: «ان الله قد أعطى فاطمة ذلك وأنا أبوها وما في العالمين مثلي، وعلي بعلها، ولولا علي ما كان لها كفؤ أبداً. أعطاها الحسن والحسين وما في العالمين مثلهما. سيدا أسباط الأنبياء، وسيدا شباب أهل الجنة. وقال: أزيدكم». الملكان في قبرها: من ربك؟ فتقول الله ربي ـ من نبيك؟ أبي ـ ومن وليك ـ فتقول: هذا القائم على قبري علي بن أبي طالب».

ألا أزيدكم من فضلها» فيقولون زدنا.

فيقول رسول الله (ص): «ان الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها» يقول جابر بن عبد الله: ان عماراً بعد ذلك طيب العقد بالمسك ولفه في بردة يمانية وبعث به مع عبده (اسهم) إلى رسول الله وقال: «أنت لرسول الله مع العقد». ورسول الله يرسل العبد مع العقد إلى فاطمة قائلاً: «أنت لها مع العقد». فتأخذ فاطمة عليها السلام العقد وتقول للعبد: «إذهب أنت حر لوجه الله». يضحك العبد ويقول: «ما أكثر بركة هذا العقد، أشبع جائعاً وكسى عرياناً واغنى فقيراً واعتق مملوكاً ورجع إلى أهله».

هذا نموذج من الكمال الانساني في التصدق والانفاق من فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (ع)، وان حياتها كلها لنماذج رفيعة من الكمالات المثالية التي هي فوق متناول الفيلسوف وفوق مستوى التفكير البشري. فطوبى لمن تأسى بها وتخلق بأخلاقها فان «قيمة كل امرىء ما يحسنه» على ما جاء في كلام علي عليه السلام.

ويمكن تشبيه محصلة القوى الموجبة والسالبة المؤثرة في نقطة ما (في جسم) بقيمة المرء. ذلك لأن القوى المؤثرة في نقطة م على امتداد محور (س سَ) والمتوجهة إلى اليمين تعتبر (كما في علم الميكانيك) موجبة، فمحصلتها موجبة أيضاً. والقوى المؤثرة في نفس النقطة م والمتوجهة إلى اليسار على نفس الامتداد تعتبر سالبة، فمحصلتها سالبة أيضاً. ثم تركب هاتان المحصلتان أو تطرح أحداهما من الأخرى (إن كانت على استقامة واحدة، حسب الفرض) فتكون المحصلة النهائية أما متوجهة إلى اليمين، فصاحبها اذن من أصحاب اليمين، فمصيره الجنة، أو متوجهة نحو اليسار (أو الشمال حسب ما جاء في القرآن الكريم) فصاحبها إذن من أصحاب اليسار، فمصيره النار.

يقول الله تبارك وتعالى: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود، (لا شوك له) وطلح (شجر الموز) منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب (جار أبداً)، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، أنا انشأناهن انشاء، فجعلناهن أبكاراً عرباً (متحببات إلى أزواجهن) أتراباً (مستويات في السن أو مثل أزواجهن في السن) لأصحاب اليمين، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال، في سموم وحميم وظل من يحموم (دخان أسود) لا بارد ولا كريم أنهم كانوا قبل ذلك مترفين (منعمين لاهين عن الطاعة) وكانوا يصرون على الحنث (الذنب) العظيم، وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون. أو آباؤنا الأولون؟ قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم».

فكل عمل صالح يقوم به الانسان لوجه الله تعالى، له أثر فعال في معتقده وسيره التكاملي، وكل عمل سيء يأتي به الانسان له أثر فعال في تسافله وولوج الشكوك والريب في نفسه. فالايمان محصلة الأعمال الصالحة والأعمال السيئة. فالأعمال الصالحة تشكل القوى الموجبة المؤثرة في نقطة (م) والأعمال السيئة تشكل القوى السالبة المؤثرة في نقطة (م) أيضاً فالمحصلة إذن اما أن تكون موجبة أو تكون سالبة. ان الله تعالى يقول: ﴿فأما من ثقلت موازينه (بأن رجحت حسناته) فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه (بأن رجحت سيئاته) فأمه هاوية (مأواه النار) وما أدراك ماهية، نار حامية﴾.

إن الأعمال الصالحة لها الأثر الكلي في اتجاه الانسان الديني. فمن أعطى الحقوق المترتبة على أمواله (مثلًا) يرى أن نفسه تميل إلى العبادة ومعرفة الخالق جل جلاله ومجالس الوعظ والارشاد. ذلك لأنه بإعطائه الحقوق يجعل ما يدخل في جوفه طاهراً لا شبهة فيه. وإن هذا المأكل الطاهر له أثره الفعال في توجيه النفس، فقد جاء في الحديث: «إن الحجر المغصوب في الدار رهن على خرابها». وفي حديث آخر عن النبي (ص): «ترك لقمة حرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً، ورد دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة». وفي حديث آخر: «من أراد أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه ومكسبه».

نعم، لو كان بعض ما يتجر به الشخص شيئاً محرماً فأن الأموال التي تجنى بهذه الوسيلة تكون مخلوطة بالحرام، فتؤثر في سير الانسان الديني والتكاملي.

ولقد جربت ذلك في أشخاص. فعندما كان يتجر به احدهم حلالاً طيباً، يوافق ما جاء في الشرع المحمدي. كان هذاالشخص مصلياً، صائماً يذهب إلى دور العبادة وإلى «بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. يسبح له فيها بالغدو والآصال». وبعد أن أدخل في ما يتجر به ما حرم الله، أخذت نفسه تتسافل شيئاً فشيئاً، فصار يصلي عند الصباح ولا يصلي عند الظهر، أو يصلي عند الظهر ولا يصلي صلاة الصبح. ولكنه إذا اعترته حاجة شديدة، نذر نذراً، فسافر لأداء نذره ويصلي في اليوم الذي يفي بنذره فقط. ثم يترك صلاته غير مبال بما سيصيبه من جراء هذا العصيان مع تقادم عمره.

فإذا جاءت ليلة القدر هرع إلى محال العبادة لانطباع سابق، فإذا ذهبت ليالي القدر ترك صلاته وهكذا. إلا أنه مع ذلك يعتقد بأصول الدين. وهكذا لو ثابر هذاالشخص على عدم إخراج الحقوق المترتبة على أمواله[1] ضعف

---

(١) إنما ذكرت (إخراج الحقوق كالخمس والزكاة) على سبيل المثال. فكل معصية صغيرة أو كبيرة، تؤثر تأثيراً مباشراً في سير الانسان التسافلي، لو لم يعقبها حالاً بتوبة عملية وقلبية. انصتوا إلى ما يقوله زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام. كيف أن

يقينه بأصول الدين بصورة تدريجية فيزول اعتقاده بوجود الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه وأنه حي يرزق، ثم يشك في المعاد، ثم في النبوة ثم في العدالة الالهية. وقد يبلغ به الأمر (لو بالغ في ارتكاب كبائر المعاصي والظلم والبغي) إلى الالحاد، ثم يزعم، فيوقن أنه كان في واد من الخرافة وقد دخل اليوم في عالم من الثقافة جديد، وواد من نور، وتخلص من براثن الجاهلية الجهلاء.

فإذا صادف أناساً يحبذون الدين ويؤيدونه إلى حد ما، أخذ يفسر الدين كما تشاء له نفسه المتسافلة ظاناً أنه جاء بفلسفة جديدة! « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم، ثم رددناه إلى أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

وقد يكون السير سيراً تكاملياً بعكس ما قلنا، يأتي الانسان بعمل صالح هام في محله، فيؤثر هذا العمل الطيب في نفسه، ففي معتقده، ثم يقوم بعمل صالح آخر فآخر، فتمحو هذه الأعمال الصالحات بعض السيئات «إن الحسنات يذهبن السيئآت» فيتنور قلبه شيئاً فشيئاً، فتتبدد عنه غياهب الشكوك ويسير في طريق الهداية رويداً رويداً».

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ (سورة محمد (ص)) فيدخل في عالم من الصلاح والفلاح الحقيقي سائراً نحو تزكية النفس فمعرفة الخالق وهي غاية الغايات من تكامل هذا الانسان على وجه الأرض.

هذا التحليل له اليوم مصداق في ثلة من الناس. فليعقب من شاء سير بعض الأفراد العقائدي والديني خلال ٢٠ عاماً مثلاً، رابطنا هذا السير بما بدا منه من أخلاق وأعمال وكسب وتجارة وأمور تطابق الشرع أو تخالفه ليرى صدق ما ذهبت اليه. ومن الله التوفيق. ولا بد من عمل صالح في حدود الاختيار لجلب توفيقه تعالى.

الذنوب تميت القلوب وكيف أن التوبة تحييها. انه صلوات الله عليه يقول معلماً أيانا: «الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد عنك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤالي ومنيتي».

الزكاة وأثرها في تكامل النفس

إن الدين الاسلامي قد استهدف في جميع نظمه وسننه تهذيب النفس الانسانية وابلاغها أقصى مرتبة من مراتب الكمال، بل أن الغرض الأسمى من شريعة محمد صلى الله عليه وآله هو تكوين نفس طاهرة زكية خالية من الأدران والأوساخ متحلية بالكمال.

فالنفس الانسانية أشبه شيء بقطعة حجر فيها معادن خسيسة لا قيمة لها وفيها الذهب الثمين. فان الكيماوي يجري على هذه القطعة أنواع العمليات والصناعات ويضعها في أنواع المحاليل كي يظفر بالذهب الخالص. كذلك الدين الاسلامي: فأنه بقوانينه ودساتيره يجري على النفس الانسانية انواع الامتحانات والرياضات النفسية كي تصفو رويداً رويداً عما علق بها من رديء الصفات وذمائم الأخلاق، فتتوجه نحو مكارم الصفات وفضائل الأخلاق، وتتمرن عليها لتكون لها طبيعة ثانية: طبيعة فيها من المكارم والفضائل ما يجعل الانسان قميناً ليتنعم «مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً»، جديراً بالخلود في «جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين».

فحري بالانسان أن يجاهد نفسه ليخرج من هذه الدنيا بالذهب الخالص ولنعم ما قال الشاعر: «علي الدر والذهب المصفى».

فان الانسان ناقص عندما يولد، وفيه من ذمائم الصفات ما لا يوصف. ولا بد له من أن يدخل في هذا السير التكاملي بتطبيق ما جاء في الدين المحمدي وان يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة (ع). فلا كمال ولا نجاة إلا بالتمسك بهما والعمل بما أمرا به، لوجه الله الكريم. ومن وفق إلى هذه التجربة المنجية فقد شعر بتلك التجلّيات القدسية والكمال النفسي نادماً على ما فرط في جنب الله، متأسفاً على ما سوّف من توبة واستغفار وتلافي ما فات.

إذا تتبعتم العبادات بأنواعها وما أمر به الدين الاسلامي من زكاة وخمس وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وما نهى عنه من خمر وميسر وانصاب وأزلام وزنا وكذب وغيبة ونميمة وبهتان وافتراء وسرقة وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وبغي وظلم إلى ما هنالك لرأيتم أنها برمتها تستهدف تنزيه النفس الانسانية مما علق بها من أدران المادة والصفات الرذيلة واللؤم والخبث وحب المال والركون إلى المادة وتحليتها بالفضائل والمكرمات والصفات الانسانية الكاملة كي تكون لائقة للقاء الله تعالى حرية بالخلود في نعيم أبدي سرمدي.

ولا مراء أن الله تعالى جل عن أن يلاقى، وإنما يكون العبد بقطعه مراحل التكامل موضع عطفه ورفده، فيكون مقرباً اليه. أنه تعالى يقول «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. (سورة القيامة). أي تنال هذه الوجوه من مراتب الزلفى بحيث تكون كأنها ناظرة إلى ربها. ويقول الله في آية أخرى: ﴿كلا انهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون﴾ (سورة المطففين) أي مبعدون معذبون منسيون.

ان الله تبارك وتعالى وهو معطي الكمالات قد خلق الموجودات المادية كلها في أكمل وجه، وأراد بالانسان أن لا يشذ عن سنة الكمال، ونبه على ذلك بقوله: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾. فأرسل أنبياء ورسلاً يملون على الانسان طرق الكمال النفسي. وجهز الانسان بعقل يأمره باتباع سنة الكمال (بصورة فطرية) لو لم يدنس الانسان نفسه باتباع الشهوات ويلوثها بارتكاب الموبقات. فالدين الاسلامي دين صناعة النفس، دين تكوين النفس وإبلاغها الكمال المنشود.

ومن جملة تلك الصناعات الخطيرة التي لا يمكن أن يتوصل اليها العقل البشري بذاته، هو الزكاة. فالزكاة - كما يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم (ص): ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ - وسيلة لتطهير النفس عن رذيلة البخل والشح. لأن النفس الانسانية مجبولة على البخل بالمال، مادية مظلمة. فتتنور بتقديمها من فضول ما أنعم الله عليها، فتصفو شيئاً فشيئاً وتتخلق بالكرم والجود وترتاض في هذا الحقل فتؤدي الامانات إلى أصحابها وتوصل الحقوق إلى مستحقيها.

فالفرق بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربية، إن المدنية الاسلامية تنظر إلى النفس وتستهدفها وتعمل ضمن تحقيق الحياة المادية السعيدة من أجل تكامل النفس وارتقائها. لذلك يستحب للشخص أن يعطي الزكاة المندوبة سراً دون أن يعلم أحداً بذلك. كي لا يخلط عملية التزكية العجب وحب الثناء وحب الجاه وامثال ذلك. فلا يسرى أثر الزكاة والعطاء إلى نفس المعطي مع العجب وحب الثناء وحب الشهرة. فلو لم يتوخ في عطائه هذا وجه الله لن تزكو نفسه ولن تسير في مجالات الكمال خطوة واحدة.

وهكذا يمزج الاسلام بين المدنية والروحية والمادية، بل الهدف الأسمى من الدين الاسلامي هو المدنية الروحية. وإنما يحقق الاسلام المدنية المادية للبلوغ إلى مدنية روحية رفيعة. إذ «الدنيا مزرعة الآخرة». والآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحق أن يطلق عليها لفظ (الحياة). ذلك لأن السبب الرئيسي من وجودنا في هذه الدنيا: بلوغنا إلى أسمى مدنية روحية فيها كمال الملكات أي كمال النفس الانسانية، وهذا الكمال ينتهي إلى معرفة الله تعالى. لا يفهم حقيقتها ومدلولها إلا من تذوق الكمال النفسي. وإن طريقة هذه المعرفة السامية: (معرفة الله تعالى) هي العبادات والأعمال الصالحات. أنه تعالى يقول: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (سورة العنكبوت: ٦٤).

لننظر إلى بعض حكم الزكاة وآثارها المادية: نرى بعض الأغنياء يشكون البطنة من كثرة الأكل، ونرى فقراء يشكون الجوع. فلو أعطى الأغنياء ما فضل عن حاجتهم من الطعام هؤلاء الفقراء، لما شكى واحد منهم سقماً ولا ألماً. فجدير بالغني أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفي غلته. ولكن لحبه لنفسه ومغالاته بها يضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير، فيعاقبه الله في الدنيا بالبطنة حتى لا يهنىء للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه وفي الآخرة عذاب أليم! وإن أصحاب النار ليعترفون (بعد دخول النار) بعدم إطعامهم المسكين بعد اعترافهم بتركهم (الصلاة) وذلك بقولهم: ﴿لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين﴾ وان الله جل وعلا جعل أحد عوامل التكذيب بدينه عدم حث النفس أو حث الغير على تهيئة طعام المسكين بقوله تعالى: ﴿أرأيت

الـذي يكذب بـالدين، فـذلك الـذي يـدع اليتيم ولا يحض عـلى طعـام المسكين﴾.

لذلك يعلمنا المثل الكامل علي عليه السلام عندما يخاطب سهل بن حنيف عامله على البصرة بقوله: «أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت اليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل اليك الجفان[1]! وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو[2] وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هـذا المقضم[3]. فما اشتبـه عليك علمـه فالفظه[4] وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه. ألا وان لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه. ألا وان إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[5] ومن طعمـه بقرصيـه. ألا وأنكم لا تقدرون عـلى ذلك. ولكن أعينـوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً[6] ولا أدخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً[7]. ولا حزت من أرضها شبراً (ولا أخذت منه إلا كقوت اتان دبرة [8] ولهى في عيني أو هى وأهون من عفصة[9] مقرة[10]بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنا نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك. والنفس مظانها في غد جدث[11]تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها. وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لاضغطها

(١) الجفان، جمع جفنة: قصعة.

(٢) العائل: المحتاج. مجفو: مطرود

(٣) المقضم: المأكل.

(٤) فالفظه: فاطرحه.

(٥) الطمر ـ بالكسر ـ الثوب البالي.

(٦) فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ.

(٧) ثوباً.

(٨) أتان دبرة: حمارة أصيبت بقرحة تحدث من الرحل ونحوه.

(٩) عفصة: نتوء يكون على شجرة البلوط.

(١٠) مقر: نبات مر.

(١١) الجدث: القبر.

الحجر والمدر. وسد فرجها التراب المتراكم. وإنما هي نفسي، أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى!! أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد[1]

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟! أو أكون أسوة لهم في جشوبة[2] العيش؟! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها[3]، تكترش[4] من اعلافها وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى واهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة أوأعتسف طريق المتاهة... إلى أن قال: وايم الله - يميناً استثني فيهابمشيئة الله - لا روضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً. ولأدعن مقلتي كعين ماءنضب معينها مستفرغة دموعها. إلى أن قال: طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها[5]، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى[6] عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت[7] عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم. ﴿أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾.

فاتق الله يا ابن حنيف. ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك.

---

(١) جلد السخلة كان يؤكل في الجدب.
(٢) خشونة.
(٣) التقاطها القمامة أي الكناسة.
(٤) تملأ كرشها.
(٥) عركه بالجنب: الصبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه.
(٦) النعاس أو النوم.
(٧) تنحت.

ولا أظن ان هناك موعظة تؤثر في النفوس كهذه الموعظة. فان علياً (ع) يضع لنا منهاجاً قويماً لو عملنا به لأوصلنا إلى ﴿ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾. فطوبى للعاملين على ضوئه والناهجين وفق دستوره.



الزكاة الباطنة

عن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله (ع) فسأله رجل: في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أو الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعاً. فقال: «أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة وعشرون. وأما الباطنة: فلا تستأثر على اخيك بما هو أحوج إليه منك».

ولسنا الآن بصدد بيان الزكاة الظاهرة، لظهورها. ونريد أن نتكلم عن الزكاة الباطنة. وقد حث الدين الاسلامي على هذا النوع من الزكاة: بصلة الرحم والتصدق والانفاق، بقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.

فلماذا يبخل هذا الانسان وقد وعده الله تعالى أنه يخلف له ما أنفقه وهو أصدق الصادقين. أليس ذلك لضعف في الايمان وخلل في التقوى وانحطاط في النفس وتسافل نحو المادة وركون إلى الأرض الفانية وشح مميت؟! وقد جاء في الحديث: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم (أي الشح) بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

قال علي (ع): «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها»... إلى أن قال: «ثم أن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الاسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها فأنها تجعل له كفارة، ومن النار حجاباً ووقاية. فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثر عليها لهفة. وان من اعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ماهو أفضل منها، فهو جاهل بالسنة مغبون بالأجر، خالي العمل طويل الندم». وقال: «سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء، فبالصدقة يساس الايمان ويصان، ومع عدم أدائها يضعف الايمان ويزول».

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ أهو سوى الزكاة؟ فقال: «الرجل يوتيه

الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه». وقد قال ايضاً: «المعروف سوى الزكاة، فتقربوا إلى الله بالبر وصلة الرحم». حقاً: ليس هناك شيء يقرب العبد إلى الله في السر والعلن ويشوقه الى المناجاة والاستغفار والانابة والشكر والتسبيح والرضا والتسليم كالبر وصلة الرحم. نعم، ان البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء، كما جاء في الحديث.

ولقد قال رسول الله (ص): «من منع الماعون من جاره إذا احتاج اليه، منعه الله فضله يوم القيامة ووكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه هلك ولا يقبل الله تعالى له عذراً».

وهذا علي الرضا عليه السلام يقول: «سئل رسول الله (ص) هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، بر الرحم إذا أدبرت وصلة الجار المسلم، فما آمن بي من بات شبعان وجاره المسلم جائع». ثم قال: «وما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يورثه». وهو القائل: «أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وان استقرضك أقرضته وإن مرض عدته، وإن مات شيعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا باذنه، ولا تؤذه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، وان لم تفعل فادخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار[1] قدرك إلا أن تغرف له منها. ثم قال: أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله».

وهذا علي الهادي عليه السلام يدخل عليه أبو عمر وعثمان بن سعيد واحمد بن اسحق الأشعري علي بن جعفر الهمداني. فيشكو اليه احمد بن اسحق ديناً عليه، فيقول الامام (ع) يا أبا عمرو - وكان وكيله - ادفع اليه ثلاثين ألف دينار، وإلى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار، وقد اشترى له اسحق الجلاب غنماً كثيرة يوم التروية فقسمها في أقاربه.

وهذا علي بن الحسين (ع) يدخل على محمد بن اسامة بن زيد في مرضه

(١) القتار: رائحة الطعام.

فجعل يبكي. فيقول له الامام: ما شأنك؟ يقول: علي دين خمسة عشر الف دينار. فيقول الامام عليه السلام «فهو علي».

وعن الزمخشري في ربيع الأبرار: أنه لما أرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة لقتال أهل المدينة واستباحتها، كفل زين العابدين (ع) اربعمائة امرأة مع أولادهن وحشمهن وضمهن إلى عياله بنفقتهن وإطعامهن، إلى أن خرج ابن عقبة من المدينة. فأقسمت واحدة منهن: انها ما رأت في دار أبيها وأمها من الراحة والعيش الهنيء ما رأته في دار علي بن الحسين (ع). وما كان يأكل الطعام حتى يبدأ فيتصدق بمـلثه (بثلثه).

وروى أحمد بن حنبل ان علي بن الحسين (ع) كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة، في كل بيت جماعة. وروى في الحلية أنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجراب إلى المساكين.

وفي الحلية بسنده عن ابن عائشة عن أبيه: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين (ع).

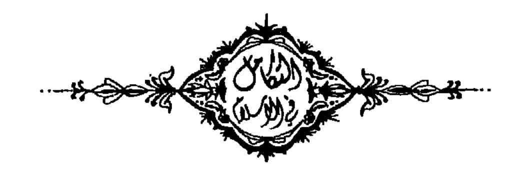
وقد روى الصدوق في العلل بسنده عن سفيان بن عيينة: رأى الزهري علي بن الحسين (ع) في ليلة باردة ممطرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز». قال: فهذا غلامي يحمله عنك. فأبى. فقال: أنا أحمله عنك فأني أرفعك عن حمله.. قال الامام (ع): «لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه. أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني». فلما كان بعد أيام قال له: يا بن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً. قال: «بلى يا زهري، لست ما ظننت ولكنه الموت وله أستعد. إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى في الخير». وكان ذلك الدقيق قد حمله ليتصدق به ويعده زاداً لسفر الآخرة.

كيف لا يكون كذلك، وهو خريج مدرسة علي عليه السلام. فعلي كان يأكل أكلة العبد ويجلس جلسة العبد، وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس هو الآخر. فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز

كعبه حذفه، ولقد ولي أمرة المسلمين خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطعية، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير بالزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضى إلا أخذ بأشدهما على بدنه.

ولقد أعتق عليه السلام ألف مملوك من كد يده، تربت فيه يداه وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله من الناس أحد. وإن كان ليصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

نستنتج من كل ذلك أن دواء البشر الوحيد هو الدين، ففيه علاج الفقر وعلاج الشقاء وعلاج المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والمدنية، وفيه صفاء القلوب واطمئنان النفوس وراحة الوجدان والضمير.



الزكاة الواجبة

إن الدين الاسلامي قد عالج كل نقص في الحياة الروحية والاجتماعية والمادية، فأوجد التوازن بين الروح والبدن، ولم يهمل ناحية دون ناحية. فبينما يأمر بالصلاة لتزكو بها النفس الانسانية، فتؤدي بها واجب الشكر وتتطهر مما علق بها من صفات خبيثة وخصال مميتة لتسمو فتبلغ ذروة الكمال، يأمر الفرد في الوقت نفسه باعطاء الزكاة، وتقديم شيء يسير من فضول المال إلى اخوانه المسلمين الذين حرموا من المال لحكمة يعلمها الله تعالى وهي في صالح الانسان لو تعمق وتدبر. لذلك ترون أن الله تعالى يكرر في قرآنه الكريم الصلاة والزكاة متعاقبتين ويصف المتقين بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾.

فعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «فرض الله الزكاة مع الصلاة» أي أن الزكاة قرينة الصلاة وفي مرتبتها.

وقد روى عبد الله بن سنان في حديث له، أنه نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله في المسلمين: «زكوا أموالكم تقبل صلواتكم».

وقد منع رسول الله (ص) جماعة كانوا يصلون في المسجد عن الصلاة، ذلك لأنهم ما كانوا يزكون أموالهم. فليعلم مانعو الزكاة أن صلاتهم لا تقبل ولا يموتون على الاسلام. فعن أبي عبد الله (ع): «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً». وقد روى أبو بصير، قال: قال أبو عبد الله (ع): «من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، ولا تقبل له صلاة». وهو قوله تعالى: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ ذلك لأن مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت.

إن الله تعالى قد بالغ في الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين حتى قال جل من قائل: ﴿الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾.

وقد سئل أبو عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾. فقال: «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نـار في عنقه ينهش من لحمـه حتى يفرغ من الحساب».

ثم الله تعالى هو معطي المال وهو المهيىء أسباباً ينال بها الشخص المال الكثير، وقد وعد جل جلاله: أنه سيعوض المزكي أضعاف ما يزكي من ماله، بقوله: ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجـه الله فأولئـك هم المضعفون﴾. وبقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله. وما تنفقوا من خير يوفـء اليكم وأنتم لا تظلمون﴾. وبقوله: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.

والزكاة منمية للمال حافظة لها من التلف والغرق (وهناك حوادث كثيرة تبرهن على صدق ما قلنا لا مجال لذكرها). كما أن عدم دفع حق الفقراء والمساكين يؤدي إلى انفاق ذلك في الباطل. فقد قال الصادق عليه السلام: «من منع حقاً لله أنفق في الباطل مثليه».

ولقائل أن يقول: فلماذا ترى أناساً لا يؤدون حق الله ولا يزكون أموالهم وهم يزدادون يوماً فيوماً غنى وثراء؟ جواب ذلك: ان الله تعالى يهيىء وسائل الهداية والرشاد لكل عبد من عباده، فيتم عليهم الحجة، فان تمادوا في غيهم وثابروا على هتك حرمات الله واستهتروا بما سنه الله وقرره، تركهم وأنفسهم وأملى لهم باعطائهم من الأموال والأولاد الشيء الكثير وفي الآخرة عذاب أليم. وقد قال جل من قائل: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾. وفي موضع آخر: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفـروا في البلاد، متـاع قليل ثم مـأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

وبالزكاة تحصن الأموال وتحفظ، فقد قال موسى بن جعفر عليهما السلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة». وإن من لم يزك ماله عد في لسان الشرع سارقاً. «والسراق ثلاثة: مانع الزكاة، ومستحل مهور النساء، وكذلك من استدان ديناً ولم ينو قضاءه»... الحديث.

إن العقل ليحكم بصورة طبيعية فطرية أن شكر المحسن أمر واجب. وشكر كل شيء زكاته. فان منَّ الله على عبد بعظيم نعمه فليس لهذا العبد إلا أن يقوم بواجب الشكر تجاه خالقه لما ميزه عن بعض مخلوقاته وخصه بلطفه ورفده.

ويلزم أن يتناسب الشكر مع النعمة التي أولانا الله بها. فقد قال علي عليه السلام: «زكاة السلطان: إغاثة الملهوف، وزكاة الجمال: العفاف، وزكاة القدرة: الانصاف، وزكاة الشجاعة: الجهاد في سبيل الله».

فيكون إذن زكاة المال أن تعطي شيئاً ضئيلاً من مالك إلى من فضلت عليهم بمنه تعالى. هذا أمر طبيعي يحكم به كل ذي وجدان سليم، لم تدنسه الذنوب والآثام ولم تخرجه عن حالته الفطرية الطبيعية الموبقات والاجرام. ولذلك شدد الله النكير على مانعي الزكاة وأبعدهم عن ساحته وتوعدهم بالعذاب الأليم. وقد قال الصادق (ع): «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم».

ما أقل ما فرض الله على عباده! فقد فرض في النقدين: الفضة والذهب، ٢,٥٪: (إثنان ونصف في المائة). أي من كانت له ١٠٠ دينار وبقيت على حالها ومضى عليها حول كامل، عليه أن يزكيها بإعطاء دينارين ونصف دينار منها.

ولا فرق، على رأي بعض العلماء، بين النقود الفضية والذهبية، وما يقوم مقامها من الأوراق النقدية. ذلك لأن الأوراق النقدية بمثابة أسناد و(صكوك) تعطي بيد الناس تنوب عن النقود الذهبية والفضية المودعة في المصارف (البنوك). وقد توضع في البنوك ازاء هذه الأوراق النقدية سبائك ذهبية وأحجار ثمينة تبدل إلى نقود أيضاً. فالشخص إنما يرجح أخذ الأوراق وحفظها لسهولتها. وليس معنى ذلك أنه يحتفظ بأوراق لا قيمة لها، حتى تعتبر أوراقها لا علاقة لها بالنقود. ذلك لأن الشخص الذي يستلم هذه الأوراق لو علم أنها لا تستبدل بنقود ذهبية وفضية لما حفظها لديه ولما خاصم خصمه عليها ولما راجع المحاكم. وان دين الله لا يقبل الالتواء. إذن، الأوراق النقدية تقوم

مقام النقود الذهبية والفضة دونما ريب، لإمكـان تحويلها اليها متى شـاء الشخص ذلك ولأنها مدار العيش وتتوقف عليها حياة الفقير.

ولا مراء أن الغرض الرئيسي من فرض الزكاة هو تزكية الأموال المتكدسة وإيجاد راحة الفقير العاجز المسكين. فلو جمدنا على الألفاظ ولم نتطرق إلى حكمة التشريع فقد ألغينـا الغرض الـذي وضعت لأجله الزكـاة وكأنها لم توضع، وأبطلنا أعظم حكم من أحكام الاسلام وحرمنـا الفقراء والمسـاكين حقوقهم مع ما هنالك من تأكيد لا مزيد عليه في الكتاب والسنة.

إن عامة الناس تطلق على الأوراق النقدية: النقود. فتقول: إن فلاناً يملك نقوداً كثيرة مع علمها أنه لا يملك غير الأوراق النقدية. وليس من المعقول أن يقال: ان المعاملات قد تقع على الأوراق النقدية مجردة عن قيمتها الحقيقية النقدية. ذلك لأن الذي يتعامل بها لو علم أن الحكومة قد أعلنت سقوط هذه الأوراق عن درجة الاعتبار يلغى المعاملة حالاً ويراها لا قيمة لها. ففي الأوراق النقدية زكاة كما في النقدين إذا بلغ كل منهما حد النصاب حفظاً لحق الفقير وعملاً بالتأكيدات الواردة في الشرع، تأكيداً لا يقل عن الصلاة!.

وتستحب الزكاة في الحبوب مما يكال أو يوزن، وفي الثمار والبقول وفي مال التجارة والخيل والأملاك والعقارات.

يقول أحد كبار علماء الاقتصاد في الغرب: ما أحسن ما سنه الـدين الاسلامي من زكاة الأموال، فهو العلاج الوحيد لرفع البحران الاقتصادي والتضخم المالي.

أنظروا إلى هذه النسبة الضئيلة التي فرضها الله في زكاة الأنعام الثلاثة: الابل والبقر والغنم، فهو لا يتجاوز ٢,٥٪ ففي خمس من الابل شاة، وفي ست وعشرين بنت مخاض: وهي الداخلة في السنة الثانية، وفي ست وسبعين بنتاً لبون. وشرح ذلك مسطور في كتب الفقه المختصرة والمفصلة.

وأما زكاة الغلاة فالعشر: إذا كان السقي بالماء الجاري أو المطر أي بلا واسطة ميكانيكية. فان كان السقي بواسطة ميكانيكية فنصف العشر أي ٥٪

وذلك بعد اخراج الضرائب والمؤن من أجرة الحارث والساقي وأجرة الأرض إن كانت مستأجرة وأجرة الحفظ والحصاد إلى غير ذلك.

نعم، ان الله قد علم أن هذا المقدار الضئيل من الزكاة كاف لسد حاجات المحتاجين وإيجاد حياة سعيدة في هذه الأرض، ومانع عن تذمر المتذمرين وإفساد المفسدين. وقد قال الصادق عليه السلام:

«إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء. ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولأستغنى بما فرض الله. وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء. وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة. وما صيد صيد في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وان أحب الناس إلى الله أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما فرض الله لهم في ماله».

نعم، ان الدين الاسلامي يربي الفرد بصورة عملية على الصفات الحميدة والخصال المجيدة للبلوغ إلى الكمال الانساني، ومنها السخاء ومفتاحه الزكاة. فان رسول الله (ص) قال لرجل من المشركين: «لولا أن جبرائيل أخبرني عن الله عز وجل أنك سخي، تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك. فقال له الرجل: وإن ربك ليحب السخاء؟ فقال: نعم. قال: (المشرك إذ ذاك): أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله».

ولجباية الزكاة آداب سامية يعلمنا علي (ع)، فأنه كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها، دقيقها وجليلها. ومن جملة وصاياه لمن كان يستعمله على الصدقات:

«إنطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله. فإذا قدمت على الحي، فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم. ثم امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم. فتسلم عليهم ولا تخدج (أي لا تبخل) بالتحية لهم. ثم تقول:

عباد الله، أرسلني اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم. فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فان قال قائل: لا، فلا تراجعه... الخ».

ويقول (ع) في مكان آخر مخاطباً عامله على الصدقات: «وإن لك في الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة، وأنا موفوك حقك، فوفهم حقوقهم، وإلا فانك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل. ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي وهو في الآخرة أذل وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة».



كيف يجب أن نكون؟

سؤال يجيب عنه كثير من علماء الأخلاق والفلاسفة في الغرب بطرق عدة، كل حسب ما توصل اليه من المعتقدات. ولا يتوصل الشخص إلى معتقدات إلا بدرجة تكامل نفسه وتجردها من الرجس والأدناس. «وكل اناء بالذي فيه ينضح».

فالمعتقدات مرآة النفس، فإذا شئت أن تحكم على أخلاق شخص ودرجة تكامله النفسي عليك أن تبحث عن معتقداته ودرجة عمله في تحقيق مصاديق تلك المعتقدات مع نفسه ومع غيره. فهذا البحث يهديك إلى تقدير درجة نفسية أو درجة كمالية لذلك الشخص.

اني لا أريد أن أبين هنا شيئاً عن آراء شتى الفلاسفة وعدد من الأخلاقيين في الغرب، لتضارب آرائهم وجرح بعضهم البعض. ذلك لأن آراءهم خرجت عن التفكير الفطري المجرد عن كل شائبة خارجية أو داخلية وإنما أريد أن استنبط جواب هذا السؤال ببحث علمي بحت.

يرى المطالع في أحوال الكون: أن الأنجم تسير في أفلاك معينة لا تحيد عنها، وكل هذه الأفلاك أو المدارات التي تضبط بمعادلات رياضية متقنة تشير إلى النظام الرائع والانتظام البديع الذي أودعه الله في هذا الكون.

يرى أن للخسوف أو الكسوف حسابات خاصة ودساتير معينة على وجه يمكن حساب زمان وقوعها قبلاً ومدة دوامها.

يرى أنه لولا ميلان مدار الأرض عن دائرة الكسوف ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة لما حدث اختلاف الليل والنهار الذي ينتج منه الحر والبرد واختلاف الفصول وفوائد لا تعد ولا تحصى. ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾. (سورة الحج).

يرى لولا حركة الأرض الوضعية لكان النصف من الكرة الأرضية في

ظلام دائم والنصف الآخر في ضياء دائم واحتراق شديد. ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾. (سورة النحل). ﴿قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون؟ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟﴾. (سورة القصص).

يرى أن الحكمة البالغة جعلت السيارات (الكواكب) تدور على مسير اهليلجي (قطع ناقص) حول الشمس على أن تكون الشمس أحد محراقيه (بؤرتيه).

يرى أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس بأحدى السيارات (الكواكب) يقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية. وفي ذلك من الحكمة الفائقة.

يرى أن مربعات أزمنة الدور النجومي للسيارات (الكواكب) تتناسب مع مكعبات نصف المحور الأطول لمداراتها وفي ذلك الحكمة العالية.

يرى أن نظرية (لابلاس) في تشكل المنظومة الشمسية موجودة بشكل صحيح لا يقبل الجرح والتعديل في القرآن الكريم: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾.

يرى أن تشكل المطر أو الودق قد جاء ذكره في القرآن لتوجيه الناس إلى عظيم صنع الله بقوله: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً (أي يسوق السحاب أو البخار) ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾. والجبال التي فيها من برد هي الثلاجات (Glacier) أو(Lceberg) تتوجه من نوروج إلى خليج مكزيك في المحيط الأطلسي.

يرى أن قوة خارقة تسير السيارات (الأنجم) بانتظام خاص وتمنعها عن الميدان والانحراف والاضطراب. وهذا ما يعبر عنه: بالجاذبية العامة. ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، أنه كان حليماً غفوراً﴾ (سورة فاطر).

يرى أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء. ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى، فإذا قللنا درجة الحرارة عن(٤ه ـ م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون ١ سم٣ من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزناً عن ١ سم٣ من الماء في ٣ه م، بخلاف بقية الأجسام، لذلك يكون الجليد أخف من الماء مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء. وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ١,٠٩١ سم٣، فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً أصبح حجمه = ١,٠٠٠١٢ سم٣. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر.

ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى في تغير الكثافة أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر (لا في ٤ه م) كبقية السوائل لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر. وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولإنقلب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، لا سيما في المناطق الباردة، ولإنتفى عند ذلك انتفاع الإنسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤ه م) فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+ ٤ه م) نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى وهكذا حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+ ٤ه م). ثم إذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة، ولما أمكن نزول هذه

القشرة إلى القعر لخفته وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى أنه لو أطرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفة بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده ولامتنعت التجارة البحرية ولانقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية ولتعسرت الحياة البشرية.. فيستنتج من ذلك كله أن ليس للطبيعة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية فتجعل كثافة الماء (+ ٤٠م) في النهاية العظمى خلافاً لبقية الأجسام!.

يرى قوانين رياضية دقيقة منظمة لا تعد ولا تحصى في ربط الحوادث الفيزياوية بعضها ببعض كلها تحت أغراض حكيمة ومصالح دقيقة.

يرى مثلاً أن التيار المتناوب يفسر بالكميات المبهمة أو المحدثة في معادلاتها في الفيزياء العالية.

يرى أن أشعة رونتكن لها من الخواص ما يبهر العقول، وأن أشعة: أورانيوم وتوريوم وراديوم تنقسم حسب نفوذها في المادة إلى أشعة آلفا وبتا. لكل منهما خواصها.

يرى أن أشعة (أس) كيف يحصل عليها من أشعة (أكس) ويحار في انتظاماتها وقوانينها.

يرى أن الأشعة الكونية لها من الآثار والقوانين ما يعجز عن استقصائها العلماء وإن اشتغلوا مئات السنين، حتى يقول الفيزياوي نحن في ساحل بحر من المجهولات لا تدرك نهايته: ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾. (سورة الحجر).

يرى أن الأجزاء الصغيرة من الماء المعلقة في الهواء أو الأبخرة عند انقلابها إلى الثلج (الصقيع) تأخذ أشكالاً هندسية منظمة بديعة يعجز عن نحتها المهندسون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يرى ويندهش من النظام المودع في مختلف أجزاء بدنه ووظائف كل من أعضائه وكذا في بقية الحيوانات: ﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، ان الله على كل شيء قدير﴾ (سورة النور).

يرى أنه لو كتب عشرات الكتب في ما أودع الله من خواص وقوانين في عين الانسان لكان هنالك أيضاً حقائق لا تعد ولا تحصى يجب أن تدون.

يرى أن الحيوانات قد جهزت بوسائل للدفاع عن نفسها إلى درجة معينة لغرض خاص وانها أقل من أن تفكر لنفسها في ما يسد رمقها ولكنها ترزق وتعيش على الرغم منها: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم﴾.

يرى أن في الأرض أدوية متنوعة لأمراض الانسان، فلا يدري هل وجد الداء قبلاً أم الدواء وما المناسبة بينهما وفي أي محل عقدا مؤتمر حفظ النسل الانساني من الأمراض الفتاكة؟ ومن أين أتت الحيوية (الحياة) إلى هذه الجراثيم الحية المولدة لشتى الأمراض؟.

يرى عجائب لا تعد ولا تحصى في عالم النبات من بري وبحري والأمراض التي تعتريها وطرق معالجتها، وان الرياح تلعب دوراً في تحقيق مهمة اللقاح ولم يكن هناك توافق نظر بين الرياح والنباتات!

يرى الخوارق في حياة النملة وكذا في كثير من الحيوانات وتلك النقوش البديعة على أجنحة الطيور والحشرات يستوحي منها كبار المصورين ويعجز عن ابتداعها الفنانون!.

يرى في الكيمياء النظام الرائع في تركيب العناصر وتشكل أجسام جديدة شتى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار﴾ (سورة الرعد).

يرى ويحار من توزيع الالكترونات حول البروتونات في بطن الذرة بطرز هندسي عجيب ويرى أن الالكترون يسير بارادة عالية حكيمة من الخارج ولا يتبع المصادفات بوجه من الوجوه.

يرى أنه لو كتب آلاف الكتب في تحقيق خواص الذرة ومعادلاتها لبقيت هنالك أيضاً حقائق مجهولة يجب الاعتراف بجهله لها: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

يرى المطلع في أحوال الكون أن الاختلاف ضارب أطنابه في كل شيء على وجه يؤدي إلى كمال الأشياء وانتظامها في سير متكامل لا يشوبه نقص. وهو دليل على إرادة الله تعالى في تنظيم الأجزاء المختلفة من هذا الكون. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين﴾ (سورة الروم).

يرى المتتبع أن الجنين في رحم أمه لا يحتاج إلى عين أو اذن إلا بعد الولادة، وليس للطبيعة العمياء أن تفكر في المستقبل، بل من الخطأ أن تنسب الحكمة والتدبير إلى الطبيعة (وهي مخلوقة). فيستنبط من هنا أن الكمال شيء مطرد في الممكنات مستدام في جميع أدوارها.

يرى المفكر في أحوال الكون أن كل شيء قد أخذ قسطاً من الكمال بقدر استعداده وقابليته: ﴿أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها﴾. (سورة الرعد). وإن الكمال سائد في كل شيء ولا يشذ عنه شيء. فالذرة كاملة والبروتون كامل والنيوترون كامل والايونات كاملة والوردة كاملة وشعاع رونتكن كامل: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، انه كان حليماً غفوراً﴾ (سورة بني إسرائيل). أي أن كل شيء في تمام كماله وكمال تكامله، وانه يشير إلى تنزه الباري جل جلاله من كل نقص وإلى حسن ابداعه وجليل اتقانه الخلق: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. ولكنا لا نفقه درجة هذا الكمال وحقيقة هذا التنزيه إلا بقدر ما توصلت إليه معلوماتنا ومعارفنا، ولم تصل معلوماتنا إلى حد نفقه بها تسبيح الأشياء والكمال المودع فيها إلا

ظواهر ومعلومات ضئيلة نسلي بها أنفسنا، يغتر بها المغرور فيتردى إلى أسفل سافلين.

ولا ريب أن عدم تفقهنا تسبيح الأشياء إنما هو ناشيء عن الذنوب التي نرتكبها، فترين على قلوبنا (نفوسنا) فتكون حجاباً حاجزاً عن مشاهدة الحق والواقع. على أن الكثيرين ممن تطبعوا على المدنية الغربية لا يقيمون للذنب وزناً ولا يعتبرونه. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. إلا أن الله جل جلاله كما يرى في نهاية الآية المتقدمة حليم غفور ﴿انه كان حليماً غفوراً﴾، فلا يترك عبده يتخبط في دياجير الظلمات بل يهيىء له (تفضلاً منه) دواعي التنبه ويقيض له وسائل الهداية والرشاد في أهله ونفسه وصحبه ومجتمعه وبيئته، إتماماً للحجة وقطعاً لدابر العذر: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾.

ثم يرى المدقق ان الله تبارك وتعالى قد خلق كل هذه الأشياء الكاملة في صنعها لهذا الانسان، فهل يجوز أن يكون الانسان: (هذا الذي قد خلق لأجله جميع الأشياء في غاية الكمال) ناقصاً يفسد في الأرض، يظلم ويبغي، يزني ويفسق. ينهب أموال الناس ويرابي. ثم يرى - بحصر عقلي - إن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فكيف يجوز على الله أن يرى بين هذه المخلوقات المتكاملة مخلوقاً ناقصاً وأعني به الانسان؟ فلا بد وان الله تعالى يقيض لهذا (الانسان) الذي خلق لأجله كثيراً من الموجودات وسائل عدة بغية تكميله وإيصاله إلى الغاية التي خلق لأجلها.

إذن بطريق عقلي بحت، يصل المتتبع في أحوال الكون إلى وجوب بعث الرسل وعدم خلو الأرض من حجة بالغة من قبل الله تعالى عملاً بسنة الكمال.

على أن الله تعالى قد أودع في النفس الانسانية بذور التكامل والهداية بصورة فطرية. فانه تعالى يقول: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسَّاها﴾. ويقول في موضع آخر: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر. ألا ترى أن من لم

يطلع على العلوم الطبيعية وغير الطبيعية قد تكون له عقيدة راسخة في الدين تفوق عقيدة من توغل في كثير من العلوم، لأن كثرة العلم لا توجب الهداية بصورة مطردة. ولا تناسب درجة الهداية مع كثرة العلم، وان الهداية شعاع يشع من نفس تعمل بالفطرة فلا تفسد في الأرض ولا تبغي ولا تجور، من نفس كلها عاطفة وإيثار وأخلاق فاضلة حميدة:

نعم، إن ما تقوم به الأيدي من أعمال وما تكسبه هذه النفس من درجات هو الذي يسلك بالانسان طريق الفلاح والصلاح. إن الأمي يكفيه نمو النبات وهبوط الأمطار ليعترف بوجود الخالق ويزداد يقيناً به تعالى ويعلم أنه إنما خلق لغاية سامية وغرض رفيع وأنه سائر نحو تحقيق تلك الغاية وذلك الغرض. ﴿يا أيها الانسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾. (سورة الانشقاق).

ان الله تعالى يقول: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه». فالمولود يولد موحداً معترفاً بخالقه، لكنه لذنوب يرتكبها ومآكل محرمة يتناولها، يتغلب عليه شيطانه، فيجعله متبعاً طريق والديه المعوج. وأنه لو لم يدنس نفسه بالمعاصي والآثام، أو تمكن من غسلها بأعمال صالحات وتوبة واستغفار، لتوجهت نفسه إلى حيث النور، إلى حيث الكمال المنشود: الا وهو الدين الاسلامي: دين الفطرة. فكم رأينا أفراداً ولدوا من آباء وأمهات غير مسلمين ولكنهم وفقوا إلى اعتناق الدين الاسلامي لأهلية في نفوسهم وصفاء في أرواحهم.

إن الفيلسوف حسب وظيفته يبحث كثيراً عن المثل الأعلى (Superman) للانسان، ولكن أنى لهذا الفيلسوف أن يصل إلى ما يريده الله تعالى وهو بعيد عن الله وملوث بشتى الجراثيم التي تهلك النفس وتفسد السريرة. أبعد القرآن يحق للفيلسوف أو لغير الفيلسوف أن يبدي نظرية في الكمال

النفسي؟ أو يخط للبشر خطة تؤدي إلى سعادته في النشأتين؟ ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾. ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة. أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

إن من يرى ليالي باريس وما هنالك من مخازي ومفاسد يحكم بأن الانسان هناك مسرف متجاوز الحد الذي عين لتكامله وهو في سيره السلبي يتدهور إلى أسفل السافلين.

ومن يرى التقوى والورع والخشوع لله لدى المؤمنين واجتنابهم المعاصي كبائرها وصغائرها خوفاً من الله تعالى، واهتمامهم في قضاء حوائج الناس وقيامهم بأعمال صالحة وما هم عليه من فضائل الأخلاق يحكم بأن هذا الانسان قمين بأن يخلق له كثير من الموجودات وهو سائر في سير تكاملي يريده الله لعباده في الأرض.

فالانسان إذا اتبع سنة محمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وجعل التقوى نصب عينيه، لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تزحزحه عن طريق الحق مخالفة أهل زمانه، ثم ابتهل إلى الله جل وعلا بخشوع وخضوع وتذلل في إزاحة كيد الشيطان ووساوسه عن نفسه الشريرة الجموحة العادلة عن الصراط المستقيم ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ وقام جوف الليل محاسباً نفسه مستغفراً منيباً، فصلى وانقطع إلى الله باخلاص تام، تنفتح بصائر قلبه، فيهتدي إلى الحق، يمقت الملاهي المفسدة للنفس، وتشمئز نفسه من الأغاني المحرمة وإن لم يكن قد بلغه حرمة ذلك. ﴿وذلك لصفاء في نفسه﴾، فيترك مجالسة أهل الفسق والفجور ويمتعض من معاشرة أهل البغي والسوء، ثم يبحث عن أشخاص هم أقرب إلى التقوى وقمع الشهوات فيرتاح إلى مجالستهم ويستفيد من غرر كلماتهم وجميل بياناتهم. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ (سورة العنكبوت).

فإذا رأيتم رجلاً يستبيح ما حرم الله وهو يدعي الايمان، اعلموا أن

إيمانه ناقص مبتور وان في نفسه من الأمراض المعنوية أمراضاً منعته أن يرى الحق فينطبع عليه.

تولستوي الفيلسوف الروسي المعروف، بسبب عطفه على الفقراء والمساكين والبؤساء وبذله أموالاً طائلة في سبيل خدمة الآخرين، قد رأى بصيصاً من الحق. ولكن نفسه ـ أو قل ـ نتائج أعماله السابقة كانت أقل من أن تدعه ليرى الحق كله جلياً أو يهتدي إلى صراط الله القويم (ألا وهو دين الاسلام). فكان تولستوي يبحث عن الحق وبينه وبين الحق حجاب. وكان الحجاب نفسه. حتى كان مآل أمره أن خرج من مزرعته هائماً على وجهه في برد قارس كان فيه هلاكه.

إن من ينظر إلى ولد لم يبلغ الحلم وهو يصلي بخضوع وخشوع، يركع ويسجد للمنعم المنان، يعلم بل يقطع أنه عامل حسب ما لأجله خلق. لأن من شأن العبد والمنعم بنعم المولى أن يشكر مولاه. وذلك أمر فطري لا ينكره كل من كان له مسحة من العقل. إلا إذا كان من الذين رانت ذنوبهم على قلوبهم فأصيبوا بعمى القلب. وهو أشد عمى يصاب به الانسان المسكين بما كسبت يداه. ﴿فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (سورة الحج). فيستهزيء بالمصلي ويرى الصلاة شيئاً زائداً أو (لا سمح الله) عملاً خرافياً، ولكنه يفرح ويبتهج لو رأى امرأة مسكينة في مقطع أحد الشوارع تنظم سير السيارات تحت الثلوج، حين أن زوجها وأخاها لا شغل لهما ويفتشان عن عمل فلا يلتفت إليهما. وهذا هو التبلبل الاجتماعي بعينه.

نعم، لو زاغت النفس عن الفطرة يرى الفرد الحق باطلاً والباطل حقاً، فتتردى هذه النفس لذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. ان الله تعالى يقول ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً﴾ (سورة الفرقان).

نعم، ان الغربي ليقدر وفاء الكلب إذا وفى لصاحبه وحرسه بكل نشاط وإخلاص ويكتب في إطرائه والثناء عليه كتابات قيمة كثيرة. وأنك لا ترى

كتاباً للمطالعة إلا وفيه وصف لوفاء الكلب وأنه يقابل الاحسان بالاحسان ويشكر صاحبه بأعماله ووفائه. أجدير بالانسان وهو أشرف المخلوقات أن يكون أحط من الكلب في تقدير نعم الخالق التي لا تعد ولا تحصى والقيام بواجب الشكر بصلاة وزكاة... ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾.

يتعجب الانسان ويندهش عندما يرى رجالاً من الغرب يتقلبون في نعم الباري جل جلاله في قصور مشيدة وأبنية فخمة ومناظر جذابة مع خدم مطيعين في خفض عيش ودعة وسرور وحبور مع ذلك كله لا يخطر ببالهم أن يفكروا في من أولاهم هذه النعم ومن أين أتتهم، فيقوموا تجاهه بواجب الشكر.

وقد يكون أحد هؤلاء ذلك الفيلسوف الذي يريد أن يضع دساتير سعادة البشر! متبختراً بفلسفته الواهية الحالكة، مغروراً ببياناته السخيفة، يريد أن يسن للبشر سنن الرقي والتكامل وهو في آخر درك من النقصان.

هذا (بنتهام) فيلسوف من فلاسفة الغرب يقول: «إن الأخلاق يجب أن تقوم على المنافع المتقابلة». وهل هذه أخلاق أم تجارة بأخس معانيها أم بهيمية أو شيء أحط من البهيمية؟ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا، فلا يغررك تقلبهم في البلاد. كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾. (سورة المؤمن).

قد يقول الشخص أمثال (روكفلر) و(فورد): إنا قد حصلنا ما حصلنا عليه بجد واجتهاد وغيرنا لم يتمكن من ذلك. وقد فاته ان الله هو الذي قد هيأ له أسباب هذه الثروة الطائلة وأوجد له امكانيات، وهيأ له ظروفاً خاصة ولولا توفيق الباري جل وعلا لكان حاله حال أحد عماله. وقد يكون أحد عماله أقرب إلى الله. وكم بين عماله من هم أشد منه قوة وذكاءاً واجتهاداً وسهراً على المصالح الدنيوية!!.

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما ان

مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، إذ قال له قومه لا تفرح، ان الله لا يحب الفرحين. وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، ان الله لا يحب المفسدين . قال: إنما أوتيته على علم عندي، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾. (سورة القصص: ٧٦، ٧٨).

ذكر لي أحدهم وكان من الذين درسوا الفلسفة الغربية: انه استقال من وظيفة هامة وعمد إلى تجارة الأفرشة والسجادات وكـان يملك شيئاً من المال. فكانت تتوارد عليه الأرباح مع جهله بنوعية الأفرشة. وبعد ثلاث سنوات وقف على أنواع الأفرشة جيدها ورديئها وصار يميـز بينها تمييـزاً صحيحاً. فقدر لنفسه أنه سوف يكون مع هذا الاطلاع أحد كبار الأثرياء بعد قليل. ولكن انعكس الأمر، فتراكمت عليه الخسارة وحوادث مؤلمة تباعاً، وأفلس قسم من التجار الذين كانوا يتعاطون معه، فكان عاقبة أمره الافلاس أيضاً. وصار يحتاج إلى قوت يومه. وقد رأيته ذات يوم وهو في هذه الحالة، فدنا مني قائلاً: أمسيت في حالة أخشى أن تضع الناس في يدي فلساً زاعمين أني سائل مسكين! ثم سكت وقال: أني علمت الآن ان الله هو مدبر الأمور وهو الموفق وليس الفن كل شيء، وإن هناك يداً خفية لها أثرها في تسيير الأمور. فمهما كان الانسان موهوباً، لا بد من يد خفية تساعده في النجاح وتهيء له الفرص على أن المواهب كلها منه تعالى.

ثم قال: إن ما درسته من الفلسفة الغربية هواء في شبك، وعلمت بعد التجارب أنها تفكير بشري لا توافق الواقع وأيقنت أن نصيحة أمي ـ وأنا طفل صغير ـ هي كل الحقيقة وتمام الحقيقة. أنها كانت تقول لي: «ولدي، كل شيء بيد الله تعالى».

* * *

وصادف رجلاً آخر كان قد ترك الصلاة واندمج في زمرة من لا يخشى الله. ففصل عن وظيفته وبقي لا عمل له، فباع كل ما لديه ليقتات بثمنه،

فنفد ما لديه. وبقي حائراً يعالج الجوع. والجوع خير مرب في كثير من الأحيان. ففكر في نفسه وفي الغاية التي خلق لأجلها بمدة سنتين وهو في حالة يرثى لها. حتى أيقن أنه محتاج، وان الحاجة لا تعرض إلا على أغنى الأغنياء ومعطي الغنى وهو الله. فابتهل إليه جل وعلا وخشع وتذلل وبدأ يصلي ويصوم ويقدس المقدسات. فحسنت أخلاقه وتحسنت سريرته وطابت نفسه. ثم أني أحببت أن أستقصي سبب هذا الانقلاب التكاملي. فكنت ذات يوم في بيته عند الغروب، رأيته حاملاً أمه العرجاء وقصد بها إلى السطح، وكان يأتي بها هكذا عند الصباح إلى ساحة الدار، يقدسها أيما تقديس. رأيته عطوفاً على أخيه المسكين الذي كان عالة عليه، وصولاً أرحامه. رأيته يساعد الفقراء والمساكين. فعلمت أنه لم يقطع صلته بالله تعالى في زمن كان قد ترك الصلاة فيه. فصرت أنصحه. فوجدته يوم الجمعة في روضة الامامين موسى والجواد عليهما السلام يصلي. فهنأته على رجوعه إلى صلاته وهديه.

ثم أنه دعاني يوماً إلى الطعام. فجيء بالمائدة وانتظرته قليلاً حتى حضر. سألته عن سبب التأخير. قال: آليت أن لا أتناول ما منَّ الله به عليَّ من عظيم الرزق حتى أشكره بصلاة قبلاً. وأصبح رجلاً ديناً يشار إليه بالبنان.

نعم، هكذا تعمل النوائب في تكميل بعض النفوس، فان اخراجه من الوظيفة وتجرعه آلام الجوع والفقر فتحا عليه أبواب الهداية. لأن المعدة المملوءة قد تكون حجاباً حاجزاً عن الوصول إلى الحق، وان أبخرتها الكثيفة تغشي الحقائق فلا يشعر الانسان إلا بشهوة نفسه. وهذا أحد الأسباب التي سنَّ الله تعالى من أجلها الصوم. وأحد أسباب استحباب الزهادة في الدنيا.

ولا بأس بذكر هذا الحديث في المقام: قال سعد لسلمان المحمدي في مرضه: كيف تجد نفسك؟... فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: «والله ما أبكي حزناً على الدنيا ولكن بكائي لأن رسول الله (ص) قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب». فأخاف أن أكون قد تجاوزت ذلك. وليس حوله في بيته غير مطهرة وإجانة وقصعة.

وقد يتعجب البعض من ذكرى هذا الحديث في عصر قد بلغت فيه

الكماليات أقصى الحدود حتى لم تبق وقتاً للعبادة. كأنه نسي قول الله تعالى: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. ان الدين يعطينا المثل الأعلى في الكمال النفسي لأفراد هم أوتاد الأرض (Superman). وكل يأخذ من هذا الدين حسب اختياره بمقدار ما يشاء.

* * *

إن الله تبارك وتعالى يتم الحجة على العباد بغية تنبيههم وإرشادهم إلى سبل الرشاد بمرض أو ضنك في عيش أو غرق أو عواصف وزلازل وبلايا أخرى. لعل العبد يفكر في عاقبة أمره فيعالج نفسه المريضة. إن الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾. وفي آية أخرى: ﴿وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾. وفي أخرى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾.

* * *

يتجلى الكمال النفسي في الدرجة الأولى في (الشكر). فمن كان شكره أكثر كانت نفسه أسمى وأكمل. فلا يجب أن ينخدع الشخص بعلم الأستاذ لأنه أستاذ ورب أستاذ لأنعم الله جاحد! . إذ لا رابطة بين العلم والكمال النفسي.

يقول زين العابدين (ع) مخاطباً رب العباد: «فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر. فكلما قلت: لك الحمد، وجب عليَّ لذلك أن أقول: لك الحمد».

وإنما كان الأنبياء (ع) أنبياء، لعظيم شكرهم وكمال إخلاصهم. فقد فدى إبراهيم (ع) بجميع غنمه عندما سمع من ينادي: «سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح». ويقول الله جواباً لأولئك الرؤوساء الذين تعجبوا من إيمان من آمن من الضعفاء أنهم إنما آمنوا لشكرهم: ﴿وكذلك فتنّا بعضهم

ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

إن الصلاة المفروضة نوع شكر. وقد ورد في الأخبار: يستحب للعبد أن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة: «الحمد لله رب العالمين». وهذا قليل مما ينبغي أن يقوم به العبد من واجب الشكر تجاه خالقه وبارئه.

وقد يقول الجاهل المغرور: ليس لنا من الوقت ما يكفي لاقامة الفرائض فضلاً عن المستحبات. ولكنه يقضي ساعات عدة في المقاهي، يتعاطى فيها الميسر، يغتاب فيها الناس ويقوم بالنميمة، فيصرف أوقاتاً غير قليلة في اللهو واللعب: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

ان الله تعالى أكد في تحريم الخمر والميسر وعظم أمرهما بجعلهما من الرجس وقرنهما بالأصنام والأزلام وجعلهما من عمل الشيطان. فمن تعاطى الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدسها. والحق، ان من كان محبوبه الخمرة والميسر لم يكن له طريق إلى المقامات القدسية وتدهور إلى أسفل السافلين، فيكون مآله ومثواه ما يناسب نفسيته المتسافلة ألا وهو الجحيم.

فعلى الأباء أن يمنعوا أولادهم من ارتياد المقاهي ومجالس القمار واللهو والرقص... إلى ما هنالك، وأن يحظروهم مجالسة الأوغاد والسفلة من الناس وأن يجبروهم على أداء الصلاة والقيام بالفرائض الدينية ويعرفوهم كبائر الذنوب وصغائرها، وأن يعودوهم مساعدة الفقراء والمساكين والأعمال الصالحة وحسن المعاملة وصلة الرحم ومراعاة الجيران؛ وأن يحذروهم عواقب الخيانة على حساب الآخرين. فان ذلك أوجب وأهم من الطعام والثياب. ذلك لأن عاقبة مروق الولد من الدين نار مسعرة: ﴿أنها لظى، نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى﴾.

ان الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون﴾.

وكم نرى في زماننا هذا آباء يعظون أبناءهم، يرشدونهم ويهدونهم سواء

السبيل، ولكن أبناءهم يسخرون منهم في قلوبهم ويصمونهم بالخرافة والرجعية! فإذا رأوهم صلوا، وإذا غابوا عنهم رجعوا إلى غيهم: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: أنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾.

إن كثيراً من الأبناء اليوم لعوامل شتى هم مصداق هذه الآية: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي. وهما يستغيثان الله، ويلك آمن، ان وعد الله حق، فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين﴾.

من تلك العوامل: خلو التعليم عن دراسة دينية صحيحة وتربية أخلاقية متينة وعدم إدخال دروس الدين في المدارس العالية، وعدم اعداد مدرسين أكفاء لتدريس الدين وعدم تعيين مفتشين للدين بصورة خاصة للمدارس الابتدائية والثانوية والعالية وإعطائهم صلاحيات واسعة، وتقليد الغرب في فلسفتها المادية وأخلاقها النفعية.

عندما يدرس الانسان الدين الاسلامي ويتتبع أوامره ونواهيه في المآكل والمشرب ومعاملة الجار والأرحام وفي جميع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينظر في ما أمر به من عبادات بدنية ومالية وما نهى عنه من معاملات في المتاجر والمكاسب يقطع أنه هو دين الله في أرضه، هو دين يأخذ بهذا الانسان الناقص إلى حيث الكمال المنشود.

الترتيب لا يولد الحياة

جاء في مقال: (الحياة في علم الحياة) في العدد السادس من مجلة الاعتدال الغراء نقلاً عن مذهب الماديين: «أن العلماء الحديثين قد ذهبوا مذهباً آخر في تعليل كيفية حلول الحياة في مادة (البروتوبلازم)(protoplasm) وذلك بأن المقدرة على القيام بالأعمال الحياتية ناتجة عن ترتب خاص واندماج أو تألف معلوم بين العناصر التي تكوِّن مادة البروتوبلازم الحية».

وبما أن هذه النظرية عارية عن الصحة لا يعترف بها الفلاسفة المحيطون بمبادىء كافة العلوم وأكثر العلماء الحديثين، أحببت أن أرد هذا الرأي، مع علمي أنه ليس من رأي كاتب المقال ولا معتقده، دفعاً للشبهات ودرءاً لزلة الشبان، وانجذابهم إلى المذهب المادي الفاسد(Marterialisme) .

إن الدليل الذي يقيمه الماديون على أن الترتيب هو الباعث لحلول الحياة في مادة البروتوبلازم، كما جاء في المقال، هو أن: (ترتيب ذرات الهيدروجين والأوكسجين والكاربون، حسب نظريات الكيمياء العضوية الثابتة، ينتج مواد عضوية كالسكر والخشب والنشأ وما أشبه).

وليت شعري هل السكر بعد قطع علاقته من النبات شيء حي له أعمال حياتية كالتنفس والافراغ والتغذي والنمو والتوالد وهكذا الخشبة والنشأ. فمن شاهد تنفساً وتغذياً ونمواً للخشبة الموضوعة فوق منضدة الكتابة طوال السنين له أن يدعي بأن فيها حياة تشبه ما عرفناه آنفاً. وهكذا لا حياة للحوامض الحاصلة عن ترتيب خاص لذرات الأوكسجين والهيدروجين مع عنصر الكبريت أو الكلور على ما هو معلوم في الكيمياء.

نعم، ان الحوامض تمتاز بخاصيات مختصة بها، ولكن هذه الخاصيات عوارض مادية فاقدة الحياة. ولا شك أن ترتيب الذرات بنهج خاص يسبب خواص جديدة، ولكن هذه الخواص هي آثار مادية غير حياتية، ولا تشبه آثار النبات والحيوان من حيث التغذي والتمثل والتنفس إلى غير ذلك. وبما أن

عملية الترتيب عملية مادية، فالمعلول يكون أمراً مادياً أيضاً ولا يتجاوز حدود المادة، لأن الحيوية مفهوم غير مادي وليس للمادة أن توجد ما ليس فيها.

ومعلوم: أنا إذا رتبنا آلات مضخة الماء الرافعة (مثلاً) حسب ما يجب فهل تتحرك بنفسها دون أن تحركها قوة خارجة عنها مسيطرة عليها مؤثرة في آلاتها وأدواتها؟ كلا. ولا مراء أن روح تلك القوة بما هي قوة ليست من جنس المادة من حيث هي مادة وبينهما بون عظيم. وإذا استطاع العالم بعلوم الحياة: (Biologue) أو(Biologiste) أن يقتل حشرة ويأخذ المواد المشكلة لها كالأوكسيجين والهيدروجين والكاربون والآزوت (نيتروجين: Nitrogene) إلى غير ذلك بمقدار ما هو موجود فيها، ويرتب هذه العناصر على الترتيب الذي يراه فيشكل منها تلك الحشرة الحية، له أن يعترف أن الباعث للحياة هو الترتيب والتأليف: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فأستمعوا له، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾. (سورة الحج: ٧٣).

فالترتيب عملية موجودة في جميع العناصر غير الحية. ولولا الترتيب لما أمكن وجود العناصر المختلفة بصرف النظر عن وجود الحياة. فان النظريات الحديثة التي لا تزال في تزلزل وسقوط، تدعى اليوم: أن كل آتوم (ذرة) مركب من بروتون: (الكهربائية الموجبة) المجتمعة في الوسط والمحاطة بالالكترون: (الكهربائية السالبة) المحدودة وعدد آخر من الالكترونات بحيث يساوي زيادة عدد البروتونات على الالكترونات المحيطة المحددة. وبذلك يتساوى عدد الالكترونات وعدد البروتونات في كل ذرة، إلا أن البروتونات كلها مندمجة في الوسط. فمثلاً: ذرة الليثيوم مركبة من (٧) بروتونات و(٤) ألكترونات محددة.

وإذا رسمنا مكعبات حول المركز (البروتون) في إمكاننا أن نضع (٣) ألكترونات في رؤوس المكعب ليكون عدد الالكترونات مساوياً لعدد البروتونات. وان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو عدد الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر. وان هذه النظرية المسماة بنظرية (أو

كنت) أبديت من قبل (لويس) و(لانكمو) الأمريكيين. إلا أن هناك نظرية أخرى، تدل على أن الالكترونات، التي توضع في رؤوس المكعب كما رأينا في ذرة الليتيوم والتي نسميها أقماراً، تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

وإذا سلمنا بالنظرية الأولى نرى أن العناصر كلها من كلور، حديد، ليثيوم(Lithium) كاليسيوم، هيدروجين، هليوم... الخ. مركبة من (بروتون) و(ألكترون). ومع اختلاف خواصها فانها مركبة من شيئين متساويين في العدد، مجهولين من حيث الماهية ومرتبين بترتيب خاص. ولولا هذا الترتيب والاختلاف في العدد لما وجد عناصر مختلفة ولما حصل اختلاف في الخواص المادية. فالترتيب واختلاف العدد يوجبان تبدل الخواص الكيمياوية فحسب، لا الحياة!.

على أن الترتيب لا بد له من مرتب. فلا يأتي الترتيب المؤدي إلى وجود عناصر مختلفة وإلى وجود ارتباط بين أجزاء العالم ارتباطاً وثيقاً، عفواً. ومحال أن يعترف العقل الانساني بأن الترتيب المؤدي إلى وجود ما لا يعد ولا يحصى من الموجودات. وهي في غاية النظام وتمام الاتقان ـ يأتي جزافاً دون تروٍّ وحكمة.

* * *

يقول أحد علماء الطبيعة رداً على نظرية الترتيب والصدفة: أننا لو وضعنا في كيس عشر قطع متماثلة من المعدن وقد كتب عليها الأرقام من (١) إلى (١٠) بالترتيب، فالاحتمال في أن نعثر على رقم (١) هو واحد من عشرة. ولو أردنا أن نظفر بالرقمين (١، ٢) بصورة متتالية فالاحتمال يكون: واحداً من مائة، وإذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية، فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من ألف، وإذا أردنا أن نوفق إلى سحب الأرقام من ١ إلى ١٠ بصورة متتالية فمرتبة الاحتمال تكون: واحداً من عشرة آلاف مليون. وإذا علمنا أن الأجزاء التي ترتب هذا الكون مختلفة، ومتعددة جداً، وان ما خلق الله من

الموجودات تكاد لا تتناهى، وان الترتيب في هذه الموجودات يختلف بعضه عن بعض، إذن ستكون مرتبة الاحتمال:

$$\frac{١}{١٠^{\text{ن}}}$$

فإذا كانت ن = ∞ (أي ن تساوي اللانهاية)

إذن:

$$\text{غــا}_{\text{ن} \to \infty} \frac{١}{١٠^{\text{ن}}} = ٠$$

أي أن: غاية $\frac{١}{\infty}$ = ٠ لا محالة. . .

يستنتج مما سبق أن قيمة الاحتمال أو الصدفة تساوي الصفر. أي ليس هناك صدفة أبداً[١].

فليس في الامكان: أن أجزاء لا تتناهى من هذا الوجود من مادية وغير مادية تترتب ترتيباً بديعاً محيراً للعقول، يؤدي إلى انتظام رائع نشاهده في هذا الكون، لا سيما وجود هذه الحيوية في النبات والحيوان ووجود هذا العقل الإنساني! ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾. (سورة الرعد). وفي آية أخرى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾. (سورة الروم). (الودق: المطر).

---

(١) على أن ما فكر فيه هذا العالم من نظرية الاحتمال لا تنطبق تماماً على هذا الكون. لأن الأشياء لم تكن موجودة كلها قبلاً وإنما وجدت بأمر الله تباعاً وبترتب بديع وتحت نظم ودساتير. ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾. ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾. ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾.

تقول نظرية لابلاس: أن الأرض كانت في الابتداء قطعة نارية في درجات عالية من الحرارة. فما كان يمكن أن يعيش على سطحها إذ ذاك لا حيوان ولا نبات ولا مكروب. فمن أين إذن جاءت هذه الحيوية (أو الروح) للحيوان والنبات والميكروبات لولا خلق الله إياها؟: ﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، ان الله على كل شيء قدير﴾.

أنى للصدفة أن تضع معادلات دقيقة وقوانين محكمة تربط أجزاء العالم بعضها ببعض وأنى لها أن تخلق الروح والعقل. ثم كيف وجدت هذه الأجزاء المترتبة؟ هل وجدت في آن واحد: (وهذا ما لا يوافق عليه العقل لما يشاهد من موجودات جديدة)، أم وجدت تباعاً؟.

فمن الذي أوجدها تباعاً ووضع دستور التتابع والتسلسل في أجزاء لا تتناهى بحكمة فائقة ونظام رائع. ثم ان الجزء الأول هل وجد من تلقاء نفسه وهو في غاية الحاجة والافتقار ومؤلف من عناصر عدة، في فضاء لا بد له من خالق؟ ومن رتب هذه العناصر ترتيباً حكيماً محيراً للألباب؟!

ثم من الذي وهب له روحاً تحركه وتعطيه قابلية الايجاد والخلق والتنظيم بقوانين ودساتير رياضية رصينة. أم ماذا؟ ﴿فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فانى تصرفون. كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾. (سورة يونس ع).

* * *

يتألف محرك الصاروخ من (٣٠٠ ٠٠٠) قطعة. فإن كان صنع إحدى هذه القطع يخالف الهندسة التي يجب أن تصنع بحسبها مخالفة بسيطة ولم تبذل الدقة المتناهية في إنتاج كل قطعة أخفق الصاروخ عند إطلاقه وفشل. فكيف بهذا العالم المؤلف مما لا يتناهى من قطع في عالم الجماد والنبات والحيوان، ثم ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عوالم الأرواح والعقول.

كما أن للمفكر أن يفكر من الذي هندس القطع التي يتألف منها محرك الصاروخ أم وجدت من تلقاء نفسها، حتى يأتي دور الصدفة! على أن درجة

الاحتمال في هذا الترتيب هي الصفر لا سيما إذا كانت الأجزاء لا تتناهى.

إذن وجب بحصر عقلي أن يعترف العقل أن هناك خالقاً قديراً وقد أعلى الوجود، وأوجد الأشياء بقدرته ورتبها بحكمته. ﴿سبحانَ الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

وفي خلق الله تعالى جميع ما في الكون من حيوان ونبات وجماد[1] بصورة زوجية حكمة بالغة، كي يوقن هذا الانسان أن الوحدة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها أحد، وإن كل شيء من المخلوقات لا بد له من شريك ومزاوج: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وإذا سلمنا بالنظرية الثانية: (وهي أن الالكترونات في الذرة تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالمنظومة الشمسية)، نرى أن الحركات حول المركز كلها متماثلة، إذن لزم أن يكون كل ما في الكون متحركاً من الابتداء! فما هو إذن هذا التفاوت في الموجودات يا ترى؟ ثم من أين أتت هذه الحركة: حركة الأقمار أو الالكترونات حول البروتونات. ومن المحرك لها؟ ومن جاء بهذا الترتيب وهذا النظام حتى وجدت هذه العناصر؟.

وسواء سلمنا بالنظرية الأولى أو الثانية فان الالكترون (الذي هو القوة بعينها) موجود في ذرات الأجسام، إذن ليست الذرة بشيء مادي بحت.

فكيف إذن: انقلبت الطاقة أو القوة إلى مادة؟ وقد ثبت حديثاً أن المادة تتحول إلى طاقة وقوة: أما بالاشعاع أو بطرق أخرى. وأول من عثر على هذه النظرية (مدام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (سوربون) حينما وضعت في (جيبها) قطعة من الراديوم أدت إلى خدشة في صدرها بنتيجة الاشعاع وقد خف وزنها بعد مدة.

---

(١) الذرة تتألف من الكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). وتدور الالكترونات حول البروتونات كما في المنظومة الشمسية. وإن كل نجمة نراها في مسافات شاسعة هي في الواقع نجمتان، تدور احداهما حول الأخرى. تحقيقاً للزوجية في عالم التكوين.

ولسائل أن يسأل: من أين جاءت هذه الطاقات الهائلة التي تكاد لا تتناهى حتى شكلت هذا العالم المادي. وقد وضح الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم﴾.

وقد صرّح الدكتور (كوستاولوبون) في آرائه الفلسفية: أن تحول المادة إلى القوة مما أوجب إفلاس الماديين(Materialistes) وتقهقرهم.

فوجب إذن أن نعترف بأن قوة خفية مدبرة عظيمة تسيطر على المادة (التي مخلوقة لها)، فتعطيها الحياة وتجعلها نباتاً، فحيواناً، فإنساناً وهو الله تبارك وتعالى، وأن جوهر الحياة ليس بمادي. كما أنا نرى أن للانسان نفساً مجردة عن البدن حاكمة عليه. (يعترف بذلك العلم الحديث بعد انكشاف بعض حقائق الذرة).

إن الإنسان يرى في منامه أنه يسافر إلى بلاد شاسعة ويقوم بأعمال غريبة وقد تستمر أعماله ليالي وأياماً، وبدنه المادي ملقى على فراشه. أليس الذاهب إلى البلاد النائية والقائم بأعمال مختلفة هو نفسه التي بين جنبيه؟ مع أن النوم لم يستمر إلا سويعات ولكن الأعمال قد تستمر أكثر من ذلك.

وقد اكتشف حديثاً: أن الماء ليس مركباً من الأوكسجين والهيدروجين فحسب بالنسبة المعلومة، بل فيه ما لا يدخل تحت المجهر (ميكروسكوب) والأدوات والمواد والمؤثرات التحليلية الموجودة في المختبرات، وهو قوة حيوية مفيدة. فإذا كان في الماء شيء غير مادي، موجب للحياة، فكيف لا يوجد في (البروتوبلازم) وقد قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

يقول (بركسون) الفيلسوف الفرنسي: «ان ما حدا بالانسان إلى النزعة المادية في تفكيره، هو ارتباطه بالمكان ارتباطاً وثيقاً». وان من يقف على أفكار هذا الفيلسوف الدقيق لا يلبث أن يستهزىء بمبادىء الماديين السخيفة الذين

أخذوا في هبوط مستمر بعد تقدم علم النفس وتسخير الأرواح أو تحضيرها في الغرب. (على أن إحضار الأرواح عمل حرمه الدين الاسلامي. وعده من كبائر الذنوب كالسحر والتنجيم).

* * *

أرى أنه من واجب كل مسلم أن يعلم أن ليس للغرب مع اندماجه في حياة مادية مدلهمة أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة على حد قول (كوستاولوبون)، فأنه كان يقول: «لقد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة».

ولكنه لو تمسك بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الله وأطاعه وقام بأعمال صالحات لوجهه تعالى وجرّد نفسه مما علق بها من غرور ودنس ورجس وأوساخ مادية وترك عبادة المادة والزخارف الدنيوية حتى يبلغ مرتبة المخبتين وتكون نفسه مطمئنة بعد أن كانت أمارة بالسوء، فلوّامه لآمن بما جاء في الدين مما يتعلق بما وراء الطبيعة، وكان من الذين «يؤمنون بالغيب» ولدخل في زمرة أولئك الذين يقول علي (ع) فيهم: «وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم في النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة. وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها. وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن. يرتلونه ترتيلا. يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم. الخ..».

ذلك لأن ليس للانسان أن يدرك المجرد ويوقن به قبل أن يتجرد مع كونه في عالم الشهود. فان الذنوب والآثام والشهوات والنزوات ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع وتمنعه من أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة فيكون من الذين لا يؤمنون بالآخرة وتزين له أعماله ويظن بل يوقن أنه سائر سيراً حسناً وأنه من المهتدين!: ﴿ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون. أولئك لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾.

فليجرب من كان يرتاب في ما أقول. فلقد شاهدت أناساً كانوا منحرفين وقد وفقوا بفضل من الله أن يخطوا في ساحات الكمال بعزم رصين، فصاروا ممن يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وذلك بترك المعاصي والآثام. وكم شاهدت من أطباء وغير أطباء يحضرون مجالس الوعظ والارشاد ومجالس تفسير القرآن الكريم بخشوع ورغبة، ورأيت من بين هؤلاء متهجدين متعبدين، يقومون بأعمال صالحات.

* * *

واني أكرر هنا دستور تكامل النفس بصورة بسيطة: كل ردع لهذه النفس عن مشتهياتها المحرمة يفتح على الانسان باباً من أبواب الهداية، فقد جاء في الحديث: «النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله أتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه». ويراد بالنظر: النظر إلى من حرم الله من النساء. وكل ذنب يقترفه الانسان يسد عليه باباً من أبواب العقل الفطري الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فيسد عليه باباً من أبواب الهداية. فيلج إذ ذاك شيئاً فشيئاً في أودية من الضلال والظلمات. دليل ذلك: ما قاله علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً».

إن التركيب والتحليل وما في المختبرات من أجهزة دقيقة فنية للقيام بتجارب في الفيزياء العامة(Physique generale) و(Bacteriologie) و (Biologie) لا تكفي للاطلاع على حقيقة الحياة أو الحيوية الموجودة في النبات أو الحيوان. على أن التجربة وحدها لا تفيد علماً يقيناً إذا لم تكن مستجمعة للشروط اللازمة من الوضع والمكان ومختلف الحالات. كما أن أخذ النتيجة من التجربة على فرض صحتها ليس داخلاً في التجربة نفسها. فالتجربة شيء والاستنتاج أو الاستقرار شيء آخر. أي أن التعليل وربط المشاهدات والنتائج ليس بأمر مادي.

إن مظاهر التجربة أمور مادية والاستنتاج أمر عقلي. وقد يقوم الشخص بتجربة فيستنبط منها نتيجة مغلوطة لنقص في المحاكمة أو لاستيلاء الميول الخاصة على القوة المفكرة، فتصبح النتيجة غير صحيحة. فينساق إلى قبول

هذه النتيجة المغلوطة أناس عقولهم بعين الدرجة من ضعف المحاكمة لظلمات في النفس، ونفسياتهم متفقة مع نفسية هذا المجرب المنحرف أو قريبة منها[1]، فتصبح النتيجة المغلوطة برهة من الزمن كحقيقة راهنة ثابتة!: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾، (سورة الروم) حتى يقيض الله من يقوم بتجارب أخرى مع استنتاج صحيح فيردها ويجرحها. وقد وقع ذلك في أوروبا مراراً. فقد أخفق المادي مرة بعد أخرى! ولكن آثامه حجبت عليه طريق الهداية وأخذ يتشدق باسم العلم! وبينه وبين العلم مسافات لا تحد. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. (سورة المطففين: ١٤).

فالنظريات تتبدل من حين إلى حين ولا ينبغي أن يعتمد عليها وتتخذ كحقيقة يستحيل عليها التزلزل، ذلك لأنها ليست كالرياضيات البحتة حقائق ثابتة.

* * *

إن الفلاسفة الواقعيين يعترفون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام (المادة) ناقصة وستبقى ناقصة إلى الأبد. ويقولون: (أننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة»، فأنى لهم بعد اعترافهم هذا أن يتوصلوا إلى حقيقة الحياة وحقيقة الروح.

يقول دكارت: «فإذا سلمنا أننا لا نستطيع معرفة الواقع مباشرة امتنعت علينا معرفة الواقع على الاطلاق».

أنى للمحاط (الانسان) أن يحيط بالمحيط (وهو الله). لذلك يقول علي عليه السلام: «تكلموا في خلق الله ولا تكلموا في الله. فان التكلم في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً». وقال عليه السلام أيضاً: «كيف أصفه بالكيف وهو

---

(١) فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها، فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. (صورة الحج: ٤٦). فلا يفيد السير في الأرض في سلوك النفس التكاملي مع قلوب متحجرة ونفوس مدلهمة مظلمة بذنوبها وآثامها.

الذي كيف الكيف حتى صار كيفاً. فعرفت الكيف بما كيف كيف لنا من الكيف» (يريد به الله تعالى).

* * *

أنى لهذا الانسان أن يحيط بالله تعالى وقد كان في ابتداء أمره جرثومة (نطفة) ولم يكن له أدنى تصرف في توجيه هذه الجرثومة وتحولاتها في الرحم وبعد الخروج من الرحم. وكان لا يزال مسيراً إلا ما كان من إرادته[1] في اتباع طريق الخير وطريق الشر. فـ«لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين». ويؤيده قول علي عليه السلام: «عرفت ربي بفسخ العزائم ونقض الهمم. لما هممت فحيل بيني وبين همي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي علمت أن المدبر غيري».

وفي القرآن الكريم: ﴿ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾. وفي آية أخرى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾. وفي آية أخرى أيضاً: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾. وفي آية أخرى: ﴿قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أننا نحن المسؤولون عن سلوكنا واتجاهاتنا وعن أعمالنا السيئة. والله قادر على تغيير سلوكنا وهدايتنا لو جعلنا نفوسنا لائقة إلى قبول فيوضاته القدسية بالمداومة على أعمال صالحات. وفي استطاعته تعالى أن يسد علينا أبواب رحمته وهدايته وأن يبعدنا عن ساحات القدس، ان لوثنا أنفسنا بالذنوب والآثام وذمائم الأخلاق.

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى مراتب تكامل الجنين في رحم أمه: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة. فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم انشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وقد جاء في

(١) أي من إرادة الانسان نفسه.

تفسير: ﴿أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي أن الله تعالى أنشأه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه.

ما معنى نفخ الروح في جسم مشكل من عظام ولحم. ذلك لأن الروح ليس من المادة في شيء. ولعل الروح هي مشيئة الله تعالى وإرادته سبحانه. فهذه المشيئة أو الارادة بقوله تعالى: «كن» تنقلب إلى طاقة وقوة. والقوة لها مظاهر وأنواع حسب مشيئته تعالى. فتارة تكون هذه الطاقة أو القوة: (أي الارادة الالهية المتحولة إلى الطاقة بأمره تعالى) عقلاً وتارة تكون روحاً ونفساً انسانية أو نفساً حيوانية، وتارة تكون هذه الحيوية التي نلمسها في (البروتوبلازم) وتارة تكون مادة. أي أن هذه الطاقة تنقلب إلى مادة بأمره تعالى على ما ثبت في العلم الحديث، وذلك بعد التعرف إلى فلق الذرة (تحطيمها) أو دمج الذرات أو نواها. فانهما يتيحان لنا من القوة العظيمة ما يجل عن الفهم والتقدير. فالطاقة التي تخرج من رطل واحد من اليورانيوم تعدل طاقة الحرارة التي تخرج من مئات الأطنان من الفحم أو من ألوفها والطاقة التي تخرج من دمج نوى ذرات الهيدروجين أعظم.

وقد ذهب (آينشتاين) أن الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء. أي:

$$ط = ك \times س^{٢}$$

وبما أن سرعة الضوء = ٠٠٠ ٣٠٠ كيلو متر في الثانية، فان الطاقة في ذرة ما تشكل مقداراً هائلاً. أي:

$$ط = ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٩٠ ك = ٩ \times ١٠^{١٠} \times ك$$

فإذا ما فلقت (حطمت) أي أخرجت الطاقة الكامنة فيها إلى الخارج جاءت بالتدمير والتحطيم.

ويمكن حساب الطاقة المتحررة من تفاعل نووي: من معرفة النقص الحاصل في الكتلة. ذلك لأن العلم لم يتوصل بعد إلى إخراج جميع ما في الذرة من طاقة إلى الخارج. ففي انفلاق نواة اليورانيوم يتحول نحو عشر

الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا لتكوين ذرة هليوم عند انصهار أربع نوى من الهيدروجين يتحول سبعة أعشار الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا. . .

إن مشيئة الله بالنسبة إلى إيجاد الشيء جليلة ودقيقة على حد سواء. إن الله تعالى يقول: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾. ولقد قال جل من قائل: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾. فالمشيئة الربانية هي الموجدة للأشياء بقوله تعالى: «كن» أي الارادة وحدها أو الطاقة المنبعثة من هذه الارادة هي الموجدة لهذه العوالم من: عقلية ونفسية وحيوانية (وحيوية) ومادية.

إن عمى القاصر قد بلغ إلى هذه المرتبة من التحليل. ولعل الله تعالى يقيض من يوصلنا إلى حقائق أخرى إبداء لعظمته تعالى وإظهاراً لجليل قدرته. ولقد جاء في حديث قدسي: «والذين عملوا بما علموا لنهدينهم إلى ما لا يعلمون».

* * *

على أن الايمان بالله وبما وراء الطبيعة وبالأنبياء والمرسلين وأوصيائهم عليهم السلام ليس أمراً صعباً يستدعي الاطلاع على شتى العلوم والمعارف الكونية. وإنما الايمان أمر معنوي قلبي يترشح من نفس طاهرة وقلب زكي. وأن لهذا الايمان درجات تتناسب مع درجة طهارة النفس. كما أن الايمان بأن الروح والحيوية وأن كل شيء في هذا الوجود أوجده واجب الوجود - وهو الله تعالى - ليس متوقفاً على معرفة حقائق علم الكيمياء وعلم الحياة: (Biologie) فقد يصل الأمي إلى إيمان رصين لا يبلغه من بلغ مرتبة (الدكتورا) في أصعب الفروع. والفرق بينهما ناشيء عن درجة طهارة النفس.

إن هذه الحقيقة (أو النظرية) لا تستدعي الشك والارتياب. والتجربة تبرهن على صدق ما ذهبت إليه. فليجرب من شاء. فان الطريق واضحة جلية لا غبار عليها. وكتب الدين كثيرة والمراجع متوفرة. وان الذنوب تحجب القلب (النفس) عن رؤية الواقع لذلك جاء في حديث عن النبي (ص): «ان مثل الصلاة كمثل نهر جار يمر بباب أحدكم. فيغتسل به في اليوم والليلة خمس

مرات، فلا يبقى عليه شيء من الأدران. وكذلك الصلاة لا تبقى على الانسان شيئاً من الذنوب».

وغير خاف أن النبي (ص) إنما عني بهذه الصلاة. الصلاة المقبولة، وهي التي تمحو الذنوب فتطهر النفس بقوله (ص): «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً». وعن الامام الصادق (ع): «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم يقبل؟ فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعته قبلت منه».

وأهم ما يجب أن يقوم به هذا المجرب أن يرد إلى الناس حقوقهم ويطهر مأكله ومشربه عن الحرام والمشتبهات، وأن يترك ما كان يقوم به من موبقات ومدنسات. وأن يعاشر أهل التقوى والورع ويترك معاشرة تاركي الصلاة ومانعي الزكاة... الخ ليرى كيف تتجلى له الحقائق وتنقشع عنه سحائب الشكوك والأوهام...

* * *

ولقد ذكر لي من أثق به: أن رجلاً قروياً كان يسكن في قرية قريبة من (رشت) وكان يعيش من كد يمينه، لم يخالط مأكله ومشربه شيء من الحرام أبداً. وكان يهيىء ما يحتاجه من مأكل ومشرب وملبس في بيته ومزرعته. وكان مع ذلك متقرباً إلى الله بأعمال صالحة: يتعبد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم، يعطي فضول ماله إلى الفقراء والمعوزين ويطبق ما كان يعلم من الآداب الاسلامية. فأشكلت عليه مسألة شرعية. جاء إلى عالم ديني في مدينة (رشت) ليتبصر فيها. فدخل المدينة عند الظهر. وسمع المؤذن يؤذن. فبادر إلى صلاة الظهر في أفضل أوقاتها وأخذ طريقه إلى بيت العالم الديني. فدخل عليه قائلاً: أني أرى شيئاً غريباً في هذه البلدة. فسأله العالم وما الذي تراه؟ قال: لم أر في شوارع المدينة إلا بهائم حميراً وبغالاً... ولم أصادف في طريقي إلا شخصين على شكل انسان. أين ذهب الناس؟!.

أدرك العالم الديني، لطهارة نفسه وتضلعه في شتى العلوم، السبب في هذه الرؤية الباطنية. وأن الرجل لطهارة مأكله ومشربه وحسن سريرته وتطبيقه

أوامر الشرع تطبيقاً صحيحاً أخذ ينظر بنور الله، وتتمثل له بعض الخلائق حسب حالتهم النفسية الصحيحة وما بلغوا من التسافل والتكامل من جراء أعمالهم وما اجترحت أيديهم. ثم ان العالم الديني خاطب القروي قائلاً:

ـ هل تناولت طعام الظهر؟

قال: كلا. فدعا العالم خادمه وقال له: اذهب إلى السوق وأئت بطعام إلى هذا المؤمن، (مع وجود طعام في البيت). أطاع الخادم أمر سيده وجاء بطعام من السوق وقدمه إلى القروي. فأكل القروي وجلس في مجلس العالم وأخذ يسأله عن مسائل شتى، حتى مضى شطر من الوقت، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القروي إلى الشوارع ويعود به إلى البيت. قاد الخادم القروي وصار يسير معه في الشوارع ورجع به إلى البيت فسأله العالم: ماذا رأيت؟ قال: «رأيت الشوارع مملوءة بالناس». فقال العالم: «ان الطعام الذي تناولته قبل ساعات مشتبه فيه، فيه الطاهر والخبيث. وان طعاماً مخلوطاً بالحرام أو النجس ليؤثر في النفس تأثيراً سيئاً وإن كانت النفس لا تعلم ذلك. فيخرج هذا الطعام الانسان عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسي، فلا تتجلى له الحقائق كما كانت تتجلى قبلاً. إلا أنك سترجع إلى حالتك السابقة بعد رجوعك إلى قريتك إن شاء الله».

* * *

نعم، لقد جاء في حديث: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا». ذلك لأن علاقتهم المادية: (هذه العلاقة التي تكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع(ترتفع مع الموت، فتتجلى، للروح المجردة عن المادة، الحقائق.

ويقال عن أحد المؤمنين أنه اشترى مقداراً من التمر من تمار. فلم ترقه تمرة واحدة، فاستبدلها بغيرها عند الانصراف دون أن يستأذن التمار. فلم يتوفق تلك الليلة إلى صلاة الليل ونام حتى الصباح. وقد رأى في ما يرى النائم أن رجلاً يقول له: إن تلك التمرة أثرت في نفسك فحرمت مناجاة ربك.

إن ظلمات بعض النفوس اليوم تعزى في الدرجة الأولى إلى تلوث المآكل

والمشارب بكثير من المحرمات، سواء باختلاط يحصل من جراء المعاملات الربوية في المصارف والبنوك أو بشراء بضاعة بصكوك يعلم معطيها أنها تنزل في البنوك حتماً بحساب الربح البسيط أو المركب، أو بكذب في المعاملات والعقود، حتى عند الزواج، أو خديعة عند عرض السلعة التجارية أو الجهل بما أمر الله في المعاملات، وعدم الحضور في مجالس العلماء للتفقه في المكاسب والمتاجر المحرمة إلى غير ذلك.

ومما لا شك فيه. أن كل خديعة أو تمويه أو كذب في مقدمات النكاح أو في الأوصاف التي يقع عليها الرضا بالزواج، لتؤثر في إتجاه النسل نحو اليمين أو اليسار.

يقول علي عليه السلام: «يا كميل أنظر فيم تصلي وعلام تصلي، فان لم يكن من وجهه وحله فلا قبول. يا كميل، القلب واللسان ينومان بالغذاء، فان لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكراً».

فالانجذاب إلى ما وراء الطبيعة والايمان بالغيب والاعتراف بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله أمر قلبي. سواء اعترف بهذه الحقيقة من سلك مسالك مادية أو لم يعترف. فلا بد من تعمير القلب (النفس) وتزكيته وتطهيره ليكون حرياً للاعتراف بما وراء المادة العمياء.

إن الله تعالى يقول: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾. (سورة آل عمران).

* * *

أنظروا إلى ما يقوله علي (ع) حين يسأله دعلب اليماني قائلاً: «هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟» فيقول عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى». فقال: «وكيف تراه؟». فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة تعنو (تذل) الوجوه لعظمته، وتجب (تضطرب) القلوب من مخافته».

يقول الحسين بن علي (ع) مخاطباً رب العباد: «سبحانك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك. عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً».

فالعالم مهما بلغ من العلم بأحوال الكون لا يمكن أن يؤمن إلا إذا طهرت نفسه وصلحت أعماله وطاب مأكله ومشربه. فيكون علمه إذ ذاك مؤيداً لعقيدته، يستدل به على خصمه. فقد جاء في الحديث: «البلاهة أدنى إلى الاخلاص من فطانة بتراء».

على أني لا أنكر أن كثرة الاطلاع في أحوال الكون والوقوف على أسراره وغوامضه وما أودع الله فيه من دقائق يزيد المؤمن إيماناً وتثبتاً ويمنحه خشوعاً وتقديساً لله تعالى. ولا يخفى أن لا بد هناك من نفس بلغت مرتبة ولو ضئيلة من الطهارة ومن إيمان يترشح من تلك النفس. فيرسخ هذا الايمان بكل ما يرى الانسان من مظاهر عظمة الله تعالى في ما خلق من أشياء مادية ونفسية، وقوى وطاقات ومعاجز وكرامات إلى ما هنالك.

فقد كان في جامعة بيروت الأمريكية أستاذ للفلك العالي، كان إذا تكلم عما أودع الله من معادلات وقوانين مدهشة في نظام الكواكب والأنجم، فاضت عيناه بالدموع، فيسأل عن السبب، فيجيب: لو رأيتم ما أرى لذبتم خضوعاً وخشوعاً لمن أقام هذا السماء بهذا الترتيب البديع الذي يحار في استقصائه أولو الألباب!.

* * *

قلت: أن العلم بأحوال الكون لا يولد العقيدة بل يؤيدها. ان الله تعالى يقول: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾. (سورة التوبة: ١٢٨).

فحال العالم بالعلوم الحديثة والجاهل بها في مقام الايمان على حد سواء. لأن القضية قضية استعداد في القلب وصفاء في النفس وخلوها من الكبر. ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله تعالى يقول: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾، وان الكبرياء وحده يجر الانسان إلى انكار المعاد، على حد قوله تعالى: ﴿وقال موسى: أني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾.

فإذا ادلهم القلب وتلوث، فلا قبول ولا إيمان، بل جحود وكفر. لذلك جاء في حديث قدسي: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة». فترون أن ينابيع الحكمة والمعارف الالهية إنما تفيض على الانسان من جراء الاخلاص والخشوع والخضوع والتذلل بين يدي رب العباد.

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

إن معرفة النفس طريق لمعرفة الخالق. فقد جاء في الحديث: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه». وعن علي (ع): «من عرف نفسه فقد عرف ربه». وقال المسيح (ع): «اعرف نفسك تعرف ربك». ونسأل الله تعالى أن يطهر نفوسنا حتى نتعرف اليها فنزداد معرفة بالله تعالى. وأني أختم هذا المقال بهذا الحديث ففيه الحكمة البالغة. فقد قال علي عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه... إلى أن قال: قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به. فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى. وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى. قد أبصر طريقه وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

فمفاد هذا الحديث حقيقة ما بعدها حقيقة. يعلم ذلك من وفق إلى تحقيقه، فسار في عوالم الكمال.

ولا تكامل لهذا الانسان إلا بالاسلام.

[إنتهى، ولله الحمد، الجزء الأول. وسيليه الجزء الثاني، إن شاء الله تعالى].

فهرس الجزء الأول

التكامل في الإسلام

يجد القارىء في هذا الجزء: أجوبة شافية رداً على مزاعم الماديين
وأدلة قطعية على وجود الصانع جل جلاله وما يفيد
الشباب في سيرهم التكاملي من عقيدة وعمل

بقلم
أحمد أمين
خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيّات العامّة والفيزياء الرياضيّة العالية

الجزء الثاني

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

لا مالَ أعودُ من العقل، ولا وحدةَ أوحشُ من العُجب، ولا عقلَ كالتدبير، ولا كَرَمَ كالتقوى، ولا قرينَ كحسن الخلق، ولا ميراثَ كالأدب، ولا قائدَ كالتوفيق، ولا تجارةَ كالعمل الصالح، ولا ربحَ كالثواب، ولا وَرَعَ كالوقوف عند الشبهة، ولا زهدَ كالزهد في الحرام، ولا علمَ كالتفكُّر، ولا عبادةَ كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حَسب كالتواضع، ولا شرفَ كالعلم، (ولا عزَّ كالحلم)، ولا مظاهرةَ أوثق من المشاورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد نفذت، والحمد لله، نسخ الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب في مدة وجيزة، مما يدل على أن الرغبة الدينية وحب الاطلاع على حقائق الاسلام متأصلان في النفوس، وأن الدين حاجة ملحّة للمجتمع لا يمكن أن ينفك عنه بحال من الأحوال وبأية قوة من القوى. وأن تساهل البعض في تطبيق الأحكام الشرعية وتعاليمها إنما هو أمر عارض يـزول باصلاح المجتمع من حيث التمسك بالفضائل والمكرمات ومراتب التقوى.

نعم، إن الدين أمر طبيعي ارتكازي فطري في روح البشر، لا ينفك عنه أحد إلا إذا غيّر الفطرة بالفسوق والعصيان. ولذلك عمدت كنيسة روما إلى ادخال الخمور والفجور في الأندلس العربية المسلمة بشتى الوسائل ليفر الدين من جراء تلويث النفوس. فيمكن الاستيلاء على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين. وقد نجحوا في ذلك وأصابوا الهدف.

فالرجل مهما أراد انتزاع نفسه عن الدين، لا يمكنه ذلك، إلا إذا سعى بشتى الوسائل في إذهاب أو إضعاف العقل الفطري، المرتكز فيه التوجيه الديني على حدٍّ قوله تعالى: ﴿فطرةَ الله التي فطر الناس عليها﴾.

استمعوا لما يقوله الامام موسى بن جعفر عليهما السلام، عن كيفية هدم العقل وانسحابه لهشام أحد أصحابه:

«يا هشام، من سلّط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه. وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه».

«يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك».

أنظروا كيف يصف الله تعالى العقلاء وأولي الألباب. فليعرض من شاء نفسه على مفاد هذه الآيات البينات، فإن وجد أن أعماله مصداق هـذه الآيات فليحكم: أن عقله يعمل عمله وهو غير منسحب عن فعاليته. وإن لم توافق نفسه وأعماله منطوق هذه الآيات، فليعلم أن عقله الفطري قد فارقه وانسحب عنه، وأن الشيطان تمركز فيه وحلّ محل العقل.

ان الله تعالى يقول: ﴿أفمن يعلم أنما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، ويدرؤون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾. (سورة الرعد: ٢٢).

فالعقل الطبيعي غير الملوث بالذنوب هو العقل الذي يعمل بكل ما جاء في الآيات الكريمة المتقدمة من صفات وأعمال. والذي يخالف بعض ما جاء في الآيات المتقدمة إنما هو ناقص العقل، والذي يخالف جميع ما جاء فيها إنما هو مسلوب العقل، هدم عقله بسوء اختياره وفساد أعماله[1].

ومن المؤسف أن أوربا لم تتشرف بالديانة الاسلامية. دين الحياة ودين تصفية النفوس استعداداً لـ «جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين». وقد توجهت اليها المسيحية المحرفة التي لا قواعد فيها لتأسيس دولة عادلة، فعارضت العلم واستبدت وضغطت على الحريات بأساليب لا تبررها

---

(١) وقد قال الله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾!.

المسيحية الروحية البحتة، فأدى ذلك إلى عداء بين العلماء المحدثين ورجال الكنيسة. وأخذ يستفحل هذا العداء حتى أدى إلى تبلبل في العقائد وفصل الدولة عن الكنيسة وبالتالي معاداة الكنيسة ونمو الالحاد والزندقة وظهور مذاهب مادية شتى، فأنجبت فلاسفة! ماديين أمثال: (فورباخ، بوخنز، نيتشه، شوبنهاور...).

ولو أن الفلاسفة الماديين استطلعوا تعاليم الاسلام وفلسفته العادلة التي تطابق المنطق الطبيعي ولا تقر نظرية الكبت في المسيحية، وجانبوا إلى حدٍ ما الطيش والشهوات المميتة للنفوس والمفسدة للمجتمع لتغيرت فلسفتهم ولأخذت تؤيد الاسلام كدين عالمي خالد.

وكم رأينا من الفلاسفة تغيرت وجهات نظرهم في مقتبل العمر وفي نهايته، فبعد أن كان أحدهم موحداً بالفطرة أصبح ملحداً، أو اهتدى من جديد فغدا موحداً.

فحين يقول أحد هؤلاء الفلاسفة: «إن الأخلاق الدينية تعارض ميول الانسان الطبيعية». إنما يعني الأخلاق الدينية التي تعلمها عن المسيحية المحرفة. ولو تتبع الدين الاسلامي لعلم أنه دواء الروح، وأنه دين يستجيب لكل الغرائز وجميع الميول بشكل لا يؤدي إلى فساد الدنيا والآخرة. وليس في الاسلام كما في المسيحية المحرفة: طبقة سيدة وأخرى مسودة. ولا يقر الاسلام الظلم والاضطهاد. بل جاء لرفعهما بقوله: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. وبقوله كما في الحديث: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»، ﴿ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى﴾. وأقر القصاص والديات بين جميع الطبقات.

ولو أن كنيسة روما كانت قد ساعدت على دخول الاسلام إلى أوربا وتابعت الواقع والحق، لرأيت بلاد أوربا من أحسن بلاد الله تطبيقاً لتعاليم الاسلام في السياسة والعلم والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما وجد الالحاد طريقه إلى مدارس الغرب.

وعسى أن يستيقظ العالم في يوم من الأيام من رقدته وينتبه من سباته تاركاً العصبية العميـاء وراء الظهور، فيعتنق الدين الاسلامي ديناً عالمياً كما تنبأ بذلك (برنارد شو) مطبقاً إياه في جميع شؤون الحياة حتى يصل إلى طمأنينة وحياة وادعة، لا في الدنيا فحسب، بل بعد الموت أيضاً في عالم خالد يستمر ملايين السنين.

وليس الاستدلال الفلسفي أو على حد تعبير البعض: (العلمي!)، إلا رشحـات النفس الانسانيـة، سواء أكـانت متكاملة أم متسـافلة. فـالنفس المتسافلة فلسفتها فلسفة رجعية أي هي فلسفة تعاكس الفطرة، تعاكس ما أودع الله تعالى في نفس الانسان من توحيده والاعتراف بعظمتـه، وترك الظلم والجور والبغي. والتعاطف والتراحم[1]... الخ. وهي تبرهن، على ما تزعم بطرق علمية على أنها في طريق الحق وعلى صراط مستقيم وما عداه ضياع وكبت!؟...

والنفس المتكاملة، أو بالأحرى: النفس السائرة نحو الكمال، فلسفتها فلسفة بناءة، متكاملة، وبراهينها براهين توافق الفطرة وتطابق الواقع والعقل الفطري غير الملوث بالاجرام والفسوق.

فحالة النفس من حيث التكامل والتسافل تسبق موضوع الدليل والاستدلال مهما سمي علمياً أو فلسفياً... فيجب قبل أن ينظر في الدليل أو سير الاستدلال، أن ينظر في حالة الفيلسوف النفسية وأخلاقه الشخصية مع ذويه وأصدقائه، وصفاته الكمالية في صغره وبعد كبره، كما يُفعل مع الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين.

ذلك لأن الفلسفة ليست بشيء ثابت ثبوت الرياضيات البحتة، حتى لا تقبـل التحريف والانحـراف. فـطريق الحق والـواقـع واحـد لا يتعـداه،

---

(١) عن أبي عبد الله (ع): «من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها فمنعه إياها، قال الله عز وجل: ﴿ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، فعزتي فلا يسكن جناني أبداً﴾.

والفيلسوف الحقيقي المتكامل، هو الواجد لهذا الطريق المستقيم الذي لو انحرف الانسان عنه قيد شعرة لما أصاب الواقع في الصميم.

وإن التجارب تدل على أن الشخص إنما يصل إلى عقيدة فلسفية خاصة حسب درجة صفاء نفسه وأخلاقه وسلوكه في سره وعلنه وفي ظروف مختلفة. ففلسفة الفرد هي رشحات نفسه من حيث النعمة والكمال. والعقيدة هي عصارة السلوك الشخصي وغايته. وان هذه الحقيقة لمن أهم المواضيع الفلسفية التي يجب أن يُعنى بها المفكرون من فلاسفة وعلماء، كي لا ينخدعوا بفلسفة المتفلسفين وهراء المتطفلين، دون تمحيص للنفسيات والصفات المتغلغلة في النفوس في ظروف مختلفة وما تجترح الأيدي من ذنوب وآثام. وهذا هو السر في تحتيم طائفة من المسلمين: (العصمة) في الأنبياء (ع) والأوصياء (ع) من بعدهم. فبالعصمة يعلم أن ما يترشح من المعصوم صاف نقي لا كدر فيه.

على أنا نعترف أن الفلسفة المادية لا تقيم وزناً للغذاء الروحي ولا ترى قيمة للنفس الانسانية وحاجاتها الطبيعية من سمو وكمال، فالنفس الانسانية في نظرها كالخشبة الجامدة لا تحتاج إلا إلى صبغ وتدهين!.

والحقيقة الثانية التي يجب أن يُعنى بها الفلاسفة والمفكرون، ان النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقتراباً طبيعياً، (لا لأغراض خاصة مؤقتة) حسب درجاتها من الكمال أو التسافل. فالنفس الشريرة تميل إلى مثلها والنفس الطاهرة تميل إلى مثلها أيضاً مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل. وقد قالوا قديماً:

«عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي»

ولقد جربت ذلك في حياتي وتتبعت الموضوع بشتى جوانبه عند كثيرين، فوقفت على صدق ما أذهب إليه. ولعل للنفوس خطوطاً مغناطيسية أو مجالات كهربائية من نوع خاص غير مادي. تختلف من حيث نوع الخطوط أو المنحنيات حسب الصفات والخصال، أو حسب درجات التكامل أو التسافل فتميل بعضها إلى بعض أو بعضها عن بعض، كالابرة

المغناطيسية بالقرب من ابرة مغناطيسية أخرى. ذلك لأن العالم حسب آخر ما توصل اليه العلم المادي مجموعة من قوى جاذبية ومغناطيسية وكهربائية، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. وقد خلق الله تعالى أيضاً عدا هذه القوى المادية، أنواراً مختلفة وقوى متنوعة لا تمت بالمادية في شيء «الله نور السموات والأرض». وان لكل نفس فلسفة (على ما قدمنا) تتناسب ودرجة تكاملها أو تسافلها. وهي تصر على صحة فلسفة تتبناها وتبرهن عليها بشتى البراهين. وتظهر لها أن هذه البراهين صحيحة، لأنها توافق ما عليه نفسه من ضعة أو كمال. وليست هذه البراهين بدساتير رياضية كي يرى الخطأ واضحاً فيها أو في تطبيقها. فيلفق هذا الفيلسوف في البرهان ويأتي بمقدمات باطلة ويبني عليها بناء أوهن من بيت العنكبوت. انها هي نفسه والبراهين هي من نوعها. بل هي هي...

فلسائل أن يسأل: إذن، كيف يتجلى الحق والواقع؟ يتجلى الحق والواقع بعد الاطمئنان بكمال نفس الفيلسوف (أو معطي النظرية) أو سيرها في عوالم التكامل وتحليتها بالفضائل والمكرمات المتفق عليها عند العقلاء والأفاضل: كالصدق والوفاء وعدم الغيبة أو النميمة، وحب الخير والقيام بحاجات الناس لوجه الله، وعدم الانحراف عن الفطرة: أي الايمان بالله الخالق المتعال...

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ونفس وما سوَّاها، فألهمها فجورها وتقواها﴾. فالفضيلة والرذيلة أمور ارتكازية راسخة في النفوس، مهما كانت هذه النفوس بدائية، يشعر بها فاعلها عند القيام بها من ارتياح أو انكماش، ولكنه لو ثابر على الرذيلة تصبح هذه طبيعة ثانية، ووجداناً ثانوياً (Conscience) بانسحاب العقل، فلا يشعر فاعلها إذ ذاك بعتاب وجداني أو وخزة الضمير كقاطع الطريق. وقال تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾. وحاشا لله أن يريد بعبده التسافل. إنما ينسب هذا الرد إليه، لأنه تعالى هو الذي سن هذا القانون العام، على حد قوله تعالى: «فلما زاغوا[1]

(١) عدلوا عن الحق ومالوا عنه.

أزاغ[1] الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة الصف: ٦).

وإن علم النفس الحديث أو بالأحرى: علم آثار النفس يقول بانحراف الوجدان أو الضمير(Conscience) من وقت إلى آخر، حسب البيئة والأعمال التي يقوم بها الانسان، فبعد أن كان يرى السرقة رذيلة، يراها بعد ممارستها طويلاً فضيلة ومكسباً. ونحن نقول عندما كان يرى الوجدان السرقة رذيلة كان الحاكم هو العقل الطبيعي وبعد ممارسته السرقة طويلاً انسحب العقل وحلَّ محله الشيطان والنفس المطيعة له، فصار يرى الرذيلة مكسباً وفضيلة.

وأنت أيها القارىء الكريم، سترى في فصول هذا الكتاب بعض حقائق الاسلام: دين الحق والفطرة. فتتجلى لك عظمة الاسلام فتشكر الله إذ ذاك على ما منَّ عليك وعلى البشر أجمع بهذا الدين الحنيف والشريعة السمحاء: دين الكمال البشري الخالد.

وأختم هذه المقدمة بخطبة لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومقتدانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد خطب ذات يوم، فقال:

«أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم. وان لكم نهاية، فانتهوا إلى نهايتكم. ألا أن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى، لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة والنار».

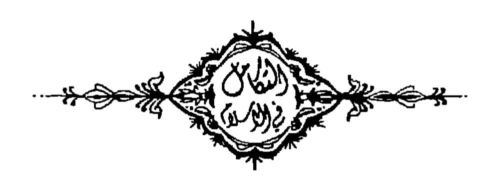
وأورد أيضاً هذين الحديثين، ليعلم ان الاسلام، (وإن لم يعمل به المسلمون!)، قد عالج القضايا الاقتصادية، بشكل يؤدي إلى تكامل النفس والسير في عوالم الكمال والتقرب منه تعالى. لا ضغط فيه ولا إجبار، ليربي النفس الانسانية تربية تكاملية واقعية ويحقق لها (الاختيار). ليستند الثواب والعقاب على اختيار الفرد.

---

(١) تركهم وسوء اختيارهم.

قال رسول الله (ص): «ان الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم».

وعن أبي عبد الله (ع): «أيما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله وهو محتاج إليه، لم يذقه الله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم».



أفي الله شك فاطر السماوات والأرض

إن كان هناك شيء من أوضح الواضحات وأجلى البديهيات فهو: وجود الله تعالى، الموجد لهذه النفوس والمعطي لها هذه القابليات الخارقة البديعة. فالطفل يشعر بهذا الشعور: وهو وجود موجد له وصانع، لما يرى حوله. ذلك، لأن الله تعالى قد أوجد فيه قابلية التفكير. فهو إذا بلغ السنة الرابعة أو الخامسة، يبدأ، فيسأل: لماذا؟ ولأي سبب؟ من صنع هذا؟ من أوجد هذا؟ ومِن أين وُجد ذاك؟.

إن الله تعالى قد أتم الحجة على عباده بأن غرس فيهم قابلية التفكير وإرجاع الأشياء (المسببات) إلى أسبابها. فالطفل على سذاجته وطبيعته الفطرية يعترف بوجود خالق له. كيف لا، وهو يرى أن ليس له أن يتصرف في نفسه وهو في غاية العجز وأنه لم يصنع عضواً من أعضاء بدنه. ثم أن الله قد جهز عقله بارجاع كل معلول إلى علة. وكل مسبب إلى سبب. وهو القائل: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» أي ان الانسان بالفطرة وبصورة طبيعية يعترف بوجود خالقه وموجده. ولذلك، سُمِّي دين الاسلام بدين الفطرة، أن أن كل ما فيه فطري وضروري، يعترف به العقل بصورة طبيعية ارتكازية. وان هذا الاعتراف بوجود الخالق شيء مرتكز من قبل الله تعالى في عقل الانسان منذ نعومة أظفاره. وعدا ذلك، فان الله بقوله جل من قائل:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣)، قد أتمّ الحجة على عباده.

فحسب مفاد هذه الآية المنيفة: ان الله تعالى قد أحضر في عالم الذر

كل انسان ذكراً أو أنثى وجعلهم شهوداً على أنفسهم وأخذ منهم الاعتراف على وجوده ووحدانيته. بقوله: الستُ بربكم. فقالوا: بلى. شهدنا.

أي: أخرجهم الله من أصلابهم على نحو توالدهم نسلاً بعد نسل إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرَّفهم نفسه وأراهم صنعه كما جاء في بعض التفاسير. وإنما فعل ربنا جل جلاله ذلك كي لا يقول قائل: أنا كنا عن الاعتراف بوجود الله ووحدانيته غافلين، أو يعتذر المعتذر عند الاشراك أو الكفر بالله وبما أنزل قائلاً: «إنما أشرك آباؤنا»، وأما نحن فـ(كنا ذرية من بعدهم)، فلا ينبغي أن نعاقب ونهلك. قالوا ذلك اعتراضاً على الله وختموا مقالهم بقولهم: «أفتهلكنا بما فعل المبطلون». أي أن آباءنا قد أشركوا وذهبوا مذهباً باطلاً، فما ذنبنا حتى نهلك؟.

وقد قال بعض المحققين: ان في قوله تعالى: «ألست بربكم». إشارةً لطيفة: فانه سبحانه استفهم الاقرار منهم بربوبيته لا بوجوده، تنبيهاً على أنهم كانوا مقرين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم.

نعم، ليس لأحد أن يعتذر بهذا العذر. وأن يقول: أني أتبعت دين أبي وأمي، فصرت أدين بما دانوا أو أشركت «والعياذ بالله»، لأن أبي كان مشركاً. وانكرت وجود الله، لأن أبي كان منكراً لوجود الله. فان مخالفة الفطرة أمر يأتيه الفرد من تلقاء نفسه وسوء اختياره. بل لافساده سريرته وطبيعته الفطرية المتوجهة إلى الحق والواقع بالفطرة.

انظروا، ماذا يقول علي عليه السلام. أنه صلوات الله عليه يقول: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده». هذا غاية ما يبلغ الانسان من معرفة ربه، إذا كان قد بلغ من طهارة النفس مرتبة من مراتب الكمال. ومن مثل علي (ع) في ترويض النفس وتكميلها. فقد كان يغمى عليه مرات في الليل من خوف الله تعالى.

إن الانسان ليعصي ربه باختياره وإرادته، دون أن يجبره على ذلك أحد. أنه يفسق ويظلم ويبغي وينهب أموال الآخرين ويهتك أعراضهم. أنه يكذب، ويغتاب، فيفسد في الأرض، ثم لا يرتدع ولا يتوب ولا يندم. وقد

يكون ما يدخل في جوفه ليس من مورد حلال طيب لسوء اختياره. كل هذه ترين على نفسه وقلبه وعقله ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾، فتفسد لوحة نفسه الصافية البيضاء. فتصبح مظلمة حالكة دكناء. لا تبصر الحق ولا تعي. فهذه الذنوب وتلكم المعاصي تمسي حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، ثم أن الشيطان له بالمرصاد، فيمنيه حسن العاقبة وأنه على صواب من أمره. انه تعالى يقول:

﴿ومن يَعش[1] عن ذكر الرحمن نقيض[2] له شيطاناً فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين﴾[3].

فالله تعالى يجعل لأولئك الذين تمادوا في غيهم وبغيهم وظلمهم وفجورهم وفسوقهم ولم يعقبوها بتوبة وعمل صالح، قرناء من الشياطين يصدونهم عن السبيل، لأنهم بلغوا مرتبة من التسافل لا يجدي معها أي توجيه وارشاد. ثم أنه يطمئن إلى ما هو عليه من مذهب أو مسلك جديد. فيزعم أنه قد بلغ مرتبة سامية من الهداية. وانه كان قبل هذا في ضلال وخرافة، يحمل عقائد سخيفة، أولدتها جهالة القرون الأولى وسذاجة عقولهم، وها هو في عصر الذرة. حين أن بركسون(Bergson) الفيلسوف الفرنسي الموحِّد الذي أتعب نفسه في العلوم الرياضية برهة من الزمن، عندما ينظر إلى تلك المعادلات والخوارق في الذرة، يقول: ان الله موجود في الذرة، يبدعها إبداعاً، وينظمها تنظيماً.

فـ(بركسون) عندما يرى في الذرة حركات في غاية الحكمة لا ربط لها بالصدفة. يذعن أن يداً ربانية موجودة في الذرة نفسها، تعمل في هذا الترتيب الحكيم.

نعم، أن الأخلاق المذمومة، الكذب والأفك والآثام، على اختلاف

---

(١) أي ومن يعم.
(٢) نقدر ونتح.
(٣) سورة الزخرف: ٣٧.

أنواعها، تجعل للشيطان مجالاً للولوج في نفس هذا الانسان الذي سلك طريق الغواية والضلالة بأعماله. فتجعله منكراً للبديهيات وأولها: وجود الخالق جل جلاله.

انه تعالى يقول: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم، يُلقون السمعَ وأكثرهم كاذبون﴾. (سورة الشعراء).

فإذا استولى عليه شيطانه يكون الهه هواه على حد قوله تعالى:

﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا﴾. (سورة الفرقان).

نعم، إن التمادي في الظلم يؤدي إلى الظلمات، فيزيح عن الانسان الاعتراف بأوضح البديهيات وهو وجود الله تعالى. ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾. (سورة الروم).

انه ينسى أن أبيقور(Epicure) وهو الفيلسوف اليوناني كان ينكر وجود الخالق ولا يعترف بما وراء الطبيعة وذلك قبل الميلاد بـ (٣٠٠) سنة.

أسفاً على الفلسفة حين يُدعى منكر أوضح البديهيات فيلسوفاً! نعم، كان لهذا الملحد (أبيقور) أتباع ملاحدة منحرفون.. كل ذلك لتبديلهم الفطرة (لوحة نفسهم البيضاء) بآثام وأجرام وفسوق وفجور وشهوات ونزوات، إلى نفسية جاحدة جامحة، لا ترى الحق ولا تبصره.

هذه حقيقة من أوضح الحقائق. فليجرب علماء النفس وليتتبعوا أحوال الناس، كي يروا صدق ما أقول. فالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ومراعاة حقوق الآباء والأمهات والأرحام تؤدي إلى الاعتراف بوجود الخالق والتوجه إلى الدين الصحيح، ذلك الدين الذي يدعمه العقل ولا يختلف معه في شيء، ذلك الدين الذي لا يحيد عن المنطق الصحيح قيد شعرة. فان المسلك الذي يختاره الانسان أو الدين الذي يكون عليه إنما يتناسب مع درجة طهارة نفسه وكمالها. ان الله تعالى يقول: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، من يعمل سوءً يجزَ به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا

نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾[1]. (سورة النساء).

إن المنطق الانساني يبقى ثابتاً في حل المعادلات الرياضية أو الفيزيائية أو المحاكمات الهندسية... الخ. أي في كل ما يتعلق بالأمور المادية الحسية. ولكن هذا المنطق يحيد عن الطريق السوي والاعتراف بالله عند الزيغ والانحراف عن السبل القويمة واجتراح السيئات، أي أن العقل الفطري يكون محجوباً عند اسوداد النفس وإدلهمامها. فيقوم مقامه عقل شيطاني، يملي على هذا المسكين المنحرف ما يشاء: من إنكار الخالق وعدم بعث الأنبياء وعدم الاهتمام بأمر الصلاة والصوم والزكاة والخمس. إلى ما هنالك. وقد قال الله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، أنا جعلنا على قلوبهم أكِنة[2] أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا[3] وان تدعُهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبدا﴾.

إن الله تعالى يتم الحجة على عباده بتذكيرهم بآياته وما يجب عليهم أن يقوموا به. ولكنهم يُعرضون منكرين. فيفسقون ويفسدون، فتظلم نفوسهم وتدلهم قلوبهم فتكون إذ ذاك محجوبة عن رؤية الحق والواقع كأن عليها أغطية وكأن في آذانهم وقراً وصمماً، فلا يفقهون الحق ولا يرون الواقع البديهي. فلا تفيد فيهم الهداية مهما دعوا. فيأتي إذ ذاك، دور الاستهزاء بالمقدسات، وما أنزل الله من أوامر ونواهٍ. فقد قال تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. (الروم: ١٠).

﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا يستهزئون﴾. (سورة الزخرف).

قلنا أن الانسان ليتسافل لسوء سريرته وفساد أعماله وعقوقه وشروره الخ... الى مرتبة يختم الله معها على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة كي لا يبصر الحق. وذلك، لأنه أمسى جرثومة فساد لا تطهره إلا نار جهنم.

(١) النقير هي النقرة التي في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف.

(٢) أكنة: أغطية.

(٣) وقرا: صمما.

فإذا تدهور الانسان إلى هذا الحضيض كان من المنكرين لوجود الخالق، على أن له تعالى في كل شيء آية تدل على أنه واحد لا شريك له. لذلك يقول الله تعالى في سورة الجاثية:

﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾.

نستجير بالله من هذه المرحلة أو الهوة السحيقة. نعم، ان الله تعالى لا يضل فرداً من الأفراد إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع الهداية والارشاد بعقله الفطري أولاً وبأنبياء ومرسلين وكتب سماوية ومرشدين ثانياً، فان أبى وكفر واتبع الطرق الشيطانية من فساد وإفساد، يسد إذ ذاك على نفسه أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. ان الله بكل شيء عليم﴾. (سورة التوبة).

أجل: ان الافك والاثم وارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه يؤدي إلى الكبرياء ومن ثم إلى الاستهزاء بالمقدسات على حد قوله تعالى:

﴿ويلٌ لكل أفاك[1] أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾. (الجاثية: ٩).

وقد يؤدي ذلك إلى الاستنكاف من سماع ذكر الله وآياته على حد قوله تعالى: ﴿أنهم كانوا إذا قيل لهم لا اله إلا الله يستكبرون﴾.

فقد لاقيت شخصاً في احدى العواصم الاسلامية قبل حوالي ثلاثين عاماً كان يشكو أذان الصبح عند الفجر. كان يقول: ان هذا المؤذن في هذا الجامع يوقظني بأذانه عند الفجر من نومي. أليس هناك رادع أو مانع! نعم، ان من يقضي ليله في سفاسف الأمور ويسهر في أمور باطلة إلى بعد منتصف الليل، في أمور تذهب بدينه ودنياه، يريد أن ينام عند الفجر إلى بعد طلوع الشمس بساعات. وقد يأتي إلى فراشه ثملاً، لا يعي ولا يشعر، قد تلوثت نفسه بهذا

---

(١) كذاب.

المسكر الذي أقل ما يفعله بالشخص أنه يزيل إيمـانه بـالمقدسـات ويجعله يستهزىء بها، ففي الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن». أي: أن المثابرة على استعمال المسكرات تؤدي إلى إنكار المقدسات، فيترك شيئاً فشيئاً عبادة الخالق جل جلاله ويؤول أمره إلى عبادة المادة وحب الدنيا الفانية، فيكون كمن عبد الأوثان. أي يرجع بمدمن الخمر إلى جاهلية جهلاء. «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون»[1]. نعم، قد يؤدي بهؤلاء الأشخاص الحال: أنهم يستعضون من سماع ذكر الله وآياته. فيكونون مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿وإذا ذُكر الله وحده إشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾. (سورة الزمر: ٤٥).

إن الله تعالى كما في الآية الآتية يحصر الاعتبار بالآيات والاتعاظ بعصارات العلوم الطبيعية وما خلق الله في هذا الكون من عجائب وما وضع من دساتير وقوانين، في من كان متصفاً بالصبر والشكر. انه يقول:

﴿ألم ترَ أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته. ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[2].

وقد جاء في الحديث: «الايمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر». ولا يعلم معنى هذا الحديث وأثره في تكامل النفس إلا من جرب ذلك وأخذ يسير في ميادين تطهير النفس وتزكيتها. ولكن من تسـافلت نفسه وتلوثت بأنواع المظالم والموبقات يرى الحق باطلاً والباطل حقاً. فيتذرع تبريراً لموقفه بالمنطق الحديث! ظناً منه أن الدساتير الأخلاقية تتغير حسب ميول الناس وشهواتهم. فإذا تسافلوا، فما هم عليه من التسافل في الأخلاق هو المنطق! لكنه: حديث وجديد! لزعمهم أن لكل زمان منطقاً! ان هذا النـوع من الاعتقاد ناشىء عن الاعتقاد بان الله تعالى لم يرسل نبياً لتكامل الانسان ورفع نواقصه، وأن البشر يسير حسبما يحب ويرى فلا تسافل ولا تكامل! بـل

---

(١) السجدة: ١٨.

(٢) سورة لقمان آية: ٣٠.

التكامل ما عليه الناس في كل وقت. عادات مهما كانت متسافلة في متن الواقع.

هناك فرق بين المنطق(Logique) وما عليه الناس من عادات وأفكار مملوءة بالشهوات: (Mentalité) أو الذهنية. فان المنطق يجري في حل المسائل الهندسية والفيزيائية والكيميائية، وقد أودعه الله تعالى في الانسان تفضلاً منه ورحمة ولا تبديل يعتريه. ولكن العادات والذهنية الحاكمة وما عليه الناس من أخلاق تتسافل وتتكامل وتتغير، فلا يجوز أن يعبر عنها بالمنطق الحديث والمنطق منه براء.

ولقد سمعت وأنا أدرس في الجامعة من أحد المهوسين المدافعين عن أخلاق الغرب مدحاً كثيراً، لا سيما عن الحرية التي شاهدها في حياتهم. وذكر لي شاهداً على صحة قوله: أن رجلاً من رجال الغرب كان يفسق في غرفته، فاستأذن عليه صديق له، فأذن له بالدخول. ودخل، فلم يكترث ولم يرتبك كأنه يقوم بعمل طبيعي، ذلك لأن الفسق في نظره عمل طبيعي: أهذه حرية أم سلوك بهيمي؟!

إن سنن الكمال ثابتة لا تغير فيها حسب الزمان والمكان. سواء ارتضى الغربي أو لم يرتضِ. فليس هناك مجال للقول بالمنطق الحديث والمنطق القديم. فلا قديم ولا حديث. والحق ثابت على لسان الأنبياء (ع).

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾. (سورة الأعراف: ٢٥).

فطوبى لنفوس تقيدت بالفضيلة وسارت بارادة وعزم رصينين في ساحات الكمال لتصل إلى الغاية التي قد خلقت لأجلها ولم تتأثر بزخارف الغرب ومدنيتها المادية الشهوانية، فزادت إيماناً بخالقها وبارئها.

* * *

وكم قرأنا في تاريخ الاسلام: أن أناساً أسلموا بمجرد سماع آيات الله البينات: القرآن الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، فقالوا:

ما هذا بكلام الآدميين، وإنما هو كلام سماوي أنزله رب العالمين. كل ذلك لصفاء في نفوسهم وفطرة لم تتلوث بالظلم والموبقات.

وهذا خير دليل على أن الانسان لو خلي ونفسه ولم يلوث نفسه بالجرائم والموبقات يعترف بخالقه وبكل ما أنزل الله، بصورة فطرية. ويرى ذلك من أوضح الواضحات ومن البديهيات، ولا يشك في ذلك قيد شعرة، على حد قوله تعالى: ﴿أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض﴾. الا أن الذنوب وعلى رأسها الخمور تؤدي به إلى هذا الجحود أي مخالفة الفطرة. فقد جاء في الحديث القدسي: «وكل عبادي خلقتهم حنفاء، فأحتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروا بأن يشركوا بي غيري».

وقد جاء في بعض ما نشر عن أسباب استيلاء الغربيين على الأندلس: أن كنيسة روما كانت مضطربة أيما اضطراب من جراء دخول المسلمين الأندلس وانتشار الاسلام في تلك الأصقاع. فكانت تعقد الجلسات والاجتماعات لمعالجة هذا الأمر. حتى استقر رأيهم على أن يرسلوا كميات وافرة من الخمور بصورة سرية إلى الأندلس وأن يؤسسوا تحت الأرض معامل سرية لاستحصال الخمر، فيقدموا للمسلمين ولا سيما رجال الحكم الخمرة بثمن بخس أو متبرعين. فانتشرت الخمرة بين المسلمين، لا سيما أصحاب النفوذ والثراء، وانتشر نتيجة لذلك الترف والفساد بأنواعه، فضعفت العقيدة وذهبت الغيرة والتضحية في صيانة الدين وصيانة وطن المسلمين. وكانت نتيجة ذلك أن ارتحل الدين الاسلامي من أسبانيا وأصبح في خبر كان.

نعم، ان الاعتراف بوجود الخالق لمن أوضح الواضحات وهو من أشكل المشاكل وأوعرها لو تدنست النفس بفجورها وخمورها، بغيها وظلمها.

* * *

أنظروا إلى دكارت (René Descartes) وهو الفيلسوف الفرنسي الرياضي (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) كيف توصل إلى وجود الخالق جل جلاله، لعدم تلويثه نفسه بما يبعدها عن الاعتراف بأوضح الواضحات.

انه شك أولاً في وجود نفسه، فقال: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». ثم

قال: ان لدي فكرة الكمال وأنا غير كامل، فلو كنت مخلوقاً من قبل ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملاً، لأنني أمتلك فكرة الكمال، ولأن إعطائي لذاتي ضروب الكمال، سيكون ولا ريب، أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم، وبما أني غير كامل، فأنا إذن، لم أخلق نفسي بنفسي».

يقول علي عليه السلام عن الله تعالى: «شيء لا كالأشياء» ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يشبه ما نراه من الأشياء أو نتصورها.

يستنتج من كلام علي (ع) ما يلي: أنا محدود، فعليه يجب أن يكون الله تعالى غير محدود. ذلك لأن المحدودية قيد ولا بد أن يكون هناك من يقوم بهذا التحديد. والله جل من أن يحده أحد أو يحده شيء وهو خالق الأشياء وسابق عليها[1]. ثم ان علمي محدود. وعلمي من الله تعالى، ولولا إعطاء الله إياي القوى العقلية والفكرية لما علمت. فيجب أن يكون علم الله تعالى غير محدود. لأنه الكمال المطلق. ولا يشبهه شيء. وهكذا نقول في قدرة الله تعالى: ان قدرتي محدودة، إذن قدرة الله تعالى غير محدودة ولا تتناهى. أنا أبصر بعين والله تعالى هو معطي العين وهو لا يشبهني في شيء ولا يحتاج إلى آلة لأنه هو خالق الآلات، إذن، لا يحتاج الله تعالى في الابصار إلى عين (أي إلى آلة). وقد جاء في الأدعية الرجبية: «يا من لا يُنعت بتمثيل، ولا يمثل بنظير، ولا يُغلب بظهير».

ويستحيل على العقل أن يعترف للخالق بخالق آخر، إذ لا بد من خالق أزلي لم يُخلق، لا يحده زمان وهو خالق الزمان والمكان وموجدهما، كان قبل أن يكون شيء غيره.

قيل لعلي بن موسى الرضا عليه السلام وهو الامام الثامن من الأئمة

---

(١) وقد جاء في دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا موصوفاً بغير كنه، ومعروفاً بغير شبه، حاد كل محدود، وشاهد كل مشهود. وموجد كل موجود، ومحصي كل معدود، وفاقد كل مفقود، ليس دونك من معبود. أهل الكبرياء والجود، يا من لا يكيف بكيف، ولا يؤين بأين. يا محتجباً عن كل عين. يا ديموم، يا قيوم وعالم كل معلوم».

الاثني عشر المعصومين (ع): يا ابن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟ قال: «أنت لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تكوِّن نفسك، ولا كونك من هو مثلك. وقال عليه السلام: «أني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه، وجر المنفعة اليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً بناه، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً منشئاً».

إن هذا المادي المتطفل على العلم، والعلم منه براء، يريد أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء، يريد من شخصيته المحدودة في كل قابلية وفي كل ملكة، المحدودة في الجسم والنفس. يريد منها أن تحيط بخالقها الذي لا تتناهى كل صفة من صفاته التي هي نفس ذاته.

ما أعظم هذه الفقرات من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا من سما في العز ففات خواطر الأبصار، ودنا في اللطف فجاز هواجس الأفكار، يا من توحد بالملك فلا ند[1] له في ملكوت سلطانه، وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه. يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون ادراك عظمته خطائف أبصار الأنام».

أترى أن ذرات التباشير على السبورة تشعر بتشكيلات أعضاء من رسمها على السبورة، تشعر بعقل الراسم ونفسه ومحاكماته، هل لهذه الذرات (ذرات التباشير) أن تحيط براسمها ومصورها. كلا... على أن الراسم على السبورة لم يكن قد أوجد ذرات التباشير من العدم والموجد لها غيره وهو الله تعالى، بل رتب الذرات أو الأجزاء بشكل آخر. (مع عدم جواز التشبيه). فكيف بهذا الانسان المغرور، يريد أن يحيط بخالقه الذي أوجده من العدم. كان نطفة، فعلقة، فمضغة... الخ. وقد سار في أدوار التكامل التكويني مراحل عديدة جداً كما رسمها الله، وقف على بعضها العلم الحديث.

إن الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في الانسان. ولكن هذا الانسان

---

(١) الند: المثل، جمعه: أنداد.

بارتكابه المعاصي وباتباعه أوامر الشيطان يحيد عن الفطرة، فينكر خالقه ويتخذ لنفسه مما صنع بيده آلهة، فيعبد الأوثان والحيوانات إلى ما هنالك.

لذا يسأل أتباع موسى (ع) نبيهم موسى (ع) أن يجعل لهم الهاً!

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون[1] على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال أنكم قوم تجهلون. ان هؤلاء متبر[2] ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾. (سورة الأعراف: ١٣٤).

سئل اعرابي عن الدليل على وجود الصانع (الله)، فقال: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على الصانع الخبير».

وسئلت عجوز عن الدليل على وجود الصانع، فقالت: دولابي هذا، إن حركته تحرك وإن لم أحركه سكن.

كل ذلك لأن فكرة الاعتراف بوجود الخالق مرتكزة في النفس الانسانية من القديم. أي أن الله تعالى ودع هذه الفكرة في النفس الانسانية عند خلقه إياها. فهي إن لم تتلوث تعترف لا محالة بخالقها بالفطرة. وان هذا الاعتراف أمر فطري خارج عن ارجاع المعلول إلى العلة. على أن الطرق لمعرفة الخالق كثيرة جداً وأهمها ارجاع المعلول إلى العلة. فالانسان المفكر (غير الملوّث فطرته) لا بد وانه يؤمن بموجد أزلي لم يوجده شيء وهو الله الكامل على الاطلاق. لا يشابه ما خلق في شيء من الأشياء.

ولولا إيداع الله تعالى في العقل الانساني ملكة البحث عن علة الأشياء لصعب علينا السير في ساحات العلم. ولكن هذا البشر العادي عندما يلوث نفسه بالمعاصي والموبقات، يحجب عقله الفطري الذي يعترف بعظمة خالقه وكمال صنعه بصورة طبيعية، فلا تفيده الأدلة ولا ربط المعلولات بعللها. على حد قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (سورة التوبة: ٦٨). وقوله تعالى:

---

(١) يعكفون: يقيمون ويلازمون.

(٢) متبر: مدمر ومهدم.

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ (سورة الكهف: ٢٨).

وقد يسأل بعضهم: لماذا يسد الله تعالى على بعض عباده أبواب الهداية. ذلك، لأن نفوس هؤلاء تبلغ من التسافل والانحطاط مرتبة لا ينفع معها أي ارشاد ووعظ. فتستحق الخذلان، فتسد عليهم أبواب الهداية. ان الله تعالى يقول: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون﴾. (سورة الأنعام: ٢٨).

ومع الأسف، أن طبقة الضالين والمنحرفين هم أكثر عدداً على وجه البسيطة من المؤمنين بالله تعالى. فانه تعالى يقول: ﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾[1]. ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. (سورة يوسف: ١٠٣).

أسفاً لبعض هؤلاء الذين قد بلغوا مرتبة مرموقة من ثقافة العصر، ثم هم ينكرون أوضح ما في الوجود، ألا وهو الله تعالى، لأدلهمام في النفس وظلمات بعضها فوق بعض. ولأنهم (مع مزيد الأسف) قد بلغوا مرتبة من تسافل النفس من جراء ما ارتكبوا من موبقات حتى صاروا لا يشعرون بما هم فيه من انحطاط نفسي مرير. ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم أن كيدي متين﴾. (سورة الاعراف: ١٨٢).

* * *

يقال عن بعض الفضلاء أنه لما أراد أن يكتب رسالة في إثبات وجود الخالق (واجب الوجود)، قالت له زوجته: ماذا تريد أن تكتب؟ فقال: أريد أن أكتب رسالة في إثبات الخالق. فقالت له: «أفي الله شك فاطر السماوات والأرض». فعدل عن تأليف ما أراد.

نعم، ان نفس هذه الأمرأة كانت صافية نقية، لم تلوث بكثير من

---

(١) الانعام: ١١٧ . . . (يخرصون: يكذبون).

المعاصي والآثام. ومن أين كانت تأتي الذنوب إلى بنات كن يتربين تربية دينية في البيوت ثم ينتقلن إلى بيوت أزواجهن دون أن يشاهدن رجالاً آخرين. فهل كان يأتيهن الذنوب من جراء التبرج ومخالطة الشبان أم من جراء الحضور في مجالس القبول مع ما هنالك من ميسر ورقص واستماع إلى الأغاني المحرمة و. . . أم من جراء الحضور في مجالس اللهو واللعب. أم من جراء الاتصال بالرجال في حدائق عامة حتى الصباح حيث تطفأ المصابيح! لذلك كانت تبقى النفس صافية لا يتخللها رجس يزيح الانسان عن الاعتراف بهذا الأمر البديهي وهو وجود الخالق جل جلاله. ولا شيء ككبائر الذنوب يزيح الفطرة عن عملها، ويبعد العقل عن الاعتراف بأوضح الواضحات وهو الله تعالى.

أجل لو تلوثت النفس الانسانية ومرضت بالذنوب، أخذت تشك في أوضح الواضحات وتريد دليلاً على وجود الخالق وقد لا يفيدها أي دليل وذلك لظلمات في النفس وذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. ان الله تعالى يقول: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾. وقد سد المفسد على نفسه باب الايمان بالله ورسله. ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة: ٩/١٣٥). ويؤيد الآية المتقدمة قوله تعالى: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾. (سورة التوبة: ٩/١٣٦). (يُفتَنون: يُبتلون).

وإنما سمي الخالق تعالى بواجب الوجود، إذ لا يمكن تصور وجود هذه المخلوقات بهذه الخواص العجيبة والأنظمة المدهشة والقوانين المتقنة والمعادلات الرصينة والدقة المتناهية وارتباط بعضها ببعض إلا بتدبير خالق واجب وجوده أزلي سرمدي لم يوجده غيره، وهو واجب الوجود جل جلاله وإلا لما وجد كل شيء.

* * *

يقال: ان ملكاً من الملوك كان يشك في وجود الصانع وهو الله تعالى وكان قد تنبه إلى ذلك وزيره. فأراد أن يزيل عن الملك ما يختلج في صدره

من شك. فأمر بصورة سرية ببناء قصور عالية وإجراء مياه جارية وإحداث بساتين عامرة وحدائق غناء في مفازة من الأرض. ولم يُعلم الملك بذلك. ثم ذهب الوزير بالملك إلى تلك المفازة على سبيل المرور ببلدة ما، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير قائلاً: من الذي بنى هذه القصور ومن هو الذي نظم هذه الحدائق؟ فأجاب الوزير قائلاً: قد حدث كل ذلك من تلقاء نفسه! وليس لها بانٍ ولا صانع!

غضب الملك وقال بامتعاض: أفيمكن ذلك؟ أفيجوز أن تنظم هذه الحدائق بهذا النظام البديع وتبنى هذه الغرف بهذا الترتيب الجميل دون أن يكون هناك منظم ومرتب؟. ما هذا الجواب السخيف؟ فأجابه الوزير قائلاً: إن كان ممتنعاً وجود هذه القصور والحدائق دون بانٍ لها وصانع ومرتب، فكيف يصح وجود هذه المخلوقات المتنوعة مع ما فيها من جمال وكمال وترتيب، وهذه السماوات والأرض بهذا النظام البديع والدقة المتناهية دونما صانع وخالق قدير متعال؟ فتنبه الملك وأيقن بالحق والواقع وزال شكه.

إن التصديق بوجود الخالق أمر فطري. ولا يعتريه الشك أو لا يزيحه إلا الكبائر من الآثام والذنوب وقد قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾[1]. فقد ورد في تفسيرها: أنهم فطروا على المعرفة أي على معرفة الخالق جل جلاله. وقال رسول الله (ص): كل مولود يولد على الفطرة. ولذلك ترى الناس عند اشتداد الأمور وتعسر الأحوال وفي الأهوال يتوجهون إلى مَن خلقهم، يرجون منه كشف ما توجه اليهم من النوائب والبلايا بصورة فطرية. لأنهم مجبولون على ذلك.

كم رأينا من الطيارين عند حدوث عطل في طياراتهم وعلمهم بالسقوط لا محالة، تضرعوا إلى الله تعالى وتوسلوا به بإخلاص لا مزيد عليه. فنجوا

---

(١) سورة الروم: ٣١.

بشكل خارق لم يكن بالحسبان. نقرأ ذلك في كثير من المجلات. ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾. وفي آية أخرى: ﴿قل أرأيتم[1] إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون اليه إن شاء، وتنسون ما تشركون﴾ ٦/٤١.

وفي آية أخرى: ﴿هو الذي يسيِّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك[2] وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم. دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم إذا هم يبغون[3] في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾. (سورة يونس: ٢١).

وكم رأينا مصداق هذه الآية في الحرب العالمية الثانية. حتى الملحدين الذين كانوا يتجاهرون بالالحاد والزندقة والمسلك المادي ويدعون إليه، كانوا يطلبون إلى الناس وإلى رجال الدين: أن يتوسلوا بالله تبارك وتعالى في المعابد والكنائس، ليمنَّ الله عليهم بالنصر والتفريج. وقد فعل سبحانه. ولكنهم رجعوا بعد ذلك إلى طيشهم وخمورهم وفجورهم وبغيهم! ونشر الالحاد والزندقة بشتى الطرق والأساليب. وأخذوا يتذرعون بما وجدوا (على زعمهم!) من قوانين غير ثابتة في حياة النبات والحيوان في سيرهما التكاملي! مطبقين إياها خطأ على الحياة الاجتماعية للانسان، ظناً منهم أنهم قد توصلوا إلى فلسفة الحياة!.

---

(١) أرأيتم: أي أخبروني.

(٢) الفلك: السفن.

يبغون: يظلمون.

ـ لهذا آمنت بالله[٢] ـ

يقول الدكتور: أ. ج. كرونين: «كنت ملحداً عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن، وعندما كنت أقف أمام جسم انساني في غرفة التشريح أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد، وفي الوقت نفسه، كنت أفكر في الروح الخالدة في الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم على وجهي، وكنت أرى في ذلك كله أسطورة قديمة بالية. وكان يشاركني في هذا الشعور أكثر طلاب الجامعة».

« بقيت هكذا إلى أن أصبحت طبيباً وسافرت إلى منطقة المناجم بجنوب (ويلز)، وصرت أجدني أنفذ في مملكة الروح الانسانية. لقد شاهدت معجزة ميلاد الانسان وجلست إلى الموتى واستمعت في الظلام إلى رفرفة أجنحة الموت فتخلى عني غروري، فصرت أؤمن بالله».

«ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله. ولا يمضي أسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه».

«لن أنسى ذلك اليوم ما حييت. فقد حدث انفجار مروع أدى إلى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة. وظلت القرية تصلي لله لأجلهم، وأخيراً استطاع رجال الاسعاف أن يشقوا طريقهم إلى المنكوبين واستمعوا إلى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض: أنه صوت العمال، يترنمون بأنشودة: «يا أرحم الراحمين».

«أخرجوا أحياء من تحت الأنقاض وهم منهوكو القوى والتف حولهم ألوف من العمال وراحوا يرددون: «يا أرحم الراحمين في كل حين».

«وعندما وقفت إلى جوار هؤلاء المنكوبين، اجتاحتني هذه الموجة من

(٣) نقل هذا المقال من مجلة المختار لشهر كانون الثاني ١٩٥٦ لأهميته.

الدعاء والصلوات. انها دليل آخر على أن إيمان الانسان، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير».

«وبعد سنة انتقلت للعمل في منطقة أخرى، والتقيت بممرضة كانت تشتغل ليل نهار في التمريض والاسعاف مدة عشرين عاماً وهي تدور مسافة طولها عشرة أميال يومياً بلا توقف للقيام بما هو فوق واجبها. فقلت لماذا لا تطلبين زيادة لراتبك؟ فأنك تستحقين أكثر مما يعطى لك. . . ـ فقالت بعد صمت يسير: إذا كان الله يعلم أنني أستحق هذه الزيادة، فهذا كل ما أطمع فيه».

«حادث المنجم وإيمان هذه الممرضة الساذجة. كل ذلك قد أخرجني من عذاب الشك والقلق وأوقفني على أرض ثابتة عالية من الايمان».

«نحن لا نستطيع أن نبرهن على وجود الله كما نبرهن على المعادلات الرياضية. ولكن إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر في إله خالق. مَن ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية وهي تتألق بعيداً، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء».

«وعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منظمة وفي فصول متتابعة، هذا العالم لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، قد نزعت من الشمس وألقيت في الفضاء، بلا معنى ولا سبب».

«إطرح عن رأسك، إن شئت، كل ما قالته الكتب المقدسة عن الله وعن العالم، وان الله قد سوى العالم بيده في ستة أيام، واقبل، إن شئت، نظرية التطور كاملة، وتتبع الخليقة منقوشة على الحفريات، وتتبع سير الأنواع، وترقيها حتى بلغت صورة الانسان، واقبل ـ إن شئت ـ كل النظريات العلمية التي قامت عليها، فانك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً، لا يمكن أن تقول أن هذا كله قد صدر من العدم، فلا شيء يخرج من لا شيء».

«ومنذ بضع سنوات، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت إليه أحد المشتغلين بعلم الحياة، ليلقي محاضرة للأعضاء. وقد اختار هذا

الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن «بداية عالمنا» وتحدث بأسلوب العالم الملحِد! وجعل يصف عصور «الآيون» السابقة على التاريخ. وكيف تحولت الأرض على مر هذه العصور من الغازية إلى السيولة، إلى الصلابة، وكيف أن الأرض كانت مطمورة في مياه المحيطات، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط على القشرة الأرضية، وكيف أن القشرة الأرضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعية كيميائية. وكيف أن هذا التفاعل مع الزبد قد أدى إلى تكوين سطح الأرض التي نعيش عليها، ومن هذه الأرض ظهرت الحياة الأولى على هيئة بروتوبلازم».

«وعندما فرغ المتحدث من محاضرته، صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذباً، ولكن تلميذاً وقف في صورة عصبية وسأله: لا تؤاخذني يا سيدي، لقد حدثتنا عن الأمواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطىء، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الأمر؟».

«وساد صمت كله حرج واحمر وجه الأستاذ المحاضر، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة، أغرق الموجودون في الضحك. لقد انهار منطقه الحديدي بسؤال من تلميذ صغير».

«والحقيقة هي أنه لا يوجد في كل هذه الأبحاث العلمية عن الطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة التي تجري فيها. أساس واحد سليم لإنكار وجود الله بل أن الانسان ليجد نفسه مضطراً إلى القول بأن هناك عقلاً كبيراً وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة».

«والعقبة الكبرى التي تقف في وجه الإيمان، أمام أناس كثيرين، هي وجود الشر والألم بين الناس. كيف يمكن الإيمان بالله مع وجود العواصف المهلكة والفيضانات المغرقة، والمجاعات والأوبئة والزلازل والبرق المحرق، والرعد الصاعق والموت في أقسى صورة...؟ إن هذه الأشياء لا تدل على وجود إله كامل خير!»[1].

---

(١) لم يبلغ (كرونين) ما قاله سيد المرسلين محمد (ص): «ان الله إذا أحب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه» وفي هذا تصفية للنفوس الملوثة وتزكية للأرواح المدنسة. فالدنيا

«ومما يؤسف له حقاً: أننا في هذا العصر المادي لا يشغلنا إلا البحث عن اللذة. وننسى أن اللذة ليست هي كل شيء، وليست نهاية كل شيء في هذا الوجود. فإذا نحن آمنا بالله وآمنا بخلود الروح الانسانية، فاننا ندرك أن حياتنا ليست تفاهة عابرة، وإنما هي تجربة واستعداد وتهيؤ. وإن حياتنا ليست إلا لحظة من اللحظات الأبدية. وامتحاناً لصبرنا، عندما يجيء ذلك اليوم الذي نقف فيه على أعتاب الآخرة».

«وحين نرضى عن الشقاء والألم واليأس والأسف، فاننا نخضع لإرادة الله، وهذا الرضاء والايمان المشرق، هو الذي يرينا الله. فان العقل مهما تبلغ قدرته، لا يبلغ إلا قشرة واهنة من الأبدية. والله يتجلى للقلب لا للعقل».

«حدث، بعد أن زرت معبداً في إيطاليا ورأيت فيه لوحات فنية رائعة تمجد الله. وبعد أن تجولت في حديقة الدير، أن رأيت عجوزاً قد أقعده الروماتيزم يعمل في هذه الأرض منذ ٣٠ عاماً، ورحت أسأله عن حياته،

مدرسة تكامل وتطهير وما يبتلي به الانسان من فقر ومرض وفقد الأولاد وزلازل وحريق ورعد وصواعق إنما هي مواد وضعت من جانب الله ليمارسها الانسان في هذه المدرسة الكونية، يطهر بها نفسه فيكفر عن ذنوبه وينال بها درجات في الصبر والرضاء والتسليم. ويقول الله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. الدنيا دار تكامل وتصفية. ولا يتكامل الانسان إلا بعبادة ربه. وبالعبادة يزداد معرفة بالله. وان الأعمال الصالحات من أهم مراتب العبادة. وقد قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾. والعبودية: (كما جاء في الحديث) تتجلى في خمسة أشياء: (١) خلاء البطن. (٢) تلاوة القرآن. (٣) صلاة الليل. (٤) التضرع عند الصبح. (٥) البكاء من خشية الله. فمن أراد أن يزداد إيمانه وتصفو نفسه، فتنكشف له حقيقة الحياة وفلسفة النوائب فليطبق ما يتحقق به العبودية. ليرى كيف تنقشع عنه الشبهات ويدخل في عالم من الطمأنينة جديد. ﴿الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾!.

فقال وهو يشير إلى الحديقة: «أنني أرى أشجار الكريز وهي براعم، ثم أرى أزهارها وبعد ذلك ثمارها، فيزداد إيماني بالله».

وقابلت ذات مرة رجلاً في شمال انجلترا، كان يفخر طول حياته بأنه رجل ملحد! وحرم ابنته الوحيدة من الميراث. لأنها تزوجت مدرساً شديد الايمان بالله. وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال. فحاول جهده أن يبرر موقفه بالنسبة لزوج ابنته... وكان زوج ابنته يستدرجه بين الحين والحين إلى مناقشة تنتهي عادة بقوله: «لا تخدع نفسك، أنني لست نادماً على شيء، فما زلت أكفر بالله».

وفي يوم ردت عليه ابنته قائلة:

ـ «ولكن الله يا أبي يؤمن بك!».

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد.

«فمهما نفكر ونفعل، فنحن من صنع الله، وكلمة واحدة تكفي لشكره وحمده».

«وأنا لنلمح خلال القرون التي لا تحصى، عدداً لا نهائياً من الناس قد عاشوا حياتهم نبيلة طيبة، وكان الله مثلهم الأعلى. لقد أعطى الخائف شجاعة ومنح الضعيف قوة، وأنزل السكينة على قلوب الحائرين، وملأ بالأمل قلوب البائسين، أنه في كل واحد منا، إذا نحن بحثنا عنه».

لقائل أن يقول: لماذا كان (أ. ج. كرونين) يسخر من الاعتقاد بالله عندما كان في الجامعة. وما هي العوامل التي جعلته يؤمن بالله إيماناً رصيناً بعد تعيينه في منطقة المناجم. فإن ما شاهده من مناظر وحوادث تشاهد من قبل كثيرين من الملاحدة ولا تؤثر إلا في القليل منهم جداً.

إن للإيمان بالله عوامل شتى. منها طهارة المأكل والمشرب، البر بالوالدين، صلة الرحم، العمل الصالح لوجه الله، اجتناب الفسوق

والخيانة، والانفاق وأظنه أهمها: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾[1].

ولا شك أن الشاب ينهمك في ملذات غير مشروعة في شبابه إلا من عصم الله. وان حياة الجامعة واختلاط الجنسين حافزان قويان للولوج في ما نهى الله عنه، ثم أن الغرور الذي يصيب الطالب الجامعي لثقافة ينالها يجعله لا يبالي بوالديه وأرحامه، وهذه وغيرها أسباب حقيقية تؤدي إلى أسوداد القلب وظلمة النفس وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق. انه تعالى يقول: ﴿فلا تطع المكذبين، ودُّوا لو تُدهن فيدهنون. ولا تطع كل حلاف مهين، همَّاز مشَّاء بنميم. منَّاع للخير معتد أثيم، عُتلٍّ بعد ذلك زَنيم. أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ (أساطير: خرافات).

ولا ريب أن النفس الانسانية في عنفوان الشباب طاغية باغية. منقادة للشيطان الذي يزين له عمله، أمارة بالسوء أكثر من وقت آخر إلا من عصم الله تعالى، وان النفس كثيراً ما تميل عن الطاعة لما هنالك من مشقة وهكذا شأن الدواء. وتميل إلى المعصية، لما هنالك من لذة ورغبة، كمريض يتناول ما يضره لما فيه من لذة. لذلك جاء في الحديث: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». وقول علي (ع): «واعلموا أنه ما من طاعة لله شيء إلا ويأتي في كره. وما من معصية لله شيء إلا ويأتي في شهوة. فرحم الله رجلاً نزع شهوته وقمع هوى نفسه». ولا مراء أن الفسق يؤدي إلى ظلمات في النفس، فشكوك، فجحود، فالحاد! على حد قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. (سورة البقرة: ٩٨).

لكن الدكتور عندما انتقل إلى معالجة المرضى في منطقة المناجم صار بعيداً عن تلك الحوافز التي تسوِّد القلب، وأخذ يقوم بمعالجة المرضى وأعمال أخرى صالحات، مما جعل تلك النقاط السوداء التي تلبَّدت على قلبه تزول رويداً رويداً، فصار يؤمن بالله تعالى: ﴿للذين أحسنوا، الحسنى وزيادة﴾. (سورة يونس: ٢٧).

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٦١.

لذلك يعمل الدين الاسلامي في إبعاد وسائل اللعب وكل ما يؤدي إلى الفساد وتسافل النفس في كل بلدة، وذلك بجعل ثلة من الناس (وهم المحتسبون) يقومون لوجه الله بالوعظ والارشاد مطبقين أحكام الحِسبَة، متجولين في الأسواق والشوارع، يمنعون الناس من النقص في المكيال والميزان والغش ومزاحمة المارة وبيع السلع المضرة والمحرمة والتجاوز على حقوق الآخرين وما يضر بالأخلاق العامة[1]، وبذلك يكون المحيط (البيئة) محيطاً صالحاً لا يتأثر فيه الشاب تأثراً سلبياً يؤدي به إلى التسافل.

وإن ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير وقوانين كلها تعمل في دفع الظلم عن هذا الانسان. فالكذب ظلم، والزنا ظلم، وقتل النفس المحترمة ظلم، وعقوق الوالدين ظلم، وشرب الخمر ظلم، والبخل ظلم، والحسد ظلم، والكبر ظلم، وعدم إعطاء حقوق الفقراء والمساكين ظلم: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم!﴾[2]. وعن الصادق (ع): «اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة». وفي حديث آخر: «اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كان كافراً، فانها ليس دونها حجاب». فبالظلم يسوَّد القلب وتدلهمُّ النفس. فيأتي دور الجحود والإلحاد! على حد قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفَّار﴾. (١٤/٣٤).

وإن الآية الآتية تشرح لنا بوضوح كيف أن الذنوب تؤثر في النفس، فتبعدها عن رؤية الحق والواقع: ﴿أوَ لم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها، أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾[3]. كما أن الآية الآتية تدل دلالة واضحة: أن الفسق مزيل للايمان: ﴿تلك القرى نقصُّ عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾[4].

---

(١) ويراقبون السراق ويجمعون اللقطة وهو كل ما يرى مطروحاً لا صاحب له.

(٢) سورة المعارج. الآية: ٢٤

(٣) سورة الأعراف: ٩٩.

(٤) سورة الأعراف: ١٠٠.

وقد يكون الانسان مجموعة ظلم وطيش وفسق وفجور. فلا يفيده أي وعظ وإرشاد، فلا شيء يجعله موقناً بالله إلا نار جهنم: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، أصلوها، فاصبروا أو لا تصبروا، سواء عليكم، إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾[1]. فيكون إذ ذاك مصداق هذه الآية: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾[2]. ونستجير بالله من هذه المرحلة المتسافلة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يبهره ما لهؤلاء الجاحدين من مال وبنين وحياة طيبة وادعة(Confort) . ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾[3]. فإن الله قد زيَّن لهم أعمالهم في الدنيا وتركهم وما هم عليه من ظلمات، بقوله: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم، فهم يعمهون﴾[4]. (سورة النمل: ٤). وقربهم إلى الهلاك مستدرجاً إياهم بتواتر النعم عليهم على حد قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾. (سورة الأعراف: ١٨١).

---

(١) سورة الطور: ١٦.

(٢) سورة الأنفال: ٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٥٤.

(٤) يعمهون: يتحيرون ويترددون في ضلالهم.

أدلة أخرى في إثبات الصانع

سئل الصادق (ع) (وهو الامام السادس): عن الله تعالى: فقال للسائل: «يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟ قال: بلى، فقال: «فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟» قال: بلى. قال: فهل تعلّق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر أن يخلصك من ورطتك. قال: بلى. قال الصادق (ع): «فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجي، وعلى الاغاثة حين لا مغيث».

فلو لم تكن فكرة التوجه إلى الخالق متمركزة لدى الانسان لما توجه إلى خالقه عند نزول كارثة من الكوارث.

ان الله تعالى يقول: ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ الضر دعانا لجنبه[1] أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسَّه كذلك زين المسرفين ما كانوا يعملون﴾[2].

فالمسرف، أي الفرد الذي خرج بأعماله عن حد الاعتدال فاتخذ الربا مكسباً عوضاً عن أرباح المكاسب المحللة واتخذ الزنا أو اللواط ديدناً بدلاً من زوجة شرعية صالحة... إلى غير ذلك، ينسى خالقه بعد كشف الضر عنه. فينسَى أن تمادى في النسيان. ان الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[3].

وقد ذكر لي أحدهم وكان أمياً، أن سخلة له جاءها المخاض، فعسر عليها الأمر وشق كثيراً وطال معها الوجع مدة غير قليلة من الزمن. ثم أنها رمقت ببصرها نحو السماء مستنجدة مستغيثة مما ألمَّ بها وإذا بها تضع

(١) مضطجعاً.
(٢) سورة يونس: ١٣.
(٣) سورة الحشر: ١٩.

حملها صحيحة سالمة. فإذا كانت الحيوانات تتوجه إلى خالقها بصورة فطرية، فما بال هذا الانسان! وهو أشرف المخلوقات! هذا الانسان الذي يتسافل بعض أفراده من جراء نفوسهم الملوثة وما اجترحت أيديهم فيكون أحط من الحيوان على حد قوله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[1]. ﴿إن شرَّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون. ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾[2]. وهذا معنى قوله تعالى في سورة التين: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾. وحاشَ الله أن يظلم أحداً أو أن يردَّ أحداً، دونما ذنب، إلى أسفل السافلين. وإنما الانسان نفسه، يأخذ بنفسه المسكينة لسوء اختياره وكثرة فحشائه إلى أسفل الدركات ولكن الله ينسب، ارجاع العبد إلى أسفل السافلين اليه بقوله: (رددناه)، لأنه هو الذي سنَّ هذا القانون ووضع هذا النظام العادل ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[3].

قال الباقر عليه السلام، وهو الامام الخامس، في تفسير قوله تعالى: ﴿حنفاء غير مشركين به﴾: هي الفطرة التي فطر الناس عليها. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ لا تبديل لخلق الله﴾ أي فطرهم الله على المعرفة. وقد جاء في روايات كثيرة: «أن الفطرة هي التوحيد». ولذلك يسأل أحدهم عن الدليل على وجود الصانع، فيجيب: أغنى الصباح عن المصباح.

وحكى الفخر الرازي عن رجل أنه اتفق في بعض الأزمنة جدب وقحط شديد. فخرج الناس إلى الصحراء للاستسقاء ودعوا فلم يُستجب لهم. قال الرجل: فصعدت إلى الجبال. فرأيت ظبياً يسرع إلى المياه من شدة العطش، فلما انتهى إلى الغدير، رآه جافاً من الماء، فتحير وجعل يكرر النظر إلى السماء ويحرك رأسه مراراً، فظهرت سحابة وارتفعت وأمطرت، حتى امتلأ ذلك الغدير. فشرب الظبي ورجع.

---

(١) سورة الفرقان. الآية: ٤٧.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

(٣) سورة السبأ: ٣.

وروي عن سليمان بن داود (ع) أنه خرج يستسقي. فمر بنملة ملقاة على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: «أللهم، أنا خلق من خلقك ،ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا». فقال سليمان عليه السلام: «إرجعوا فقد سقيتم بغيركم».

ونقل عن صياد: أنه رأى ظبية ترضع ولدها. قال: فلما قصدت أن أصيدها فرت مني وتركت ولدها. فأخذته. فلما رأته في يدي رفعت رأسها إلى السماء وكأنها تستغيث وتستعين بالله تعالى، فإذا بحفرة في طريقي، فوقعت فيها، وانفلت ولدها من يدي . . . فأخذته أمه وذهبت به.

ولسائل أن يسأل: لماذا ترفع الأيدي إلى السماء حين يريد الانسان أن يسأل الله تعالى قضاء حاجة ملحة وحين يتضرع ويستغيث. ويمكن أن يقال في جواب ذلك: لا شك أن الله تعالى منزه عن المكان وهو خالق المكان وما كرة الأرض في هذا الفضاء اللانهائي إلا جرم صغير جداً من ملايين ملايين ملايين بل من عدد لا يتناهى من الأجرام التي خلقها الله في هذا الكون، فلا أسفل ولا أعلى لصغرها بالنسبة إلى عظمة الكون. ولكن لما كانت السماء منشأ الخيرات وتوحي رفعتها وعظمتها وعلوها (حسب ظن الانسان الخاطىء)، عظمة الله القادر الجليل ﴿والله هو الذي خلقها وكونها من العدم، وهو الذي يوحي ويعرِّف الانسان عظمته﴾، وحيث لا شيء أكبر من الله وأن الله لا يحدُّه شيء وهو غير متناه في جميع الملكات لذلك كله، فطرت طبيعة الخلائق تعظيماً لله تعالى على التوجه إلى السماء، لعلوها، عند طلب الرزق وسائر الخيرات وعند الالتجاء في الشدائد والملمات. مع العلم أن الله لا يوجد في جهة دون جهة. وهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان. «وهو معكم أينما كنتم».

وقد قال بعض الأبدال في إثبات الخالق جل جلاله: «انك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والأحوال والآجال ولا خلق ذلك أبوك ولا أمك ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات. لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ولو كانت لهم قدرة على تلك الماهيات ما كان قد حيل بينهم وبين مرادهم

فصاروا من الأموات. فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد منزه عن إمكان الحادثات، خلق هذه الموجودات التي قد كانت معدومات، فصارت موجودات».

إذا نظر الانسان إلى هذا الكمال الرائع الـذي أودعه الله في تمـام مخلوقـاتـه من «آميبـا(Ameoba (1) إلى الانسـان: في الجمـاد والنبـات والحيوان، ثم إلى ربط التنظيمات الأرضية، بالتنظيمات السماوية ربطاً لا ينفك بعضها عن بعض ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾(2). ثم إلى هذه القوانين التي تربط الحوادث الكونية من فلكية وفيزيائية وكيميائية بعضها ببعض، ثم إلى المعادلات التي يراها في ما يشكل الذرة من ألكتـرون وبروتون ونيوترون وغيرها، ثم ما يعترف به من عجز في تفهم حقائق لا تتناهى في هذا الكون: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، ان الله عزيز حكيم﴾(3) يقطع بأن المنظم لهذا الكون حكيم قادر متعال. وليس للانسان إلا أن يخضع له إجلالاً وتعظيماً، خشوعاً وخنوعاً.

لذلك كله، فإن الطريقة في إثبات وجود الخالق جل جلاله هي طريقة نظر وتدبر واعتبار وتفكر. انظروا إلى هذه الآية المنيفة وتدبروا فيها، كيف توضح عظمة الخالق بأوضح بيان وأجلى تبيان. انه تعالى يقول:

﴿إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كـل دابَّة، وتصـريف الريـاح والسحاب المسخـر بين السماء والأرض لآيـات لقوم يعقلون﴾(4). (سـورة البقرة: ١٦٠).

---

(1) الكائن الحي ذي الخلية الواحدة.

(2) سورة الملك: ٤.

(3) سورة لقمان: ٢٧.

(4) قال رسول الله (ص): «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها».

حقاً إن اختلاف الليل والنهار وما ينتج من ذلك من فوائد جمة لأمر عجيب. . . فليرجع من شاء إلى كتب الفلك وعلم الأحياء والجغرافية الطبيعية ليدرك إلى حد ما كيف ربط الله تعالى أجزاء العالم بعضها ببعض لحدوث الحياة على وجه الأرض. ثم ليدع ربه ليجعله من قوم يعقلون. فيقول: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك[1] فقنا عذاب النار﴾. ان الله قد عظم أمر (اختلاف الليل والنهار) بقوله: ﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون﴾. فعقبه بعد الاحياء والاماتة لاهميته الفائقة. فلا عقلَ لأولئك الذين لا يوحِّدون الله في آياته.

وها نحن نذكر نبذة يسيرة عما ينتج من دوران الأرض حول نفسها كمثال لما أودع الله من نظم خارقة لادامة الحياة على وجه الأرض وارتباط هذه الأنظمة بعضها ببعض بحيث لا يدع مجالاً للقول: بالصدفة، وأنى للصدفة أن توجد من الجماد نباتاً وحيواناً (حيوية) وإنساناً فعقلاً الخ ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾.

ولولا دوران الأرض حول نفسها بهذا النظام البديع لاستحالت الحياة على وجه الأرض. ذلك لأن للأرض جاذبية تجذب المياه نحو مركزها. وتحدث من دوران الأرض حول نفسها قوة طاردة تطرد الأجسام عن سطح الأرض إلى خارجها (قوة عمر كزية). ولكن سرعة الدوران تختلف في نقاط الأرض المختلفة، لكروية الأرض. فالمدينة التي على خط الاستواء تقطع بنتيجة دوران الأرض حول نفسها في الساعة الواحدة، ألف ميل وتزيد قليلاً. ولكن مدينة مدريد عاصمة أسبانيا (التي هي على عرض ٤٠°) لا تقطع في ٢٤ ساعة محيط الأرض كله. فسرعة دورانها نحو ٨٠٠ ميل في الساعة. وكلما صعدنا إلى الشمال (نحو القطب) تكون سرعة المدن أقل فأقل من جراء حركة الأرض حول نفسها. فإن الله جعل الأرض في القطبين متفرطحة، أي ليست الأرض كرة تماماً. لذلك: فالقطب أقرب إلى مركز الأرض من مدينة واقعة على خط الاستواء. فتكون الجاذبية على القطبين أكثر.

(١) سبحانك: تنزيهاً لك، وسبح الله، أي نزهه وقدسه.

وإن زيادة الجاذبية عند القطبين عن الجاذبية عند خط الاستواء تؤدي إلى دفع المياه من خط الاستواء إلى القطبين. ولكن زيادة قوة الدافعة (القوة الطاردة) عند خط الاستواء منها عند القطبين تدفع بالمياه من القطبين إلى خط الاستواء. وقد تعادلت القوتان: (قوة الجاذبية والقوة الطاردة الناتجة من حركة الأرض حول محورها)، من حيث زحلقة البحـار والمحيطات إلى القطبين أو إلى خط الأستواء، بحيث توزعت مياه هذه المحيطات توزعاً عادلاً كما نرى. ولولا هذا التعادل لغرق ما على أواسط الأرض من أشياء وأحياء. وهذا تقدير قدره الله تعالى بقدرته. ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزِّله إلا بقدر معلوم﴾. (سورة الحجر: ٢١).

ولو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدوره الآن لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت الأرض نفسها في الفضاء. وذلـك بتأثيـر القوة الطاردة الحاصلة من حركة الأرض حول نفسها بصورة سريعة، كما ينقطع خيط المقلاع في يد الطفل إذا أداره بسرعة كبيرة بتأثير القوة (عن مركزية) الطاردة.

$$\text{قم} = \frac{\text{ك س}^{٢}}{\text{نق}}$$ (بالوحدات المطلقة)

ولو تباطأت الأرض في دورانها حول نفسها أي أخذت تكمل دورتها حول نفسها في (١٠٠) ساعة مثلاً بدلاً من ٢٤ ساعة، لمـات ما على الأرض من حيوان ونبات. ذلك لأن نصف الأرض يصبح معروضاً للشمس مدة طويلة مما يؤدي إلى إماتة ما على الأرض من جراثيم وحيوان ونبات بتأثير حرارة الشمس المهلكة. وإذا أراد المتتبع أن يستعرض ما هنالك من حكم فائقة في دوران الأرض حول نفسها بهذه السرعة الحالية وربط الحياة به لاحتاج إلى تأليف كتاب خاص بل كتب عدة. ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾. (النمل: ٩٠).

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ فلا سكون في هذا العالم على حد قوله تعالى: ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾.

* * *

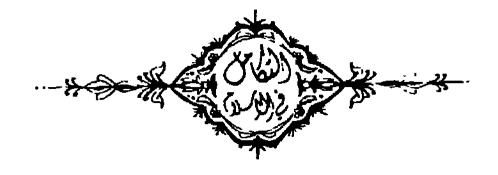
ثم لولا كثافة الماء بمقدار يعتد به (١ غم/سم٣ في ٤٠م) لما أمكن أن تسير السفن والفلك في البحار والأنهار. ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾.

وإن نزول الأمطار أمر عجيب يعزى إلى تأيُّن الجو وأسباب أخرى عدة قد رتبها الله تعالى ليس هنا موضع ذكرها وقد بينا شيئاً يسيراً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب. ثم أمر الرياح والعواصف يستدعي بحثاً عميقاً، ولدوران الأرض من الغرب إلى الشرق أثر خطير في ذلك. وفي كل ذلك: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾.

فما بال الملحدين والماديين ينكرون وجود الخالق؟ أليست لهم عقول؟ نعم، كانت لهم عقول، عقل فطري معترف بوجود الخالق وجليل عظمته قبل أن يولدوا، ولكن انسحب وأسدل عليه ستار من الظلمات من جراء الفسوق والفجور، فانكمش واختفى وقام مقامه الشيطان، يملي عليه ما شاء من زندقة وإلحاد. والدليل على ذلك: أن هذا الملحد، لو تمكن من توبة، ورجوع إلى الله تعالى وأعمال صالحات يكفِّر بها عن سيئاته ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، لرأى أن عقله يرجع إليه. معتبراً بما خلق الله، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، خاشعاً تجاه عظمته وجلاله.

ولقد كنت أفكر في أمر هؤلاء الماديين، فصرت أعتبرهم أناساً شذوا عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب البحث، واعتمدوا في إدعاءاتهم على السفسطة والخيال و«من عنديات» لا يدعمها العلم الصحيح، فلا ربط في ما يستندون اليه من أدلة واهية، وأرى: أن علاج هؤلاء: أن يجبروا على دراسة الرياضيات العالية، ونظريات آينشتاين ونظريات السطوح (القسم المجسَّم من الهندسة التحليلية) فالفيزياء الرياضية العالية فنظرية الأعداد

فحساب الاحتمالات فالفلك العالي. فانهم ولا شك يتخبطون خبط عشواء عند حل تلك المعادلات التي بقيت لا تحل وأمست لغـزاً من الألغاز، فيعتـرفون إذ ذاك بجهلهم. لأنـه لا بد للمعـادلـة التفـاضليـة (Equation différentielle) من حل صحيح لا يتعداه، وليست القضية ها هنا، قضية: (أرى، وأظن، ولعلّ وسوف يكشف لنا العلم!)، هذه الكلمات التي يرددها المادي. فإذا شاهد عجزه وتصاغره تجاه عظمة العلم بل عظمة ما أودع الله من قوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم، عند ذلك يعترف بجهله، وان هذا الجهل يدفع عنه الغرور، فيجعله معترفاً بمن أودع هذه المعادلات والقوانين الرياضية الصعبة في هذا الكـون، إن أزاح عن نفسه الخمـور والفجور ولو بصورة مؤقتة.



ما من دابة إلا أمة

ننقل هنا فقرات مما جاء في مقال كتبه الدكتور عبد المحسن محمد صالح، المدرس بكلية العلوم في جامعة القاهرة عن النمل الأبيض وما أودع الله تعالى فيها من غرائز تفسيراً لهذه الآية الكريمة: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا[1] في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون﴾. (سورة الأنعام: ٣٨). ﴿والذين كذّبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات...﴾.

«النمل الأبيض حشرة تعيش في جماعات على مستوى عالٍ من الحياة الجماعية، ولكنه مع هذا الرقي وباء مدمر. وتخريبه في الأقليم الجنوبي يعتبر هيناً إذا ما قورن بما يحدث في المناطق الاستوائية الحارة حيث يبني مستعمرات ضخمة تضم الواحدة منها عدة ملايين. يعيش في سراديب أرضية دون أن يرى، ويخرب دون أن يحس به أحد. فهو يقوم بعمل سراديب أو أنفاق كثيرة مختفية في الشبابيك والأبواب وسقوف المنازل. فهو يأكل الخشب والتبن الذي يدخل في (اللبن) أي في الجدار المصنوع من الطين.

منذ أيام استيقظ أهل قرية من قرى مركز «أبو حمص» بمديرية البحيرة «عزبة شلبي» ليجدوا أنفسهم بلا قرية وبلا مساكن سلط عليهم العدو: «النمل الأبيض» أسلحته الفتاكة وتركهم بلا مأوى.

والآن تعال معي لزيارة مستعمرة من تلك المستعمرات الضخمة التي بناها النمل الأبيض في أواسط أفريقيا:

ستجد برجاً شامخاً في الهواء، يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ستة أمتار. ومحيط قاعدته قد تصل إلى خمسة عشر متراً.

---

(١) ما فرطنا: ما تركنا.

انها كحصن من حصون العصور الوسطى، مصمّمة بطريقة خاصة. فهي على هيأة أعمدة مخروطية متصلة عند قواعدها بالمستعمرة الأصلية. ومادة البناء مكونة من الطين الذي يخلطه النمل بلعابه فتصير متينة قوية كأنها الخرسانة المسلحة. وهذا المبنى الضخم مقفل كأنه القبر، ساكن سكون الموتى... لكنه يموج من الداخل بملايين الأفراد، هذه واحدة من المستعمرات.

وتجد في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة. إذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك بأنه «البوصلة».

وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحارى والجبال! ذلك لأن لها سطحين عريضين. أحدهما يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب، وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال؟؟.

ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل. ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب. ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام.

وإذا سرت في مكان ثالث. فستجد المستعمرات المعلقة. وهي التي يبنيها بعض أنواع النمل ويثبتها على أفرع الأشجار وغصونها.

وقد بلغ الذكاء حداً بعيداً عند بعض الأنواع التي تقطن في المناطق التي تكثر فيها الأمطار. فيبنون ستائر أو حواجز تتدلى من أعلى المستعمرة تماماً، كما تبنى أسقف المنازل في البلاد المطيرة مثل انكلترا أو غيرها. فإذا ما هطلت الأمطار، انحدرت على الستائر لتسقط بعيداً، فلا يبتل البناء.

وهناك أنواع تسكن المناطق الجافة ذات الحرارة الشديدة، فيبني النمل فيها أنفاقه، وعندما يجد الجفاف قد حل بالمستعمرة، تتفتق عنده حيلة أو غريزة[1] للتغلب على مثل هذا الأمر، فيقوم بعمل أنفاق أرضية تمتد إلى

(١) وهي ما أودعه الله تعالى فيه.

عدة أمتار تحت الأرض حتى تصل إلى مستوى الماء الجوفي بالتقريب. وعندئذ يخرج منه بخار الماء لينتشر في أنحاء المستعمرة. فيخلق جواً رطباً كأنه جهاز صمم لتكييف الهواء.

والآن تعال بنا لنزور إحدى هذه المستعمرات المبنية فوق سطح الأرض من الداخل.

ستجدها مدينة منظمة يسكنها عدة ملايين من الأفراد يحكمها ملكة وملك، ورعية تتكون من العساكر والشغالة. لكل وظيفة معينة لا يتعداها.

ولكل مبنى نظام خاص. يحتفظ به الجنس على مدى الأجيال. ليتناقله الخلف عن السلف كأنه سر لا يبوح به لأحد سواه.

سآخذك الآن إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المستعمرة، أنها حجرة فسيحة نظيفة جهزت لعودة الملكة من حفلة زفافها في الهواء.

وعندما يتم التلقيح تعود ومعها الملك ليدخلا الحجرة الملكية ولا يتركانها بعد ذلك أبداً لعدة سنوات قد تصل إلى الثلاثين أو الخمسين عاماً.

ويفقد الملك والملكة أجنحتهما، ثم تأتي الرعية أو الشغالة لتتمسح بملكتها كما يتمسح السذج بأضرحة الأولياء[1] ويحيط الملك والملكة حرس خاص من جنود أقوياء لا يغفلون عن الحراسة أبداً.

---

(١) لا نوافق الكاتب فيما ذهب إليه. فان استلام الحجر الأسود بمكة، واستلام أضرحة الأولياء أو التمسح بها، إنما هو لاظهار الولاء والحب، مع العلم أن ليس للمادة أثر في تقرب العبد إلى الله تعالى، وإنما يتقرب العبد إلى ربه بحب أوليائه، لأنهم عباد الله المخلصون، وبتقوية الرابطة بينه وبينهم بهذا الاستلام. لأنهم كانوا أذلاء لله مطيعين، وإنما يتقرب العبد إلى الله بالقيام بما قرب أولياء الله إلى الله من أعمال ليكون: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾. (سورة النساء: ٧١).

على أن هذا الحب (حب الأولياء) من رشحات الايمان. يعترف بذلك من جرب تكامله الايماني طيلة حياته.

ويأتي الشغالة ليقدموا للملك والملكة غذاء ملكياً خاصاً. . . وتظهر على الملكة أعراض الحمل. فتنتفخ بطنها حتى تصل إلى مائة مرة من حجمها الأصلي. فلا تستطيع أن تنتقل من مكان لآخر. وتتحول بعد هذا إلى آلة سريعة لوضع البيض، فهناك نوع يضع حوالى ٣٦ ألف بيضة في يوم واحد أو ١٣ مليون بيضة في كل سنة.

أما أعظم الملكات نشاطاً فهو جنس (ماكروتيرمس). ففي كل ثانية تمر، تكون الملكة قد وضعت بيضة. وتستمر هذه العملية دون توقف لمدة ثلاثين عاماً تكون قد وضعت فيها ما يقرب ٩٤٦ مليون بيضة.

ووراء الملكة يقف نفر من الشغالة لا تهدأ حركتهم. فعندما تضع الملكة البيض يحمله هؤلاء إلى حجرات خاصة تشبه حجرات التمريض حتى يتم فقسه.

فإذا ما تركت الحجرة الملكية من أي باب من أبوابها العديدة، لوجدت أمامك ما يشبه الشوارع والحارات التي تتصل بآلاف الحجرات.

فهناك ركن خاص للخدم يقومون بتنظيف المستعمرة، وركن خاص بالتمريض وفيه يربى الأفراد الجدد، ويقدم لهم طعام خاص، حتى يصيروا أفراداً جدداً ينضمون إلى رعية الملكة.

وتوجد عدة حجرات مغلقة، وهي سجن المستعمرة التي يساق إليه الأسرى من الحشرات الأخرى الحية. ثم تزج داخل هذه السجون تحت

فهنا هنا إضافة تشريفية، كجلد المصحف، فيقبل الجلد لاحتوائه المصحف، وكتقبيل الحجر الأسود، لقضية تاريخية لا مجال لذكرها. ونذكر الكاتب بقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وإن هذا التمسح ليدل أيضاً على احترام الأفراخ للأمهات. فليتعلم الانسان هذا الأدب الرفيع من هذه الحشرة فـ﴿الجنة تحت أقدام الأمهات﴾.

حراسة قوية، وبعدها يهجم عليها النمل الأبيض ليأكلها كما تفعل قبائل نيام نيام مع الجنس البشري.

وقد تجد في بعض المستعمرات مخازن لمواد التموين التي يحتاجها النمل من وقت لآخر. فإذا ما توجهت إلى أعلى المستعمرة وجدت صالة كبيرة تتصل بعدد وفير من الحجرات، وقد شيدت هذه القبوة الكبيرة لتجديد الهواء في المستعمرة.

إذا ثقبت عدة ثقوب في المستعمرة، لوجدت عدة فكوك قوية قد ظهرت أمامك، أنهم حرس المستعمرة الذين يسهرون على حراستها بالليل والنهار وهم يقفون على هذه الفتحات كأنهم يتأهبون لأي هجوم.

ثم تأتي الشغالة فيفسح الحرس لها مكاناً تنتقل فيه، لتقوم بعملية ترميم في هذه الثقوب، حتى تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

وللحراس وظيفة أخرى عامة. فهم يصحبون شغالتهم إذا ما تركوا مستعمراتهم سعياً وراء الرزق. فتراهم يحيطون بها من كل جانب ليدفعوا عنهم أي مكروه قد يصيبهم من أعدائهم.

وعندما يعود الشغالة إلى بيوتهم يقف حرس خاص على الأبواب ليمنع أي حشرة دخيلة قد تندس بين أفراد المستعمرة.

والمستعمرات تختلف في تعميرها على حسب النوع الذي يسكنها.. فهي قد تعمر سنوات قليلة، وقد يصل عمرها إلى ثلاثين عاماً أو أكثر وقد يصل إلى ١٠٠ عام.

فقد جاء في أحد التقارير أنه في عام ١٨٧٢ م كانت هناك مستعمرة ضخمة قائمة، عاقت الفنيين عند مدهم لأسلاك التليفون في بعض جهات استراليا. وكان لا بد من تحطيمها حتى يمكن أن يتمموا عملهم، فحطموها بالديناميت. وكان عمر المستعمرة في ذلك الوقت لا يقل عن ٣٥ عاماً. وبالرغم من هدم المستعمرة في عام ١٨٧٢، فقد وجدوها تزخر بالحياة حتى عام ١٩٣٥ ـ أي عاشت حوالي مائة عام».

* * *

وقد فات الكاتب أن يكتب شيئاً عن منطق النملة وطرق محادثتها. وأخلاقها ونفسياتها. فإن العلم الحديث لا يزال بعيداً عن التوغل في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في صميم المادة. ان الله تعالى يقول: ﴿وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين، وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على واد النمل، قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

وقد كشف أخيراً شيء عن منطق النحل بحركات تقوم بها. فإن النحلة تذهب للكشف عن أزهار فإن كانت هذه الأزهار قريبة رجعت ترقص رقصاً خفيفاً، تريد أن تفهم قرب الأزهار. وإن كانت الأزهار بعيدة، رجعت ترقص رقصاً متواصلاً سريعاً. ولعل هذه الحركات ترافق منطقها الذي لم يقف عليه العلم الحديث. بل وقف على الحركات فظنها منطقاً.

من الذي أودع تلك الحياة الاجتماعية الرائعة في حياة النملة وهذا المنطق والحركات في النحلة. كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر المتعال الذي أودع في كل زاوية من هذا الكون من وسائل الاعتبار والتدبر ما يبهر العقول. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ ولكن الله حصر الاعتبار، فالتوجه إلى الحق في الخاشعين المنيبين الطائعين بقوله: ﴿تبصرةً وذكرى لكلِ عبد منيب﴾. فلا يعتبر من اسودَّ قلبه بالاجرام ولا يسلم إسلاماً حقيقياً، على حد قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾. فلا يلتقي الاسلام مع الاجرام. فإذا جاء الاجرام انسحب الاسلام. وكان المجرم منسياً يلهو ويلعب كما يشاء، ﴿نسوا الله فنسيهم﴾. ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾. فيكون شيئاً فشيئاً مصداق هذه الآية، ونستجير بالله من ذلك: ﴿ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾.

* * *

كيف يتسرب الشك إلى النفوس

كيف يتسرب الشك إلى النفوس وتندك الفطرة فلا تعمل عملها. راقبوا أشخاصاً عندما كانوا فقراء بائسين وما كانوا عليه من اعتقاد بالله وصلاة وصوم وإحسان إلى الآخرين. ثم راقبوهم وهم قد خرجوا من مرحلة الفقر إلى غنى وثراء لا يعطون حقوق الله، يتجبرون ويتكبرون[1] ويتكلمون فوق ما هم مدركون. ظناً منهم أنهم قد بلغوا غاية الفهم ووصلوا إلى الحقيقة! حين أنه لا تناسب بين كثرة المال والمعرفة والكمال. فتراهم يتكلمون كثيراً ولا يريدون أن يصغوا إلى ما يفيدهم وينجيهم من عذاب أليم. راقبوهم في حالاتهم الخاصة تجدوهم لا يخضعون إلا لمادة أضخم وأرقى وأعظم. ولو أن هؤلاء أنفقوا مما منَّ الله عليهم من مال وجاه، وقاموا بحوائج الناس ولم يتكبروا وعاملوا الناس بأخلاق فاضلة، حضروا الجماعة وتفقدوا أحوال الفقراء وأوجدوا لهم عملاً يقتاتون من ورائه، لم يتسرب الشك إلى نفوسهم بل ازدادوا إيماناً ويقيناً بالله وأصبحوا ملائكة تتنور الأرض بنور إحسانهم وتضيء ببركات أعمالهم ولنالوا سعادة الدارين.

ولعلك تقول أني أجد شباناً في مقتبل العمر، لم يملكوا شيئاً من الثراء، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، ولكنهم مع ذلك منحرفون غير عاملين بما أمر به الدين. نفوسهم مدلهمة، مظلمة، لا يصلون ولا يخشعون، ولكن إذا اعترتهم كارثة عظيمة توشك أن تؤدي بحياتهم تمسكوا بالخالق العظيم. فما سبب انحراف هؤلاء؟

وقد حققت عن سلوك هؤلاء وحالاتهم النفسية وأخلاقهم الشخصية. فألفيتهم ضواري وحيوانات مفترسة عند الاستطاعة وسنوح الفرصة، لا يبالون

---

(١) ان الله تعالى يقول: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾. وفي الحديث: «أكثر أهل النار المتكبرون».

بارتكاب المعاصي وأنواع الفسق إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. غير وصولين آباءهم وأمهاتهم وأرحامهم. هتاكين للحرمات، فهم في خلواتهم غير ما هم في محاضرهم.

وإنما الايمان رشحات الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والقيام بأداء الحقوق الواجبة (بل المستحبة).

لذلك ترى الايمان عند هؤلاء ضعيفاً بل قد تجده عند البعض منهم معدوماً فهم لا يصلون ولا يقدسون المقدسات. بل ملء صدورهم الشكوك والريب، يستهزئون بالمقدسات إذا خلوا بمن يوافقهم في طيشهم ومروقهم.

فلا يفيد في هؤلاء النصح والوعظ والارشاد بل إصلاح هؤلاء يكون، اما بنظام صارم يبعدهم عن ارتكاب الموبقات ويفرض عليهم القيام بما أمر به الدين، فتلين قلوبهم شيئاً فشيئاً، (لأن الرياء، كما يقال، قنطرة الحقيقة). وأما بترك ما هم عليه من مدنسات وآثام وعقوق وكذب وأخلاق فاسدة ومعاملات غير مشروعة «الدين المعاملة» بصورة تدريجية. فإن نفوساً مدلهمة مظلمة لا تستطيع تقديس الله تعالى وتعظيمه، وإن حب الله تعالى لا يحلُّ إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت[1] السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ[2] عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل[3] قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً[4] قال هذا ربي. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم أني بريء مما تشركون، أني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، حنيفاً، وما أنا من المشركين﴾[5].

---

(١) أي عجائبها وبدائعها.

(٢) أي ستره الليل بظلامه.

(٣) غرب.

(٤) طالعاً.

(٥) سورة الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩.

إن هذه الآية تعلمنا الطريقة التي يجب أن نسير عليها لارجاع المنحرفين إلى الفطرة. فإن ابراهيم (ع) يفرض أن ربه وخالقه كوكب رآه في الليل، ثم رآه آفلاً غائباً عن الأنظار فعلم أنه متغير ومتحول من مكانه. والتحول لا بد له من محوِّل، فهو إذن محتاج إلى غيره مُسَيِّر بارادته. وان شيئاً كهذا غير قائم بنفسه لا يكون رباً بل هو مربوب: والرب هو المحرِّك لهذا الكوكب والمنظم لحركاته، لأفوله وشروقه وحركاته الأخرى...

يستنتج من كل ذلك أن لا بد للمحدث من محدِث ولا بد للنظام من منظِم، لا سيما إذا كان هذا النظام بالغاً أسمى مراتب الدقة، فيه من المعادلات والدساتير ما لا يحيط به البشر مهما تسامى في عالم التفكير. «ومن أين جاءه هذا التفكير؟».

إذن وجب أن يكون هناك خالق قدير عليم، خلق هذا الكون بقدرته، وجعل فيه من النظم والدساتير، ما لا يصل إليه البشر، بعلمه. خالق لم يخلقه غيره، خالق أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء، وهو خالق كل شيء، معطي الوجود، ولم يعطه الوجود غيره.

إن العقل المجرد عن الشوائب والمدنسات ليحكم بصورة فطرية أن لا بد من إله موجود من تلقاء نفسه، أزلي ليس بحادث، قديم لم يسبقه شيء، هو موجد جميع ما في الكون المادي والمعنوي بهذا النظام البديع. كان ولم يكن معه شيء.

فطوبى لأولئك الذين لم يحجبوا الفطرة بتلويث نفوسهم ولم يحجبوا العقل السليم بسوء فعالهم ﴿صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة﴾. فصاروا إلى جنات الخلد مهنئين فرحين مستبشرين.

* * *

فمن أحسَّ بشك أو شكوك في نفسه. فما عليه إلا أن يبدأ حالاً بمعالجة نفسه: بأن يترك ما نهى الله عنه من موبقات لقوله تعالى: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[1]. وأن ينتهي عما كان عليه

(١) سورة يونس: ٣٤.

من اجرام وظلم لقوله تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

وأن يطهر مأكله ومشربه ويجعلهما من مورد حلال طيب، وأن يجانب الترف لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها أنا بما أرسلتم به كافرون﴾. وقد قال رسول الله (ص): «لا تجالسوا الموتى، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: كل غني مترَف».

وأن يساعد الفقراء والجيران ويتفقد أحوالهم فقد قال رسول الله (ص): «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع». وفي حديث آخر: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله».

وأن يبذل من فضول ماله». فقد قال الله تعالى: ﴿ومن يوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. أي ومن يُحفظ من شُحِّ نفسه. والشح أشد البخل.

وأن يترك الكذب. فقد جاء في الحديث: «الكذب يجانب الايمان». وفي حديث آخر: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار». وفي حديث آخر: «إياكم والكذب. فإنه جمَّاع الآثام». وقد قال أحد الفلاسفة: بترك الكذب يوقن الانسان بخالق معبود عظيم».

وأن يترك الغيبة والنميمة والافتراء والخيانة. فقد جاء في الحديث: «الغيبة أشد من الزنا». وفي حديث آخر عن الرسول (ص): «يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته فيقول: الهي، ليس هذا كتابي. فإنه لا أرى فيه طاعتي. فيقول الله تعالى له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر يدفع اليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي، ما هذا كتابي. ما عملت هذه الطاعات. فيقول الله سبحانه: ان فلاناً، اغتابك فدفعت حسناته اليك».

---

(١) سورة الشعراء: ٢٠١.

وأن يبرَّ والديه ويصل أرحامه. فقد جاء في الحديث: «ووالديك فبرَّهما وأطعِمهما حيَّين وميِّتين، فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان». وفي حديث آخر: «لا صدقة وذو رحم محتاج».

وأن يترك مجالسة الأوغاد ويترك مجالس اللهو وسماع الأغاني المحرمة. فقد جاء في الحديث: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار». الا إذا كان بغية الارشاد والهداية. وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله». وقال علي عليه السلام: «جالس أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر ومن يصدُّك عن ذكر الله، تبِن عنهم».

وأن يجالس الفقراء والمساكين ويسير في حوائجهم. فقد جاء في الحديث: «إن الفقراء هم صفوة الخلق، وان من أراد الله فليطلبه عند الفقراء». وقد قال محمد الباقر (ع) وهو الامام الخامس: «إياكم ومجالسة الأغنياء، فإن الانسان يجالسهم وهو يرى أن لله عليه نعمة، فما يقوم حتى يرى أن ليس لله عليه نعمة».

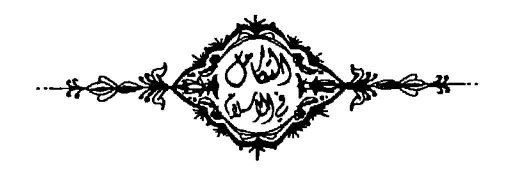
إن الشك لا يأتي إلا من جراء ذهاب العقل ولا ينسحب العقل إلا من جراء رجس في النفس والرجس أساسه الذنوب وعدم القيام بما أمر الله من عبادة وأخلاق فاضلة وتراحم وتعاطف على حد قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾. (سورة يونس: ٩٩).

وإن كل عمل صالح يؤدي إلى قليل من الهداية، فقليل من الايمان، ثم ان الله تعالى يزيد في إيمان الشخص تفضلاً منه ورحمة. فيزداد العبد إيماناً ويقيناً على حد قوله تعالى: ﴿أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾. (سورة الكهف: ١٣). فالناس مجزيون بأعمالهم ومؤاخذون حسب أفعالهم. فقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أعمالكم تَرِد إليكم».

فطوبى لأولئك الذين قاموا بإصلاح نفوسهم بعزم رصين وأزالوا عنها

الشكوك والأوهام، فازدادوا إيماناً ويقيناً وخرجوا من الظلمات إلى النور: ﴿أو مَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[1].

إن العقل لو لم يلوث بالمعاصي والآثام وبقي على فطرته لا يصيبه أي شك فيعترف بصحة كل ما جاء في الدين الاسلامي الحنيف، على حد ما قاله سيد الوصيين علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل، لو سلم من أسر الهوى». فلا شيء ترتاح إليه النفس الانسانية، كدين الاسلام، إن بقي العقل على فعاليته. ولا شيء كالضلال ترتاح اليه النفس إن انسحب العقل عن فعاليته: ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾.



(١) سورة الأنعام: ١٢٢

تفنيد أقوال الماديين

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾[1].

فالله تبارك وتعالى بعظيم قدرته: تلك القدرة التي ليس للبشر أن يصل إلى شيء من حقيقتها، يفلق الحب والنوى، فيكون نباتاً وشجرة ذات جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار. ولو كتب في هذا السير التكاملي للنبات مئات الصفحات، للزم أن تدون أيضاً آلاف الصفحات. أفيكون كل هذا من تلقاء نفسه، هذا ما لا يقره حيوان فكيف بإنسان؟ ولكن، مع الأسف يغلق هذا الانسان على نفسه الاعتراف بوجود الله، بما كسبت يداه، إن الله تعالى يقول: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم﴾. (سورة يونس). ولا تحق كلمة الله عليهم إلا لما اجترحت أيديهم من معاصي وآثام تقشعر منها الجلود وتستك منها الآذان.

فهل علم العلم الحديث كيف يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وما حقيقة الحيوية؟ وكيف تتولد هذه الحيوية ومن المعطي لها؟ إن ما يقوله الماديون لا يستند على تفكر علمي مركز خال من الهذيان. إنما هو تخيلات يرافقها خبث وظلمات وتصورات باطلة لا يدعمها دليل علمي أو تأييد تجربي. بل هو اتباع للهوى ولما يمليه عليهم شيطان سيطر على عقولهم، ﴿أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾. (٤٣/٢٥).

إن الماديين يتذرعون بما قاله داروِن عن تكامل الأنواع. وهو ليس ممن أنكر الخالق. وقد قال: «أني لا أعلم كيف جهز هذا الانسان بالعقل

(١) سورة الأنعام: ٩٥.

والمنطق. وقال أيضاً: ان الأنواع مشتقة كلها من أصل واحد، أو أصول معدودة، نفخ فيها الخالق روح الحياة».

فـ(دارون) يعتقد بأن الأنواع استمدت الحياة من خالق أوجدها، ثم أخذت بالتنوع على مقتضى نظرية الانتخاب الطبيعي. وقد ردت نظرية الانتخاب الطبيعي من قبل علماء آخرين جاؤا من بعده.

قال العلامة المشهور (روسل دلاس) نديد (دارون) في كتابه (عالم الحياة): «إن الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية طبيعية وكيماوية، بحيث أنه من العبث المحض أن يحاول علماء الأحياء الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية».

وقال أرنست هيكل الألماني:

«إن كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها».

وقال توماس هكسلي:

«الحياة هي علة الأجسام، لا أنها نتيجة لها. لأنه لا يصادف الباحث في الأميبا: (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها. فإن هذه الأحياء لا شكل لها ومجردة عن الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة ومع ذلك فإنها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة. حتى أنها تستطيع أن تبني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال».

نعم، إن (دارون)، كما قلنا لم يكن منكراً لمبدع هذا الكون إلا أن الماديين المتهوسين، هؤلاء الذين طغت نفوسهم، فبغت، فلفقت هذه الأفكار الزائفة التي لا يرافقها المنطق بحال، نسبوا إليه نظرية النشوء بشكل يعطل تصرف الله تعالى في هذا الكون. كمدمن الأفيون يعزو كل كمال وصحة إلى الأفيون!.

قال بعض العلماء المحدثين: إن كل كائن حي غير مولود ولا متكامل عن حي آخر. وان كل حي قد خلق بصورة مستقلة وان كان هناك تشابه في بعض الأصناف.

وقال القسم الآخر من علماء العصر الحاضر: «إن الله تعالى خلق عدداً معيناً من الكائنات الحية وأودع في قسم منها قابلية التكامل، فتكامل البعض منها بإذن الله وبما أودع الله فيها من قابليات وإمكانيات، فوجدت أصناف مختلفة وفصائل متعددة والأمر كله لله».

وقد ثبت أخيراً أن البيئة لا تؤثر في خلق عضو أو إيجاد كائن حي أكمل وأرقى. وإن أثر البيئة ضئيل جداً وأثرها ينحصر في العوارض الخارجية كاللون. حتى أن الطول يعزى إلى عامل وراثي ولولاه لما اختلفت الأطوال.

ثم زاد هؤلاء الماديون فقالوا: «ان الاستعمال مولد للعضو وموجد إياه» (Fonction fait organe) وقالوا: «إن الحاجة تولد العضو». حين أنه قد ثبت: أن عضواً من الأعضاء، مهما استعمل في ناحية من النواحي ومهما دعت الحاجة لا يأتي بعضو جديد. فمن ولد مثلاً مقطوع الكفّ، مهما استعمل يده، لا يولد له هذا الاستعمال كفاً وإن توالت الدهور.

إن المادي ليعترف أن لا حد لقدرة الطبيعة، وأن هذه الطبيعة تخلق كل شيء ولها منطق وعقل وتدبير، تنظم الأشياء وترتبها خير ترتيب، وتربط بينها بدساتير رياضية متقنة، تؤدي إلى دوام واستمرار. إذن، فليقل لنا المادي، دونما مغالطة، ما هي على وجه التحديد هذه الطبيعة التي تخلق كل شيء ولا حدود لقدرتها على حد تعبير داروين؟.

فإن لم تكن الطبيعة شيئاً معيناً له حدود معلومة وماهية مفهومة، فما المبرر المنطقي أو العلمي لترك فكرة الإله والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة. أليست القضية، قضية عاطفة متحجرة وقلب أعمى، يبصر الحق فينكره. وقد جاء في الحديث: «ما ضُرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب». ولعل المادي يريد أن يرى الهاً يشبهه من حيث الأعضاء، أي الهاً محتاجاً إلى أعضاء ومركباً من أجزاء. ولكن المحتاج مصنوع بيد من يرفع حاجته،

والرافع للحاجات لا يشبه خلقه في شيء، وهو غير محتاج إلى غيره وهو الله سبحانه. «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً».

غريب أمر هؤلاء الماديين. يرون حادثة أو حادثتين فيفسرونها تفسيراً خاطئاً، حسب ميولهم، لأنهم ملحدون قبل العثور على مكتشفات العلماء: تلك التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على عظمة الخالق جل جلاله. فيستنتجون من هذه الحادثة أو الحادثتين استنتاجاً باطلاً يوافق أهواءهم.

نعم، انهم قبل العثور على هذه الحادثة أو الحادثتين كانوا ماديين منحرفين عن الصراط السوي. ورأوا أن هذا الظرف من الزمان هو ظرف العلوم والمكتشفات، ومن لا يسند ادعاءه، بل هوى نفسه إلى العلم ولا يتفكر كلمة(Science) يعد جاهلاً وتُردَّ نظريته!، فأخذوا ينسبون أفكارهم الزائفة التي هي من رشحات أهوائهم وانعكاسات نفوسهم إلى العلم، والعلم منها براء. وقد يبلغ ببعضهم الطيش درجة قاصية، فيسمي هذيانه (من عندّياته) فلسفة. حين أن مرحلة الفلسفة متأخرة عن العلم، الفلسفة: هي الربط بين عصارات العلوم وحقائقها. فما لم يثبت علمياً كيف يجوز أن تُحاك منه فلسفة في عصر الذرة.

وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (صفحة ١٩٩): عدم إمكان القول بالصدفة، مع ما نرى من أجزاء لا تتناهى قد ترتبت بعضها أثر بعض بطريق منطقي. وهل رأيت سيارة توجد مرتبة أجزاؤها ترتيباً محكماً بالصدفة؟ أو صاروخاً يحدث صدفة، وأيهما أعقد؟ المكروب مع ما فيه من حياة، أم القمر الصناعي المسير بقوة الصاروخ أولاً، ثم حسب ما أودع الله في الكون من قوة جاذبية ثانياً؟ وما قيمة القمر الصناعي تجاه قدرة الله تعالى؟ على أن الانسان لو لم يجهز بعقل فعال... ولم يكن قدخلق الله قبلاً ما يصنع منه الصاروخ من عناصر ومواد وقوى. فهل كان من الممكن الوصول إلى القمر الصناعي؟ فماذا الجحود؟ ثم مَن هو الذي أوجد المادة الأولى وأوجد فيها تلك القابلية الهائلة، حتى تنبثق منها هذه القوى الهائلة المدبرة المرتبة. ومن جهزها بعقل حتى تودع هذا السير التكاملي في النبات والحيوان وتعطي الحياة للكائنات الحية وتجهز الانسان بعقل مرتب منظم،

فإن فاقد الشيء لا يعطيه! فلا بد وأن العاقل الأزلي، العاقل الذي لا يدرك مدى عقله وحكمته هو الذي خلق العقل وهو الله سبحانه. «تعالى الله عما يشركون».

كان يقول (لافوازيه) الكيميائي المعروف ببقاء المادة: (Rien ne se perd, rien ne se crée) أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث. أنه اعترف بقوله: (أن المادة لا تخلق من تلقاء نفسها: Rien ne se crée) أن لا بد من وجود خالق أزلي حكيم هو خالق الأشياء كافة، أودع فيها نظماً ودساتير عميقة، وأن المخلوقات تتأثر بعوامل شتى وليس الله بمتأثر بشيء وهو المؤثر وحده. وهو خالق الزمان والمكان، ولا يمكن أن يتصور وقت لم يكن الله فيه موجوداً، فهو أزلي أبدي سرمدي.

قد فُند قانون (لافوازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة، فيجب أن يسمى الروم بقانون تبادل الألكترونات. فإن قانون (لافوازيه) المذكور لا ينطبق في الانفعالات النووية وفعالياتها، بل ينطبق على فعالية الالكترونات وتغييراتها الخارجية ولمدة موقتة أي بمقدار عمر الأرض.

إن نظرية (دالتون-لافوازيه) تدرس منذ ٢٠٠ سنة في الجامعات، وقد أدت إلى تحريف أفكار بعض الشبان لتفسير البعض إياها تفسيراً خاطئاً يوافق ميول الملحدين مع ما فيه من خطأ فاحش. ذلك لأن نفوساً ضالة جعلتهم يظنون أن المادة (الصماء) شيء أزلي وأبدي وهي باقية دائمة لا نفاد لها ولا زوال. فاستنتجوا خطأ قِدم العالم المادي وعدم وجود خالق له.

لقد تحطم قانون لافوازيه مع تحطيم الذرة وفلقها ومعرفة الالكترون والبروتون المشكلين للذرة. وثبت أن هذا العالم المادي مجموعة طاقات تكدست على شكل لا يعلمه إلا الله تعالى حتى صارت مادة بأنواع مختلفة وترتيب يؤدي إلى وجود هذا العالم بهذا النظام البديع. ولا يمكن حدوث هذه المراحل اللانهائية الدقيقة المترتبة والمؤدية إلى هذه الحياة إلا بالاعتراف بعاقل جبار لا نهائي وهو الله تعالى. ففي ملعقة من الزئبق طاقة تتمكن من تسيير قطار كبير سبع مرات حول محيط الأرض. وان الجهد الكهربائي الذي يمكن الحصول عليه عند انفلاق الذرة يعادل ستة ملايين

فولت حين أن جهداً كهربائياً مقداره ٢٢٠ فولتاً يؤدي إلى هلاك الانسان. وان قانون أينشتاين: $E. = MC^2$ الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة، مضروبة في مربع سرعة الضوء) يجعلنا نعلم مقدار ما كدَّس الله تعالى من طاقات لايجاد هذه العوالم.

وقد أثبت العلم الحاضر أن جميع ما في الكون من مواد وعناصر ستتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله الكريم ﴿كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون﴾[1] وذلك لأنهم رأوا أن الالكترون الموجب يتصادم مع الالكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الالكترونين ويفنيان وهذا ما يدعى(Annihilation de la matière) أي انعدام المادة أو موت المادة. ان الله تعالى يقول: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ (٢٧/٥٥).

ما أعظم القرآن حين يقدم لهذا البشر خلاصة ما يمكن أن يتوصل إليه العلماء بعد جهد جهيد.

أين (بخنر) هذا المادي المعروف حتى يرى ما توصل إليه العلم، حيث جعل أساس الموجودات: القوى (أو الطاقات) وأثبت أن الموجودات: كلما ابتعدت عن المادية، كلما كانت كثيرة التأثير وكثيرة الفعالية، كالكهرباء والنفس والعقل والملائكة... إلى ما هنالك.

أين (بخنر) حتى يرى أن مئات الأطنان من مواد وعناصر تنعدم في كل ثانية في الفضاء وتتحول إلى أشعة وأمواج وينقص بصورة تدريجية من وزن الأرض ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾[2].

أو لم يفكر هذا المادي من أين جاء لهذا الانسان هذا المنطق والاستنتاج والاستقراء والتعميم والتجريد. وكيف تمكن من النطق وربط ما

---

(١) سورة القصص: ٨٨.

(٢) سورة الرعد. الآية: ٤١.

في الدماغ بالناطقة. أفيحدث كل ذلك بأعمال انعكاسية؟ وما معنى الانعكاس في حل المسائل المجردة وما تأثيره؟ ان هذا لهذيان!.

وهل التفكير عمل ميكانيكي وهل هو نتيجة الفيتامينات التي تأتينا مما نأكل ونشرب. فلماذا لا يمكن معالجة الغباوة والبلاهة وإيجاد نبغاء بالفيتامينات، فإن كان ذلك ممكناً لأمكن أن يكون الناس كلهم علماء في الرياضيات العالية! وفهموا جميعاً «نظرية النسبية» بدساتيرها.

وقد جرحت نظرية «العقل السليم في الجسم السليم» فقد شاهدت في الجامعة شاباً نحيفاً ضعيف المزاج، كان بارعاً في الفيزياء الرياضية العالية. وما قولك في الرياضيين برياضات بدنية(Athlètes) ، فلقد وجدتهم أبعد الناس عن التفكير المجرد. وهل علم العلم المادي كيف يحدث النبوغ وما سببه. هل هو مادي بحت، أم ماذا؟.

ثم من أين جاء لهذا الانسان الحدس(Intuition) وما علاقة (الحدس) بالأعمال الانعكاسية؟ ان الرياضي ليعترف أن (الحدس) يلعب دوراً هاماً في حل المسائل الهندسية والحسابية وكشف النظريات، وقد يصل الانسان إلى حل مسألة بإلهام خاص.

ثم أن الصدفة (المصادفات) تلعب دوراً هاماً في المكتشفات الحديثة، فبينما يعمل المكتشف في تجربة ما ليعلم ماذا سيحدث بنتيجة هذه التجربة وإذا به يسهو فيربط الأسلاك على غير ما يريد، فتحدث حوادث جديدة وخواص غريبة فتفتح على المكتشف أبواباً جديدة من العلم. وهكذا كشف ربط الاسلاك بصورة متوازية في الأعمدة (بحث الكهرباء) وكشفت الأشعة السينية(Rayon x) وكثير من مخترعات أخرى لا مجال إلى ذكرها. ذلك لأن الاكتشاف هو الظفر بما أودع الله من خواص ودساتير في الكون. وهل للمادة الصماء أن تضع دساتير؟.

- ذكر لنا مدرس الهندسة التحليلية في الجامعة، أنه قد أشكلت عليه مسألة، فكلما فكر فيها لم يقوَ على حلها. وذات ليلة رأى في ما يرى النائم أنه يحل المسألة بصورة صحيحة. فانتبه من نومه فزعاً وقال لزوجته أئتيني

بالسراج حالاً لأدوِّن الحل، فأتت له بالسراج ودّون الحل وكان الحل صحيحاً.

يقال: ان العقل الباطن كان يعمل طيلة ليلته في حل المسألة. ما حقيقة العقل الباطن؟ وما الذي جعل العقل الظاهر مع ما بذل من جهد جهيد طيلة أيام أن يتقاعس أو يعجز عن الحل، حتى تصل النوبة إلى العقل الباطن؟ وما النسبة بينهما؟ أللانسان عقلان؟ ثم ما حقيقة الحدس؟ وكيف يلهمنا حلولاً عجيبة لم تكن بالحسبان. وما علاقة العقل الباطن أو الحدس بالالهام؟ وما مبلغ علم البشر بهذه الحالات النفسية، فإنه لا يتجاوز عن بعض الظواهر بصورة ناقصة! ونظريات تجرح وتعدَّل من وقت إلى وقت.

* * *

قد قطع قسم كبير من ظفر (أديسن) أثناء قيامه بتجربة في مختبره. فزاره صديقه المهندس وتأسف لما حدث. فقال له (أديسن): سأعرض ظفري هذا على طبيب حاذق، وسيعيده على ما كان عليه بعد مرور ٤٠ يوماً. فقال المهندس متعجباً: «ومن هذا الطبيب الحاذق؟» فقال أديسن: هو الله.

غريب أمر هؤلاء الماديين فانهم مع جهلهم وإخفاقهم في فهم العلوم المادية. كنظرية (أينشتاين) النسبية، يعطون أحكاماً سخيفة لا تتفق والواقع في شيء. هل كان أحد هؤلاء الماديين يقوى على حل ما صعب من معادلات تفاضلية(Equations différentielles) وهل كان أحدهم يقوى على حل غوامض نظرية السطوح في الهندسة التحليلية؟.

غريب أمر هذا المادي. أنه يرى أن المكتشف يصرف سنين من الوقت للعثور على قانون أو نظرية مع ما أوتي من قوة في التفكير والمحاكمة والحافظة وتفوق على الأقران. ثم يقول بعد ذلك كله: ان المادة (الصماء) هي التي صنعت بنفسها هذا القانون وشقت طريقها لتنال كمالاً أو لتتكامل! أو أن تكامل هذا الكائن الحي كان نتيجة طفرة! Mutation أو طفرات

عجيبة! . (Mutations tératologiques) . ولا يفكر أن إرادة الله هي التي مكنت لهذا الكائن الحي أن يأخذ بهذه الطفرة المرادة من جانب الله شكلاً خاصاً. وأن إرادة الله تعالى ومشيئته هي التي أوجدت الامكانيات.

أنى لهذا الكائن الحي وهو في غاية الضعف وتمام الاحتياج (كالانسان) أن يجد لنفسه من العدم شيئاً ويؤسس لنفسه طريق التكامل. فما بال الانسان لا ينوي على ذلك؟. . . ليجعل نفسه غير محتاج إلى كثير من الأشياء. مكنهم في النفوس تضل وترتد بسوء اختيارها ومجونها وطيشها.

إن الله تعالى يقول: ﴿ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون. قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [1].

ويقول الله تعالى في مكان آخر: ﴿ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾[2].

وفي آية أخرى: ﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون[3]. لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[4].

كانت فرضية(Hypothèse) التطور: (Evolution) وأعني بها فرضية: (لامارك ـ دارون). قد أثرت في نفوس كثير من الناس، ففسروها تفسيراً خاطئاً حسب ميولهم النفسية، مما أدى إلى الاعتقاد بأن الكائن الحي في تغير مستمر من تلقاء نفسه وليس له حالة ثبات ولا استقرار، وأن هذا الكائن

---

(١) سورة يونس: ١٠١.

(٢) الأنعام: ١١١.

(٣) يعرجون: يصعدون.

(٤) سورة الحجر: ١١ ـ ١٥.

الحي يتلاءم(Adaptation) في نموه مع البيئة، فيتغير بحسبها. وان البيئة هي المؤثرة في تغير وتطور هذا الكائن الحي بما فيها من مؤثرات وعوامل! حتى أنهم أرادوا تفسير ما يدرس في علم طبقات الأرض من مواضيع حسب هذه النظرية المغلوطة. حتى أن البعض منهم فسروا أخلاق الأمم ومعتقداتها حسب هذه النظرية وعزوها إلى اختلاف البيئة أو المحيط!.

ولكن سرعان ما وجد علماء آخرون شكوا في صحة تطبيق نظرية (دارون) وفحصوا الكائنات الحية على اختلاف أنواعها فحصاً دقيقاً وجربوا واختبروا كثيراً فلم يظفروا بما قاله (دارون) من حلقات رابطة بين الكائنات الحية جميعها. وعلموا أن الكائنات الحية قد خلقت كل حسب فصيلتها ونوعها بصورة مستقلة دون أن يتكامل عن (آميبا) = الكائن الحي ذي الخلية الواحدة.

وعلموا أيضاً أن التركيب الوراثي(Génotype) والتركيب الحيوي (Biotype) هما أساساً الأنواع. وهما يبديان مقاومة دائمية عنيفة تجاه الحوادث الخارجية أي لا أثر للبيئة عليهما أبداً. ولقد ثبت أيضاً أن ما هنالك من استعداد وقابليات للتكامل والنمو في الدواب والكائنات الحية، موجود ومعبأ في العامل الوراثي(Géne) أي في ذرات النطفة بصورة ثابتة ولا تأثير للبيئة في حصول هذه التطورات والتغييرات.

كما أنه لا تأثير للبيئة في حدوث الطفرات(Mutations) التي نشاهدها في ذرات النطفة أي في(Gène) . وأخفقت النظرية القائلة: «أن تغيرات البيئة التدريجية هي السبب الرئيسي في حدوث الطفرات».

يقول أميل كوينو(Emil Guynot) : «ان الطفرات تحدث دونما علة أو سبب، بل بالصدفة». وهذا دليل على أن هنالك خالقاً قد أمر بهذه الطفرة وكوَّنها. وهذا ما أدى إلى هانري بركسون(Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسي أن يكون موحداً.

«وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحد»

عبثاً يحاول هذا المادي أن يبرهن ويثبت، وأن سمى المادية مادية نظرية

أو جدلية. ذلك إنه يعترف في كتاباته حين يعجز عن الاستدلال: أن العلم لا يؤيد ما يقول. وإنما العلم سيكشف له في المستقبل صحة ما يدعيه الآن، وصحة ما يعجز عن فهمه وتطبيقه وفق معطيات العلم في الوقت الحاضر! وهل يجوز التمسك بقواعد نظرية تخالف العلم، رجاء أن يأتي زمان يكشف فيه العلم صحة النظرية!.

فأنت أيها المادي جئت، مع جهلك بحقائق الكون، جهلاً غير متناه، بنظرية ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر[1] الجبال هدا﴾ (سورة مريم: ٩٣).

* * *

ولنعد إلى ما يقوله المادي(Matèrialiste) أنه يقول: الوجود قديم، وان المادة قديمة، وهي مصدر كل ما وجد في العالم، تلازمها خصائص لا تنفك عنها وهي ترقى من الجماد إلى أكبر عالِم ألمعي! والمادة مقودة بنواميس غير متزلزلة، ولا عقل للمادة ولا شعور. ولكنها تعمل في خلق أشياء في غاية الاتقان وكمال النظام! لا تنفك عن حكمة وعقل جبار. وان ما يُرى من آثار التدبر والتعقل في سير الحوادث وارتباطها ينتهي بالتحليل العلمي! إلى المادة الأولية وما فيها من خصائص ذاتية. ولا شيء وراء المادة. وما يقال عن ما وراء الطبيعة ونزول كتب سماوية وإرسال أنبياء إنما هو كلمات فارغة تمسك بها الجهال وبعض الناس لأغراض خاصة ومصالح معينة، وسوف لا يمضي قرن أو قرنان حتى نرى العالم أجمع يدينون بالمبدأ المادي ويسيرون على المحجة المادية البيضاء! ويخرجون من دياجير الظلمات والخرافات إلى حيث الحق والواقع!.

هكذا يتخبط المادي في إدعاءآته ومن عندياته ومتناقضاته. انه يقول: الوجود قديم ويريد به المادة. ويقول المادة قديمة. هل من الطريق العلمي أن ندعي شيئاً دونما دليل. فإذا كان المادي يتبنى فلسفة حسية فكيف يجوز له أن يدعي شيئاً لم يحسه ولم يره. وأن يقول بقدم المادة وأنها غير

(١) تخر: تسقط.

مخلوقة، مع اعترافه أنه يجهل أصول الكائنات ومصائرها. وهـل يتمكن المادي أن يتسلسل بصورة غير خيالية، بصورة غير ظنية ولا حدسية من المادة الأولى إلى وجود العقل الانساني، فيوضح لنا بصورة متقنة وأدلة متينة مراحل هذا التسلسل وعللها. هل له أن يقول مثلاً عن علة حدوث الماء بنتيجة اتحاد الأوكسجين والهايدروجين بنسبة معينة بعد إمرار تيار كهربائي. ما أثر هذا التيار وما حقيقته؟ هل تمكن المادي من أن يفسر لنا حقيقة الجاذبية ومن أين أتت وكيف صارت وهكذا يفسر لنا حقيقة الكهرباء وحقيقة (الابصار)، وحقيقة السماع، وحقيقة العقل، (ولعله لا يعترف بالعقل) ألم يتوغل هذا المادي في أعماق العلوم كي يرى هنالك من مجاهيل لا تتناهى عدداً وإحصاءاً، ألم يعلم عندما اكتشفت (الأشعة الكونية) نادى العلماء بصوت رفيع: أننا أصبحنا أمام أودية من المجاهيل... ماذا يقول المادي، لو سألناه: هل مجهولاتنا بالنسبة إلى مـا في هذا العـالم من خصائص ومعادلات وحقائق أكثر أم معلوماتنا الناقصة التي تصحح وتعدل يوماً بعد يوم؟.

أليس الأفضل أن يتمسك المادي بآخر ما توصل اليه العلم الحديث من حقائق الذرة، فيعترف بأن المادة مخلوقة. وأنها طاقات تكدست فأصبحت مادة بمقدار معين على ما ثبت أخيراً في علم الذرة. ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾[1]. ذلك لأن الشيء غير مؤثر في نفسه وغير قادر أن يغير شيئاً من ذاته. فالتمسك بما أثبته العلم بعد جهد جهيد أولى من التمسك بأمر خيالي لا يدعمه دليل. فإذا كان الأصل هو الطاقة (لا المادة) وأن الطاقات تكدست فكانت عناصر مختلفة كالحديد والأورانيوم والألمنيوم و... وأشياء أخرى لا نعلمها بنسب معينة وبنظام خارق ومعادلات متقنة: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[2]، إذن وجب أن نعترف للطاقة بعقل جبار وفعالية غير متناهية وإدراك وشعور. وهذا ينافي ما يدعيه المادي. وبما أن الشيء حسب قانون القصور الذاتي الثابت في علم الفيزياء، غير مؤثر

(١) سورة القمر: ٤٩.

(٢) سورة الرعد: ١٠.

في نفسه، فلا بد من مؤثر خارجي قد أثر في هذه الطاقات بحكمة فائقة وتدبير خارق، وهو لا يشبهها في شيء، حتى كان هذا العالم الذي نراه.

ثم نسأل المادي: أليست المعادلات ووضعها نتيجة عقل مفكر جبار، لا سيما إذا كانت متعددة تكاد لا تحد، أليس تنظيم أجزاء وأعضاء الحشرة أو الحيوان دليلاً على عقل فعال، لا سيما إذا كانت هذه التنظيمات في الجماد والنبات والحيوان متعددة إلى حد تكاد لا تتناهى وبأشكال مختلفة ونظم حكيمة متباينة، هذا عدا ولوج الروح فيها.

ثم هل الترتيب بين الأجزاء يولد الحياة وما العلاقة بين الترتيب والحياة؟ وليس هناك إلا دعوى وخيال وهوى نفس ضلت عن الطريق بآثامها وقساوتها. ﴿انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. ان المادي يقول بنظرية لابلاس: ان الشمس والكواكب التابعة لها كانت في البداية قطعة من السديم، ثم انتزعت منها هذه الكواكب وإلى مسافات معينة وصارت تدور حول الشمس بحكم الجاذبية، وان الأرض كانت ابتداء قطعة من نار: (معادن مذابة) كما يظهر لنا ذلك عندما ننزل إلى باطن الأرض مسافة يعتد بها. فإن درجة الحرارة تزيد (٣٠) درجة مئوية لكل كيلو متر عمقاً. وهكذا تبلغ نحو عمق (٥٠) كيلو متراً من سطح الأرض درجة انصهار الصخر وهي تقع ما بين ١٢٠٠ درجة مئوية و ١٨٠٠م. والبراكين وما يخرج منها من صخر منصهر خير دليل على ذلك. فالكرة الأرضية، بناء على هذا، تتألف من قشرة كروية جامدة سمكها نحو ٥٠ كيلو متراً، تلتف حول قلب الأرض التي هي نار حامية: من صخر مصهور ومعنى هذا أن لب الأرض سائل ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[1].

فإذا كانت الأرض عند انتزاعها عن الشمس ناراً حامية فلا يبقى فيها كائن حي ولا أساس للحيوية. فكيف يفسر لنا المادي وجود الكائن الحي على وجه الأرض وكذا النبات وما فيه من نظم وجمال.

---

(١) سورة الأنبياء: ٣١.

وكيف بالتحليل العلمي يمكن ارجاع عقل الانسان إلى المادة الأولى الأزلية، لا سيما بعد الاعتراف بأن الأرض كانت قطعة نار سيالة حامية. ومن أودع في المادة الأولى هذا العقل الجبار لتضع دساتير رياضية رصينة في هذا الكون، وتتسلسل هذه المادة وتتدرج مراحل تكاد لا تتناهى: مراحل معقولة حكيمة، ثم تنظر في حاجة ما سيوجد في المستقبل، فتهيئها قبلاً، وهل للمادة الصماء غير العاقلة (على ما يقوله المادي) أن تفكر في مستقبل الأشياء وحاجاتها وتعين مثلاً أوقاتاً لخروج السن والشعر في الانسان والحيوان... الخ.

حقاً إن التفكير المادي تفكير عامي لا يمت إلى الأسلوب العلمي بصلة: ﴿ان هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾[1].

يقول (روبينيه) في كتاب «الفلسفة الحسية»:

«إن الفلاسفة الحسيين يريدون الابتعاد عن كل وهم وخيال، وبناء فلسفتهم على المشاهدة المحسوسة. ولكنهم بعيدون عما يدعون كل البعد. وهل من الفلسفة الحسية أن يقال جزافاً بقدم المادة وأبديتها، وهل من الفلسفة الحسية الحكم بعدم وجود عالم أرفع منها وهل منها: الاعتماد على افتراضات علمية غير ثابتة ومتزلزلة وبناء مذهب إلحادي عليها».

وهل يصدق الحس في ما يعطي من معطيات وما المصحح له، أليس العقل؟ فكيف يجوز الاعتماد على فلسفة حسية أساسها الحواس. وكيف يجوز الاعتماد على نظريات علمية لا ثبات لها ولا استقرار. وكيف يجوز أن تبنى فلسفة الحياة الاجتماعية: من اقتصادية وأخلاقية وإدارية على نظريات تتبدل من حين إلى حين. ألم يدرس المادي تاريخ العلوم. ألم يتتبع تغير النظريات وتحولها. وهل الفرضية: (Hypothèse) دستور رياضي مجرد لا يقبل الشك والارتياب... وهل وجود أتباع كثيرين لنظرية ما يدل على صحتها. ﴿وإن

(١) سورة النجم: ٢٣.

تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾[1]. (سورة الأنعام: ١١٦).

إن المادي يقول: ان المادة مقودة بنواميس ثابتة غير متزلزلة. من الذي قاد هذه المادة حتى أمست مقودة تبعاً لهذه النواميس؟ هل المادة نفسها فكرت، فوضعت هذه النواميس والقوانين؟... فما بال الانسان وهو ذو عقل لم يعلم لحد الآن إلا شيئاً يسيراً جداً عن حقائق حياة النبات والحيوان والدساتير الرياضية المودعة في هذا الكون. إذن، عقل المادة في الأزل أعظم بكثير من عقل هذا الانسان المتكامل علمياً يوماً بعد يوم. ومع ذلك يشكو جهلاً مريراً لا نهاية له.

ثم ان القوانين والمعادلات الرياضية التي تعمل في تنظيم هذا الكون وربط الأرض بالسماء وربط أجزاء السماء بعضها ببعض بمعادلات لا تعد ولا تحصى، (وقد وجدت تباعاً)، كيف كانت موجودة في الأزل في المادة؟ والمادة كانت مشكلة من ماذا؟ ومن الذي شكلها؟.

إن العلم الحديث يقول بعدم وجود مادة في الأزل. وإنما طاقات أوجدها الله تعالى. تكدست بإرادته، فصارت مواداً كما يشاء سبحانه. وتتلاشى هذه المواد فتكون طاقات وهذه بدورها تتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والاكرام.

ثم كيف قطعت الطاقات هذه المراحل الحكيمة التي هي في غاية الاتقان وتمام الدقة وتكاد لا تتناهى. ذلك لأن الكون على حد تعبير (آينشتاين) مجموعة دساتير رياضية.

وأين الدستور والعقل من المادة. وان المادي ينفي العقل عن المادة خشية أن يقال: ان العاقل الفعال والمسيِّر للمادة هو الله تعالى. وهكذا يستدل الفيلسوف الفرنسي (بركسون) على وجود الله جل جلاله. ثم ليقل لنا المادي، إذا كانت المادة فاقدة العقل، فكيف تحدث هذه العوالم المعقولة المتقنة بدساتيرها وخصائصها من مادة بلا عقل.

---

(١) يخرصون: يكذبون.

كيف يجوز الاعتماد على ما يقوله المادي: وهو ادعاء لم تثبت أركانه، ادعاء أوهن من بيت العنكبوت، ذلك لأنه حيث لا يجد جواباً مقنعاً يتذرع بكبريائه وغروره، أي بهذا العلم الذي لم يقطع فيه البشر إلا مراحل ضئيلة وضئيلة جداً، يعترف بذلك كبار العلماء الباحثين، لا أولئك الذين انحصرت دراستهم في مدارس بسيطة أياماً قليلة، وتركوا البحث والتنقيب وصاروا يكتبون دونما تدقيق وتحقيق. يتذرع المادي بالعلم تذرعاً واهي الأركان، متفكك العرى والأوصال، بعيداً عن المنطق الطبيعي والفطري، ذلك لأن العلم مهما كان ناقصاً يدل على موجد قادر متعال. وخلاصة القول: ان المادي ينسب (من عندياته) واقتراحاته وادعاءآته بل هذيانه إلى العلم اعتباطاً، ويسمي مدعياته وهوى نفسه نظريات علمية! وبينها وبين العلم الواقعي الصحيح مسافات. وان قضية تاريخية أو قضيتين، كافية لتجعل للمادي دليلاً وبرهاناً دون ملاحظة ما هنالك من عوامل.

إن المادي كلما عجز عن جواب مسألة تعرض عليه قال: «إن كنا نجهل السبب الآن، فإن العلم سيكشف لنا ذلك». إذن كيف يجوز أن تملى على الناس نظرية إلحادية واهية الأركان، ويعوِّل في إثباتها على ما سيكشف العلم في المستقبل من مكتشفات.

ثم من الذي ألهم الحيوانات، لا سيما الدنيئة منها، ما به قوام حياتها قبل أن ينتقل بطريق وراثي؟ وما حقيقة الانتقال الوراثي على الوجه الصحيح؟.

إن المادي يقنع بالتعريف فحسب، فيقول: جاذبية، وراثة، دون أن يتوغل فيقول لنا عن الماهية والواقع. وان الوصف اللغوي أو الاصطلاح لا يغني عن الحق والواقع شيئاً.

حقاً، أن المادي قد حجب نفسه عن المنطق الصحيح، (هذا المنطق الذي يستعمله في حل المسائل الكيميائية أو الفيزيائية)، حين يأتي دور ارجاع المخلوقات المترتبة غاية الترتيب إلى مرتب حكيم عليم. ذلك لأن قضية الاعتراف بالخالق ليست بقضية منطقية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية. فالقضية قضية نفسية بحتة، لا أثر للمنطق في ذلك، ومعنى ذلك: أن

منطق هذا المادي منطق صحيح في العلوم المادية، ولكنه ينسحب عندما يأتي دور الاعتراف بالله تعالى لظلمات في النفس: ﴿انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً﴾. (سورة الكهف: ٥٦).

إن المنطق الانساني منطق طبيعي ثابت الأركان، لا تبدله الأهواء والنفوس مهما اصطلح عليه من اصطلاحات وعُبر عنه بتعابير مختلفة، فالانسان إنما يعترف بخالقه بنور منه. والمنطق الطبيعي، إذ ذاك، يؤيد ذلك. ولولا هذا النور لما أمكن الاعتراف وان قوي الشخص على حل أصعب المسائل الرياضية. ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. (سورة النور: ٤٠). ولا يحل هذا النور القدسي إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء. وقد اعتادت إلى حد ما على عمل صالح وأخلاق فاضلة، بعيدة عن الخمور والفجور...

نعم، قد يصبح الانسان بفجوره وفسقه، فبظلمات نفسه أحط من الطير والجماد. فهما يسبحان الله ويقدسانه، على حد قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسبِّح له من في السموات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾. (سورة النور: ٤١).

فنحن نقترح على المادي أن يرتب لنفسه منهاجاً للقيام بأعمال صالحات لا لنيل مقام دنيوي أو طلب شهرة أو صيت، ثم ليترك ما هو عليه من ارتكاب المحرمات، لا سيما الكذب، ليرى كيف تزكو نفسه شيئاً فشيئاً، فتحل فيها معرفة الخالق، فخشوع، فطمأنينة ما بعدها طمأنينة ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (سورة الرعد: ٢٨).

ليعلم المادي أن هذه النظريات الفلسفية، التي اخترعها والتي يعتمد عليها الآن هي نظريات متحولة، متبدلة، سيظهر له فسادها بعد حين، كما ظهر فساد كثير من النظريات العلمية والفلسفية منذ العهد اليوناني إلى يومنا هذا، وسيأتي يوم يكون فيه أكبر عالم في يومنا هذا تلميذاً لأولئك الذين سيظهرون بفضله تعالى بعد أعوام أو قرون.

ثم ان النفس الانسانية ليست من المادة في شيء. فلا يجوز تطبيق

خواص المادة وقوانينها في تكميل النفس الانسانية وسير الانسان التكاملي، وجعل الاقتصاد أساساً لكل فضيلة. ولا يعلم حقيقة النفس وطرق تكاملها إلا خالق النفس وهو الله تعالى. فوجب إذن، أن يبعث الله أنبياء ومرسلين حاملين دساتير نفسية من عنده تعالى لتكميل البشر.

إن كل ما يسنه البشر لتكميل نفسه ملوث، مبتور، آت من رشحات نفس ملوثة ناقصة. إذن ما يترنم به المادي لظلمات نفسه: من عده انزال كتب سماوية وإرساله أنبياء، إنما هو كلام فارغ لا يدعمه دليل. ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[1].

فجدير بالمادي أن يتنازل عن غروره وأن يقطع بأن خالق الكون يريد بهذا الانسان الكمال، ذلك لأن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا العالم، فلا ينبغي أن يستثنى منها هذا الانسان، وما يسنه الناقص ناقص. والله أعلم بما خلق، وأعلم بطرق تكامل نفس خلقها، وهي النفس الانسانية. وأن يقطع أن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين بغية تكميل هذا الانسان، ومعهم جميع ما يحتاجه الانسان في شتى الحقول، من نفسية وعبادية، واجتماعية وقضائية وإدارية واقتصادية، وأن دين الاسلام وهو خاتمة الأديان مستجمع لجميع ما يؤدي إلى تكامل هذا البشر ولم تمسه يد التحريف، فجدير به أن يتخلى عن غروره، وطيشه وغلوائه، وفجوره وخموره. وأن يتمسك بدين محمد خاتم النبيين (ص)، لكي يعلم بعد قليل ما كان عليه من خطأ فاحش وظلمات بعضها فوق بعض.

* * *

إن الفلاسفة الواقعيين يعتقدون أن علينا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام تبقى ناقصة إلى الأبد وأننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة.

إن القرن التاسع عشر كان قرناً متسماً بالمادية، فقد ساد الاعتقاد في الأوساط المادية أن المادة هي كل شيء وان الانسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الماء

(١) سورة البقرة: ٩.

(بما فيه من أوكسجين وهايدروجين)... الخ... وليس وراء ذلك شيء! ولم يُحسب للروح أو النفس والعقل حساب. وصاروا يدعون أن العقل وليد المادة والمادة هي التي تخلق النفس والعقل!. (ولا تنسَ قول علي عليه السلام: كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب).

حتى إذا تقدمت العلوم المادية بما فيها الفيزياء الرياضية وعلم الذرة وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي، وتطورت الفلسفة على ضوء هذه المكتشفات التي هي مفخرة القرن العشرين، أخذ يقول الفلاسفة الواقعيون والعلماء الحقيقيون (أولئك الذين لم تلوث نفوسهم): أن العقل هو الكل في الكل، والعقل هو مسير المادة، وصاروا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، وأن هذا العالم وحدة روحية أو عقلية وأن العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وان المادة هي من مخلوقات العقل، بخلاف ما كان يقال قبل ٥٠ سنة حين طغيان المسلك المادي. والنفس هي الأساس والمادة خادمة لها وان الروح أو النفس لا تفنى بعد موت الانسان.

كل ذلك لما رأوا من عجائب ما أودع الله تعالى في الكون تحت دساتير رياضية رصينة، وحقائق لمسوها في بنية الذرة لا يمكن أن تفسر إلا مع الاعتراف بخلاق عظيم وعقل فعال[1].

وهكذا يتكامل الفيلسوف في معتقداته وفي فلسفة يتبناها لو تكامل نفسياً. والدكتور جود(Dr. C. M. Joad) خير مثال في ما نذهب إليه. أنه يقول: عندما تخرجت من الجامعة كنت لا أعي ولا أفهم شيئاً عن حقيقة الكون وكنت أعتقد أن المادة، الحياة والقيمة:(Matter, Life and Value) هي أمور مختلفة، مستقلة بعضها عن بعض، اجتمعت لتتفاعل بعضها مع الآخر، ثم عدلت عن هذه العقيدة، وعلمت أن هذه الأشياء الثلاثة هي على الأرجح وجهات لوحدة واحدة أو مظاهر لفعل إله خالق.

---

(١) وكان لاحضار الأرواح (على ما يعبرون)، هيبنوتيزم(Spiritism) , (Hypnotism) أثر في التوجيه الروحي.

لو سألت أحد هؤلاء الماديين لماذا يجذب المغناطيس الحديد ولا يجذب الرصاص، يعجز عن الجواب وغاية ما يقول: أن هناك خاصية في هذا الجسم دون غيره. ونحن نسأل كيف اكتسب هذا الجسم هذه الخاصية دون غيره. وما حقيقة هذه الخاصية وما حقيقة الجذب؟ ومن هو الواهب لهذه الخاصية؟ هذه أسئلة يجيب عنها المادي بكلمة واحدة: «لا أعلم» أو «سوف يكشف لنا العلم ذلك». وهل يجوز لمن يدعي العلم أن يتكهن بقوله: «ان العلم سيكشف لنا» ويبني نظريات مغلوطة على أساس واهن. ثم يقول نفسه: «قد انصرم دور الكهانة ونحن نعيش في عهد الحقيقة والواقع، عهد العلم والحقائق وقد خرجنا عن دور الاحتمال!».

إن الله تعالى يقول: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾[1].

انظروا كيف يفصل الله جل جلاله ما خلق من أنواع النبات والابداع الكامن فيها. انه تعالى يقول:

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان[2] دانية[3] وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه[4]. ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[5]. وان ما دوِّن في كتب النبات تفسير لبعض ما جاء في هذه الآية الكريمة. وسوف تدون كلما تفضل الباري جل جلاله على هذا البشر بالكشف والتنقيب آلاف الصفحات. ولكن لا يعتبر بكل ما دوِّن في الموسوعات الخاصة بالنبات وما سيدون إلا المؤمنون، على حد قوله تعالى في نهاية الآية: ﴿ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾.

---

(١) سورة النساء: ١٥٦.
(٢) قنوان: جمع قنو: عنقود التمر.
(٣) قريبة التناول.
(٤) حينما ينضج.
(٥) سورة الأنعام: ٩٩.

نعم، لا بد للمعتبر بهذه الآيات البينات من قليل من التقوى، فقليل من الايمان. ولا يعطي الشخص قسطاً من الايمان إلا إذا كان له عمل صالح يقوم به من وقت لآخر: بصلة رحمه ولو بمقدار ضئيل، أو مساعدته بعض الفقراء والمعوزين ولو كانت هذه المساعدة قليلة جداً، أو تفقده حال المساكين والبؤساء، ولو بين فترات متباعدة إلى ما هنالك. فإن هذا العمل الصالح على قلته وضآلته مصباح ضعيف الضوء ينير القلب، فلا يطفأ العقل. فالعقل، إذ ذاك، يقوم بوظيفته الطبيعية في حدود معينة وهو توجيه صاحبه إلى الخالق المعبود: ﴿يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾[1]. ان التقوى (اجتناب المعاصي) والمأكل الحلال الطيب يفتحان على الانسان أبواب الهداية، فيفرق بين الحق والباطل ويؤدي ذلك أيضاً إلى القيام بتكفير الذنوب وجلب غفران الله تعالى. تدبروا مفاد هذا الحديث لتروا كيف أن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء وأراد بالناس جميعاً الاهتداء. فقد قال رسول الله (ص): «أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافرحقاً وأبى أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً».

أنظروا كيف يوضح الله تعالى أن العمل الصالح مقدمة لنيل الفيوضات الربانية ودرك أنوار الهداية الالهية. انه تعالى يقول: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[2] ومعنى ذلك أن الله يهدي الفرد إلى سبيل الهداية والسلام وإلى طريق يؤدي إلى روح وريحان، ان اتبع هذا الفرد رضوان الله تعالى بالاجتناب عما حرم الله والعمل بما أمر الله. نعم، انه لينطفىء العقل انطفاء تاماً أو ينسحب انسحاباً كاملاً إذا غدا الفرد جرثومة فساد وقسوة. ﴿كذلك يضلُّ الله من هو مسرف مرتاب﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام: ٢٩.

(٢) سورة المائدة: ١٦.

(٣) سورة المؤمن: ٣٤.

فليست الآيات البينات والمعجزات الباهرات هي الكل في توجيه الشخص نحو خالقه. بل لا بد من نفس بقي فيها شيء من الصفاء والنور، لتبصر به الحق. انه تعالى يقول: ﴿أنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[1]. وهو القائل أيضاً: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[3]. وفي أخرى: ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. (الأنعام: ٣٣). وقد سد طريق الهداية على أولئك الذين خسروا أنفسهم بالمعاصي. ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾. (سورة الأنعام: ٢٠).

فانحصر توفيق الاهتداء في أناس لم يبلغوا من الفسق والظلم مرتبة تسد عليهم أبواب الهداية، فتنطفىء بذلك عقولهم. فيخرجون من زمرة أولي الألباب. أنه تعالى يقول: ﴿ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. فالذي لا يعتبر بما خلق الله وبما أودع من نظام في اختلاف الليل والنهار لا يعد من أولي الألباب. وما على من وجد في اتجاهه الروحي زيغاً وانحرافاً إلا أن يفتش عما قام به وما يقوم به الآن من ظلم وجور فيقلع عما هو فيه من اعتداء وتجاوز، كي يسير في سيره التكاملي، وتتجلى له الحقائق وينكشف له الواقع. فلا يمكن مد الأيدي إلى ما وراء الطبيعة إلا من زاوية تزكية النفس وتطهيرها من الأرجاس والأدران. وقد نصَّ على ذلك كثير من الفلاسفة الواقعيين.

أنظروا كيف يصف الله تعالى ما أودع من نظام رصين في سير الشمس والقمر، لا يعلم مدى ذلك إلا من درس الرياضيات العالية ومعادلات الحركة في الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي. على أن وراء ما توصل إليه الفلك العالي، معادلات ودساتير كثيرة جداً بل دساتير لا تتناهى سوف يمن الله تعالى على المتتبعين من علماء الفلك بالكشف والعثور. انه تعالى يقول:

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سورة الصف: ٥.

(٣) سورة الأنعام: ١٤٥.

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾[1].

حقاً، ان المنغمرين في علم الفلك العالي على ضوء ما توصل إليه العلم الحديث، قلَّ أن ينحرفوا عن الاعتراف بعظمة الله الذي وضع هذه النظم الدقيقة والقوانين الرياضية. ورأيت منهم من تفيض عيناه بالدموع فرحاً وخشوعاً لله تعالى، ولكنك ترى كثيراً من الملحدين، ممن لا يستطيعون فهم معادلات الفلك العالي وقوانينه مهما حاولوا، منحرفين عن الصراط السوي لكبر في النفس وقساوة في القلب. فقد جاء في الحديث: «إن أعمى العمى عمى القلب». وقد أوضح لنا ربنا تعالى فلسفة الايمان بقوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[2]. أمثال بوخنز، فورباخ، كارل ماركس اليهودي، إنجلز، شوبنهاور وغيرهم. ان الله يصف هؤلاء بقوله: ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾. (سورة الكهف). ويصفهم بالجدل، جدل إن دل على شيء فإنما يدل على فساد فلسفتهم وفساد ما بني عليها من قوانين. وذلك بقوله تعالى: ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾. (سورة الكهف). وبقوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتَّبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾. (سورة الحج: ٣).

ألا أن المادي سوف يعترف بالواقع لا محالة حين لا يفيده الندم على ما فرط في جنب الله: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار. أليس هذا بالحق. قالوا: بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. (الأحقاف: ٣٣).

أنظروا كيف يتم الله تعالى الحجة على عباده ويأتي بدليل قاطع على وجوده

---

(١) سورة يونس: ٥.
(٢) سورة المؤمن: ٣٧.

بقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة. ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

أنى للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، ومن أين جاءت هذه الحاجة وكيف فكر هذا الذكر أن يجعل الأنثى بشكل يؤدي إلى استدامة النسل مع تعقد المراحل في تشكل الجنين. هذا ما يقوله الفيلسوف (مونتني) حقاً، ان انكار الله تعالى ضرب من الجنون. فهؤلاء المنكرون هم مجانين جنوا على أنفسهم وعلى من هم على شاكلتهم ببغيهم وظلمهم وفسقهم، فذهبت عقولهم. ومن ليس له عقل يدرك به خالقه فهو مجنون لا محالة.

في عهد الرسالة، صادف رسول الله (ص) في طريقه رجلاً خولط في عقله، فقال له أحد أصحابه: أنه مجنون، فأجابه رسول الله (ص) ما مؤداه: أنه مريض، والمجنون من لا يفكر في آخرته.

هل توصل هذا المادي إلى فلسفة اختلاف الألسنة والألوان بصورة صحيحة عميقة، دون الاكتفاء بالظواهر. وهل درى عوامل اختلاف الألسنة، وكيف تكلم الانسان وكيف ارتبط اللسان بالفكر، حتى أمسى معبراً عما يختلج في نفسه. وان الله تعالى يقول: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2].

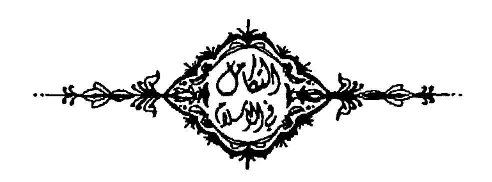
فحصر سبحانه وتعالى الاعتبار بالآيات الكونية وما أودع من حالات مختلفة تضبط بقوانين رياضية متقنة بالعقلاء دون غيرهم. أي أن العقلاء هم وحدهم يعترفون بعظمة الخالق ويتدبرون في أحوال الكون والحوادث الكونية ولذلك يقول تعالى في سورة الحشر: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾. ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾. فلا بصيرة ولا لب لغير المؤمنين. وجلُّ ما عند هؤلاء

---

(١) سورة الروم: ٢٠.

(٢) سورة الروم: ٢٧.

الملاحدة ذكاء أو تفكير يقوم بلطفه تعالى في إدارة شؤونهم والهام العلاقات الموجودة بين الحوادث (سواء أكانت النفس ملوثة أم لم تكن)، كل ذلك تفضلاً منه تعالى، ﴿قتل الانسان ما أكفره﴾، ولكن الاستبصار والتوجه إلى مقامات القدس لا يتم إلا في نفس زكية طاهرة. فهؤلاء هم أولو الألباب حقاً، لخروجهم من حضيض المادة إلى تفهم ما وراء الطبيعة والعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود، إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر.



هل من حاجة إلى الدور والتسلسل في إثبات الصانع

جاء في بعض الكتب الكلامية بشأن إثبات وجود الخالق: أننا لو فرضنا أن ب مثلاً خلق أ، وحـ خلق ب، ود خلق حـ، وهكذا. . . ينتهي بالفرض إلى ما لا نهاية له من الموجودات، خلق المتقدم منها المتأخر. وهذا تسلسل، والتسلسل باطل، لأنه لا بد من خالق لم يخلقه آخر. حتى ينتهي الأمر إلى خالق هو في الحقيقة خالق جميع الأشياء.

ومما لا شك فيه: أن المخلوق ليس فيه قابلية الخلق. لأنه إن كان فيه قابلية الخلق لأوجد شيئاً من العدم. أو تصرف في نفسه فحقق ما يريد. والمصنوع ليس بصانع شيء من العدم. أما صانع التلفزيون مثلاً فهو قد جمع أجزاءه مما وجده قبلاً. ووجد أن له عقلاً يعقل ويستنتج وهو لا يعلم كيف أتاه. يرى نفسه يأكل وتخرج فضلاته وتقوم أجهزته بأعمال دقيقة مختلفة وهو لا يحيط بكل ما هنالك من أسباب وعلل. ولا يعلم كيف كان كل ذلك. فليس للمخلوق أن يخلق شيئاً من العدم. ومن أين يأتي لهذا المخلوق قابلية الخلق من العدم، وهو عاجز عن التصرف في نفسه. فإذا قلنا باستحالة خلق المخلوق شيئاً من العدم، لم يبقَ مجال للقول بهذا التسلسل من المخلوقات أو من الخلاقين وجعلِ المتقدم خالقاً للمتأخر. د، حـ، ب، أ. فلا ضرورة لهذا الفرض الباطل: (التسلسل)، بل لا يبقى مجال لتصوره.

وأما الدور: فهو أن يكون وجوداً متوقفاً على وجود ب ووجود ب متوقفاً على وجود أ، فأصبح وجوداً متوقفاً على وجود أ. أي وجود أ متوقف على نفسه. ويقولون أن هذا (دور)، والدور باطل، أي توقف وجود شيء من الممكنات على نفسه باطل. لأن الممكن لكونه ممكناً أي مصنوعاً ومخلوقاً من قبل غيره ليس له أن يوجد نفسه بنفسه حتى يكون وجوده متوقفاً على نفسه. والله تعالى هو الذي متوقف وجوده على نفسه لم يُسبق بعدم وهو واجب الوجود، أي لا بد من وجوده لوجود هذه المخلوقات بهذا النظام البديع.

لا أظن أن رجلاً قبل أن يدرس علم الكلام يفكر في الدور كما يفكر في ذلك المشتغل في علم الكلام. ذلك، لأنه يرى أن كل ما في الكون من نبات وحيوان وجماد مفتقر غاية الافتقار، وذو حاجات شتى ونواقص عدة ومحل للحوادث، ومضطهد تحت نير الحوادث والكوارث. وليس له أدنى تصرف بل ليس له أن يغير شيئاً من تركيبه الأساسي من تلقاء نفسه. فلا يفكر أن هناك خالقين يتوقف وجود كل منهما على الآخر. حتى يأتي: دور توقف وجود الشيء على نفسه. بل يقطع أنه لا بد من خالق لا يشبه خلقه في شيء. لما يرى من عجز وافتقار في من سواه. خالق لا تؤثر فيه المؤثرات ولا الحوادث بل هو خالق المؤثرات والحوادث وموجدها. هو الذي خلق الأشياء برمتها ونظمها ورتبها ووضع فيها قوانين ليس للعلم أن يقف إلا على جزء ضئيل منها. وذلك أيضاً بمشيئة الله والهامه المكتشفين تفضلاً منه ورحمة.

فلا أرى كثير فائدة من تمسك علماء الكلام بالدور والتسلسل في إثبات الصانع جل جلاله. لأن هذا النوع من التفكير ليس بطبيعي ولا فطري، وليس بمعقول. ولا تؤيده الحوادث. وان الانسان قد جهز بفضله تعالى بعقل يحكم بوجود خالقه بصورة طبيعية دون اللجوء إلى تعلم مناقشات الكلاميين والحكماء. بل قد يكون العامي أقوى اعتقاداً من الكلامي بوجود الصانع لنورانية في نفسه حصل عليها من جراء ما قام به من أعمال صالحات لوجه الله تعالى وعبادات خالصة دونما رياء. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[1].

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت: ٧٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٢.

استحالة معرفة الله معرفة تامة

إذا كان الانسان لا يقوى على معرفة نفسه ولا يتمكن من أن يتعرف إلى حقيقة النفس أو الروح ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1]. فأنى له أن يعرف خالق الروح معرفة تامة.

إذا كان الانسان لا يقوى على معرفة حقيقة الجاذبية الأرضية أو حقيقة القوة الكهربائية أو حقيقة الالكترون فأنى له أن يعرف حقيقة خالق الجاذبية وخالق الضوء والكهربائية وخالق الألكترون. وهل ترى أن المتناهي وهو هذا الانسان، في مقدوره أن يحيط باللامتناهي وهو الله تعالى.

وما من شك أن ما خلق الله تعالى من عوالم، تكاد لا تعد ولا تحصى. وقد علم أنه تتشكل في الكون كرات جديدة وتبيد أخرى. وان العلم الحديث ليعترف بالعجز عن الاحاطة بما أودع الله من خواص وقوانين رياضية ومعادلات رصينة تربط حوادث الكون وأجزاءه بعضها ببعض. وان علم البشر بالنسبة لهذا العلم اللانهائي: (الخواص والقوانين الكونية) شيء ضئيل وضئيل جداً: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[2]. وان علم الله تعالى الذي وضع هذه الخواص والقوانين لا يتناهى ولا يحاط به. اذن نتج من هذه المحاكمة أن علمنا (علم البشر كله)، بالنسبة إلى العلم المودع في هذا الكون يكون صفراً، بل هو صفر. ذلك لأن نسبة المحدود إلى غير المحدود صفر. فإذا فرضنا علم البشر = ب. والخواص والقوانين التي أودعها الله تعالى في هذا الكون (أو الأكوان) = لا نهاية = ∞ .

$$\frac{ب}{\infty} = ٠$$

(١) سورة بني إسرائيل: ٨٧.

(٢) سورة الكهف: ١٠٩.

إذن وجب أن نقول (بطريق أولى) أن علم البشر بالنسبة إلى علم الله تعالى، ذلك العلم الذي لا يدرك غوره، صفر أيضاً.

فلنفرض علم الله = ∞

أي لا نهاية = ∞ مرفوعة إلى قوة ∞

$\frac{ب}{\infty}$ = ٠ دون أي ريب صفر

فكيف يرجو هذا البشر أن يعرف الله تعالى معرفة تامة وأن يحيط به إحاطة كاملة وهو في الحضيض، (لكنه مغرور لما منَّ الله عليه بمعرفة بعض الدساتير وبعض المكتشفات!).

إن الماديين تذرعوا بسخافات عجيبة، وأرادوا أن يروا الخالق في تحاليلهم الكيميائية أو تجاربهم الفيزيائية أو بعين مجردة، أو مجهزة بمكبرة وغيرها. حين أن الله، وهو الذي لا يحده مكان ولا زمان، هو خالق كل هذه الآلات وهو خالق العقل الذي قام بترتيب هذه الآلاتTelescope .

أنى للحواس الخمس أن ترى الله تبارك وتعالى وهي محدودة القوى والقابليات وكثيرة الأخطاء. والعقل هو المصحح لهذه الأخطاء. أو ما رأيت في بعض كتب الفيزياء خطوطاً مستقيمة مقطوعة بخطوط أخرى، ونظرت اليها لألفيتها تتقاطع ولكن لو اختبرتها وجدتها متوازية. وترى أيضاً خطين مستقيمين أحدهما أطول من الآخر، ولكن لو دققت لوجدتها متساويين في الطول وهذا دليل على خطأ العين. والعقل وأعني به الذكاء أو التفكير هو المصحح له.

أو ما رأيت كيف يعوج القضيب حين يوضع قسم منه في الماء. وذلك لانكسار الضوء واختلاف سرعة الضوء في وسطين مختلفي الكثافة (الهواء والماء). ما الذي يصحح خطأ العين ويريك أن ليس هناك اعوجاج حقيقي إنما هو العقل.

وهكذا السراب فانك ترى أن هنالك ماء وأشجاراً فإذا وصلت إلى ذلك

المكان، لم تجد شيئاً، كل ذلك بتأثير انكسار الضوء لاختلاف كثافة طبقات الهواء وترى النجمة في غير موقعها الحقيقي لنفس السبب.

هل رأيت كيف: أن الدرهم الملقى في قعر اناء فيه ماء كيف يرى في مستوى أعلى من القعر حسب قوانين الانكسار(Refraction) .

أرأيت كيف يحصل القوس والقزح. والألوان الزاهية على (وغف) الصابون المعروض لضوء الشمس بنتيجة التكاسر: (Différaction) وكيف يحلل الضوء بهذا أو بالمنشور. هل العين حين تشاهد هذه الألوان تعتقد أن هنالك تكاسراً أو تعتقد أن ألواناً مختلفة وجدت في (وغف) الصابون. ما الذي يصحح هذا الخطأ؟.

إن الأذن لا تقوى أن تسمع صوتاً تردده[1] في الثانية أقل من (٢٠) أو أكثر من (٢٠٠٠٠) ذبذبة وان الاهتزاز وجميع ما يؤدي إلى حدوث الصوت موجود لكن الأذن لا تسمع ولا تحس. لأن قابليتها محدودة.

إذن لا يمكن الاعتماد على الحواس الخمس في إثبات وجود الخالق وذلك لأن الحواس كثيراً ما تخطىء ولا يصحح هذا الخطأ إلا العقل. فالعقل هو الذي يعتمد عليه في التعرف إلى الأشياء. وبالعقل يعرف الله ويوحّد.

هل للحواس الخمس أن تشعر بتيار ضعيف على سلك؟ كلا، بل الـ (كلفانومتر) هو الذي يعرفنا وجود هذا التيار الضعيف. ان الأخطاء البصرية كثيرة، فلا يعتمد على البصر فحسب، أي دون مداخلة العقل والتجربة لمعرفة الأشياء. أو ما ترى أن الأرقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء. ولا يمكن الاعتماد على حاسة اللمس دائماً. فإذا أمررنا كرة بين السبابة والابهام وهما متقاطعان فاننا نحس أن المار كرتان لا كرة واحدة. وعضو السمع لا يعطي الأثر نفسه في جميع الناس. فالموسيقيون يستطيعون تمييز النغمة الموسيقية الخاطئة فوراً. إذن لا يمكن أن نجزم أن الملاحظة السطحية المباشرة تطابق الحقيقة بصورة دائمة.

---

(١) التردد هو عدد اهتزاز الجسم المهتز في الثانية. أو عدد تذبذب الشركة الرنانة ذبذبات كاملة في الثانية.

أنظروا إلى ما يقوله علي عليه السلام في هذا المقام: «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر. الدال على هدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له».

فما هو الذي يجعل هؤلاء الماديين مع دراستهم للفيزياء وكثير من علوم الطبيعة أن ينكروا الخالق. نعم! ان المؤثر الحقيقي في ذلك، إنما هو شهواتهم ونزواتهم وبغيهم وظلمهم حتى منعوا بذلك الفطرة أو العقل من القيام بعمله الطبيعي، وحجبوه من أن يؤثر أثره. ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[١].

﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت[٢] سنة الأولين[٣]. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مستورون﴾[٤].

ويتصور البعض بأنهم لا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الله تعالى لأنهم عاجزون عن إدراكه، فالانسان السوي الذي لم يلوث الفطرة بما كسبت يداه والذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج إلى رؤية الله أكثر من حاجة الفيزيائي إلى رؤية الألكترون. وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة ولا قيمة لها. فالألكترون لا يمكن ادراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. ثم أن العلم يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الالكترونات. فراغ ذي ثلاثة أبعاد لكل الكترون وثلاثين بعداً لكل عشرة الكترونات. ويعترف أن هذا الالكترون ما هو إلا موجة احتمال، ويعترف بوجود جزيئات كالنيوترونات (الكهارج) والاتينيوترونات التي افترض وجودها لأسباب تناظرية

---

(١) يونس: ٣٥.

(٢) خلت: مضت.

(٣) سورة الحجر: ٤.

(٤) سورة الحجر: ١٥.

رياضية بحتة. ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهرياً ولكنه يرفض ومع الأسف (باصرار) ان يتقبل وجود ذي قوة خارقة خلاقة، كوّن هذه الأشياء التي يعترف بها مع عدم إمكان رؤيتها بأية واسطة من الوسائط. ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) وهو الامام الثامن وعنده جماعة، فقال أبو الحسن عليه السلام: «أيها الرجل، أرأيت ان كان القول قولكم، وليس هو كما تقولون، ألسنا وإياكم سواء شرعاً لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكّينا وأقررنا. فسكت الرجل. ثم قال أبو الحسن عليه السلام: وإن كان القول قولنا، وهو قولنا، ألستم قد هلكتم ونجونا. فقال. رحمك الله. أوجدني كيف هو؟ وأين هو؟ فقال: ويلك، ان الذي ذهبت اليه غلط. هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا بكيف، فلا يعرف بكيفوفية ولا بأينونية، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء. فقال الرجل: إذن أنه لا شيء (إذ) لم يدرك بحاسة من الحواس. فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك، لما عجزت حواسك عن ادراكه أنكرت ربوبيته. ونحن إذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء. قال الرجل فأخبرني متى كان؟ قال أبو الحسن عليه السلام: «أخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان». قال الرجل: فما الدليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «أني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجر المنفعة إليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً ومنشئاً».

ومن الواضح أنه لا يعرف الله تعالى أحد حق معرفته إلا هو. فقد جاء في الحديث: «سبحان من لا يعلم كيف هو إلا هو». أنه تعالى يقول: «ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم». فليس للبشر أن يعرف كيف خلق الله السموات والأرض وكيف خلق هذه النفوس. وبطريق أولى يستحيل عليه أن يعرف الله تعالى معرفة كاملة. لذلك يقول رسول الله صلى

الله عليه وآله: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك». ومعنى سبحانك: أي ننزهك ربنا عن كل نقص ومن كل عيب، فأنت الكامل الذي لا نقص فيه.

إذن كيف يجوز للناقص وهو هذا الانسان أن يعرف ربه معرفة تامة. إلا أن هذا الانسان الناقص، لو تكامل بتزكية نفسه وتطهير خلده واتباع أوامر مولاه (وهو الله تعالى)، واجتناب ما نهى عنه، يتكامل شيئاً فشيئاً تكاملاً عين الله تعالى له حدوده. فقد جاء في الحديث:

«أعلمكم بالله أخوفكم له».

فيزداد هذا الانسان معرفة بالله تعالى حتى يكون مصداق هذا الحديث، حيث قال رسول الله (ص) يوماً لعلي عليه السلام: «يا علي، لم يعرف الله إلا أنا وأنت، ولم يعرفني إلا الله وأنت، ولم يعرفك إلا الله وأنا». كيف لا يكون كذلك، وأن علياً عليه السلام كان يغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات. ولا شك أنه يراد من هذه المعرفة: أسمى مرتبة من معرفة يتمكن البشر من الوصول إليها بأذن الله تعالى. وأما المعرفة الحقيقية فمستحيلة. لقول علي (ع): «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن». ولقوله عليه السلام: «لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهمه الفطن فتتصوره». وقوله (ع): «فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك حي قيوم». وقوله عليه السلام: «عظم من أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر».

قال رسول الله (ص): «ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار. وان الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم».

وقال موسى بن جعفر (ع): وهو الامام السابع من الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام: «ان الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه وصفه، فصفوه بما وصف نفسه وكفوا عما سوى ذلك».

وقال علي عليه السلام: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته». لذلك نعرف الله ونوحده بالفطرة معرفة تتناسب مع امكانياتنا.

وقال عليه السلام أيضاً: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه بحقائق الايمان». وقال عليه السلام: «فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره».

أنى لهذا البشر العادي أن يعلم كيف هو خالقه، فإذا كان علي (ع) وهو أكمل الخلق بعد رسول الله (ص) يقول: «كيف أصفه[1] بالكيف وهو الذي كيَّف الكيف حتى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف» فكيف بالآخرين. لا سيما أولئك الذين قيدوا أنفسهم بقيود من شهوات وبخل وحسد كبير. فقد جاء في الحديث: «أصول الكفر ثلاثة: البخل والحسد والكبر».

فمهما أوتي الانسان من علم وحكمة ليس له أن يصف الله تعالى حق الوصف، لأنه محدود في كل ما يفكر والمحدود لا يحيط بغير المحدود. والمحاط لا يحيط بمن يحيط به «سبحانه وتعالى عما يصفون». ولقد قال رسول الله (ص): «لا أحصى ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقد قال علي عليه السلام: «وكمال الاخلاص نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة». وقال (ع) أيضاً: «لا تقع الأوهام على صفته».

فمخلوقات الله خير دليل على وجود الله تعالى وهو القائل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾. (سورة فصلت: ٥٣).

قال بعض العلماء: «المتفرد بالوجود هو الله سبحانه، إذ ليس موجود معه سواه. فإن ما سواه أثر من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به فلم يكن موجود معه. لأن المعية توجب المساواة في المرتبة والمساواة في المرتبة نقصان في الكمال. بل الكمال لمن لا نظير له في رتبته وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاً في الشمس بل هو من جملة كماله وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في المرتبة، كذلك وجود العالم

(١) أي كيف أصف الله تعالى.

كله إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً. إذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال».

على أن في هذا التشبيه نظراً، يجب أن لا يفوت القارىء اللبيب، ذلك لأن الشمس باشعاعها وإشراق ضوئها (أو نورها) تفقد طاقة، وليس الله تعالى كذلك، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

إن الله تعالى يقول: ﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾. ذلك لأن كل إله يريد ما لا يريده الآخر. وهذا مما يؤدي إلى الاختلاف والفساد في النظم التي تربط الأرض بالسماء. وان توافق الالهان، فإن تأثير أحدهما كافٍ لايجاد ووجود هذا الكون. فيمنع تأثير الآخر فيه مرة أخرى. مع ما هنالك من اتصال وثيق بين ما نراه من دساتير فيزيائية وفلكية في السماء والأرض تربط البعض بالآخر ربطاً وثيقاً لا يجعل مجالاً للشك بأن المرتب واحد لا شريك له:

﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، إله مع الله، بل هم قوم يعدلون، أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، إله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (النمل: ٦٢).

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام في وصاياه: «واعلم يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه اله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً».

وان الله وهو الكامل على الاطلاق قد أخبر عن نفسه: أنه واحد لا شريك له. «ومن أصدق من الله قيلاً».

وقد ذكر الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد: «أن اعرابياً قام يوم

(١) سورة الشورى: ١٠.

الجمل إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول أن الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين دعوه، فإن الذي يريده هو الذي نريده من القوم.

ثم قال: يا أعرابي أن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوز على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوز فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد. فهذا لا يجوز. لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، ألا ترى كفر من قال: «ثالث ثلاثة».

وقول القائل: هو واحد الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه. لأنه تشبيه، وجل ربنا عن ذلك وتعالى.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: انه واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربنا... وقول القائل: انه عز وجل أحدي المعنى، يعني بأنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا عز وجل.

غريب أمر هذا الانسان، كان فاقداً جميع ما عليه الآن من ملكات وقوى. ولولا أن الله تعالى منَّ عليه بهذا الفكر لكان حيواناً أو جماداً. فهو يفكر ويدبر بقدر ما أوتي من جانب الله تعالى من قوى.

فمن السخافة أن أراد هذا الانسان أن يعلم كيف أعطاه الله هذا المقدار من الفكر، وكيف هو علم الله، وكيف قدرته، وكيف يقول للشيء كن فيكون... وهو لا يحمل إلا هذا الشيء القليل المحدود من الفكر بفضله تعالى. وإذا سلط الله على عقله جرثومة ضئيلة لأمسى مجنوناً ومهزلة للناس أجمعين. إلا أن الله يمهل ويؤخر هؤلاء المغرورين من الماديين المتحجرة عقولهم: (تلك العقول التي كانت مضيئة بالفطرة)، لظلمات في النفس، جاءتهم من جراء شتى المعاصي، يؤخرهم: ﴿ليوم تشخص[١] فيه الأبصار.

(١) تفتح فيه الأبصار فلا تغمض هولاً وفزعاً.

مهطعين[١] مقنعي[٢] رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم[٣] وأفئدتهم هواء﴾. (سورة ابراهيم: ٤٤).

وهو القائل: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث[٤] سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون[٥] خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾[٦].

يقول الامام محمد الباقر الامام الخامس عليه الصلاة والسلام: «ما سمي (يعني الله تعالى) عالماً قادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين. وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع من قبلكم مردود اليكم». ومعنى ذلك أن هذا الانسان الناقص يتصور تبارك وتعالى كمالاً يتناسب مع نقصه. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص. كما أن الكامل وهو الله تعالى لا يترشح منه إلا الكمال. فكلما فكر الانسان في الله تعالى لا يتجاوز تفكيره حدوداً معينة محدودة تقل عن الواقع مسافات لا تحد. فأفكارنا بشأن عظمة الخالق أفكار ناقصة مخلوقة من قبلنا مردودة الينا، لا توافق الواقع في شيء.

وقال بعضهم: لعل النمل الصغار تتوهم أن الله تعالى زبانيين، لأنهما كمالها، وتتصور أن عدمهما نقصان. هكذا حال بعض الناس في وصف خالقهم!.

* * *

قد اختلف جماعة من اللاهوتيين والأخلاقيين والعقليين والماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات. فأحبوا أن يتحاكموا إلى (آينشتاين) ليروا رأيه

(١) مسرعين.
(٢) رافعيها إلى السماء.
(٣) أي لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة.
(٤) القبور.
(٥) إلى نصب: إلى كل ما ينصب للعبادة. يوفضون يسرعون.
(٦) سورة المعارج: ٤٢.

في الله جل جلاله. فأجاز لهم أن يمكثوا عنده ١٥ دقيقة لكثرة أشغاله. فعرضوا عليه سؤالهم قائلين: ما رأيك في الله؟.

فأجاب قائلاً: «لو وفقت أن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع الميكروبات، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس انسان وسألته أين تجد نفسك؟ لقال لي: أني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. عند ذلك أقول له: ان هذه الشعرة التي أنت على رأسها إنما هي شعرة من شعرات رأس انسان، وان الرأس عضو من أعضاء هذا الانسان ـ ماذا تنظرون؟ هل لهذا الميكروب المتناهي في الصغر أن يتصور جسامة الانسان وكبره؟ كلا، أني بالنسبة إلى الله تعالى لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى. فأنى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تحد».

فقام هؤلاء المتشاجرون من عند (آينشتاين) وعلموا أن الحق مع جماعة اللاهوتيين. أنه تعالى يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾[2].

إن المادي هو مصداق هذه الآية المباركة: ﴿ان الانسان لربه لكنود[3]، وانه على ذلك لشهيد، وانه لحب الخير الشديد﴾.

* * *

ما أعظم ما يقوله علي (ع) حين يصف عظمة الله تعالى بقوله: «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون؛ ولا يؤدي حقه المجتهدون. الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود».

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٤.

(٢) سورة النساء: ١٢٦.

(٣) كنود: كفور، يجحد نعمة الله.

مالبرانش: (Malobranche) (١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م) فيلسوف فرنسي موحد. له نظريات في التوحيد، لا بأس بذكر البعض منها:

انه يقول: نحن ننتقل من فكر إلى فكر، ومن تصور إلى آخر، ومن ممكن إلى ممكن، حتى ننتهي بوجود عظيم، ممتنع ادراكه تماماً لعظمته ويستحيل معرفته معرفة تامة لعدم تناهيه. ذلك لأن كل موجود من الموجودات (سواه) قائم به. أما هو، فمستغن عن أي مقوِّم. وهو قائم بذاته منذ الأزل. وهذا الوجود (أي الله تعالى) وجود لا نهائي.

انه يقول: بما أني في استطاعتي أن أتصور وجوداً لا نهائياً، إذن وجب أن يكون هذا الوجود موجوداً، لأنه لا يمكن تصور شيء معدوم[1]. اذن، ربنا غير متناه ولا يحده شيء. ذلك لأني استطيع أن أتصور اللانهائي بقدرته. فالله هو واجب الوجود.

انه يقول: لا يمكن رؤية الله تعالى ولا فهمه حق الفهم ولا تفهيمه حق التفهيم. ويكفي في يقيننا أننا نؤمن بوجوده بآثاره.

أنه يقول: «نحن ندرك وجود الله دونما واسطة، حين أن الأشياء كلها (عدا الله تعالى) إنما تدرك به تعالى وبما أودع الله من وسائط وأدوات. فلا حاجة لتجلي مفهوم الله تعالى في أذهاننا إلى واسطة أو أدوات. نحن لا نعرف الله بفكر وسيط. فانه هو الفكر! وهو فكر الأفكار ومعطي الأفكار».

هذا ما يقوله مالبرانش. ولكن، انظروا إلى ما يقوله سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المقام في دعاء الصباح حين يخاطب رب العباد. أنه صلوات الله عليه يقول:

«يا من دلَّ على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته وجلَّ عن ملائمة كيفياته».

---

(١) خلافاً لما يقوله (فورباخ) المادي، حيث جعل ما هو دليل وجود الله دليلاً على عدمه، لظلمات في نفسه. وقد سئل صديق لي عن الدليل على وجود الباري. فقال: «سؤالك هذا خير دليل على وجود الله».

على أن لـ(مالبرانش) في القضاء والقدر ومسائل أخرى نظريات لا تتفق مع الواقع وما جاء في الدين الاسلامي. وأنى لفيلسوف لم يستق الحقائق من خزائن آل الرسول سلام الله عليهم أجمعين أن يصل إلى حقائق ثابتة غير متزلزلة.

ان (مالبرانش) يوافق صدر المتألّهين صاحب الأسفار بقوله: «الوجود خير محض والشر أمر عدمي».

فطوبى لنفوس لازمت التقوى وجانبت الآثام وسفاسف الأمور حتى المكروهات فتجلت فيها الحقائق بفضل منه تعالى واضحة جلية، لا غبار عليها ولا شكوك، فعرجت إلى عوالم القدس والحقيقة الأبدية...

فقد قال علي عليه السلام: «ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه».

وطوبى لنفوس تطلعت إلى رحمات الله تعالى باخلاص وخشوع وأعمال صالحات، فقد جاء في الحديث القدسي: «ان لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرَّضوا لها»!...

لا تقاس الناس بالمال ولا بالجاه ولا بعلم لا يعمل به. بل تقاس بدرجة معرفتها خالقها أو بدرجة تزكيتها نفوسها. ولا تزكو النفوس إلا بالتقوى. فتتعرف إلى الخالق سبحانه بدرجة ما تقوم به من تزكية. ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. وفي الحديث: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، لو أقسم على الله لأبرّه».

* * *

إن مقياس الكمال عند الماديين هو: المادة!... فمن كانت مادته من حيث المال والجاه أعظم، كان إلى الكمال أقرب. لذلك يخاطب (فرعون) قومه هؤلاء الذين لم تفد فيهم دعوة موسى عليه السلام لفسوقهم وفجورهم كما تخبرنا الآية الآتية: ﴿ونادى فرعون في قومه، قال: يا قوم، أليس لي ملك مصر. وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون، أم أنا خير من

هذا الذي هو مهين. ولا يكاد يبين، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين، فاستخفَّ قومه فأطاعوه، انهم كانوا قوماً فاسقين﴾[1]. حين أنه لا قيمة للدنيا ولا للمادة، عند الله تعالى، في مجالات التكامل. فان النفس غير المادة بل تضاد المادة: ﴿الدنيا والآخرة ضرتان﴾. إلا أن المادة تؤثر في الكمال النفسي إذا وقعت وسيلة خير وعطف ورفع حاجة الآخرين لوجه الله. وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء». والكافر هو الجاحد لنعم الله، الذي لا يقوم بما أوجب الله عليه من واجب الشكر: من عبادات وأعمال صالحات. وهل هناك دين يعلم البشر كيفية القيام بواجب الشكر كدين الاسلام. ولذلك عد غير المعتنق لدين الاسلام وغير العامل به كافراً. ﴿ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾. (سورة آل عمران: ٧٩).

يرى الأستاذ جب: «أن الاسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة. بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية».

ويقرر الأستاذ (برج): أن فلسفة الاسلام الاجتماعية تقوم دائماً على وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية. وذلك على عكس أوروبا التي تزعم أنها مسيحية. ويقرر في موضع آخر أن مبدأ الأخاء الانساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الاسلام. ولذلك يؤكد الأستاذ أن ليس هناك مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للاسلام في توحيد الأجناس الانسانية المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة. ويرى الأستاذ أن لا بد لأوروبا أن تتعاون مع الاسلام في سبيل تقدمها الروحي والثقافي.

---

(١) سورة الزخرف: ٥٠ ـ ٥٣.

هل هناك تولد ذاتي؟

قد برهنت العلوم الطبيعية على أن ليس للبيئة أو الطبيعة أدنى أثر أو تأثير في خلق البشر أو الكائنات الحية، وأن الكائنات الحية برمتها قد وجدت بالقدرة الالهية المتجلية في فعالية النطفة والعوامل الوراثية (جينات(Génes والكروموزومات.

إن ثلة من الناس (ومع الأسف) كانوا يظنون أن البيئة هي الخلاقة لبعض الحشرات أو الحيوانات. وكانوا يعتقدون أنه لو وضعت لبنتان نديتان احداهما فوق الأخرى تتولد بعد مدة يسيرة عقارب كثيرة بينهما.

إن هذه العقيدة كانت سائدة من لدن عهد (أرسطو) إلى القرن السابع عشر. وان بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الديدان والضفادع والعلق تتولد من تلقاء أنفسها في اللحوم الفاسدة العفنة أو في المياه النتنة الآسنة. ويظن البعض أن البيئة هي الخالقة لهذه الكائنات الحية، وهذا ما يسمى بنظرية التولد الذاتي: (Gènération Spontanée) .

كما أن البعض يظنون أن (الآميبات) أو الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة والأسماك والقواقع وغيرها إنما تتولد في المياه بتأثير حرارة الشمس وضوئها ومواد أخرى موجودة في الماء. ودليلهم على ذلك أن السمكة لو اخرجت من الماء، فأنها تموت حالاً.

ولقد برهن العلم الحديث على أن البيئة ليست بخلاقة للحياة وإنما هي عامل مساعد للنمو واستمرار الحياة. فقد أثبت (ردي Redi) سنة ١٦٨٨ م، بعد إجراء تجارب عدة عميقة. أن الديدان التي تتولد في اللحوم العفنة إنما تتولد من بويضات الذباب الموجودة في اللحوم، ولولا هذه البويضات لما وجد كائن حي.

كان يقول الطبيب البلجيكي (وان هلمونتVan Helmont) قبل (٣٥٠)

سنة: أنه لو مليء كوز بالدقيق وسد فوهة الكوز بقماش بال ملوث عتيق، فإن الفأرة تتولد في وسط ذلك الدقيق. وان هذه الفأرة تأخذ بالتوالد بعد ذلك شيئاً فشيئاً.

إلا أن (ردي) فنّد هذه النظرية: بأن جاء بدورق زجاجي ذي عنق ملتوٍ طويل، بعد أن وضع فيه قطع لحم، فعقم داخل الدورق وسد فوهته سداً محكماً. وجاء أيضاً بدورق آخر وضع فيه قطعة لحم ولم يسد فوهته، فرأى أن الديدان تتولد في اللحم الذي وضع في الدورق المفتوح فقط من جراء ما تضعه الذباب من بويضات على اللحم. وقد أجرى هذه التجربة مع لحوم مختلفة ومتنوعة فرأى أنه يتولد نوع واحد من الذباب مهما اختلفت اللحوم وتنوعت، وفي نوع واحد من اللحم تتولد أنواع مختلفة من الذباب لاختلاف البويضات التي تقع على ذلك اللحم من الخارج. فأثبت بهذه التجربة أن التوالد الذاتي فكرة سخيفة وأن التولد لا يكون إلا عن بويضة سابقة أو تلقيح سابق: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾. (سورة الحج: ٧٢).

ثم أن (ليون هوك(Leewen Hoek) اكتشف المجهرMicroscope واكتشف بذلك الميكروبات (الجراثيم الحية) التي لا ترى بالعين المجردة. وضع (ليون هوك) قطرة ماء تحت مجهره فرأى أن الأحياء المجهرية: (الابتدائيات ذات الخلية الواحدة) تسير في هذه القطرة يميناً ويساراً. فأدى ذلك إلى تنازل الماديين عن رأيهم السابق بالنسبة إلى تكون الحيوانات والحشرات من البيئة أو بتأثير البيئة والمحيط. ولكنهم أخذوا يقولون بعد ذلك: ان المكروبات والكائنات الحية تتولد من تلقاء أنفسها في المياه العفنة.

ولقد حدث شجار عنيف بين الموحدين والماديين:(Matérialistes) منذ سنة ١٦٧٦ م. وهي السنة التي أثبت فيها (ليون هوك) أن ليس في المطر (حين تحول البخار إلى سائل) كائنات حية، وإنما تدخل فيه كائنات حية حين هطوله وملاقاته (أي المطر) الأرض واختلاطه بالغبار والتراب. واستمرت إلى سنة ١٨٧٦ م وهي السنة التي أيد فيها تندال(Tyndall) نظرية هوك. حتى

جاء (باستور) وبرهن بصورة قطعية، أن لا تولد ولا توالد إلا من كائنات حية سابقة وأن الكائنات الحية هي موجودات مستقلة تدخل في المطر من الخارج عند هطوله أو بعد سقوطه على الأرض وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً. ففندت نظرية التولد الذاتي تفنيداً قطعياً. مع ذلك، جاء (برتلوBerthelot) فادعى أن الكائنات الحية(Bactéris) التي تحصل نتيجة تخمير العنب إنما هو أمر مادي وليس هناك موجودات حية سابقة كانت سبباً لوجود هذه الكائنات الحية. وقال بالتكون الذاتي(Autodynamisme) أو الحركة الذاتية. ولكن (باستور) قام بتجربة على أشجار العنب تشبه تجربته السابقة من حيث التعقيم ومنع تسرب كائنات حية من الخارج. فأرى أنه لا تحصل (باكتري) أو جراثيم للتخمير. وأن (الخلايا: Cellules) التي توجب التخمير إنما تقع على حبات العنب من الخارج قبل النضج والحلوان بأيام وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً أبداً.

لكن الماديين ما برحوا ينتهزون الفرص لاثبات نظريتهم السقيمة. حتى إذا اكتشف المجهر الالكتروني(Microscope Electroniqe) وتمكن العلماء من معاينة الجراثيم ما بعد الذرية(Ultravirousses) التي كل واحدة منها أصغر من حبة الدخن (٧٠٠٠٠) أو مائة ألف مرة، أخذوا يقولون: «إن هذه الجراثيم إنما تتولد من المادةالميتة نفسها وليس هناك عامل حيوي أو موجود حي سابق تولدت منه وان الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة(Virous, Utltra virous) إنما هي مواد كيميائية سامة وليست هناك حيوية سابقة». وتنازلوا عن القول بأن الفأرة تتولد من مادة ميتة! ولكنهم بقوا مصرين على أن الحيوية إنما تأتي من الشمس على وجه الأرض وإن الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة (الجراثيم ما بعد الذرية) هي مولودة المحيط والبيئة وان البيئة (الجامدة الصماء) هي المولدة لها!.

إلا أن علماء الأحياء برهنوا على فساد هذه النظرية أيضاً بتجارب دقيقة أخرى، وأخفق الماديون إخفاقاً نهائياً، وعلم أن كل كائن حي إنما يتولد من كائن حي آخر أو بانتقال النطفة بالتلقيح.

إذا كانت نظرية التولد الذاتي صحيحة وأن التفاعل الكيميائي وأشعة الشمس وذرات آلفا وكاما وأمواج كاسميك وما فوق البنفسجي وآزوت وبخار

الماء وغيرها تكفي لحدوث الحياة على وجه الأرض دون خالق للحياة والحيوية لزم أن نرى رأس قرد مثلاً يتشكل في القفار والصحارى بصورة تدريجية، ثم تتشكل له ساق فأطراف وهكذا. . .

فعلم من كل ذلك أن ليس للبيئة أن تخلق كائناً حياً وان الحيوية شيء قد جاء من الخارج وليس بأمر مادي بحت. وإن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الكائنات الحية وأعطاها نفساً وروحاً بقدرته ولا يمكن ادخال النفس والروح في المعادلات الكيميائية أو التحليلات الرياضية. ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

وزيادة في التوضيح نقول: انا لو ملأنا حوضاً كبيراً بالماء واتخذنا الاحتياطات اللازمة لعدم دخول بويضات السمك أو الضفدع فيه، فلا نشاهد، مهما انتظرنا، سمكة أو ضفدعاً في ذلك الحوض وإن طالت الأعوام. مع أن الشمس على ما يعتقده الماديون: (أنها أساس الحياة وموجدها) تعمل عملها وترسل أشعتها. ولكنها غير خالقة للحياة، بل الشمس عامل من عوامل النمو واستمرار الحياة على هذا الترتيب الذي نراه.

إن الماديين: هذه الطبقة الجاحدة وجود الخالق! يحاولون أن يجعلوا العوامل الطبيعية المادية مبدءاً وسبباً للحيوية والحياة. الا أن العلم يخالفهم في طيشهم وهذيانهم وضلالهم وهم ينسبون (ومع الأسف) نظرياتهم الفاسدة إلى العلم، والعلم من ذلك براء.

وكم من أشياء ينسبها هؤلاء إلى العلم ويدعون أنها نتيجة درس وتمحيص علمي والعلم بعيد عنها كل البعد: ﴿انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. ويراد بها النفوس.

وما يقال عن تبديل الطاقة بالمادة(Matérialisation) إنما هو في النواحي المادية فحسب. ان الطاقات المادية الكهربائية أو الحرارية أو الحركية. وغيرها تتكدس فتشكل مادة، وهذا لا يعني أن هذه الطاقات المشعة مثلاً من الأورانيوم أو الراديوم تتكدس فتولد حيوية وروحاً ونفساً. وقد ثبت في

الفسلجة أن الخلية(Cellule) إنما تتولد من خلية حية أخرى إذن ثبت أن الروح من أمره تعالى، ﴿قل الروح من أمر ربي﴾.

يستنتج مما تقدم أن المادة لا عقل لها كي ترتب وتنظم ولا منطق لها لتفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه. وما أعظم قوله تعالى حين يقول: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الله، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وما القمر الصناعي إلا نتيجة فكر أودعه الله في بعض عباده ومواد وعناصر أودعها الله في أرضه وتوالي أيادي كثيرة من العلماء منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد إلى يومنا هذا. وهل قوبل هذا الفوز والاكتشاف بالشكر؟ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

ولقد قالوا: ان المثل العليا تابعة إلى ما يحدث من نظم اقتصادية وكذا الحياة الاجتماعية نتيجة من نتائج الوضع الاقتصادي!. وهكذا تسافلت البشرية نفسياً من جراء تركها ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع) حتى صارت لا تؤمن إلا بالمادة وما يحقق شهواتها. فأمست فلسفتها فلسفة بهيمية. فلسفتها أن تقول: «لا تهمني أخلاق فلان وإنما تهمني أعماله». حتى أمست تعتقد أن هنالك تنافياً بين ركوب الطائرة أو الاستماع إلى المذياع أو النظر إلى التلفزيون[1]، وبين السمو بالنفس إلى أعلى مراتب الكمال حسب ما رسمه الله لنا في قرآنه الكريم.

حتى أمست أمريكا بلد الحرية الشخصية المطلقة! والبلد الذي نادت بفصل الفضائل والأخلاق عن الحياة العملية تفصل ٣٣ موظفاً في وزارة خارجيتها لاصابتهم بالشذوذ الجنسي! لأن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة!.

حتى أمسى الولد الثري لا ينفق على أبويه العاجزين!.

---

(١) في ما لا يثير الشهوات ويؤدي إلى تسافل النفس وترك ذكر الله تعالى من أغانٍ ومناظر.

حتى أن جلسة من جلسات الكونكرس(Congress) الأمريكي تتعطل، لأن امرأة كانت تسكن في عمارة مواجهة للمجلس وقفت في شرفتها عارية تماماً، لا يستر جسدها شيء، فينشغل الأعضاء بفتنتها الشيطانية وتتعطل أعمال الدولة، ريثما يبعث رئيس المجلس يرجو، السيدة الفاضلة أن تدخل غرفتها أو تكتسي شيئاً، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم.

حتى تأتي فتاة أمريكية إلى باريس فتنزع ثيابها كاملة وتضعها في حقيبة لها يدوية وتمشي وهي عارية في شوارع باريس لتري الناس الدرجة التي وصلت اليها أمريكا في الحرية والتقدم الخلقي!.

كل ذلك من جراء هذا الاختلاط البريء! والانتهاء إلى فساد وإفساد في الأرض. ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنَّ، بل أتيناهم بذكرهم، فهم عن ذكرهم معرضون﴾[1].

فطوبى لنفوس اتبعت الحق والواقع وترفعت عن أدران المادة العمياء والملذات المميتة للنفوس واستجابت لله وللرسول لما فيه حياتها وسعادتها في الدارين:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم إليه تحشرون﴾ (سورة الأنفال: ٢٤).

* * *

تكاد لا تجد فيلسوفاً، درس الرياضيات العالية أو الفيزياء الرياضية العالية أو الفلك العالي وتوغل فيها، ملحداً ينكر وجود الخالق. فـ (بركسون) و (أينشتين) و (كاميل فلامريون) وأمثالهم موحدون. ذلك لأنه عندما يرى أحدهم أن جميع أجزاء الكون مرتبطة بعضها ببعض بدساتير رياضية متقنة، وأن الرياضيات مفتاح فهم ظواهر الطبيعة، عند ذلك يعلم أنه لا بد من عاقل قد ربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض. وان هذا العاقل الجبار هو

---

(١) سورة المؤمنون: ٧٣.

الله تعالى: واهب الوجود ومرتب أجزاء هذا الوجود ترتيباً محكماً بقوانين رياضية رصينة لم يصل العلم الحديث إلا إلى جزء ضئيل وضئيل منها جداً.

لذلك كان يحاول (أينشتين) أن يستنبط من معادلة المجال المتواصل وحدها عموم الفيزياء بما فيها عالم الذرات والخصائص الكمومية (Quantiques).

وكان يقول: «لولا الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا لما قامت للعلم قائمة. فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل اكتشاف علمي وسيبقى كذلك إلى الأبد».

وهو القائل: «ما من شك أن كل بحث علمي عميق يقوم على عقيدة تشبه الشعور الديني: مؤداه أن العالم مؤسس على العقل ومن الممكن تفهمه».

لكن الفلاسفة الذين رسبوا كثيراً في الرياضيات في تحصيلهم الابتدائي والثانوي وفروا من الرياضيات العالية لعدم فهمهم لها، وإنما صاروا يذكرون اصطلاحات منها في كتبهم، أخذوا يصدرون أحكاماً جزافاً عن الكون دون إرجاعها إلى أصول ثابتة رياضية ومبادىء عقلية عميقة وسموا إعتباطاً نظرياتهم الفاسدة بل أهواءهم فلسفة! وجاؤا باصطلاحات جديدة لا يؤيدها العلم، فخدعوا العوام والسذج من الناس.

إن هؤلاء الذين لا يقبلون نقاشاً لهذيانهم، صاروا يأخذون الفلسفة من وسطها وبيد واحدة ـ ان هؤلاء، بنفوسهم الملوثة وصفاتهم الذميمة وما يترشح من هاتين، شوشوا على الناس الحقائق الفطرية الحقة وأفسدوا على ثلة من عباد الله عقائدهم بالمبدأ الأعلى. انهم اخفقوا في النمو وكسب الشهرة والصيت في الأوساط العلمية، فعمدوا إلى ترويج الزيغ والالحاد وما يترشح من نفوسهم المتسافلة: «وكل إناء ناضح بالذي فيه».

القصور الذاتي

القصور الذاتي أو الاستمرارية(Inertie) موضوع معروف في الفيزياء، يعترف به الفيزياويون وهو: أن الجسم لو كان ساكناً لبقي ساكناً على حالته الأصلية، فلا يتحرك من تلقاء نفسه إلا بمحرك آخر، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة. لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً، والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة، تأخر القسم الأعلى من بدنك في متابعة حركة القطار عن القسم الملتصق بسطح القطار. كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة. فإذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار. فان وقف القطار فجأة، فان القسم الأعلى من بدنك ليحافظ على حالتـه السابقة (أي الحركة)، فيتحرك قليلاً إلى الامام عند وقوف القطار فجأة.

مثال آخر: أنا لو وضعنا فوق اناء (كأس) قطعة من المقوى (الورق السميك) ووضعنا على المقوى درهماً مثلاً، وسحبنا المقوى بسرعة نرى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية بل يحاول أن يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه فيسقط في الاناء.

كان الأتراك يسمون القصور الذاتي بـ(العطالة). ذلك لأن كل جسم في ذاته عاطل لا يقوى على تغيير في ذاته، فالساكن ساكن إلى أن يحركه غيره والمتحرك يبقى على تحركه وعلى نفس السرعة التي يتحرك بها إلى أن تتدخل قوة، فتزيد من سرعته أو تنقصها. فالشيء بذاته عاطل لا يؤثر في نفسه كرجل عاطل لا خير فيه. ﴿قل أللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير أنك على كل شيء قدير﴾[1].

يقول زين العابدين علي بن الحسين (ع) في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي:

---

(١) سورة آل عمران: ٢٥.

«من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك».

فالأشياء جميعها فيها قصور ذاتي، فلا تتمكن من أن تؤثر في نفسها. بل تبقى عاطلة أو محافظة على ما هي عليه من حالة سابقة: سكون أو حركة. فإذا كان علم الفيزياء يعترف بذلك، فما بال من يتصور للنبات والحيوان حركة تكاملية ذاتية من تلقاء نفسها! وأنها هي التي تكمل اعضاءها بنفسها أو تتكامل من آميبا حتى يكون قرداً! مثلاً مع اعترافه عند دراسته الفيزياء بالقصور الذاتي. ثم إذا كان الآميبا قد تكامل (ولا مؤثر ولا مكمل إلا الله) فصار دجاجة فما بال الآميبا نراه موجوداً ليومنا هذا مع اتحاد الظروف. ومن الذي أوجد الظروف وكيف وجدت، ومن جاء باختلاف الظروف؟ ومن الموجد لها الاختلاف؟.

وإذا كان الانسان (مع اعترافهم أن فيه عقلاً لا يدري كيف جهز به) هو نتيجة تكامل القرد، فما بال القرد موجود ليومنا هذا مع اتحاد الظروف، على أنهم يقولون: أن هناك حلقة مفقودة بين القرد والانسان يجهلها العلم. فكيف تبنى النظرية على الجهل! ثم أن هذا القرد كيف فكر أن يدفع عنه ذنبه ويجعل بدنه على شكل انسان! وقد ثبت أن لا أثر للمحيط في إيجاد عضو ما.

وغني عن البيان أن محو الذنب عمل جبار لا يقوى عليه الانسان العبقري، فكيف بهذا القرد الذي لا يتمكن من دفع أقل مكروه عن نفسه. ولما لم يجهز القرد نفسه بوسائل من الدفاع إذا كان يستطيع أن يخلق أعضاء ويغير أعضاء ويحذف أعضاء. ﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا﴾.

وأما ما يقال عن الطفرة (Mutation) فإن مؤهلاتها وموجباتها وإمكانياتها إنما جاءت من الخارج. ثم إن كانت هذه الطفرة هي من تلقاء الكائن الحي، فلِمَ لا يغير هذا الكائن الحي في جسمه ما يزيل به عنه حاجاته، ولم لا يجهز نفسه بأعضاء يقوى بواسطتها على ابصار وسماع... الخ اكثر مما هي عليه

الآن كي لا يحتاج إلى صنع آلات يستعين بها في ابصار ما لا يبصر بعينه المجردة، كالتلسكوب والميكروسكوب. . . الخ. ان الله تعالى يقول: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات، فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. (سورة النحل: ٦٨، ٦٩).

ولكن الاجرام والمظالم تسد على الانسان أبواب الاعتبار بآيات الله والتدبر والتفكر، فيعزو الخوارق إلى الطبيعة العمياء الصماء: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته، أنه لا يفلح الظالمون﴾. (سورة الأنعام الآية: ٢١).

فالظالم هو الذي سد على هذا البشر المجرم الباغي آفاق الاهتداء، فصار يفتري على الله الكذب ويكذب بآياته وكتبه ورسله. فلينته عن اجرامه من يشك أن ترك الاجرام وأن الانابة والاستغفار والأعمال الصالحات تفتح على الانسان أبواب الهداية، ليرى كيف تنشقع عنه الشكوك، فيعود الايمان الفطري إليه وتطمئن نفسه بما أنزل الله من آيات. ﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾.

* * *

عرفت رجلاً قد لوث نفسه في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته، ولم يوفق إلى التكفير عن ذنوبه ولا إلى توبة ما. انه لم يدع منكراً إلا وقد ارتكبه. كان مجموعة ظلم وبغي وجشع، فصرت أعقب حياته، وإذا به أمسى جرثومة فساد، ينكر وجود الباري جل جلاله، ويستدل على ذلك بأدلته الواهية!. ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[1]. ولكن الله أراد أن يعذبه في الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد). فحكم عليه بالاعدام، فطلب وهو في السجن مصحفاً يتبرك به ويجعله شفيعاً لينجو من العقاب، ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾، ﴿إنما

(١) سورة الروم: ٩.

التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار. أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾[1].

أعدم هذا الطاغي وقد شوهد وجهه على المغتسل مسوداً كريهاً بعد أن كان أبيض ناصعاً. ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[2].

وكم شوهد من أشخاص حالة الاحتضار اسودت وجوههم من جراء أعمالهم في الدنيا وما يحملونه من عقائد فاسدة، وكم شوهد أشخاص ابيضت وجوهم حالة الاحتضار: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم﴾. ﴿الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا﴾.

فالفيلسوف أو المتتبع هو ذلك الذي يعقب بدقة حالات بعض الناس وأعمالهم من خير وشر دونما تجسس، يتتبع ذلك في أدوار الحياة المختلفة ليرى كيف أن الجرائم والموبقات والنزوات تؤدي إلى إنسحاب الفطرة وزوال العقيدة، فالالحاد، فالزندقة.

ولقائل أن يقول: لو بلغ هذا الفيلسوف مرتبة من التسافل وضعة في النفس حتى أمسى في نظره المنكر معروفاً والمعروف منكراً، لا يستطيع إذ ذاك، القيام بهذه التجربة كي يوفق بين عقيدة الانسان وسلوكه!. لأنه قد بلغ حداً من التردي حتى ضاعت لديه الموازين: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

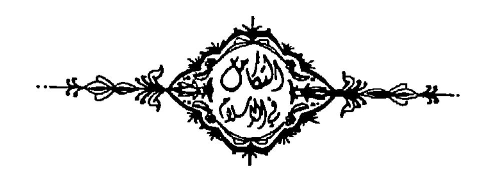
نعم، قد يبلغ بالشخص التسافل مرتبة لا يشعر معها بما هو فيه من ترد مرير. فيأتي دور الاستهزاء بمن لا يوافقه في سلوكه وهذيانه! فيصمه بالخرافة والرجعية والجهل!.

(١) النساء: ٢٢.

(٢) الزمر: ٦٠.

أسفاً على بعض أفراد هذا البشر حين يسمي أحدهم المعارف الالهية والتدبر في آيات الله الكونية جهلاً وخرافة!!.

انها لعمري فلسفة شيطانية! فلسفة رجعية! ترجع بالفرد إلى جاهلية جهلاء. فيظن، بل يوقن قد بلغ من التفكير والوصول إلى الواقع مرتبة لا تقبل الرد والنقاش! ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام: ١٢٢).



معالجة الشكوك

لا يخلو شخص من شك في حياته عدا الأنبياء والمعصومين عليهم السلام. وما جاء في القرآن من آيات بهذا الشأن: ﴿لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ إنما هو لمزيد اليقين وتنبيه الآخرين. ذلك لأنه ليس هناك أحد عدا المعصومين (ع) إلا وقد أذنب في حياته ذنوباً من غيبة أو نميمة أو كذب أو بهتان أو افتراء أو ازدراء لأخيه المؤمن أو كبر أو حسد أو بخل أو لهو أو فسق أو أكل مال الغير أو الربا أو غير ذلك. وان هذه الذنوب لها أثرها الفعال في تحريف النفس الانسانية عن الفطرة. وان الشيطان أيضاً لعامل مهم في هذا المضمار. يملي على الانسان، ان سيطر عليه من جراء ذنوب اقترفها، أنواع الريب والشكوك. وقد قال الله تعالى عنه: «ولأضلنهم ولأمنينهم». وفي موضع آخر: ﴿لأزيِّننَّ لهم في الأرض ولأغوينَّهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (الحجر: ٤٠). فمن خالف الشيطان في إغواآته اهتدى ومن وافقه هلك: ﴿فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾. إلا أن المادي لا يعترف بوجود الشيطان مع اعترافه بأشياء كثيرة لا ترى بالحواس كالأمواج الهرتزية والألكترون إلى ما هنالك. وكذلك لا يعترف المادي بوجود الجن وما هو غير مادي، مع اعترافه بقوة الجاذبية والكهربائية والعقل الانساني!.

لقد قال لي صديق وكان ممن يحرص على الدين ويتوجه إلى الحق: «ان من الأدلة القطعية على أحقية ما أنا فيه من عقيدة اسلامية ومبدأ صحيح ما يعتريني من شكوك من حين لآخر». كان يقول: «أني أشك في معتقداتي في وجود الحجة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه، أشك في النبوَّات... إلى ما هنالك، فيصيبني حزن وانقباض عميقان وأشعر بكآبة لا أستطيع وصفها. وأعلم إذ ذاك أن شيطاناً يريد أن يغويني ويزيل عني ما أنا فيه من حسن العقيدة والمبدأ. فاستغفر الله من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها أدعو الله

بفنون الدعوات، أتصدَّق وأصلي وأصل رحمي وأقوم ببعض الأعمال الصالحة وإذا بالشكوك تنكشف وتزول ويصيبني بعد ذلك فرح وابتهاج عميقان.. كان يقول: هل رأيت أحداً من أهل الباطل أصابه شك في ما يعتقد. ذلك لأن الشيطان يرتضي له ذلك ويؤيد له ما هو فيه. كان يقول: أني عاشرت أصحاب عقائد فاسدة، وسبرت أعمالهم فعلمت أن أعمالهم تلك، هي التي أوصلتهم إلى هذه العقائد منحرفة عن الحق، وكنت أرى أنه لا يصيبهم شك في ما يعتقدون من عقائد منحرفة عن الحق، ما داموا لم يزكّوا أنفسهم وما وما أمر به الشرع، فهذا لا يخلو من حالين. أما له أعمال صالحة سرية لا نعلمها تربو على عمله الفاسد: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾. وأما هو سائر نحو الظلمات بعد قليل ومآله الخسران. على أن هناك أيضاً عوامل أخرى ضمن رحمة الله وعدالته وعظيم فضله، لا نعلمها.

لا أعلم، هل قام علماء (آثار) النفس بهذه التجربة الروحية الخطيرة؟

كل فرد من أفراد الانسان يصيبه في حياته شك أو شكوك، ذلك لأنه لا يبقى على حالة واحدة من التقوى والورع واجتناب المعاصي. فهو في شبابه غير ما هو عليه في وقت آخر. وقد يكون في شيخوخته منحرفاً عن الحق وفي شبابه متوجهاً إلى الحق. ولكن قلَّ من يفكر في الأسباب فيعالج نفسه معالجة تؤدي به إلى النجاة والزلفى.

نعم، لا منجى لأحد من شك أو شكوك، قليلة أو كثيرة. تتوارد هذه الشكوك برهة ثم تختفي إذا عقب هذه الشكوك استغفار وعبادات وأعمال صالحات. فإذا طهرت هذه النفس بما يطهرها من مأكل حلال طيب وأداء للحقوق من: زكاة وخمس وانفاق، وصلاة مقبولة وتهجد جوف الليل وتضرع وبكاء ندماً على الذنوب، وبرِّ الوالدين وصلة الرحم وقضاء حوائج المؤمنين واستغفار وتسبيح وذكر الله تعالى في كل حال، يقوى عند ذلك الايمان، فلا يزحزحه شيء ويبلغ من اليقين مرتبة لا تؤثر فيه تسويلات الشياطين من الجن والأنس ووساوسهم. لذلك، يقول علي عليه السلام «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

فلا ينبغي أن يرتبك الشخص عندما يختلج في نفسه بعض الشكوك. بل

عليه أن يبادر حالاً إلى تطهير نفسه والتكفير عن ذنوبه. عليه أن يفتش عن نفسه وعن أعماله في ذلك اليوم أو في ذلك الأسبوع أو الشهر، أو السنة. هل كان ظالماً لأحد؟ هل اغتاب أحداً. هل كان عاقاً[1] لوالديه. عليه أن يعالج ما اعوج من سلوكه الديني. فإذا فعل ذلك يرى جلياً أن ما اعتراه من شكوك ينقشع رويداً رويداً.

إن طريق الحق واحد وطرق الباطل متعددة، وقد أراد رسول الله (ص) ذات يوم أن يفهم أصحابه ذلك. فخطّ لأصحابه خطاً وقال: «هذا سبيل الله». ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله. فقال: «هذه سبل. على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم تلا قوله سبحانه: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. (٦٠/١٥٣).

ولما كانت النفس ميالة إلى الشهوات وإلى الباطل، لذلك كانت طرق الشيطان موافقة لميول النفس ومتعددة ومفتوحة. فما على الانسان إلا أن يعرض ما يختلج في ذهنه على كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام، ويتذكر عظيم حق الله وجزيل ثوابه وشديد عقابه. ويتذكر أن الصبر على هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار جهنم. ويتضرع إلى الله تبارك وتعالى في أن ينجيه من هذه الوساوس بأعمال صالحات ويوفقه إلى انجازها ويكثر الذهاب إلى بيوت الله (المساجد) ومراقد أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ويكثر من ذكر الله، لأن ترك الذكر يؤدي إلى وسوسة الشيطان على حد قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾. (٤٣/٣٦).

وقد جاء في حديث عن الرسول (ص): «ان الله يبغض الشاب الفارغ». ذلك لأن الشاب إذا فرغ من عمل مفيد تسلط عليه شيطانه، فأوقعه في المهالك. وما أكثر ذلك.

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

(١) عق الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان إليه واستخف به.

فلو اجتمع شبان كل محلة في محل كل ليلة أو ليلة واحدة في الأسبوع على الأقل واستمعوا إلى مواعظ وارشادات دينية تثلج الصدور وتبعث الاطمئنان إلى النفوس لرأوا أنفسهم في عالم قدسي جديد. وقد شاهدت أمثال هذه الاجتماعات في بعض المدن الاسلامية، فيها تهذيب النفوس وتطهيرها من براثن الضلال. ورأيت المداومين فيها يزدادون نوراً وإيماناً يوماً بعد يوم.

كما أنه يجب تأسيس نوادٍ دينية، يداوم فيها الشبان. يتلقون فيها دروساً دينية، يصلون فيها أوقات الصلاة ويطالعون فيها صحفاً دينية، ويقومون في نفس الوقت بخدمات دينية ويكونون دعاة لبث حقائق الاسلام.

تزول الوساوس:

أولاً: بسدِّ الأبواب العظيمة للشيطان في القلب وهي الشهوة. والغضب والحرص والحسد والعداوة والعجب والحقد والكبر والطمع والبخل والجبن وحب الدنيا وحطامها الزائل وحبّ التزيُّن بالثياب الفاخرة وخوف الفقر والتعصب لغير الحق وسوء الظن بالله وبالناس. فإذا سدَّت هذه الأبواب لم يجد الشيطان باباً يدخل منه إلى النفس الانسانية.

ثانياً: تحلية النفس بأضداد ما ذكر: أي بكرائم الأخلاق وفضائل الصفات وملازمة التقوى والورع والاشتغال بالعبادة والمواظبة عليها.

ثالثاً: كثرة ذكر الله بالقلب واللسان فان الذكر اللساني وحده لا يكفي في إزالة وساوس العدو الأكبر وهو الشيطان. ألا ترى أن الشيطان يهجم على الانسان حين اشتغاله بصلاة يصليها لربه، فإن الشيطان يعمل بجد ونشاط عظيمين لاغواء الانسان وصرفه عن مناجاة ربه بقلبه. ولكن إذا طهر القلب من الأخلاق الذميمة أي إذا تخلى القلب عن الرذائل وتحلى بالفضائل طابق الذكر القلبي الذكر اللساني وطرد الشيطان إذ ذاك. فلا مدخل له ولا مجال.

ولا مؤاخذة على مجرد ما يخطر في قلب الانسان من وساوس، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «يا رسول الله هلكت. فقال له: هل أتاك الخبيث، فقال لك، من خلقك، فقلت: الله تعالى. فقال لك:

الله من خلقه؟ . . . ـ فقال له الرجل: «أي والذي بعثك بالحق، لكان كذا». فقال: رسول الله (ص) «ذاك والله محض الايمان».

وفي حديث آخر أن رجلاً أتى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله نافقت. فقال رسول الله (ص)) «والله ما نافقت ـ ما أتيتني تعلمني ـ ما الذي رابك؟ . . . أظن أن العدو الحاضر أتاك، فقال: من خلقك! . . . فقلت: الله تعالى خلقني . . . فقال لك: من خلق الله؟.

فقال[1]: أي والذي بعثك بالحق، لكان كذا. . . فقال أن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال، فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم. فإذا كان كذلك، فليذكر أحدكم الله وحده».

وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة وان كثرت، فقال: «لا شيء فيها. تقول: لا إله إلا الله». وعن جميع بن دراج، قال قلت للصادق عليه السلام: أنه يقع في قلبي أمر عظيم. . . فقال: «قل لا اله الا الله» قال جميل: فكلما وقع في قلبي، قلت لا إله إلا الله. . . فيذهب عني.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: وضع عن أمتي تسع خصال: الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه، وما اضطروا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد».

وإن الانسان ليؤاخذ حتماً على أعمال القلوب من كبر وعُجب ورياء ونفاق. لما ورد عن رسول الله (ص): «إنما يحشر الناس على نياتهم».

وقد روي عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «ان الله تعالى جعل لآدم في ذريته: من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة. ومن همَّ بحسنة وعملها كتبت له عشر (حسنات)، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همَّ بها وعملها كتبت عليه سيئة».

---

(١) أي الرجل.

وهكذا يتجلى فضل الله ورحمته مع عباده المحسنين والمسيئين. وما أعظم قوله تعالى حين يقول: ﴿ففروا إلى الله أني لكم منه نذير مبين﴾. (٥١/٥٠).

ويفيد في إزالة الشكوك عدا القيام بملافاة ما اجترحت الأيدي من معاصٍ وآثام لا سيما إرجاع حقوق الناس اليهم، ما يلي:

(١) قراءة سورة الناس (قل أعوذ برب الناس)، كثيراً. حتى في الطريق حال المشي.

(٢) أن يقول: لا إله إلا الله كثيراً، حتى في محل عمله حين يفرغ من مراجعة الناس أو الكتابة.

(٣) تلاوة سورة الاخلاص: (كل هو الله أحد) كثيراً. فان الملائكة قد شيعت جنازة سعد بن معاذ (رضوان الله عليه) ومشى رسول الله (ص) خلف جنازته حافياً وأدخله قبره بيده المباركة، لأنه كان يواظب على تلاوة سورة الاخلاص ليل نهار.

(٤) أن يقرأ كثيراً لا سيما في القنوت، «يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا مقلِّب القلوب، ثبت قلبي على دينك».

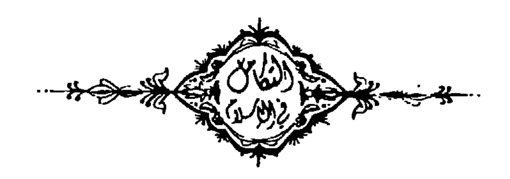
(٥) أن يقول عند عروض الشك: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

(٦) وقد روي عن الصادق عليه السلام: يمسح الشخص بيده على صدره ثم يقول: «بسم الله وبالله، محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم امحُ عني ما أجدُه» ثم تمسح بيدك على بطنك وتقول ذلك ثلاث مرات.

(٧) ويفيد في إزالة الشكوك والوساوس الشيطانية أيضاً: غسل الرأس بماء السدر وشرب ماء نيسان والصوم ثلاثة أيام من كل شهر: أول خميس من الشهر وآخر خميس منه ويوم الأربعاء المصادف أواسط الشهر.

(٨) المواظبة على صلاة الليل (التهجد).

هذه دساتير روحية ليس لأحد لم يمارسها أن يشك في صحتها ويرتاب. وما عليه إلا أن يقوم بالتجربة حتى يرى أثر ذلك جلياً ولا توفيق إلا بالله: ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.



أثر الذنوب في اتجاه النفس

ما من شيء يبعد الانسان عن الاعتقاد بالله وكتبه ورسله ويجعله يمقت الدين والمتدينين ويزدريهم ككبائر الذنوب!... فان هنالك علاقة متينة بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها عن المعاصي والآثام. كما أن هنالك رابطة قوية بين توجه النفس نحو عقائد سخيفة والحاد وزندقة، وتوغلها في كبائر الذنوب والآثام.

وإن هذا الموضوع لمن أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطاً بيانية ومنحنيات تقريبية! فإن الايمان يتغير حسب كثرة الآثام. وقلتها بنسب لا يعلمها إلا الله.

إن الفيزيائي يرى علاقة متينة بين التعجيل الأرضي وزمن السقوط والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط في زمن ما:

$$م = \frac{١}{٢} ج \cdot ن^{٢}$$

وهكذا هناك علاقة متينة بين طول الرقاص والتعجيل الأرضي وزمن الذبذبة الواحدة للرقاص (في الفيزياء):

$$ن = ٢ ط \sqrt{\frac{ل}{ج}}$$

ولكن العلاقة بين توجه النفس الانسانية نحو خالقها وبين ما تقوم به هذه النفس من جرائم وموبقات لهي أمتن من العلاقات الفيزيائية أو الكيميائية* بدرجة لا تقاس. قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». فإذا انسحب العقل الطبيعي تدخل الشيطان فسوّل لصاحبه ما يريد من موبقات وعقائد باطلة. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان». ويقصد بذلك العقل الفطري: ذلك العقل الذي لم ينسحب من جراء الذنوب والآثام.

وجاء في ما قال الصادق عليه السلام بهذا الشأن: «أن الرجل يذنب

الذنب فيحرم صلاة الليل وان العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم».

وقال الباقر (ع): ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته. ان القلب ليواقع الخطيئة. فما يزال به حتى يغلب عليه، فصير أعلاه أسفله». ويراد بالقلب هنا: النفس الانسانية. فالذنب حجاب بين العبد والمعبود.

لذلك كله، يقوم المستعمرون أعداء الاسلام بادخال وسائل الفجور والفسوق ونشر الخمور والربا والفواحش والميسر ومجالس اللهو واللعب والرقص وغيرها في البلاد الاسلامية بأي ثمن كان: بالصحافة والاذاعة ودور السينما والملاهي والتلفزيون إلى ما هنالك... فينكب الشباب وغيرهم باسم الحرية على ارتكاب هذه الموبقات والمدنّسات، فتتدنس نفوسهم وتظلم قلوبهم. فينسحب منها الايمان الفطري رويداً رويداً ويأتي دور الاستخفاف والازدراء تحت عنوان الثقافة! والثقافة من كل ذلك بعيدة غاية البعد.

ولذلك يعمل علماء الدين أيدهم الله تعالى في إبعاد وسائل اللهو واللعب وما من شأنه تلويث النفس من موبقات وملهيات عن المساجد والمشاهد، حفظاً للنفوس من أن تتدهور إلى أسفل سافلين، فإن للبيئة أثرها الفعال في توجيه النفس. لذلك يقول الله تعالى:

﴿قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (٣٩/١٠ الزمر) فعلى المؤمن أن يهاجر إلى حيث يتمكن من إقامة شعائر دينه ويصبر على العناء لينال أجراً بغير حساب. ذلك لأن الانسان إنما خلق ليتكامل. ولا تكامل إلا بتطهير النفس ولا تطهر النفس إلا بالعبادة (بما فيها من أعمال صالحات والقيام بالاحسان إلى الغير) وباقامة الشعائر الدينية. فوجب إذن أن يبذل المؤمن النفس والنفيس حتى يجد محلاً يتمكن فيه من اقامة شعائر دينه. ومن هنا وجب حفظ الأوطان وصيانة الثغور ما دامت هذه الأوطان تقام فيها الشعائر الدينية. فان لم يتمكن من اقامة شعائر الدين فما عليه إلا أن يهاجر إلى حيث يتمكن فيه من إقامة الشعائر كما هاجر

النبي (ص) من مكة إلى المدينة. وهاجر قسم من المسلمين من مكة إلى الحبشة.

ونحن نذكر ها هنا بعض كبائر الذنوب وبعض الحدود ليكون المسلم على علم منها فيجتنبها، ويتوب من أغواه الشيطان فارتكب البعض منها. فقد جاء في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

ويحسن بالمسلم إذا أراد النوم أن يقول ثلاث مرات: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». ويواظب عليه، فانه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

ومن الكبائر ما يلي:

(١) الكفر بالله. وقد قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (سورة البقرة: ٢٥٧).

(٢) اليأس من رحمة الله وروحه. وقد قال تعالى: ﴿لا تيأسوا من روح الله، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾. (سورة يوسف: ٧٨).

(٣) الكذب على الله أو على رسوله أو على أوصيائه (ع). وقد قال تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾. (الزمر: ٣٠).

(٤) قتل النفس التي حرمها الله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾. (النساء: ٩٣).

(٥) عقوق الوالدين[1]. إذ قال تعالى في كتابه المجيد عن عيسى (ع) ﴿وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾. (مريم: ١٩/٣٢). فالعاق هو الجبار

---

(١) الاساءة اليهما وعدم الاحسان اليهما.

الشقي. وقد قال تعالى: ﴿وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾[1]. (١٦/١٤ إبراهيم عليه السلام).

(٦) أكل الربا: ﴿درهم رباً عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم﴾ كما جاء في الحديث. وقد قال تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (سورة البقرة: ٢٧٥).

(٧) ترك الصلاة. إذ قال تعالى: ﴿ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين﴾. (سورة المدثر: ٤٢).

(٨) الزنى - وحده مائة جلدة للمرة الأولى، وكذا مئة جلدة للمرة الثانية وفي المرة الثالثة: القتل. هذا في غير المحصن (غير المتزوج). إذ قال تعالى: ﴿ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾[2]. (٢٥/٣٨ الفرقان). وأما في المحصن فحده الرجم للمرة الأولى.

(٩) اللّواط : وحدُّه أحد أمور يتخير ولي الأمر (الحاكم) فيها. وهي اما القتل أو الرجم أو القاؤه من شاهق تنكسر عظامه أو إحراقه بالنار. وهكذا يعاقب المفعول به أيضاً إن كان بالغاً مختاراً، وإن كان صغيراً عُزِّز.

وقد جاء عن النبي (ص): «ان من قبَّل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء

---

(١) هو الصديد الذي تنزل من جلود أهل النار.

(٢) وإذا تاب بينه وبين ربه فقد تاب الله عليه. مع العزم على عدم العودة أبداً والندم العميق على ما كان منه. ويجلد (القواد) خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر وينفي ويثبت بشاهدين عدلين أو بالاقرار مرتين.

وأما السحق أو المساحقة فتجلد كل من الفاعلة والمفعولة مائة جلدة ولا يبعد الرجم مع الاحصان (أي بأن تكون ذات بعل).

وملائكة الأرض وملائكة الرحمة وملائكة الغضب وأعد له جهنم وساءت مصيراً﴾.

(١٠) شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً، إذ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾. (٥/٩٠ المائدة). وحدُّه: ثمانون جلدة عارياً على ظهره وكتفه ولو تكرر الحد ولم يرتدع قتل في الرابعة. ولو شربها مستحلاً فهو مرتد يجب قتله. ويستتاب بائع الخمر، فان تاب، وإلا قتل.

(١١) إنكار ما أنزل الله تعالى.

(١٢) الأمن من مكر الله وبطشه.

(١٣) محاربة أولياء الله

(١٤) معونة الظالمين والركون اليهم، إذ قال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾. (١١/١١٣ هود).

(١٥) قطيعة الرحم، إذ قال تعالى: ﴿فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. (٤٧/٢٢ محمد (ص)).

(١٦) الفرار من الزحف في الجهاد أو الدفاع الواجب. والزحف هو السير نحو العدو. إذ قال تعالى: ﴿ومَن يُولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾. (٨/١٦ الأنفال).

(١٧) شهادة الزور.

(١٨) كتمان الشهادة. إذ قال تعالى: ﴿ومن يكتمها فانه آثم قلبه﴾. (٢/٢٨٣ البقرة).

(١٩) السحر ويليه تسخير الجن والأرواح والكواكب. إذ قال تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابَل هاروت وماروت. وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تفكر، فيتعلمون

منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله، ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق[1]، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾. (سورة البقرة: ٩٦).

(٢٠) اليمين الكاذبة، إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾. (آل عمران: ٧٧).

(٢١) نقض العهد والنذر واليمين. وكفارةاليمين: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة. مخيراً بين الثلاثة. فان عجز فصيام ثلاثة أيام متتابعة. وكفارة النذر أو العهد هي كفارة إفطار شهر رمضان. فان عجز لجأ إلى الاستغفار.

(٢٢) أكل مال اليتيم. إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾. (النساء: ١٠).

(٢٣) أكل الميتة. إذ قال تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه، ان الله غفور رحيم﴾. (البقرة: ١٧٢).

(٢٤) أكل الدم. للآية المتقدمة.

(٢٥) أكل لحم الخنزير. للآية المتقدمة.

(٢٦) أكل السحت. (المال الحرام).

(٢٧) الخيانة

(٢٨) السرقة.

(٢٩) تنقيص المكيال والميزان. إذ قال تعالى: ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن

---

(١) من نصيب.

أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. (سورة المطففين: ٦).

(٣٠) حبس الحقوق، كالخمس والدين وغيرهما.

(٣١) ترك الصوم مع القدرة.

(٣٢) الاضلال عن سبيل الله. إذ قال تعالى: ﴿ثاني[١] عطفِه ليضلَّ عن سبيل الله، له في الدنيا خزي، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾[٢].

(٣٣) التخلف عن الدفاع الواجب أو الجهاد. إذ قال تعالى: ﴿فرح المخلفون[٣] بمقعدهم اخلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون﴾[٤].

(٣٤) الاسراف والتبذير. إذ قال تعالى: ﴿إن المبذرين كانوا أخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ (الاسراء: ٢٧).

(٣٥) اللهو: (الاشتغال بالملاهي).

(٣٦) الغناء. إذ قال تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾[٥]. وقد جاء في الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

حقاً، ان استماع الأغاني وما تلقنه من اتجاهات سلبية تأخذ النفس إلى التسافل. وإن الدوام على ذلك ينسي ذكر الله. فلا ترتاح النفس إلا إلى سفاسف الأمور ومعان رخيصة متسافلة. تزول مع الغناء صفة الخشوع والخضوع تجاه القادر المتعال ويحرم الشخص نفسه بذلك من لذيذ مناجاة الله تعالى جوف الليل حيث لا واسطة بين العبد والمعبود. مناجاة فيها من

---

(١) أي متكبراً.

(٢) سورة الحج: ٩.

(٣) الذين تخلفوا عن الذهاب مع الرسول (ص) في غزوة تبوك.

(٤) سورة التوبة: ٨٢.

(٥) سورة لقمان: ٦.

العروج إلى معالم القدس وسرور فائق ما لا يشعر به إلا عباد الله الفائزون. انها دموع ساخنات، تثلج الصدور وتبعث على الاطمئنان واليقين.

(٣٧) الميسر (القمار) ولو كان دون أخذ شيء من المغلوب.

(٣٨) القذف. ويراد به الاتهام بالزنا وما شابه. وحدُّه ثمانون جلدة. إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾[2].

(٣٩) منع الزكاة. إذ قال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون﴾[3].

(٤٠) ترك الحج مع الاستطاعة. إذ قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا، ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾. (آل عمران: ٩٧). وعن أبي عبد الله (ع) قال: «من مات ولم يحج حجة الاسلام، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه. فليمت يهودياً أو نصرانياً».

(٤١) الغيبة: إذ قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله أن الله تواب رحيم﴾. (سورة الحجرات: ١٢).

(٤٢) القيادة: وهو الجمع بين أهل الفجور.

(٤٣) اساءة الخلق. وقد جاء في الحديث: «إن سوء الخلق ليفسد

---

(١) النور: ٢٣.

(٢) النور: ٤.

(٣) سورة التوبة: ٣٥.

الايمان والعمل كما يفسد الخل العسل». و «أن لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق».

(٤٤) النميمة: فعن الباقر عليه السلام: «الجنة محرمة على القتاتين المشائين بالنميمة». القتّات: النمام

(٤٥) ضرب المسلم بغير حق.

(٤٦) السعاية إلى الظالم.

(٤٧) قطع الطريق: إذ قال تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف[1] أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرةعذاب عظيم﴾ (سورة المائدة: ٣٧).

(٤٨) الظلـم: إذ قال تعالى: ﴿أنا اعتدنا للظالمين نـاراً أحاط بهم سرادقها[2] وان يستغيثوا بماء كالمهل[3] يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ (الكهف: ٢٩).

(٤٩) الكبر: إذ قال تعالى: ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ (النحل: ٣٢).

(٥٠) كتمان ما أنزل الله من الأحكام الشرعية وغيرها: إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾. (سورة البقرة: ١٦٩).

(٥١) المنع من المساجد: إذ قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد

---

(١) أي تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى.
(٢) فسطاطها: خيمتها.
(٣) القيح أو صديد الميت خاصة أو ما ذاب من صفر أو حديد أو زيت.

الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1].

(٥٢) الاستهزاء بالمؤمنين.

(٥٣) إشاعة الفاحشة: إذ قال تعالى: ﴿إن الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾[2].

(٥٤) الحكم بغير ما أنزل الله: إذ قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

(٥٥) لبس الرجل الحرير.

(٥٦) لبس الرجل ألبسة منسوجة بالذهب أو خاتماً من الذهب.

(٥٧) الأكل والشرب في الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب.

(٥٨) ترك الزوج حقوق الزوجة أو بالعكس.

(٥٩) الرياء في العبادة: فعن الصادق (ع) أنه قال: «كل رياء شرك، أنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله».

(٦٠) المراء: وهو الجدل في المباحثات بالباطل، لقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

(٦١) أن يلبس الرجال ألبسة النساء وبالعكس.

(٦٢) الرشوة والارتشاء: (إعطاء الرشوة وأخذها).

(٦٣) نحت المجسمات وصنعها على شكل انسان أو حيوان. فقد جاء في الحديث: «أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرين».

(٦٤) التعرض للذل: وقد قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾. (المنافقون: ٨).

---

(١) سورة البقرة: ١٠٨.

(٢) سورة النور: ١٨.

(٦٥) الشعبذة: وهي ما يرى الناس بها ما ليس له حقيقة بسبب حركات سريعة توجب الالتباس وهي محرمة كأجرتها وتعلمها وتعليمها إلا أن يكون التعلم لغرض صحيح كردٍ من ادعى النبوة ونحوها بها.

(٦٦) طلب الرياسة مع عدم الأمن من العدل وقد ورد عنهم عليهم السلام: «ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك». و«وإن من طلب الرياسة هلك». «وأنه ملعون من ترأس، ملعون من همَّ بها، ملعون من حدث نفسه بها».

(٦٧) ظن السوء بالمؤمن: فقد قال الله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم﴾. (الحجرات: ١٢).

(٦٨) العُجب: وقد ورد عنهم عليهم السلام: «من دخله العجب هلك. وان اعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله».

(٦٩) الغش: فقد ورد عنهم (ع) أنه: «ليس منا من غش مسلماً».

(٧٠) الكذب: وقد عدَّه الصادق والرضا عليهما السلام من الكبائر. وقد ورد: «أن الله عز وجل، جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الخمر والكذب، والكذب شر من الخمر».

(٧١) مجالسة أهل المعاصي والبدع. لما ورد من النواهي الأكيدة عن ذلك. قال تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم، وأما ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾. (الأنعام: ٦٨).

(٧٢) اتيان البهائم.

(٧٣) منع المؤمن أخاه المؤمن شيئاً يقوى عليه من عنده أو من عند غيره وحبس الحقوق من غير عسر[١]. فعن أبي عبد الله (ع)، قال: «أيما مؤمن منع مؤمناً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره

---

(١) كنا ذكرنا حبس الحقوق في موضع آخر. ولا بأس بتكراره هنا مع حديث في هذا المقام الخطير.

أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار».

وعن ابن سنان عن يونس بن ظبيان، قال: قال أبو عبد الله (ع): يا يونس، من حبس حق المؤمن أقامه الله عز وجل يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل عرقه أودية، وينادي مناد من عند الله عز وجل: هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه. قال فيوبخ أربعين يوماً، ثم يؤمر به إلى النار.

وهناك كبائر أخرى نرجىء ذكرها إلى محل آخر. ونختم هذا البحث بما جاء عن علي عليه السلام:

«من كفارات الذنوب العظام: إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب». وقال عليه السلام مخاطباً كميلاً: يا كميل، مُر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم. فوالذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وجعل الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا أصابته نائبة جرى اليها كالماء بانحداره حتى يطردها كما تطرد غريبة الابل».

وقال سلام الله عليه: «أدنى الانكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان».

* * *

كيف نتوب

يجدر بنا أن نذكر بعض ما ينبغي أن يقوم به الشخص عند ارادته التوبة. فانه ما من عبد (عدا المعصومين سلام الله عليهم أجمعين) إلا وقد أذنب، وما عليه إلا أن يتوب من ذنبه عاجلاً كي لا تتراكم عليه ذنوبه فيسود قلبه، فيعمى إذ ذاك عن رؤية الحق والواقع. ولا شك أن الاستغفار على نوعين، عملي وعبادي. فالاستغفار العملي هو ارجاع ما للناس على الفرد من حقوق إلى أصحابها، والاجتهاد في طلب رضاهم، وقضاء ما فاته من عبادات. وأما العبادي:

(١) فقد قال رسول الله (ص): ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهر وصلى ركعتين واستغفر الله إلا غفر له وكان حقيقاً على الله أن يقبله. لأنه سبحانه قال: ﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

(٢) وفي الاقبال أنه: خرج رسول الله (ص) في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة فخاطب الناس قائلاً: «أيها الناس من منكم يروم التوبة؟». فقالوا: كلنا نروم التوبة. فقال: «اغتسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة التوحيد (الاخلاص) ثلاث مرات والمعوذتين (قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس) مرة واحدة، واستغفروا بعد الانتهاء من الصلاة سبعين مرة وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) سبع مرات. ثم قولوا: «يا عزيز يا غفار، أغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات، فأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ثم قال رسول الله (ص): «ما من أحد من أمتي يأتي بهذا العمل إلا ومناد يناديه من السماء عن الله تعالى: عبدي، استأنف العمل، فقد غفرت لك. وان ملكاً آخر ينادي من تحت العرش: بوركت أنت ومن يلوذ بك

وذراريك. وملك آخر يقول: سوف يرضى عنك خصماؤك يوم القيامة. وآخر يقول: يا عبد الله، ستموت على الايمان ولا تعدم الايمان ويفرج لك في قبرك وينور قبرك. وآخر ينادي: سوف يغفر لأبويك وذريتك ويوسع لك في رزقك. وان عزرائيل يخاطبه، فيقول: سوف أرفق بك عند قبضي روحك».

ثم سأل سائل رسول الله (ص) لو أن رجلاً جاء بهذا العمل في غير ذي القعدة ما نتيجة ذلك؟ فقال (ص): عين ما كان له من النتيجة في شهر ذي القعدة، ثم قال: ان جبريل قد علمني هذا العمل عند معراجي إلى السماء.

(٣) أن يقول بعد كل فريضة قبل أن يثني رجليه ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا اله إلا هو الحي القيوم ذو الجلال والاكرام وأتوب إليه».

(٤) المواظبة على صلاة الليل وهي ١١ ركعة، ٨ ركعات منها نافلة الليل تصلي رَكعتين ركعتين كصلاة الصبح تؤتي بنية نافلة الليل. وركعتان تسميان: (الشفع) وركعة واحدة تسمى (الوتر). ووقتها بعد إنتصاف الليل إلى الفجر. وكلما كان قرب الفجر كان أفضل. ويُستحب أن يقال في قنوت (الوتر): الركعة الأخيرة سبعين مرة: استغر الله ربي وأتوب اليه. وهناك مستحبات أخرى لا مجال لذكرها.

ان الله تعالى يمتدح المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، انهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون[1]. وبالاسحار يستغفرون. وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾. (سورة الذاريات: ١٤ ـ ١٨).

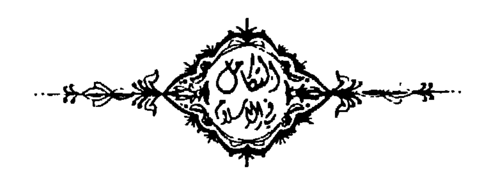
فطوبى لنفوس فكرت في عقباها. فلازمت التقوى وما يؤدي إلى الزلفى ووفقت إلى أنواع الاستغفار. فطهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس. فذهبت إلى نعيم خالد وحياة كلها سرور وحبور. ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا

---

(١) ينامون في قليل من الليل أو نوماً قليلاً.

يعلمون﴾. أي أن الدار الآخرة هي الحياةالحقيقية الأبدية. ليس فيها حزن أو قلق أو خوف. ﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

حقاً، ان الحياة الدنيا بما فيها من مشاكل وأعمال كثيرة لا طائل تحتها وملهيات أخرى لا تفيد في تكامل النفس لهي لهو ولعب. فالانسان في دنياه وإن كان في دوره التكاملي، إلا أن حياته فيها أشبه شيء بحياة الطفل بالنسبة إلى حياة الرجل المتكامل. وسيعلم ذلك، (إن وفق إلى تـطهير نفسه)، في ﴿جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. (٥٧ ـ ٢١).



جواب على شبهات الماديين

نورد هنا ما عثرنا عليه من شبهات الماديين التي لم تتوارد في أذهانهم إلا لأنهم أزاحوا الفطرة بأعمالهم عن فعاليتها وتأثيرها الطبيعي. فأملى عليهم الشيطان شكوكاً وشبهات هي في غاية السخافة في نظر من كان محافظا على فطرته الطبيعية ولم تدنسه الموبقات. ولو أنهم وقفوا حين جهلوا لم يكفروا، على ما جاء في كلام علي عليه السلام حيث يقول: «ولو ان الناس إذ جهلوا وقفوا ولم ينكروا ولم يكفروا». ولكن هيهات، فان المدنسات لم تدع لهم مجالا للتوقف أو التردد وازاحتهم عن التفكير الطبيعي وهو الاعتراف بالخالق المبدع الرؤوف الرحيم.

على أني موقن أن هذه الردود التي نوردها جواباً على الشبهات لا تفيد المادي الذي أعمى الله قلبه لظلمات في نفسه، فاكتسبها من جراء ذنوبه. لأن المنطق ليس هو الشيء الوحيد الذي يردع هذا الانسان (الكنود) عن غوايته ويهديه إلى النور وإلى صراط مستقيم. فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب». فان عمي القلب فلا منطق ولا هداية ولا قبول. ان الله تعالى يقول: ﴿ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم اللهعلى قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. (البقرة: ٧). ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾. (سورة حم ـ السجدة: ٦).

وإنما نورد في ما يلي بعض الردود، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولكي يتمكنوا عند المجادلة مع الملاحدة من الرد والاجابة «وكان الانسان أكثر شيء جدلاً». ولعل الله يمن على من لم تنقطع صلته به تعالى بعمل صالح كان يأتي به من حين لآخر، بعد الاطلاع على هذه الأجوبة، بتوفيق الهداية والرشاد والرجوع إلى الفطرة بفضله تعالى.

الشبهة الأولى: إن لم يكن العالم المادي أزلياً وقلنا أنه حادث مخلوق لزم من ذلك القول بأن العالم قد وجد من العدم وان الله قد خلق الأشياء من عدم وهذا أمر محال لا يتفق مع معطيات العلم الحديث.

الجواب: إن العلوم الحديثة تؤكد لنا أنه لا يمكن وجود شيء من العدم وهذا دليل على وجود الله تعالى. إلا أن بعض الأعراض قد تحصل من انفصال شيء عن شيء آخر. كما أن اتصال شيء بشيء يؤدي إلى وجود أعراض جديدة. ولكن العرض ليس بجوهر ولا بد لوجودها وجود أشياء أخرى قبلاً.

ولا شك أن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته ولولا قدرته والطاقات التي أوجدها بقوله «كن» لما وجد شيء أبداً. ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان[1] الذي بيده ملكوت[2] كل شيء وإليه ترجعون[3]﴾.

ولكن، كيف قول الله تعالى (كن) يؤدي إلى إبداع السموات والأرض ووجود هذه الطاقات الهائلة التي قد أُكتشف أخيراً أنها هي الأساس في تكون هذا الكون. هذا مما لم يجعل الله تعالى للبشر مجالاً إلى معرفته. ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾. أنه تعالى يقول: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[4] ويقول أيضاً: ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾. فحقيق بالكيمياوي المؤمن، ذلك الذي لم يلوث الفطرة بموبقات ومهلكات أن تفيض عيناه بالدموع عند تلاوة هذه الآية المباركة: ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾ لما يشاهد تلك التفاعلات بين العناصر بمقادير معينة واتجاهات ثابتة تؤدي إلى وجود هذا العالم المملوء بالعجائب

---

(١) فتنزيهاً لله عن النقص، سبح الله أي نزهه عن النقص.

(٢) الملكوت، مصدر ملك، مختص بملك الله تعالى.

(٣) سورة يس: ٨٣.

(٤) سورة القمر: ٥٠.

والغرائب. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور﴾[1].

إن الطاقات التي أوجدها الله بقوله (كن) أي أن الطاقات والقوى التي أوجدها الله تعالى بارادته ومشيئته تكدست حسب النظريات الأخيرة في علم الفيزياء فكانت مادة. وان هذه المواد شكلت كما يشاء الله هذه العوالم. إذ علم أن: $E MC^2=$: الطاقة الكامنة في كتلة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في تلك الكتلة. فسبحان من منح هذه الطاقات هذه العوالم بعظيم قدرته ورتبها خير ترتيب. وليس لهذا الانسان مع عقله المحدود وقابلياته المحدودة أن يعرف كيف أن الله بقوله: (كن) يوجد هذه الطاقات. فان نسبة قابلية الانسان المحدودة في جميع الحقول إلى قدرة الله تعالى كنسبة $\frac{ب}{\infty}$

ومآل هذه النسبة: الصفر. فأنى للصفر أن يفهم اللانهاية فهماً تاماً ويقف على كيفية خلق الله الخلق وانقلاب إرادته تعالى إلى طاقات هائلة. وان هذه الشبهة إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس متحجرة وكبر وغرور وطيش وانسحاب للعقل الفطري.

الشبهة الثانية: ان كل موجود لا بد له من مكان يستقر فيه ولا بد له من زمان يقع فيه. وان العلوم الطبيعية الحاضرة تقول: بأن المادة موجودة في الزمان والمكان. إذن ليس في الامكان أن نتصور وجود الخالق الأزلي خارجاً عن الزمان والمكان؟.

الجواب: ان الله تعالى غني عن الزمان والمكان، لأنه ليس بمادة وقد كان موجوداً من الأزل دون أن يكون له ابتداء. وهو الذي أوجد وأبدع الزمان والمكان. ولا مراء أن المكان والزمان مفهومان يتفرعان عن المادة. ولولا خلق الله تعالى السموات والأرض والقمر لما كان هنالك زمان ولا مكان. وان الله تعالى موجود في كل مكان وزمان. وعندما نقول: ان الله لا زماني ولا مكاني، نقصد بذلك أنه لا يشبه سائر ما خلق من الموجودات، بسبب

(١) فطور: صدوع وخلل.

احتياج هذه الموجودات جميعاً إلى زمان وإلى مكان. أي أن المكان لا يحيط به وان الزمان لا يحيويه ولا يكون له ظرفاً، لأنه تعالى هو خالق هذين الظرفين (الزمان والمكان). على أن تطبيق ما يقال عن المحدود على غير المحدود (اللانهائي) وهو الله تعالى من الغباوة والقساوة بمكان. وهو هراء لا فلسفة!.

وقد قال علي عليه السلام: «ومنَ قال في مَ؟ فقد ضمنّه ومن قال: علام. فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة»...

الشبهة الثالثة: ان العلم الحديث يقول: أنه لا بد للمادة من زمان ومكان. وأن المادة لا توجد إلا في زمان. وبما أنكم أيها اللاهوتيون تقولون: الله هو خالق العالم. وحيث لم يكن عندما خلق الله العالم زمانٌ، إذن ليس الله هو الذي خلق العالم، لعدم وجود زمان إذ ذاك ليخلق المادة فيه، إذ لا يمكن خلق المادة دون وجود زمان لخلقها فيه.

جوابُ ذلك: ان الزمان والمكان إنما حدثا مع وجود المادة وهما من عوارضها. وليس لنا أن نحكم بما كان قبل خلق المادة وكيف كان. فالزمان من عوارض المادة ووجوده بوجودها، ولم يسبق أحدهما الآخر. أي أن الزمان إنما وجد مع خلق الله تعالى الشمس أو الأرض وحركتيهما أو حركة إحداهما وان الزمان مفهوم استمراري لوجود المادة وهكذا المكان.

وان الله تعالى حين خلق المادة الأولى سواء كان (أثر) على ما يقول بعضهم أو غير ذلك وجد مفهوم الزمان والمكان مع تلك المادة. فلا زمان ولا مكان بالمعنى الذي نفهمه قبل أن يخلق الله شيئاً.

الشبهة الرابعة: يقول بعض الماديين: لو كان لهذا العالم خالق لكان له هدف وغاية من هذا الخلق. ولكنا لا نفهم القصد والغاية من هذا الخلق. ومنهم: (هودسن تونل) الأمريكي، حيث يقول: «إن القمر يدور حول نفسه

مرة حين يكمل حركته الانتقالية حول الأرض. وهو يوجه جهة واحدة منه نحو الأرض ـ ألسنا محقين لو سألنا عن السبب؟ فلا قصد ولا غاية من ذلك. إذ لو كان هناك قصد لظهر لنا وبان!». ويقول (بوخنز) الألماني المادي المعروف: «لو كان لهذا العالم خالق لعلمنا الغاية من وجود هذا الفضاء الوسيع (السماوات) والغرض من سبح الأنجم والسيارات فيه ولاستفادت أرضنا من الأنجم السيارة في المنظومة الشمسية وحيث لا نستفيد ولا نعلم الغاية من ذلك، إذن ليس هنالك خالق خلق الأشياء تحت غاية معينة!».

جواب ذلك: إن جهل المادي للغايات والخواص لا يكون دليلاً على عدم وجود غايات حكيمة وخواص في غاية الاتقان. وان العلم البشري لا يزال في مراحله الأولى. أو ما ترى كيف أن الاكتشافات الحديثة توضح وتعلل كثيراً ما كان يجهله البشر سابقاً ويقف على كثير من المقاصد والغايات السامية التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته. راجع تاريخ العلوم لتعلم كيف أن البشر كان يجهل ثم علم. وأن موقع الشمس من الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض والمسافات التي رتبها الله بين الكواكب وما هنالك من حركات تشير إلى حكم سامية لا يعلمها إلا علماء رياضيون فلكيون. فلو تغير موضع الشمس عما هو عليه الآن لاستحالت الحياة، وهكذا بالنسبة إلى موضع القمر وبقية الأنجم، ﴿الشمس والقمر بحسبان[1] والنجم والشجر يسجدان[2] والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان﴾.

فإذا بلغ المادي من السخافة والجهل وعدم الاطلاع والطغيان مرتبة ينكر معها الحقائق فإنما الذنب ذنبه، لنقص متأصل فيه. وان أمثال هودسن وبخنر أقل من أن يدركوا المعادلات التفاضلية المعقدة والمعادلات العالية الصعبة الحل وقوانين الفلك العالي المستندة على عصارة الرياضيات العالية.

---

(١) أي يجريان بحساب مقدر.

(٢) أي أنها جميعاً تسجد لله مطيعة حسب ما أودع الله فيها من قوانين وخواص.

فطوبى لمن طهرت نفسه، فإذا نظر إلى السموات العلى، قال خاشعاً خاضعاً وعيناه تفيضان بالدموع: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار»[1]. إنما هذه الدموع رشحات نفس زكية.

الشبهة الخامسة: يقول المادي بما أنا لم نشاهد حدوث المادة ولم نشعر به، إذن فالمادة شيء أزلي وغني عن خالق يخلقها ويوجدها.

جواب ذلك: هل أحس هذا المادي بأزلية المادة وعلم بها علماً يقينياً. ومن المخزي أن يأخذ المادي بالحط من منزلة الفلسفة فيحصرها بالحس والمشاهدة دون ربط عقلي ومحاكمة دقيقة. هل الحكم بأزلية المادة نتيجة لمحاكمات منطقية دقيقة وتعقلات سديدة أم هوى وجحود. ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. وما لهم بذلك من علم. ان هم[2] ألا يظنون﴾[3]. وفي آية أخرى: ﴿وما لهم به من علم. ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[4]. وفي أخرى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون﴾[5].

ان الله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[6]. فالله تبارك وتعالى لم يُرنا كيف خلق السموات والأرض ولم يرنا كيف خلق نفوسنا، لاستحالة ذلك. فكيف يجوز لنا أن نعلم كيفية خلقنا ونحن لم نوجد بعد. فالمعدوم لا يشعر ولا يحيط بشيء.

أو لا يفكر هذا المادي أن المادة شيء مركب وفيها من القوانين والدساتير على ما ثبت في علم الذرة ما يدهش العقول ويحير الألباب. من الذي وضع

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٨.

(٢) إن هم: ما هم.

(٣) الجاثية: ٢٣.

(٤) النجم: ٢٨.

(٥) الأنعام: ١٤٨.

(٦) الكهف: ٥٢.

هذا النظام الخارق وتلك الدساتير والمعادلات في الذرة؟ وكيف كان هناك الكترونات وبروتونات ونيوترونات. حتى كان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر.

من أوجد هذا التعادل؟ ومن حرك الالكترونات حول البروتونات؟ ومن الذي وزعها توزيعاً علمياً؟ حتى كانت هذه العناصر من ذهب وفضة وهيدروجين وأوكسيجين إلى ما هنالك. ومن الذي بنى بناء الذرة الرصين. هذا البناء الذي هو أدق من أعظم الابارتمانات!(Appartment) انه مهندس عالمي، هو الله جلت قدرته: ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

الشبهة السادسة: يقول المادي: أن الالهيين يؤمنون بخالق لا يُدرك بحواسنا، وما لا يدرك بحواسنا معدوم.

الجواب: قد أسهبنا في الفصول السابقة أن هناك كثيراً من الأشياء موجودة ولا تدرك بحواسنا ولكن العقل يحكم بوجودها كالالكترون. يقول الله تعالى في سورة الحاقة. ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. أنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾. وان الانسان الذي جهز بحب الاستطلاع، إن لم يلوث الفطرة بخموره وفجوره، يعترف بصورة طبيعية بالله تعالى كما يعترف الفيزيائي بوجود الالكترون. ومعلوم أن الالكترون لا يمكن إدراكه مادياً وما ذلك فهو معروف بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. ان المادي ينكر وجود الجن والخوارق. ذلك لأنه يريد أن يرى الجن بحواسه الخمس: فتلمسه يده. (ولكن الجن ليس بمادة). وتسمعه أذنه ولكن ليس للجن حركات في الهواء تؤدي إلى حدوث أمواج هوائية تصطدم بالأذن فبعظمها فالأعصاب، فالمخ حتى تسمعه. ووخلاصة القول ليس الجن من هذه المادة التي تُدرك بالحواس الخمس. ولكنه موجود يعترف به من اعترف بمعاجز الأنبياء (ص)، فالقرآن. ويعترف به من قام برياضات خاصة، فأعطي قابلية خاصة لمشاهدة الجن وشرح ذلك يطول.

---

(١) الحج: ٤٦.

وهكذا الاعتراف بالخوارق، اعتراف بقدرة الله تعالى وبما وراء المادة. وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. واعتراف المادي بروحه وعقله وهما لا يُريان كاف لاثبات ما نذهب إليه. ووجود هذا المادي بهذه الملكات في هذا الكون من أكبر المعاجز والخوارق. فليعترف بنفسه إن كان يصعب عليه الاعتراف بخوارق أخرى. ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

الشبهة السابعة: (١) قد أخذت العلوم الحديثة في الأيام الأخيرة توضح ما في هذا الكون من ظواهر وحوادث دون اللجوء إلى وجود الله!.

(٢) وان الانسان قد وقف بعد هذه المكتشفات العلمية على علل الحوادث الكونية وعلم أن الكون سائر حسب قوانين ودساتير عدة، فليس هناك من حاجة إلى الاعتراف بوجود صانع أزلي وقوة مطلقة عالية.

جواب ذلك: ـ أولاً ـ إن علماء الفيزياء وغيرهم من الذين يعملون في كشف الدساتير والقوانين التي تربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض يعترفون بجهلهم سر الجاذبية الأرضية وحقيقتها وحقيقة الكهرباء والمغناطيس إلى ما هنالك. ويقولون: إنما نعمل في كشف القوانين التي تربط الحوادث بعضها ببعض إما بإلهام أو حدس أو تجربة أو صدفة ولا نعلم السبب الحقيقي لهذه القوانين ونعجز عن تفهم حقيقة هذه المعادلات الفيزيائية وأسبابها. انهم يعترفون بجهلهم العلل والأسباب ويقولون: إنما نرى تعاقب الحوادث بعضها إثر بعض ونظن أنها معللة، حين أنه ليس هناك تعليل وإنما مشاهدة لتسلسل الظاهرات والحوادث.

وهكذا علماء الكيمياء يعملون في وضع الروابط والعلاقات التي تربط العناصر بعضها ببعض حين التركيب والتحليل وكذا علماء النبات يعملون في التعرف على شرائط نمو النبات وتصنيفها وقل مثل ذلك في بقية العلوم، معترفين بأنهم لا يستطيعون تغيير شيء مما يشاهدونه ويجهلهم الأسباب والعلل الحقيقية. وهم في معزل عن البحث عن خالق وضع هذه الدساتير وجهز العناصر بخواص التركيب والتحليل، إلا المؤمن التقي منهم. ذلك لأن البحث عن الخالق موضوع نفسي يترشح عن تكامل النفس وعن صفات يتصف بها الشخص من ورع وتقوى وأخلاق فاضلة. والتقوى كما جاء في

الحديث: «أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك». وأين علماء أوربا من العمل بهذا الحديث. فان معرفة الله لا تحل نفوساً مدلهمة حالكة. وان التفكير في الفيزياء أو الكيمياء تفكير مادي واستعمال للقوى المنطقية Logique التي منَّ الله بها هذا الانسان. وان التفكير في ما وراء المادة تفكير فلسفي لا ربط بينه وبين هذا التفكير الميكانيكي. مثال ذلك: لو أضيفت مقادير متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية... إلى ما هنالك. وإن عملية الضرب ٣٧٥ × ٤٣ مثلاً يقوم به المؤمن والملحد على السواء ولا أثر للاعتقاد بالله في صحة عملية الضرب. إنما هو تفكير مادي يقوم به الحافظة والذكاء (مع جهل الانسان كيفية ذلك) وهو في معزل عن رشحات النفس الزكية وتوجهها إلى الحق.

فقضية البحث عن الخالق وعزوجميع ما في الكون من نوانين وخواص اليه تعالى قضية نفسية بحتة تترشح من نفس زكية. هي رشحات الأعمال الصالحة والتقوى. فان حب الله تعالى أو العشق الالهي لا يحل إلا في نفس مطهرة من الدنس والرين. ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1]. وأين القلب من معادلة تفاضلية في التحليل الرياضي أو دستور الرقاص في الفيزياء.

إن قطع النجار الخشبة إلى أقسام (مثلاً) يحتاج إلى قابلية يدوية وبدنية وليستا من تكامل النفس في شيء. فالنفس أمر مما وراء الطبيعة (Métaphysique) وتقسيم الخشبة وقطعها إلى أقسام عمل ميكانيكي بحت لا أثر للعقيدة في حصوله. فان المكائن التي لا روح فيها تقوم بهذه العملية أيضاً كالانسان من ناحيته الميكانيكية. فهذا خلط بين النفس والمادة واعتبارهما شيئاً واحداً. وهذا شأن من خسر نفسه وكان من الأخسرين أعمالاً. على حد قوله تعالى: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول

---

(١) سورة الشعراء: ٨٩.

(٢) الأنعام: ١٢.

الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

كان يقول (كوستالوبون): «حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين، غير أن المادة أصبحت سراً من الأسرار»!.

ثانياً: وأما من يقول بالمقال الثاني: (وهو أن العالم يسير حسب دساتير معينة وقوانين منظمة، فلا حاجة إلى الاعتراف بصانع أزلي)، فهو مجنون، ليس له نصيب من التفكير والمنطق الصحيح. أو مغفل لا يعد في زمـرة العقلاء. ذلك لأنه يجعل ما هو دليل واضح على وجود الصانع دليلاً على عدمه. كمن يرى أشعة الشمس بجميع ما هنالك من وسائل تحقيقية وتجريبية ثم ينكر وجود الشمس. أنه ممن ختم الله على قلبه لكثرة ذنوبه، فأمسى جرثومة فساد لا تفيد معه الهداية والاصلاح. ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[2]. نعم، «بل طبع الله عليها بكفرهم» وجحودهم وعدم قيامهم بواجب الشكر تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

أليست القوانين نتيجة تدبُّر وتفكر وتعقل؟ وهل يجوز أن يوجد الترتيب والتنظيم دون مرتِّب ومنظم؟ وهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنهار والأمطار والأنهار، وأن ترتبط هذه الأشياء بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مدبِّر حكيم؟. وقد برهنا* في الجزء الأول من هذا الكتاب على انتفاء الصدفة. وأنه لا يحصل انتظام وترتيب في ما لا يحصى من أشياء متسلسلة مستندة بعضها على بعض بالصدفة، ومع ذلك فلا بد من موجد لهذه الأجزاء المرتبطة بعضها ببعض، والتي تكاد لا تحصى، بقوانين تحير العقول حتى يأتي دور الصدفة. كيف حصل العقل من المادة! (على ما يقوله الماديون؟) وكيف وجد الروح؟

---

(١) الأعراف: ٥١.

(٢) سورة البقرة: ٦.

هل القوة كانت قبلاً أم المادة؟ وكيف انقلبت القوة إلى مادة؟. فلو قلنا أن هناك يداً خفية[1] تعمل في حدوث شيء من شيء آخر وتكامل بعض النباتات والحيوانات، فذاك هو الله تعالى.

إن العلم الحديث لا يزال في عنفوان اكتشافاته للدساتير الرياضية التي أودعها الله تعالى في هذا الكون رابطاً بها أجزاء العالم بعضها ببعض. والعلماء يعترفون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً كالأشعة الكونية مثلاً رأوا أنفسهم أمام أودية من المجاهيل. ولكن المتطفلين على العلم الحديث: هؤلاء الذين لم يكتشفوا نظرية رياضية ولا آلة كهربائية يظهرون خباثة بواطنهم الملوثة فيهذرون ويخرصون ويشوهون سمعة العلماء، والعلم مما يقولون براء.

يقول جون جاك روسو(Jean Jacques Rousseau)

«ليس لنا أن نعتقد أن مادة ميتة تقوى على إيجاد هذه الكائنات الحية الكثيرة، وأن الضرورة العمياء تتمكن من خلق الموجودات العاقلة! وأن شيئاً عديم العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة: (عقلاً). ومن البديهي أن الحركة ليست بأمر ذاتي في الجسم. فلا بد من محرِّك ومتصرف. وأن سلسلة الحركات الكونية كلها تنتهي إلى المحرك الأول وهو الله تعالى».

وأما هرشل فيقول: «كلما توسع أفق العلم، كلما ازددنا معرفة بالله. ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حد لقدرته».

وأما لينه(Linné) العالم الطبيعي المعروف، فإنه يقول: «يمر أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء. أني لا أراه ببصري ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمته وجلاله وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال وخوارق لا تعد. يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة كيف جهزها الله بجوارح وأعضاء تحير العقول».

يقول فولتير(Voltair) :«ان الموجودات برمتها تنادي برفيع صوتها أن لها

---

(١) ولا بد منها.

بارئاً قد برأها وصانعاً قد اتقن صنعها». وقد أخرج رواية تتكلم فيها الطبيعة مع فيلسوف، قائلة: «يا بني، ان حيرتك هذه قد جاءتك من أن الناس قد سمتني خطأ: (الطبيعة)، حين أني صانع عظيم، متقن الصنع غاية الاتقان، هل هذه العوالم من حيث الصنع والنظام والترتيب أقل من مكينة ساعة تدق الدقائق. فكما أنه لا يمكن أن يتصور وجود ساعة دون صانع قد صنعها، هكذا لا يمكن أن يتصور هذه العوالم دون صانع قد صنعها واتقن صنعها».

ويقول (جان لاك): «ان العقل هو الذي يرشدنا إلى وجود الخالق، ذلك، لأنا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً. ونرى أن العقل يحكم أن ليس للعدم أن يوجد شيئاً، إذن نجزم يقيناً أن ذاتاً أخرى قد أوجدتنا وكونتنا. وهذه الذات، وهي ذات الباري، كانت موجودة بصورة دائمية، أي أن الخالق أزلي سرمدي. وبما أننا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وإمكانيات فهي منه. إذن وجب أن يكون الموجد في كمال القدرة. وبما أن لنا عقلاً ندرك به الأشياء فوجب أن يكون لموجدنا عقل أيضاً.

ويأتي هذاالفيلسوف بدليل آخر، فيقول: «بما أن جميع ما في هذا الكون حادث ولم تكن قبلاً، فلا بد من وجود قديم أزلي أوجد هذه الأشياء ولم يوجده شيء آخر».

* * *

لقائل أن يقول: لماذا (جان لاك) يعترف بوجود الخالق جل جلاله في محيط غربي مفعم بالشهوات والمعاصي، وقد لا يعترف بذلك من وجد في محيط خير من محيطه، وكيف يترشح من نفسية (جان لاك)، هذه الأفكار التي هي مرآة العقل السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد لا تترشح من غيره.

ان هذا الموضوع يسترعي الانتباه والتفكير. وقد أوضح الله لنا ذلك في قرآنه الكريم بقوله تعالى في سورة الأنفال: ٢٩ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا

الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

فبالتقوى يفرق الانسان بين الحق والباطل وبالتقوى يكفر الله عنه سيئاته ويغفر له ذنوبه، فما من فرد، عدا المعصومين إلا ويحمل ذنوباً: «أحصاه الله ونسوه» لا سبيل إلى تكفيرها ومحوها إلا بالتوبة والتقوى، فتتجلى لهذا الفرد الحقائق بدرجة تطهير نفسه من الذنوب والأرجاس ومن كل ما دنس به نفسه وجعلها متسافلة. فالايمان رشحات النفس التقية الزكية. ولا بأس ان أكرر كلمة أحد الفلاسفة المعاصرين حين يقول: «بترك الكذب يعترف الانسان بمعبود هو الله القادر المتعال».

وأما: «التقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك». كما جاء في الحديث[1].

ولا بد لمثل (جان لاك) نصيب من التقوى حتى صار يعترف بوحدانية الله تعالى ويقدسه. وان درجة هذا التقديس لتتناسب مع درجة التقوى. يقول الله تعالى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[2].

وإن أعظم الجهاد هو الجهاد مع هذه النفس الأمارة بالسوء وردعها عن شهواتها ونزواتها وأطماعها[3]. وكلما نجح الفرد في هذه المجاهدة الثمينة المجاهدة مع النفس، كلما زاد يقينه حتى عد من الراسخين، أولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله:

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصبحوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»!...

---

(١) قد أكرر الحديث لأهميته. ولكي يرسخ في الذهن وهكذا بعض الآيات.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) يراد بالأطماع: غير المشروعة منها.

ولا مراء: ان اليقين الحقيقي، يلزمه نور وبهجة وسرور وعدم الالتفات إلى ما سوى الله والاستغراق في أبحر عظمة الله والمثول بين يدي الله صاغراً ذليلاً، يلزمه القيام بالأعمال الصالحة وبر الوالدين وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواضع واحترام الكبير والرفق بالصغير ومعاملة الأهل معاملة ملؤها الشفقة والحنان. «خيركم أبركم بأهله». يلزمه بذل كثير وإنفاق دائم وتصدق مستمر حتى يقال: انه أسرف، وخدمة الجار وإيجاد عمل للعاطلين في حدود الامكان، (وما أكثر امكانيات هذا الانسان لو لطفت نفسه ورقت روحه)، يلزمه: الاهتمام بأمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يلزمه تهجد ومناجاة وبكاء واعتراف بالذنوب وتذلل وخشوع، يلزمه استغفار عملي واستغفار عبادي.

والاستغفار، كما يقول علي عليه السلام: «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: ان تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك، تقول: أستغفر الله.

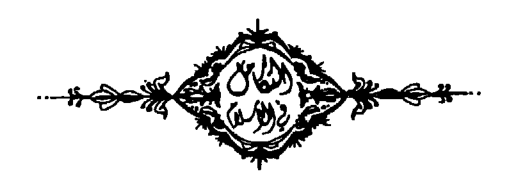
وقد يستشم مني البعض التقشف عند ذكري بعض الأحاديث التي بعد الناس عن مصاديقها وتطبيقها ولكن الاسلام يجب أن يعرض كما هو، فيستقى من ينبوعه الفياض كل بحسب قابليته وجده وجهده: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ (سورة النجم: ٤٠).

* * *

يقول أحد علماء الألمان: «الاسلام جوهرة وغطاؤها المسلمون».

ويقول أحد فلاسفة الغرب: «إن المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد يقترفون جرماً عظيماً، لأنها هي الغايات التي تتمناها الفلاسفة».

ويقول ليوبو لدفايس[1] في كتابه «الاسلام على مفترق الطرق»: «ان تقليد المسلمين ـ سواء أكان فردياً أم اجتماعياً ـ لطريقة الحياة الغربية لهوَ بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الاسلامية». ويقول أيضاً: «أننا نحلم بنور الاسلام ينتشر على البلاد المترامية، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرُّون عن آمالنا!».



(١) انه نمسوي الأصل، اعتنق الدين الاسلامي سنة ١٩٢٦ م، وتسمى باسم (محمد أسد). فحسن إسلامه وأصبح من دعاة الاسلام.

علة بعث الأنبياء (ع)

إن هذا العالم بأسره بما فيه من نظم ثابتة وقوانين محكمة تدل دلالة صريحة على أن صانعها مدرك حكيم عليم. فان السيارات تدور في أفلاك ومنحنيات لا يمكنْ لأكبر رياضي فلكي أن يعين حدودها ويضبطها بدساتير دقيقة إلا القسم اليسير منها جداً. وإن ما ندرسه في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض أكبر شاهد على أن صانعها عالم حكيم خبير قد اتقن الصنع إلى حد بعيد. وان آلاف الكتب في العلوم المادية تدل دلالة واضحة على سعة علم الصانع واتقانه الخلق إلى أبعد الحدود. ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾. ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

فلا يعقل بعد هذه المقدمة أن الله تبارك وتعالى يخلق شيئاً عبثاً: ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾. وفي آية أخرى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. (سورة الدخان: ٣٨، ٣٩).

فالانسان لم يخلق عبثاً، وإنما خلق للتكامل والاختبار والابتلاء. ليرى نتيجة عمله، فان أصبح من الفائزين دخل الجنة ونعم الثواب، وإن أمسى من الهالكين دخل النار وبئس المصير.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾. انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج[1] نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾. ﴿إنا هديناه السبيل اما شاكراً وما كفوراً﴾.

---

(١) اخلاط، لأنه من مجموع ماء الزوجين.

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرضه على الماء ليبلوَكم أيُّكم أحسن عملاً﴾.

يدخل في هذا الاختبار الفقير والغني: يدخل فيه الوزير والعامل والموظف والكاسب. ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

فالدنيا مدرسة يديرها الله وتعطى درجات لطلابها، فالراسب فيها مصيره جهنم والناجح فيها مصيره الجنة. فلا أسف لمن سقط في امتحان المدارس. فمجالات الحياة متنوِّعة، ولعل كثيرين نجحوا في امتحان المدارس ورسبوا في الامتحان الالهي وكانوا من الخاسرين مدى الدهور.

وكان من عدل الله ولطفه أن يلهم البشر طريقي الخير والشر. وقد فعل ذلك، وألهم البشر عندما خلقه طريقي الخير والشر: ﴿ونفس وما سوَّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها﴾. ويقول الله في محل آخر من القرآن المجيد: ﴿وهديناه النجدين﴾. أي طريقي الخير والشر.

فالانسان عالم بالخير والشر بصورة فطرية ولكنه ظلوم كفار! ميال إلى الشهوات. فأرسل الله تعالى الأنبياء عليهم السلام لا ليقوِّموا اعوجاجه فحسب، بل ليدربوه على اتباع الطريق الذي يؤدي به إلى التقرب إلى الله عز وجل ليكون أعلى منزلة من الملائكة. ففتح الله للبشر الطريق، على لسان أنبيائه، للتقدم في الدرجات العلى، درجات لا يستطيع تصورها من لم يمارس تزكية النفس وتطهير القلب من الدنس والرجس.

فالانسان في هذه الدنيا أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها معادن خسيسة رديئة وفيها معدن نفيس ثمين، فعليه أن يطهر نفسه من الأوساخ أي من المعادن الخسيسة بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وبكاء وبأعمال صالحة لوجه الله تعالى دونما رياء، ليذهب من هذه الدنيا بمعدن نفيس ثمين وليكون أهلاً للقاء الله تعالى أي ليكون قميناً للتقرب من الساحة القدسية الإلهية.

نرى أن الخلق على نوعين: خلق تكويني، كخلق الكواكب والأنجم

والمعادن والنباتات والحيوانات، وخلق أمري: كخلق الأنفس والأرواح: «قل الروح من أمر ربي».

فالمخلوقات الكونية لا اختيار لها. انها مطيعة منقادة لقوانين أوجدها الله فيها. فالجاذبية الأرضية تجذب والبخار يتصاعد وان حجمه يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط وطردياً مع الحرارة. هذا شيء ثابت لا تغير فيه في العالم الدنيوي. كما أن زمن الذبذبة الواحدة للرقاص (باندورل) يتناسب تناسباً طردياً مع الجذر التربيعي لطول الرقاص وعكسياً مع الجذر التربيعي للتعجيل الأرضي لمحل وضع فيه الرقاص. وكذا تركيب الماء، أسيد آزوتيك، أسيد سولفوريك، ثابت لا يتغير. ونرى عين هذه الحالة في عالم الزراعة والالقاح والعضويات. فمن درس الكيمياء وكتاب الطبيعة علم أن البشر لا يخترع بل يكتشف خواص موجودة قبلاً وقابليات مخلوقة سابقاً. فالله يساعد الانسان بما أودع فيه من قابليات فكرية: من حدس والهام واستقراء واستنتاج وتجريد وتعميم لكشف هذه الخواص.

لكن النفوس والأرواح مختارة... في امكانها أن تسرق وأن لا تسرق. وفي امكانها أن تزني وأن لا تزني، أن تشرب الخمر وأن لا تشرب. فهي اذن: بحاجة إلى مرشد يرشدها وهاد يهديها إلى الطريق السوي.

حين أنه ليس هناك من ضرورة إلى مرشد ليجعل حجم البخار يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط.

فالبشر بحاجة إلى معدل يعدله ومقوِّم يقومه. فالأنبياء (ع) والأوصياء من بعدهم معدِّلون ومقوِّمون.

ونظرة بسيطة إلى الاختلاف الحاصل في القوانين البشرية وأنظار الفلاسفة أو تناقضها وتغيرها في كثير من الأحيان مع اتحاد الظروف والأوساط تجعلنا نعترف بأن البشر ناقص ليس من شأنه أن يسن قانوناً لا نقص فيه يؤدي به إلى سعادة النشأتين.

البشر يريد أن يعامل بالربا ويريد أن يظلم ويريد أن يزني ويريد أن

يشرب الخمر ويريد أن يقوم بكل ما يفسد النفس، هذه النفس الأمارة بالسوء ولكن الله لا يريد أن يرى ناقصاً في ما خلق ويريد تكميل هذا الانسان.

ذلك لأنه لا يترشح من الكامل على الاطلاق، وهـو الله تعالى، إلا الكمال. ولأن كل ما في هذا الكون في غاية الكمال. وان المعادلات الرياضية التي تربط أجزاء العالم بعضها ببعض لأكبر شاهد على وجود هذا الكمال. وان ما نرى من خواص وجمال وتناسق في الأزهار والأوراق وما نرى من أشكال هندسية دقيقة في الثلج المتساقط من السماء وما نرى في الذرة وغير الذرة من كمال خارق وقوانين رصينة تنزه الله تعالى عن كل نقص وتقدِّسه. وتسبِّح الله بأنواع التسبيح: «وان من شيء ألا يسبِّح بحمده»: أي تنادي بصوت رفيع: أن الذي خلقها قد خلقها في غاية الاتقان ويستحيل عليه النقص. على أن هناك تسبيحاً آخر لا نفقهه، على حد قوله تعالى: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. وقوله تعالى: ﴿يا جبال أوِّبي معه والطير﴾. وقوله تعالى: ﴿لو نزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله﴾. فلا يجوز لهذا الانسان أن يحيد عن سنة الكمال التي أودعها الله تعالى في كل ما خلق، وما عليه إلا أن يتكامل ويسير نحو ما قرِّر له من كمال منشود. فإن حاد وزاغ فقد خسر نفسه ومأواه النار. فجهنم آخر محل لتطهير من تلوث وفسد أو تعذيبه.

وإنما أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تحقيقاً لسنة الكمال في هذا العالم. ولولا الأنبياء لما عرفنا الله ولما تكاملنا ولما تمكنا من أن نتقرب اليه تعالى. فالأنبياء ومن بعدهم الأوصياء سلام الله عليهم أجمعين أنوار نستضيء بهم ونهتدي بهداهم.

فالله الذي خلق ما لا يعد من الأنجم وجعلها لا تصطدم بعضها ببعض ورتبها ترتيباً متقناً ما بعده ترتيب: ﴿ولئن زالتا أن امسكهما من أحد من بعده﴾ حتى أصبحت لا تصطدم بعضها ببعض، لا يخلق ما خلق عبثاً، لا يخلق هذا الانسان ليسعى في الأرض فساداً، فلا كمال ولا حساب!: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

وقد حسب «جيمس جينز» أن اصطدام نجم معين بنجم آخر يحتمل مرة واحدة في كل (٦٠٠٠٠) مليون مليون سنة أي في (٦×١٠^{١٦}) سنة. وباعتبار ما للنجوم من أعمار وهي على الأرجح أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ مليون عام أي ($١٠^{١١}$) سنة. ينتج أن الذي يكون قد تصادم من بين الكواكب لا يزيد عدده من نجم واحد في كل خمسين مليون نجم.

كان يظن الفلكي في القرون الماضية أن هناك نجوماً ثابتة لا تتحرك وأن هناك نجوماً سيارة سميت بالكواكب وهي التي تدور حول الشمس كالأرض والمريخ. وقد علم أخيراً أن كل ما في الكون متحرك، فالنجوم كلها تتحرك وتجري تحت قوانين معينة ثابتة وهي تدور أيضاً حول نفسها. وعلم أن النجوم الزرقاء أسرع دوراناً حول نفسها من الصفراء.

ولأجل أن نعلم سعة هذا الفضاء الذي خلقه الله تعالى نقول: أن أقرب نجم إلى الشمس يبعد عن الشمس ٢٦ مليون مليون ميل. وهذا مما يدل على المسافات الشاسعة والفراغ الكبير بين الأنجم. وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل. ولا نعلم أفمن أجل هذا كثر التزاوج بين النجوم استيحاشاً واستئناساً. ان رابطة الجاذبية تربط النجمين، فلا يستطيعان فكاكاً. وحيثما وجهنا المنظار إلى السماء وجدنا أزواجاً، انها ألوف الوف، انها الثنائيات النجمية، ومداراتها أهليليجية، ذات تفرطح عظيم وقد وجب أن تكون هكذا وهذه هي الزوجية التي يقول عنها القرآن الكريم: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. فالوحدانية له تعالى وحده والزوجية متجلية في الذرة: (الالكترون والبروتون)، وفي السماء، وفي النبات والحيوان. فالله الذي جاء بهذا الكمال العالمي، لا يريد بهذا الانسان إلا الكمال والتكامل. لذلك كان طبيعياً أن يرسل أنبياء هادين مهديين.

نظرة واحدة إلى هذا الكون الذي فيه ملايين من المجموعات الشمسية ومجرات تبعد عنا (٧٥٠ , ٠٠٠) سنة ضوئية ومجرات تبعد عنا مئات الملايين من السنين الضوئية[1] تكفي ليتصاغر الانسان أمام عظمة الله تعالى، فيفكر في

---

(١) سرعة الضوء ٣٠٠ ٠٠٠ كيلومتر في الثانية وبما أن السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية. فالسنة الضوئية ٤٦٠٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ كيلومتر.

نفسه وعلة وجوده، فلا يركبه الغرور على ما منَّ الله عليه من مخترعات، بل يزداد يقيناً بخالقه وخالق المخترعات. فتقوده فطرته إلى هذه النتيجة: ان الله الذي اتقن خلق العوالم جميعاً جل أن يلهو فيريد بالانسان اللهو واللعب! بل ان غايته وأهدافه تتناسب مع عظمته، فلا بد للانسان من تكامل، ولا بد من إرسال من يقدمون لهذا البشر دساتير هذا التكامل وطرق هذا السير التكاملي وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

الله الذي جعل لبنات ثلاثاً في بناء الذرة: (١) الألكترون. (٢) البروتون، (٣) النيوترون. وأودع فيها من نظام ثابت بديع مثل ما تتدرج نغمات الموسيقى الثمان في مفاتيح البيان(Octave) حتى تمكن العلماء بذلك النظام من إيجاد عناصر جديدة، استخدموا بعضها في القنبلة الذرية، وتمكنوا من هدم العناصر وبنائها من جديد وإحالة الراديوم إلى هليوم وإلى رصاص، واحالة النتروجين إلى أوكسجين وإلى كاربون وإحالة النحاس إلى زنك ثم إلى نيكل الخ، لحقيق بأن يودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم. ومن أهم هذه الأجزاء هو هذا الانسان الذي يظنه البعض لظلمات في نفوسهم أنه حرٌّ في الافساد وإيجاد الفساد! فلا حساب ولا كتاب! ﴿ولا تبغِ الفسادَ في الأرض﴾(١).

ان الانسان قد عمل لحد اليوم إلى حد ما كي يجيب عن (كيف؟) في فهم أسرار الكون. ولكنه لا يزال بعيداً جداً من أن يجيب عن (لماذا؟).

يقول أينشتين: «ان أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام. ان الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حي كميِّت. انه خفاء لا نستطيع أن نشقَّ حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة، أحكم ما تكون، ونحسُّ أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون، وهي حكمة، وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور لهما بدائية أولية. وهذا الادراك للحكمة، وهذا الاحساس بالجمال في روعة، هو جوهر التعبد عند الخلائق».

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

انه يقول: «إن ديني هو اعجابي، في تواضع. بتلك الروح السامية التي لا حد لها! تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام. وان هذا الايمان يؤلف عندي معنى الله»!.

فالله الذي يعترف به «أينشتين»، (وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره، وأحقهم بالكفر إن كان علم يدعو إلى كفر، وأولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق، من إغفالهم ذكر الله)، أعلى وأجل من أن يلهو وأن يريد بهذا الانسان فوق البسيطة، النقص: نقصاً في الخلق، نقصاً في المعاملات والحياة الاجتماعية، نقصاً في العفاف والعفة، نقصاً في البذل، نقصاً في التوجه إلى خالقه ومعبوده، نقصاً في النفس. وقد ظهرت بأمره وقدرته روائع الكمال في جميع أجزاء هذا الكون.

فكان حقيقاً على الله أن يتصدى إلى تكميل الانسان بارسال الرسل ويجعلهم في الأرض أئمة أدلاء على مرضاته لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1].

* * *

إن الله قد وهب الانسان من الفكر والذكاء حتى تمكن، بما أودع من نظم ودساتير متقنة عند خلق هذا الكون، من أن يعلم أن كوكب (السماك الرامح) تبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية ويعلم أنه إذا أريد الاتصال به (بالسماك الرامح) بالراديو الآن لوصلت اليه رسالتنا بعد ٣٨ سنة ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى كي يأتينا الجواب من الكوكب المذكور. ويعلم أن سرعة أمواج الراديو كسرعة الضوء: (٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية)، ويعلم أننا نرى اليوم سنة ١٣٧٩ هـ أو ١٩٥٩ م طيفاً وخيالاً نقله إلى أعصابنا البصرية شعاع انطلق من مصدره سنة ١٣٤٠ هـ أو ١٩٢١م فقبل حلول سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م وهو موعد

---

(١) سورة الأنبياء: ٧٣.

وصول جوابنا إلى الكوكب المذكور لا نستطيع أن نقطع فيها إذا كان (السماك الرامح) موجوداً حقاً. على أنا يجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى لوصول الجواب الينا. عند ذلك نعلم أن الكوكب المذكور كان موجوداً سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م. ذلك لأن كواكب تتشكل من جديد وأخرى تفنى وتبيد.

كل ذلك كافٍ بأن يحمل هذا الانسان، قبل أن يلوث نفسه، على التفكير في عظمة موجد هذا الكون وموجد هذا الانسان، ويستنتج من كل ذلك أن أهداف الخالق يجب أن تتناسب مع عظمته وكماله. وهذا يؤدي إلى القول: بأن الله المنظم لهذه الكائنات تنظيماً لا يتخلله أي نقص لجدير بأن يأخذ بهذا الانسان إلى التكامل والتقدم الروحي والخلقي فيرسل أنبياء ومرسلين لتهطير الناس مما علق بهم من أدران: ﴿إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين﴾، ينيرون لهم ما ادلهّم عليهم من سبيل ويضيئون لهم الطريق، فيأخذون بنفوسهم إلى حيث الكمال والخلود. فقد قال رسول الله (ص): «إنما بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق». وقد خاطبه الله تعالى: «وانك لعلى خلق عظيم».

* * *

الله الذي سخر لهذا الانسان ما في السموات[١] وما في الأرض[٢] والشمسَ والقمر[٣] والليل والنهار[٤] والبحر[٥] والفلك[٦] والأنهار[٧] جلَّ أن يريد بهذا الانسان أن يكون آلة فساد في هذه الدنيا يتسافل يوماً بعد يوم بظلمه وطيشه وغروره حتى يقول المتطفل على العلم الحديث متبختراً: ان العلم ينتزع الفضاء وان العلم يسخر من الطبيعة وان العلم هو حلّال

(١) سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. (الرعد: ١٢).
(٢) سخر لكم ما في الأرض. (الحج: ٦٥).
(٣) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. (ابراهيم عليه السلام: ٣٢).
(٤) وسخر لكم الليل والنهار. (ابراهيم عليه السلام: ٣٢).
(٥) وهو الذي سخر البحر. (النمل: ١٤).
(٦) وسخر لكم الفلك. (ابراهيم عليه السلام: ٣١).
(٧) وسخر لكم الأنهار. (ابراهيم عليه السلام: ٣١).

المشكلات، فيجعله معبوداً له، دون أن يتوجه إلى معطي العلم وواضع العلم في هذا الكون، بخشوع وخضوع.

فالله تبارك وتعالى إنما سخر لهذا الانسان ما سخر وهيأ له أسباب التعرف إلى بعض ما أودع في هذا الكون من خواص وقوانين لكي يتكامل نفسياً فتتحقق انسانيته ولكي يتطهر مما علق به من رجس ودنس. وبما أن الوصول إلى هذه الغاية العظمى التي هي غاية الغايات غير حاصل إلا على أيدي الأنبياء الطاهرين وبما جاؤوا به من سنن تكامل النفس من جانب الله تعالى، لذلك أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل يهدون البشر سواء السبيل.

ولا مراء أن الله أعرف بطرق تكامل النفس من هذا البشر الملوث، لأنه هو خالق النفس ومبدعها. فلا تفيد متابعة رأي الفيلسوف أو علماء النفس في سير الانسان التكاملي لأنه بشري غير سماوي، ولأنه يحمل من نفس الفيلسوف غير المتكامل ما يناسب نفسيته وهو غير ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع)، فلا تكامل ولا نجاة إلا باتباع سنن الأنبياء (ع) ودساتيرهم تلك التي لم تمسها يد التحريف.

* * *

كان نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وأكملهم خلقاً وخلقاً، جاء بشريعة سمحاء، لا تتغير ولا تتبدل، من لدن رب العالمين، «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»، وقد هدى البشرية إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم بتعاليمه وأعماله. وقد قال الله تعالى فيه: ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

فلا أخلاق أعلى من أخلاق الرسول وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. عبادتهم فوق العبادات وخشوعهم لا يقاس بخشوع غيرهم من البشر. فمن أراد أن يتطهر ويتزكى، فعليه أن يقتفي آثارهم ويسلك مسالكهم.

فاقرأوا الأدعية الواردة عنهم، لتروا كيف يجب أن يقابل العبد مولاه.

نعم، إن الديانة الاسلامية لا تقتصر على العمران الدنيوي فحسب وقد

أدت حقه بنظمها المتينة وقوانينها العادلة، ولكن للديانة الاسلامية غاية أعلى وأرفع وهي ايصال الفرد إلى الدرجات العالية من التقرب إلى الله تعالى والدنو من الساحة القدسية.

فكلما طهر الانسان من الرجس وكلما عمل صالحاً يرتضيه الله ولوجه الله، تقرب إلى الله وأحبه الله وقرّبه منه، حتى يصبح مصداق هذا الحديث: «عبدي أطعني، أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». وفي الحديث القدسي يخاطب الله الإنسان بقوله: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي». وفي القرآن الكريم: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

قال رجل للصادق (ع): ما علامة المؤمن؟ فقال (ع): «أن يقول للشجرة تأتي، فتأتي». فشقّت الشجرة الأرض وتوجهت نحو الصادق (ع).

فللانسان قابلية سامية تعلو جميع القابليات: قابلية الخلق والابداع باذن الله تعالى وذلك بعد تزكية النفس، ولكن لاعلى ما يتصوره الغربي، ذلك لأن الغربي يعلم شيئاً من ظواهر الطبيعة فحسب وذلك بصورة ناقصة، كما يعترف بذلك كبار علمائهم. كان يقول (كوستاولوبون): «قد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فهذا مبلغ علماء أوروبا من العلم بما وراء الطبيعة.

قام في الغرب، مهد الفجور والفسوق، ثلة من الناس أرادوا أن يسنوا سنن تزكية النفوس وأسموها تطهير العقل أو غسل الدماغ(Brainwashing) وأخذوا يوصون أتباعهم بالنوم على الأرض والأكل القليل والتقشف والتخشن والصمت، ظناً منهم أن هذه الدساتير البشرية توصل الفرد إلى كمال ما[1]، أو إلى الحقيقة الواقعية، وضنوا على أنفسهم بأن يستقوا من تعاليم محمد وآل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين، تلك التعاليم التي قد جاءت من جانب

---

(١) إن ما ذكر من الأعمال قد توصل الفرد نتيجة رياضات خاصة إلى ما يميزه عن اقرانه من ملكات وقابليات جزاءاً منه تعالى في الدنيا. ولكنها أرضية بشرية لا تصفي النفوس ولا تزكيها ولا تجعلها مستعدة لآخرة سعيدة. وشرح ذلك يطول.

الله تعالى من وراء الطبيعة، لاصلاح نفوس ليست من المادة في شيء وتهيئتها لسعادة الدارين.

وما معنى تطهير العقل أو غسله؟ إن التزكية أمر نفسي تتصل بفعال النفس مباشرة. والعقل الفطري لا يحتاج إلى غسل أو تطهير. ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾. وقول علي (ع): «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى» بل العقل يعمل عمله ما دامت النفس أكنة أن يفقهوه﴾ وقام مقامه الشيطان ونفس مطيعة لهواها ولما يملي عليها شيطانها. فقد قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً». إلا أن التوبة وملافاة ما فات ترجعان إلى الانسان عقله الطبيعي الفطري، ذلك العقل الذي يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان.

إن هذا النوع من الخلق والابداع خلق فجائي باذن الله تعالى دون مقدمات. وهي معاجز قد أظهرها الله تعالى على أيدي الصفوة من عباده. فمحمد (ص) ليس مصلحاً فحسب، بل هادٍ وموصل بعض الأفراد إلى الدرجات العلى، درجات لا يعلمها ولا يدركها إلا من قطع هذا الطريق. موصل إلى مقامات لا تدخل تحت مخبر الكيميائي ومجهر العالم الطبيعي، مقامات قد ينكرها باديء بدء كل من مارس الحياة المادية وعلومها وقوانينها المادية ولم يمد يداً إلى عوالم تطهير النفس ولم يشم رائحة من روائح ما وراء الطبيعة الفواحة.

إنما بعث الله الأنبياء لتكميل البشر بصورة تدريجية في عوالم النفس، ذلك لأن الانسان انسان بنفسه وروحه لا بعظامه وعضلاته وبزّته وأثاثه. وليس من وظائف الأنبياء (ع) تعليم الناس الفيزياء والرياضيات والكيمياء. ذلك لأن قوانين الفيزياء والدساتير الرياضية لا تمتّ إلى النفس الانسانية بصلة ولا علاقة بينها وبين مراحل تكميل النفس الانسانية. فالمهندس يعمل حسب ذكاء أودعه الله فيه ويضع التصاميم الهندسية سواء كان مؤمناً أو كافراً أو وثنياً. ثم أن قوانين العلوم الحديثة تكاد لا تتناهى، لعدم تناهي علم الله تعالى، لذلك أوكل الله تعلم هذه القوانين إلى ذكاء الانسان نفسه، وعلمه طرق الملاحظة

والتجربة والاستنتاج والاستقراء، فكانت هذه الدساتير التي نراها في طيات الكتب وهذه العلوم والمكتشفات.

ولقد سمعت أحدهم، كان يفاضل بين أديسن «هذا الذي كان يؤمن بالله وبالنبي عيسى (ع)» وأحد الأنبياء ظناً منه أن الحياة لا تستقيم إلا بالكهرباء. والناس كانوا موتى قبل ذلك!...

لم يؤتِ بهذا الانسان إلى هذه الدنيا لكي يتنعم بالكهرباء فحسب، (مع قلق لا مزيد عليه)، بل الغاية الأسمى من وجوده في هذه المرحلة الدنيوية: التكامل: التكامل في عالم النفس، في عالم الأخلاق، في عالم الروح، والتطهر من كل رجس ودنس. ولا يقدر بل لا يفهم ما أقول من كان بعيداً عن هذا العالم القدسي، منغمراً في أحضان المادة العمياء. ولا ينظر إلى هذا العالم إلا من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب. فقد جاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». وفي القرآن الكريم: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. فالنبي (ص) يعلم البشر سنن التقوى، سنن التكامل، سنناً بها يكون الانسان ملكاً من الملائكة.

فهنا حرثان(Culture) حرث دنيوي وحرث أخروي، فلو اقتصر الفرد على الحرث الدنيوي تسافل إلى حضيض المادة «إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً» ولكن لو أخذ نصيبه من الحرثين، بل آثر حرث الآخرة على حرث الدنيا كان من الفائزين المقربين: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾. ولذلك يذكر الله تعالى عباده بالحياة الآخرة ولزوم التهيؤ لها حين يأمر بالعمل في هذه الدنيا من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها بقوله وإليه النشور: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور﴾.

ان الله تعالى أرسل الأنبياء لتزكية الناس وتطهيرهم مما علق بهم من أدران وأوساخ على حد قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. (سورة الجمعة: ٢).

بعثهم ليعلِّموا الناس الحلال والحرام، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنّس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال.

بعثهم ليعلموا الناس آداب المعاشرة والاجتماع ليعيش الناس في دعة وسلام مؤمنين مُخبتين.

بعثهم ليعلِّموا الناس الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس فتخرج من الظلمات إلى النور: «إن الحسنات يذهبن السيئات».

بعثهم ليجعلوا هذا الانسان (لو اتبع الحق وأطاع) انساناً كاملاً بالمعنى الصحيح ولتأسيس الانسانية الكاملة في هذا العالم. لا في تلك المرتبة التي يفهمها من كلمة Humanité انسانية) الفيلسوف الغربي.

وليس للبشر أن يعدِّل ما سنَّه الله على لسان أنبيائه، مع اختلاف الظروف والأوساط والأزمنة. ذلك لأن الله تعالى أعرف بحاجات البشر وطرق تكامله، ولا تنظر هذه السنن الالهية إلى حاجات بهيمية مؤقتة أو أمور دنيوية عاجلة فحسب، بل تهدف إلى تكميل النفس الانسانية وجعلها قمينة بالخلود في ﴿ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر﴾. على أن الفقهاء يستنبطون أحكام ما جدَّ من أمور وحوادث على ضوء النصوص والقواعد العامة ولا يخرجون عن فحواها وحقيقتها.

إن البشرية مغرورة في يومنا هذا في أفكارها مع كثرة جهلها النواحي الروحية وانغمارها في كثير من الملاهي والمفاسد. وان الاصلاح الحقيقي ينحصر في الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه الأمين وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. لا إدخال ما جاء من أوروبا المضطربة من المدنية الغاشمة الفاسدة في دين محمد (ص) الطاهر. فتحليل الربا وتجويز البغاء ومجالس اللهو والطرب ليس من الاصلاح الحقيقي في شيء.

ان الله يريد أن يطهر النفوس الانسانية ويقربها إليه، ﴿خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1]. ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم

---

(١) سورة التوبة: ١٠٤.

آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.
فلا إمكان لنيل هذه الغاية الشريفة إلا أن يكون الانسان مصداق كلام علي (ع) حيث يقول: «صبروا أياماً قليلة. أعقبتهم راحة طويلة». ولا أعني بالصبر، الصبر على الضيم والأذى. «فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين». والمؤمن يعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فانه منهم، ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة المائدة: ٥٦). بل يراد بهذا الصبر، الصبر عن الشهوات والنزوات والجلد تجاه النوائب والكوارث.

إن دين الاسلام وهو خاتمة الأديان دين تزكيه وتطهير، بنواميسه وقوانينه وواجباته مستحباته: «الذي يؤتي ماله يتزكى». ﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾. ﴿ومن يتزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾.

إن تقهقر المسلمين ليس إلا لأنهم تركوا العمل بما أمر به الله ورسوله (ص) وقلدوا الغرب في كثير من شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية. فليس الشرق بمحتاج إلى الغرب إلا في العلوم المادية، من صناعية وزراعية وميكانيكية وهندسية... الخ. ولكن الشرق (ومع الأسف) قد تأثر بكتب الغرب الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية والمادية والالحادية أكثر من صنايعها واكتشافاتها في عوالم المادة. فصار الشاب (إلا من عصم الله) يزدري بعض ما كان يعتقد سابقاً من عقائد دينية وهو لم يبلغ من العلم المادي مبلغاً يذكر وهو حين يزدري يظن بل يوقن أنه قد انفتح عليه باب من أبواب العلم الحقيقي وقد بلغ مرتبة مرموقة من ثقافة العصر!. وقد تبلغ به الحالة إلى الالحاد!. ومع الأسف، فقد باع بعض الأمم الاسلامية تلك المدنية الاسلامية القويمة لاقتناء هذه المدنية المادية الحالكة ظناً منهم أنهم بلغوا مرتبة مرموقة من التقدم والتطور. حين أنهم أضاعوا المقدسات واندكوا في القومية الغربية. على أن هنالك امارات تبعث على الاعتقاد بأنهم سوف يرجعون إلى تطبيق قواعد الاسلام عن قريب إن شاء الله، معترفين بأن الكمال النفسي ليس من المادية في شيء.

إن التطور ذو جنبتين: تكامل إلى العلى، وتدهور إلى أسفل سافلين.

لكن العصري المتجدد، يزعم أن الحياة في تقدم مستمر وكل شيء في تقدم. فلا تردي ولا تدهور. فذهاب العصمة والعفة مثلاً ليس إلا نوعاً من التطور. ويجب أن تتابع القوانين الموضوعة (الوضعية) هذا التطور وإلا فالحياة غير ممكنة! كلا. لا تطور للاسلام. الاسلام دين ثابت وأوامر الله ثابتة لا تتغير، وهو أعرف بطرق تكامل من خلق من عباد. فإذا رأينا أن التيار اللاديني (لا سمح الله) أخذ في وقت من الأوقات في ازدياد، علينا أن نسلّم لهذا الحديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

فيكون، إذ ذاك واجب المسلم الغيور على دينه، من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أعظم. ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾. (سورة آل عمران: ١٠٠) وقد فسِّرت: (الخير) في الآية، بالاسلام.

ففي هذا اليوم، في كل بقعة من بقاع الأرض، شرقها وغربها عدد غير قليل من المسلمين، يؤدون الفرائض، يصلون ويصومون، وقد جاء في مجلة العرفان، عن طالب كان يدرس في الغرب: أنه بينما كان يسير في شوارع إحدى العواصم الغربية وإذا به يرى رجلاً شيخاً واقفاً على عتبة داره يؤذن للظهر بصوت رفيع، يقول هذا الطالب: تريثت حتى أتم الشيخ أذانه، سلمت عليه فرد عليَّ السلام وزيادة قائلاً: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته». عملاً بهذه الآية الشريفة: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها﴾. ثم تعارف معي وأدخلني داره. فقام هو وزوجته يصليان صلاة الظهر. ثم طلبا إليّ أن أتناول طعام الظهر معهما. فلم يبدءا بالأكل حتى قالا: «بسم الله الرحمن الرحيم». وبعد الانتهاء من الطعام، قالا: «الحمد لله رب العالمين»، فسألت عن وظيفة يقوم بها الشيخ المؤذن المسلم. فقال: انه استاذ في الجامعة. وبلغ مرتبة(Doyen) شيخ الأساتذة.

فدين الاسلام، دين يعتنقه كبار المفكرين من الذين صلحت أعمالهم وطابت نفوسهم. وهذا (برنارد شو)، يقول: «لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً». وكان يقول كارليل: «باتباع التعاليم الاسلامية يصبح الانسان إماماً كبيراً لهذا المعبد: (الكون)». وقال أيضاً:

«كان العرب يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون. فلما جاء النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان. وكثروا بعد القلة وعزوا بعد الذلة، ولم يمضِ قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم».

ولو قام المسلمون بتأسيس جمعيات للنشر والتبشير في أصقاع الغـرب لأسلم ملايين من الناس ولأصبح الاسلام ديناً عالمياً.

كان جابر الجعفي من كبار المجاهدين في الكون وكان ينشر أخبار محمد وآل محمد (ص)، وكان قد حفظ سبعين ألف حديث سمعها من الامام محمد الباقر (ع). فما راق الحاكم ما كان يقوم به جابر، لأن أهل البيت (ع) كانوا مضطهدين في العصر الأموي. وأحس جابر بأن الحاكم قد أمر بالقبض عليه، فلم يرَ بداً من أن يضع على رأسه قلنسوة من خوص ويتخذ عصاً كحصان له ويركض في الطرق والشوارع كالمجانين، فحسبه الحاكم مجنوناً وتركه، ثم ان جابراً رجع إلى جهاده ونشر أخبار أهل بيت العصمة عليهم السلام بعد سنتين وبلغ مراده.

فلنقتفِ آثارِ أولئك الأبطال الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل نشر هذا الدين: ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾. (سورة الكهف: ٢٩).



كيف يختار الله أنبياءه عليهم السلام

ان الله تبارك وتعالى هو معطي الكمالات، فلا ترى أيَّ خلل في ما خلق، وان جميع المخلوقات من مادية وروحية مرتبطة بعضها ببعض، تشير إلى أن خالقها واحد لا شريك له: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

وان من توغل في فلسفة العلوم التي تربط عصارات العلوم ونتائجها بعضها ببعض يرى ذلك جلياً ويقوى إلى حد ما على تفسير الآية المتقدمة التي يجب أن تدون في تفسيرها كتب عدة.

النبوة ليست إلا سفارة ربانية يودعها الله أكمل عباده خلقاً وخُلقاً، أي أكملهم في البدن والروح أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال.

ان الله وهو الكامل على الاطلاق لا يرجح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة، وهو معطي الحكمة وحاشَ أن يلهو وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ (سورة الأنبياء: ١٧). فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه إلا إلى أكمل عباده.

والله تعالى عادل، إذ العدل صفة ملازمة للكمال، وان الكامل غير محتاج، ولا يحيد عن العدل إلا من كان محتاجاً إلى الجور والظلم، والكامل غني عن ذلك كله، لعدم وجود حاجة لديه إلى شيء. إذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفرت في ثلة من الناس حتى أسند اليهم منصب السفارة الالهية كي يقوموا بتكميل البشر وإيصاله إلى الكمال المنشود.

الصفة الأولى: هي طهارة المولد. ذلك لأن لهذا النوع من الطهارة أثراً

فعالاً في الاتجاهات النفسية كما تؤيده التجارب. فالأنبياء كلهم وأكملهم نبينا محمد (ص) كانوا يتقلبون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة ﴿طابت وطهرت بعضها من بعض﴾. «فأسرة محمد (ص) خير أسرة[1]، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، وثمارها متهدلة، كلما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما. لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر».

وفي إثبات الوصية للمسعودي شرح واف في كيفية انتقال النبوة والسفارة الالهية والوصية من لدن آدم من بطن إلى بطن حتى انتهت إلى محمد (ص). فنور محمد (ص) توارثته الأنبياء حتى إنتهى إلى عبد الله بن عبد المطلب.

* * *

ثم أن الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجح بين عباده إلا بالتقوى. ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. فالأنبياء (ع) هم أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم. وان محمداً (ص) كان منذ صغره وطفولته مثالاً رفيعاً للتقوى والكمال. لم يتأثر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم خلافاً لما يقرره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا: «ان الطفل يتأثر ببيئته إلى حد كبير». فلم يسجد لصنم ولم يحضر مع قومه في أي عيد من أعياد الأصنام. ولم يأكل قط مما كان يذبح قرباناً للأصنام. فكان منذ صغره حسن الخلق، طاهر العقيدة، لم يتلوث تفكيره بعقائد الجاهلية ولم يحاكِ أترابه في لهوهم وسمرهم. ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد العيش تمكنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكة وأغنياؤها، لكنه مع ذلك كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذاتها، متقشفاً مؤثراً بساطة العيش فحببت اليه العزلة. لقد اختار غار (حراء)، في جبل يبعد عن مكة ثلاثة أميال. كان يخلو فيه بنفسه أياماً وليالي متتابعة، فيفكر في عظمة الخالق جل جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص وأنظمة ما يحير الألباب ويتعبد فيه لربه. انه صلوات الله عليه لم يشرب الخمرة في شبابه خلافاً لمن هم في سنه من الشبان. وكان متحلياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفة ووفاء إلى حد بعيد. ان عزلة

---

(١) من نهج البلاغة، الجزء: ٢ ص: ٧٧.

محمد (ص) كانت للتفكير والتأمل وذلك بالهام منه تعالى كي يزداد صفاءاً وتقرباً إلى الله جلت عظمته، حتى تصبح نفسه الزكية على أتم استعداد لتلقي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها.

كل ما ذكرنا مؤهلات لأن تجعل محمداً (ص) فوق من على البسيطة في ذلك الوقت بل وفي كل وقت وزمان فتنحصر فيه الرسالة بجدارة لا يضاهيه فيها أحد أبد الآبدين.

* * *

إن عصارة التقوى تتجلى في الشكر، ولا صفة تقرِّب العبد إلى الله تعالى كالشكر. يأتي النبي (ص) إلى بيت احدى زوجاته، ينهض من فراشه ولا ينام. يتوضأ بماء قليل، يستقبل القبلة ويصلي. وكلما تستيقظ زوجته تراه مصلياً، وشاكراً ربه. فتقول: «ألا تنام، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»، فيقول صلوات الله عليه: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

إن الشكر على ضربين: شكر لساني وقلبي، وشكر عملي. فاما اللساني: أن يذكر العبد مولاه في كل لحظة ويحمده على عظيم نعمائه وحسن بلائه، وأن لا يفتر عن ذلك. وأما الشكر العملي، فيتجلى في الأعمال الصالحة والقيام بمبرَّات وأعمال خيرية والايثار والجهاد في سبيل الله والقيام بأداء الحقوق من مادية ومعنوية وأمثال ذلك. وان رسالة الحقوق لمولانا الامام زين العابدين عليه السلام توضح ذلك. فهنيئاً للعاملين «وقليل ما هم».

نفس النبي فوق النفوس المتعارفة وما تجمعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية. ولا تودع السفارة الالهية نفوساً لها من الثراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق، لأن هذه الأمور لا تمتُّ إلى النفس بصلة وإنما النبوة قضية نفسية بحتة، كما أن الايمان لا يلج نفوساً لها شيء من المكانة والاعتبارات الدنيوية فحسب، بل تدخل نفوساً شاكرة لله، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لائقة لقبول الحق، فلا تتكبر عن الاذعان بما هو حق ولا تحسد ولا تبخل. فان أصول الكفر ثلاثة: «البخل والحسد والكبر» كما جاء في الحديث.

كان محمد (ص) مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفته، وكان متحلياً بمكارم الأخلاق على عكس غيره من شبان زمانه. والمعروف أن فترة الشباب من عمر الانسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبان إلى الشهوات. ولكن حياة محمد (ص) في هذه الفترة كانت حياة مثالية نموذجية حتى لقبه قومه بالأمين. ولذلك لم يجد قومه عندما اشتد الخصام بينهم وبينه، شيئاً يمس شرفه أو يطعن في عفته، مع أنهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية. فقد كانت دعوته قائمة على إشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفة، ومقاومة التيارات النفسية الخبيثة. فإذا نفذوا إلى شيء مما يريدون استطاعوا أن يشككوا العرب في دعوته حتى ينفضوا عنه. وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقي، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها. وإذا أضفنا إلى ذلك ما يقوله علماء النفس من أن فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسية[1] استطعنا أن نفهم قوة إرادة محمد (ص) في ضبط نفسه في شبابه وتحكمه في ميوله الجنسية تحكماً جعله مثالاً للطهارة والعفة. وطهارة النفس وخلوّها من الشهوات المحرمة والنزوات لمن أهم العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين. يقول (السير وليم موير): «ان النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها».

فمن كان في شبابه مثالاً لطهارة النفس والعفة إلى حد بعيد، يستحيل أن يجري وراء الشهوة واللذة بعد بلوغه سن الاكتمال والرزانة. وهو يخوض معارك طاحنة مستمرة. فقد اكتفى بخديجة (ع) وهي أكبر منه ١٥ سنة إلى أن بلغ ٥٤ من عمره. ثم تزوج بسودة ثم بعائشة تلبية لرجاء أبي بكر حيث

---

(١) لذلك يستحب التبكير في الزواج. وفي الحديث: «من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر». وفي آخر: «ما بنى بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج». ويكره أن تحيض البنت في بيت أبيها. ويستحب لمن أراد التزويج أن يصلي ركعتين ويقول بعد الانتهاء: «اللهم أني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً وأحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيباً تجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي».

شاهد الرسول (ص) مغموماً على فراق خديجة (ع)، ثم تزوج بالعجائز والأرامل اللاتي فاتهن سن الشباب وقد أصبحن بلا عائل لأنه قد استشهد أزواجهن في الغزوات ولقد تنبه بعض كتاب المسيحية المنصفين فقالوا: «أنه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمد على الاكثار من زوجاته في هذا الوقت إلا الرحمة والشفقة. ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذة والمتعة، لأن من تزوج منهن كنَّ متقدمات في السن وأرامل فقيرات».

لا سيما وان الرسول قد أمر بالتهجد وإحياء بعض الليل بصلاة. وتلاوة القرآن ومناجاة ربه، وما أعظمها، وذلك لقوله تعالى: ﴿يا أيها المزمِّل[1] قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾. ثم يقول: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه، وطائفة من الذين معك، والله يقدر الليل والنهار﴾. وقد ثبت من حياته صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتى تتورم قدماه. فأين الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنالك من غزوات وحروب؟

وكان في استطاعة الرسول (ص) أن يمتلك الجواري والعبيد ويعيش في قصور وتكون له أبهة كسرى وعظمة هرقل، لكن رضى ببساطة المسكن والملبس، وكان يشد على بطنه حجر المجاعة. ولما رأت زوجاته أن نساء المسلمين قد تغيرت أحوالهن وأصبحن تتقلبن في النعيم شكون إليه، وكنَّ يعتقدن أنهن صاحبات حق في التمتع بما يتمتع به غيرهن، بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الاسلامية، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تردن الحياة الدنيا وزينتها، فتعالين أمتعكن وأسرِّحكنَّ سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فان الله أعد للمحسنات منكنَّ أجراً عظيماً﴾.

* * *

---

(١) أي المتزمل. ادغم التاء في الزاء. من تزمَّل: أي تلفف بثيابه. خوطب به (ص) لأنه ارتعد بدء مجيء جبرئيل. فقال: زمِّلوني. أو من: تزمل. الزمل أي تحمل الحمل، أي المتحمل لأعباء النبوة.

وقد قلنا أن من أهم الصفات التي تجعل الفرد قريباً إلى الله تعالى وموضع لطفه ورفده إنما هو (الشكر). ذلك لأن الكمال الانساني إنما يتجلى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم، لذلك يقول الله تعالى وهو الحق: ﴿وكذلك فتنّا بعضهم ببعض، ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

إن المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا، يعترضون على إيمانهم، لأن هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً وذلك بقولهم ازدراءاً: «أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا». وقد فاتهم أن الايمان روحي، يتوجه إلى النفس الانسانية مباشرة، ولا علاقة له بالمال والجاه. الايمان يحلّ في النفوس الشاكرة. فكلما كانت النفس شاكرة أكثر كان إيمانها أقوى وأمتن. حتى ينتهي إلى الوصاية والنبوة. والنفس الشاكرة ليس لها امارات خارجية وعلامات فارقة مادية كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه. وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاع ولا تجدها في قارون.

نعم، ان هؤلاء المتكبرين كانوا يقولون: «لو كان خيراً ما سبقونا اليه». أي لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا اليه هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم. كأن الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب. حين أن هذه الأمور عوائق تعوق النفس الانسانية عن أن تتوجه نحو الحق والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به، ولم تؤدَّ حقوقها وواجباتها، وقل من يقوى عليها إلا من رحم الله.

روي أن أبا جهل قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديد بما كانوا يكسبون﴾. فان هؤلاء المعترضين كانوا مع إجرامهم وآثامهم وفسوقهم يريدون أن يكونوا أنبياء. حين أنهم يستحقون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم. ﴿وان الله ليس بظلاّم للعبيد﴾. فالبشر كلهم في نظر الله على حد سواء. من أطاع منهم بلغ مراتب

عالية حتى تنتهي إلى النبوة أو ما يقارب النبوة، وقد جاء في الحديث القدسي، أن الله تعالى يقول: ﴿عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. أرأفة أعظم من هذه؟ يعطي الله عبده إذا أطاعه صفة الخالقية والايجاد باذنه تعالى: يقول للشيء كن فيكون. وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء والأوصياء (ع) باذن الله تعالى وقدرته جل وعلا.

ثم يجب أن تكون نفس النبي نفساً متعلقة بالحق لا تفتر عن التوجه إلى الله ومناجاته تعالى وذكره جل وعلا طرفة عين أبداً. لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه وقبله وبعده.

إن النبي (ص) كان لا يقوم بعمل إلا ويذكر الله تعالى. يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه. فإذا جاءه أمر يحبه، قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات». وإذا أتاه أمر يكرهه، قال: «الحمد لله على كل حال». وإن قصد فعل شيء، قال: «اللهم خر لي واختر لي». وإن أراد سفراً، قال: «اللهم بك أصول وبك أجول». وإذا أراد نوماً، قال: «اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». وإن لبس ثوباً جديداً، قال: «الحمد لله الذي رزقني ما أتجمَّل به في حياتي». وإن أكل، قال: «الحمد الله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين». وإن شرب قال: «الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا». وإذا أفطر قال: «الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت». وإذا رفع بصره إلى السماء قال: «يا مصرِّف القلوب، ثبِّت قلبي على طاعتك». وإذا أصابه همٌّ قال: «حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل».

فهذه الصفات هي بعض ما يجب أن يتوفر في من يناط به تكميل الناس أجمعين.

ثم ان قدسية النفوس لتؤثر في سيماء الأبدان فتضفي عليها نوراً وبهاءاً، من شاهدها ابتهج وسكن اليها وآمن بها، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله. فكان وجه رسول الله يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر.

ولذلك كان يأتيه بعض الأعراب، فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: «والله ما هذا الوجه بوجه كذاب».

ولا مراء، أن الصدق يصاحب الخير والبر، والكذب يساير الفجور والشر. وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها، تعلم من النبي (ص) أنه الصادق البار. تقول للنبي (ص) حين جاءه الوحي: «والله لا يخزيك الله أبداً. أنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتُقري الضيف وتكسي المعدم وتعين على نوائب الحق».

قال ابن سعد في الطبقات: «كان محمد (ص) قبل النبوة، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى وما رؤى ملاحياً[1] ولا ممارياً[2] أحداً حتى سماه قومه الأمين».

وكان رسول الله وهو الذي بعث رحمة للعالمين: يجلس على الأرض تواضعاً وينام عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويَحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم إذا أعيي، ويضع طهوره بالليل بيده ولا يجلس متكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم ولا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويلبس الغليظ من القطن والكتان ويشيِّع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشر بالبر اليهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله، يقبل معذرة المعتذر إليه. وكان أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن، لا يرتفع على عبيده وامائه في مأكل ولا في ملبس، يأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق، لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمَة إلا قام معه في حاجته، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح، ويبدأ من لقيه بالسلام، وإذا لقي مسلماً بدأه بالمصافحة. وكان لا

---

(١) منازعاً: وفي المثل من لا حاك فقد عاداك.

(٢) مجادلاً.

يجلس إليه أحد إلا خفف صلاته وأقبل عليه وقال: «ألك حاجة؟». وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك. وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة. وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه. ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته، وكان في الرضا والغضب لا يقول إلا حقاً، وإذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وإذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف.

كان صلوات الله عليه أشجع الناس قلباً وأشدهم بأساً وأكثرهم حياء.

لا أعلم أن رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه، إلا إذا كان نبياً أو وصي نبي أو بالأحرى من كان جزاؤه النبوّة أو الوصاية. نعم إن صفات الكمال لا تصدر إلا عن نفس قدسية وروح ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء وتحررت من عبودية الشهـوة، وحبّ الصيت واستمدّت من النـور الالهي والهداية الصمدانية.

يجب أن تكون نفس النبي بالغة من القدسية درجة يتحمل معها الوحي ويقوى على الاتصال بالمبدأ الأعلى. وكان نبينا صلوات الله عليه مع تلك القدسية البالغة يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول: «زمّلوني» فكان يغطى إلى أن يذهب عنه الروع. لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله: «يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً».

ولما قدم (جارود) على النبي (ص) قال: «إن كنت نبياً فـأخبرني عـما أضمرت». فخفق الرسول خفقة كأنها سِنة، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه فقال: «أنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة في الاسلام. ألا وأن دم الجاهلية موضوع، وحلفها مردود. ولا حلف في الاسلام، ألا وأن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة».

* * *

وقد تأثر بعض علماء المسلمين بروح الغرب المادية، ففسـروا القرآن

متأثرين بالمادية العصرية وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرائيل عليه السلام. وأنكروا وجود الجن. وقالوا أن روح محمد قد بلغت مرتبة من السموٌ حتى صارت تتجلى لها الحقائق، وخالفوا صريح القرآن والسنة المتواترة والعقل. وقاسوا الأمور الروحية وما هو وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية ولم يحتملوا أنه سيأتي يوم، يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة. ذلك لأن الروح الانسانية مهما تعرفت على حقائق المادة، ليس لها إذا أرادت التكامل في عوالم النفس إلا أن تستفيض من ما وراء الطبيعة. ولا بد لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفياض بواسطة سفراء بين الله وعباده وهم الأنبياء (ع): ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء، أنه عليم حكيم﴾. (سورة الشورى: ١٥).

* * *

إن النفس القدسية التي لا تجاريها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تميل إلى الدنيا وزخارفها وتتوجه إلى الله تعالى بكلها. فنبينا محمد (ص) أعرض عن زخرف الدنيا وغضارتها ولم يستمتع بحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار[١] الفرات ومن أقصى اليمن إلى شَحر[٢] عمان وهو أزهد الناس في ما يُقتنى ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر. أتى يوماً إلى داره، فرأى ستاراً قد علق على الباب، فقال: «ارفعوه، انه ليذكرني الدنيا»!...

ويقول فيه السير (وليم موير): «امتاز محمد (ص) بوضوح كلامه ويُسر دينه، وأنه أتمَّ من الأعمال ما يدهش الألباب. فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الانسانية في زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وآله وسلم».

نعم، يجب أن يكون النبي محقِّراً للدنيا، متوجهاً إلى العالم الأعلى، نفسه

(١) العذار من النصل: شفرتاه. أو جانب اللحية أو الشعر الذي يحاذي الأذن.
(٢) شحر عمان: ساحل البحر بين عمان وعدن.

في اللاهوت وبدنه في الناسوت. فالدنيا، كما يقول علي عليه السلام: «دار مجاز والآخرة دار قرار، فطوبى لمن أخذ من ممره لمقره».

أنظروا كيف يصف علي (ع) نبينا محمداً (ص) أنه يقول: «قد حقَّر الدنيا وصغَّرها وأهونها وهوَّنها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً. فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو منها مقاماً. بلَّغ عن ربه مُعذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً. نحن شجرة النبوة ومحطُّ الرسالة ومُختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم. ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة».

لقد دخل على رسول الله (ص) بعض الأعراب فارتاع من هيبته. فقال: «خفِّض عليك، فإنما أنا ابن أمرأة كانت تأكل القديد بمكة»، وكان صلوات الله عليه يمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم إلا باطراقه وحيائه وجليل سَمته ورِوائه.

وكان صلوات الله عليه جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة، فاخترط أعرابي سيفه عليه، فأرعدت يده وسقط منها السيف ومع ذلك عفا عنه. فرجع الأعرابي إلى قومه قائلاً: «جئتكم من عند خير الناس».

ومن صفاته الخارقة أنه صلوات الله عليه كلما رجع إلى بيته ألقى يهودي من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماد، فافتقده رسول الله (ص) بعد أيام، إذ رأى أنه لا يقوم بعادته! فقيل أنه مريض. فعاده في مرضه، فذاب هو زوجته حياءاً وخجلاً وأسلما.

فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلص من براثن المادة وظلماتها التي تجعل الانسان كالبهيمة أو أحط منها، فليتمسك ببعض هذه الصفات الجليلة، ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفة بالله تعالى.

لا بد لهذا الانسان من أن يسير سيره التكاملي، ولا تكامل إلا بجعل سيرة النبي محمد (ص) مثالاً رفيعاً يقتدى به. فالانسان إن لم يكن محمدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسياً لا محالة. ولا مراء أن الانسان انسان

بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور. إذ التكامل أمر نفسي فطوبى لمن لم تعرَّه المادة وتشويهات الماديين الذين إذا استعمروا النفس فقد استعبدوا الانسان استعباداً ما بعده استعباد.

* * *

قد سبق في علم الله أنه سوف لا يأتي بعد محمد صلى الله عليه وآله شخص يطيعه إطاعة تامة كاطاعة محمد (ص) ويقوم بواجب الشكر كما يقوم به محمد (ص). وتجمع نفسه من الكمالات والفضائل ما جمعته نفس محمد (ص). لذلك يخاطبه الله تعالى: ﴿وأنك لعلى خلق عظيم﴾[1]. فيختم به النبوة والرسالة، ويرسل معه دساتير خالدة ما بعدها دستور، دساتير تؤدي إلى سعادة الدارين: ﴿حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة﴾. وذلك بقوله: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾[2].

وحاشا لله أن يصدَّ سائر الناس عن البلوغ إلى هذه المرتبة من الكمال (أي النبوة) بعد محمد (ص). ولكنه تعالى علم بما سيكون. وان العِلم بما سيكون من لوازم كمال الله تعالى. والعلم بما سيكون لا يوجب أن يكون شخص مطيعاً وآخر عاصياً. إذ العلم بالشيء غير الجبر في تحقيقه. فان العلم لا ينافي الاختيار. ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان، بل كنتم قوماً طاغين﴾ (سورة الصافات). وهذا رد على المجبرة القائلين بالجبر. فالله لطيف بعباده، يهديهم سواء السبيل، ولكنهم لعدم إطاعتهم يبتعدون عن ساحة الله القدسية ويقولون: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم، حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وان أنتم ألا تخرصون». (أي تكذبون ـ الأنعام: ١٤٧). ولكن من اتبع سنة محمد وآله الأطهار سلام الله عليهم أجمعين يبلغ مرتبة من

---

(١) سورة القلم: ٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٤٠.

الكمال حتى يكون كأحد أنبياء بني إسرائيل. كما في الحديث: «علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل».

* * *

يقول علماء الاجتماع: أن النبوغ نتيجة تكامل اجتماعي. أي أن العظيم يأتي متأثراً بعوامل البيئة وظروف الوسط الاجتماعي. أنهم يقولون: إذا ظهرت في بيئة ما مشكلة من المشاكل العقلية مثلاً وأخذت تشغل الأذهان واشتد الجدل حولها بين الناس واضطربت الأفكار، ظهر الفيلسوف الحكيم! لحلّ غوامض هذه المشكلة وبيان وجه الصواب. وإذا طغت موجة من موجات الفتح في بيئة ما ظهر القائد الذي يقود الجيوش ليستولي على البلاد. وهكذا في كل ضرب من ضروب النشاط الانساني. ويقولون إن العظيم إنما يبرز في ناحية واحدة.

فكيف، إذن ظهر محمد (ص) في بيئة تصفها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقوله: «وكنتم على شفا حفرة من النار. مذقة[١] الشارب ونهزة[٢] الطامع وقُبسة العجلان[٣] وموطىء الأقدام[٤]، تشربون الطرق[٥] وتقتاتون القِد[٦]، أذلة خاسئين. تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد بعد اللتيا والتي[٧]»، وبرز صلوات الله عليه في نواح متعددة خلافاً لما يقوله علماء الاجتماع. ذلك أمر رباني ومعجزة إلهية.

إن قوانين علم الاجتماع لا تنطبق على ما هو خارج عن نطاق البشر

---

(١) أي شربته.

(٢) لنهزة، بالضم أي الفرصة.

(٣) القبسة، بالضم: شعلة من نار تقتبس من معظمها والاضافة إلى العجلان لبيان القلة والحقارة.

(٤) مثل يضرب للمغاوبية والذلة.

(٥) الطرق، بالفتح: ماء السماء الذي تبول فيه الابل وتبعر.

(٦) سير بقد من جلد غير مدبوغ. أو الشيء المقدود. قدد اللحم: جعله قطعاً وجففه.

(٧) كنايتان عن الداهية الصغيرة والكبيرة. واللتيا تصغير (التي).

العادي أو فوق العادي بقليل. وان الله تعالى إتماماً للحجة يبعث النبي الكامل في وسط فاقد الكمال، كي لا يقال: ان التدريج الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي هو الذي أدى إلى إيجاد نابغة من النوابغ أو جهبذة من الجهابذة. على أن التكامل الاجتماعي الذي يقول به علماء الاجتماع تكامل في عالم المادة والعلوم المادية أكثر منه في عالم تكامل النفس، كما نشاهد ذلك في الغرب. بل يكاد أن لا تكون علاقة بينه وبين التكامل الروحي والأخلاقي.

ثم يجب أن لا يغرب عن البال أنه لا نسبة بين النوابغ والأنبياء (ع). إذ النبوغ على ما يعرفه علماء الاجتماع: نبوغ فكري في خواص المادة والوقوف على بعض ما أودع الله فيها من خواص وذلك تفضلاً منه. ولا يخرج هذا النبوغ عن التفكير في خواص المادة والأوضاع البشرية من النواحي المادية. حين أن النبوة سمو روحاني وتقرب إلى الله تعالى إلى درجة تؤدي بلطف الله ومشيئته وأذنه إلى خوارق يعجز عنها النوابغ كلهم أجمعون.

النبوغ كما يصفه (بوفون) دقة متناهية، فهي لا تخرج عن حدود المادة أي استعمال الحياة العقلية (أعني الفكرية) بدقة فائقة في الأمور المادية. فكم رأينا من النوابغ هم من أحط الناس في عالم تكامل النفس. إذ لا رابطة بين النبوغ والتفكير الفائق في خواص الأشياء وربط بعضها ببعض. وبين الكمال النفسي. إلا إذا كان هذا النبوغ في عوالم تزكية النفس وتحليتها بالفضائل. وان المشاهدات الآتية تبرهن لنا صحة ما أقول مع أن القضية ثابتة بطريق عقلي:

نقل لي أحد طلاب دار المعلمين العالية في إحدى العواصم أنه رأى ذات ليلة أستاذه الدكتور في الفلسفة والتربية ملقى على قارعة الطريق بحالة يرثى لها، ثملاً فاقد الشعور، قال: فلم استطع أن أرى أستاذي في هذه الحالة المخزية، فحملته في سيارة إلى فندق كان يسكنه وأخذت أعالجه حتى صحا. فقلت ما هذا يا دكتور؟؟ ووصفت له ما كان به، فقال: «أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة!». وقال أيضاً: رأيت دكتوراً آخر في الأداب كان يرتاد محلات البغاء والفجور بصورة علنية لا يبالي كأنه جاء بأمر معتاد. وكان في احدى الجامعات أستاذ بلغ في الرياضيات العالية مرتبة النبوغ، ذا مؤلفات مهمة

عميقة، وقد قام بتأليف كتاب يشتمل على ٤ مجلدات، يحقق فيه ما قام به المسلمون في العهد العباسي من خدمات جمة في عالم الرياضيات. وقد طلبت إليه وزارة المعارف في أمريكا أن يمنحها رخصة الترجمة بازاء مبلغ جسيم، فأذن بذلك وقبض الدراهم وأصبح لا يرى مدة شهرين. فعلم بعد ذلك أنه خلا بالعاهرات والبغايا فأصيب من جراء ذلك بمرض زهري مميت (سيفيليس) فأدى به إلى الجنون ومات في دار المجانين.

نستنتج مما ذكر أن النبوغ والشهادات العالية لا تعمل في كبح الشهوات وتقوية الارادة بصورة موجبة، تلك الارادة التي تراقب الله وتستعمل في ترك محارم الله وتقاوم رغبات النفس الأمارة بالسوء وتضادها. فان النفس الانسانية أينما وجهتها تتقوى في تلك الجهة. فان وجهتها نحو الرياضيات الروحية والتخلق بالأخلاق الفاضلة قويت في هذه الناحية وإن وجهتها نحو تتبعات علمية مادية وأهملت أمر تكامل النفس وتزكيتها وتحليتها بالملكات الفاضلة نبغت في الناحية العلمية المادية مع نفس قد تكون أحط من نفس البهائم. ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾.

فلا علاقة بين النبوغ في ناحية علمية للتطلع على خواص المادة أو على طباع المجتمع (نفسيات المجتمع) ومظاهر الفرد، وبين سمو النفس وتكاملها. وقد التبس الأمر في ذلك على كثيرين لا سيما الشبيبة المثقفة بثقافة العصر. يرى الشاب أن أستاذه الغربي يقول (مثلاً) مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين، أو أن ضغط كتلة معينة من الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع حجمه عندما تبقى درجة الحرارة ثابتة أو أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس إلى إحدى السيارات يرسم ويقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية. ويستدل له على ذلك كله ببراهين صحيحة. فيزعم أو يوقن شابنا المتعلم أن كل ما يقوله أستاذه الغربي في عالم تكامل النفس وعوالم الروح والدين صحيح، مع علمه أن هذا ليس من اختصاصه. فينقاد إلى رأي استاذه في ما لم يختص فيه ويتابعه في عقائده ونفسياته المادية. ومن هنا أوتي الشرق وأصيب بما أصيب به من تبلبل في العقائد والأخلاق والآداب الاسلامية المثالية.

نعم، قد بُهت الشرقي عندما رأى الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا

تسندها دساتير رياضية وتجارب علمية دقيقة وحياة قد توفرت فيها أسباب الراحة بصورة ظاهرية لا سيما إذا نظر اليها من الخارج، فظنَّ بل أيقن أن كل ما يقوله الغربي في الدين والأخلاق والفلسفة صحيح، فاستقى من فلسفته المادية الزائفة أكثر من أن يأخذ من رياضياته وطبيعياته وصنايعه، بل أخذ أخلاقه واستهتاره بالمقدسات وخلاعته ومراقصه ومجونه وطيشه وترفه قبل أن يأخذ من مخترعاته ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس ميالة إلى التسافل والتدنس. وفي اقتباس الاختراعات أو القيام بشيء من الاكتشافات من الصعوبات التي لا تلائم النفس الميالة إلى الشهوات أو الراحة. والنفس الأمارة بالسوء ميالة إلى التجرد من القيود. وليست وسائل تكميل النفس إلا قيوداً! والنفس تستسيغ الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية. فتلبسها لباس المدنية والحضارة ويكون هذا الاسم المغري مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبَّ في الشرق التبلبل وتشتت الأفكار والآراء: بين مغال يريد قلب البلاد الاسلامية إلى بلدة غربية بجميع مظاهرها وبين محافظ على الطرق الصناعية القديمة البائدة في الحياة المادية. فأخذ المتطرف من المسلمين يشك في النبوات والقضايا الروحية ويقيسها بمقياس مادي مقتضب، فقد قال لي من أكمل دراسته العالية في باريس (باري) لماذا ظهر الأنبياء كلهم في الشرق ولم يظهر نبي في الغرب؟ وان ما أسلفناه من الشروط والشروح كاف لمن توخّى الحقيقة.

ولا ريب أن شروط النبوة ليست بشروط صناعية ميكانيكية حتى توجد في أوروبا وأمريكا وإنما هي روحية بحتة. «ثم ان أوروبا كانت وسطاً مادياً منذ زمن الرومانيين وقبلهم[1] وان الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً وأننا نحن البشر مجبرون على اتباعه ولكن المدنية الغربية لا تقر الحاجة إلى خضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو

---

(١) من كتاب «الاسلام على مفترق الطرق» تأليف (ليوبولدفايس) الذي قد تشرف باعتناق دين الاسلام.

قومية. ان معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية: (Confort) وان هذا موروث عن المدنية الرومانية القديمة. وليس هناك وجه شبه بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الرومانية، وان عدل الرومانيين كان عدلاً لأنفسهم وحدهم وكان الاتجاه مبنياً على اتجاه مادي خالص للحياة وللحضارة. ادراك مادي هذبه ذوق فكري. ولكنه على كل حال بعيد عن القيم الروحية. ان الرومانيين لم يعرفوا الدين وان آلهتهم الحقيقية لم تكن سوى خرافات يونانية وبعيدة عن أن تمنح البشر شرائع خلقية. تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة. والحقيقة الثابتة أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف[1] الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية. وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً غير ديني، فكذلك هو الجو في الغرب الحديث. ولم تؤثر المسيحية في أوروبا ولم تلطف شيئاً من جوها المادي، إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق وكأن الغربي يقول: بما أننا لا نعرف شيئاً من طريق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب، لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد، فان من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية!».

فأخطأ الغربي في التطبيق والقياس لظلمات في النفس وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات! نعم أراد الغربي أن يجد دساتير الكمال الروحي ومعالم الدين تحت المجاهر والمخابر. وقلده الشرقي فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته الفواحة التي بها يسمى الانسان انساناً.

فكيف ـ مع ما قدمنا من مقدمات ـ ينتظر أن يظهر نبي من أوروبا أو أمريكا؟.

---

(١) استشرف: رفع بصره لينظر إليه باسطاً كفه فوق حاجبه.

الشرق مهد الثقافات الدينية ومعهد تكامل النفوس الانسانية ومهبط الوحي. نبغ فيه بنتيجة تربية الأنبياء (ع) أناس أفذاذ تطهروا من الدنس والرجس يباهي بهم الله ملائكة السماء.

* * *

والوصي، وهو الذي يقوم بعد النبي بأعمال النبي (عدا تلقي الوحي) وليس بنبي، مستجمعٌ لصفات النبي وكمالاته. فهو معصوم، يأتمر بأوامر الله وينتهي بمناهيه، ذلك لأن من يرتكب المعاصي حتى صغائرها تسقط منزلته من النفوس، فلا يكون رادعاً لها. فالعصمة في الأوصياء أمر طبيعي لا يشك في وجوبها من له المام بروحيات المجتمع والجماعات. وقد دلت الأخبار القطعية أن الأئمة: من لدن أمير المؤمنين (ع) إلى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه كانوا في غاية الكمال منزهين عن كل عيب خلقي أو خُلقي، معصومين عن كل ذنب، ﴿كانوا مصابيح الدجى[1] وأعلام التقى وذوي النهي وأولى الحجى[2] وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا، كانوا الأدلاء على مرضات الله والتامين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. قد اصطفاهم الله بعلمه وارتضاهم لغيبه واختارهم لسره واجتباهم بقدرته وخصهم ببرهانه، كانوا خزنة لعلمه ومستودعاً لحكمته وتراجمة لوحيه ومناراً في بلاده وأدلاء على صراطه﴾ يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «أنه ليس على الامام إلا ما حُمِّل من أمر ربه، إلا البلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والاحياء للسنّة وإقامة الحقوق على مستحقيها وإصدار السهمان[3] على أهلها». ويقول علي (ع) في موضع آخر عن آل البيت عليهم السلام: (هم) موضع سره ولجأ أمره

---

(١) مقتبس من زيارة: (الجامعة).

(٢) النهي أو الحجى: العقل.

(٣) جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب وإصدار السهمان اعادتها إلى أهلها المستحقين لها لا ينقصهم منها شيئاً.

وعيبة[٢] علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وحبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه، إلى أن قال (ع): «لا يقاس بآل محمدٍ (ص) في هذه الأمة أحد ولا يسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي[٢] وبهم يلحق التالي. ولهم خصائص حق الولاية. وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله».

وقد قال علي (ع) أيضاً[٣]: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا. أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم. وأدخلنا وأخرجهم. بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى. إن الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم. ولا تصلح الولاة من غيرهم».

وقد قال (ع) أيضاً: «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه».

وقال عليه السلام: «نحن الشعار[٤] والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها. فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً. فيهم (يعني آل النبي) كرائم[٥] القرآن وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يُسبقوا»[٦].

وقال عليه السلام يصف فيها آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «هم

(١) الوعاء.
(٢) يريد أن المغالي يرجع اليهم ليعتدل. فان النجاة بالرجوع اليهم.
(٣) من نهج البلاغة ص/٣٦. الجزء الثاني.
(٤) ما يلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي (ص).
(٥) جمع كريمة والمراد أنه قد نزلت في مدحهم آيات كريمات والقرآن كريم كله وهذه كرائم.
(٦) في الجزء الثاني من نهج البلاغة في الصفحة: ٥٨.

عيش العلم وموت الجهل. يخبركم حلمهم عن عملهم (وظاهرهم عن باطنهم) وصمتهم عن حِكَم منطقهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه. هم دعائم الاسلام وولائج[1] الاعتصام. بهم عاد الحق في نصابه وانزاح الباطل عن مقامه. وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقلَ وعاية، لا عقل سماع ورواية، فان رواه العلم كثير ورعاته قليل»[2].

وهكذا تعمل سنة الكمال بأمره تعالى في ختم النبوة بمحمد (ص) وختم الوصاية بالأئمة (ع) من بعده. فرسول الله محمد (ص) أكمل الأنبياء وخاتم النبيين. وأوصياؤه، وهم إثنا عشر إماماً، أكمل الأوصياء وخاتمة الوصيين.

وكان من لوازم سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم. لأنه من أعطي صفة الكمال يجب أن يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري. إن الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد (ص) وأولاده المعصومين (ع). وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة. فطوبى لنفس اهتدت بهداهم واستقت من معين علومهم واستفادت من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهوا عنه، فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم. وقد روى أحمد والترمذي: قال رسول الله (ص): «أني تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا بِمَ تخلفوني فيهما». وقال ابن حجر في صواعقه: قال رسول الله (ص): «أني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان تبعتموهما: وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي» وزاد الطبراني: «أني سألت ذلك لهما، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم». وفي حديث آخر: «إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»[3]. فلا كمال لهذا البشر إلا بانتهاج

---

(١) ولائج جمع وليجة وهي ما يدخل فيه السائر اعتصاماً من مطر أو برد أو توقياً من مفترس.

(٢) الجزء الثاني من نهج البلاغة في الصفحة: ٢٥٩.

(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده وغيره بطرق عدة.

مناهجهم والسير وفق تعاليمهم ولا تكامل للنفس إلا بولائهم ومودتهم: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[1].



(١) سورة الشورى: الآية: ٢٣.

دروس النبي (ص) في ساعاته الأخيرة[1]

في مثل هذا اليوم يفارق خاتم النبيين محمد بن عبد الله (ص) هذه الدنيا الفانية، ويلقي على أمته درساً هو من أهم الدروس في توجيه الأمة نحو السعادة الأبدية. وقد علم رسول الله (ص) بدنوٍّ أجله بامارات كانت تشير إلى ذلك. منها أن جبرائيل، كما روى ابن سعد في الطبقات، كان يعرض عليه القرآن في كل سنة مرة. فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين. ومنها نزول آية: ﴿انك ميت وأنهم ميتون﴾، فقد قال بعدها ليتني أعلم متى يكون ذلك، فنزلت سورة النصر: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبِّح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾. فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزولها، فيقول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب اليه. فقيل له في ذلك. فقال: أما أن نفسي نعيت إلي ثم بكى بكاءاً شديداً. فقيل له يا رسول الله أو تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟. قال: فأين هول المطلع؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟... لذلك اعتكف[2] صلوات الله عليه في السنة التي قبض فيها عشرين يوماً حين أنه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان: العشر الأواخر.

وروى أبو اسحاق الثعلبي أن رسول الله (ص) لما مرض قال لابنته فاطمة (ع): أدني مني. فـأكبَّت عليه، فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها تهملان، فقال لها أدني مني فدنت فأكبت عليه. فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك، فعجبنا لما رأينا، فسألناها، فأخبرتنا: أنه نعي اليها نفسه، فبكت،

(١) ألقيت هذه الكلمة في ٢٨ صفر ١٣٦٧ هـ.

(٢) الاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد العبادة. وهو مستحب مؤكد له شروط مشروحة في الرسائل العملية والكتب الفقهية الاستدلالية.

فقال يا بنيَّة، لا تحزني. فأني سألت ربي أن يجعلك أول أهل بيتي لحاقاً بي. فأخبرني انه استجاب لي، فضحكت.

ثم دعا رسول الله (ص) الحسن والحسين، فجاءا يصيحان ويبكيان، فوقعا عليه. فقبلهما وشمهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان، ثم أغمي عليه، فأراد علي (ع) أن ينحيهما عنه فأفاق. وقال يا علي، دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودا مني، أما أنهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان.

وأمر صلوات الله عليه بلالاً وهو على فراش المرض بأن يجمع الناس، فاجتمعوا، فخرج معصباً بعمامته متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: معاشر أصحابي، أي نبي كنت لكم، ألم أجاهد بين أظهركم، ألم تكسر رباعيتي، ألم يعفَّر جبيني، ألم تسل الدماء على حر وجهي حتى لثقت[1] لحيتي، ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي، ألم أربط حجر المجاعة على بطني، قالوا بلى يا رسول الله، لقد كنت على بلاء الله صابراً وعن المنكر ناهياً. فجزاك الله عنا أفضل الجزاء. قال: وأنتم فجزاكم الله، ثم قال: ان ربي عز وجل حكم وأقسم: أن لا يجوز ظلم ظالم، فناشدتكم بالله، أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتصَّ منه في دار الدنيا، فهو أحب الي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء. فقام إليه رجل من أقصى القوم، يقال له سوادة بن قيس، فقال له: فداك أبي وأمي، يا رسول الله، أنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق[2]، فرفعته وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، ولا أدري عمداً أو خطأ، فقال معاذ الله أن أكون قد تعمدت. ثم أرسل بلالاً إلى بيت فاطمة (ع). فأتى بالقضيب وناوله رسول الله (ص). فقال رسول الله (ص): أين الشيخ، فقال ها أنا ذا يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: فاقتص مني حتى ترضى. فقال الشيخ فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه. فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله،

---

(١) لثقت: نديت.

(٢) الممشوق الطويل الدقيق.

أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار، فقال رسول الله يا سوادة أتعفو أم تقتص. فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال (ص): اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد.

وقد ألقى النبي (ص) درساً بليغاً حين خرج إلى المسجد، كما يخبرنا المفيد عليه الرحمة، معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين بيمنى يديه وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى، حتى صعد المنبر، فقال: «معاشر الناس، قد حان مني خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها. ومن كان له عليَّ دين فليخبرني به، معاشر الناس. ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل، أيها الناس لا يدَّعِ مُدع ولا يتمن متمن، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل مع رحمة ولو عصيت لهويت».

وان رسول الله (ص) بعد تحققه من دنو أجله، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين، يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه، ويوصيهم بالتمسك بسنته والاجتماع عليها ويحثهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم. روى ابن سعد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال: «أني أوشك أن أدعى فأجيب، وأني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وقال في مقام آخر، على ما جاءت به الرواية على اتفاق واجماع: «يا أيها الناس، أني فرطكم وأنتم واردون عليَّ الحوض، إلا أني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فان اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني. وسألت ربي ذلك فأعطانيه. ألا وأني قد تركتهما فيكم: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم». ثم أن رسول الله قام بأمور مهمة أخرى حالة مرضه، لتوجيه المؤمنين بل العالم أجمع إلى طريق الحق والسعادة الأبدية، لا مجال لذكرها.

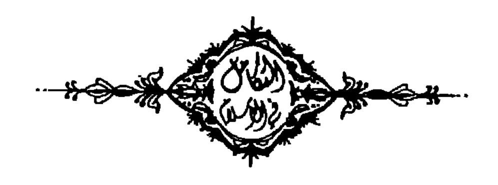
وأخذ يثقل حال رسول الله في مرضه، فقال ادعوا لي علياً، على ما يرويه

الطبري، فدُعي، فلما دنا منه. أومأ إليه فأكبَّ عليه، فناجاه طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، حتى أغفى رسول الله (ص). فلما أغفى خرج، فقال له الناس: ما الذي أوعز اليك يا أبا الحسن؟ قال: علمني ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب. ولا يمكن تحقيق هذا النوع من الالقاء بمقاييس عادية متعارفة، لأن قياسات أمور هي مما وراء الطبيعة تختلف عن قياساتنا العادية، وليس لنا أن نقيس عوالم الروح بمقاييس مادية متعارفة، لا سيما إذا كنا ممن لم يقطع في عالم تكامل النفس أشواطاً ولم يبلغ مرتبة في عوالم التزكية والتحلية.

ثم حضر رسول الله (ص) الموت وعلي عنده، فلما قرب خروج نفسه قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك وتولَّ أمري وصلِّ عليَّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله.

وكانت وفاته صلوات الله عليه يوم الاثنين عند الزوال لليلتين بقيتا من صفر، وأخذت فاطمة تقول: واأبتاه من ربه ما أدناه، واأبتاه جنان الخلد مأواه، واأبتاه ربه يكرمه إذا أتاه. ثم أخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول:

ماذا على من شمَّ تربة أحمد أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا
صبَّت علي مصائب لو أنها صبَّت على الأيام عُدنَ لياليا



سيدة النساء (ع)(١)

كثيراً ما يعرض علينا الكتاب مُثلاً عليا من رجال نبغوا في عالم التقوى وتكميل النفس وعالم العلم والفن، وقلما نجد مُثلاً عليا عن السيدات. فهذه فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) هي إحدى النساءالكاملات الأربع اللواتي بلغن أقصى مراتب الكمال الانساني. فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران. وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». وفي الاستيعاب عن ابن عباس قال: «قال رسول الله (ص): سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون». وروى مسلم في صحيحه والامام أحمد في مسنده في حديث مسارة النبي (ص) فاطمة (ع) أنه قال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة». وفي الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي من المسند للامام أحمد بن حنبل عن حذيفة بن اليمان وذكر حديثاً إلى أن قال: «قال رسول الله (ص): هذا ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه في أن يسلم عليّ ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء العالمين».

ولم تزل فاطمة (ع) بعد أبيها رسول الله (ص) بادية الحزن، معصبة الرأس، ناحلة الجسم، لم تُرَ ضاحكة ولا مبتسمة، فلم تعش بعد أبيها إلا خمسة وسبعين يوماً. وهي تفارق هذه الدنيا الدنية في مثل هذه الأيام. وتقام تخليداً لذكراها وإظهاراً لفضائلها ومناقبها مجالس واحتفالات. فيجدر بنا أن نذكر طرفاً من مكارمها وعلو منزلتها كي تتأسّى بذلك المؤمنات في أنحاء العالم. فان الناس إلى تكميل نفوسهم أحوج من املاء بطونهم. وان المدنية

---

(١) ألقيت في ١٤ ج ١/١٣٦٧ هـ.

الحاضرلا تعمل إلا لأجل اصلاح الظاهر واملاء البطون. بل قد تأخذ بالناس باسم الحرية والانطلاق إلى الجاهلية الجهلاء وعبادة المادة الصماء.

قد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشني: كان رسول الله (ص) إذ رجع من غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم ثنّى بفاطمة، ثم يأتي أزواجه. وبسنده عن ابن عمر أن النبي (ص) كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم كان أول الناس بـه عهداً فـاطمة. وفي الاستيعاب بسنده، سئلت عائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله (ص) قالت: فاطمة، قلت فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمته صواماً قواماً».

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (ص) من فاطمة. وكانت إذا دخلت عليه قام اليها فقبّلها ورحّب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبلت يده.

وقد أخرج الطبراني عن أنس أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة، يا أهل البيت،الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس».

وقال الحسن (ع) رأيت فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تـدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمّيهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني، الجار ثم الدار.

وروى البخاري في صحيحه بسنده أن رسول الله (ص) قال: فاطمة بَضعة مني، فمن أغضبها أغضبني، وعن كنز الدقائق : «ان الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها». ومن كرامتها على الله كما روى الحاكم في المستدرك أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجب: يا أهل الجمع، غُضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد (ص) حتى تمر. كيف لا يكون كذلك وان فاطمة (ع)، كما روى الصدوق في العلل عن علي (ع)، قد استقت

بالقربة حتى أثرت في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حت دِكنت ثيابها (أي اسودت)، فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقال لها علي (ع) لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً[1] فجاءت فوجدت عنده جماعة فاستحيت وانصرفت. فعلم النبي أنها جاءت لحاجة، فغدا علينا. ونحن في لحافنا، فأردنا أن نقوم، فقال مكانكما، فجلس عند رؤوسنا، فقال يا فاطمة، ما كانت حاجتك أمس؟ فأخبره علي (ع) فقال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم، إذا أخذتما منامكما، فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت: (رضيت عن الله ورسوله) ثلاث مرات. وروى ابن حجر في الاصابة نحوه، ثم قال: قال علي فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فقال له ابن الكوا ولا ليلة صفين فقال: قاتلكم الله ولا ليلة صفين.

وفي المناقب عن الحسن البصري أنه قال: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتى تورَّمت قدماها. وعن أبي جعفر (ع) قال: ما عُبد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله (ص) فاطمة (ع). وقد روى أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) رأى ذات يوم مسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين (ع) قلبين (أي سوارين) من فضة، فرجع ولم يدخل عليها. فظنت أنه من أجل ما رأى، فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيان فقسمته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيان، فأخذه رسول الله منهما وقال: «يا ثوبان، إذهب بهذا إلى بني فلان، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج، فان هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»...

وروى الصدوق في الأمالي، قال: كان النبي (ص) إذا قدم من سفر بدا بفاطمة، فدخل عليها، وأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفره فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب، لقدوم أبيها

(١) الخادم يطلق على المذكر والمؤنث والمراد هنا: المؤنث.

وزوجها، فلما قدم رسول الله (ص) دخل عليها، فوقف أصحابه على الباب، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه، حتى جلس عند المنبر، فظنت فاطمة أنه إنما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر، فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله (ص)، وقالت للرسول قل له: «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله» فلما أتاه، قال: (فعلت فداها أبوها)، ثلاث مرات. ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء». ثم قام: فدخل عليها.

وعن جابر الأنصاري (رض): أنه رأى النبي (ص) فاطمة وعليها كساء من أجلال الابل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله (ص)، فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»، فقالت: «يا رسول الله: الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه. فأنزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

وقال لها النبي (ص) ذات يوم: أي شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها اليه وقال: ذرية بعضها من بعض، ولا يعلم حقيقة هذا الدستور وفلسفة هذا النظام إلا من سار في مدارج الكمال النفسي وتقرب بأعماله الصالحات وطاعاته دون عجب ورياء إلى الله تقرباً يجعله أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً.

وكانت صلوات الله عليها كأبيها فصيحة بليغة غزيرة العلم. فإذا خطبت أتت بالدر المنثور. ومن قولها سلام الله عليها: «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاها، جمَّ عن الاحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الادراك أبدها. (إلى أن قالت): الممتنع عن الابصار رؤيته، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوَّنها بقدرته وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها. إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته وإظهاراً لقدرته وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع

العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنته». (إلى أن قالت): «كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه. ومؤدٍّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للاخلاص والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وامامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للاسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأحد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة إيجاباً للعظة»(١).

فإلى التأسي بهذه المكارم الرفيعة والأخلاق الملكوتية أدعوا اخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، ففي اتباعها الكمال النفسي المرجو، ذلك الكمال الذي لا بد للانسان من أن يقطع مراحله وأن يسمو بنفسه إلى حيث أراد الله تعالى. فان الله لم يخلق هذا الانسان إلا ليتكامل نفسياً. ولذلك أرسل أنبياء (ص) وعيَّن أوصياء (ع). وإن فاطمة الزهراء (ع) المعصومة من كل رجس وزلل خير مثال «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

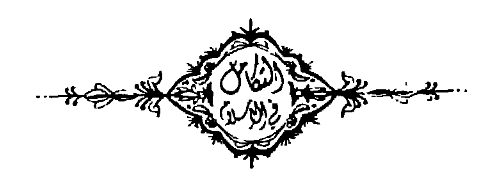
وللاسلام فلسفته الخاصة، قد لا تروق لمن بهرته زبارج الغرب وزخارفه، فلسفة ترمي إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وللاسلام تعاليمه الأخلاقية ونظمه الاقتصادية، قد جاءت من وراء المادة، ليسير على ضوئها البشر لينال سعادة الدارين. والاسلام يعارض كل نظام أو عمل يفسد الحياة الأخروية التي هي الحياة الحقيقية السرمدية: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان

---

(١) إن هذا الخطاب لطويل. إقتسمنا منه شيئاً يسيراً.

الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾. أي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

فطوبى لمن أيقن أن النظام الآتي من وراء المادة لإصــلاح وتكميل ما هو من وراء المادة أيضاً وأعني به النفس الانسانية ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. وليس للبشر أن يأتي من تلقاء نفسه بهذا النظام مهما تسامى. وأن النظم البشرية ناقصة لا تؤدي إلى الكمال المنشود، لأنها صادرة عن بشر ناقص مفتقر إلى الكمال!...



المأثور عن رياضيات علي عليه السلام

قد أجمع المسلمون من الصدر الأول إلى اليوم أن علياً عليه السلام أعلم الصحابة وأعلاهم كعباً وأكثرهم زهداً. فقد قال عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب». ان هذا النوع من التعليم لا يتوصل إليه إلا من زاول تزكية النفس وتطهيرها. ولا يعلم كيفية انفتاح ألف باب من العلم من كل باب إلا من أيقن أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس وما أصعب ذلك. ولا يقوى عليه إلا الأفذاذ الأقلون. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. وقد قال الله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. وجاء في حديث: «المؤمن ينظر بنور الله» فعلم علي علم يسطع من نور أودعه الله فيه. فقد قال رسول الله (ص): «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيى في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب، فان فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء».

وقال علي عليه السلام بحضرة المهاجرين والأنصار: «إن ها هنا علماً جماً لو أصبت له حملة». وقال عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». وقال (ع): «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم. هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً». وقال أيضاً: «سلوني، فان عندي علم الأولين والأخرين. أما والله لو ثنيت لي الوسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيَّ بحكم الله ويقول: يا رب، ان علياً قضى بقضائك» إلى آخر ما قاله عليه السلام.

وقد روى الشيخ سليمان الحنفي أنه قال رسول الله (ص): «لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني. فما علمت شيئا إلا علمته عليا، فهو باب علمي».

وقال رسول الله (ص) أيضاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب».

وقد قال علي عليه السلام ذات يوم وهو على المنبر: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أخبرتكم بناعقها وسائقها». قام إليه رجل، فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر. فقال عليه السلام: «والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله (ص)». وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو وهو سنان بن أنس النخعي.

فعلم علي عليه السلام من علم رسول الله. وهو علم ينتقل من نبي إلى وصي أو من ولي إلى ولي. بطريق لا يعرفه أو لن يعرفه علماء العصر الحاضر ما داموا في حضيض المادة. إن هذا النوع من العلم نور الهي، لا يعلم حقيقته علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس(Psychologues) في الوقت الحاضر. أنه مجهول كجهل علماء الذرة حقائق الذرة وأسرارها مهما بلغوا من العلم وكجهلهم حقيقة الأشعة الكونية. ذلك لأنهم يحومون حول الظواهر وهم في معزل عن الواقع والحقيقة، انه علم يترشح من إذابة المادية والترفع عن حضيض المادة والعروج إلى أوج الملكوت. انه علم لدني لا يحتاج إلى وضع معادلات أو حك واصلاح فلا يتدخله سهو أو شك. انه علم إرتجالي دون تروٍّ أو تفكر. ذلك لأن النبي أو الامام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فن وفي كل علم. وما ينقل عن البعض خلاف ذلك بشأن النبي (ص) مردود بحكم العقل. ذلك لأن الله تعالى لو لم يجهز النبي بجميع الكمالات لسقطت منزلته ولما أثر في النفوس ذلك التأثير الذي يجعل الأفراد منقادين اليه مطيعين.

فلا تثبت الامامة إلا بامتحانات عدة في عوالم النفس وفي شتى العلوم وفي اتيان الخوارق والمعجزات، تلك التي يعجز أهل ذلك الزمان من الاتيان بها مع الشروط العادية والعلوم البشرية المكتسبة.

ولقد امتحن المسلمون جعفراً (أخا الامام الحسن العسكري (ع): حين ادعى الامامة في مسائل عدة فأخفق في الجواب. وقد طلبوا منه أيضاً أن يذكر أسماء أصحاب الكتب وعن مقدار المال الذي كانوا قد حملوه إلى الامام (ع)، أي إلى خليفة الحسن العسكري (الامام الحادي عشر من أئمة الهدى (ع))، فقام جعفر ينفض أثوابه قائلاً: «يريدون منا أن نعلم الغيب»، فعلموا أنه ليس بامام.

وها نحن نذكر بعض ما أثر عن علي عليه أفضل الصلاة والسلام في حل بعض المسائل الرياضية:

(١) يسأل علي عليه السلام، عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ وهو راكب فرساً له، فيقول مرتجلاً: «إضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك». ثم يهمز فرسه وينصرف[1].

ذلك لأنا لو ضربنا ٣٦٠ (عدد أيام السنة على ما كان معروفاً في ذلك الوقت) في ٧ (عدد أيام الأسبوع)، لكان العدد: ٣٦٠ × ٧ = ٢٥٢٠.

فالعدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٢ لأنه عدد زوجي له نصف كامل.

* * *

ويقبل العدد ٢٥٢٠ القسمة على ٣، ذلك لأنه مجموع أرقامه (القيمة المطلقة) = ٩ = مضاعفات ٣.

توضيح ذلك:

١٠ = ٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠ = ٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠٠ = ٩٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

---

(١) لم يحتج علي عليه السلام إلى إيجاد المضاعف المشترك البسيط للأعداد المذكورة. فان علمه بالأشياء يختلف عن علمنا. انه علم الامامة، وهو أعلم الناس أجمعين. وهكذا كل إمام من أئمة الهدى عليهم السلام.

وبما أن العدد ٢٥٢٠ مؤلف من ٢٠ + ٥٠٠ + ٢٠٠٠
إذن:

٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢
٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٥
٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢
٢٥٢٠ = مضاعفات ٣ + ٢ + ٥ + ٢ = مضاعفات ٣ + ٩
٢٥٢٠ = مضاعفات ٣
إذن: ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٣.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤، ذلك لأن ٢٠ وهو العدد الذي يتألف من رقمي العشرات والآحاد يقبل القسمة على ٤.
ومعلوم أن: ٢٠ = مضاعفات ٤.
وان العدد ٢٥٢٠ = ٢٠ + ٢٥٠٠
= ٢٠ + ٢٥ × ١٠٠ = ٢٠ + ٢٥ × مضاعفات ٤
= ٢٠ + مضاعفات ٤
= مضاعفات ٤
.. العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٥ لأن العدد منته بالصفر (أي أن رقم الآحاد، تجوزاً، صفر) ذلك لأن العدد المنتهي بالصفر يساوي:
٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

وبما أن ١٠ = مضاعفات ٥
إن: ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × مضاعفات ٥
فالعدد يقبل القسمة على ٥.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٦، ذلك لأن ٦ = ٢ × ٣، (حاصل ضرب عددين أوليين). وقد علمنا أن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على كل من ٢، ٣.

إن: $\frac{٢٥٢٠}{٢ \times ٣}$ ، يختصر مع ٢ أولاً، ثم مع ٣. فلا يبقى باق.

* * *

وإن العُدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٧، لأنه من مضاعفات ٧، ذلك لأنا ضربنا ٣٦٠ في ٧ فكان ٢٥٢٠.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ لأن العدد ينتهي بثلاثة أرقام تؤلف العدد: (٥٢٠) وهو يقبل القسمة على ٨ أي $\frac{٥٢٠}{٨}$ = ٦٥

والدليل على ذلك كما يلي:

٢٥٢٠ = ٥٢٠ + ٢٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × ١٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × مضاعفات ٨

= مضاعفات ٨

∴ ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨.

* * *

وإن العــدد ٢٥٢٠ يقبـل القسـمـة عـلى ٩ لأن قيمتـه المـطلقــة أي ٢ + ٥ + ٢ = ٩، أو (مضاعفات ٩).

برهان ذلك:

الآحاد: = ٠ (تجوزاً)

العشــرات: = ٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (٩ + ١) = ٢ × ٩ + ٢ = مـضــاعفــات ٩ + ٢.

المئات:

= ٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (٩٩ + ١) = ٥ × ٩٩ + ٥ = مضاعفات ٩ + ٥.

آحـــاد الألـــوف = ٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (٩٩٩ + ١)

= ٩٩٩ + ٢ = مضاعفات ٩ + ٢.

∴ العدد

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٢ + ٥ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٩ = مضاعفات ٩ + مضاعفات ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩

فالعدد يقبل القسمة على ٩.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ١٠ لأن رقم آحاده (تجوزاً) = ٠

∴ ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

٢٥٢٠ = مضاعفات ١٠

فثبت أن العدد (٢٥٢٠) يقبل القسمة على كل من الأرقام الطبيعية وعلى ١٠.

* * *

(٢) رجلان: أ، ب. كان لأحدهما: (أ) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣ أقراص، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم. فلم يبقَ شيء. ودفع اليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم.

فقال (أ) لـ (ب): خذ أنت ٣ دراهم وأعطني ٥. فأجابه (ب): لا، أبيتُ إلا العدل ومر الحق، خذ ٤ وأعطني ٤ دراهم. فأجابه (أ) قائلاً: كان لي ٥ أقراص وكان لك ٣. فكيف تأخذ نصف المبلغ. فأجابه (ب): لنتحاكم عند علي عليه السلام.

فجاءا علياً (ع) وعرضا عليه القضية. فخاطب علي (ع) الرجل (ب)، وهو الذي كان معه ثلاثة أقراص قائلاً: إقنع بما منحك صاحبك (أ). وأقبل منه ٣ دراهم. فقال (ب): لا والله، لا رضيت منه إلا بمرِّ الحق، فقال (ع): «ليس لك في مرِّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة». فقال (ب): سبحان الله يا أمير المؤمنين، هو (أي أ) يعرض عليَّ ٣ دراهم فلم أرضَ. وأشرتَ عليَّ بأخذها فلم أرض وتقول لي الآن: لا يجب لي في مر الحق إلا درهم واحد.

إن علياً عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون في حل المسألة وإنما ارتجل ارتجالاً بعلم لا يشبه علم البشر العادي.

وإن الرياضي يحل المسألة المذكورة بعد التفكير ما يلي:

أكل الرجال الثلاثة ٨ أقراص. إذن أكل كل واحد منهم ٣/٨ = ٣/٢ ٢ من الأقراص وبما أن (أ) كان له ٥ أقراص وقد أكل منها ٢٣/٢ إذن بقي من أقراصه:

٥ - ٢٣/٢ = ٢٣/١ وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (أ).

وإن (ب) كان له ٣ أقراص وقد أكل هو ٢٣/٢ (قرصين وثلثي القرص) إذن بقي مما كان عنده: ٣ - ٣/٢ = ٣/١ من القرص وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (ب) فيجب أن تقسم ٨ دراهم بنسبة: ٢٣/١، ٣/١. أي بنسبة ٣/٧، ٣/١. وبما أن المخرجين متحدان، إذن تقسم ٨ دراهم بنسبة الصور (البسوط) أي بنسبة ٧، ١.

∵ مجموع الحصص ٧ + ١ = ٨

فحسب قواعد التقسيم المتناسب

٨ دراهم
ـــــ = ١، درهماً (الحصة الواحدة).
٨ حصص

وبما أن لـ (أ)، أي الرجل الذي كان لديه خمسة أقراص، ٧ حصص

∵ ٧ × ١ = ٧ دراهم، نصيب الرجل (أ)

وبما أن لـ (ب)، حصة واحدة

١ × ١ = ١: درهم واحد وهو نصيب الرجل (ب).

* * *

(٣) جاء إلى علي (ع) رجال ومعهم ١٧ جملاً، فقالوا قسم بيننا هذه الجمال بنسبة، النصف، والثلث، والتسع.

فأجاب عليه السلام: أضيفوا إلى ١٧ واحداً، ثم أعطوا نصف ذلك إلى

(أ) فيكون نصيبه ٩ جمال. وأعطوا ثلث ذلك إلى (ب) فيكون نصيبه ٦ جمال، وأعطوا تسع ذلك إلى (حـ) فيكون نصيبه جملين.

وهكذا قسم علي عليه السلام ١٧ جملاً بين الأشخاص الثلاثة مع حفظ النسبة في ما كان لكل منهم ٩ + ٦ + ٢ = ١٧.

توضيح ذلك:

من المعلوم: أنه لو أريد تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية، يجب أولاً: توحيد المخارج (المقامات)، وذلك بإيجاد المضاعف المشترك البسيط للمخارج، (٢، ٣٥، ٩) وهو ١٨ وان ١٨ يربو على ١٧ بواحد أي:

١٧ (عدد الجمال) + ١ = ١٨ (على سبيل الصدفة)، أي أن هاهنا حالة خاصة كما يعبر عنه الرياضيون. فتكون الكسور الأصلية حسب المخرج المشترك الجديد: (١٨) كما يلي:

حصة أ = $\frac{١}{٢} = \frac{٩ \times ١}{٩ \times ٢} = \frac{٩}{١٨}$

حصة ب = $\frac{١}{٣} = \frac{٦ \times ١}{٦ \times ٣} = \frac{٦}{١٨}$

حصة حـ = $\frac{١}{٩} = \frac{٢ \times ١}{٢ \times ٩} = \frac{٢}{١٨}$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب مع الكسور، يجب تقسيم المقدار: (١٧ جملاً) حسب الصور أو البسوط وهي ٩, ٦, ٢, لأنها مأخوذة من نفس المخرج. (أي من نفس الأساس). ومعنى ذلك أن الحصص التي يستحقها الأشخاص الثلاثة تكون البسوط أو الصور الجديدة، ومجموعها: ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ حصة.

وذلك لأن:

$$\frac{أ}{ب} = \frac{٩}{١٨} \div \frac{٦}{١٨} = \frac{٩}{١٨} \times \frac{١٨}{٦} = \frac{٩}{٦} = \frac{٣}{٢}$$ في النسب الجديدة

و $$\frac{أ}{ب} = \frac{١}{٢} \div \frac{١}{٣} = \frac{١}{٢} \times \frac{٣}{١} = \frac{٣}{٢}$$ في النسب الأصلية

و $$\frac{ب}{جـ} = \frac{٦}{١٨} \div \frac{٢}{١٨} = \frac{٦}{١٨} \times \frac{١٨}{٢} = \frac{٦}{٢} = ٣$$ في النسب الجديدة

وأيضاً $$\frac{ب}{جـ} = \frac{١}{٣} \div \frac{١}{٩} = \frac{١}{٣} \times \frac{٩}{١} = \frac{٩}{٣} = ٣$$ في النسب الأصلية

وهكذا يمكن الاستدلال على أن $\frac{أ}{جـ}$ في النسب الجديدة والأصلية واحدة. فتكون البسوط (الصور) الجديدة متناسبة بنسبة الكسور الأصلية، ١/٢، ١/٣، ١/٩، فلو قسمنا ١٧ جملاً بنسبة البسوط فقد حفظنا النسبة بين ما للأشخاص الثلاثة من جمال:

∴ $\frac{\text{١٧ جملاً}}{\text{١٧ حصة}}$ = ١ الحصة الواحدة.

وبما أن لـ (أ) ٩ حصص: ٩ × ١ = ٩ جمال لـ (أ).
وبما أن لـ (ب) ٦ حصص: ٦ × ١ = ٦ جمال لـ (ب)
ولما أن لـ (حـ) ٢ حصتان: ٢ × ١ = ٢ جملان لـ (حـ).
فالمجموع = ١٧ جملاً.

ويجوز ضرب المقادير المتناسبة ١/٢، ١/٣، ١/٩ في عدد واحد (١٨)

وهو المضاعف المشترك البسيط للمقامات، فان النسبة لا تختل، فيكون الناتج، ٩, ٦, ٢ فيقسم عدد الجمال بنسبة الأعداد الصحيحة وهنا حالة خاصة إذ أن المضاعف يزيد على عدد الجمال بواحد، وان عدد الجمال = مجموع الأعداد المتناسبة.

(٤) جيء إلى علي عليه الصلاة والسلام برجل قد حلف أن يزن الفيل فقال (ع): لِمَ تحلفون على ما لا تطيقون، فقال الرجل: قد ابتليت. فأمر عليه السلام بقرفور (أي سفينة طويلة) فيه قصب. فأخرج منه قصب كثير، ثم علم صبغ الماء، بعدما عرف صبغ الماء قبل اخراج القصب، ثم صير فيها الفيل حتى رجع إلى مقداره الذي كانت انتهى إليه صبغ الماء أولاً. ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج، فلما وزنه، قال هذا وزن الفيل.

توضيح الحل: معلوم في الفيزياء أنه لو غمر جسم في سائل فانه ينقص من وزنه مقدار يعادل وزن سائل بحجم ذلك الجسم المغمور. ذلك لأن الجسم المغمور يكون تحت ضغطين متعامدين من ذلك السائل. أحدهما من الأسفل إلى الأعلى يعادل عموداً من ذلك السائل طوله من سطح السائل إلى نهاية الجسم المغمور، والآخر من الأعلى إلى الأسفل، يعادل عموداً من السائل طوله من سطح السائل إلى سطح الجسم المغمور. فلو طرح الضغط الثاني (قوة الدفع من الأعلى إلى الأسفل) من الضغط الأول (قوة الدفع من الأسفل إلى الأعلى) لحصلنا على مقدار من القوة الدافعة من الأسفل إلى الأعلى يعادل مقداراً من السائل بحجم الجسم المغمور.

فلو فرضنا وزن الجسم المغمور = و، ووزن السائل الذي بحجمه = وَ. لظهر ها هنا حالات ثلاث:

(١) و > وَ أي يكون وزن الجسم أكبر من وزن سائل بحجمه. أي و - وَ > ٠ فينزل الجسم إلى قعر السائل ويستقر في القعر.

(٢) و = وَ أي يكون وزن الجسم مساوياً لوزن سائل بحجمه فالجسم ينغمر في السائل ويكون سابحاً في وسطه ولا يستقر في القعر.

(٣) و < وَ أي أن و - وَ < ٠ . أي أن وزن الجسم يكون أقل من

وزن سائل بحجمه عند ذاك يطفو الجسم على السائل (أو الماء) ولا ينغمر كله في السائل بل يزيح هذا الجسم من ذلك السائل مقداراً يعادل وزنه. أي أن مقدار الماء المزاح (أو السائل) يعادل وزن الجسم الطافي.

إذن، أن السفينة التي وردت في السؤال (٤) تزيح من الماء بقدر وزنها (بما فيها من القصب). وقد وضعوا علامة على صفحة السفينة حيث بلغ الماء (وهذا ما يسمى بصبغ الماء).

لنفرض أن وزن السفينة في الابتداء = و، فوزن الماء المزاح = و، أيضاً ولنفرض أنا قد أخرجنا منها أولاً مقداراً من القصب = وَ.

فقد أصبح الوزن الجديد للسفينة:

و - وَ

ووزن الماء المزاح حديثاً = و - وَ أيضاً.

فإذن نزلت السفينة في هذه المرة في الماء أقل من المرة الأولى ثم نضع الفيل في السفينة فتثقل السفينة وتنزل مقداراً في الماء ونفرض أن وزن الفيل = س إذن يكون وزن السفينة و - وَ + س.

ثم نضع مقداراً من القصب في السفينة حتى تنزل في الماء إلى العلامة الأولى ونرمز عن هذا المقدار من القصب بحرف: ب، فيكون وزن السفينة و - وَ + س + ب.

وبما أنه قد نزلت السفينة إلى حد العلامة الأولى فوزنها يساوي وزنها الأصلي = و.

∴ و - وَ + س + ب = و.

وبعد حذف (و) من طرفي المعادلة، ونقل وَ إلى الطرف الآخر

وَ = س + ب

أو س = وَ - ب

أي أن وزن الفيل (س) يساوي وزن ما أخرج من القصب أولاً ناقصاً منه ما وُضع في السفينة من القصب ثانياً.

ويظهر مما ورد في السؤال أنهم لم يخرجوا ابتداء كثيراً من القصب، بل بعد أن أخرجوا قليلاً من القصب، وضعوا الفيل في السفينة فثقلت السفينة ونزلت أكثر مما نزلت ابتداءً ثم أخرجوا مقداراً آخر من القصب حتى ترتفع وتصل إلى العلامة الأولى ـ عند ذاك وزنوا القصب فكان وزنه يعادل وزن الفيل.

ولو فرضنا ما أخرج من القصب أولاً وثانياً = وَ.

ووزن الفيل = س.

∴ و − وَ + س = و

أو وَ = س وهو المطلوب.

(٥) وقال علي عليه السلام في رجل مقيد حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيده: أن توضع رجله في أجانة فيها ماء حتى إذا عرف مقداره (أي مقدار ارتفاع الماء) مع وضع رجله فيه، يرفع القيد إلى ركبته، ثم يعرف مقدار صبغه (أي مقدار ارتفاع الماء). ثم أمر عليه السلام: فألقي في الماء الأوزان حتى ارتفع الماء إلى ذلك الصبغ (الحد) الذي كان سابقاً والقيد في الماء. فنظر: كم وزن الذي ألقي في الماء من الأوزان. فلما وزنه قال: هذا وزن قيدك.

توضيح الحل: معلوم أن القيد كان يزيح من الماء بقدر حجمه. فعند وضع رجله مع القيد في الماء ارتفع الماء. فوضع علامة إلى حيث ارتفع. وعند رفع القيد نزل الماء قليلاً. ثم ألقي في الماء من الأوزان التي وزنها النوعي (أو الكثافة) عين الوزن النوعي[1] للقيد، حتى ارتفع الماء إلى حيث كان أولاً. ذلك لأن حجم هذه الأوزان كان بحجم القيد وكثافتها عين كثافة المعدن الذي كان قد صنع منه القيد. وطبيعي أن الماء يرتفع إذ ذاك إلى نفس العلامة لاتحاد الحجم.

(١) يراد بالكثافة وزن وحدة الحجم من معدن ما. أي وزن سانتيمتر مكعب من ذلك المعدن مثلاً. ولو فرض وزن مقدار من معدن ما = و. ووزن ماء بحجم ذلك المعدن = وَ. فالوزن النوعي لذلك المعدن = و ÷ وَ. وهو عدد مجرد. ويرينا أن ذلك المعدن كم مرة أثقل من الماء مثلاً.

فاذا عين مقدار الأوزان الملقاة في الماء كان وزن القيد.

* * *

(٦) وسأل ابن الكوَّا علياً (ع): «كم بين السماء والأرض؟».
فأجاب عليه السلام قائلاً: دعوة مستجابة.
توضيح ذلك:

أن في الفلسفة القديمة بحثاً يقول بتناهي الأبعاد. ويستدل على ذلك ببرهان يدعى برهان السلَّم. وذلك أنا لو أخذنا نقطة مثل (م) على الأرض ومددنا منها خطين مستقيمين تتشكل زاوية بينهما. ثم إن وصلنا بين نقطتين: أ، ب. مأخوذتين على ذينك المستقيمين (ضلعي الزاوية) بمستقيم، فان المستقيم أ ب يبقى محصوراً بين المستقيمين م أ، م ب. ومهما مددنا المستقيمين م أ، م ب. فإن المستقيم أ ب يبقى محصوراً أيضاً بين ضلعي الزاوية. إذن: الأبعاد تتناهى والفضاء محدود!!.

إن هذا البرهان أوهن من بيت العنكبوت. إذ لا يمكن أن يقاس ما يقع في عوالم اللانهاية بما يقع في مسافات محدودة. لو مددنا الضلعين م أ، م ب إلى ما لا نهاية له لا نعلم ماذا سيحدث بالمستقيم أ ب ومن درس حسابات اللانهاية يعلم صدق هذا المقال، مثال ذلك:

نفرض أن حـ 〉 ب، أي (حـ) أعظم من (ب).
أي حـ لا تساوي ب، حـ ∓ ب
لنضرب طرفي هذه المتباينة في ∞ ، نرى أن:

(١) . . . حـ × ∞ = ب × ∞ (لأن ∞ = ∞).
وبعد تقسيم طرفي المعادلة (أ) على ∞ يخيل الينا أن:
حـ = ب.
وليس كذلك.
فلا تبقى المتباينة على ما كانت عليه. وذلك لعدم إمكان تفسيرنا

التقسيم على ∞ في الكميات المحدودة، حين أنه في الكميات المحدودة تبقى المتباينة على ما كانت عليه.

مثال ذلك: ١٠ > ٧

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ٥

٥ × ١٠ > ٥ × ٧

أي ٥٠ >٤١٠ ٣٥

فيعلم من هنا أن النتائج التي تترتب على الكميات المحدودة لا تترتب على الكميات غير المحدودة.

مثال آخر:

٢٠ > ١٥

لنقسم طرفي هذه المتباينة على ∞ (اللانهاية).

$$\frac{٢٠}{\infty} = \frac{١٥}{\infty}$$

لأن $\frac{٢٠}{\infty} = ٠$

و $\frac{١٥}{\infty} = ٠$

∴ ٠ = ٠، فيجب إذن أن يكون ٢٠ = ١٥ وليس كذلك.

مثال آخر:

من المعلوم في الهندسة التحليلية إن مقدار الانحناء لمنحن ما هو (ر نصف قطر الانحناء). فمثلاً لو كان نصف قطرة دائرة ٢ سم، فان مقدار الانحناء = ١/٢ ولو كان نصف القطر ١٠٠ سم، فان مقدار الانحناء = أي أقل من الحالةالأولى بمقدار كثير.

فلو فرض ر = ∞

فيكون مقدار الانحناء: $\frac{١}{ر} = \frac{١}{\infty} = ٠$

عند ذاك لا يوجد انحناء. أي لو فرض مثلاً نصف قطر الكرة مقداراً غير محدود، فان سطح الكرة يكون سطحاً مستوياً، فلا كروية ولا انحناء (استدارة).

ومعلوم في الهندسة التحليلية أن خطين مستقيمين:

$١ س + ب ع + حـ = ٠$

$اَ س + بَ ع + حَـ = ٠$

فالمستقيمان يلتقيان لو كان $\frac{أ}{أَ} \pm \frac{ب}{بَ} \mp \frac{جـ}{جَـ}$ (يراد: ب∓عدم التساوي

مع العلم أن أ، أَ، ب، بَ، حـ ، حَـ مقادير غير مبهمة.

وإن المستقيمين المذكورين يتوازيان، لو كان:

$\frac{أ}{أَ} = \frac{ب}{بَ}$ فقط.

وإن المستقيمين المذكورين ينطبقان أي أنهما مستقيم واحد لو كان:

$$\frac{أ}{أَ} = \frac{ب}{بَ} = \frac{جـ}{حَـ}$$

هذا إذا كانت المعاملات (Coefficients) والمقداران المعلومان مقادير محدودة غير مبهمة. ولكن، لو كانت، أ، أَ... الخ مقادير مبهمة فيها العامل ٧ – ١ : وهو (المقدار المبهم) نرى أن الحالة تختلف وتعطي حالات غريبة جداً لا توافق ما رأيناه في الكميات المحدودة.

وهكذا هو حال المادي حين ما يقيس ما يتعلق بما وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية.

انه يظن الروح ويظن الخالق جل جلاله من نوع المادة، فلما لم يَرَه في مجهره أو ميكروسكوبه أو مكبرته أنكر ذلك. حين أنه لا يزال لا يعلم

لماذا يرى وكيف يرى. فإذا سُئل اجاب بجواب سوفسطائي قائلاً: ان الرؤية هي ردّ فعل أو عمل انعكاسي للمادة أو العين عندما تتأثر بالأشعة الواردة عليها من جسم ما! وأما الرؤية الحقيقية أو الاحساس والشعور فلا جواب له عليه. وقد يجيب بنفس الجواب السوفسطائي قائلاً أنه ردٌ فعل أيضاً! يقف عقل هذا المادي، المحجوب عن رؤية الحق لظلمات في نفسه وذنوب لا تحصى قد رانت على قلبه، عند هذا الحد. فلا يتجاوزه. فلا يسأل نفسه عن معنى رد الفعل أو العمل الانعكاسي وحقيقته وكيف يحدث وما علاقة رد الفعل بالرؤية والعقل والنفس. وهل حقيقة الرؤية والتحسس أمر مادي بحت. أو المادة عامل مساعد للتحسس كآلة الراديو.

فلولا الأمواج الهرتزية والقوة الكهربائية لما سمعنا شيئاً من هذه الآلات، وان بعد التشبيه.

وما قيمة الحواس تجاه العقل أوَ ليس العقل هو المصحح لأخطاء الحواس الخمس. هل القمر بهذا الكِبر. وكم تخطى الشامّة والباصرة!!. فيصححها العقل بتجاربه واختباراته ومحاكماته، استقرائه واستنتاجه. ما هذا الاستقراء ومن هو الذي ركز في الانسان قوة الاستنتاج. وقد حرم منه القرد. مع ما في تنظيمات أعضائه من دقة متناهية.

إن المادي مادي بذنوبه وآثامه وهو عندما يرى أن الوقت يستلزم التكلم بأسلوب علمي يتطفل على العلم ويعزو هذيانه وتخيلاته الباطلة إلى العلم والعلم من كل ذلك براء. ثم تزداد طفولته غباوة عندما يسمي هذره وهذيه فلسفة!.

نستنتج مما سبق أنه ليس في استطاعتنا تحديد العالم والقول بأنه متناه. نحن نتصور غير المتناهي ولكن ليس لنا أن نحيط به. فلا يعلم مدى ما خلق الله من أبعاد وأجواء. وان الله تعالى لا يخلو منه مكان. وهو القائل: ﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا

---

(١) سورة ق. الآية: ١٥.

خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾[1].

يقول علي (ع): «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»[2].

هذا: (لاكرانز) الذي يعرِّفه (نابليون بونابرت) بقوله: هو الهرم الشامخ للعلوم الرياضية يقول: «لا أعرف» معترفاً بالجهل...

وقد حاول (آينشتاين) أن يعين وزن جميع ما في الكون من كرات وسيارات وكواكب وأجرام مادية. ولكنه عدل، عندما شاهد أن هناك كرات جديدة تتشكل، لا يعلم مداها إلا الله. وقد قال (آينشتاين) بنظريات أخرى ثم عدل عنها، ليس هنا محل ذكرها. وكم من العلماء قالوا بأشياء وعدلوا عنها معترفين بجهلهم.

فظهر مما سبق أنه لا يمكن أن يجاب على سؤال ابن الكوَّا إلا بما قاله علي عليه السلام: «دعوة مستجابة».

ذلك لأن هذه الدعوة تسير في هذه المسافات التي لا تتناهى والتي لا يخلو منها ربُّنا تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة﴾.

ومعلوم أن سرعة الضوء في الثانية = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر وأن الروح أسرع من الضوء ولا يعلم درجة سرعته إلا الله تعالى. لا سيما أرواح الملائكة وروح جبرائيل عليه السلام. فإذا كانت الملائكة تصعد أو تعرج إليه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، فكم تكون هذه الأبعاد؟ ذلك لأن خمسين ألف سنة = ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠٠ ١٥٥٥ ثانية أو = ١٥٥٥٢ × ١٠^٨ ثانية. فلو تصورنا أن الضوء سار في هذه المدة مع قلة سرعته بالنسبة إلى سرعة الملائكة، فأنه يقطع:

---

(١) سورة المجادلة. الآية: ٨.

(٢) المزايلة: المفارقة والمباينة.

$٣٠٠٠٠٠ \times ١٥٥٥٢ \times ١٠^{٨} = ٤٦٦٥٦٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠ =$
٤٦٦٥٦×١٠^{١٣} كم.

فكيف بالملائكة؟... إذن ليس لأحد أن يحدَّ ما خلق الله من أجواء وأبعاد وفضاء. وان قول علي (ع): «دعوة مستجابة» دليل على عدم إمكان تعريف المسافة بين السماء والأرض بشكل يفهمه السائل. ذلك لأن كوكبنا الأرضي ليس إلا كحبة رمل صغيرة بالنسبة إلى المجموعة التي تشمل الشمس والكواكب والأقمار وهذه المجموعة لا تعدُّ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الفراغ الهائل الخارج عن نطاقها وفيه تتناثر ملايين النجوم. وليست النجوم إلا كتلاً متأججة من النيران المتلاطمة. ولكننا لا نحس حرارتها التي قد تكون أشد كثيراً من حرارة الشمس نظراً لبعد النجوم الشاسع الذي يعجز عن تصوره العقل البشري. ولو أن أسرع طائراتنا وهي الطائرة النفاثة سارت بغير توقف قاصدة أقرب هذه النجوم لما بلغتها إلا بعد ستة ملايين من السنين.

ويقول (آينشتاين): «لقد وجدت بعد التجربة الطويلة أن أرضنا بتاريخها في عمرها الجئولوجي(Geologique) وعمر انسانيها المديد أقرب شيء من ذرة رمل من رمال (ريورا) الكثيفة».

وقد سئل علي عليه السلام عن المسافة ما بين المشرق والمغرب. فقال عليه السلام: مسيرة يوم للشمس.

وقد ثبت أخيراً أن الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل لولبي بسرعة ٢٠ كم/ ثانية متجهة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع.

وقد سئل عليه السلام: ما اخوان ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد وعمر أحدهما مائة وخمسون سنة وعمر الآخر خمسون سنة؟ فقال (ع): هو عزيز وعزير. لأن عزيراً أماته الله مائة عام ثم بعثه.

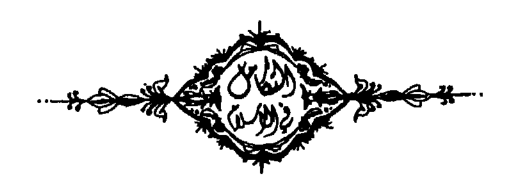
وقد قال لي أحد المتتبعين أنه سئل علي (ع) عن مقدار قطر الشمس. فأجاب مرتجلاً: تسعمائة في تسعمائة ميل. ومعلوم أن الميل في صدر الاسلام كان يساوي أربعة آلاف ذراع بذراع اليد الذي هو من المرفق إلى

رؤوس الأصابع. فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات(Inch) فحولنا (٤٠٠٠) ذراع إلى اينجات فياردات فأميال لوجدنا أن ما أخبر به علي عليه السلام: ٩٠٠ × ٩٠٠ = ٨١٠٠٠٠ ميل وأعني: (الميل الذي كان معروفاً في صدر الاسلام) تساوي ما عليه اليوم علماء الفلك من أن قطر الشمس = ٨٦٥٣٨٠ ميلاً وأعني: الميل الذي = ١٧٦٠ ياردا.

حقاً، ان الانسان ليزداد تحيراً عندما يرى: كيف أن تزكية النفوس تؤدي إلى علم لدني منبعه نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وصالحي عباده: وقد حقق الله ذلك حين استجاب دعاء إبراهيم (ع): ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم﴾. (سورة البقرة: ١٢٣).

وبالختام نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى تكميل نفوسنا وتزكيتها باتباع القرآن والعترة الطاهرة (ع). فلا تكاملَ إلا بالتمسك بهما ولا نجاة إلا باتباعهما والعمل بما أمرا به والانتهاء عما نهيا عنه.

«إنتهى الجزء الثاني وسيليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى».



فهرس الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة



التكامل في الإسلام



التكامل في الإسلام

من أراد أن يقلع ما في نفسه من شكوك وأن يعلم
أن الدين الإسلامي يطابق آخر ما توصل إليه
العلم الحديث فليطالع هذا الكتاب

بقلم
أحمد أمين
خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيّات العامّة والفيزياء الرياضيّة العالية

الجزء الثالث

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين[1]، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين. والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم مستفاد. المقدر لجميع الأمور بلا رؤية ولا ضمير، الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار ولا يرهقه[2] ليل ولا يجري عليه نهار. ليس إدراكه بالإبصار، ولا علمه بالاخبار.

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) يرهقه: يغشاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى أن منَّ عليَّ بتقديم الجزء الثالث من هـذا الكتاب: (التكامل في الاسلام)، وعلى هذا الإقبال الذي ألفيته من القراء الكرام والتشجيع الذي لمسته منهم مع مزيد الاعتزاز بهم وبتأييدهم.

وقد قرظ الكتاب، نظماً ونثراً، لفيف من المؤمنين الأفاضل الذين كنت عند حسن ظنهم، فإني إذ أقدم جزيل شكري لهم، أعتذر عن تدوين ما تفضلوا عليَّ بما لا أستحقه، دفعاً لتزكية النفس واعترافاً بالواقع وما أنا فيه من قصور وتقصير.

ان الله تبارك وتعالى قد أودع في هذا الانسان غريزة بها يتوجه العبد بصورة فطرية إلى ربه، متفكراً في ملكوت السماوات والأرض، فيعزو بصورة طبيعية هذا النظام الرائع: النظام الكوني الدقيق إلى الله العلي القدير. وهو القائل: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقي الخير والشر. وفي آية أخرى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً[1]، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2] ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾[3]. وفي الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض».

إلا أن الانسان يلوث نفسه بنفسه، فيخمد بيده هذه الغريزة الثمينة، غريزة التوجه إلى الخالق المتعال، وتقديسه وتعظيمه، حتى تتحجر النفس

---

(١) حنيفاً: أي مائلاً عن العقائد الزائفة.

(٢) سورة التوبة: ٣٧.

(٣) سبحانك: أي تنزيهاً لك، سبح الله أي نزهه وقدسه. آل عمران: ١٩١.

من جراء شتى المعاصي والآثام، فتسود وتحجب عن رؤية الحق[1] والواقع، فتتوارد عليه شكوك وأفكار مادية حالكة، واتجاهات سلبية، فيتراءى له: أنه قد بلغ شأواً قاصياً من الثقافة، وأنه كان خرافياً، فأمسى متحرراً عما يشين العقل البشري أو يعوقه عن سيره التقدمي، فيعد نفسه تقدمياً وغيره رجعياً.

لقد أجمع علماء النفس أن التدين أمر فطري عند البشر، وان المفاهيم البشرية كالمادية وغيرها من نزعات، قد تعيش برهة من الزمن نتيجة لطغيان هذه النفس الطائشة الأمارة بالسوء، إلا أنها سرعان ما تموت وترجع الفطرة إلى فعاليتها الطبيعية وتدين بما وراء الطبيعة بدرجة تكاملها وقطعها مراحل في عوالم تطهير النفس وتزكيتها. فانه تعالى يقول: ﴿ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾[2]. فلا بد من تقوى .واجتناب للمحرمات حتى يعتبر الانسان بما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب!.

فالظلم والاعتداء هما اللذان يحجبان الفرد عن رؤية الحق وهو غافل عما ينتهي إليه من جراء بغيه وطيشه على حد قوله تعالى: ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾[3]. وفي آية أخرى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾[4].

فلا ينبغي أن يقنط المؤمن إذا ما رأى أمواجاً وقتية تناهض الدين وتقاومه، فانها أمواج ترشحت من نفوس معدودة استولى عليها شيطانها نتيجة لآثامها، فضغطت على حريات غيرها من نفوس كثيرة جداً لا توافقها في الرأي وهي تؤمن في أعماق نفوسها بخالق أزلي أبدي، منظم هذا الكون أبدع تنظيم.

---

(١) عن النبي (ص): «شر العمى عمى القلوب».
(٢) سورة يونس: ٦
(٣) سورة يونس: ٧٤
(٤) سورة العنكبوت: ٤٩

وقد أملى بعض هذه النفوس على الآخرين أفكاراً لا توافق الواقع في شيء منها: أن هناك تنافياً بين الدين ومعطيات العلم الحديث التي تسندها التجارب، وتحددها المعادلات، فلا ينبغي الالتفات إلى ما يملي علينا الدين!.

إن صح هذا بالنسبة إلى بعض الأديان السماوية التي مستها اليد البشرية المحرفة. فلا يصح بالنسبة إلى الدين الاسلامي، لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾.

ففي هذا الجزء يجد القاريء آيات كثيرة مما جاء في كتاب «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» سبقت العلم الحديث في إعطائها عصارة ما توصل اليه العلم المادي، حيث لا تلسكوب ولا ميكرسكوب: (مرقب ومجهر).

فلا تكاد تجد في الاسلام ما كان في عوالم الكنيسة في القرون الوسطى. فقد سلمت الكنيسة (جوردانو برونو) إلى غرفة التعذيب وأذيق أمر أنواع العذاب ثم أوثق إلى قاعدة خشبية وأحرق حياً عام ١٦١٠ م لتصريحاته العلمية.

ونشر (مجمع الكرادلة المقدس) قرار الجرم لمن يقول بدوران الأرض واعتبار القائل كافراً زنديقاً.

وإن غاليليو[1] قد وعد الكاردينال بالطاعة المطلقة، مسلماً بأن ما قاله عن دوران الأرض باطل، كما أقسم بالأناجيل المقدسة سنة ١٦٣٣ م: أن الأرض لا تدور حول الشمس!.

قد جعل الاسلام (المنطق) حاكماً عند عرض تعاليمه من واجبات

---

(١) هو ابن أحد نبلاء (فلورنسا) وأحد رواد العلم العظماء. وهو الذي وفق إلى اعداد مرقب الرصد الذي أرانا به عوالم السماوات، وقد كان يسر في تطبيق التحليل الرياضي على المعضلات الطبيعية، وهو في عمله على نواميس الحركة قد عبد الطريق لـ (نيوتن).

ومستحبات ومحرمات ومكروهات ومباحات بقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها﴾. وبقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾، ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾، ﴿لعلهم يتفكرون﴾. وبقوله: ﴿إنه فكر وقدَّر، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾.

دين الاسلام يخاطب العقول، تلك العقول التي لم تحجب عن رؤية الحق والواقع بالآثام والفسوق، أنه يدعو إلى المنطق الصحيح ولا يفرض شيئاً دون أن يرافقه برهان ودليل وذلك بقوله: ﴿ولقد ذرأنا[1] لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[2].

فما من فرد إلا وأودع الله فيه عقلاً يعرف به أصول المعارف الإلهية، ﴿العقل ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان﴾، لكن الانسان لسوء اختياره وفسوقه وفجوره يسدل ستاراً على ذلك العقل الفطري. فيكون إذ ذاك كمن لا عقل له، فلا يعمل بالنصوص الدينية، فيكون كمن لا دين له، فيكون مصداق هذا الحديث: «لا دين لمن لا عقل له» على حد قوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[3]. فالعقل نبيٌّ باطني لمن لم تبلغه الرسالة. فيحاسب حسبما يملي عليه عقله الفطري غير الملوث بالذنوب والآثام. فمن كان في (آلاسكا) مثلاً ولم تبلغه الرسالة، محاسب يوم القيامة وفق ما أودع الله في عقله من معارف أولية. فان ظهور آثار الدين في المرء إنما هو ظهور آثار العقل فيه.

إذن، فلا يعتبر بآيات الله إلا من صلح عمله وطابت سريرته وطهرت إلى حد ما نفسه. إن نفساً كهذه تنجذب إلى آيات الله وإلى ما وراء الطبيعة

---

(١) ذرأنا: خلقنا.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٨

(٣) سورة المائدة: ٦١.

بصورة فطرية، وتزداد فرحاً وسروراً عند قراءة ما يؤيد عظمة الله تعالى في هذا العالم الواسع الأرجاء: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا[1] سجداً وسبحوا[2] بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى[3] جنوبهم عن المضاجع[4] يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾[5].

فلا تكفي لتكامل هذه النفس العبادة والتهجد فحسب ما لم ينفق الفرد مما رزقه الله تعالى.

فالاسلام دين يحقق للناس سعادة الدارين وفي الوقت الذي يأمر بالتسبيح والعبادة يأمر في الوقت نفسه بأن يعطي الغني من فضول ماله لتزكو نفسه، ولئلا يبقى على وجه البسيطة فقير.

فقد قال الصادق سلام الله عليه: «إن الله فرض في أموال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزدهم».

وفي البحار عن الصادق (ع): «المال مال الله جعله وديعة عند خلقه، وأمرهم أن يأكلوا منه قصداً[6]، ويلبسوا منه قصداً، وينكحوا منه قصداً، ويركبوا منه قصداً، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المسلمين. فمن تعدى ذلك كان أكله حراماً، وما لبس منه حراماً، وما نكح منه حراماً، وما ركب منه حراماً، يتقلب في حرام. وبئس العبد عبد يعيش فيما حرم الله عليه، يصبح ويمسي والرب ساخط عليه. هذا حاله في الدنيا. وأما آخرته: يخرج من قبره ويكون من الذين يأتيهم النداء من الله: ﴿أذهبتم طيباتكم في

---

(١) خروا: سقطوا

(٢) سبحوا: أي نزهوا ربهم عن النقص حامدين له نعمه.

(٣) تتجافى جنوبهم: ترتفع وتتنحى.

(٤) المضاجع: الفرش ومواضع الاضطجاع

(٥) سورة السجدة: ١٦

(٦) قصداً: في حدود الاعتدال، قصد يقصد قصداً: أي استقام واعتدل. ومنه الاقتصاد أي الاعتدال والتوسط.

حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾.

إنه تعالى يقول: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم إتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ان الله يحب المحسنين﴾[١].

ويقول الصادق (ع) أيضاً: «ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنى بما فرضه الله له، وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء».

فلو كان المسلمون مؤمنين حقاً مطبقين أحكام الاسلام دونما تبعيض وتفريق لما رأيت من يشكو الفقر والمرض والجهل. ولرأيت الأرض جنة عدن. ذلك لأن الاسلام لم يدع أمراً فيه حياة الناس وسعادتهم إلا وقد أمر به، ولم يدع أمراً فيه هلاك الناس وانحطاطهم وتسافلهم إلا وقد نهى عنه.

فدين الاسلام دين الكمال الانساني. وما جاء فيه من دساتير أخلاقية وعبادية وقضائية وإدارية واقتصادية واجتماعية كلها ترمي إلى تكميل النفس الانسانية وابلاغها أسمى مراتب الكمال.

فما علينا الآن إلا أن نقوم بتطبيق قواعد الاسلام وتعاليمه الرفيعة على أنفسنا أولاً ثم نعمل مجاهدين مخلصين لأجل نشر هذه التعاليم في أرجاء الأرض وإفهام الناس حقائق الاسلام: دين الفطرة، بأساليب عصرية لا تخالف روح الاسلام ودساتيره المشروعة في شيء.

فالله تعالى يقول: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن، فلا كفر ان لسعيه وإنا له لكاتبون﴾[٢].

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾[٣].

(١) سورة المائدة: ٩٦.
(٢) سورة الأنبياء: ٩٤.
(٣) سورة النساء: ٩٩

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾[٣].

وقد قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين وفريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم أمر الناس».



(١) سورة البقرة: ٢١٨

العلم والايمان

قال علي (ع): «بالعلم يُعرف الله ويوحد». فالعلم خير وسيلة لمعرفة الخالق جل جلاله والتعرف على ما أودع الله تعالى من دقائق الصنع وخواص مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لايجاد عوالم من الجماد والنبات والحيوان ولتسيير هذه الأفلاك بهذا النظام الرائع البديع. نظام يجعل عيني الفلكي الذي لم يقس قلبه بالموبقات، تفيضان بالدموع خشوعاً وتقديساً لله تعالى لما يرى هنالك من دقيق المعادلات وبديع القوانين. نظام يجعل (هانري بركسون: Henri Bergson) مؤمناً بوحدانية الله تعالى معظماً إياه حين يتتبع نظام الذرة وما فيها من معادلات وقوانين تبهر العقول. هذه الذرة التي قد بلغت من الصغر بحيث لو وضعت (١٠٠٠٠٠٠٠) منها، على شرط الكروية، بعضها جنب بعض لكان طولها مليمتراً واحداً. نظام يجعل الطبيب الذي لم يلوث باطنه بسكر أو فسق يركع أمام عظمته تعالى حين يرى أنه تعالى قد رتب في المخ البشري (٢٠٠٠٠٠٠٠) عصب موضوعة بعضها جنب بعض بحساب دقيق بحيث لو جُس أحد هذه الأعصاب لحدثت عوارض تخص هذا العصب المجسوس دون غيره.

نظام يخشع تجاهه العالم بالميكانيك السماوي والفيزياء، حين يرى: كيف رتب الله تعالى الأبعاد بين الأجرام السماوية ومنها بُعد أرضنا عن الشمس وبعد القمر عن الأرض وهو القائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[1].

فلو كان بعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن[2] ولقلت سرعة حركة الأرض

(١) سورة الواقعة: ٧٥, ٧٦

(٢) حسب قانون فيزياوي: شدة الحرارة على سطح ما تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة عن مصدر الحرارة.

حول مدارها إلى النصف[1] ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولا نجمد نتيجة لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة حول المدار ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع، الصيف، الخريف الشتاء) إلى النصف[2]، ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة وذلك لقربها من الشمس.

ولولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازي (جوي) ثخنه (٨٠٠) كم لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية (٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠) حجارة في كل ثانية، بسرعة ٥٠ كم/ثانية[3] لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة. على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والانسان. وكذلك في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات. فلولا هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات إلى أرض قاحلة.

ولو كانت الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الأن، لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما

---

(١) ذلك لأنه يتناسب محيط الدائرة تناسباً طردياً مع نصف القطر: م = ٢ نق ط.
وإن حاصل ضرب السرعة الزاوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا × نق = ث.

(٢) إن كان بالامكان حصول تغيير فصلي إذ ذاك.

(٣) أي تقطع هذه الأحجار السماوية مسافة قدرها خمسون كيلومتراً في الثانية، أي أن سرعتها في الساعة (١٨٠ ٠٠٠) كيلومتر.
وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

استقر الماء على سطحها. لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم[١]. ولارتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن، لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن[٢] وكانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلوغرام واحد على كل سانتيمتر مربع إلى كيلوغرامين ولأشكلت الحياة على وجه الأرض.

ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس لأمست قوة الجذب عليها (١٥٠) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتون) ولنقص ارتفاع الجو حوالي (١٠) كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سانتيمتر مربع من السطح أي على (١ سم^{٢}) = ١٥٠ كيلوغراماً. أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلوغراماً واحداً = ١٥٠ كيلوغراماً، ولكان طول الانسان بطول السنجاب (في الوقت الحاضر) ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات.

وهكذا نرى أن الله تعالى قد جعل أرضنا هذه من حيث الكبر والبعد عن الشمس والقمر وسائر الأنجم ومن حيث الكتلة وقوة الجذب بدرجة تتيسر معها الحياة على سطحها، فان زلَّ أحد هذه الأشياء أو غيرها مما نعلمه أو لا نعلمه لاستحالت الحياة عليها.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، انه كان حليماً غفوراً﴾[٣].

* * *

---

(١) قوة الجذب: ق = ي × $\frac{\text{ك كَ}}{\text{م}^{٢}}$، ولا بد من ملاحظة نصف القطر.

(٢) ان سطح الكرة يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر: سطح الكرة = ٤ ط نق ٢.

(٣) سورة فاطر: ٤١، إن أمسكهما: أي: ما امسكهما.

البروتين(Protéine) جزء هام من مادة البروتوبلازم(Protoplasme) [1]، وهي المادة التي منها تتكون جميع الخلايا وكل الأحياء. فالبروتين هو المادة الابتدائية الأولى التي تشكل، مع الجزء الأصلي، الخلايا الحية. وهذه مؤلفة من عناصر خمسة: الكاربون والايدروجين والنيتروجين والأوكسيجين والكبريت. وعلم أنه يوجد في الجزيء[2] الثقيل منها: ٤٠٠٠٠ ذرة (Atome).

فإن ادعى مدعٍ أن في الطبيعة ٩٨ عنصراً قد وزعت أو وجدت دونما نظام وترتيب، بل وجدت ورتبت بالصدفة، فللعلوم الرياضية أن تحقق إمكان حدوث هذه الصدفة! وأن تحسب مرتبة الاحتمال أو درجة الصدفة التي يمكن أن تحدث لإمكان انضمام عناصر خمسة (الكاربون والايدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت)[3] لايجاد ذرات المادة الأولى: البروتين (Protéine) وان تحسب مقدار المادة التي يجب أن تكون موجودة قبلاً وفي حالة خلط ومزج دائم، وأن تحسب المدة التي يجب أن تنقضي لحصول هذا التركيب أي لاجتماع هذه العناصر الخمسة.

فالعالم السويسري: (شارل أوزن كوي) تمكن من حساب مرتبة الاحتمال لحدوث ما في البروتين(Protéine) من تركيب.

فقال: أن مرتبة الاحتمال لحدوث هذا التركيب للعناصر الخمسة فقط هي: $\frac{١}{١٠^{١٦٠}}$ أي في كل ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ حادثة تركيب يحتمل أن يحصل تركيب يشبه تركيب المادة الأولى: البروتين.

وإذا قلنا أنه يوجد في الكون مثل هذا التركيب وأعقد منه تراكيب لا تتناهى، وذلك لحصول هذا النظام البديع في عوالم الجماد والنبات

(١) كان يعرف: البروتوبلازم: انه المادة الزلالية الحية التي تتكون منها خلية الأجسام النباتية والحيوانية فهو مصدر كل حياة.

(٢) Molécule

(٣) على أن للانسان أن يسأل: كيف وجدت هذه العناصر الخمسة ابتداءاً وما هو الأساس وهل للمادة العمياء أن ترتب وتنظم وتنظر إلى المستقبل؟.

والحيوان، لأصبحت إذن مرتبة الاحتمال $\frac{1}{\infty}$ (أي: واحداً منسوباً إلى اللانهاية) ومآل ذلك: الصفر. إذن فلا صدفة وانتفى كل احتمال.

* * *

وقد حسب أيضاً العالم السويسري (شارل) أن المقادير اللازمة من المواد المذكورة التي يجب أن تقع بالصدفة بعضها جنب بعض لتشكيل (البروتين)، وذلك بعد تبدلات وتحولات كثيرة جداً، هي ملايين مرة أكثر من جميع ما في هذا الكون المادي من مواد.

كما علم أنه لا بد وأن ينقضي $١٠^{٢٤٣}$ [عشرة مرفوعة إلى قوة ٢٤٣، أو ١٠ متبوعة بـ٢٤٣ صفراً] من السنين لحدوث ترتيب البروتين المؤلف من عناصر خمسة فقط، فكيف بالمدة اللازمة لحدوث عناصر أخرى، لا تعد ولا تحصى.

إن البروتينات مكونة من مواد متسلسلة تسمى بالحوامض الأمينية Amino acides ويحار الانسان إذا ما رام أن يستقصي هذه المواد المتسلسلة وكيف ترتبت وتسلسلت ذرات هذه المواد. فان الذرات، لو كانت قد اتصلت وانضمت بعضها ببعض بصورة خاطئة لشكلت مواد سامة مهلكة.

وقد حسب البروفسور (ج. ب. ليز) أنه: تتشكل سلسلة بروتين بسيط بـ($١٠^{٤٨}$) شكلاً مختلفاً. ويقول أنه لا يمكن أن ينتظم جزيء من البروتين الحالي بالصدفة مع ضآلة هذا الاحتمال.

على أن البروتين(Protéine) مادة كيمياوية فاقدة الحياة. وان الحياة أو الحيوية أمر هام خطير جداً تأتيها من الخارج وان الله تعالى هو الذي نفخ فيها الروح وجعلها حية بعد أن كانت مادة ميتة لا حياة فيها ولا حيوية، لا سيما مع تلك الدرجات العالية من الحرارة حين تشكل الأرض، عندما كانت سديما[١]، على ما ثبت في علم طبقات الأرض: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان. فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين﴾[٢]

(١) السديم: الضباب، ويراد به هنا غاز عالق به مواد صلبة.

(٢) سورة فصلت: ١١

فما أعظم قول الله بالنسبة إلى ولوج الحياة في الخلية الميتة(Cellule) حين يقول:

﴿يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾[1].

* * *

إن العلم بأحوال الكون يجعل الفرد المؤمن يركع لله تعالى خشوعاً، ويسجد له تواضعاً وخنوعاً وتفيض عيناه بالدموع حباً وتسبيحاً وخضوعاً، لو كان قد بلغ مرتبة من اليقين لأعمال كان يقوم بها صالحة مع تهجد وتزكية وتحلية وتطهير وهو القائل: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. حقاً، لا يستفيد في مجالات تكامل النفس العالمون ببعض ما أودع الله من دساتير وخواص ودقائق الصنع في هذا الكون إلا الموقنين منهم. ولا يقين إلا بعد تزكية وتطهير وترك للموبقات والاجرام، عند ذلك يوقن من وفق إلى التزكية بهذه الآية المنيفة حين يقول تعالى: ﴿أفغير دين الله يبغـون، وله أسلم مَن في السمـاوات والأرض طوعـاً وكرهـاً وإليـه يرجعون﴾.

وقد أتم الله الحجة على عباده بقوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.

نفي الصدفة بتوضيح آخر:

لو أرادت الصدفة (دون مدبِّر عاقل) أن ترتب حروف هاتين الكلمتين: (انسان يقظان) المؤلفتين من ١٠ حروف وكان عدد العلب (أو الخانات)

(١) سورة الحج: ٧٣.

الجاهزة في المطبعة لهذا العمل ١٠٠ علبة[1]، فدرجة الاحتمال لظهور حرف (أ) (أولاً) من بين ١٠٠ علبة تكون $\frac{١}{١٠٠}$ (واحداً من مائة).

ولأجل أن يظهر حرف (ن) من كلمة انسان، بعد حرف (أ) مباشرة تكون درجة الاحتمال لهذا الظهور = $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ (واحداً من عشرة آلاف).

ذلك لأنا مع كل سحبة من السحبة الأولى لظهور حرف: أ (أولاً)، يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة كي يظهر حرف (ن) بعد (أ) مباشرة. وبما أنه يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة لظهور حرف (أ) أولاً ومع كل سحبة يحتمل أن نسحب أيضاً ١٠٠ سحبة لظهور حرف (ن)، إذن درجة احتمال ظهور حرف (ن) بعد (أ) مباشرة تكون واحداً من عشرة آلاف، أي واحداً من:

$$١٠٠ \times ١٠٠ = \frac{١}{١٠٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤}}$$

ولأجل ظهور أو مجيء حرف (س) بعد حرف (ن) مباشرة (من لفظ: انسان) تكون درجة الاحتمال واحداً من مليون أي:

$$\frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠ \times ١٠٠} = \frac{١}{١٠^{٦}}$$

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور أو مجيء حرف (أ) بعد حرف (س) من لفظ انسان، مباشرة، تكون: $\frac{١}{١٠^{٨}}$

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور حرف (ن) بعد (أ) من كلمة (انسان) مباشرة، تكون: $\frac{١}{١٠^{١٠}}$

ودرجة الاحتمال لترتب حروف: (انسان يقظان) بالصدفة (دون أن يكون للعقل أو الحافظة دخل في الموضوع) تكون واحداً من مائة مليون مليون مليون، = $\frac{١}{١٠^{٢٠}}$ أي نحتاج إلى ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٠ سحبة.

---

(١) باعتبار الحرف الأول والحرف الوسط والحرف الأخير والحرف المفرد.

وإذا كان عدد حروف صفحة من كتاب رتبت حروفها بالصدفة العمياء ٢٠٠٠ حرف، فتكون درجة الاحتمال:

$$\frac{١}{١٠^{٢} \times ٢٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤٠٠٠}}$$

وإذا فرضنا أن كتاباً عدد صفحاته ٤٠٠ وان الصدفة العمياء هي التي نـظمت ورتبت حروف هـذا الكتاب. فتكـون درجة احتمـال وقوع هـذه الصدفة = $\frac{١}{١٠^{١٦٠٠٠٠٠}}$.

وبما أن المقام صار يقترب من اللانهاية ∞ ، فإن درجة احتمال ترتب حروف مكتبة تضم مائة ألف مجلد أو أكثر تساوي واحـداً منسوبـاً إلى اللانهاية: أي $\frac{١}{١٠^{\infty}} = \frac{١}{\infty} = ٠$.

ثم، ألا ينبغي للقائل بالصدفة أن يسأل نفسـه: كيف وجدت هـذه الحـروف: (الحـرف الأول بشكله الخـاص والحـرف الـوسط بشكله الخاص... الخ) بهذا النحت الجميل عن تدبير وهندسة خاصة في بادىء الأمر حتى يأتي دور الصدفة وترتب اللفظين: (إنسان يقظان) بـالصدفـة العمياء دون إرادة وعلم!.

فالتنظيم ضارب أطنابه ابتداءاً واستمراراً وأبداً في هذا الكون، فلا بد من موجد ومنظم ابتداءاً واستمراراً وأبداً وهو الله جلت عظمته، ووسعت رحمته.

فلنأت بعد ذلك إلى هذا الكون الرحيب وما فيه من ذرات وجزيئات وعناصر ومركبات لا تتناهى في السماوات وفي الأرضين، سواء في عالم الجماد أو النبات أو الحيوان وفي عوالم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، لنرى انعدام الاحتمال بطريقة الصدفة لحدوث هذا النظام الرائع في ما لا يتناهى من أجزاء مترتبة بعضها أثر بعض عن حكمة وتدبير. فدرجة الاحتمال في هذه الحالة = $\frac{١}{\infty} = ٠$، تساوي الصفر لا محالة ودون أي ريب.

فلا بد إذن من مدبر منظم حكيم عارف بقوانين الميكانيك والتفاعلات

الكيمياوية والرياضيات العالية والطبيعيات إلى ما هنالك، وهو الله تعالى: ﴿ألا يعلمُ مَن خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

على أن للسائل أن يسأل: كيف وجدت هذه الأجزاء ابتداءاً، وكيف تسلسلت متكاملة بعضها عن بعض ثم استمرت وهي متكاملة. ومن الموجد لها أولاً قبل أن تترتب؟ وما هو أساس الوجود المادي؟ وما هو أساس الوجود الروحي؟ وكيف جاءت هذه الحيوية وما حقيقتها؟.

فلا مناص من الاعتراف بمن هو واجب وجوده من الأزل لايجاد هذا الكون الرحيب بهذا الترتيب البديع وهو الله تعالى واجب الوجود.

﴿سبح[1] اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى[2]، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاءاً[3] أحوى﴾[4].

﴿أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾. (سورة النحل: ١٢٥).

* * *

جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة». «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به وأنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر». و«إن العلماء ورثة الأنبياء».

ما هو هذا العلم الذي تضع الملائكة أجنحتها لطالبه رضا به؟ هل هو

---

(١) سبح: أي قدس ونزه ربك عن النقائص.

(٢) قدر فهدى: أي قدر كل ما خلقه تقديراً مناسباً للحكمة ومؤدياً للاغراض التي خلقه من أجلها على أحسن حال.

(٣) غثاء: ما يلقيه السيل من ورق بال وزبد.

(٤) أحوى: ما به حوة، والحوة سواد إلى خضرة.

هذا العلم المادي الذي يقطع العالم به علاقته بواضعه وموجده وخالقه؟ هل هو العلم بأحوال الكون وقوانينه دون عزو ذلك إلى مرتبها وواضعها، بل صار يكفر العالم بها بمن أوجدها ونظمها غاية التنظيم؟ هل هو هذا العلم الذي يعتبره المنحرفون والمنجرفون معبوداً جديداً وإلهاً قهاراً، حلالاً للمشكلات، يدفع المعضلات ويقهر كل شيء ويسير العالم حسب أهواء الضالين والمضلين؟ فلا حاكم ولا قاهر خارج حدود هذا العالم إلا العلم؟! ولا مسيطر ولا مدبر في الكون كله دونه (أي دون العلم؟!)... أهذا هو ذلك العلم الذي يقول عنه علي عليه السلام: «أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به». فأي كمال رأينا في نفوس بعض العلماء الماديين وبعض الفلاسفة الماركسيين!». فهم أعداء الله في أرضه ولا غنى لهم عن رزقه. فلو سلط الله تعالى على مخ أحدهم جرثومة ضئيلة لا ترى بالعين المجردة لأمسوا مجانين ولعلموا ما هم عليه من فلسفة زائفة ضالة هدامة!.

على أن هذا العلم لا يستطيع أبداً أن يكون بديلاً عن الايمان بالله في حياة الانسان، يملي على الانسان سنن الكمال. ذلك لأن هذا العلم إنما خرج من نفوس لم تزكٍ ولم تتطهر. فلا يزال عليه طابعها: ذلك الطابع المادي الحالك. ولأن هذا العلم متغير ومتطور من لحظة إلى أخرى وأن نتائجه التي تؤكد اليوم من قبل العلماء تنقض غداً بفعل الاختبارات والتجارب في كثير من ميادين العلم. وهكذا سيظل (العلم) له خاصية التغير والتبدل ويخضع لعامل التطور، إلا ما كان مجرداً بحتاً كالرياضيات البحتة وذلك في حدود معينة محدودة.

أهذا العلم الذي يقول به المادي دون أن يتجاوز بفكره حدود الأرض والجسد، هو ذلك العلم الذي يقول عنه رسول الله (ص): «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، «ألا إن الله يحب بغاة العلم». أترى أن الله يحب العلماء المفسدين في الأرض، وهو القائل: «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار»[1].

---

(١) سورة ص: ٢٨.

انظروا إلى هذا الحديث، لتعلموا ماذا يراد بالعلم في لسان الشرع وماذا يراد بالفضل؟

فعن أبي الحسن موسى عليه السلام: قال دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد. فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال ما هذا؟ فقيل علاّمة... فقال: «ما العلامة؟» فقالوا له: «أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية». قال: فقال النبي (ص): «ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه». ثم قال النبي (ص): «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة وما خلاهن فهو فضل».

فترون أن المراد في لسان الشرع من (العلم) هو ذلك العلم الذي يوحد به الله تعالى في أرضه وسمائه فيعبد ويقدس. هو ذلك العلم الذي يأخذ بالنفس الانسانية إلى ساحات القدس بعد تزكيتها وتطهيرها من الدنس والرجس بما يقدِّم للبشر من تعاليم إلهية ودساتير ربانية، وكذلك العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والفلكية، وكل علم مُظهر لعظمة الله في أرضه وسمائه، إذا كان هذا العلم لا ينفك عن عزو جميع المكتشفات إلى الله المبدع العظيم.

لذلك يقول (إسحق نيوتن) وهو أعظم علماء القرن الثامن عشر وله الفضل الأكبر في تقدم العلوم المادية في القرن العشرين إلى هذه المرتبة، أنه يقول: «لا شك في الخالق. فان هذا التنوع في الكائنات وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها وتناسبها مع غيرها ومع الأزمنة والأمكنة لا يعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم».

وهو القائل أيضاً: «لا أدري كيف يُنظر إلى العالم. ولكن أتراءى لنفسي كما لو كنت غلاماً يلهو على شاطىء البحر وأسلي نفسي بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة، أو صدفة أجمل من المعتاد. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون كشف»...

ويقول أيضاً في محل آخر: «ما من شك أن خالق العالم هو محيط بأسرار علم الميكانيك إحاطة تامة كاملة».

(باستور) كان ينكر إله الكنيسة. إلا أنه كان مؤمناً بالخالق المعبود، إله العالمين، خالق الجراثيم... على حد تعبيره.

* * *

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونية تشرح بايجاز: عصارة ما أودع الله تعالى من كمال في العالم المادي من سماء وأرض وفي عالم النبات والحيوان، وآيات أخرى تذكر شيئاً عن عوالم النفوس والأرواح. كل ذلك، ليوقن هذا الانسان، لو نال قسطاً من طهارة النفس، أن هذه القوانين النظم التي لم يتوصل الانسان إلا إلى جزء ضئيل منها، إنما هي خير دليل على وجود صانعها ومبدعها العلي القدير وخير مرشد إلى مدبر ومسير أوحد جميعها بقدرته، بقاؤها بإرادته، زوالها بأمره. فليس (للعلم)، هذا العلم الذي يعتز به المادي وهو من صنع الله، أن يدير العالم، لو تخلف هذا العالم عن إرادة الله تعالى ومشيئته طرفة عين. ﴿إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده﴾.

لذلك يقول أبو جعفر عليه السلام: «الكمال كل الكمال: التفقه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة».

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين».

وفي حديث آخر: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «يغدو الناس ثلاثة أصناف: عالم ومتعلم وغثاء، فنحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء»[1].

وقال أبو عبد الله (ع): «من تعلم العلم وعمل به وعلم لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً. فقيل: تعلم لله وعمل لله وعلم لله».

وقد جاء في تفسير: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾: من صدَّق فعله قوله. ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم.

---

(١) الغثاء: الزبد والبالي من ورق الشجر.

فالمادي الذي قد تعلم شيئاً من قوانين الطبيعة وخواصها، أو وفقه الله تعالى إلى كشفها ولم يتأثر بما أودع الله من دساتير رياضية لا تحصى في هذا الكون ومن دقيق الصنع ولم يخشع قلبه ولم يخش الله في حركاته وسكناته، ولم يكن لنفسه نصيب من الخضوع لله ﴿الذي خلقه، فسوَّاه فعدله. في أي صورة ما شاء ركبه﴾، ليس ذلك العالم الذي عناه الله في الآية المتقدمة.

فقد قال أبو عبد الله (ع): «أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم».

ما أعظم هذا الدستور أنه أدب التعليم الرفيع. لو عُمل به لما بقي على وجه البسيطة من يشك في وجود الله جل جلاله، أو ينحرف عن الصراط السوي.

وقال عيسى (ع): «بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر»... وقد قال الحواريون لعيسى (ع)، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا روح الله، من نجالس؟». قال: «من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله».

وإن قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾ يدل دلالة صريحة أن الذي أوتي قسطاً من العلم ولم يكن مؤمناً لا ترفع له درجة بل بنص هذه الآية هو من الخاسرين: ﴿ومَن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[1]. ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[2].

وإن قوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ يدل دلالة واضحة على أن أولي العلم في هذه الشهادة العظيمة إنما هم من العلماء الذين بلغ بهم علمهم وتقواهم معاً إلى توحيد الله والاعتراف بعدالته.

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

وما أعظم هذا الحديث القدسي وما أجل معناه: «يا موسى عظم الحكمة فاني لا أجعل الحكمة في قلب إلا وأردت أن أغفر له، فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها، كي تنال كرامتي في الدنيا والآخرة».

فلا يستفيد العالم بأحوال الكون ودساتيره من علمه ما لم يكن قد جعل التقوى لنفسه شعاراً والأخلاق الفاضلة دثاراً. لذلك جاء في الحديث عن الرسول (ص): «قطع ظهري رجلان: عالم متهتك يصد الناس عن علمه بفسقه، وجاهل متنسك يدعو الناس إلى جهله بنسكه». وقال علي (ع): «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك».

وقد جاء في حديث آخر: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع».

ومن جملة صفات العلماء على ما ورد في أصول الكافي: «لا حقود ولا حسود ولا وثاب ولا سباب ولا عياب ولا مغتاب، يكره الرفعة ويشنأ السمعة، سهل الخليقة لين العريكة، هشاش بشاش، لا بعباس ولا بجساس، كظام، بسام».

فطوبى لأولئك العلماء الذين يدعون إلى الله بعمل صالح ويرفعون لواء الاسلام عالياً بجهادهم المتواصل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال أنني من المسلمين﴾[1].

* * *

إن الله تبارك وتعالى أكد في آيات جمة أن تتبع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض، كي نزداد معرفة به تعالى. فنخشع له وذلك بتقديسه وتسبيحه والعمل بما أمر به، فنزداد بصيرة وذلك غاية الغايات. فقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له» شريطة أن لا يتجرد هذا العلم (أي العلم بأحوال الكون) عن طاعة الله تعالى، وأن لا

(١) سورة حم، السجدة: ٣٣

يكون آلة هدم وتخريب. فقد قال علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

انه تعالى يقول: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[1]. فانه تعالى يصرح: أن التعرف على ما أودع الله من قوانين ومعادلات في الكون المادي[2] وما أودع فيها من قوى وطاقات، وما يربط هذه الطاقات أو المواد بعضها ببعض من قوانين وخواص لا تفيد الذين تخلوا عن طاعة الله ولا تؤثر في تكميل نفوسهم: هؤلاء الذين لازموا الشهوات والنزوات وحضروا المراقص والملاهي ومجالس الفسق والفجور وأفسدوا في الأرض بأنواع البغي وضروب الظلم. وهذا ما نشاهده اليوم. ويشهد لنا التاريخ في الأمم الغابرة. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[3].

نرى اليوم من ينكر وجود الخالق جل جلاله ويستهزيء برسالة الأنبياء (ع) وقد درس شيئاً من قوانين الفيزياء أو الكيمياء، أو درس شيئاً من علم الحيوان والنبات إلى ما هنالك، مع اعترافه ببعض ما أودع الله من خواص ودساتير في هذا الكون. وان البعض من هؤلاء مع جهلهم المرير بالعلوم الحقيقية كالرياضيات العالية والفيزياء الرياضية العالية وحقائق الكيمياء وما ثبت هناك من دساتير يتبنون فلسفة مادية، فلسفة تجعل المادة الصماء كل شيء في هذا الكون. وتعتبر الاقتصاد محوراً أساسياً لكل الفضائل والمكرمات والمعتقدات والمثل العليا، حين أن الفلسفة لا تبنى على جهل. ففلسفة تبنى على جهل بحقائق الكون، فلسفة فاشلة، واهية مضلة. أنها فلسفة الشهوات، والتفكك من قيود يتحقق بها شرف الانسان وكماله. أنها فلسفة إباحية همجية ترجع بهذا الانسان المسكين إلى جاهلية جهلاء، أنها فلسفة هدم وتخريب!.

---

(١) سورة يونس: ١٠١

(٢) يوجد في الكون مثل شمسنا مائة ألف مليون شمس. وان كلا من هذه الشموس المضيئة لا بد وان تجمع حولها كواكب أخرى ذات أقمار تضيء ساعة وتظلم أخرى.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٨، (خلوا: مضوا).

﴿فان لم يستجيبوا لك، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1].

يقول (بوانكارة) وهو من أعلام الرياضيين: «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة». ومعنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تبنى على آخر ما توصل اليه العلم الحديث، لا على مفتريات وأكاذيب لا تدعمها المكتشفات الحديثة وما ثبت من أحوال الأمم الماضية.

فالتجربة ليست كل شيء في نموّ الانسان الرياضي، خلافاً لما يقوله الماديون. ففي الانسان ملكة التعليل والتسبيب، وملكة التعميم والتجريد، دون أن يكون للتجربة دخل فيها. لذلك يقول (البرت آينشتاين): «كيف أمكن للرياضيات أن تكون أداة مناسبة بشكل يستحق الاعجاب لواقع الأشياء مع أنها ثمار التفكير الانساني مستقلاً عن التجربة».

وقول (فيثاغورث): «العدد يحكم العلم» دليل على وجود خالق مبدع ربط أجزاء هذا العالم بحكمة فائقة تحت حساب دقيق يمكن أن يعبر عنها بمعادلات وأعداد وقوانين:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب. صنع الله الذي اتقن كل شيء، انه خبير بما تفعلون﴾[2]. ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[3].

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿فلينظر الانسان ممَّ خلق﴾[4]. وهو يحثنا على تعلم علم الاحياء(Biologie) وعلم الحيوان(Zoologie) وعلم وظائف الأعضاء (Physiologie) ففي جسم الانسان أكثر من ٢٠٠ عظم ولكل واحد منها شكل

(١) سورة القصص: ٥١
(٢) سورة النمل: ٩٠
(٣) سورة الطارق: ٥
(٤) سورة الطلاق: ٣

خاص، ولولا هذا الشكل الخاص لما تمكن الانسان من الحركة. وفي جسم الانسان ٥٠٠ عضلة: كل منها، تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة. والقلب، وهو بين هذه العضلات، ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة.

وأما طبقات العين فهي الطبقة القرنية والعدسية، ثم طبقة مائية زجاجية تنتهي في الشبكية. وإن الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة، وهي تتألف من تسع طبقات، أبعدها تتألف من (٣) ملايين أسطوانة و(٣) ملايين مخروط.

وقد حسب أحد علماء الفسلجة أنه توجد في المادة السنجابية التي هي في تلافيف الدماغ: ست ملايين خلية وإن كل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وأن كل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. انه تعالى يقول: ﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[١] ثم يذكرنا الله بالآخرة لنستعد لها لأنها هي الحياة الحقيقية التي تستحق أن يطلق عليها: كلمة الحياة، وذلك بقوله في بقية الآية: ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة، ان الله على كل شيء قدير﴾[٢].

لقد سبق القرآن العلم الحديث في التكلم عن بداية الخلق وهي (الخلية الحية). فهي جوهر الحياة. وذلك لأن كل مشكلة تتعلق بالحياة تبحث في النهاية في الخلية وان كل كائن حي ما هو إلا خلية.

يقول الدكتور (كلارنس كوك لتيل): «إننا قد نفهم النشاط العظيم المتنوع في مدينة كبيرة، ولكنا قد لا نصدق أنه من الممكن أن تقوم أجسامنا بعملية أكثر تعقيداً وأشد غرابة في هدوء ودأب لا يعرف الكلل، عملية فيها صناعة تخزين وإصلاح ومواصلات ونقل وأعمال بوليسية وتخلص من نفايات وإدارة إنتاج للغذاء وضبط للحرارة. وان هذا هو ما يحدث حقاً في الخلية الواحدة». فما أعظم ما أودع الله بحكمة فائقة من أعمال شتى متنوعة في غاية الدقة.

(١) سورة العنكبوت: ٢٠
(٢) سورة العنكبوت: ٢٠

أعمال ميكانيكة مختلفة، في هذه الخلية التي تبلغ من الصغر ما لا يمكن للعين المجردة مشاهدتها.

يقول (راتكليف): «في اللحظة التي يتم فيها الاخصاب، تقرر الخلية الصغيرة بدقة تامة نوع المخلوق البشري الذي يجري إنتاجه، حتى لون عينيه وتموجات شعره، وان العلم ما زال قاصراً عن إدراك الأسباب والدوافع التي تدفع بالبويضة إلى أن تتخلص من نصف مادتها بعد أن تبلغ درجة النضج وتصل إلى الرحم. وان يتخلص الحيوان المنوي كذلك من نصف ما به، حتى إذ اتحد النصفان كونا خلية واحدة صغيرة بالغة من الصغر حداً كبيراً. إذ يبلغ وزنها ١٥ جزءاً من عشرة ملايين جزء من الغرام. وتصل يوم الميلاد إلى حوالي ثلاثة كيلوغرامات وذلك بانقسام هذه الخلية الواحدة إلى عددمن الخلايا تبلغ حوالي (٢٠٠) مليون خلية».

فالخلية على الرغم من صغرها كيان عضوي معقد أشد التعقيد. ففي الخلية خصائص ظاهرة وخصائص خفية كثيرة وكثيرة جداً، لم يظفر بها العلم الحديث، تعمل في التغييرات الطبيعية الكيميائية في الوسط الانساني لتواجه الحالات الجديدة الطارئة في حالات الصحة والمرض تبعاً لما تستلزمه حالة الجسم.

يقول الدكتور (روسكو سبنسر): «ليس في الطبيعة شيء أعجب من الحكمة التي تقسم بها الخلية نفسها إلى جماعات شتى، لكل جماعة وظيفة تؤديها، وكل جماعة منها تختلف لهذا الغرض عن الأخرى قواماً وتركيباً، ولكنها كلها أصلها واحد وان الله تعالى قد زود الخلايا بقوى عجيبة وبخصائص مدهشة كل ذلك لتشييد الكيان العضوي الحي». ﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون﴾[1]. (أي يميلون عنه).

* * *

---

(١) سورة النمل: ٦٧.

وقد أمر الله تعالى بدراسة النبات كي يعتبر الانسان بهذه الحيوية التي أوجدها الله في خلايا النبات وهذا النمو الذي نشاهده فيه، أنه (أي النمو) لأمر عجيب، أنه نمو بأمر الله ومشيئته، إذ العطالة أو القصور الذاتي: (Inertie) شيء لا ينفك عن أي جسم أو أية مادة في هذ العالم المادي على ما ثبت في علم الفيزياء. فلا بد من يد غيبية تعمل بحكمة في ترتيب هذا النمو تحت آلاف بل ملايين من عوامل وخواص وتأثيرات مترتبة بعضها إثر بعض بحكمة فائقة وبشكل بديع وجمال رائع، أنه تعالى يوضح لنا ذلك بقوله جل من قائل: ﴿فلينظر الانسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً[1] وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً[2]، وفاكهة وأبًّا[3]، متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[4].

أنه تعالى يقول في سورة أخرى: ﴿فأين تذهبون﴾[5]. إلى أين يذهب هذا الانسان وهو تحت هيمنته تعالى وبين يدي جبروته سبحانه. فمن الغفلة أن لا يطيع الانسان ربه ولا يؤمن برسالة رسله (ع)، حسب التسلسل، وأن يبقى جاحداً لرسالة خاتمهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإمامة الأوصياء من بعده عليهم السلام. حقاً أن الآية المتقدمة ﴿فأين تذهبون﴾: ﴿لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[6].

فإلى أين يفر وإلى أين يتوجه هذا المخلوق الضعيف بين يدي ربه، المغرور بما منَّ عليه خالقه من علوم ومعارف، فلا ملجأ إلا إليه. على حد قوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله أني لكم منه نذير مبين﴾[7]، فطوبى لمن أقلع عن طيشه وغروره وفكر في عقباه ومصيره، فشمر عن ساعد الجد لاصلاح نفسه

---

(١) قضباً: كل شجرة طالت واسترسلت أغصانها.

(٢) حدائق غلبا: بساتين ذات أشجار غليظة.

(٣) أبا: تبنا، أو العشب رطبه ويابسه، مرعى.

(٤) سورة عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

(٥) سورة التكوير: ٢٦

(٦) سورة ق: ٣٧

(٧) سورة الذاريات: ٥١

والمثول بين يدي ربه واستعد ليوم ﴿لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾[1]. ﴿ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2]

* * *

إن الله تعالى قد حث على تعلم علم الفلك بقوله جل من قائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[3]. فيا أعظمها من آية. أنه تعالى يعظم مواقع النجوم والأبعاد المقدرة بينها بحكمته، فانها من الدقة بمكان، بحيث لو تغير بعضها عن مواضعها شيئاً يسيراً بالنسبة إلى الفضاء اللانهائي، لاختل نظام السماء لما هنالك من تجاذب من جميع الجهات حسب الدستور الآتي:

$$ق = ى \times \frac{ك\ كَ}{م^{٢}}$$

أي تتجاذب الكتلتان في الفضاء بنسبة حاصل ضرب الكتلتين: (ك، كَ) مقسوماً على مربع المسافة بينها (م) بعد ضرب الناتج في نسبة ثابتة معلومة = $\frac{١}{١٥\,٠٠٠\,٠٠٠\,٠٠٠}$ من ثقل الغرام[4].

اكتشف (ليفرييه Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ(نبتون Neptune) وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم. فرأوه رأي العين بعد أن كان (ليفرييه) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب، ثم رأى الفلكيون أيضاً أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نبتون) ما زال مختبئاً في السماء فإكتشفوه وأسموه (بلوتو) سنة ١٩٣٠ ميلادية. وهكذا يتنبأ العلم والدساتير عن أشياء لا ترى بالعين،

---

(١) سورة الانفطار: ١٩

(٢) سورة المطففين: ٥، ٦

(٣) سورة الواقعة: ٧٥، ٧٦.

(٤) ي = $٦,٦٧ \times ١٠^{-٨}$ من ثقل الغرام = $\frac{١}{١٥\,٠٠٠\,٠٠٠}$ من الداين.

فتكشف لتبرهن مرة أخرى على ما أودع الله من نظام رياضي متقن في سير الكواكب والأنجم: مداراتها وحركاتها.

* * *

حقاً أن في مثل جزيرة العرب التي لا تربط حواضرها بعضها ببعض إلا أراض واسعة جرداء غير ذات زرع، ما كان ليمكن أن ينمو العلم وان تكون فيها حياة علمية. فللاسلام فضل كبير في إيجاد وسائل الحضارة في البلاد العربية، ومن ثم وجود علماء في شتى العلوم والفنون ومكتشفات جمة كانت أساساً للمكتشفات الحديثة.

لم يكن للعرب في الجاهلية أي أثر للعلوم ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر الحياة العقلية. ومنذ بزوغ فجر الاسلام لم يكن في قريش إلا (١٧) رجلاً يكتبون ويقرأون. ولذلك كان يلقب من يجيد الكتابة والرمي بـ (الكامل!).

فالقرآن هو أول كتاب دعا الأعراب إلى التفكر في أحوال السماوات والأرض والجماد والحيوان والنبات بقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾.

إن العلم الحديث كان يجهل حقيقة قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1] إلى قبل ٥٠ سنة تقريباً. حتى تقدم الميكانيك الرياضي وأسست مراصد كبيرة واخترعت مراقب جسيمة، فعلم أن ما كان يعتقده الفلكيون من ثبوت الشمس في محلها خطأ فاحش، وأن للقرآن القول الفصل في شرح حقائق السماء والميكانيك السماوي كعصارة للعلوم. كما ثبت أخيراً أن لكل كوكب أو نجمة فلكاً خاصاً لا يتعداه، وأن الجاذبية التي أودعها الله بين الكرات لا تدع مجالاً ليزلّ بعضها عن مكانها وما رسم لها

---

(١) سورة يس: ٣٩

من أفلاك ومدارات وحركات قيد شعرة. ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[1].

* * *

دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، المسلمين إلى تعلم الكتابة والقراءة وأمرهم بكتابة القرآن وتعلمه ونشره. حتى أنه جعل، في غزوة بدر، فداء بعض الأسرى: أن يعلموا صبيان المدينة القراءة والكتابة، على أن يعلم كل واحد من الأسرى عشرة من المسلمين.

كما أنه أمر رسول الله (ص) بعض المسلمين بتعلم لغات أخرى. فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية. وهكذا أمر بعضهم بتعلم لغات أجنبية، وذلك لبث الدعوة في الأقطار النائية وإرسال كتب إلى بعض الملوك.

ويا حبذا لو أسست جامعة دينية كبرى، تدرس فيها شتى العلوم الدينية مع شيء من العلوم الحديثة، لا سيما الرياضيات والطبيعيات والفلسفة الحديثة على ضوء الفلسفة الاسلامية الحقة وردٌ نواحي الضعف فيها (وما أكثرها!) بالحجج الدامغة المنطقية على ضوء العلم الحديث. وتدرس فيها لغات شتى. يتعلم كل عشرين طالباً مثلاً حسب رغباتهم لغة أجنبية خاصة بصورة متقنة، حتى يتمكنوا من الكتابة والخطابة فيها. ثم يوفدون ويوزعون على بعض مدن العالم لبث الدعوة الاسلامية الحقة وذلك بعد أخذهم شهادة عالية، شهادة التخرج من هذه الجامعة الدينية الكبرى، فينيروا الأرض بجهودهم المشكورة عند الله تعالى كما فعل آباؤهم من قبل.

وقد حث الرسول (ص) على التعلم والتزود من العلوم الموجودة في كل وقت حتى قال: «أطلبوا العلم ولو في الصين». فهو أول من دعا، بقوله هذا، إلى الهجرة إلى البلاد النائية طلباً للعلم وأول من أسس مشروع البعثات. ولكن هذا النوع من البعثة لا يشبه ما نحن فيه من البعثات في الحال الحاضرة بحال. لأن المسلم عندما كان يهاجر من بلده إلى الخارج لتحصيل بعض

(١) سورة يس: ٤١.

العلوم، إنما كان يهاجر وهو مملوء إيمانا بالله وتقوى وورعاً وخوفاً من الله تعالى. لا يدفعه ولا يزيغه عن طريقته إلحاد الملحدين وتشكيك الضالين ودسائس المستعمرين باسم الثقافة والتقدم! بل كان مجهزاً بعقيدة راسخة عن براهين قطعية وتعاليم إسلامية رائعة. حافظاً للقرآن ،عاملاً به، مؤتمراً بما أمر الله من صلاة وصوم وزكاة وواجبات أخرى. متناهياً عما نهى الله عنه من رقص وسكر وفجور!.

ولكن شبابنا اليوم بعيد عن روح الاسلام وحقيقته وتعاليمه، فالبعض منهم يمقت الاسلام ويظنه ضرباً من الرجعية والخرافة نتيجة سموم بثها المستعمرون وأعداء الاسلام.

وقد يصلي بعض هؤلاء الشبان خوفاً من أوليائهم أو إرضاءاً لآبائهم وأمهاتهم إن كانوا مصلين يحثون أولادهم على أداء الصلاة. إنهم يصلون ما داموا مراقبين، ولكنهم يتركونها عند رفع هذه المراقبة. يفرح الأب عندما يرى أن ولده يطيعه ويصلي، لأنه يعلم علم اليقين أن مآل ولده النار إن ترك صلاته. وقد فاته أن السموم المبثوثة ها هنا وها هنا قد أثرت فيه. وعلى رأسها ما يقوم به ولده من أعمال غير مشروعة. فصار لا يأنس بمناجاة ربه والمثول بين يديه خاشعاً تائباً من ذنوبه.

وقد حث رسول الله (ص) المسلمين على الحضور في مجالس علماء الدين بصورة خاصة ليتعلموا معالم دينهم ويتأدبوا بآدابهم. وكانت المساجد محلاً للعبادة والدراسة معاً حتى القرن الرابع الهجري. فأسست دور خاصة بالتدريس في فاس. يقول (أدلفان): أن جامعة (القروين) هي أول جامعة في الدنيا، وقد تخرج في هذه الجامعة عشرات من الطلاب الأجانب من غير المسلمين ومنهم الراهب (جربرت) الذي أدخل الأعداد العربية إلى أوروبا. وقد ترجم كل ما دوّنه المسلمون من علوم.

وقد تعلم (سبتابي بن ابراهام) اليهودي الذي قد أسر من قبل المسلمين في النصف الأول من القرن العاشر اللغة العربية في بغداد وبقي فيها يدرس الطب، ثم عاد إلى أوروبا وقاد هناك حركة علمية مرموقة.

وهكذا (قسطنطين) الذي كان يعيش في (قرطاجنة) اتقن اللغة العربية وذهب إلى إيطاليا حيث ترجم كثيراً من كتب المسلمين في علوم شتى.

وإن المسلمين هم الذين أنشأوا أول كلية طبية في (ساليدن) في إيطاليا، وأسسوا أول مرصد فلكي في (أشبيلية). وهكذا كان للمسلمين اليد الطولى في الهندسة المعمارية والنحت والزخرفة. وإن (كنيسة نوتردام دوباري) إنما بنيت من قبل مهندسين مسلمين.

وكذلك المسلمون هم الذين اخترعوا طريقة الكتابة بالحروف البارزة لتعليم العميان القراءة.

لذلك يقول (أرنست رنان): «إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى العلوم والفنون التي أضفاها علماء الاسلام على الكون ونقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الغرب وما سبق ذلك من احتكاك بين العرب وأوروبا عن طريق الأندلس، أدى كل ذلك إلى إفعام المكتبات الأوروبية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب. وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوروبية بأسرها، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدين الذي نشاهده عليها اليوم».

ويقول (هـ ج. ويلز): «قد سبق العالم الاسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه. فقد أسست في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة سلسلة من الجامعات العظيمة، فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الاسلامي إلى مسافات بعيدة واجتذب اليها الطلاب من الشرق والغرب».

ويقول (نهرو) رئيس وزراء الهند الراحل وهو هندوكي العقيدة: «كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة... إلى أن يقول: ان قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ. لقد امتازوا بالروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث».

فهل يحق لأحد بعد قراءة هذه الفقرات أن يقول: إن الدين أساطير وتقاليد تقف في سبيل الحياة؟.

فالاسلام يناصر العقل والعلم ويرحب بالأفكار والنظريات العلمية الصحيحة والمكتشفات العلمية التي تخدم البشرية في مجالات تكميل النفوس البشرية ويحارب الجهل والخرافة وكل ما يخالف العقل.

فالمسلمون بتمسكهم بدينهم أصبحوا مكتشفين ومنقذين قسماً من العالم من الجهل والخرافة بعكس أوروبا التي لم تظهر الحضارة الحاضرة فيها إلا بعد أن تغلب العلم الحديث على الكنيسة ورجال الدين فيها!.

* * *

يقول المستشرق الايطالي (ليبرتيني) في كتابه: (الاسلام في أمجاده)[1]: «إنني أكاد أعتبر أقطاب الأندلس وجزيرة العرب ـ عندما أضاء سناء الحضارة العربية بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم ـ أكبر أعداء العالم. لأنهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضاً، بل تعدوا ذلك إلى وأد ألمع حضارة أوجدها انسان على وجه الأرض. وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الاسلامية الخارقة. فلو أتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء الباهر أن تمشي في سبيلها إلى التكامل لما بقي على وجه الأرض إلا كل عربي أو مستعرب. ولما كان غير الاسلام ديناً للمجموعة البشرية, فاكتفى الناس شر الفتن والحروب والانقسام إلى دول ونحل وملل لا يحصيها قلم أو تجمعها جامعة مهما سمت بجبروتها ومتين انسجامها».

يقول (نيتزه Nitsa) : «إن القسيسين عوضاً من أن يفتحوا أبواب أوروبا للمسلمين والمبشرين بالدين الاسلامي وأن يخضعوا وينحنوا لهم تعظيماً وإجلالاً شهروا سيوفهم في وجوههم، فأمسى الدين في عرفهم عبارة عن مجموعة خرافات فحسب».

وقد بدأت ترجمة معظم كتب المسلمين في الفلسفة والطب والفلك

(١) المسلمون والعلم الحديث: للاستاذ عبد الرزاق نوفل.

والرياضيات إلى اللغة اللاتينية منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفي مقدمة هؤلاء (رايموند(Raymond رئيس أساقفة (توليدو) وحاكم مدينة (كاستيل): (١١٣٠ - ١١٥٠ م) الذي شكل هيأة من المترجمين تولى رئاستها وأسماها: (Dominican Gondeslavi) .

وأما المسيحيون فقد جهلوا طوال العصور الوسطى محمداً (ص) نبي الرحمة، وظلّوا قروناً يعتقدون أن محمداً هو (إله) المسلمين. فكانوا يقولون بوجود وثن ذهبي يسمى محمداًMohom وأنه يمثل رسول الله. وإن كتاب العصور الوسطى قد نعتوا محمداً (ص) بنعوت كاذبة عجيبة، فقالوا: «ليس محمد نبياً كاذباً وشاباً ماجناً فحسب بل رجل مخادع مخرب، قاد نفوساً ضعيفة بعيداً عن جادة الصواب، بعد أن مناهم بكثير من المتع، معظمها متع شهوانية»!؟.

وإن معظم هذه الاتهامات ترجع إلى البيزنطيين الذين هوجموا من قبل المسلمين، فعمدوا إلى تشويه سمعة الاسلام باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

ومما يثير الدهشة أن قساً إسبانياً يُدعى(Euloguis of Cordova) رغم وجوده مدة طويلة بين المسلمين وتعرفه على كثير من حقائق الاسلام، يذكر فيما كتب: «أن محمداً قد أخبر أن الملائكة ترفعه إلى السماء بعد وفاته بأيام ثلاثة ورغم ذلك فقد التهمت الكلاب جثمانه العفن»[1].

إن هذه الاتهامات قد شوهت سمعة الاسلام في الغرب، فأحدثت انطباعات سيئة أبعدت الغربيين عن الميل إلى الاسلام واستقصاء ما فيه إلا من ساقه حب البحث والاطلاع كـ (كارليل) و (تولستوي) و (كوستاولوبون) و (برنارد شو) وغيرهم. فكتبوا شهادات حقيقية عن الاسلام وبعض حقائقه.

فالواعظ (نيكلدوس) الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع

---

(١) الحضارة الاسلامية: تأليف، خدابخش، المؤرخ الهندي، وترجمه الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرس التاريخ الاسلامي بجامعة عين شمس.

القرن الرابع عشر طلب من اخوانه المسيحيين أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلاً علياً لهم وكان معجباً بدراسة القرآن في مدارس بغداد وأثنى كثيراً على نظام الزكاة والوقف لأغراض الخير، وشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات وفكرة التوحيد الناصع في الاسلام وكتابة المسلمين (بسم الله الرحمن الرحيم) في أعلى الرسائل وخلعهم الأحذية قبل دخول المساجد وكرمهم وحسن ضيافتهم.

ولا ننسى كتاب (الاسلام على حقيقته) تأليف (شارل فوستر) سنة ١٨٢٩ وما كتبه (كوسان) و(ويل) و(فون كريمر) و(وليام ميور) وغيرهم مما أزاح كثيراً من الاتهامات.

ولنذكر دليلاً على عدالة المسلمين هاتين الشهادتين:

نقل (توماس أرنولد) طرفاً مما روته كتب الفتح في كتابه الدعوة إلى الاسلام:

(١) أنه لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في (فحل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب الينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا».

ومن ذلك أيضاً:

(٢) إن أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين: أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم وإن كانوا على دينهم.

ولولا الكتب التي نشرت في أوروبا في القرن الحادي عشر للميلاد، وهي مليئة بالاتهامات والشتائم وافتراءات غريبة وما قام به القوالون في الطرق والشوارع، لكانت نظرة أوروبا إلى الاسلام غير ما نراه اليوم.

فواجب الشباب المسلم اليوم واجب خطير جداً. عليه أن يقوم بإزاحة ما

ترسب من أكاذيب ومفتريات عن الاسلام في الغرب وعرض الاسلام كما هو ببيان واضح وبلغات مختلفة وبذل النفس والنفيس في هذا المضمار. فلا شيء يقرب العبد إلى الله كهداية عباد الله وإنقاذهم من الضلال.

ومما يبشر بمستقبل زاهر أنه قد تأسس في (جنيف Génève) مركز إسلامي :(Islamic Centre 333) لنشر حقائق الاسلام في الغرب وكذلك تأسست جمعيات اسلامية في (اليابان): (زابن) تدعو الناس إلى الاسلام.

* * *

ومما هو دليل على تقدم المسلمين في الهندسة إلى حد بعيد هو: أن أعظم جسر أقيم على نهر (التيمس) كان من صنع مهندسي العرب. وأن قباب معظم الكنائس الشهيرة في (بافاريا) كانت من صنع العرب. وأن الأسطول البحري الهولندي الذي قهر الأساطيل الانكليزية في معركة (ليزبونة) عام ١٥١٢ م كان من صنع العرب. وأن الورق العبادي الذي كانت تستخدمه البلاد الأوروبية لتأليف الكتب ونسخ[1] المناشير الرسمية كان من صنع العرب. وإن علم الجبر والفلك والجغرافية والمثلثات والتشريح والكيمياء كانت من وضع المسلمين. وأن أول خريطة وضعت للكرة الأرضية كانت من صنع الإدريسي العربي الأندلسي، كل ذلك: إستجابة لقوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[2]. (سورة ق: ٦ ـ ٨). واستجابة لقوله تعالى: ﴿قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض﴾. واستجابة لقوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

ويقول العلامة (دوسن): «إن المدنية الأوربية بل المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين. ومن المدهش أن يصبحوا ـ وكانوا أول أمرهم على الفطرة ـ عنصراً فاتحاً، ويعتبروا سادة لنصف العالم في مائة عام. ومن أشد

---

(١) استنساخ.
(٢) منيب: أي راجع إلى ربه.

العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم. حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ في مائة سنة. بينما نرى الجرمانيين، لما فتحوا الامبراطورية الرومانية، قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم».

وفي مكتبات أوروبا اليوم آلاف الكتب التي ألفها المسلمون في شتى العلوم. مما يدل على أن الاسلام دين يرافق العلم ويحث على العلم ولا تنافي بينه وبين العلم أبداً.

فالمسلمون قد نبغوا في شتى العلوم. فهم الذين قد أبدعوا في علم الكيمياء والطب وأوجدوا القوانين والدساتير التي هي أساس العلم الحديث. وبثوا المراصد واكتشفوا قواعد علم الفلك ونظموا الخرائط الجغرافية. وكان الأدب والشعر يلعب دوراً هاماً في التعبير عن المكتشفات. فهم كانوا يعبرون أحياناً عن دستور رياضي أو قاعدة نحوية أو قانون هندسي إلى غير ذلك بالنظم، عدا النثر. وقد قرأت قبل أكثر من ثلاثين سنة قطعة شعرية، هي دستور لحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية في كتاب ألفه أستاذ الفيزياء الرياضية بجامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلدات أسماه: (الآثار الباقية).

والمسلمون هم الذين أوجدوا (علم الجبر)، ولا يزال يعبر عن هذا العلم في الغرب بنفس ما اصطلح عليه المسلمون: (Algèbre, Algebra) كما أن أسماء كثير من النجوم في علم الفلك لا تزال باقية في كتب الافرنج على ما اصطلح عليه المسلمون. والمسلمون هم أول من عرفوا أصول الرسم على سطح الكرة الأرضية وقالوا بدوران الأرض على محورها وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل أفلاكها في أفلاك أخرى. وهم أول من عملوا الأسطرلابات وبنوا مراصد كثيرة. ولهم اكتشافات هامة في المساحات والحجوم وتقسيم الزاوية. وهم واضعو الهندسة التحليلية. وقد أدخلوا تحسينات جمة على حساب المثلثات الكروية وأضافوا عليها وألفوا في البصريات وحسبوا زاوية الخسوف. وكانوا قد تعرفوا إلى استعمال التخدير في العمليات الجراحية. حين أن الكنيسة كانت تحرم إذ ذاك ممارسة الطب انتظاراً منها لإتمام الشفاء على يد

المناسك الدينية التي يقوم بهاالقساوسة تاركين ما خلق الله من أنواع العقاقير والأدوية لدفع ما يصيب الانسان من أمراض. وقد صنعوا الورق وأبدعوا في صناعة المنسوجات وصنعوا السكر من القصب ونبغوا في طرق الري والزراعة العلمية.

يحدثنا العلامة: (هوليارد) أستاذ الكيمياء بكلية (ايتون) والـذي يُعتبر أعظم الأساتذة في الكيمياء في أوائل القرن التاسع عشر فيقول:

إن سبب نبوغه في الكيمياء هو تعلمه اللغة العربية وتضلعه منها ودراسته ما اخترعه المسلمون في علم الكيمياء.

* * *

وهذا: (جابر بن حيان) أملى عليه الإمام الصادق (جعفر بن محمد) عليهما السلام، خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ هـ يروون عن علي عليه السلام موازين الصناعة.

إن جابر بن حيان يُعد من أساطين علم الكيمياء وحجة فيه بلا نزاع... وقد نبغ في علوم أخرى أيضاً كالطب والفلسفة وقد ألف (٢٠٠) كتاب، (٨٠) منها في علم الكيمياء. وقد جاء بنظريات هامة في علم الكيمياء تحققت صحتها من قبل علماء الغرب عندما بدأوا في توسيع علم الكيمياء. وقد علمه الإمام الصادق عليه السلام طريقة تحضير (مداد مضيىء)، يستخدم في كتابة المخطوطات الثمينة، لإمكان قراءتها في الظلام. وعلمه أيضاً طريقة صنع صنف من الورق غير قابل للاحتراق.

وهكذا (عز الدين الجلدكي) قد جاء بقوانين هامة في علم الكيمياء: منها قـانون النسب الثـابتة في الاتحـاد الكيميائي ومن كتبـه: (نهاية الـطلب)، (التقريب في أسرار التركيب)، ويبلغ كل منهما نحواً من ألف صفحة.

وهكذا قاد (أبو القاسم المجريطي) أكبر حركة كيميائية في الأندلس.

فهل كان كل ذلك لأن الدين يعارض العلم ولا يوافقه في شيء؟!...

تلك هي سلعة غربية، جاءت من معارضة الكنيسة للعلم وإعدامها كثيراً من العلماء فسرت إلى الشرق وإلى شبابنا المثقف، فتأثروا بها وتغيرت وجهة نظرهم إلى دينهم القويم، دون أن يتحملوا أعباء البحث والتنقيب!.

* * *

وقد نبغ المسلمون في علم الطب، حتى ترى أن (وليم أوسلر) يقول في كتابه: (تطور الطب): «إن المسلمين أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية. وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد من المكانة والأهمية ما لا تكاد تجد له مثيلاً في التاريخ».

ولا بأس بذكر ما جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو:

«إن انكلترا، كانت في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها، منقطعة الصلات بغيرها، تعترض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي والسائمة. وكانت أوروبا غاصة بالغابات الكثيفة. وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في المدن روائح قتالة، لم يعرف أهلها النظافة». ويقول (درابر): «وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا وساورتها الأوهام. فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة[1] ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين.

---

(١) إن لشفاعة أنبياء الله (ع) والأئمة (ع) والصلحاء من عباد الله (رض) وفي التوسل بهم إلى الله تعالى أثراً بالغاً في دفع المكروه وقضاء الحوائج. مع العلم أنهم «لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون». (سورة الأنبياء: ٢٨). إنهم أبواب الله والوسيلة إليه بإذنه تعالى... انهم: «عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

وقد كتبت الجرائد معجزة للإمام علي بن موسى الرضا (ع) قبل سنين: وذلك ان امرأة قد أصيبت بداء السرطان، وقد أثبت ذلك معهد الأشعة السينية(X. R.) ويئس الأطباء من شفائها وقالوا أنها تموت قريباً لا محالة، فنذرت لله وتوسلت إلى الله تعالى بالإمام الرضا (ع). فرأت، ذات ليلة في ما يرى النائم يقال لها: قد شفيت وما بك من داء. قامت من فراشها فرحة مستبشرة، وعرضت نفسها على الأشعة والأطباء، فلم يروا أثراً للسطران، فتعجبوا من ذلك وقالوا: «إن ما حدث ليس بحادث طبيعي وليس للطب العادي أن يفسر ذلك». =

وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً».

المسلمون هم أول من مارسوا العمليات الجراحية. مع العلم، أن أوروبا كانت ترى، في القرن الثاني عشر الميلادي، أنه لا يجوز للإنسان أن يغير ما خلق الله وأن يتصدى إلى عملية جراحية! حين أن المسلمين قاموا في ذلك الحين بتأليفات جمة في علم الجراحة وشرحوا الآلات التي كانوا يستعملونها في كتبهم وهي تزيد على مائتي آلة عدا تأسيسهم مستشفيات، بعضها للرجال وبعضها للنساء، مقسمين المستشفى إلى أقسام متعددة حسب نوع المرض، وأقاموا معازل لعزل المرضى المصابين بأمراض مُعدية.

والمسلمـون هم أول من أسسوا المستشفى السيـار. فكان ينتقـل هذا المستشفى من بلد إلى بلد، مجهـزاً بالأدوات والأدويـة والأطعمة والأشـربة وملابس وصيدلية كاملة مع أطباء، لا سيما حين حدوث وباء أو مرض معدٍ. والمسلمون هم أول من اكتشفوا وسائل التخدير واستعملوها في العمليات الجراحية.

* * *

= ليس المراد من الاستشفاء أوالتوسل إلى الله تعالى بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، أن تترك ما خلق الله من أدوية للأمراض تفضلاً منه وما علم البشر من عمليات جراحية. فقدجعل الله تعالى لكل شيء سبباً. والشفاعة أو التوسل عند تعسر الأمور وغلق الأبواب العادية سبب من الأسباب، ان أذن الله بذلك. والحديث القائل: داووا مرضاكم بالدعاء والصدقات، ليس معناه أن تترك الطرق العادية التي هيأها الله لنا وألهمها ثلة من عباده، ولكن ندعو ونتصدق مع المعالجة من طرقها والالتزام بالنظافة والتعقيم إلى حد بعيد، كي لا يحدث خطأ في المعالجة ولا يحدث اشتباه في تشخيص المرض ومقدار الدواء وتسمم حين إجراء عملية جراحية واشتباه غير منتظر إلى ما هنالك، فالدعاء والتصدق والتوسل والمعالجة والتعقيم والنظافة كلها أسباب هيأها الله تعالى لقضاء الحوائج والشفاء تفضلاً منه ورحمة... أنه تعالى يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾. (سورة البقرة: ٤٦).

وإن أجمل بناء من أبنية جامعة (برنستون) الأمريكية يحمل اسم طبيب مسلم هو: محمد بن زكريا الرازي. وأنه أول من أسس الطب التجريبي، وذلك بإجراء تجاربه الطبية العلاجية على الحيوان قبل تجربتها على الانسان. وقد وضع (٢٢٩) كتاباً في الطب ترجمت إلى معظم اللغات العالمية، وتقرر تدريسها في كليات الطب، كما أنه اشتغل في الكيمياء وألف فيها كتباً عدة.

كان الرازي رجلاً متديناً، يعالج الفقراء مجاناً ويشتري لهم الدواء من ماله. ولذا مات فقيراً رغم شهرته الواسعة.

نعم، إن رجال العلم في الاسلام ما كانوا لينفكوا عن دينهم، بل كان تعلقهم بدينهم تعلقاًشديداً. يتعبدون في أوقات معينة ويستعينون بالله في حل مشاكلهم العلمية، بصلاة يصلونها، أو دعاء أو صدقات.

* * *

وهكذا ابن سينا[1]، كان كلما أشكلت عليه مسألة، توجه إلى القبلة، صلى ركعتين ودعا الله تعالى، متضرعاً، فيلهمه الله تعالى ما يزيل مشكلته. كان قلبه متعلقاً بالمسجد، وقد يعتكف فيه إذا أعيته مشكلة أو عسرت عليه مسألة.

وإبن سينا هو أول من قال: إن الاضطرابات النفسية تسبب اضطرابات معدية، وقد تسبب قرحة المعدة. وهو الذي اكتشف الدورة الدموية في الانسان قبل (وليم هارفي) بـ(٦٠٠) سنة. وقال في معالجة السرطان ما توصل إليه العلم الحديث. وكتابه «القانون»، هو من أكبر الموسوعات الطبية. وكان يدرَّس في مختلف كليات الطب. وكان أهم مرجع طبي لكل من أراد التخصص في علم الطب.

وضع ابن سينا نظريات في تكوين الصخور والجبال اتخذت أساساً لعلم طبقات الأرض(Géologie) في الوقت الحاضر.

ويقال عنه، انه قال عند دنوِّ أجله: «إن الذي كان يمدني بقوة قد أمسك

---

(١) هو: أبو علي بن عبد الله بن سينا المعروف بالرئيس.

عني». فاغتسل غسل التوبة وأنفق ما كان لديه واعتق مواليه وعبيده وصار يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، حتى وافته منيته.

* * *

إن المسلمين اشتغلوا في العلوم الطبيعية وتمكنوا من حساب الوزن النوعي للعناصر. ووجدوا أن الوزن النوعي للرصاص ١١,٣٣. ويقرر العلم الحديث أنه ١١,٣٥. فالاختلاف يسير جداً.

كما أنهم اخترعوا بندول الساعة والآلات الدقيقة. واستعملوا (البوصلة)، ووضعوا قوانين الصوت والضوء، ونظريات في كلا الموضوعين لا زالت تدرس حتى الآن. ويقال أن الغربيين اندهشوا عندما شاهدوا (ساعة) أهديت إلى (شارلمان) ملك فرنسا. وقالوا: إن فيها جنياً يحركها.

وقد ألف ابن الهيثم (٤٧) كتاباً في الرياضيات والطبيعيات و(٥٨ كتاباً في الهندسة وكتباً أخرى في مواضيع شتى وهي مما مهد الطريق للمكتشفات الحديثة.

* * *

وإن كمال الدين الفارسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري يعتبر حجة في علم الضوء بلا منازع.

وقد وضع أبو الريحان البيروني في كتابه: (الآثار الباقية) والذي يبحث عن (الإيدروستاتيكا) مثل صعود مياه الفوارات والعيون إلى الأعلى وعن تجمع مياه الآبار بالرشح الجانبي إلى غير ذلك. ولا مجال لذكر ما وضع من كتب في مباحث علم الفيزياء.

وقد نبغ المسلمون في الزراعة وعلم النبات وأعمال الري وتربية الدواجن، ووضعوا فيها كتباً مفيدة. ومن أساطين هذا العلم: عبد اللطيف البغدادي، وضياء الدين البيطار، ورشيد الدين الصوري.

والمسلمون عند دخولهم إلى بلد جديد كانوا يهتمون بأمرين في وقت واحد: (١) تنظيم الحدائق، (٢) بناء المساجد.

ولا مراء أن محمد بن موسى الخوارزمي، يُعد واضع علم الجبر وقد ترجم كتابه في الجبر إلى لغات عدة.

والمهـم أن العلماء المسلمين ما كانوا لينفكوا عن ذكر الله تعالى في عملهم العلمي وتجاربهم العلمية. سـواء حين التـدريس أو الكتابـة أو العمل في المختبر. لذلك يقول الخوارزمي في أول صفحة من كتابه: «يقول الخوارزمي بعد حمد الله هادينا وحامينا». ويقول في مقام آخر: «وبالله توفيقي في هذه وغيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

وأما خواجه نصير الدين الطوسي. فهو معروف في أوساط الغرب إنه نابغة من نوابغ الرياضيات. يعتبر الطوسي كما قال بعض العلماء متفوقاً في الهندسة لا على معاصريه فحسب، بل وعلى علماء الهندسة في العصر الحاضر.

وأما (ثابت بن قرة) فقد أخذ يستعمل الهندسة في حل المعادلات من الدرجة الثالثة. وقد أخذ العـالم الايطالي (جيـرو لامو كـاردان) في القرن السادس عشر عن (ثابت) طريقته هذه في حل المعادلات من الدرجة الثالثة.

و(ثابت بن قرة) هو أول من وضع حساب التكامل والتفاضل وأوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محوره.

ولعمر الخيام حلول قيمة في الهندسة ترجمت إلى لغات أجنبية.

والمسلمون هم واضعو علم الفلك بأسلوب علمي صحيح مستعملين في ذلك الهندسة والجبر وحساب المثلثات. وقد أسسوا مراصد عـدة وكان في (مراغة) مرصد كبير، اشتهر بآلاته الدقيقة وأجهزته المتعددة.

وأما التاريخ والجغرافيا، فقد نبغ المسلمون ودونـوا فيهما كتبـاً مفصلة وموسوعات مشهورة وهم واضعو علم الاجتماع.

يقول المؤرخ (كوتيه) عن الشريف الادريسي: «إن الشريف الادريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا وهو الذي علم أوروبا هذا العلم وبقي معلماً لها ثلاثة قرون ـ ولم يكن لأوروبا مصور للعالم إلا ما رسمه الادريسي».

ولو أردنا أن نستقصي علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين وما ألفوا من

مؤلفات وما قامـوا به من اكتشافات لاحتجنا إلى وضع كتب متعددة في هذا المقام.

وأبو عبد الله القزويني اشتهر بأنه من علماء العلوم الطبيعية ومع ذلك فهو يعد من أساطين علمي التاريخ والجغرافيا وله مؤلفـات في الفلك والعلوم الرياضية مما يجعله في القمة.

كان أبو عبد الله القزويني رجلاً متديناً، وهو القائل: «ليس المراد من النظر تقليب الحدقة، فإن الحيوان يشارك الانسان في ذلك. ومَن لم يرَ من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها فهو مشارك الحيوان. وأدنى حالاً وأشد غفلة، بل المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها لتظهر حقائقها».

وكم من رجال العلم قاموا برحلات موفقة واستكشافات ناجحة وضحوا بحياتهم بغية العثور على ما في الأرض من بقاع مجهولة.

* * *

ومما يدل أن للمسلمين كفاءة مرموقة في الاختراع والاكتشاف حتى في العصر الحاضر نبوغ بعض علماء المسلمين في بعض المواضيع الحديثة. ومنهم المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة المصري. فقد وضع رسالة علمية أثبت فيها خطأ وقع فيه (أينشتين) وصحح فيها خطأه، ولذلك فد اختاره (أينشتين) ليساعده في أبحاثه. وهو الوحيد الذي زامل هذا العالم في أبحاث المادة والذرة[١].

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة على جانب عظيم من التقوى وحب الله تعالى وتقديسه. وهو القائل: «إن المجد لا يبنى على القوة، حتى، ولا على العلم، إنما يبنى على شيء آخر، وهو ذلك القبس المقدس الذي نشعر جميعاً بأنه يميز الانسان على سائر الحيوان، تلك القوة الروحية التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال. وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم. وعندي إن ما وصل إليه الانسان من العلم وما ترتب

---

(١) المسلمون والعلم الحديث: الأستاذ عبد الرزاق نوفل.

على ذلك من قدرة واختراع إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق كما أن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعان من حب الجمال. فالحق والخير جميلان. ولذلك من أحب الجمال أحبهما جميعاً. ووددت لو استطعت أن أصور للقارىء فيض ذلك الجمال الذي يدركه طالب الحقيقة العلمية: ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون!».

وهو القائل: «اليوم، وقد امتزج العالم بحياة الأمم والأفراد صار لزاماً على رجال العلم أن يبتعدوا عن الفلسفة المادية في جميع صورها وأشكالها. كما صار لزاماً على الشعوب أن يتقبلوا رسالة العلم وأن يستعينوا بها على محاربة الشر، وقد بينت أن الأرض لا تزال رحبة تتسع للناس جميعاً وأن القوى الموجودة على سطحها قوى عظيمة، فإذا استعان بها الناس على قضاء حوائجهم وسخروها لخيرهم ورفاهيتهم مستعينين بالعلم والروح العلمية، كان لنا أن ننتظر للبشر مستقبلاً يكفل طمأنينتهم وسعادتهم وسموهم».

إسمعوا ماذا يقول (أينشتاين) نابغة القرن العشرين في الفيزياء وعلم الذرة عن التوجه الديني وأثره في الاكتشافات. إنه يقول: «إن بصيرتنا الدينية هي المنبع وهي الموجهة لبصيرتنا العلمية». لذلك كان كلما حاضر محاضرة في النظرية النسبية يطلب إلى المسؤولين أن يكون الناس أحراراً في القيام بطقوسهم الدينية وتطبيقها.

* * *

يكفي في تأييد الاسلام النواحي العلمية أن قد ورد في القرآن الكريم لفظ العلم في أكثر من (٥٥٠) موضعاً مما يدل على الحفاوة البالغة في الدين الاسلامي بمفهوم العلم ومشتقات لفظ العلم. ولكن القرآن لا يدع مفهوم العلم مفهوماً مجرداً من التعليل والتوصل إلى النتيجة العقلية الحتمية التي يجب أن تؤخذ من العلم بأسرار هذا الكون: ألا وهو الوصول إلى (واضع العلم) وخالقه ومبدعه وهو الله جلت قدرته. أي يريد القرآن أن لا ينظر الفرد نظرة مادية إلى ما أودع الله من دقيق الصنع والقوانين في هذا الكون دون إرجاع هذا الصنع إلى صانع حكيم قدير.

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم هي: «إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم»[1]. فالله تعالى هو الذي علم الانسان بما أعطاه من مواهب وقابليات أن يكتب بالقلم وأن يتعرف إلى أشياء كثيرة من قوانين أودعها الله في هذا الكون الواسع الأرجاء.

لذلك يقول (رينورت): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة الرياضية التي أنعشت أوروبا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن».

* * *

ومما يؤيد اهتمام الاسلام بالعلم إلى حد بعيد، حل علي سلام الله عليه كثيراً من المسائل الرياضية والفيزيائية، ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب، ووضعه أسس علم النحو. وقوله لكميل (رض): «يا كميل، لو شئت أن أصير من هذا الماء نوراً لفعلت». يقول علي (ع) هذا القول في وقت لم تعرف الكهربائية وكيفية استخدام الشلالات في تحريك (الدينامو) وإيجاد التيار الكهربائي ومن ثم تأسيس المصابيح الكهربائية. ولم تعلم القوى النووية وتحطيم الذرة وتحرر طاقات هائلة: حسب دستور أوجده (أينشتاين): ط = ك × س٢ . . . أي أن الطاقة المتحررة من تحطيم ذرةٍ ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة.

لذلك يخاطب رسول الله علياً عليه السلام قائلاً: «ليهنئك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً».

وقول علي عليه السلام: «لو شئت أوقرت سبعين بعيراً من سورة الفاتحة». دليل على أن الاسلام يرافق العلم ويعظمه.

* * *

وقد كان للمسلمين الفضل الأكبر في إيجاد الطريق التجريبي في الاكتشاف العلمي لذلك يقول: (كوستاو لوبون) أحد فلاسفة أوروبا: «إن

---

(١) سورة العلق ١ ـ ٤

القاعدة عند العرب هي: جرِّب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً» حين أن القاعدة كانت عند الأوروبي إلى ما بعد القرن العاشر المسيحي. إقرأ في الكتب وكرر ما يقوله الأساتذة تكون عالماً!».

ويقول (كوستاو لوبون) في كتابه حضارة العرب: «إن العرب لم يظلوا طويلاً معتمدين على كتب اليونان التي نقلت لهم. فقد أدركوا بعد لأي أن التجربة والترصد والمشاهدة خير من أفضل الكتب. ولذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تُعزى إلى (بيكون)(١) أنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركنا المناهج العلمية الحديثة. فالمسلمون هم أسبق إلى نظام التجربة في العلوم».

لذلك يقول (كوستاو لوبون): «إن المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم المسيحية عدة قرون. ونحن الغربيين لم يتح لنا الاطلاع على التراث اليوناني والروماني إلا بفضل العرب ولم يستغن التعليم في جامعاتنا عما نقل إلى لغاتنا من كتب العرب إلا في أزمان متأخرة».

والحق ان ما يعرف اليوم باسم الطريقة (البيكونية) التي قوامها كما يقول (بيكون): «أننا لا نستطيع أن نخضع الأشياء ما لم نخضع لها أولاً» أي لا نتمكن من الاستفادة منها ما لم نكتشف قوانينها، ترجع أصولها إلى المسلمين المكتشفين الطريقة التجريبية. فتأثر بها (بيكون) وغير (بيكون). لذلك يقول (سيديو): الفرنسي في كتابه عن تاريخ العرب: «إن ما يميز مدرسة بغداد هو الروح العلمية الحقة التي تسيطر على أعمالها. فالمضي من المعلوم إلى المجهول، وملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة من أجل الصعود بعد ذلك من النتائج إلى الأسباب، ورفض كل شيء لم يؤيد بتجربة. تلك هي المبادىء التي سادت والتي أشاعها كبار معلمي تلك المدرسة».

ويقول (جيب) في كتابه عن «الاتجاهات الحديثة في الاسلام»: «إن انصراف الفكر إلى الحوادث الجزئية، هيأ للعلماء العرب أن يذهبوا بالطريقة

---

(١) باكون(Bacon) : راهب فرنسيسكاني انكليزي، من كبار علماء القرون الوسطى، ومطبقي الطريقة الاختبارية (التجريبية).

التجريبية إلى أبعد بكثير مما فعله سابقوهم من يونان ورومان، وأنهم الأصل في دخول الطريقة التجريبية إلى أوروبا». ويقول (همبولت:(Humbolt : «من الواجب أن يعد العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائية».

يقول المؤرخ (جيبون): إن ولاة الأقاليم والوزراء (يعني في البلاد الاسلامية)، كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلب العلم. وكانت نتيجة ذلك: أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من (سمرقند) و(بخارا) إلى (فاس) و(قرطبة). فقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين ـ هو نظام الملك ـ مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد. وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها ما يعادل خمسة عشر ألف دينار في السنة. وكان عدد الذين يغذّون بالمعارف فيها (٦٠٠٠) تلميذ. فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الناس فيها. غير أن الفقير يُنفق عليه من الريع المخصص للمدرسة. وإبن الغني يكتفي بمال أبيه. وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة».

وإن الفيلسوف الأمريكي (درابر) يعجب من وجود آراء علمية في كتب العرب كان الغربيون يعتقدون أنها لم تولد إلا في عصرنا الحديث.

وإن علماء أوروبا يقدرون ما للمسلمين من خدمات جمة في الفلسفة، لذلك يقول (رينان): «إن (آلبرت الكبير) مدين لـ(إبن سينا) في كل شيء وإن (سان توما الأكويني) مدين في فلسفته لـ(إبن رشد)[1]. وفي الوقت الذي نرى أن المسلمين يعملون في توسعة العلم الانساني نرى بمزيد الأسف أن (الكاردينال: أكزيمنيس) يأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوطة عربية في الأماكن العامة بغرناطة».

وها هو المستشرق النمساوي المسلم (ليوبولد فايس) يقول: ـ وما أصدقه ـ : «إن أوروبا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة: أن ثقافتها مدينة

(١) على انا لا نوافق (ابن رشد) في نظرياته الفلسفية كلها. ففيها نقاط ضعف لا توافق النصوص القرآنية وفلسفة الاسلام الحقة في شيء، لا مجال إلى ذكرها وردها هنا.

للاسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس، ولم يقف الاسلام يوماً ما سدًّا في وجه التقدم العلمي. أنه يقدر الجهود الفكرية في الانسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة. وما من دين ذهب أبعد من الاسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة».

* * *

يظهر من كل ما ذكر بشأن علماء المسلمين ومكتشفاتهم وما كانوا عليه من تمسك بالدين وتعبد وتهجد: أن العلم لا يعارض الدين في شيء. بل إن الدين وتعلق الفرد بربه واستمداده من علم الله الذي لا يتناهى، وطلب المعونة منه تعالى لكشف بعض أسرار الكون، يفتح على المتتبع أبواب المعرفة. ثم ان الله تعالى يهيىء له بلطفه مصادفاتٍ واتفاقات غير منتظرة، وعجيبة جداً، يظفر بسببها العالم المتتبع بحقائق جديدة وخواص مجهولة قبلاً، لم تكن بالحسبان. كل ذلك لتوجهه إلى الله تعالى ومكافأة له إزاء تعبه وتضحيته.

وأي تناف بين دستور يجده المتتبع في ربط العناصر بعضها ببعض أو ربط أجزاء العالم بعضها ببعض وبين عبادة الله في أرضه والقيام بتزكية النفس وما أمر الله به من صلاة وصوم وزكاة وحج وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإنفاق وأعمال صالحات وما أكثرها... الخ.

بل هناك علاقة متينة بين ما يجده العالم من دساتير وبين واضع هذه الدساتير في هذا الكون الرحيب. ثم الخشوع والخضوع، بصلاة وتسبيح تجاه عظمة مَن وضع هذه الدساتير بهذا الاتقان المحير للعقول وهو الله جلت عظمته. إذ أن إرجاع المعلول إلى العلة أمر فطري في البشر ما لم تتلوث هذه الفطرة بخمور وفجور وبغي وظلم. أي ما لم تتلوث هذه النفس التي هي أعز الأنفس علينا بما يبعدها عن ساحات القدس. فقد جاء في الحديث: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه. فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه. وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب».

فما على هذا الانسان إلا أن يقلع عن ذنبه حالاً، كي لا تتراكم ذنوبه،

فيسودّ قلبه، فلا يبصر الواقع والحق وتتغلب إذ ذاك عليه المادية الخالكة، فيتمسك ـ لا سمح الله ـ بالمادية العمياء، وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً! لذلك يستحب أن يستغفر العبد ربه، عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». كما يستحب له أن يستغفر الله بصوت خافت بعد التسبيحات الأربع في الركعةالثالثة والرابعة من صلاة الظهر والعصر والعشاء.

* * *

وهكذا الفلسفة التي يتبناها الفيلسوف وغير الفيلسوف وهي رشحات نفسه، فإن كانت نفسه طاهرة زكية بعيدة عن الفسوق والعصيان مؤمنة بالله والبعث كانت فلسفتها تناسب نفسه، فلسفة قريبة إلى الواقع وإن كانت نفسه نفساً لئيمة، خبيثة، مكارة، غدارة، قاسية، متحجرة، ففلسفتها تكون فلسفة هدامة، سفاكة، مخربة، لا ينبض فيها شيء من محاسن الأخلاق، شيء من العطف والحنان، ففلسفة كل انسان مرآة نفسه.

وقد أخطأ (تنمان(Tenne mann في قوله: «إن جملة عوائق وقفت تقدم المسلمين في الفلسفة، وهذه العوائق ترجع إلى كتابهم المقدس الذي يتعارض ونظر العقل الحر». وذلك لأن القرآن الكريم يدعو الناس إلى التفكير الحر وينهى عن التقليد الأعمى بقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها﴾[1]. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2]. وبقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[3]. و﴿لآيات لقوم يعقلون﴾[4]. ﴿إن في خلق السماوات واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب﴾[5]. ﴿أفلا

---

(١) سورة محمد (ص): ٢٤

(٢) سورة الرعد: ٣١

(٣) سورة النمل ١٢، وسورة الروم: ١٣.

(٤) سورة البقرة: ١٦٣

(٥) سورة آل عمران: ١٩٠

تعقلون﴾[1]، ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾[2]. وبقوله: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.

وقد ذم الله تبارك وتعالى أولئك الذين لا يعقلون بقوله: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[3]. وبقوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[4]. وبقوله: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب﴾[5] .

الاسلام يريد منا أن لا نتقبل شيئاً دون تمحيص وتمييز وذلك بقوله: ﴿فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[6] .

وقد عظم أمر العقل والتفكير إلى حد بعيد بقوله: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾[7] .

وقد جاء في حديث: «إنما يُداق الله العبادَ في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا».

وإذا أردت أن تعرف مَن هو ذلك العاقل الذي يتبنى فلسفة حقة لا تزيغ به الأهواء فيميل إلى هاهنا وهاهنا من مسالك ضالة مضلة. فانظر إلى ما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين يعرفنا (العاقل) أنه يقول مخاطباً هشاماً أحد أصحابه: «يا هشام، إن العاقل هو الذي لا يشغل الحلالُ شكره

---

(١) سورة الأنعام: ٣٢، وسورة القصص: ٦٠

(٢) سورة العنكبوت: ٤٣

(٣) سورةالبقرة: ٦٥

(٤) سورة الأنفال: ٣٢

(٥) سورة البقرة: ٢٦٩

(٦) سورة الزمر: ١٨

(٧) سورة آل عمران: ١٩١

ولا يغلب الحرام صبرَه». فمن كان مصداق هذا الحديث فانه يزَّيف كل فلسفة بشرية، ولا ترتاح نفسه إلا إلى فلسفة الاسلام الحقة.

وإن كانت التجربة سند العلم الحاضر، فليجرب من كان يشك في صحة هذا المقال، ليرى كيف يخرجه الله تعالى من الظلمات إلى النور بمنه. ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾.

القرآن وما فيه من فلسفة حقة لم يدع مجالاً لظهور فلاسفة في الشرق بالمعنى الذي يريده (تنمان)، إلا إذا انحرف هذا الفيلسوف عن النصوص القرآنية وجاء بنظريات هوجاء تعبر عن هوى نفسه! ذلك لأن حقيقة الوجود وما أودع الله فيه من كمال ووظيفة الانسان وما سخر له من عوالم شتى من جماد ونبات وحيوان وربط العوالم المختلفة بعضها ببعض كل ذلك مسطور في كتاب الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1] - بتعبير واضح. ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[2]. ﴿وما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[3].

إلا أن هذه الفلسفة الحقيقية التي يضمها القرآن الكريم، هذه الفلسفة الإلهية التي منَّ الله بها على عباده من عالم الغيب أي من عالم غابت عنا حقيقته وليس لنا أن نصل إلى كنهه، لا يصل إلى تفهم عمقها وأثرها في تكامل البشر فيلسوف لم يخرج بعد عن ماديته الضيقة وهو ينظر إلى الوجود نظراً سخيفاً متأثراً ببيئته، فيلسوف ظن أن الاصطلاحات والظنون والمزاعم الباطلة، أو تلفيق وجهات نظر فلاسفة متعددين (أو متفلسفين) تؤلف فلسفة حديثة أو تقدم معطيات جديدة في عالم الفلسفة والعلم.

إن فلسفة هؤلاء، هذه الفلسفة التي طابعها المادية، هي وليدة نفوس متحجرة، بعيدة كل البعد عن فلسفة الاسلام الحقة، وان هذا البعد نفسه

(١) سورة السجدة: ٤٢
(٢) سورة النحل: ٨٩
(٣) سورة الأنعام: ٣٨.

يجعل الفيلسوف الغربي ومنهم (تنمان) يزعم أن ليس في القرآن فلسفة أو أن القرآن يتعارض ونظر العقل الحر، أنه يريد اصطلاحات وتلفيقات ليس من ورائها الوصول إلى صلب الحقيقة والواقع وإنما هي ظنون وأهواء!!.. ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[1].

* * *

إذا كان موضوع الفلسفة البحث عما وراء الطبيعة وكان ما هو وراء المادة أو الطبيعة مجهولاً لهذا الانسان لعدم وجود مقياس مشترك بين هذين العالمين، فمن العبث أن يزعم أو يوقن هذا الانسان إن ما تمليه عليه نفسه (هذه النفس التي تتحول معطياتها من وقت إلى وقت) هو الواقع الصحيح. أما الفكر البشري، فيعمل لأجل البحث عن خواص المادة والقوانين التي تتحكم فيها وليس له أن يقيس ما وراء الطبيعة على ما هو في الطبيعة، فيعمم ما يجده من قوانين ومعادلات في الطبيعة على ما وراء الطبيعة، وان قول الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ هو غاية ما يمكن أن يقال عن الروح مع ما نحن فيه من جهل مرير.

فما تقوّله الفلاسفة عن الوجود، وعن الله تعالى، وعما وراء الطبيعة لا يخلو عن مقترحات تنمّ عن مرتبة نفوس أصحابها في ساحات الكمال أو أودية التسافل وهو ليس من الواقع الحقيقي في شيء. ذلك لأن العقل الفطري ينحجب عن فعاليته وإعطاء الحكم الصحيح عند تلوث النفس. ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه، فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن تدعهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبداً﴾[2]. ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين[3]، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾. فهناك رابطة وثيقة بين معطيات العقل عن الفلسفة الحقة ودرجة تكامل النفس وتسافلها.

---

(١) سورة النجم: ٢٣

(٢) سورة الكهف: ٥٨

(٣) سورة الحجر: ١٢

وأما فلسفة القرآن أو الحقائق التي أوحاها الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فهي الحق الصريح الذي لا غبارعليه ولا ريب فيه، بعد إثبات نبوة محمد خاتم النبيين بالعقل والمنطق. ذلك لأن هذه الحقائق إنما جاءت من منبع صافٍ فياض. جاءت بوحي منه تعالى: ﴿ألا يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1]. ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾[2].

* * *

وقد أضرت فلسفة اليونان وفلسفات أخرى بالاسلام ضرراً بالغاً. على أنه قد نبغ في المسلمين من تفهم الفلسفة اليونانية وصححها على ضوء فلسفة الاسلام الحقة، ومع ذلك كله لم ينج هؤلاء الفلاسفة من الزلل في القول والابتعاد عن صريح القرآن. فالاسلام في غنى عن استجداء فلسفة بشرية حالكة. فقد جاء في (أصول الكافي)، عن الصادق عليه السلام: «قال رسول الله (ص) القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة. فيه كمال دينكم. وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار».

ولا يعلم صحة ما قاله رسول الله (ص) إلا من سلك مسالك الصلحاء ونهج مناهج الأتقياء، عند ذلك يعلم أن لا فلسفة تطابق الواقع والمنطق إلا فلسفة القرآن الحقة.

* * *

وكم للمنصفين من الغربيين من شهادات تنص على عظمة القرآن وأنه كتاب الله المنزل ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾.

---

(١) سورة الملك: ١٤

(٢) سورة النمل: ٧٥

فقد قال «أدموند يورك» الخطيب السياسي الانكليزي: «القانون المحمدي (القرآن) قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون نسج بأحكام نظام قضائي وأعظم قضاء علمي، تشريع لامع ما وجد قط مثله في هذا العالم من قبل».

وقد قال الكاتب (مراشي): «من يتأمل آي القرآن يجد أن أساس الاسلام التوحيد وقطبيه التآخي وتحسين شؤون العالم تدريجياً بواسطة العلم. فهذه هي الأسباب الحقيقية لظهور الاسلام».

وقال (المستر بيكتول): «القرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم ومكنهم من إنشاء امبراطورية فاقت امبراطوريات أسكندر الكبير، والامبراطورية الرومانية، سعة وقوة وعمراناً وحضارة ودواماً».

وقال (كوستاو لوبون): «إن القرآن لم ينشر إلا بالاقناع لا بالقوة، فاستطاع بذلك أن يجذب إليه الشعوب وتدين به تلك الشعوب».

وقال (ريتو نبورث): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة مقتبسة من القرآن، فجميع العلماء مدينون له».

ويقول أحد الغربيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي: «هل يتأتى لجميع فلاسفة العالم أن يثبتوا غلطة واحدة في القرآن، ولو ارتكنوا على كل ما في أيديهم من العلوم العصرية، لا يتأتى لهم ذلك. ولو وجدوا فيه خطأً صغيراً ما كانوا إلا مظهريه. ولكن أنّى لهم ذلك؟؟ والعلوم كل يوم في تبدل وتغير. وفي كل لحظة تظهر معانٍ باهرة لآيات قرآنية، ما كنا لنفهم معناها إلا بعد تقدم العلوم».

«لأضرب لكم مثلاً: كان الفلكيون يدعون أولاً أن الأرض ثابتة والشمس متحركة[1]. ثم قالوا: بل الأرض متحركة والشمس ثابتة، ثم جاءوا

---

(١) لقد قال فيثاغورث قبل الميلاد: أن الأرض تدور حول الشمس، أي أن الشمس ثابتة والأرض متحركة. وقد فات الكاتب أن يضيف ذلك... وقد بينا حركة الشمس في الجزء الأول مع شيء من التفصيل.

اليوم يقولون: علمنا الآن أن كلا في فلك يسبحون، وان الشمس تجري لمستقر لها. فمن هنا علمنا أن العلوم تتغير وتترقى والقرآن ثابت لا يتغير بالحوادث».

«فإن وجد في الكتاب الحكيم شيء لا نفهمه، وجب علينا أن ننتظر رقي العلوم، ولا نشك لحظة في صحة القرآن».

ثم يقول: «قصدت في سياحاتي مدينة (بو تارليه) لمقابلة الدكتور (جرينه) المسلم الفرنسي الشهير، الذي كان عضواً في مجلس النواب، للسؤال عن سبب دخوله في الاسلام، فعند الوصول والسؤال منه، قال لي: «تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية والصحية والطبية التي درستها من صغري وفهمتها جيداً فوجدتها منطبقة كل الانطباق مع معارفنا الحديثة، فأسلمت، لأني تيقنت أن محمداً (ص) أتى بالحق الصراح، من قبل ألف سنة، من غير أن يكون له مدرس من البشر. ولو أن صاحب كل فن من الفنون أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما يعلمه جيداً، كما قارنت أنا، لأسلم دون ريب، إن كان عاقلاً، خالياً من الأغراض»[1].

* * *

يقول المؤرخ الكبير (لوثرب ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الاسلامي):

«قد سارت الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) أحسن سير. فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً، وما انفك الشرق الاسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل إلى الغرب نوراً».

ويقول (كولدزيهر) تحت عنوان (الدين والمروءة): «إن الاسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية. وهذان المثلان لا

---

(١) من مقال للأستاذ السيد أحمد الحسيني في مجلة «صوت المبلغين» التي تصدر بكربلاء.

يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لا حد لها والكرم إلى حد الاسراف، والاخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية، أما في الاسلام: فالخضوع لله والانقياد لأمره، والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة، وعدم التفاخر، وتجنب الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للانسان في الحياة».

ويقول (ليودوروش): «إن الاسلام دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه، بل إني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جول سيمون): (الشريعة الطبيعية)، فوجدتها كلها أخذت عن الاسلام، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب».

ويقول (ماسينيون): «يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر من موارد الجماعة، والاسلام ينبذ التبادل غير المقيد، كما يناوىء الأموال المصرفية في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوجة والملكية ورؤوس الأموال التجارية. فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية. وللاسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام ماضٍ كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات، ولقد برهنت الطوائف الاسلامية الكبرى في أفريقيا والهند والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها».

* * *

ولكي نعرِّف الاسلام أنه دين الفطرة والتسامح، لا بأس بذكر شهادة

(سيرت. و. أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الاسلام): «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وان العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح».

حقق الله على أيدي العاملين المجاهدين: أن يدين العالم أجمع بدين الفطرة، دين الاسلام، دين العقل والمنطق، فيقول كل فرد من أبناء العالم:

«ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم، فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار»[1].

* * *

وهكذا نرى (الاسلام) دين العلم والعمل الصالح، قد حقق على أيدي المسلمين كثيراً من المكتشفات في شتى الحقول حتى عدوا مؤسسي النهضة العلمية الحديثة في أوروبا، ولم يكتف الاسلام بالحث على العلم فحسب، بل أراد للبشر الاستمرار في البحث والاستزادة من العلم دوماً وذلك بقوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾.

غاية ما هنالك: يريد (الاسلام) أن يرافق الورع والتقوى العلم والمكتشفات، كي يترشح منها[2] اليقين بالله وكتبه ورسله وبعوالم القدس وحياة لا ظلم فيها ولا فساد. وذلك بقوله جل من قائل:

﴿أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٣

(٢) التقوى والعلم.

(٣) سورة الزمر: ٩. قانت: طائع، مواظب عل الطاعة.

من حقائق القرآن

﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون﴾

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونية، هي عصارة ما توصل إليه العلم الحديث، لا سيما في القرن الأخير. وأنها معجزة خالدة ما بعدها معجزة. كل ذلك، لكي يعتبر هذا الانسان بهذا الكتاب السماوي ويعلم أنه منزل من ربه لهدايته، ويعلم أنه لم يُخلق عبثاً وإنما خُلق لغاية سامية تتناسب وعظمة خالقه: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. (سورة الدخان: ٣٨ - ٣٩).

إنه تعالى يقول نحن بنينا السماء بقوتنا وقدرتنا ونحن نوسع السماء ونوسِعها حيث لا يعلم مدى هذا التوسع والإمتداد إلا الله تعالى.

كان (أينشتاين) يريد أن يحسب وزن العالم: (الكتلة) أي وزن ما في الكون من كواكب وأنجم وأجرام، ثم عدل عن هذاالرأي لما رأى أن نجوماً تتشكل حديثاً ونجوماً أخذت تقطع مراحل الكهولة وقد أوشكت أن تبيد.

وقد ثبت أخيراً أن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة مخيفة، وأن الكون آخذ بالتوسع بسرعة فائقة.

يقول علماء الفلك: إن مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون من النجوم أو أكثر. وإن ما بين النجوم ممتلىء بالغازات ومواد مختلفة، خلاف ما كان يتصوره بعض الناس قبل ذلك. وان التحليل الطيفي للنجوم البعيدة جداً قد دل بصورة قطعية على وجود الغاز الكوني بين النجوم والمجرّات بحالة تخلخل شديد جداً، إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون ميل مكعب من الفضاء. وهذا الغاز مكون كله تقريباً من غازي الايدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

قد ثبت أن النجوم كلها متحركة «كل يجري لأجل مسمى» وأن مواضعها بالنسبة لبعضها البعض قد تغيرت. ولكن لكونها بعيدة عنا جداً أي بعيدة عنا ملايين السنين من السنين الضوئية لا نشعر بحركتها، فلا تتبدل خارطة السماء إلا في بعض مئات من آلاف السنين. وأما السنة الضوئية فهي ما يقطعه الضوء بسرعته الكبيرة خلال سنة واحدة من أميال أوكيلومترات. وبما أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل أو (٣٠٠٠٠٠) كيلومتر تقريباً. وان السنة تعادل (٣١٥٣٦٠٠٠) ثانية. إذن؛ ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥ × ١٨٦٠٠٠ ميل = ٥٨٦٥٦٩٦٠٠٠٠٠٠ ميل وهو ما يقطعه الضوء من أميال خلال سنة واحدة. أي ٦ مليون مليون من الأميال على وجه التقريب. أو ١٠ مليون مليون كيلومتر تقريباً.

وقد علم أن متوسط سرعة النجوم في حركتها إلى جهات شتى هو (٢٠) كيلومتراً في الثانية. فالشمس مع سياراتها (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانس، نبتون، بلوتو) وتوابعها من أقمار تتحرك بسرعة تبلغ (١٩,٥) كيلومتراً في الثانية الواحدة بالنسبة للنجوم القريبة حولها أي أن الشمس مع سياراتها وتوابعها تتحرك بهذه السرعة الهائلة: (سبعين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً) على شكل لولبي نحو نجمة في السماء تسمى بالنسر الواقع. وتتحرك بسرعة أخرى في فلك حول مركز المجرة.

والمجرة هي منطقة طويلة من النجوم تمتد فوق رؤوسنا كالقوس ويمتد من أفق إلى أفق وقد تركزت فيها النجوم أكثر تركز وتكثفت فيها بعضها فوق بعض أكبر تكثف، أو هي كالطريق في السماء ازدحم بسالكيه ازدحاماً وما سالكوه إلا النجوم. على أن في السماء مثل هذه المجرة التي فوق رؤوسنا مجرات متعددة لا تعد ولا تحصى.

وقد دلت الأبحاث على أن نجوم كل مجموعة في المجرة فضلاً عن دورانها في أفلاكٍ بعضها حول بعض، فانها جميعاً تتحرك بحركة مشتركة حول المحور الأصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرة.

فالأجرام تدور في مجموعتها في أفلاك ثابتة بالنسبة لبعضها البعض وفي

الوقت ذاته تدور كل مجموعة بأجرامها المتلازمة حول المحـور الأصلي للمجرة في فلك خاص.

وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفي للمجرات الخارجية على أنها تتباعد عنا، أي يتباعد بعضها عن بعض باستمرار وسرعات عظيمة جداً تقدر بآلاف الأميال في الثانية الواحدة. فعلم أن الفضاء يتمدد بين المجرات ويتسع باستمرار. وان هذا التمدد يقدر بمائة وخمسة أميال في الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية. وعُلم أن حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أميال حجمه منذ بداية تمدده. أي أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف ما كان عليه أولاً. وعُلم أيضاً أن هناك من النجوم حجومها ملايين المرات قدر حجم الشمس.

ولقد أمكن باستعمال أجهزة خاصة التعرف إلى نجوم قد أرسلت ضوءها منذ ملايين السنين ولكنه لم يصل الينا لحد الآن. فعلينا أن نتصور سعة الكون الذي خلقه الله تعالى وهو يتسع يوماً بعد يوم بأمره تعالى كما اتسع بأمره حتى بلغ ما عليه اليوم.

وعُلم أيضاً بعد مشاهدات دقيقة أن هناك ملايين من مجرات خارجية منتشرة في الفضاء كما بينا وأن كل مجرة مؤلفة من بلايين النجوم.

يقول (سير جينز): إن أكثر هذه المجرات منتشرة انتشاراً منظماً في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر نحو مليـون ونصف من السنين الضوئية مع العلم أن الضوء يقطع ٦ مليون مليون من الأميال (تقريباً) في سنة واحدة.

يقول الأستاذ (كامو): إن (هَبل) مدير مرصد (مونت ولسن) الذي له أبحاث هامة عن المجرات الخارجية قد سبر أغوار الفضاء بمرقب مرصده الكبير وتوغل فيها فتمكن من النظر إلى مسافات سحيقة تقدر نحو خمسمائة مليون سنة ضوئية. وقد أحصى من المجرات الخارجية نحو مائة مليون مجرة وإنه يحتمل وجود مجرات أخرى على مسافات أعظم من هذه التي شاهدها (هَبل).

ويقول: إن أبعاد هذه المجرات الخارجية تتضاءل بجانبها أبعاد النجوم في مجرتنا التي يبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئية وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئية.

وقد دل الحساب الرياضي من المشاهدات الدقيقة: على أن أبعاد المجرات الخارجية عن مجرتنا مذهلة. إذ وجدوا أن أقربها منا، ويدعى سديم: (أندرو ميدا العظيم) يبعد بنحو ستمائة وثمانين ألف سنة ضوئية. ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ومئات الملايين من السنين الضوئية. فما أوسع فضاء هذا الكون وما أعظم خلق الله العلي القدير.

إذا كانت شمسنا هذه تبعد عن أقرب نجمة اليها ٢٦ مليون مليون ميل، فإن الصاروخ يجب أن يسير بسرعة الضوء أي بسرعة (١٨٦ ٠٠٠) ميل في الثانية، مدة أربع سنوات وأربعة أشهر تقريباً كي يصل إلى أقرب نجمة الينا. وأنى للصاروخ أن يسير بهذه السرعة العظيمة وأن نقطع في الثانية الواحدة (١٨٦ ٠٠٠) ميل أو (٣٠٠ ٠٠٠) كيلومتر. مع العلم أن أسرع ما وجد من الأجسام المادية السريعة (عدا الأرواح طبعاً) هو الضوء. وكل ما كان أكثف من الضوء كانت سرعته أقل. ويقال إن سرعة الأمواج الهرتزية هي بقدر سرعة الضوء تقريباً وهي طاقة كهربائية. فلا يمكن أن توجد واسطة مادية سرعتها بقدر سرعة الضوء على ما ثبت في الفيزياء. وعلى فرض الإمكان فنحتاج من العمر مئات الملايين من السنين كي نصل إلى بعض النجوم التي نشاهدها بآلاتنا الحاضرة، شريطة أن نسير بسرعة الضوء. ومما لا شك فيه أنه مع تقدم العلم سوف يمكن (بإذن الله) كشف آلات أدق وأمتن، فيرى إذ ذاك من النجوم والمجموعات النجمية والمجرات ما لا يمكن رؤيته في الوقت الحاضر.

إن الله تعالى يقول: ﴿تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[1]، فيصعد الملك أو جبرائيل في ما خلق الله من أكوان

---

(١) سورة المعارج: ٤.

في يوم مقداره خمسون ألف سنة، وبما أنه لا يمكن قطع ما خلق الله تعالى من مسافات شاسعة وأكوان متعددة بسرعة الضوء وان استمر السير ملايين ملايين من السنين، إذن وجب أن نقول أن سرعة الملك أضعاف أضعاف سرعة سير الضوء.

وقد عُلم أخيراً أن في الفضاء منظومات شمسية تعد بالملايين تشبه نظامنا الشمسي، أي أن كلا منها له سيارات فُتقت منه وتدور حوله وتوابع أقمار فتقت من سياراتها وتلف حولها وأنه بسبب أبعاد النجوم الساحقة وضآلة الضوء المنعكس من السيارات وضعف قوة المراقب(Telescopes) الحالية لا يمكن إثبات وجود هذه الأنظمة (المنظومات الشمسية) بالمشاهدة الفعلية.

فانظر كيف تتحقق الآية الكريمة: ﴿والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون﴾ وقد نزلت في وقت لم تكن هناك مراقب (تلسكوبات)، ولم يكن يعلم أحد أن هذه السماء تتوسع يوماً بعد يوم بنظام خاص أودعه الله فيها وطاقات هائلة جهزها الله بها. فقد حدث انفجار في الشمس سنة ١٩٥٦ م قدرت الطاقة المتحررة، فكانت تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينية مع العلم أن طاقة قنبلة هيدروجينية تعادل طاقة ألف قنبلة ذرية. والقنبلة الذرية لا تبقي ولا تذر! فسبحان الذي خلق هذه الطاقات الهائلة بارادته وشكلها كما يشاء بحكمته، وأودع فيها من النظم والقوانين والمعادلات كما أراد بتدبيره. وهو القائل: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[١].

إن الانسان ليندهش حين يرى أن علياً عليه السلام يجيب عندما يسأل عن المسافة بين السماء والأرض. بقوله: «دعاء مستجاب». ذلك لأنه ليس هناك عدد يمكن أن يُعبر به عن هذه المسافة التي لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى. إلا أن يقال: «دعاء مستجاب». فإن الله تعالى لا يخلو منه مكان وهو القائل: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٢]... ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك

---

(١) سورة الكهف: ٥٢

(٢) سورة ق: ١٦

ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة. إن الله بكل شيء عليم﴾[1].

فهل يجدر بهذا الإنسان أن يركبه الغرور، فيترك عبادة ربه، هذه العبادة التي تأخذ بمجامع قلبه وتجعله سائراً في عوالم الملكوت، سائراً في ساحات القدس، حيث لا دنس ولا رجس. سائراً في عوالم من الاطمئنان والحبور ما لا يمكن أن يقاس بأفراح هذا العالم المادي وما يترشح من المادة الصماء، منغمراً في موسيقى العالم اللانهائي تاركاً العالم المادي الضيق الحالك وراء ظهره.

فطوبى لنفوس عرفت لماذا خُلقت، فازدادت معرفة بالله تعالى وحققت الغاية الرفيعة التي خلقت لأجلها. وهو القائل كما جاء في حديث قدسي مخاطباً ابن آدم: ﴿خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي﴾. ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[2].

أيجدر بهذا الانسان أن يعثو فساداً في الأرض والله تعالى يقول: ﴿كلوا واشربوا ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾. كل ذلك: لأنه جاء بصاروخ أدواته من خلق الله، وتركيبه بعقل أوجده الله. مع علمه أن هذا الصاروخ مركب من (٣٠٠ ٠٠٠) قطعة مرتبة ترتيباً هندسياً دقيقاً لو تخلفت احدى القطع عن الترتيب الهندسي لفشل الصاروخ ووقف عن الانطلاق فكيف لا يعظم ولا يقدس خالقه الذي جهز مخه بـ(٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠) عصب لكل واحد منها وظيفته، فلو جسَّ أحدها حدثت عوارض تختلف عما لو جس غيره. ولو حسبنا بحساب رياضي (حساب الاحتمالات) نرى أن ليس هناك أية صدفة تجعل عشرين مليون عصب تترتب بهذا الترتيب الدقيق حتى تتوارد عليها الاحساسات فتشعر الروح بواسطتها بما حدث. فهي دونما تشبيه كآلة الراديو. فكما أن الراديو ليس هو الصوت والمتكلم هكذا هذه الأعصاب

---

(١) سورة المجادلة: ٧

(٢) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨

الكثيرة في المخ الإنساني ليست هي الروح والانسان وإنما واسطة لتحسس الروح أو النفس. وحسب ما هو مقرر في حساب الاحتمالات: إن الاحتمال الذي يجعل عشرين مليون عصب تترتب ترتيباً هندسياً فيؤدي إلى إنتاج مطلوب هو واحد من ١٠ متبوعة بعشرين مليون صفر إلا صفراً واحداً، أي: واحد من ١٠ مرفوعة إلى قوة عشرين مليون. ومعلوم أن من نسبة

$\frac{1}{20\,000\,000}$ أو: $\frac{1}{10^{10^{7}} \times 2}$ هوالصفر.

ولما كان ما خلق الله من عوالم مختلفة من جماد ونبات وحيوان وما رتب لكل منها ترتيباً دقيقاً لا يُعد ولا يحصى إذن تصبح النسبة:

$\frac{1}{\infty} = \frac{1}{\infty} = 0$ فلا صدفة أبداً.

على أن للمفكر أن يقول: ومن أين جاءت هذه الأجزاء التي كل منها بدورها مشكل من جزيئات أخرى بصورة دقيقة وهندسية وهكذا دواليك حتى ينتهي بنا إلى جهل الواقع.

﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

كيف لا يفكر هذا الانسان أن من يأتي بتركيب هذا الانسان العجيب لا يخلق عبثاً ولا يوجد لاهياً، وأن وراء هذا الخلق غاية رفيعة سامية. إلا وهي معرفة الله تعالى وهو القائل كما جاء في حديث قدسي: ﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف﴾. فلا بد من أنبياء ولا بد من دساتير تقرب النفوس إلى الله تعالى. وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[2].

ولكنها الذنوب والفجور والخمور، تراكمت دون توبة واستغفار على قلب هذا الانسان فحجبته عن رؤية الحق والواقع وأعمته: ﴿إن أعمى العمى عمى القلب﴾ فصار لا يؤمن إلا بالمادة العمياء، وسول له شيطانه

---

(١) سورة الحج: ٤٦

(٢) سورة الأنبياء: ١٧

مزاعمه وصار يتشدق ويعزو كل شيء حتى الأخلاق إلى المادة والوضع الاقتصادي وكأنه جاء بفلسفة! وفهم سر الحياة متهماً غيره بالرجعية والخرافة! ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾(١).

ما أعظم هذا الحديث، حيث يشرح تأثير الذنوب في النفس: ﴿إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه. وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب﴾. لذلك يستحب أن يستغفر كل منا عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً ثلاث مرات: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». كي لا تتراكم ذنوبه بعضها على بعض فيسود قلبه، فيأتي دور الإنكار والجحود: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾(٢).

﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا، به الحق، واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾(٣).

ولكن مهما يكن من شيء فإن الغلبة للمؤمنين في هذا العالم على قلتهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(٤). فلا بد من تضحية ولا بد من جهاد. وهو القائل: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾(٥).

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨

(٢) سورة العنكبوت: ٤٩

(٣) سورة الكهف: ٥٧

(٤) سورة الحجر: ٩

(٥) سورة العنكبوت: ٦٩

فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون

- ١ -

إن الله عز وجل يُقسم بما نراه وبما لا نراه مما خلق من عوالم شتى: عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان وعـالم الأرواح وعالم الجن وما في السماء من عوالم لا تُرى حتى بأدق الآلات.

والقسم بما خلق قسمٌ بعظمته تعالى وبالدقة المتناهية التي أودعها في مخلوقاته، وارتباط هذه المخلوقات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً يحير الألباب: ﴿ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت. فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾. ذلك لأن الانسان كلما تقدم في تحقيقاته وتجاربه، كلما ظفر بدساتير جديدة كانت تخفى عليه، وخواص عجيبة وسعة لا تتناهى ودقة لا تستقصى، أودعها الله في أرجاء هذا الكون الرحيب.

فيحق لله تعالى أن يقسم بعظمته التي لا تتناهى ـ هذه العظمة التي تتجلى في ما نبصره وما لا نبصره.

إن قابلية الانسان في الإبصار قابلية محدودة، لذلك يستعين بآلات شتى: (المجهر: Microscope) كي يُبصر الدقيق من الأشياء، كالميكروبات والجراثيم التي يجب أن تكبر آلاف المرات بل عشرات الآلاف، كي يمكن رؤيتها، أو يستعين بالمرقب: (Telescope) ليرى في مسافات شاسعة ما خلق الله من كواكب وأنجم وشموس ومجرات وما أودع الله في الفضاء من مادة غازية قليلة الكثافة جداً.

قـد بلغ ببعض الأفراد في أوروبـا التسافـل في النفس حتى صاروا

يجحدون الروح والنفس والملائكة، يجحدون الخالق جل جلاله وكل ما لا يرى بالعين ويؤمنون بكل ما يرى بالعين.

حين أن العين ذات قابلية محدودة. فهناك كثير من الأشياء كان ينكرها المادي سابقاً لعدم وجود آلات يبصرها بها، ثم اعترف بها بعد اكتشاف آلات تساعد على الرؤية. وكذلك اليوم، هناك كثير من الأشياء لا ترى حتى بأدق الآلات ولكنها سوف ترى في مستقبل قريب عندما تكتشف آلات جديدة ودقيقة جداً.

لذلك تنقسم الموجودات إلى: منظور وغير منظور. فكل ما يراه الانسان بعينه المجردة أو بالمجاهر أو بالمراقب أو الأجهزة المقربة وكل ما في السماء وما تحت الأرض وما في قاع المحيطات وما في السحب: كل ذلك من العالم المنظور. وأما العالم غير المنظور فهو ما لا يمكن رؤيته بالآلات أو بالعين المجردة ولكنه موجود، يحكم العقل بوجوده أكثر مما يحكم بوجود المنظور كالخشبة.

فهناك أشعة لا ترى بالعين ولا بالآلة: أشعة غير منظورة. أي أن هناك أشعة مرئية وأشعة غير مرئية. وإن الأشعة المرئية هي جزء صغير من الصورة الكلية للضوء. والأشعة غير المرئية أكثر تفرعاً وتأثيراً من الأشعة المرئية. لذلك أخذ يقول علماء الضوء: إن كلمة (ضوء) أو (حزمة ضوئية) أو (إشعاع) قد لا تدل على حقيقة الضوء، والأولى أن يقول: (الطاقة المشعة)، لتدل على جميع أنواع الإشعاع: المرئي منها وغير المرئي.

على أن العلم الحديث لم يصل إلى حقيقة الضوء كما لم يصل إلى حقيقة القوى أو كل شيء قواني (منسوب إلى القوة)، لم يصل إلى حقيقة القوة الجاذبة وحقيقة الكهرباء. إنما تُفرض فروض فيفسر بها بعض الظواهر، ثم تخمد تلك الفروض بعد برهة من الزمن ويُعوض عنها بفروض أو فرضيات (Hypothèses) أخرى يمكن تفسير الظواهر القديمة والجديدة بها معاً وهكذا دواليك...

فالعلم الحديث لا يتيسر له الولوج إلى أعماق الأشياء والوصول إلى

حقائقها التي لا حقيقة بعدها. وهو يعمل دوماً للوقوف على أسرار الأشياء وإذا به يقف أمام أودية جديدة من المجاهيل تدهش الألباب.

فمن تلك الأشعة غير المرئية: الأشعة السينية(X Rays) ، أو أشعة (رونتكن). هذه الأشعة تخترق الأجسام التي لا يمكن أن يخترقها الضوء العادي! وقد اكتشفت بالصدفة. إنها قوية جداً ذات موجة قصيرة. فإن طول موجتها (١٠٠٠٠) مرة أقصر من طول موجة (الضوء المنظور).

ومن الأشعة التي لا ترى بالعين (ولو بالآلة) الأشعة الجيمية (أشعة كاما). وهي ذات موجة قصيرة أيضاً، أقصر من طول موجة الأشعة السينية.

ومن الأشعة التي لا ترى: الأشعة (فوق البنفسجية(Ultra — Violet فان طول موجتها أطول من طول موجة الأشعة السينية وأقصر من طول موجة الضوء المرئي.

ومن الأشعة غير المرئية: الأشعة (دون الحمراء) في شعاع الشمس. وهي موجات حرارية نحس بها ولا نراها وهي تصل إلى الأعصاب والعضلات، ولا يحس فيها الفيلم العادي للتصوير.

وقد استخدم الإنسان الأنواع المذكورة من الأشعة في الكشف عن أمراضه ومعالجة كثير منها وقد استخدمها أيضاً في الغذاء والدواء.

وقد علم أن الأشعة فوق البنفسجية التي هي في شعاع الشمس، تقتل كثيراً من الجراثيم المضرة. وقد جاء في الشرع المحمدي (ص): أن أحد المطهرات هو الشمس. فتطهر الأرض النجسة أو الأبواب أو الجدران أو الأشجار أو الثمار التي عليها (من غير المنقول) والحصران والبواري (من المنقول) بعد زوال العين، بإشراق الشمس عليها حتى تجف، وإن كان ما ذكر جافاً فيصب عليه الماء حتى تجففه الشمس بالاشراق عليه.

وهكذا موجات الراديو، وموجات الرادار الذي يكتشف وجود الأشياء في الفضاء ويحدد مكانها بالضبط من النوع غير المنظور.

* * *

وقد تكون بعض الأجسام المادية، في وقت، من نوع غير المنظور، لعدم وجود آلات تكشف عنها. وبعد اكتشاف آلات جديدة ودقيقة وتقدم الفيزياء والرياضيات العالية، تصبح من النوع المنظور.

مثال ذلك: ما كان يعلم قبل (١٠٠) سنة أن في كل مجرة عدداً كبيراً جداً من النجوم تكاد تعد بالملايين تسودها أنظمة كالنظام الشمسي. أي أن كلا منها شمس في حد ذاتها وقد فتقت منها سيارات وفتقت من السيارات هذه توابع وأقمار تدور حول الأم وتدور في الوقت نفسه حول نفسها. فإذا تقدمت الآلات الفلكية، سيأتي اليوم الذي يتلافى فيه ضآلة الضوء المنعكس من الأنجم التي تقع في مسافات لا نهائية وسوف نشاهد انجماً وعوالم كانت سابقاً من نوع غير المنظور.

لذلك يقسم الله تعظيماً لشأن ما خلق من عوالم لا تتناهى، عوالم لا ترى بالعين المجردة ولا بالآلات بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾.

كما أنه كان يعد سابقاً الغاز الموجود في الفضاء بين النجوم والذي اكتشفه اخيراً العلم الحديث من غير المنظور، وقد أمسى منظوراً أو ملموساً محسوساً. ذلك لأن كثافة هذا الغاز تساوي ميليغراماً واحداً في كل مليون ميل مكعب من الفضاء.



فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون

- ٢ -

ومما لا يمكن إبصاره: الذرة، فانها من الصغر بحيث لا يمكن للانسان أن يبصرها حتى بأدق الآلات. وقد أصبح اليوم التعرف إلى (الذرة) وما أودع الله فيها من تركيب وقوانين ومعادلات من أهم العلوم الحديثة وأدقها وأصعبها. وأصبح علم الذرة علماً هاماً يتخصص فيه بعد دراسة الفيزياء العالية على ضوء الرياضيات العالية. لذلك يجدر بنا أن نتكلم عن الذرة - وهي من النوع (غير المنظور) مما خلق الله تعالى - بشيء من التفصيل.

كان يقول (ديموقراطيس(Démocrite الفيلسوف اليوناني منذ زمن بعيد[١]: إنه لو قسمت قطعة من الحديد مثلاً إلى جزئين، ثم قسم أحد الجزئين إلى جزئين آخرين أيضاً وكررت هذه العملية مرات متعددة جداً، فأننا سنصل إلى مرحلة لا نتمكن فيها تقسيم الجزء الأخير إلى جزئين آخرين مع الاحتفاظ بخواص الحديد، أي أنه لو قسم الجزء الأخير أيضاً لا نحصل على الحديد بل يكون شيئاً غير الحديد، فصار يسمى الجزء الأخير الذي لا يمكن تجزئته بـ (جزء لا يتجزأ). وهذا ما يسمى اليوم بالذرة: (آتوم Atome) ومعناها في اليونانية غير المنظور.

إن البحوث الأخيرة في علم الفيزياء أيدت هذه النظرية وبرهنت على صحتها. وذلك أن كل عنصر كالحديد أو الذهب يمكن تجزئته إلى أجزاء متعددة إلى مرحلة يقف إمكان التجزئة فيها مع الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر، حتى نبلغ إلى جزء لا يتجزأ أي جزء لا يمكن تقسيمه وتجزئته مع

---

(١) قبل الميلاد بخمسة قرون.

الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر، أي لا يكون بعد ذلك جزيء الحديد حديداً أو جزيء الذهب ذهباً. والذرة هي هذا الجزيء الذي لا يتجزأ.

إن العالم المادي مكون من عناصر مختلفة: كالحديد والذهب والفضة والكاربون وغاز الهيدروجين (أو الايدروجين) وغاز الأوكسيجين الخ... وأصبح عدد هذه العناصر التي اكتشفها العلم الحديث: (١٠٠) عنصر لحد اليوم.

وقد أعلن في عام ١٨٩٧ (السير تمسون) وغيره انهم تمكنوا من أن يفصلوا من جميع أنواع الذرات التي هي في حالة تعادل جسيمات متساوية في الوزن وذات شحنات كهربائية سالبة متساوية، أطلقوا عليها اسم (الالكترونات) بالنسبة لشحنتها السالبة، وان ذلك يدل على أن (الذرة) المتعادلة، لا بد أن تكون مكونة من جزيئين أحدهما موجب التكهرب والآخر سالب التكهرب، ومن شحنتين كل منهما مساوية ومضادة للأخرى. وكان ذلك أول اكتشاف علمي عن إمكان تجزئة الذرة. ولكن وقفت الاكتشافات العلمية في هذه الناحية مدة من الزمن حتى كشفت المواد المشعة ودرست أحوال انحلالها الذاتي.

ويقال عن (مادام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (صوربون) إنها قد وضعت في جيب ثوبها بالقرب من الصدر قطعة من الراديوم قد نسيتها وبعد مدة شعرت بخدشة في صدرها وكانت تعلم وزن تلك القطعة قبلاً، فلما فتشت عن سبب تلك الخدشة علمت أن الراديوم هو الذي أثر في صدرها بإشعاعاته ووزنت القطعة من جديد، فوجدت نقصاً فيها وعلمت ان قسماً من المادة قد تحولت إلى طاقة: (إشعاعات).

كما أن (بيكريل) العالم الفرنسي كشف في آخر القرن التاسع عشر بمحض الصدفة! ودون ترتيب سابق إشعاعاً غريباً غير مرئي ينبعث من أحد مركبات عنصر (اليورانيوم) ـ أثقل العناصر المعروفة ـ ، ورأى أن هذا الإشعاع الغريب يؤثر في مادة اللوح الفوتوغرافي كأشعة الشمس، وعلاوة على ذلك ينفذ هذا الاشعاع خلال الأجسام غير الشفافة.

فعلم بعد هذا الاكتشاف أن كل ما في الكون من مظاهر مادية وجميع ما هنالك من عناصر: (كالحديد والراديوم) وجدت من شيء واحد هو الطاقة: (Energie) ، وان هذه الطاقة هي القوة الكهربائية السالبة التي تتجلى في الالكترونات (Electrons) وفي القوة الكهربائية الموجبة التي تتجلى في (البروتونات) (Protons) وكهربائية متعادلة: موجبة وسالبة وتتجلى في النيوترونات (Neutrons) وعلم أن العالم المادي هي قوة كهربائية: موجبة وسالبة أو طاقات هائلة تكدست فكانت ذرات وأجساماً، فليس هناك مادة بالمعنى الذي يفهمه المادي. وإنما هي قوى وطاقات خلقها الله بقدرته وإرادته، ورتبها ترتيباً بديعاً، خاضعاً لمشيئته تعالى، فكانت هذه الذرات وهذه العناصر وهذه الأجسام والمواد.

وخلاصة ما قلنا إن الذرة مكونة من:

١ ـ بروتونات موجبة.

٢ ـ الكترونات سالبة، شحنتها مساوية ومضادة لشحنة البروتونات.

٣ ـ ومن نيوترونات، كل منها مكون من اتحاد بروتون موجب والكترون سالب.

فتكون الذرة في مجموعها مكونة من جزئين، أحدهما موجب التكهرب: (كهربائية موجبة) والآخر: سالب التكهرب (كهربائية سالبة). وشحنتاهما متساويتان ومتضادتان.

وهذا مما يجعلنا أن نتصور العالم مكوناً من جسيمات مكهربة. لذلك كان يقول (أينشتاين): إن العالم مجموع قوى كهربائية ومغناطيسية أو (كهرطيسية). فأين المادة التي يتشدق بها المادي؟. ضارباً يده على منضدته قائلاً: هذه هي المادة!.

تصوروا دائرة كبيرة (أو بالأحرى كرة كبيرة) نصف قطرها طويل جداً فهذه هي الذرة. توجد في مركز هذه الذرة دقائق صغيرة متجمعة تسمى بنواة الذرة وفيها البروتونات وهي الكهربائية الموجبة أي شحنتها موجبة، وان وزن الذرة أو وزن المادة هو وزن هذه النواة أي البروتونات (أو الكهربائية الموجبة) تقريباً.

إن عدد البروتونات في ذرة كل عنصر يختلف عن الآخر. فمثلاً عدد البروتونات في نواة ذرّة الحديد لا يساوي عدد البروتونات في نواة ذرة الأورانيوم (يوراتيوم). ففي نواة كل ذرة من كل عنصر عدد معين من البروتونات.

وفي محيط الدائرة (أو الكرة التي تصورناها) عدد معين من الالكترونات (كهربائية سالبة) مجموع شحناتها مساوٍ لشحنة النواة وفي حالة تعادل معها وتتحرك بسرعة عظيمة حول النواة تبلغ مئات الأميال في الثانية لكي تمنع سقوطها عليها تحت تأثير التجاذب بينهما. وان كتلة النواة تبلغ بضعة آلاف المرات قدر كتلة مجموع (الالكترونات). ويفصل بينهما أي بين النواة والالكترونات الدائرة حولها فراغ هائل. وان حجم كل منهما ضئيل جداً بالنسبة لحجم الذرة الذي كله فراغ تقريباً. وقد صور (رذر فورد) تكوين الذرة بصورة المجموعة الشمسية وقد أدخل عليها بعض التعديلات. وهذا دليل على عدم تناهي ما أودع الله من خواص وقوانين في دقائق هذا الكون!!.

قلنا إن الالكترونات وهي عديمة الوزن تقريباً تدور بسرعة هائلة حول مركز الذرة (البروتونات) وهي تقع عن المركز بفواصل معينة كما في النظام الشمسي. وإن الأبعاد بين الالكترونات الدائرة ونواة الذرة هي تقريباً تساوي الأبعاد بين الشمس والكواكب السيارة حولها مع حفظ النسبة. فإذن كل ذرة هي مجموعة شمسية.

وقد ذكر الفيلسوف العربي فريد الدين العطار: أن ذرات العالم في عمل مستمر وانه توجد في كل ذرة شمس ظاهرة وروح باطنة.

وقال هاتف الأصبهاني الذي توفى سنة ١١٩٨ هجرية:

دل هـر ذره را كـل بشكـافي   آفـتـابـيش در مـيـان بـيـنـي

أي إذا كشفت عن باطن كل ذرة لألفيت شمساً في وسطها.

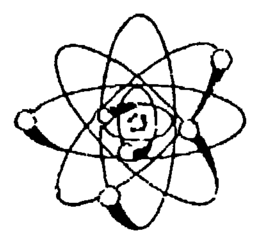
فهو قد توصل إلى كشف هذه الحقيقة بإلهام رباني ونور قذفه الله تعالى

في قلبه. فقد جاء في الحديث وما أعظمه: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

وكم قذف الله من أنوار في قلوب المخترعين والمكتشفين وكم هيأ لهم صدفاً تمكنوا بها من العثور على حقائق جديدة. وكم كان شكرهم وخضوعهم قليلاً! تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى...

وكذلك، فالألكترونات وهي شحنات كهربائية سالبة يختلف عددها في كل ذرة باختلاف العناصر. كالحديد والفضة والذهب مثلاً. وعدد هذه الالكترونات التي تدور بسرعة هائلة في محيط الذرة يساوي دائماً عدد البروتونات التي هي وسط الذرة. وإن لحركات الالكترونات وسيرها في أفلاكها الخاصة بسرعة فائقة آثارها العجيبة لا مجال إلى ذكرها. وان حركة الالكترونات هي من الانتظام والدقة مما يجعل أن يعترف الفيلسوف الفرنسي (هانري بركسون): (Henri Bergson) بخالقه وأن يقول: «إن يداً غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظمة لإيجاد أو حدوث تيار كهربائي وأمواج كهربائية مختلفة وتفاعلات كيميائية إلى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث».

تصوروا الذرة عادة على أنها كرة غلافها الخارجي سحابة زغبية من الألكترونات تكوّن معظم حجم الكرة تقريباً، وبالرغم من ذلك فانها لا تكاد تكون شيئاً من وزن الذرة. ويحدد عدد الالكترونات في هذه السحابة خواص الذرة الطبيعية والكيموية.



شكل (١) الذرة.

الذرة: هي أصغر جزء من المادة وتتركب من نواة بها بروتونات ونيوترونات ويحيط بها الكترونات.

قلنا إن الذرة تبلغ من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها بأدق الآلات وهي من «ما لا تُبصرون» أي من نوع غير المنظور. ذلك لأنه لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض على شرط الكروية يكون طول ذلك كله ميليمتراً واحداً. ومعنى ذلك أن معدل قطر الذرة هو $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠}$ من المليمتر. وإن قطر (نواة الذرة) يساوي واحداً من مائة ألف جزء من الذرة أي يساوي $\frac{١}{١٠^{١٢}}$ من الذرة. إذن قطر نواة الذرة يساوي $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ أي واحداً من ترليون جزء من الميليمتر أو $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ مم. وإذا جمعنا من نوى الذرة مليارد نواة فلا يمكن رؤيتها مع أقوى المجاهر(Microscopr) ، ومع ذلك فقد عبأ الله تعالى في هذه النواة طاقة (قوة) عجيبة خارقة تدعى: (بطاقة النواة). وإن الطاقات (القوى) المدمرة عند انفلاق القنبلة الذرية إنما هي نتيجة تحرر هذه القوى الخارقة من نواة الذرة الضئيلة. فإن كيلوغراماً واحداً من الأورانيوم: ٢٣٥ يطلق حين تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق ٢٥٠٠ ٠٠٠ كيلو غرام من الفحم!.

فسبحان الله الذي أودع هذه القوة الخارقة في نواة (الذرة) وأجرى الالكترونات التي لا يمكن أن ترى بأية آلة حولها، وهذا مما يقسم الله تعالى به بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾. لما هنالك من عظمة خارقة وإتقان في الخلق ما بعده إتقان.

* * *

قلنا إن نواة الذرة مؤلفة أو مكونة من نوعين من الدقائق:

١ ـ البروتونات وفيها شحنة كهربائية موجبة. والبروتون جسيم صغير ثقيل نسبياً، يبلغ وزنه $١,٦٧٣ \times ١٠^{-٢٤}$ من الغرام (وهو محمل بشحنة كهربائية موجبة).

٢ ـ نيوترونات. وهي متعادلة من حيث الكهربائية أي تتعادل فيها الشحنة الموجبة مع الشحنة السالبة. ووزن النيوترون = $١,٦٧٤ \times ١٠^{-٢٤}$ من الغرام.

وأما الالكترونات فتدور حول النواة بسرعة هائلة تبلغ (٣٦٠ ٠٠٠) ميل في الساعة وهي ذات شحنة سالبة ووزن الألكترون = ٩×١٠^{-٢٨} من الغرام.

وهناك فضاء واسع أو فراغ رحيب بين النواة (نواة الذرة) وبين الالكترونات التي تدور حولها.

يختلف عدد البروتونات في نوى ذرات العناصر المختلفة وكذا عدد الالكترونات التي تدور حول النواة، مع العلم أن عدد الالكترونات في ذرة كل عنصر يساوي دائماً عدد البروتونات في ذرة نفس العنصر. فيعتبر عددالبروتونات الموجودة في نواة كل ذرة عدداً دالاً على عددها الذري أو رقم ترتيبها في الجدول الدوري. أي أن العدد الذري يساوي عدد البروتونات الموجودة بها.

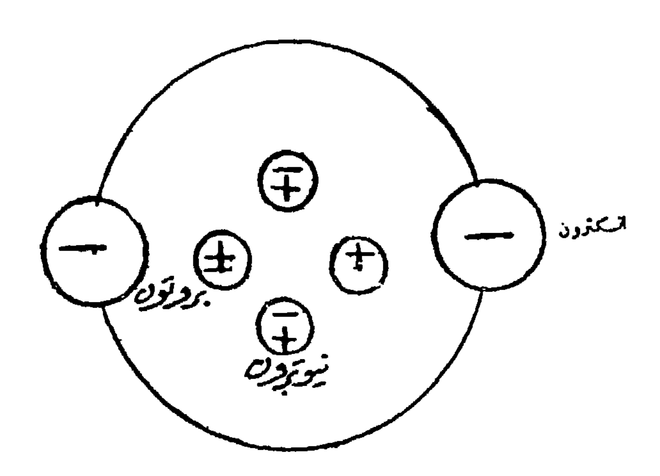
وفي مركز الذرة، كما قلنا، توجد البروتونات والنيوترونات مكدسة بعضها مع بعض في وسط الذرة، إذ أن حجمها عبارة عن جزء من ٢٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ من حجم الذرة كلها. فإذا كان حجم الذرة في حجم منزل كان حجم هذه المجموعة لا يتجاوز حجم رأس دبوس. ولبيان مدى تكدس هذه الجسيمات، فأن حجماً يزن ٤٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مرة قدر وزن نفس الحجم من الماء.

تصوروا دائرة كبيرة ضعوا بروتوناً واحداً في مركزها، وضعوا الكتروناً واحداً على محيط الدائرة. فهذه تمثل لنا ذرة الايدروجين (وهو غاز فيه قابليةالاحتراق) وأحد عنصري الماء.

ففي ذرة الايدروجين وهو أخف العناصر يوجد: بروتون واحد في الوسط والكترون واحد في المحيط يدور حول البروتون بسرعة هائلة وبينهما فضاء أو فراغ واسع رحيب.

ويليه من حيث الوزن: (الهليوم) وهو غاز غير محترق يُملأ به المناطيد (بالون).

ففي ذرة (الهليوم) يوجد (بروتونان) في الوسط و(نيوترونان) في الوسط أيضاً ويوجد في مدارها الخارجي الكترونان. شكل: ٢.

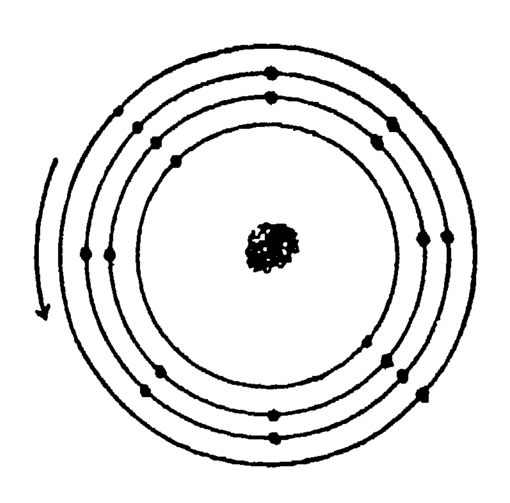


شكل (٢) ذرة الهليوم

الكترونان يدوران حول بروتونين وفي النواة أيضاً يوجد نيوترونان

وأما العنصر الثالث من حيث الترتيب فهو: (ليثيوم). يوجد في نواة ذرة الليثيوم ٣ بروتونات ومعها ٤ نيوترونات، وتدور في الأطراف حول النواة ٣ الكترونات: الكترون واحد على المحيط تماماً وإثنان منها على محيط دائرة أخرى من الداخل بالقرب من المحيط الأصلي.

وهناك عنصر آخر يسمى بـ(نئون). فان في ذرتها (١٠) الكترونات، يدور إثنان منها على محيط دائرة قريبة من المحيط الأصلي وتدور (٨) الكترونات على المحيط الأصلي تماماً. وإن الدائرتين متقاربتان. ومتحدتا المركز.



شكل (٣) ذرة الكالسيوم

شكل مبسط لذرة الكالسيوم، (٢٠) الكترونا تدور
في دوائر مختلفة بنظام خاص حول النواة (المركز).

وإذا أردتم أن تتصوروا ذرة الكالسيوم فارسموا أربع دوائر متحدة المركز. وضعوا: الكترونين في نقطتين متقابلتين على الدائرة الأولى من الداخل وضعوا على كل من الدائرتين الثانية والثالثة (من الداخل إلى الخارج) ٨ الكترونات في نقاط متقابلة أي (طرفي القطر)، وضعوا في الدائرة الرابعة (وهي محيط الذرة الخارجي) الكترونين في نقطتين متقابلتين، وهذه الالكترونات تدور حول البروتونات بسرعٍ هائلة ونظام بديع كما أمرها الله تعالى: «ألا له الخلق والأمر».

وأما ذرة (الأورانيوم) أو (يورانيوم) فيوجد في نواتها (٩٢) بروتوناً ومن (١٣٦) إلى (١٤٧) نيوتروناً تصاحب البروتونات فيها. ويوجد (ذرياً) ١٢ نوعاً من الأورانيوم يُشبه بعضُها البعض، ولها تقريباً نفس الخاصية. وفي نواة كل من هذه الأنواع (وهي ١٢ نوعاً) يوجد ٩٢ بروتوناً ولكنها تختلف من حيث عدد النيوترونات. وتسمى هذه الأنواع من العناصر المتشابهة: (النظائر Isotope) أو (المماكِنات).

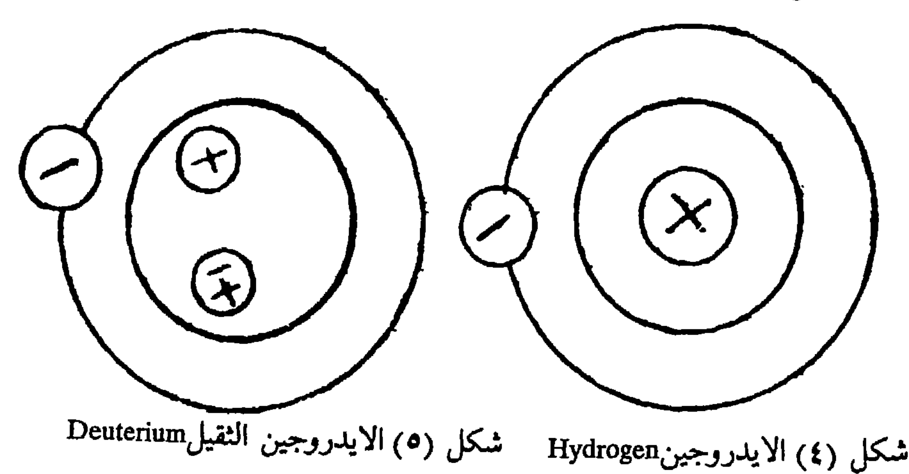
والنظائر هي العناصر التي تتساوى ذراتها من حيث عدد البروتونات

وعدد الالكترونات ولكنها تختلف قليلاً في عدد النيوترونات التي في نواها. وفي الحقيقة هي عنصر واحد. وهذا الاختلاف في عدد النيوترونات لعنصر واحد يؤدي إلى اختلاف في أوزانها الذرية.

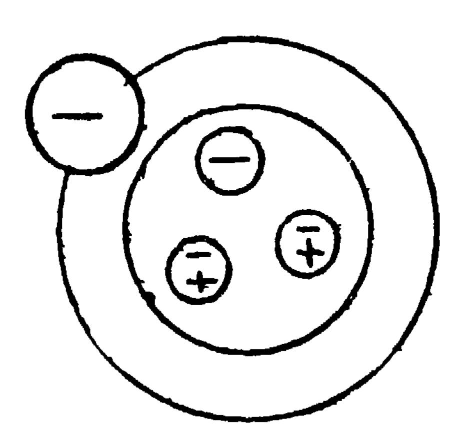
وإذا جمعنا عدد النيوترونات مع البروتونات فالمجموع يعطينا العدد الكتلي(Mass Number) أو الوزن الذري. كما أن الفرق بين الوزن الذري والعدد الذري يساوي عدد النيوترونات.

وأن النظائر أو التوائم أو المتشابهات الخاصة بعنصر معين لها جمياً نفس التفاعلات والخواص الكيميائية. وبما أنه ما يحدد هذه الخواص الكيميائية هو عدد الالكترونات الخارجية وبالتالي عددالبروتونات التي في النواة، وعلى ذلك، فالنظائر الخاصة بعنصر ما لها عدد ذري واحد، وإنما تختلف في أوزانها الذرية أي تختلف بإختلاف عدد النيوترونات فيها. والوزن الذري = عدد البروتونات + عدد النيوترونات. . . إذن فالنظائر لعنصر ما كالأيدروجين مثلاً هي ذرات نفس العنصر تختلف بعضها عن بعض بسبب اختلاف عدد النيوترونات الداخلة في نواة كل ذرة أو توأم أو نظير من النظائر المختلفة الخالصة بذلك العنصر.

وقد علم أنه يوجد ٣ نظائر للأيدروجين و٣ نظائر للفوسفور و ٥ نظائر للكبريت و ٦ نظائر للكالسيوم ويمكن توضيح النظائر الثلاثة الخاصة بالايدروجين بالأشكال (٤, ٥, ٦):



شكل (٤) الايدروجينHydrogen شكل (٥) الايدروجين الثقيلDeuterium



شكل (٦) الايدروجين الثلاثيTritium

إن هذه النظائر الثلاثة تشترك جميعاً في شيء واحد هو: أن فيها جميعاً الكتروناً واحداً في مدارها الخارجي، وكذا بروتوناً واحداً في نواتها، أي أنها جميعاً لها عدد ذري واحد. بينما نرى أنها تحتوي على عدد مختلف من النيوترونات في النواة.

فالايدروجين العادي لا يحتوي على نيوترونات إطلاقاً، بينما يحتوي الايدروجين الثقيل(Deuterium) على نيوترون واحد إلى جانب البروتون. ويحتوي الايدروجين الثلاثي(Tritium) على نيوترونين. وهكذا نرى أن هذه النظائر الثلاثة لها عدد ذري واحد هو الواحد الصحيح. بينما نرى أن لها ثلاثة أوزان ذرية مختلفة. فالايدروجين العادي وزنه الذري = ١ والايدروجين الثقيل وزنه الذري = ٢، وعند اتحاد الايدروجين الثقيل بالأوكسيجين نحصل على ما يعرف الآن باسم الماء الثقيل.

وعند اكتشاف الايدروجين الثلاثي(Tritium) وجد أنه أثقل فعلاً من كل من الايدروجين العادي والثقيل لأن وزنه الذري = ٣. تلك هي النظائر العادية.

وأما النظائر المشعة هي تلك النظائر الخاصة بالعنصر الواحد، والتي لها نشاط إشعاعي، وهنا نسأل ما هو النشاط الاشعاعي؟

يعرف النشاط الاشعاعي بأنه نشاط ينتج عن اضطراب نواة الذرة نتيجة

اختلاف نسبة ما فيها من (النيوترونـات) إلى (البروتـونات) عن (النسبة اللازمة) لاستقرار نواة الذرة. وذلك كأن تواجه النواة بإدخال بعض البروتونات أو النيوترونات اليها. وبديهي أن مثل هذا العمل يؤدي إلى اختلاف (نسبة النيوترونات إلى البروتونات) عن الحد اللازم لاستقرار النواة، ولهذا السبب تضطر النواة إلى محاولة إصدار نوع أو آخر من الاشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

وقد وجد في الهواء الجوي أن غاز (النتروجين) مكون معظمه من ذرات وزنها الذري ١٤ مخلوطة بقدر ٣ في الألف من ذرات وزنها الذري ١٥. والأوكسجين في الجو كذلك معظمه مكون من ذرات وزنها ١٦ مخلوطة بذرات بقدر ٣ في كل ١٠٠٠٠ منها وزنها الذري ١٧.

وإن الجدول الآتي يوضح لنا تركيب ذرات بعض العناصر:

تتركب ذرة الهليوم من:

(٢ بروتون موجبة + ٢ نيوترون متعادلة) + ٢ الكترون سالبة.

تتركب ذرة الليثيوم من:

(٣ بروتون موجبة + ٣ نيوترون متعادلة) + ٣ الكترون سالبة.

تتركب ذرة الكاربون من:

(٦ بروتون موجبة + ٦ نيوترون متعادلة) + ٦ الكترون سالبة.

تتركب ذرة النتروجين من:

(٧ بروتون موجبة + ٧ نيوترون متعادلة) + ٧ الكترون سالبة.

تتركب ذرة الأوكسيجين من:

(٨ بروتون موجبة + ٨ نيوترون متعادلة) + ٨ الكترون سالبة.

تتركب ذرة اليورانيوم من؛

(٩٢ بروتون موجبة + ١٤٦ نيوترون متعادلة) + ٩٢ الكترون سالبة.

وقد دلت التقديرات العملية على أن وزن الذرة يساوي تقريباً وزن نواتها[١].

وإن القنبلة الذرية هي نتيجة انفجار نواة نوع واحد من ذرة (اليورانيوم) تدعى: (يورانيوم ٢٣٥). ففي نواتها يوجد: ٩٢ بروتوناً و١٤٣ نيوتروناً. فلا تصنع من بقية أنواع اليورانيوم القنبلة الذرية. فيكون الوزن الذري: ٩٢ + ١٤٣ = ٢٣٥.

فتحطيم الذرة (أو التفاعلات النووية) هو عبارة عن تفاعلات بين جسيمات نواها، وتغيير في أوضاع الألكترونات حولها تنشأ عنها نوى ذات عناصر جديدة يحيط بكل منها العدد اللازم من الألكترونات.

ومن الواضح أن التفاعلات العادية بين العناصر كالأكسيجين والايدروجين في تكوين الماء مثلاً تحدث بين ذرات كاملة من الأكسيجين وذرات كاملة من الايدروجين (مثلاً) في حالة تعادل دون حدوث تغيير في نواها. أي لا يحدث حين تكون الماء من الغازين (الأكسيجين والايدروجين) أي تغيير في نواة ذرة الاكسيجين وذرة الايدروجين. ذلك لأن تفاعل ذرات الأكسيجين والايدروجين المتعادلة لتكوين الماء عبارة عن اتحاد ذرة كاملة من الأول بذرتين كاملتين من الثاني. ويعزون مثل هذه التفاعلات إلى حدوث انتقال بعض الالكترونات في المحيط الخارجي لذرات العناصر المتفاعلة من بعضها إلى بعض، فيُصبح بهذا الانتقال بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب فيحدث الاتحاد بينهما تحت تأثير التجاذب الكهربائي. وان الطاقة التي تنتج من مثل هذه التفاعلات العادية تكون غالباً على صورة حرارة: تكافىء الفرق بين طاقة تماسك الالكترونات بالنوى في الذرات قبل التفاعل وبعد التفاعل.

إلا أن التفاعلات النووية في الانحلال الذاتي أو بين نوى الذرات في أعمال التحطيم (وهو موضوعنا الذي نبحث عنه)، فيحدث عنها تغيير في (تكوين النوى) من الجسيمات التي تتركب منها وهي: (البروتونات

---

(١) في نهاية الكتاب جدول يبين أسماء العناصر المكتشفة مع أوزانها الذرية.

والنيوترونات) علاوة على التغير في توزيع أوضاع الالكترونات المحيطة بها. ولذلـك تكون الطاقة المنبعثة من (التفاعلات النوويـة) أعظم بكثيـر من التفاعلات العادية عند تركيب العناصر في الكيمياء وتبلغ مئات الألوف من المرات قدر الطاقة التي تنبعث من التفاعلات العادية بين الذرات والجزيئات الكاملة. ويصدر معظم هذه الطاقة من باطن الذرات على صورة إشعاع وطاقة حركية وتكون جزء من الطاقة المختزنة فيها والتي تربط جسيماتها بعضها ببعض.

وقد قال (أينشتاين): «إن في الذرة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والإفادة منها. وإن المادة صورة من صور الطاقة. وان الغرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة: (أرك: Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلوات ساعة، أي ما ثمنه نحو ٥٥٠ ألف دينار».

* * *

كانت أمنية أهل القرون الوسطى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة كالفضة والذهب بطريق كيماوي. لكنهم أخفقوا في ذلك ولم يوفقوا رغم ما بذلوا من مساع جمة. فاستحال عليهم تحقيق ما أرادوا. فنبذوا الفكرة في القرن الثامن عشر واستبدلوا بها بفكرة ثانية في القرن التاسع عشر وهي: عدم إمكان تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

ولكن قد حدث في عام ١٩١٩ تحطيم ذرات (النيتروجين) وتحويلها إلى ذرات الأكسيجين والايدروجين. وهكذا توالت بعد ذلك تجارب تفتيت الذرة باستخدام قذائف من جسيمات (ألفا) أي نوى الهليوم ومن جسيمات أخف ولكن أكبر أثراً منها. وهي (البروتونات) أي (نوى الايدروجين) بعد إعطائها سرعة عظيمة. فتمكنوا بذلك من تحطيم وتحويل ذرات عدد من العناصر بعضها إلى بعض: مثل تحويل عنصر (الايدروجين) إلى عنصر (هليـوم) وتحويـل [الصوديـوم] إلى (مغنسيوم) و(الليثيـوم والبورون) إلى (هليوم). فتحقق فعلاً أمر تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

ومما لا ريب فيه أن البشر لا يخلق شيئاً، فلا يتمكن من خلق ذرة

جديدة غير موجودة في الطبيعة. أي غير مخلوقة بيد الله تعالى. (وأعني بقدرته تعالى) والبشر لا يقوى على إيجاد بروتون أو نيوترون من العدم دون أن يستعير من عناصر بسيطة أخرى (أي من ذراتها).

وإن أبسط الأفكار ليعترف أن العناصر وما في ذراتها من ترتيب دقيق وتوزيع البروتونات والنيوترونات وحركة الالكترونات الدقيقة الهائلة حولها لم توجد من تلقاء نفسها، ذلك لأنه بيان شامخ قد روعي فيه تمام الحكمة وكمال التدبير[1].

كما أن العلم ليعترف أن الحيوية في الكائنات الحية لم تكن نتيجة ترتيب مادي بين المواد وإنما جاءتها من الخارج بأمر من الله تعالى.

فليس للبشر أن يخلق بروتوناً أو الكتروناً، إلا أنه يستعيرهما من بعض العناصر ويدخلهما في عنصر آخر لتحويل بعض العناصر إلى عناصر أخرى موجودة قبلاً في الطبيعة (الكون). وهذا ما يسمونه بتحويل العناصر: (Transmutation).

وزيادة في التوضيح نقول إذا رمزنا بعدد من البروتونات في نواة ذرة الرصاص مثلاً بـ (ب) ورمزنا بعدد من النيوترونات في تلك الذرة أي ذرة ذلك العنصر بحرف (ن)، فسيكون دستور النواة:

ب + ن

فإذا أردنا أن نزيد في عدد البروتونات من (ب) إلى (ب + ١)، شريطة أن يبقى عدد الالكترونات ثابتاً، لزم أن ندخل نواة الايدروجين في نواة الرصاص. ولتحقيق هذه الغاية يجب أن نوجه بروتونات سريعة السير جداً نحو نواة الرصاص كي يدخل بروتون واحد (بطريق الصدفة) في نواة الرصاص، وعند ذلك يكون عدد بروتونات ذرة الرصاص (ب + ١). وبهذه

---

(١) قد علم أخيراً أن سرعة الالكترونات في ذرة الهيدروجين قد بلغت ألفي كيلو متر في الثانية. وهذا في ما يعرفه العلم والعلماء أقصى سرعة أمكن أو يمكن معرفتها على وجه الأرض.

الطريقة نتمكن من أن نصنع من الرصاص ذهباً. وأن نصنع من الزئبق ذهباً. ذلك لأن هذين العنصرين: (الرصاص والزئبق) قريبان من عنصر الذهب من حيث عدد البروتونات. ولكن يجب أن لا ننسى أن علينا أن نصرف ١٠٠٠ غرام من الذهب للحصول على غرام واحد من الذهب بطريقة تحويل العناصر. وهذا ما لا يجوزه الاقتصاد.

فعلم مما سبق أن الذرة ليست بجزءلا يتجزأ على ما كان يعتقده البعض، لأنها تتحلل إلى قسيمات أخرى فقوى وهي عالم برأسها لها قوانينها وخواصها، وهي ليست بمادة كما يزعم المادي. وبذلك قد فندت نظرية (دالتون). وكم من نظريات مادية سخيفة فُندت بعد كشف بعض حقائق الذرة. إلا أن المادي (الشيوعي) مع الأسف يتحكم على العلم والعلماء بدكتاتوريته. فيقتل العلماء ويبيدهم إن لم يوافقوه في هذيانه في عصر حرية الأفكار وفي عصر الانطلاق الفكري.

وكذلك فُنِّدت نظرية (تومسون: Thomson) التي كانت تقول: إن الذرة مملوءة مصمتة وان الالكترونات موضوعة على البروتونات ملتصقة بها كذباب على ظهر فيل، فعُلم أخيراً أن الذرة خالية فارغة وفيها فضاء واسع رحيب.

وعلم أن أصل الموجودات على وجه الأرض شيء واحد. إنما هو البروتونات التي تشكل نواة الذرة. والبروتونات هذه هي عينها من حيث الخواص والماهية في ذرات جميع العناصر، وليس هناك أي اختلاف بين بروتون ذرة عنصر وبروتون ذرة عنصر آخر. خلافاً لما يتقوله الماديون من نظرية التبدل والتغير.

وإن عملية تبديل العناصر وتحويل بعضها إلى بعض(Transmutation) تثبت لنا هذه الحقيقة. كما أنه لا فرق بين الكترون ذرة راديوم والكترون ذرة الحديد منذ ملايين السنين ولم يحدث أي تغير وأي تبدل خلافاً لما يهذيه المادي الخيالي البعيد عن العلم الصحيح. وهل هناك وئام بين الديكتاتورية والعلم؟!.

فلو كان هذا (التغير) الذي يقول به المادي صحيحاً لوجب أن تتبدل

ذرات الايدروجين كلها إلى (هليوم) وأن تتبدل ذرات (الهليوم) إلى (ليثيوم) وهكذا حتى تصل النوبة إلى (اليورانيوم)، فلا نرى في عالمنا اليوم عنصراً عدا عنصر (اليورانيوم) مثلاً! ولكننا نرى أن العناصر كلها موجودة إلى يومنا هذا. وهي من الانتظام والدقة والترتيب بحيث يتمكن العلم من إيجاد عناصر مجهولة إستناداً إلى النظام الذي أودعه الله في سلسلة العناصر، كما أن الأميبا (الكائن الحي ذا الخلية الواحدة) لا يزال موجوداً على وجه الأرض مع وجود حشرات وحيوانات وإنسان لها من الأعضاء والتشكيلات الداخلية وقوانين دقيقة ومعادلات ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا قليلاً: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾.

قلنا إن النظام الذي أودعه الله في تسلسل ذرات العناصر المختلفة كان سبباً لكشف عناصر مجهولة، كما أن دستور (نيوتن) في الجاذبية بين الأجسام كان سبباً لكشف كوكبين مجهولين (نبتون) و(بلوتو) ذلك لأنا نتمكن من أن نحسب حسب هذا الدستور:

$$\text{ق} = \text{ط} \times \frac{\text{ك كَ}}{\text{م}^{٢}}$$

قوة الجذب بين الأجرام ومواضع هذه الأجرام ومداراتها، ولا بأس بتوضيح هذا الدستور:

ك تشير إلى مقدار كتلة نجمة في الفضاء (غرام - كتلة)
كَ تشير إلى مقدار كتلة نجمة أخرى في الفضاء (غرام - كتلة)
م تشير إلى المسافة بين النجمتين (بالسانتيمترات)

ط النسبة الثابتة وهي = $\frac{١}{١٥\,٠٠٠\,٠٠٠\,٠٠٠}$ من ثقل الغرام تقريباً

إذن، قوة الجذب بين نجمتين في الفضاء أو كتلتين، تساوي حاصل ضرب كتلتيهما في النسبة الثابتة مقسوماً على مربع المسافة بينهما.

* * *

واضح أن دقائق النواة في الذرة (أي البروتونات) التي شحنتها موجبة

يجب أن تتباعد بعضها عن بعض لاتحاد نوع الكهربائية، ذلك لأن شحنتها موجبة، مع ذلك، فإن الله تعالى قد جهزها بطاقة فائقة تتغلب على الخاصية الكهربائية المودعة في الطبيعة بإذن الله وهي: (تباعد كهربائيتين من نوع واحد بعضها عن بعض). وإن هذه الطاقة التي جُهزت بها نواة الذرة لا يمكن أن تعزى إلى الطبيعة، لأن من شأن الطبيعة أن تُباعد بين كهربائيتين من نوع واحد، أي بين البروتونات لأن شحناتها موجبة. فالله هو الذي قد أودع في النواة هذه الطاقة الهائلة لتقريب البروتونات وجعلها كتلة واحدة، وهي إذا تحررت بوسائل شتى (بتحطيم الذرة) هدَّمت ما حواليها فلا تبقى ولا تذر.

قد وفق «آينشتاين» لحساب هذه الطاقة الهائلة في بنية النواة في الذرة وعلم أنها تساوي: مربع سرعة الضوء مضروباً في كتلة المادة. فإذا فرضنا الطاقة = ط، وكتلة اليورانيوم مثلاً = ك، وسرعة الضوء = س.

فالطاقة المتحررة أو المودعة في كتلة ك تساوي:

ط = ك × س٢.

إذن في نواة الذرة يدٌ غيبية تعاكس متطلبات الطبيعة وتفند ما يتخيله المادي الجاهل من نظرية (التغير المستمر)، حيث (على ما يعتقد) لا نظامَ ولا ترتيب.

* * *

ومن جملة ما لا يُرى بالعين من (ما لا تبصرون) المارد الذري الذي كان يرهب العلماء منذ ٢٥ سنة، فقد أعلنت الجهات العلمية في ٢٠ تشرين الأول ١٩٥٥، أن الدكتور (ايرنست لورنس) قد توصل إلى اكتشاف المارد الذري، هذا المارد الذي كانوا يحسون بوجوده ولا يرونه، وهو جزيء ذري يسمى (البروتون السالب). ويستطيع إفناء المادة من جميع أشكالها افناءاً تاماً. خلافاً لما كان يقوله (لافوازيـه): إن المادة لا تفنى! وكم من نظريات كان يُنظر اليها كحقائق ثابتة لا تقبل النقاش ولا التبدل، فذهبت أدراج الرياح. فهل بعد هذا يجوز أن يجعل العلم معبوداً يُعبد ويستغنى الفرد في

سيره التكاملي عن رسالة السماء؟... ليست القضية قضية علم ونظريات. إنها قضية نفوس. فإن النفوس لو تردت وتسافلت ومرضت لا تذعن إلا بما تحقق شهواتها فتبرر موقفها متذرعة بالعلم! هذا العلم الذي تفند معطياته من وقت إلى وقت ويعوض عنها بمعطيات ونظريات أخرى وهكذا دواليك!.

نعم، لقد وقف العلم الحديث على إفناء المادة إفناءاً تاماً بالبروتون السالب. وهو موجود في طبقات الجو العليا. وان عمره لقصير جداً، فلا يزيد على $\frac{١}{١٠٠٠\ ٠٠٠\ ٠٠٠}$ من الثانية[١].

فتسليط البروتون السالب على الذرة يفني البروتون الموجب وان هذه العملية (عملية الإفناء) تحرر $\frac{٩٩٠}{١٠٠٠}$ من الطاقة الموجودة في الذرة.

وقد علم أن (البروتون السالب) منطلق في الفضاء حول الكرة الأرضية، ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها. ومن الصعوبة السيطرة على هذا البروتون السالب. فإذا تمكن العلم من ذلك، فيكون إذ ذاك بالإمكان: توليد طاقة من رطل واحد من أية مادة ذرية باصطدامها بالبروتون السالب تساوي الطاقة المتولدة من مليون ونصف مليون طن من الفحم. فيمكن إذ ذاك إفناء العالم بقنبلة زنتها عشرة أرطال فقط.

فالله تبارك وتعالى حفظ الكرة الأرضية من أن تصطدم بالمارد الذري (البروتون السالب) المنتشر فوقنا في الفضاء، وذلك بجعله: ﴿السماء سقفاً محفوظاً﴾ بقدرته. وهو القائل: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ ﴿وكأيِّن من آية في السماء والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾[٢].

* * *

إن (البروتون السالب) أو المارد الذري هو (البروتون) المضاد للبروتون الذي نعرفه في أرضنا هذه والتي تتكون منها الذرات، فالعناصر، فالأجسام.

---

(١) واحد من ألف مليون جزء من الثانية.

(٢) سورة يوسف: ١٠٥.

كما أنه اكتشف أخيراً (الألكترون الموجب) وهو الالكترون المضاد للاكترون الذي نعرفه وقد تكلمنا عنه في بحث الذرة. ففي الوجود نوعان مختلفان من المادة تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها: تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات: نويات وذرات تلك المواد[1].

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة والالكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى. أي ذات البروتونات السالبة والالكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (بروتون موجب) مع (بروتون سالب)، أو عندما يتصادم (ألكترون سالب) مع (ألكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود، بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى أنه عندما تدخل ذرة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفني الالكترونات أولاً، ثم تفنـي البروتونات.

ويظهر مما ذكر أن الزوجية متأصلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون وهو الذرة، ففيها ألكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). حتى أن المادة نفسها على نوعين أي أن الزوجية متأصلة فيها: فالبعض منها الكترونها سالب وبروتونها موجب، كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها (١٠٢)، تبدأ بالايدروجين وتنتهي بـ(نوبليوم). والبعض الآخر ألكترونها موجب، وبروتونها سالب.

ثم أن الزوجية متأصلة في النبات، (ففي الزهرة عضو التأنيث وعضو

---

(١) يؤدي تحطيم بعض الذرات إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وإن النيوترونات المتحررة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرات أخرى. فينتج عن هذا تفاعل متسلسل مستمر.

التذكير) ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[1]. وتشاهد الزوجيـة في الحيوان وفي الانسان، حتى في النجوم! فإن بعضها تدور حول البعض الآخـر بعلقة الجاذبية، كانجذاب الذكر للأنثى أو بالعكس. وهكذا نرى أن الآية: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون﴾[2] تتجلى بعد ١٤ قرناً تقريباً، وكذلك قوله تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم ومما لا تعلمون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4].

حتى أنه تعالى جعل عدد تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية وعدد تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرفع وأجمل من صوت الرجل حصولاً للانجذاب الزوجي، وتحقيقاً للزوجية في هذا الكون، لتكون الوحدانية له تعالى لا يشاركه فيها شيء من مخلوقاته حتى الجماد: ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾[5].

وها نحن نسأل المادي، هل وُجد (الالكترون) قبلاً ثم خلق لنفسه بروتوناً أم بالعكس؟ وأين انعقد مؤتمر تنظيم العناصر والقانون الدوري والمعادلات التي تربط جسيمات الذرة بعضها ببعض وتتحكم فيها؟.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[6].

* * *

---

(١) سورة الحجر: ٢٢

(٢) سورة الذاريات: ٤٩

(٣) سورة يس: ٣٦

(٤) سورة الروم: ٢١.

(٥) سورة الشورى: ١١ (يذرأكم): أي يكثركم.

(٦) سورة الحج: ٤٦

. ويُرى أن العالم، مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادة والذرة والطاقة ومطابقة ذلك مع ما جاء في كلام الله المجيد قبل أربعة عشر قرناً، يتقرب يوماً بعد يوم من الاسلام. ويأتي قريباً ذلك اليوم الذي يسود فيه الاسلام في العالم كله كما تنبأ (برنارد شو) قبل بضع سنين، لو تخلى عن بغيه وطيشه ومجونه، رغم جهود عناصر الغي والضلال في الشرق والغرب لا سيما الصهيونية الكافرة!. ﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً﴾[1]. لذلك يقول (تشارلس ستانيمتز) وهو من أعظم العلماء، حين يُسأل عن نوع البحث الذي سيحظى بأعظم تقدم في النهاية. أنه يقول: «سيحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية. فسوف يأتي اليوم الذي يعلم فيه الناس أن الأشياء المادية لا تجلب السعادة وأنها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين على الابداع. وعندئذ سوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى دراسة الله والصلاة. وعندما يأتي هذا اليوم يشاهد العالم في جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة».

أنظروا ماذا يقول الكاتب (هراس ليف) عن الاسلام. إنه يقول:

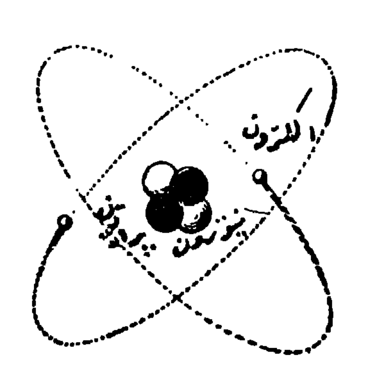
«ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد، فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها. وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لا بد كذلك داخل المساجد الاسلامية. ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحق أخوياً. ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في المسجد (نوبياً) من بلاد (ممباسا) يصافح عظيماً من رجال الأعمال في مصر أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع. فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً. وإنك لا

(١) سورة الكهف: ١٠٥

تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد. لأنه ليس هناك أي مكان ممتاز. فالكل عند الله سواء. لا فضل لأحد على سواه. وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل اليهم كدت لا أصدق أذني. وكان هذا جديداً استفدته عن الاسلام. لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عالمياً».

فلا بد للمسلمين من تضحية مخلصة ولا بد للدعاة من التجهز بأسلحة القرن العشرين من أساليب الدعوة والارشاد ومن معطيات العلم الحديث والتزود بالتقوى إلى أبعد حد. والتجرد عن كل نزعة عدا الاسلام. فان فاقد الشيء لا يعطيه، إنه تعالى يقول:

﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى، واتقونِ يا أولى الألباب﴾[1].



أحدث شكل لذرة الهليوم، الكترونان في الأطراف يدوران حول النواة وفيها بروتونان ونيوترونان.

شكل (٧)

قلنا إن من جملة ما لا يمكن إبصاره حتى بالآلات الدقيقة هو (الذرة)[2]. ومع ذلك كله، فان العلم الحديث قد استخدم ما كان يعرفه من: قوانين

---

(١) سورة البقرة: ١٩٧

(٢) حجم الذرة بالنسبة إلى تفاحة كحجم التفاحة بالنسبة إلى الأرض. وحجم كل من البروتون أو النيوترون أو الالكترون بالنسبة إلى الذرة كلها كحجم حبة من العدس بالنسبة إلى الهرم الكبير.

الكتلة والطاقة في استنباط صفاتها وتركيبها وخواصها مع كونها غير منظورة. ولقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما كشف من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

إن العلم الحديث قد استدل على تلك الظواهر التي تتعلق بالذرة بآثارها وهي من «ما لا تبصرون» معتمداً في ذلك على الاستدلال المنطقي الصرف وعلى ما كان معلوماً من حقائق أولية بسيطة تتعلق بهذه الظواهر والأشياء.

فحري بالمادي الذي يعترف بالذرة ويستخدمها في حقول شتى ويستدل بالآثار على وجودها ووجود الالكترونات فيها وهو لم يرَ شيئاً منها حتى بالآلات، أن يتبع نفس الطريقة في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى وأن لا يقول: لا سبيل إلى الاعتقاد بغير المنظور... مع العلم أن غير المنظور في هذا الكون المادي أشد تأثيراً وفعالية من المنظور: كالكهرباء والمغناطيسية وأمواج (هرتز) إلى ما هنالك. فالعالم المادي كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية، وكل أولئك من النوع غير المنظور.

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول: ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

فلا يستفيد من هذه الآيات التي أودعها الله أرضه وسماءه إلا من كان له شيء من الايمان. فان حب الله ومعرفة الله أعلى وأسمى من أن يحل نفوساً مدلهمة، ظلماء بذنوبها وآثامها ومجونها وبغيها.

وهكذا يقول جلَّ من قائل: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض، وما تُغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[2]. فلا بد من إيمان (ولو كان هذا الايمان ضعيفاً جداً)، كي يعتبر الفرد بما أودع الله من نظم وقوانين في أرضه وسمائه. ولكن المادي، لظلمات في نفسه، لا يؤمن إلا بما تمليه عليه

---

(١) سورة الحج: ٤٦

(٢) سورة يونس: ١٠١

نفسه المتسافلة المريضة، ومهما سمي ذلك فلسفة! أو نظرية علمية ديالكتيكية فهو مرض ولوث ورجس، بعد تفنيد العلم الصحيح كل ذلك. ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[1].

فلا دينَ على وجه الأرض منذ خلق الله تعالى الأحياء عليها، إلا الاسلام. بحكم العقل وبحكم العلم الصحيح وبنصوص من الكتاب، لا الظنون والأهواء ونظريات تجرح بعد زمن يسير. لذلك يقول تعالى:

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجعون﴾. ومن معاني الاسلام هنا: أن ليس ما في السماوات والأرض شيء غير محتاج في وجوده وبقائه وفنائه إلى قدرة الله وإلى قول الله تعالى: (كن) وإلى مشيئة الله وإرادة الله: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان رحيماً غفوراً﴾[2].

فما من شيء في الكون إلا وهو ينادي، لما فيه من نظام وجمال وكمال، بعظَمة الله تعالى، يسبحه ويقدسه. أليست هذه القوة: قوة الجذب بين الكرات. هذه القوة التي يجهل حقيقتها العلم الحديث، تدل على أن الكون يسير بإرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته؟ ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما[3] من أحد من بعده إنه كان حليماً غفورا﴾[4].

وما أعظم ما جاء في دعاء علمه أمير المؤمنين علي (ع) كميلاً حين يقول: «أللهم أني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء... (إلى أن يقول) وبعظمتك التي ملأت كل شيء، وبسلطانك الذي علا كل شيء، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء، وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء، وبعلمك

(١) سورة التوبة: ١٢٦

(٢) سورة الاسراء: ٤٤.

(٣) ان امسكهما: أي ما امسكهما

(٤) سورة فاطر: ٤١

الذي أحاط بكل شيء، وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء، يا نور، يا قدوس، يا أول الأولين ويا آخر الآخرين».

حقاً: إن من يتتبع العلوم الحاضرة وما اكتشف من حقائق وعوالم ونظم ودساتير وخواص لا تعد، يعلم أن ما جاء في الدعاء المتقدم يفسر تماماً حالة الأجسام اعتباراً من الذرة إلى السماوات العلى، فكل شيء (لو حُلل تحليلاً نهائياً) يضييء بنور الله ويقدس الله تعالى وينزهه من كل نقص، وينادي بصوت رفيع: أن لا إله إلا الله العلي القدير خالق الطاقات ومرتبها ترتيباً حكيماً حتى كانت هذه الذرات وتلك العناصر بهذا النظام الخارق الدقيق: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[1]، وهكذا السماوات، فالمجرات، فالأرضون، فالنباتات، فالحيوانات فالانسان... وأما كيفية خلق الله تعالى الملائكة والانسان والسماء والأرض، فذلك ما نجهله. إذ يبدو التطلع على ذلك مستحيلاً على حد قوله تعالى: ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[2].

تدبروا هذا الدعاء وهو دعاء لطلب العافية، علمه النبي (ص) علياً (ع)، لتروا كيف أن كل ما في الكون يسبّح الله وينزهه عن كل نقص:

«أللهم أني أسألك بأنك سبوح، قدوس، يسبحك سواد الليل وضوء النهار وشعاع الشمس ودوي الماء وحفيف الشجر ونجوم السماء وثرى الأرض وأمواج البحار وصخور الجبال ودواب البحر.

أسألك يا ربِ، يا أحد يا فرد يا صمد. في السماء ميعادك وفي الأرض قضاؤك وعلى العرش استواؤك، وفي الجنة رحمتك وفي النار عذابك، والملائكة جنودك، يسبحونك ويقدسونك ويهللونك الليل والنهارَ لا يفترون. لا إله إلا أنت الملك الجبار الحنان المنان الديان الرحمان، بديع السماوات والأرض ذو الجلال والاكرام.

---

(١) سورة الرعد: ٩

(٢) سورة الكهف: ٥٢

أسألك بأسمائك الحسنى وأمثالك العليا وبرهانك العظيم وحجتك البالغة أن تصرف عني شر ما أجد من الدواء وشر ما أخاف وأحذر».

* * *

بعد أن عرفنا شيئاً عن تركيب الذرة(Atome) هذا التركيب الذي يحيِّر العقول وهو أساس لجميع ما في هذا الكون المادي من عناصر ومركبات، يجدر بنا أن نتساءل حامل الفكرة المادية الديالكتيكية (المادية العلمية النظرية!) كيف يوفق بين حقائق الذرة وبين نظريته الهوجاء.

يقول (ستالين)، وهو الذي لم يدرس شيئاً عن علم الذرة وحقائقها وان ذكاءه المحدود كان أقل من أن يمكنه من أن يتخصص في الفيزياء الرياضية العالية أو الميكانيك الرياضي أو الميكانيك السماوي(Mécanique Céleste) إنه يقول[1]: «إن الديالكتيك معناه دراسة التضاد في ماهية الأشياء. وان النمو إنما هو نتيجة صراع بين الأضداد»؟!.

ما هو هذا التضاد الذي نشاهده في الذرة وما هو هذا الصراع؟. إنما نحن نرى أن هناك التياماً وتآلفاً و(تفاهماً؟!) بين الالكترونات والبروتونات، تحت نظام بديع وان الالكترونات تدور حول البروتونات بنظام وهي مجذوبة اليها كما في المنظومة الشمسية[2]، لا اختيار لها ولا إرادة. وان ارادة خارجية وهي إرادة الله، جلت عظمته، جعلت هذه الالكترونات تدور حول النواة وأن تتوزع على مدارات معينة بفواصل معينة، تحت حكمة فائقة، بحيث لو اختل النظام المودع فيها، لما كانت في الوجود: ذرة (هليوم) أو (ليثيوم) أو حديد أو (كالسيوم)... إلى ما هنالك.

حقاً إن (لينين) و (ستالين) لو كانا من حيث الدراسة في مستوى عالٍ، (وكيف يكون السفاك محققاً وعالماً؟) لما جاءا بهذه النظريات التافهة الواهية رغبة في القضاء على من لم ينتم إلى مذهبهم الرجعي، المذهب الجنوني. هذا

---

(١) نقلاً عن مذكرات لينين الفلسفية!..

(٢) «ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت».

المذهب الذي لا يقره ولا يعترف به (لو كان حراً) من له أدنى المام بالعلوم الحاضرة، إلا إذا كان ممن تلوثت نفسه بما كسبت يداه من جرائم وآثام.

لذلك يقول (لورد كيلفن) وهو الفيزيائي البارع: «إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فان العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد بوجود الله»[1].

فأنت لا ترى في حركة الالكترونات حول البروتونات حركة عشواء أو سلوكاً جنونياً (كسلوك المادي) دون قصد وغاية.

وقد وجد (مانداليف)[2] بلطف من الله تعالى منذ ١٠٠ سنة قانوناً في ترتب العناصر، وذلك أن العناصر الكيمياوية (كالايدروجين والحديد والراديوم... الخ) قد رتبها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً. وإن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد عُلم بها قبلاً. حتى أن العلم قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه. وهل يمكن أن يسمى ما اكتشفه (مانداليف) بالمصادفة الدورية؟ أو يحق لنا أن نسميه بـ (القانون الدوري).

وكم من قوانين ومعادلات وما أجري عليها من أعمال رياضية قد أنبأت عن حقائق جديدة وسببت مكتشفات حديثة، يعلم ذلك من درس الفيزياء الرياضية العالية، وما يستعمل هنالك من معادلات تفاضلية دقيقة. فهل للطبيعة العمياء أن تسن آلاف القوانين وأن تنظمها تنظيماً يحيِّر الألباب، حتى يكون هذا العالم الذي نشاهده ونراه.

---

(١) وهو القائل: «إن كل حادثة فيزيائية لا يمكن أن يعبر عنها بدستور رياضي ليست بحادثة معروفة فيزيائياً». وهذا خير دليل على وجود الله تعالى وعظمته سبحانه.

(٢) وقد أعلن سنة ١٩٥٥ م كشف العنصر ١٠١ (أي الرقم الذري: ١٠١) وسمي تقديراً لـ (مانداليف): واضع أسس التصنيف الدوري للعناصر: ماندالويوم (Menedelvium Mv 101) أي أن في هذا العنصر ١٠١ بروتون و ١٥٥ نيوتروناً فيكون الوزن الذري ١٠١ + ١٥٥ = ٢٥٦.

﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون[1] أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، أإله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾[2].

إذا كان كما يقول (كارل ماركس): إن الأشياء إنما وجدت نتيجة التكامل في الأضداد! فليوضح لنا كيف أن الشيء أوجده ضده، وكيف أن الرجل أوجد لنفسه أنثى لذلك يقول (مونتني) وهو أحد فلاسفة فرنسا: «مهما يكن من شيء، فليس للرجل أن يخلق لنفسه امرأة لها عضو التناسل إبقاء للجنس البشري. فالله تعالى هو الذي خلق المرأة كما خلق الرجل وهكذا بقية الحيوانات والحشرات والنباتات».

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3].

أنى للكهربائية السالبة: (الألكترون) أن توجد لنفسها كهربائية موجبة، ثم تترتب ترتيباً بديعاً لا تحيد عنه ولا تتغير، منذ خلق الله الذرة، خلافاً لما يقوله المادي من (نظرية التغير) التي لا يحققها العلم الحاضر. ان هي إلا نظرية عشواء كواضعها ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمـٰن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾[4]. [يعشو: يتعامى]، [نقيِّض: نهيىء].

نحن لا نرى أي تضاد في الذرة، فهل المرأة ضد الرجل، بل نرى في الذرة وفي كل زوجين خلقهما الله تعالى تكاملاً وتوافقاً. فلا تتم الحياة ولا تستقر ولا تستمر إلا بذكر وأنثى. ولا تتم الذرة ولا تتحقق إلا بالالكترون

(١) يعدلون بالله غيره، أو يعدلون عن الحق.

(٢) سورة النمل: ٦٠ - ٦١

(٣) سورة الروم: ٢١.

(٤) سورة الزخرف: ٣٦ - ٣٧

والبروتون. فهذه هي الزوجية التي أودعها الله تعالى في جميع ما خلق حتى في الجمادات لتبقى الوحدانية له تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[1]. ولذلك يقول الدكتور (جورج ابـرل دافيز) رئيس البحـوث الذرية: «إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله. وانها تدل على وجود الله حتى دون حاجة إلى الاستدلال: بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها».

وقد علمنا أن ذرة (الايدروجين) مركبة من ألكترون واحد يدور حول بروتون واحد. فكيف يفسر لنا المادي حدوث الهليوم: المشتمل على الكترونين يدوران حول (بروتونين) من ذرة الأيدروجين حسب قانون التغير! أو نظرية التضاد؟!. فكان يجب إذن أن تتحول جميع ما في الكون من إيدروجين إلى هليوم وأن لا نرى في العالم في وقت من الأوقات إلا (الهليوم). فلا يبقى على وجه الأرض (ايدروجين) فتجف البحار وتيبس الأشجار. لأن جميعها مركبة من ايدروجين وعناصر أخرى. ثم أين التحول الذي يقول به المادي وهو: «إن التغيرات الكمية تتحول إلى تغيرات كيفية!». وهل للمادة الصماء أن تغير نفسها حتى يحدث نتيجة لذلك عالم كله نظام وانتظام وقوانين ثابتة ومعادلات لا يصل إلى كنهها العقل البشري مهما أوتي من قوة وكمال.

ليس العلم بهذه الدرجة من الضعة حتى يتغير حسب أهواء الفلاسفة الماديين المتطفلين على العلم. وليس العلم مجرد مقترحات تكشف عن نفس متسافلة، رائدها الهدم والتخريب!.

ألا يفكر هذا المادي أنه حسب نظريته المادية الديالكتيكية السخيفة يجب أن لا يكون اليوم في الكون إلا عنصر واحد وهو (أورانيوم) مثلاً، ذلك لأن حسب (هواه) قد تكاملت العناصر كلها وفق قانون الأضداد والتغير الذي يقول به وتحولت إلى عناصر أخرى. فإذن يجب أن لا يبقى إلا عنصر واحد وهو (الأورانيوم)!.

وهكذا القول في الأحياء، حسب هذه النظرية السخيفة، يجب أن لا

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩

يبقى في الكون إلا الانسان الذي قد تكامل من (آميبا): وهو الكائن الحي ذو الخلية الواحدة. وأن لا يكون في الوجود من الكائنات الحية غيره...

ثم كيف يفسر لنا المادي نظرية التضاد في تركيب الماء(H_2O)، ما هو هذا التضاد الذي نشاهده بين الأوكسيجين والايدروجين وما العداوة التي نشاهدها بين (الكلور) و(السوديوم)CLNA في ملح الطعام وبين الكلور والايدروجين في (آسيد كلوديدريك)Hcl . بل هناك تركيب علمي وتقارب وتوافق أودعها الله تعالى في جزيئات هذه الأجسام لحدوث هذا العالم.

* * *

ثم أن المادي الديالكتيكي لا يرتضي للانسان هذا المنطق العظيم الذي وهبه الله إياه، فكان السبب بإذنه تعالى لكل ما اكتشف من علوم تدل على عظمة الخالق، هذا المنطق الذي بُنيت عليه القضايا الهندسية والرياضيات العالية والفيزياء العالية وعلم الفلك العالي والكيمياء ومكتشفات الذرة، فيسمى هذا المنطق مع الأسف: المنطق الشكلي، ثم يأتي بمنطق في غاية السخافة (منطق الهدم والردم). منطق المتناقضات ويسميه بالمنطق الديالكتيكي.

أسفاً على ما بلغ اليه العلم في القرن العشرين، علم يتحكم فيه جبابرة طغاة بنظريات سخيفة تبريراً لموقفهم التخريبي في العقائد والنفوس.

يقول هذا المنطق السخيف: المنطق الديالكتيكي، إن الشيء يكون صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت، ويمثلون لذلك (فرضية دالتون) في تركيب العناصر. وإن هذه النظرية فندت لثبوت ما فيها من أخطاء وقام مقامها نظرية (روتفورد) بشأن الذرة. فالمنطق الديالكتيكي يقول إن فرضية (دالتون) كانت صحيحة ومغلوطة في نفس الوقت. وهذا مما يضحك الشكلي، فالدستور لا يكون صحيحاً وخطأً في نفس الوقت، ذلك لأنه لو كان خطأً كانت النتائج التي تؤخذ بتطبيق ذلك الدستور خطأً لا محالة. ان المنطق الديالكتيكي يقول أن دستور نيوتون في الجذب العام بين الكرات والأنجم:

$$ق = ي \times \frac{ك كَ}{م^{٢}}$$

كان صحيحا وخطأ في نفس الوقت. وفاتهم أن (أينشتين) رأى أن هذا الدستور لا يعطي النتائج الصحيحة لو طبق في مسافات بعيدة، فأدخل البعد الرابع وهو الزمان في دستور وضعه، ذلك لأنه رأى أن سرعة الأجسام دخيلة في حساب مقدار الكتلة، والسرعة يدخل فيها مفهوم الزمان. فلذلك صحح دستوراً وضعه (نيوتون) وجاء بدساتير أخرى دقيقة لا مجال إلى ذكرها. فكيف إذن يكون الشيء صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت؟!.

إنما يعترف المادي بهذا المنطق الديالكتيكي السخيف، كي يثير العمال والناس فيحرك عواطفهم ويخلق منهم أعداءاً يفتك بعضهم ببعض. إن رائده الفتك والبطش. انه يعترف بهذا المنطق الواهي: ان ما يوجد من دساتير وقوانين صحيحة وخاطئة في نفس الوقت، كي يبرر موقفه في وضع قوانين اجتماعية مغلوطة تخالف ما طبع عليه الانسان، تخالف ما ثبت في علم النفس من غرائز وخصال، وحمل الناس جبراً على تقبلها، كل ذلك تبريراً لديكتاتورية فئة قليلة تريد أن تحقق لنفسها شهوة الحكم والسيطرة باسم إنقاذ العمال والفلاحين! وهم ومع الأسف في أسوأ حال، بعيدون عن الحكم كل البعد. فئةٍ تريد سيطرة اليهود على العالم بعد سحق الفضائل والمقدسات والدين.

يقول المادي: إن النظام الرأسمالي صحيح وخطأ في نفس الوقت، انه يحفر قبره داخل كيانه حتى يزول فتأتي الشيوعية وهي التي تسود العالم في النهاية وتلك نهاية العالم، فلا نظام بعد ذلك. فلماذا يتوقف هذا المنطق الفاسد: (صحيح وخطأ في نفس الوقت) عند هذا الحد؟ فلماذا لا تحفر الشيوعية قبرها بيدها داخل كيانها؟ فتزول ويسود في الأرض، بإذن الله، نظام عادل، لا رأسمالية ولا شيوعية، نظام ارتضاه الله لعباده في أرضه: وهو نظام الاسلام.

* * *

نعم، إن ما رتبه المادي من قوانين وإن سماها، لإغواء الناس، علمية، نظرية! ولكنها تخريبية، صهيونية حقاً، يريد من ورائها سحق الفضائل والمقدسات والأخذ بهذا الانسان إلى جاهلية جهلاء وإلى أسفل سافلين.

أجل، لو تسافلت الانسانية في بعض بلدان العالم حتى جعل الأولاد والبنات بضاعة مادية يتصرف فيها الديكتاتوريون باسم المجتمع والبروليتاريا[1] كيفما شاؤوا وأخمدت الحريات باسم التقدم! وأمسى الفرد آلة صماء لا حرمة له ولا إرادة، وكان رائد المجتمع وبالأحرى رائد الديكتاتوريين مادياً بحتاً لا ينبض فيه شيء من المعنويات، والمقدسات، فعلى مثل هذا المجتمع السلام!.

فلا نجاة لهذا العالم إلا باتباع الاسلام وتطبيق تعاليمه الخالدة خلود الدهر.

* * *

وإن الروح من غير المنظور، وكل منا يعترف بالروح ولا يقوى على مشاهدتها كما يشاهد الخشبة. إلا أن وجودها أثبت وأوضح من وجود الخشبة. لتعلقها بنا تعلقاً لا يقبل الانفكاك.

فالمخ والجهاز العصبي كالآت الراديو. فكما أن آلات الراديو ليست من حقيقة الصوت الانساني في شيء، كذلك الأقسام المادية في المخ الانساني والجهاز العصبي، فهي ليست من الروح المجردة في شيء. فالروح التي لا ترى بعيوننا تقوم بما تقوم به من أعمال مستعينة بالمخ والمخيخ... الخ. كما يستعين الشخص بالراديو لايصال صوته إلى حيث يريد. فإذا أصيبت آلة الراديو بعطب لا تقوى على التقاط الصوت وكذلك المخ، وليس المخ من الروح في شيء، كما أن النفس غير المخ، فان النفس لا تفنى بعطب يصيب بعض أجزاء المخ، كالنسيان (مثلاً).

وقد قال الفلاسفة، وكذلك الالهيون: إن الروح جوهر مجرد عن المادة وعوارض المادة وإن اتصال الروح بالبدن هي اتصال تدبير وتصرف، أي أن الروح أو النفس تتصرف بالبدن وتقوم بتدبيره. وعندما يموت الانسان ينقطع هذا الاتصال بين الروح والبدن.

وقالوا: إن نفس الانسان جوهر روحاني مجرد قائم بذاته، ذلك لأن نفس

---

(١) البروليتاريا: Prolétariat : طبقة العمال.

الانسان تعرف وتعرف أنها تعرف أيضاً وهكذا... وان المعرفة ليست من خواص الجسم. فإذن وجب أن تكون النفس شيئاً مجرداً عن المادة. ثم قالوا: إن المادة لو انتقشت عليها صورة تبقى هذه الصورة منقوشة عليها إلى أن تنقش عليها صورة أخرى. فيحصل اضطراب من انتقاش الصورتين فيكون شكلاً غريباً، حين أن النفس ليست كذلك. تنتقش فيهـا أنواع المعـارف والمعلومات دون أن يؤدي إلى شكل غريب أو ارتباك أو يؤدي إلى محو الصورة الأولى. فهي إذن ليست من نوع المادة، ومعلوم أن الانسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً.

وقد قال الماديون: إن المـخ إذا أصيب بعطب تـأثرت العقليـات بل الأخلاق وغيرها. وجعلوا ذلك دليلاً على أن المادة هي كل شيء، ونفوا وجود الروح وهي من أوضح الواضحات. وقد فات هؤلاء أن المـادة ضروريـة لاظهار شيء خفي عنا. ومثلها مثل عدة (التليفون). فإنها ضرورية لسماع صوت مَن يتكلم، وإذا أصيب التليفون بعطب اختل الكلام ووقف. ولكن التليفون وأعني الآلة أو (المسرة) ليس منشأ الكلام مطلقاً.

ثم ألا يرى الانسان نفسه، في حلمه (في عالم الطيف)، في أماكن بعيدة أو في بلاذ أخرى نائية، وهو ملقى على فراشه، نائم في غرفته. فمن هذا الذي سافر إلى بلاد أخرى وهو مضطجع في فراشه؟ هذه هي روحه التي بين جنبيه[1]، روحه التي يُسأل عما قريب عن أفعالها وأعمالها، عن كل صغيرة وكبيرة جاءت بها في ﴿يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

إن الفسق والظلم يسدان على النفس الانسانية أبواب الرحمة وهذا بدوره يؤدي إلى اتباع هوى النفس وما يُملي عليها شيطانها على حد قوله تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلَّ الله وما لهم من

---

(١) ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. (سورة الزمر: ٤٢).

ناصرين﴾. وليس هناك جامع بين الفسق والإيمان: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾. (سورة السجدة: ١٨).

فلنفس المؤمن التقي رشحات. كما أن لنفس الفاجر المفسد رشحات أيضاً. ان الله تعالى يقول: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾. (سورة ص، ٢٨).

فرشحات نفس المؤمن: الايمان بما غاب عنه عن تعليل صحيح ومنطق واضح جلي يتجلى لعقل الانسان الفطري غير الملوث بالآثام. ورشحات نفس الآثم الفاجر الفاسق: الركون إلى المادة العمياء والاخلاد إلى الأرض ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[١] والاعتقاد بالمحيط والبيئة عوامل أخرى مادية وإنكار ما وراء المادة أو الطبيعة.

وليس المنطق والدليل في هذا المقام بعد ادلهمام النفس وظلماتها بالشيء الذي يزيح المادي عن غيه وطيشه. فهو مأنوس بما وصلت إليه نفسه البهيمية البعيدة عن رحمة ربها من انحراف وميول سلبية ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾. (سورة الروم: ٣٢). فالضال لا يعي ما هو عليه من ضلال: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[٢].

وهكذا يوضح الله تعالى حال أولئك الذين نسوا تذكير الله إياهم وفرحهم واغترارهم بالنعم التي تغدق عليهم أي بهذا الاستدراج الإلهي (ونستجير بالله من ذلك) وذلك بقوله: ﴿فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ (أي متحيرون، آيسون) (سورة الأنعام: ٤٤).

إنه تعالى يقول: ﴿ولا تطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فُرطا﴾[٣]. فان قلباً كهذا بعيد عن تلقي كل ما يهدي إلى الصواب إلا

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ أخلد إلى الأرض: أي مال اليها ودام فيها واتبع ميله الشهواني.

(٢) يعمهون: يتحيرون، عمه: تحير وضل ـ سورة الحجر: ٧٢

(٣) فرطاً: إسرافاً، خارجاً عن طريق الحق.

إذا تاب وأناب وتخلى عن طيشه وغروره وأعقب أعماله السيئة بحسنات: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾[1].

هذه هي فلسفة الهداية والضلال الحقة بشكل واضح لا تعقيد فيه. إنه تعالى يقول: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾. ﴿وإن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾. ﴿وإن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾. ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾. ﴿فإن تولوا فان الله أعلم بالمفسدين﴾.

وإن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين وجحد الجاحدين. ذلك أنه تعالى يقول: ﴿من كان يريد العاجلة[2] عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[3]. ثم يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة[4] لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج[5] عليها يظهرون[6] ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً[7] وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا[8] والآخرة عند ربك للمتقين﴾[9].

* * *

إن دين الاسلام دين تطهير ودين تزكية النفوس. فما لم تأخذ هذه النفس في التدرج في مراحل التطهير، لا تفتح لها أبواب الهداية. وكل ما جاء في

---

(١) سورة هود: ١٥

(٢) أي الحياة العاجلة وهي الدنيا.

(٣) مدحوراً: مطروداً

(٤) أي لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة

(٥) معارج: مصاعد جمع معرج.

(٦) يظهرون: يعلون إلى فوق.

(٧) زخرفاً: زينة.

(٨) ولكن كل ذلك تمتع قليل في الحياة الدنيا.

(٩) سورة الزخرف: ٣٣.

الدين الاسلامي من أوامر ونواه ومستحبات ومكروهات: كلها ترمي إلى تطهير هذه النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ معنوية. وبمقدار طهارتها يحصل لها يقين بالمقدسات وبما غاب عنها من عوالم، فيراها حقائق ناصعة لا غبار عليها. فتكون البراهين مؤيدة لما يترشح من نفسه الطاهرة.

انه تعالى يقول: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون﴾. ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾. ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يطهروا، والله يحب المطهرين﴾.

فدين الاسلام دين تطهير النفوس لو عمل به وطبق تطبيقاً تاماً.

وإن أعداء الاسلام يعملون لأجل إشاعة الفواحش بأنواع الوسائل: بالصحف والمجلات بما فيها من تصاوير خلاعية وكتب غرامية وأفلام سينمائية وتمثيليات شهوانية ثم بتهيئة حانات الخمور وإيجاد محلات الزنا والفجور، كي تتلوث النفوس. فإذا تلوثت لم يكن في النفس عندئذ محل يحل فيه حب الله تعالى وذكره، تحل فيه المقدسات والفضائل. ومن ثم يأتي دور الانكار والجحود! فترسخ أقدام المادية في النفوس وتكون المادة معبودة لها، كما كان فريق من الناس يعبدون الأصنام من ذي قبل ولحد اليوم.

* * *

وقد قرأت ما كتبه شاب في إحدى المجلات وقد بلغ من العمر١٩ سنة: «إن أكثرية الشباب الساحقة منصرفون إلى أعمال منكرة، أعمال تقشعر منها الجلود بإفراط لا مزيد عليه وبصورة غير مشروعة. إن هذا الانهماك في الفسوق لا يدع مجالاً للشاب كي يفكر في مصيره وتكميل نفسه والتوجه نحو المقدسات. فان اختلاط الجنسين في شتى المجالات وغيره من عوامل شتى قد فسحا مجالاً واسعاً للإشباع الجنسي بشكل فظيع. وهذا بدوره يجعل الشاب غير ميال بالقيم الأخلاقية والفضائل والمقدسات وبالدين بعد تلويث نفسه بيده. فلا بد من معالجة جذرية تبعد الشاب عن هذه المزالق لو أريد بالشاب

الهداية والكمال الخلقي وتقديس المقدسات. فان النصيحة وحدها لا تكفي لردع الشاب عن غوايته!».

ومن هنا يعلم قيمة ما وضعه الاسلام من قوانين صارمة تمنع اختلاط الجنسين وما يؤدي إلى التفسخ الخلقي ومن ثم إلى تلويث النفوس واستهزائها بالمقدسات! . ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾. (سورة الروم: ١٠).

* * *

نعم، قد أخذ الماديون في أوروبا، هؤلاء الذين قد تحجرت عقولهم بعد أن تلوثت نفوسهم، ينكرون كل ما لا يقع تحت أبصارهم أو حواسهم الخمس. مع العلم أن هذه الحواس ناقصة إلى حد بعيد في قابلياتها وإمكانياتها. وهي تعمل على قدر ما أودع الله فيها من كفاءات. لذلك يستعان بآلات أخرى تزييداً لقابلية بعض الحواس من إبصار وسماع. . . إلى ما هنالك. وكلما زادت حساسية هذه الآلات كلما تعرف الانسان إلى أشياء كان يعتقد أنها غير موجودة من ذي قبل. حتى استعمل (ميكروسكوب الكترونيك) حيث تكبر الجرثومة بواسطتها (٧٠٠٠٠) مرة. ولعل الله تعالى يوفق في المستقبل بعض المتتبعين إلى تكبير بعض الميكروبات الصغيرة جداً إلى مليون مرة أو أكثر. وهكذا تتجلى للانسان بما يلهم الله تعالى بعض المشتغلين في الفيزياء وعلم الأحياء عوالم عجيبة كانت تعد إلى زمن قريب من (غير المنظور).

ويجب أن لا يغرب عن البال أن الحواس الخمس إنما هي آلات يستعان بها (على ضوء ما تعطي من معطيات) على ربط الحوادث بعضها ببعض، ثم الاستقراء فالاستنتاج. . . الخ. والمهم هو هذا العقل الانساني الفعال: هذا الذي يضع دساتير العلوم ويربط بين معطيات الحواس (بقدر ما توصل إليه العلم المادي) بالفطرة دون اللجوء إلى تجربة سابقة. ولا ريب أن هذا العامل المهم في الربط وأعني به العقل، هو من (غير المنظور). لذلك يقسم الله بغير

المنظور بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾. كما أن قوة الجاذبية من (غير المنظور).

والنفس الانسانية هذه التي يعبر عنها بـ (أنا) من النوع غير المنظور. فـ (أنا) هو غير هذه العظام التي تؤلف الهيكل العظمي (اسكلت) والجهاز العصبي والدورة الدموية... الخ. ذلك لأنك عندما تقول (أنا) تغفل تماماً عن كل ما في بدنك من دم وعظم وعصب. فـ (أنا) ليس من المادة في شيء، وهو من غير المنظور.

* * *

وها نحن نذكر بعض ما حدث من الوقائع التي أيدت لعلماء الغرب وجود الروح. ولا يخفى أن هذا البحث لمن أهم المباحث لشبابنا المعاصر المحاط بظروف مادية حالكة، وتشكيلات محرفة مضللة:

ذكرت دائرة معارف بريطانيا أن امرأة في لندن شاهدت ذات يوم عند الصباح زوجها الذي كان قد اشترك في حرب (ترانسوال) بباب الغرفة. فتعجبت، وتقربت منه، فلاحظت أن ليس له جسم كأجسام البشر. وهو لا يتكلم بشيء. فأخبرت بعض الجهات المختصة وتمكنوا من تصويره! وإذا به ضابط قد قتل في تلك الساعة في حرب (ترانسوال) في جنوب أفريقيا وجاءت روحه تزور الزوجة: رفيقة الحياة.

يقول الدكتور الطبيب (أوين فردريك باورز) أستاذ الأمراض العصبية في جامعات أمريكا أنه قد أمضى أكثر من عشرين سنة وهو يبحث ويدقق ويرى اللوحات السالبة لصور الأرواح الفوتوغرافية!.

وقد بلغ العالم الحديث مرتبة تمكنه من تصوير سيارة في المكان الذي كانت فيه بعد أن غادرته. ذلك لأن الاهتزازات الخاصة بها (بالسيارة) لا تزال موجودة في المكان الذي كانت فيه، إلا أنها غير مرئية. فباستخدام آلة خاصة للتصوير أمكن تصويرها!.

وإن القرآن الكريم يوضح لنا أرواح الملائكة التي ليست من المادة والجسم

في شيء بقوله: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ وذلك في (سورة هود: ٧٠) وهو قوله تعالى:

﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى. قالوا سلاماً قال: سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (مشوي) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس[١] منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾.

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى سرعة الملائكة التي ليست من الأجسام البشرية في شيء، سرعة لا تقاس بسرعة ما يحصل عليه بأعمال مادية بواسطة الأمواج الكهربائية، بل هي سرعة فائقة لا يعلم مداها إلا الله: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾. ولا شك أن سرعة الملائكة أعظم من سرعة الضوء أي (٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية) أضعافاً مضاعفة لعدم تناهي الأبعاد! فما أبعدها من مسافات شاسعة تقطعها الملائكة في خمسين ألف سنة بتلك السرعة الهائلة!.

* * *

تغلغلت المادية في أوروبا في القرن الماضي من جراء تلوث النفوس بأنواع المعاصي والآثام وضروب الفساد والظلم[٢]. فصاروا يعزون كل شيء إلى المادة وهم لا يعلمون عن حقيقة المادة شيئاً، وجهلهم بالمادة أكثر من جهلهم بأنفسهم. حتى صار يُعرف بعضهم المادة: بضرب يده بقوة على المنضدة قائلاً مع خيلاء تلازمه: (هذه هي المادة). وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً.

حقاً، إن هؤلاء المتطفلين على العلم الحديث ذوي الأدمغة المتحجرة والنفوس الضالة أصبحوا عالة على العلم والبشرية جمعاء فضلوا وأضلوا. حتى صاروا يضغطون على علماء الذرة والأحياء أن يعدلوا نظرياتهم التي تبرهن بجلاء وجود الصانع جل جلاله، وجعلها مؤيدة للمادية الهوجاء.

(١) أوجس: أضمر منهم خوفاً.

(٢) ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾. (سورة الجاثية: ٢).

أنى للنفس المتحجرة أن تذعن للدليل ودونها حجاب يصدها عن رؤية الحق والواقع! ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾. (سورة الروم: ٢٩).

إن ما أذكره من حوادث قد لطف الجو المادي المدلهم في أوروبا في القرن التاسع عشر وبعده. فصار يعتقد ثلة من العلماء الذين لم تتلوث نفوسهم بلوث المادية العمياء، أن وراء هذا العالم المادي، (والعالم المنظور) عالماً آخر غير منظور.

منها: أن قائداً لفرقة موسيقية في بارس قد سمع ذات يوم بصورة جلية واضحة، وهو في بناية خاصة بالفرقة المذكورة، أن شخصاً غير منظور يقول له بوضوح: إن هذه البناية ستنهدم بكاملها يوم الاثنين المقبل في الساعة التاسعة صباحاً. يبحث القائد عن صاحب هذا الصوت، فلا يجد أحداً، يرجع إلى مكانه وإذا بنفس الصوت يؤكد ما قال أولاً. فلا يرى أحداً فيبقى متحيراً، من هذا الهاتف، يا ترى؟.

■ حتى كان اليوم الموعود. يخرج القائد قبل الساعة التاسعة مع من كان في البناية على سبيل الاحتياط وإذا بها تنهدم عن بكرة أبيها.

* * *

يذكر لنا أحد علماء الغرب في بعض مؤلفاته: أن رجلين هاجرا وطنهما وذهبا إلى (استراليا) بغية الاشتغال في رعي الغنم والمتاجرة بها. فازدهرت تجارتهما في مدة وجيزة وأصبحا ثريين. إلا أن أحدهما فقد شريكه فجأة بعد مدة. وصار يفتش ويبحث عنه بشتى الوسائل، فلم يعثر على أثره.

وفي يوم بينما كان هذا الرجل يعود إلى بيته جاعلاً طريقه على ضفاف بركة عميقة في شارع ضيق، شاهد شريكه المفقود جالساً على ضفة البركة جلسة القرفصاء يرمق ببصره الماء.

همَّ الرجل أن يبدي فرحه وسروره، لأنه قد ظفر بضالته بعد مدة مديدة وتعب شديد، لكنه رأى أن كآبة تعلو وجه صديقه المفقود، وهو يتضاءل كلما همَّ أن يدنو منه حتى انمحى ولم يبق منه أثر.

يقول الرجل: فوقفت في محلي ولم أقترب وإذا بصديقي المفقود يبدو من جديد مشيراً بيده إلى محل في البركة ثم يغيب. فعلمت أن لا بد في البركة من شيء يجب إخراجه. ففتشنا المحل الذي قد أشار إليه الصديق المفقود وإذا بجثته ملقاة في قعر البركة، مغطاة بأوراق الشجر وقد قتل بفأس وجدوها في قعر البركة أيضاً، دفنوا الجثة وظفروا بالقاتل، فأعدم بعد الاقرار. وهكذا استدلوا على بقاء الروح بعد الموت.

* * *

كان قد دعي بروفسور (يواهم) أستاذ الرياضيات إلى طعام ليلاً في بلدة (ماربوك). فبينما هو جالس مع رفاقه يتجاذبون أطراف الحديث، وإذا به يرى نفسه تدفعه حثيثاً ليذهب إلى بيته ويعتريه من جراء ذلك قلق شديد لا يدعه يستقر في مكانه. يذهب الأستاذ إلى بيته، يفحص زوايا البيت، فلا يجد شيئاً يقلقه، ولكنه يرى شخصه ما زال قلقاً حتى ينتهي إلى غرفة المنام. يغير مكان نومه مستعيناً بخادمه فيضع سريره في الجانب الآخر من الغرفة ويعود إلى بيت صديقه لتناول طعام العشاء. وبعد تناول الطعام يرجع الأستاذ إلى بيته وينام في غرفته، وإذا به يرى بعد منتصف الليل أن السقف ينهدم من ذلك الموضع الذي كان ينام تحته كل ليلة. فلو لم يكن قد لبى القلق النفسي أو الالهام الغيبي (الهاتف) لأصيب بضرر بالغ ولعله كان يقضى عليه.

ومن هنا استدلوا على أن وراء المادة عالماً آخر، وأن الله تبارك وتعالى يتصرف في العوالم كلها حسبما يشاء وكيفما يشاء. فينجي من الهلكة من يشاء، ﴿كل يوم هو في شأن﴾.

* * *

يكتب لنا (مسيو كومرا) أحد الصيادلة المشهورين أن دخله اليومي ما كان ليتجاوز (٤٠ ـ ٤٥) فرنكاً في صيدلية كان قد فتحها في (تولوز).

ولكنه رأى ذات ليلة في ما يرى النائم: أنه مكتوب في نهاية الصفحة أن مجموع دخله اليومي (٧٦) فرنكاً وثلاثين سانتيماً. وقد انتقش المبلغ في ذهنه.

حتى كان اليوم الثاني وذهب إلى الصيدلية وقص قصته على معاونه. فقال له معاونه: لعل ما رأيته في منامك هو دخلنا ليومين.

يقول (مسيو كومرا) مضى النهار على العادة حتى جن الليل ففوجئنا بزبائن جدد اشتروا كميات من الأدوية وعندما خرج آخر زبون من المحل كانت الساعة العاشرة والنصف. بادرنا بغلق المحل وإذا بنا نجد الدخل اليومي ٧٦ فرنكاً و ٣٠ سانتيماً كما أخبرت في عالم النوم!.

لا أعلم كيف يفسر المادي هذا الاخبار بالغيب، أليس هناك عالم آخر قد يفيض على هذا الانسان بأخبار عن عالم الغيب ليزداد ثقة بما وراء الطبيعة. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد﴾[1]. ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم، ألا انه بكل شيء محيط﴾ (مرية: شك).

* * *



(١) سورة السجدة: ٥٣، ٥٤.

الروح باقية بعد الموت

ذكرت إحدى مجلات إيطاليا أنه كان يدور حديث (بقاء الروح بعد الموت) منذ زمن غير بعيد بين (كنت كالاتري) و (موسيو ديرزيني) أحد الضباط في الجيش الطلياني. فتعاهد كل منهما مع الآخر أن يخبر صديقه بعد موته إن كانت روحه حية، بأن يأتي إلى صديقه الحي فيحك أسفل قدمه. وقد مضت على هذه المعاهدة خمس سنوات حتى أوفد (ديرزيني) في جيش إلى أفريقيا، فوادع (ديرزيني) صديقه وسافر. . .

وبعد مضي ٨ أشهر على هذه الموادعة، صارت تشعر (زوجة كالاتري) في الليل بحك شديد في رجلها وهي نائمة بجنب زوجها. فصارت تقول لزوجها (كالاتري): لماذا المزاح، ولِمَ تؤذيني؟.

فأجابها زوجها: وهل أنت تحلمين؟ أني لم أصنع شيئاً من هذا القبيل.

ولكنها كانت تشعر أن هناك من يحك أسفل قدمها بصورة متكررة.

ثم أسرجا السراج، وفتشا فلم يعثرا على شيء. عند ذلك قالت زوجته: «أما ترى هذا الضابط، واقفاً تحت رجلي وهو يرتدي قبعة جميلة مع أوسمة. أنه طويل القامة، ها هو ينظر اليك مبتسماً، وقد أصيب في صدره بجرح خطير وكذلك في ركبته. أنه يحييك تحية عسكرية، ألا تراه. ولكنه الآن غاب عن بصري».

فلم تمض الأيام حتى أخبرت جرائد إيطاليا أن الضابط (ديرزيني) أصيب في حرب مع الأحباش في صدره وركبته ومات في اليوم الذي جاء إلى صديقه (كنت كالاتري) يخبره أنه حي بعد الموت وأن الروح لا تفنى بموت البدن وذلك وفاءاً بالوعد.

* * *

تقع كثير من هذه الحوادث عندنا في الشرق ولكنا قل ما ندون لاعتقادنا بما غاب عنها وبالالهام الرباني وبما وراء الطبيعة.

منها: ان امرأة مات زوجها. فكانت تريد أن تتصدق عنه، فصارت تصنع طعاماً ليلة الجمعة وترسل به مع ولدها اليتيم إلى فقير في أحد الأكواخ القريبة.

إن الولد كان يأخذ الطعام الذي هيأته أمه إلى ذلك الكوخ وهو يشعر في الوقت نفسه بجوع شديد. يرجع الولد إلى بيته جائعاً، فينام وهو جوعان!.

وهكذا صنعت الأم مرة ثانية (ليلة الجمعة) طعاماً وأرسلت به مع ولدها إلى نفس ذلك الفقير. قدم الولد الطعام إلى الفقير ورجع إلى البيت وهو يكابد ألم الجوع، نام وهو جوعان!.

وفي المرة الثالثة صنعت الأم ليلة الجمعة أيضاً طعاماً تقدمه صدقة عن زوجها المتوفي وأرسلت به مع ولدها إلى نفس الفقير، أخذ الولد الطعام وصار يتقدم نحو الكوخ. إلا أن الجوع كان قد أضر به ضرراً بالغاً. فلم يستطع الصبر. فأكل ما كان في الاناء ورجع إلى البيت، نام وهو شبعان.

رأت الأم زوجها في المنام يقول لها: «لم يصل إليّ الطعام إلا في هذه الليلة».

انتبهت الأم من نومها قبل طلوع الشمس، متعجبة، فأخذت تسأل ولدها: ولدي، إلى من كنت تأخذ الطعام ليلة الجمعة الماضية وقبلها؟ فقد رأيت والدك في المنام يقول لي: لم يصل إليه الطعام إلا في الليلة الماضية. فقال الولد: قد قدمت الطعام إلى الفقير مرتين مع ما كنت أشعر به من شدة الجوع. ونمت جائعاً. إلا أني في الليلة الماضية لم أطق أن أتحمل ألم الجوع، وكان قد أضر بي كثيراً. لذلك أكلت ما في الإناء ونمت وأنا شبعان.

فعلمت الأم أن ولدها اليتيم كان أولى بأكل هذه الصدقة من ذلك الفقير في كوخه. فقد جاء في الحديث: «لا صدقة وذو رحم محتاج».

وفي آية أخرى: ﴿فلا اقتحم العقبة[١] وما أدراك ما العقبة فك رقبة[٢] أو إطعام في يوم ذي مسغبة[٣] يتيماً ذا مقربة[٤] أو مسكيناً ذا متربة﴾[٥].

* * *

ولا بأس بذكر هذه الواقعة أيضاً، لتروا كيف أن الله تعالى يريد أن يقوي رابطة الانسان بما غالب عنه من عوالم، ليزداد يقيناً به تعالى وبعوالم غيبية، فيخشع قلبه، ﴿ألم يأنِ[٦] للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾[٧] ثم لا يركبه الغرور، فيقسو قلبه: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد: ١٦).

فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من قسوة قلب». وفي حديث آخر: «شر العمى عمى القلوب» وفي آخر «أعمى العمى الضلالة بعد الهدى» وكم لهذا الحديث الأخير من مصاديق في يومنا هذا، مع الأسف الشديد.

ثم ان الله تعالى يمدح الذين يؤمنون بالغيب ويخصهم بالهداية دون غيرهم بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[٨].

قد ذكر لي من أثق به: «أنه كان قد غادر مدينة طهران مستخدمان بالبريد يريدان زيارة الحسين عليه السلام. وبما أن حكومة الوقت كانت قد منعت السفر إلى العتبات المقدسة، لذلك سلكا طريقاً غير معبد. فأصبحا في

---

(١) الاقتحام: هو الدخول في أمر شديد. العقبة: الطريق في الجبل.
(٢) أي تحرير رقبة: رق، أو أسير. وبهذا وأمثاله قضى الاسلام على الرق.
(٣) أي ذي مجاعة.
(٤) يتيماً ذا قرابة
(٥) ذا متربة: أي ذا فقر. يقال: ترب أي: افتقر.
(٦) ألم يحن.
(٧) سورة الحديد: ١٦.
(٨) سورة البقرة: ٤

أرض قفراء سبخة وقد أضر بهما العطش ضرراً بالغاً، حتى هلك أحدهما في تلك الصحراء وتمكن الآخر بإذن الله بعد توسل وابتهال من أن يرجع إلى أهله سالماً تفضلاً منه تعالى. وبعد مدة رأى صديقه في منامه وهو في بستان في وضع مريح، فسأله عن حاله. فأجاب: إني بحمد الله في تمام الراحة، إلا أن عقرباً تأتيني كل يوم فتلسعني في إبهامي هذا (وأشار إلى رجله)، فأشعر إذ ذاك بألم تكاد تخرج روحي من جرائه[1]. وقد أخبرت أن ذلك لأني كنت قد سرقت سكينة جميلة صغيرة من بيت صديقي (فلان) في يوم كنا نأكل الخس معاً في بيته (وقد ذكر اسمه). وأني قد أخفيت السكينة في بيتي في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى. فأرجوك أن تذهب إلى بيتي وتقرأ زوجتي مني السلام وتقول لها: إن زوجك قد قال لي في عالم الرؤيا أن تعطيني السكينة التي وضعتها في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى كي أرجعها إلى صاحبها القصاب وأطلب منه أن يغفر لزوجك زلته، لعل الله يمن عليه بالعفو والغفران. يقول هذا المستخدم ففعلت كما أخبرت بالمنام، فكان كما أخبرت.

يقول: ورأيت صديقي مرة أخرى في عالم المنام وإذا به يشكرني وهو في تمام الدعة والطمأنينة.

وهكذا هناك من الأطياف ما لا يعد، تنبيء عن مغيبات تدل بصراحة أن وراء هذا العالم المنظور عوالم غير منظورة لها من الخطورةوالأهمية ما لا يوصف.

* * *

ومما قيل في الاعتقاد ببقاء الروح بعد الموت، تفنيد آراء شتى قيلت في سبب النوم وانتصار الرأي الأخير القائل: «إن هناك روحاً آدمية في الانسان

---

(١) ان الله تعالى يقول: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وفي آية أخرى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾. وفي الحديث: «إنما أعمالكم ترد عليكم». فإذا استغفر العبد وتاب وأناب وأرجع إلى الناس حقوقهم من زكاة وخمس وصلة رحم إلى ما هنالك، أمن من العذاب وذهب من هذه الدنيا ولا ذنب عليه ولا حساب يؤاخذ به. فطوبى لمن طهرت نفسه في هذه الدنيا قبل أن يطهر بعد الموت بعذاب لا يطاق.

قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم». لذلك صار يعد العلماء (اعتبار النوم طرحاً روحياً مؤقتاً) نصراً عظيماً، لأنه بذلك أمكن تفسير الأحلام التي يراها الانسان في نومه والتي تتحقق بعد يقظته عاجلاً أو آجلاً. كما أمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة غريبة أو أشخاص غرباء لم يكن قد رآهم قبلاً ثم مشاهدته في عالم الشهود واليقظة بعد سنين أو مدة يسيرة نفس الأمكنة وعين الأشخاص دون أي اختلاف. وهذا تطابق بين حالة الرؤيا في النوم والمشاهدة في اليقظة.

وهكذا تؤيد مكتشفات العلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم قبل ١٤ قرناً أن النوم طرح روحي مؤقت. تعمقوا في معنى هذه الآية لتروا صحة ما أقول أنه تعالى يقول:

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1]. ومعنى ذلك أن الله تعالى يقبض أرواح عباده إذا حان حينهم وجاء أجلهم وهكذا يقبض أرواح عباده الذين لم يموتوا في منامهم: يقبضها بقطع علاقة تلك الأرواح بالأبدان. فالعبد الذي جاء أجله وهو نائم أي (من قضى عليها الموت) لا ترد روحه إلى بدنه. بل يمسكها الله تعالى ويرسل روح العبد الذي لم يأت أجله إلى بدنه، وذلك إلى أجل مسمى (معين). لا يعلمه إلا الله، حقاً، إن في ذلك لآيات على قدرته تعالى لكل من تفكر في هذا الوجود الانساني المؤلف من روح وبدن.

يقول الدكتور (جورج لندسي جونسون)، انه أجرى عملية جراحية في عيني فتاة وهي في التاسعة عشرة من عمرها. ولم تكن قد رأت شيئاً قبل ذلك، لأنها كانت لا تبصر شيئاً. ولكنها صارت تتبين كل فرد في الغرفة وتميز بين الألوان المختلفة بعد العملية الجراحية وتماثلها للشفاء. وهذا ما يؤكد أن روح الفتاة كانت تنطلق في منامها فترى أشياء ما كانت تستطيع أن تراها بعينيها قبل العملية.

---

(١) سورة الزمر: ٤٢.

وأما الرياضي المعروف: (بوانكاره)، فقد رأى في منامه معادلات رياضية أدت إلى استكشافه قوانين رياضية هامة. وكان مؤمناً بالالهام والحدس ووجود الروح.

وكم من أناس ضاعوا في الصحراء ولم يجدوا ملجأ إلا إلى الله تعالى، فابتهلوا إلى الله مخبتين، فنجاهم الله بأن أراهم الطريق في منامهم أو أرسل الله لهم مَن ينقذهم من الهلاك. ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾. ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾. فهو جل جلاله يرحم حتى غير الشاكرين من عباده لعلهم يهتدون، وما أقلهم!.

انه تعالى يراقب أعمالنا ويسمع نداءنا وتضرعنا في البحار والقفار، فينقذنا من الهلكة إذا انقطعنا اليه خاشعين. فلكل واحد منا شواهد من حياته على ما أنعم عليه حين التضرع من عظيم النعم وهو القائل: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

انه تعالى يقول: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه في قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾(١).

---

(١) سورة يونس: ٦١

حرمة إحضار الأرواح

إن الدين الاسلامي قد حرَّم (إحضار الأرواح) و (إحضار الجن) وعدهما من الكبائر، لما في ذلك من تدليس وتمويه وكذب وإفتراء. وان بعض المسلمين صاروا يعتقدون بما يقام به في الغرب من إحضار بعض الأرواح! في الظلام باستعمال الخباء وأنواع الخداع والوسيط الكذاب وباستعمال كوب صغير أو فنجان يتنقل بين حروف قد رسمت فوق منضدة، فتكون إجابات الأرواح المستحضرة من مجموع الحروف بحسب ترتيب تنقله بينها! أو بمؤشر كمؤشر الساعة يدور حول محور وسط نضد دائري رسمت الحروف الأبجدية على محيطه، وباستعمال طريقة السلة... الخ.

ومن النتائج الكاذبة في إحدى الجلسات: «أن جبريل معنا» ومحاولة البعض من التقاط صورة لجبريل عليه السلام، وأكاذيب على الرسل عليهم السلام وغيرهم إلى ما هنالك!..

وقد علم أخيراً أن أيدٍ هدامة (صهيونية) تريد أن تجعل هذه الروحية الكاذبة(Spiritualism) ديناً جديداً يهدم أسس المجتمع وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية، لتسود الصهيونية بالأخير في العالم. وهذا لا يختلف عما في (بروتوكولات حكماء يهود) وما قصده (فرويد) و (كارل ماركس) وغيرهما من اليهود.

ولا نريد أن نبرهن على فساد ما يذهبون إليه من إحضار الأرواح وكيف أن عوامل مختلفة تؤثر في الموضوع، فيخيل إلى حاضر الجلسة أن روحاً حضرت وانها تتكلم إلى آخر ما هنالك من خداع في الظلام وتحت الخباء ووسائل ووسائط للتمويه. ولا أشك أن لشياطين الجن دوراً هاماً في تلفيق الأكاذيب أو الاخبار بما غاب عن الأنظار كما سنبين ذلك في البحث عن الجن.

ويكفي أن نقول أنه قد جاء في دعاواهم العريضة ان احد المشتغلين

بالأمراض العصبية في جامعة من جامعات امريكا قد استطاع أن يجسد روح أمه وأن يقص خصلة من شعرها، ثم يفحص بعدئذ الشعر فحصاً هستولوجياً ميكرسكوبياً!.

ومن جملة ذلك: ما هو مكذوب على لسان القس (سنتون موزي) ما تلقى عن عالم الأرواح:

«نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم. فإلهنا هو إلههم، إلا أن إلهنا أظهر من الههم وأقل صفات بشرية وأكثر صفات الهية. لا تخضع لأية عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل، ولا تأخذ بلا تحفظ وحياً جاء لأحوال خاصة في عصر من العصور! وليس هو بامتياز لأمة دون امة ولا .لشخص دون شخص، والله يكشف نفسه للانسان شيئاً فشيئاً!».

ومن جملة كلمات المشتغلين بشعوذة إحضار الأرواح(Spiritisme) قولهم: «إن الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله».

ومن أقوالهم: «إن لب الدين هو بذل الخير لخلق الله، ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك. وإن طقوس الأديان على اختلاف صورها ليست إلا أساليب لبلوغ هذه الغاية. وان الناس على اختلاف أديانهم بعد سواء: مسلمهم ومسيحيهم ويهوديهم وبوذيهم، كلهم يعيشون إخواناً فيما وراء الموت، وإن باب التوبة مفتوح أمام الكافر والفاسق والمخطيء بعد الموت. وإن فرصة الترقي متاحة له دائماً. وإن الجنة والنار حالة عقلية أو حالة نفسية أو هما واقع يجسمه الفكر ويصنعه الخيال الذي يعكس باطن صاحبها وحالته النفسية».

وهذا ما يسمع كل يوم في أوكارهم ومنظماتهم ومجلاتهم: يوهمون للناس أن الناطق بكل ذلك روح كبير[1]!.

---

(١) الروحية الحديثة، حقيقتها وأهدافها: للدكتور محمد محمد حسين، أستاذ الأدب العربي الحديث، بجامعة الاسكندرية الطبعة الأولى: ١٣٨٠ هـ.

ومثل ذلك قولهم في وصف الانسان: «إنه عامل ومساعد وشريك لرب العلا وأقوى من الحكام الذين يحكمون بالعصا. أنت في الرب ومع الرب ولأجل الرب الأمثل»!!...

وهناك من المسلمين من استساغ هذه الأوهام والشرك الصريح وأراد تطبيقها على النصوص القرآنية مع الأسف الشديد!.

وبالختام نرى أن مجلة روحية تمجد الشيوعية، وهذا مما يدل أن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين الروحية (الكاذبة) والشيوعية الهدامة! وليدة الصهيونية. ولا مجال لأسرد كل ما جاء من كفر وإلحاد على لسان الروحيين ووسطائهم. ويكفي أن نقول: ان الصهيونية تبنّت هذه الحركة وصارت تغذيها لأغراضها الهدامة.

ومن المعروف أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة في القرن الأخير بل منذ الثورة الفرنسية. وهي التيتخترع هذه الأباطيل وتنسبها للأرواح هدماً للأديان.

فحري بالمسلمين أن لا ينخدعوا بأباطيل هؤلاء وأن يطبقوا أمر الشارع الأعظم في حرمة إحضار الأرواح.

* * *

ومن جملة ما هو غير منظور هو «الجن». فقد أنكر بعض المثقفين بثقافة العصر من رجال الغرب وجود الجن، لعدم إمكان رؤيته بالباصرة أو لمسه باليدوذلك لتغلب مفهوم المادية على النفوس. وقد تأثر الشرق بمادية الغرب عن طريق الصحافة وغيرها، حتى أن أحد علماء المسلمين صار يفسر الجن في القرآن الكريم، بالميكروبات التي لا تُرى بالعين. ورأيت أن البعض منهم يرى الجن وجوداً خيالياً تخيَّله البشر، وليس شيئاً إلا الخيال ولا وجود له في الخارج.

بيد أن أوساط أوروبا قد تأثرت في ابتداء القرن الحالي بإحضار الأرواح على ما فيه من التمويه والتنويم المغناطيسي، فصارت تعترف بالجن وأنه كائن

حي، لا يشبه الانسان في كيانه وقد دونت في الغرب كتب عدة في هذا الموضوع.

وإن القرآن ليصرح بوجود الجن وأن منهم المؤمن ومنهم الكافر الجاحد.

إنه تعالى يقول: ﴿قل أوحي إلى أنه استمع نفر[1] من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً[2] يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. فالجن يستمعون القرآن ويؤمنون به كما نؤمن وليس الجن بجراثيم صغيرة تخفى على العين، كما قال بعضهم.

ثم يقول الله تعالى عن لسان الجن: ﴿وأنه تعالى جدُّ ربنا[3] ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ أي أن الجن يعترفون بوحدانية الله تعالى وأنه ما اتخذ لنفسه زوجة ولا ولداً.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون[4] برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[5]... الخ. ومعنى ذلك: أن رجالاً من الأنس كانوا يلجأون إلى رجال من الجن طلباً لاستخدامهم في حاجاتهم فزادوهم ضلالاً وغياً. فيعبِّر الله تعالى عن الجن برجال، كما عبر عن الأنس أيضاً. فعلم أن الجن عالم قائم بنفسه كالإنس. إلا أن النظرية المادية: «كل ما لا يرى بالعين فهو غير موجود» قد أثرت في بعض النفوس التي ضعف إيمانها لتساهلها في تطبيق تعاليم الاسلام تطبيقاً شاملاً، فصارت تنكر الجن تأسياً بالماديين أو فراراً من وصمة الرجعية والخرافة أو تشهياً للقب (العصري)، أو (المثقف)!... لئلا يُعد متأخراً عن ركب المدنية الحاضرة بما فيها من علل وويلات!... أو صار يظن أن الجن ميكروبات أو بهائم أو حشرات دونما

---

(١) نفر: جماعة من الجن. و(نفر) من الواحد إلى العشرة.

(٢) عجباً: بديعاً.

(٣) تعالى جد ربنا: أي تعالت عظمته.

(٤) يعوذون: يستجيرون.

(٥) ضلالاً

تحقيق ودون إرجاع الموضوع إلى صريح الآيات القرآنية والأحاديث المستفيضة والمشهورة.

ثم قال تعالى عن لسان الجن: ﴿وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾[1]. فيقول الله: إن من الجن رجالاً صالحين أبراراً وان منهم مقتصدين أي أقل من أولئك رتبة وهم طرائق متفرقون. كما يقول جل من قائل في آية أخرى عن الجن: ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون[2] فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً[3] وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾. فمن الجن من هو كالإنس مسلم، ومنهم من هو ظالم لنفسه مبين، ومأواه جهنم وبئس المصير. فلا فرق بين الجن والانس من هذه الناحية فيحرق الظالم والكافر من الجن بالنار، إن لم يتوبا، كما أن الانس كذلك يحرق الظالم والكافر منهم بالنار دون توبة وتطهير النفس من أوساخ الذنوب والمظالم والرذائل.

أنه تعالى يقول: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون﴾[4]، ومعنى ذلك: أن المشركين جعلوا بين الله وبين الجنة نسباً (ويراد بالجنة هنا الملائكة). ولقد علمت الملائكة أن المشركين أو الكفرة لمحضرون أي مقودون إلى العذاب المهين، وفي تفسير آخر: أن المراد بالجنة هو الجن، ذلك لأن المشركين قالوا: إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة، فالله تعالى يقول: إن الجن علموا أنهم لمحضرون للعذاب إلا عباد الله المخلصين[5] منهم (أي من الجن).

---

(١) قداداً: أي متفرقة، مختلفة.

(٢) القاسطون: الظالمون.

(٣) تحروا رشداً: أي توخوا رشداً.

(٤) سورة الصافات: ١٥٨

(٥) وذلك لقوله تعالى في الآية ١٦٠: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾.

ويقول تعالى في سورة السجدة: ١٣: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هُداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

* * *

ثم أن الله تعالى يخبرنا في مكان آخر من كتابه الحكيم بقوله: ﴿وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا أنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يُجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾[1].

وهؤلاء، على ما جاء في التفسير، هم جن (نصيبين) باليمن أو جن (نينوى) وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ببطن نخلة، يصلي بأصحابه الفجر، فصاروا ينصتون إلى القرآن حتى إذا فرغ من قراءته، رجعوا إلى قومهم ينذرونهم ويخوفونهم العذاب ان لم يؤمنوا وقد كان هؤلاء الجن يهوداً فأسلموا.

فظهر مما سبق أن الجن على نوعين: مسلم ومؤمن بنبوة محمد (ص) وكافر بها، وإن الانس قد يعوذون بالجن لأغراض سيئة فيؤدي بهم إلى خسران وسوء العاقبة.

ثم ان الله تعالى يقول في سورة الرحمان: ﴿يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا[2] من أقطار السماوات والأرض، فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

ويبين لنا سبحانه وتعالى مم خلق الجن بقوله: ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ وهو لهبها الخالص من الدخان.

---

(١) سورة الاحقاف: ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) أن تنفذوا: أن تخرجوا

ثم ان الله تعالى يتحدى الجن كما يتحدى الانس بقوله: ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[1].

وإن الجن مدعوون إلى عبادة الله تعالى كالانس على حد قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمونِ ان الله هو الرزاق ذو القوةالمتين﴾[2].

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ ولا نعلم شيئاً عن حقيقة هذه النار. فانها طاقات وقد علم أن الذرة في الأصل طاقات كهربائية تكدست بإذن الله بترتيب بديع تحت نظام رائع حتى كانت هذه الذرة، ثم تشكلت بأشكال شتى، حسب اختلاف عدد الالكترونات (شحنة كهربائية سالبة) والبروتونات (شحنة كهربائية موجبة) حتى كانت هذه العناصر المختلفة: الايدروجين، الكالسيوم، الحديد، الرصاص الخ...

فالعالم كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية وطاقات أخرى نجهلها كجهلنا كثيراً من الأشياء، أشياء لا تتناهى. وهكذا الجن مخلوق من نار السموم أو من (مارج من نار) والمارج: لهب النار الخالص من الدخان. فهذه طاقات خلق الله منها الجن لا نعلم حقيقتها كما لا نعلم في الوقت الحاضر حقيقة أية طاقة من الطاقات. بل العلم الحديث إنما يعمل في كشف الآثار والاستفادة منها في الحياة الاجتماعية.

فالجان ليس من هذه الأجسام المتعارفة التي نبصرها بأعيننا وإنما هو من طاقة أخرى لا نتمكن من مشاهدتها لعدم وجود قابلية فينا لرؤيتها. يقول تعالى: ﴿أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ فالانسان لم يُعط ملكة يقوى بها على رؤية الجن ولكن الأنبياء والأولياء (ع) قد يتمكنون من رؤية الجن بفضله تعالى، لما أعطاهم من ملكة خاصة نجهلها.

---

(١) سورة بني اسرائيل: ٩٠

(٢) سورة الذاريات: ٥٦, ٥٨

وهكذا ليس في استطاعة الانسان أن يرى الملك بقابليته الحاضرة وملكاته الطبيعية التي وهبها الله إياه، لذلك يقول تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾[1].

توضيح ذلك يقول الله تعالى في الآية المتقدمة: إنا لو جعلنا الرسول ملكاً لاضطررنا لقلبه رجلاً ليتمكنوا من رؤيته.

وكان الجن يعملون بين يدي سليمان (ع) فقد قال تعالى: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ[2] منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾[3]. ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب[4] وتماثيل[5] وجفان[6] كالجواب[7] وقدور راسيات[8] إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته[9] فلما خر[10] تبينت[11] الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين[12] و[13].

(١) سورة الأنعام: ٨ ـ ٩.
(٢) يزغ: يعدل.
(٣) سورة سبأ: ١٢
(٤) محارب: أبنية مرتفعة يصعد اليها بدرج.
(٥) جمع تمثال أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراماً في شريعته.
(٦) جفان: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة.
(٧) الجوابي: جمع جابية وهي حوض كبير، فكان يجتمع على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها.
(٨) قدور راسيات: القدور: جمع قدر، وقدور راسيات أي قدور ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها.
(٩) منسأته: أي عصاه. المنسأة: هي العصا.
(١٠) خر: سقط ميتاً.
(١١) تبينت الجن: انكشف لهم.
(١٢) في العذاب المهين: العمل الشاق المهين لهم.
(١٣) سورة سبأ: ١٣ ـ ١٤

وقد سمعت أحدهم يقول: «إن الجن هي الحيوانات أو الحشرات» وكان يقول: «إن نفيي للجن لا يحتاج إلى دليل ولكن على المثبت أن يأتي بالدليل». فقلت له: على من يؤمن بالقرآن أن يعترف بالجن كمخلوق مكلف بتكاليف عبادية كالانس، حسب الآيات المتقدمة. ثم كيف توفق بين ما تعتقده وقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات﴾. وقوله تعالى: ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾. فهل للبهيمة أو الحشرة أو الميكروب أن تقوم بهذا العمل الجبار؟!.

* * *

قلنا إن الجن قد يشاهدون من قبل الأنبياء (ع) والأوصياء (ع). وهم يتطورون ويتشكلون في صور الانس وغير الانس على ما أعطاهم الله من ملكات وإمكانيات. كل ذلك في دائرة محدودة وبأمر من الله. وقد يتجسم الجن على شكل أو صورة بني آدم. وفي امكان الجن أن يدخلوا الغرف والأبواب مغلقة. وذلك من شقوق الأبواب والمنافذ، كأمواج الراديو.

وقد سمعت محاضرة لأحد علماء مصر، كان ينكر وجود الجن، ثم سافر إلى المغرب واتصل ببعض من كان يحضر الجن وشاهد ما يصدر على أيدي الجن من أعمال شتى تحير العقول. وقد رفع قبلاً كل ما من شأنه الخداع والتلبيس. فآمن بالجن بعد أن كان منكراً أشد الانكار.

وقد جاء في تفسير الآية الآتية أن الشيطان أتى قريشاً في صورة (سراقة ابن مالك بن جشعم الكناني) لما أرادوا الخروج إلى بدر. قال الله تعالى: ﴿وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال أني بريء منكم أني أرى ما لا ترون أني أخاف الله والله شديد العقاب﴾. كما أنه روي أن الشيطان تشكل في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وآله هل يقتلونه أو يحبسونه أو يخرجونه كما قال الله تعالى: ﴿وإذ

يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[1].

* * *

وقد رُوي أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان ذات يوم يخطب على منبر الكوفة، إذ ظهر ثعبان من جانب المنبر وجعل يرقى حتى دنا من أمير المؤمنين (ع) فارتاع الناس لذلك وهموا بدفعه، فأومأ إليهم بالكف عنه، فلما صار على الرقاة التي عليها أمير المؤمنين، انحنى أمير المؤمنين إلى الثعبان وتطاول الثعبان اليه حتى التقم أذنه، وسكت الناس وتحيروا، فنق نقيقاً سمعه كثير منهم، ثم زال عن مكانه وأمير المؤمنين يحرك شفتيه والثعبان كالمصغي اليه، وانساب وكأن الأرض ابتلعته، وعاد أمير المؤمنين إلى خطبته فأتمها، فسألوه عنه. فقال: أنه حاكم من حكام الجن التبست عليه قضية، فصار الي يستفهمني عنها، فأفهمته إياها ودعا لي بخير وانصرف.

وينبغي أن لا يُستبعد وقوع ما ذكر لعلي عليه السلام، فقد جاء في القرآن الكريم: أن سليمان بن داود على نبينا وآله وعليهما السلام لما أرسل إلى بلقيس قال لأصحابه: «يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك» أي من مجلسك الذي تجلس فيه كل يوم للقضاء، وكان يجلس فيه إلى الظهر. فالله تعالى قد اعطى العفريت من الجن قوة يستطيع بها أن يحضر عرش بلقيس من بلاد نائية. فالعفريت ليس بأعز على الله من علي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد قام الاسلام بسيفه وتضحياته التي لا تعد ولا تحصى!.

وقد جاء في الأخبار أن علياً عليه السلام حارب أعداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الجن وانتصر عليهم، والقضية مشهورة في كتب الفريقين لم ينكرها أحد.

ثم ان الجن يحشرون ويحاسبون يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠

استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾. وفي آية أخرى:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

وفي أخرى: ﴿قال أدخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أدركوا فيها جميعاً، قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

وفي أخرى: ﴿قال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾.



السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني

ذكر لي أحدهم: أن هناك طريقين في السلوك: سلوك رحماني وسلوك شيطاني. فالسلوك الرحماني هو سلوك حسب ما أمر الله تعالى به وما أملاه علينا الرسول (ص) والأئمة من بعده عليهم السلام. من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وإنفاق وأعمال صالحات والقيام بحوائج الناس وأعمال عبادية مستحبة بصورة مستمرة وبكثرة دونما فتور من صلاة جوف الليل وأوراد وتضرع وتسبيح بين الطلوعين وقبل الغروب وتطهير المأكل والمشرب وذكر الله تعالى على كل حال وصمت إلا في ما يرضي الله. فعند ذلك تتجلى له كثير من الحقائق وتخدمه قسم من مؤمني الجن إن شاء الله تعالى.

وهذه الطريقة وأعني بها السلوك الرحماني من الصعوبة بمكان، لا يقوى عليها إلا الأوحدي.

وهناك سلوك شيطاني يتلخص في إطاعة الشيطان الغاوي أو بالأحرى إطاعة إبليس عليه اللعنة في كل ما يريد من ترك الصلاة والصوم والحج، بل وعبادة الشيطان نفسه ومخالفة أمر الله تعالى حيث يقول: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان، انه لكم عدو مبين. وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جِبِلًّا[1] كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[2]. والاهانة بالمقدسات بل وتلويثها.

وقد علم من أحد السالكين السلوك الشيطاني أنه كتب إلى صديق له (درويش) يقطن في شعب من شعاب جبال (همذان) بصورة سرية: «أنه قد بلغ به الأمر حيث يلعن علياً عليه السلام ليلة الجمعة على تل في النجف الأشرف (١٠٠) مرة. فكانت نتيجة ذلك أن خدمته أبالسة الجن فائتمرت

(١) جبلًا: خلقاً.

(٢) سورة يس: ٦٠ ـ ٦٣

بأمره وإطاعته في ما يريد. وقد قال تعالى: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾. (سورة الزخرف: ٣٣).

وقد سمعت ممن يوثق بكلامه: أن شاباً كان قد صاحب درويشاً سلك مسلكاً شيطانياً وتعلق به تعلقاً وثيقاً، لما كان يرى من خوارق ظاهرية تجري على يديه.

يقول هذا الشاب: خرجت مع هذا الدرويش ذات يوم قبيل الظهر من مدينة (تبريز)، حتى إذا ابتعدنا عن البلدة مسافة يعتد بها، قال لي الدرويش: ما أجمل المكان وما أطيبه! لو كانت لنا هنا غرشة (نارجيلة) فقلت له: سيدي قد ابتعدنا كثيراً عن البلدة، ولا يوجد بالقرب منا مقهى... فقال الدرويش مغضباً: أو ضعف إيمانك بي؟! ونادى بصوت رفيع. غرشة! وإذا بغرشة توضع بين يديه، فصار يشرب. حتى إذا فرغ، استأنفنا الطريق. فبعدنا عن البلدة مسافة لا يستهان بها، فبلغنا مكاناً في غاية الجمال... وقف الدرويش عن السير وقال: ما أجمل هذه المناظر، لو تناولنا غداءنا في هذا المكان.

فقلت له: ومن أين نجد طعاماً في هذا المكان النائي؟

فقال: وهل ضعف يقينك بي؟ فنادى بصوت عال: غذاء! وإذا بمائدة جاهزة توضع بين يديه، وفيها من الطعام ما لذ وطاب.

فصرت أنظر اليها وأنا متعجب، حائر، وألعن الشيطان!... وإذا بالرجل يلطمني على وجهي بكل ما أوتي من قوة...

فقلت: ولماذا ؟ ما الذي صنعت حتى أغاضك؟ إنما ألعن الشيطان، لعنة الله! فلطمني ثانية، قائلاً: أتلعن من هو ولي نعمتي، المتفضل علي بعظيم النعم، إنه هو معبودي ومقصودي ولولاه لما كانت هذه المكرمات، ومن جملتها هذه المائدة. فتقديسي لابليس وعبادتي إياه وإطاعتي له جعلتني موضع عنايته، فيُهيء لي ما أريد وما أشتهي، يقول الشاب: علمت إذ ذاك أن الدرويش كافر مشرك، فتركته وسافرت إلى العتبات المقدسة تائباً مما كان مني أثناء غفلتي...

فشياطين الجن يقومون بتحقيق رغبات من يوافقهم في كفرهم وجحودهم ويخدمونهم حتى يوردوهم جهنم وبئس المصير. ان الله تعالى يقول:

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[1].

فمن الناس من يعبد الجن ويحقر المقدسات ويقوم باهانتها ليتميز عن الآخرين بما سيهيىء له ابليس ما يدهش الألباب من أعمال يعجز عنها الانسان حسب ملكاته الخاصة به. أنه تعالى يقول عندما يصف أحوال يوم القيامة: ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلا أياكم يعبدون؟ قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾.

* * *

وقد نقل أحد كبار العلماء أنه كان في أصفهان رجل تصدر منه الخوارق ويخبر عن أشياء خفية لا يعلمها إلا أصحابها.

فإذا كان موسم الحج. سافر من أصفهان في ٧ ذي الحجة، فيرى في مكة وهو يصافح الحجاج ويرجع قبلهم مع عدم وجود طائرة في ذلك الوقت. ان الرجل كان معززاً مكرماً حتى وافته منيته.

وبعد مضي مدة على وفاته رأى ولده ذات يوم في موسم الحج أي في ٧ ذي الحجة وهو جالس في بيته إذ دخل عليه رجل قائلاً له: إني كنت آتي أباك كل سنة في مثل هذا اليوم، لآخذه إلى مكة، وكان قد أحضر دابة، فقال لي: اركب. فركبت، وبعد مدة وجيزة جداً صرنا في البر، فنزل ونزلت، فقال: أنا الشيطان!... أسجد لي كما سجد لي أبوك من قبل..

يقول الولد فقلت له: لست بساجد لأحد غير الله تعالى، إنما أسجد لله وحده لا شريك له. فطفق يلح ويلحف، حتى أعيى، فلم ألب طلبه، فتركني في الصحراء وانصرف. ثم أني صرت أدعو الله جل شأنه لينجيني مما

---

(١) سورة فاطر: ٦

ألم بي ويوصلني إلى بلدتي. فمن الله علي بالنجاة وذلك بإلهامي الطريق المؤدي إلى بلدتي.

فكان الولد يلعن بعد هذه الحادثة أباه، لأنه كان من عباد الشيطان.

* * *

وإنما نهى الشارع عن إحضار الجن والأرواح وعدَّ ذلك كبيرة لما يؤدي ذلك إلى إطاعة الشيطان وعبادته وسوء العاقبة، أعاذنا الله منها.

وان مثل هذه الواقعة التي ذكرناها وقائع كثيرة، فمن طاوع الشيطان في كفره والحاده وتوهينه المقدسات وسبه أولياء الله والـولج في شتى المعـاصي واطاعه كان الشيطان عوناً له في الاخبار عما خفي عن الناس وتهيئة ما يريد من أشياء ووسائل.

وقد سمعت ممن اتصل بامرأة كانت تحضر الجن، أنـه أراد أن يقوم باحضار الجن بطريق غير شيطاني. فعلمته الأمرأة (واسمها صغرى) أن ينزل إلى السرداب ويرسم دائرة ويجلس في وسطها ويقرأ الأوراد المعية. يقول الرجل: «إمتثلت ما قالت الامرأة وصرت أقرأ الأوراد، فظهر أمامي أنواع الحيوانات المخيفة، بأشكال شتى، ثم ظهر أمامي بحر خضم فيه تمساح كبير أراد أن يلتقمني. ففـزعت وصحت: صغرى، صغـرى، أدركيني. فقالت اخرج إلى سطح الدار، يا ضعيف النفس!.

فخرجت إلى سطح الدار ولم أنجح في تطبيق ما أمرتني به»...

قد يستغرب مما أقول من تطبع على التجارب الفيزيائية أو الكيميائية ولكن لا ينبغي لعالم مفكر دقيق أن ينكر ما لم يدرسه ولم يجربه ولم يتتبع فيه بل المفكر الحقيقي هو ذلك الـذي يجعل كـل ما طـرق سمعه في دائـرة الاحتمـال، فيسأل ويتتبـع ويعقب ويجرب ويـطبق ليصل إلى واقـع الأمـر والحقيقة، من وجود أو عدم وجود ما ينكره، حتى يكون حكمه مبنياً على الاستقصاء والتتبع والمداقة.

وما أكثر أحكام المتطفلين على العلم الحديث وأوهنها وأضعفها وأبعدها

عن الحقيقة. انها هوى النفس، وكبرها وطيشها ومروقها. أنها مظهر من مظاهر النفس البهيمية ورشحات من نزواتها ومجونها تلبست بلباس العلم، والعلم منها براء.

* * *

إن ما يشاهد ويحدث من حوادث غريبة في الهند وغير الهند يجعل غير المعتقد بما وراء الطبيعة في حيرة من أمره، لا يعلم كيف يجيب وكيف يحلل الموضوع.

أنقل لكم مما حدث أخيراً عن امرأة هندية، تجيب على أصعب العمليات الحسابية بسرعة عجيبة: فقد سئلت عن جذر عدد كبير أصم، ووضع السؤال أيضاً في آلة معدة لحساب جذور الأعداد. فأجابت الامرأة ارتجالاً أسرع من الآلة، فلم يطابق جوابها ما استخرج من الالة من جواب. فأعادوا عليها السؤال فأجابت نفس الجواب، فعلم أن الخطأ إنما كان في ما استنتج من الآلة، وهي محقة في جوابها.

فهناك في الهند مرتاضون يأتون بالأعاجيب وأظنهم لا يعلمون كيف تحدث على أيديهم هذه الأعاجيب والخوارق.

فقد ذكر لي أحد أرحامي وكان يتاجر في الهند، أن رجلاً هندياً كان يأتي بالغرائب، فيلتقط من الفضاء موزاً وكل ما يراد منه، وذات يوم كان راكباً في قطار، فطولب ببطاقة، فقال: ليس لي بطاقة فأريد منه النزول، فقال انزل ولكن القطار سوف لا يتحرك. وكان كما قال: فلم يتحرك القطار حتى ركب!.

وذكر لي أحدهم، أنه كان يريد حمل مقدار من الأفيون دون مراجعة دائرة «الكمارك» إلى خارج إيران.

وسمع أن في احدى قرى طهران رجلاً يخبر عما سيقع. فذهب اليه لعله يعلم بما سيحدث من أمر الأفيون حين نقله خارج الحدود. فما أن دخل عليه، حتى رأى الرجل المرتاض! يخاطبه قائلاً: لا تحمل الافيون من الطريق الفلاني، واحمله من طريق آخر (وذكر الطريق) فأنت تفوز بمرادك.

يقول الرجل، أخذني العجب الشديد من هذا التنبؤ، فقلت في نفسي، أبقى هذه الليلة في هذه القرية بالقرب من الرجل. لأراقب حاله وما عليه من رياضات.

يقول: «ذهبت إليه ما بين الطلوعين وصرت بالقرب منه، وهو تحت شجرة، فأومأ الي فدنوت منه، فلم أجده ممن يصلي أو يقوم بذكر وأوراد بل ألفيته وسخاً ذا أظافر طويلة، لا ترتاح لرؤيته النفس.

فقلت له: كيف تخبر عما سيكون. فقال: أنا أيضاً لا أعلم، كيف يحدث ذلك. وإنما تجري على لساني ألفاظ، فأرى الناس يرونها مطابقة لما يدور في خلدهم ويتحقق كل ما يقال على لساني. ولست إلا آلة صماء، لا أعلم لماذا يتحرك لساني وماذا سيجري عليه.

يقول: ثم رأيته أخرج قنينة صغيرة، فقال هذا سم، أتناول قليلاً منه ثم أخرج ثعباناً صار يلدغه، حتى أغمي عليه. ثم صحا وأخذ يشرب في اناء وسخ مقداراً كثيفاً من الشاي مع السكر (النبات على ما هو المصطلح). قال، هذه رياضتي، وهذا قوتي، وبعملي هذا بلغت ما بلغت ولا أعلم كيفية ذلك.

فهل للعلم الحديث أن يحلل هذه القضية على ضوء ما توصل اليه العلم المادي. انهما من عالمين مختلفين، عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة، فلا يمكن أن تحلل قضايا غير مادية، قضايا مما وراء الطبيعة على ضوء مكتشفات مادية طبيعية، لأنهما من واديين مختلفين.

إن الرجل الذي تقدم ذكره، قد سلك طريقاً شيطانياً غير مرضي عند الله تعالى، وآذى نفسه، فجوزي بأمر من الله في دنياه بهذه الميزة التي لا يعلم كيف تتجلى له على حد قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[1].

ولكن، هناك سلوك رحماني وهو سلوك الأنبياء (ع) والصالحين من عباد

---

(١) سورة هود: ١٥ - ١٦

الله، سلوك يطابق المنطق ويوافق العقل. فكم من آيات في القرآن تدل على إخبار بالغيب بإلهام من الله وعظيم لطفه. ومما قاله يوسف (ع) وهو في السجن: «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمني ربي. أني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. وأتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء. ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. ولكن أكثر الناس لا يشكرون»(1).

وقال عيسى (ع): «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم. إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»(2).

وقد جاء في الأخبار أن رجلاً مرتاضاً هندياً أتى الصادق عليه السلام وأظهر أنه يعلم كل ما يخفي الصادق سلام الله عليه في يده، وكان كما ادعى. ثم سأله الصادق عليه السلام بعد أن أخفى في يده أشياء عديدة: سأله ماذا في يدي؟. فقال: قد تناولت من أقصى الهند بيضة كانت قد باضتها حمامة في أعلى الشجرة الفلانية. وتعجب مما قام به الصادق عليه السلام.

فسأله الامام عليه السلام: بمَ وصلت إلى ما وصلت اليه؟ فقال: بمخالفة النفس!... ثم عرض عليه الصادق عليه السلام الإسلام. فأبى. فقال له الصادق عليه السلام: أنت أخذت على نفسك أن تخالف هواك. فخالِف هواك كما عاهدت نفسك. فقبل الرجل وأسلم.

ثم ان الصادق سلام الله عليه، أخفى في يده شيئاً وأراد من الرجل أن يتنبأ فلم يستطع وقال: ضاع عني ما كنت عليه ولا ألهم بشيء.

فقال له الصادق عليه السلام، ما مؤداه: أنك كنت ضالاً ومتبعاً خطوات الشيطان، فجازاك الله لمخالفتك هوى نفسك بهذا الالهام وميزّك عن غيرك بهذه الميزة في دنياك، وكنت في الآخرة من أصحاب النار. ولكن الآن، بعد أن

---

(1) سورة يوسف: ٣٧ ـ ٣٨

(2) سورة آل عمران: ٤٩.

تشرفت بالاسلام عاملاً بنصوصه، ذهب عنك ما توصلت إليه بطريق شيطاني مضل. وقد هيأ الله تعالى لك آخرة سعيدة وحياة أبدية هنيئة.

وكم قرأنا في المجلات أن أناساً أعطوا من الالهام بحيث يجيبون على عملية ضرب في الحساب: عشرة أرقام في عشرة أرقام بسرعة عجيبة، دون أن يشعروا كيف يجري ذلك على لسانهم.

إن عوالم ما وراء الطبيعة عوالم عميقة تستدعي التحقيق والتفكير وهي ليست من عوالم المادة، (سانتيمتر، غرام، ثانية) في شيء، فلا معنى لتحليل ما هو غير مادي بمقاييس مادية مقتضبة. وان الله تعالى، وله الحجة البالغة، يهيىء لهذا الانسان بين الفينة والفينة حوادث لتذكيره ان وراء هذا العالم المادي عالماً آخر لا يُشبه العالم المادي في شيء، وليس هناك مقياس مشترك بينهما كما في الحوادث المادية (الفيزيائية أو الكيميائية) كي يزداد هذا الانسان إيماناً بربه وخالقه، وقدرته التي لا تحد، وعظمته التي لا تتناهى. مع العلم أن ليس للانسان المحدود في جميع قابلياته أن يحيط بالله الذي لا يحده بشيء. وأنى للمحدود أن يدرك غير المحدود إدراكاً تاماً وأن يحيط به، إنما يؤمن ويوقن بوجوده وهيمنته بقدر ما في نفسه من طهارة وصفاء.

* * *

إن العلم الحديث ليعترف بالأشعة الكونية وهي لا ترى ولها آثارها العجيبة ويعترف بالبث الالكتروني وبأمواج الراديو واللاسلكي والتلفزيون وكل أولئك قوى وطاقات لا ترى بالعين وموجودة في الفضاء ولها آثارها. فلا يصعب على العلم الحديث وحاملي لوائه الاعتراف بموجود هو من نوع طاقات خاصة، قد منَّ الله عليه بعقل وإرادة وكلفه بتكاليف وهو مسؤول أمام الله تعالى (وأعني بذلك الجن)، وهو القائل: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدونِ﴾. (سورة الذاريات: ٥٦).

* * *

قلنا آنفاً إن المادية قد تغلغت في أوساط أوروبا وسرت إلى أصقاع أخرى، كل ذلك لتوفر وسائل الترف والفساد والإفساد وهتك الأعراض

والحرمات وشيوع الربا والخمور وأنواع الظلم والفجور، فأظلمت النفوس، وتحجرت العقول، حتى صارت لا تبصر الحق والواقع، فقد جاء في الحديث: «إذا أذنب العبد كان نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر، صفا قلبه منها، وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب».

ولو تتبعت نفوس هؤلاء الماديين المنحرفين، لوجدتهم أبعد الناس عن العطف والحنان والأخلاق الفاضلة وأقرب الناس إلى الشهوات والملذات والافساد والبغي والظلم، تشهد بذلك حياة (كارل ماركس) في صغره وشبابه ومع والديه وأخواته. فقد كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر. سيق إلى الشرطة لافراطه في السكر والعربدة! وقد استخدم الأسلحة النارية. كان فيه شهوة الهدم والتخريب، كان أنانياً يختلق التهم، حسوداً، مغروراً. كان يعامل من يخالفه معاملة ملؤها التحقير والازدراء. ويقول لكل من يخالفه في الرأي: (بورجوازي). كان مغروراً بآرائه ويقول آرائي وأفكاري... ولا يقبل أي نقاش. كان مسلوب العاطفة. فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو رب الأسرة بعد والده. واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث، فمال إلى نصيب امه واخوته. وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال. وقد انتحرت بنتاه (لورا وأختها) عقد مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يف بمنطوق العقد. وعقد اتفاقية مع (ألكسي) على كتابة نظرياته الاقتصادية (هذه التي لم تنل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع الحياة)، وقبض (١٥٠٠) فرنك وعقد في نفس الموضوع اتفاقية أخرى مع شخص آخر ولم يف بكلتيهما!.

نعم، إن رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشح منه هذه الأباطيل. بأن يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصادية». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والافساد، وسحق المقدسات! «أولئك الذين لم يرد الله أن

يطهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾. (سورة المائدة: ٤١).

إنه تعالى يقول: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾[2]. فقد أغلق الله تعالى على الفساق أبواب الهداية حتى يؤوبوا ويتوبوا. هذه هي سنة الله في أرضه وسمائه: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[3].

حقاً لو تعمقنا في ما سنه الله تعالى وأقرَّه لألفينا في ذلك كل المنطق وتمام العدل. وذلك لأنه بالتقوى والورع يعمر القلب وتتكامل النفس، فتصبح قمينة للفيوضات الرحمانية والألطاف الربانية، وبالفسق والفجور يتحجر القلب وتظلم النفس، فلا تجد لمعرفة الله تعالى طريقاً ولا لرفده سبيلاً. ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ والانسان الظالم لنفسه، هو الذي قد سد على نفسه أبواب المراحم الالهية والنفحات القدسية الصمدانية: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[4]. وفي آية أخرى: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾[5].

* * *

إن أوروبا لا تزال منهمكة في فجورها وخمورها وما دامت كذلك، فلا تجد لهذاية الله سبيلاً، إلا أفراداً قلائل ممن لم تغرهم المادة الصماء، فتابوا وأنابوا واستضاؤا بنور الاسلام: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[6].

فقد ذكر لي أحد الأصدقاء أنه ذهب إلى ألمانيا في الصيف الماضي، وقد

---

(١) سورة البقرة: ٩٩
(٢) سورة البقرة: ٢٦
(٣) سورة الفتح: ٢٣
(٤) سورة الزخرف: ٧٦
(٥) سورة الأعراف: ١٤٤
(٦) سورة الأحزاب: ٤٦

زار أخاه في احدى المدن وكان أخوه قد سافر قبلاً لتكميل تحصيله وأخذ درجة الدكتوراه. فرأى أخاه على غير ما كان عليه من قدسية مرموقة، وصلاة مع الجماعة ودعاء وابتهال ليالي الجمعة في الحرم الشريف. رآه قد انغمر في ما حرم الله وأخذ الايمان يتضاءل في نفسه، والجحود يأخذ طريقه إلى خَلده. وكان يتحدث له أخوه: أن في الغرب، يرحِّب الأخ بمن يتصل بأخته بطريق غير مشروع ويراه أمراً طبيعياً لا غرابة فيه!..

فصار يصف لي عوالم الليل، قائلاً: إن أكثر مدن ألمانيا مليئة بالحدائق العامة الكبيرة وتكاد تكون بعض المدن مجموعة من الحدائق. فإذا جنَّ الليل، لا تجد في هذه الحدائق إلا بصيصاً من الضوء، بقدر ما يميز الشخص طريقه. والناس من رجال ونساء،ينزوي بعضهم على بعض حتى الصباح.

قارن، أيها القاريء الكريم، بين هذه الحياة البهيمية وحياة قدسية أخرى في بعض المدن الاسلامية: ترى المؤمن يقوم قبيل الفجر بساعة أو أكثر من فراشه قائلاً: (كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)، «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». فيتوضأ متوجهاً بكله إلى الحق المتعال. قائلاً بخشوع: «بسم الله وبالله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»، فيأخذ طريقه إلى الحرم الشريف أو إلى مسجد قريب: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد... الحديث»، فيستقبل القبلة، متهجداً[1]، بخضوع لا مزيد عليه، فيصلي لربه ركعات، ثم يستغفر الله تعالى مائة مرة في قنوت ركعة الوتر[2]. فإذا انتهى من صلاته بكى[3]

(١) ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. (سورة بني اسرائيل: ٨٢).

(٢) ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا أننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾. (سورة آل عمران: ١٤ ـ ١٦).

(٣) روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافة من الله، لا يراد بها غيره».

نادماً على ما اجترحت يداه من ذنوب، وناجى ربه بخشوع، محاسباً نفسه على كل صغيرة وكبيرة: فقد جاء في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوها قبل أن توزنوا»، حتى إذا أعلن المؤذن دخول وقت صلاة الصبح، قام فصلى ركعتي النافلة، ثم يبدأ بصلاة الصبح مع الجماعة إن وُجدت، وإلا فيصلي فرادى؛ ثم، يقوم بالتعقيبات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام. فيخرج من المسجد، وهو مملوء فرحاً وسروراً لهذا الاتصال المعنوي القدسي، فهو تقرب إلى الله جلت عظمته، وان هذا التقرب المعنوي هو غاية الغايات في الحياة الدنيا[1]. فالانسان يعد فائزاً في دنياه بقدر ما ينال من هذا التقرب القدسي من نصيب. وبعد ذلك يستقبل الحياة متوكلاً على الله تعالى بتقوى لا مزيد عليها ونفس زكية تتجنب الغش والخديعة، بل جل غايتها خدمة الغير. وإرضاء ربها. «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. . . الحديث».

فأي الفريقين أقرب إلى الله تعالى؟ وأيهما أولى بولوج الفكرة المادية في نفسه.

إنها الذنوب ومن ورائها الشيطان يزيِّن لهذا الانسان الطائش فكرتـه المادية وما يقوم به من إفساد في الأرض، بل يجعله أن يقول بالتأكيد أن العقائد والشرائع كلها خرافات وأوهام، وأفكار بورجوازية!(Bourgeoisie) . فلا حقيقة في الكون إلا المادة. هذه المادة التي لا يقوى المادي على تعريفها وبيان حقيقتها وكشف أسرارها وقوانينها إلا اليسير منها جداً، وهل للمادة أن تضع لنفسها قوانين فتطيعها ولا تتخلف عنها. لعل هذا المادي قد أحاط بالكون، فسافر إلى مسافات تبعد عنـا ملايين مـلايين ملايين. . . ملايين من الأميال بسرعة تفوق سرعة الضوء بمقدار لا يتناهى ووقف هناك على ما تقوم به: (المادة) من خوارق ومعاجز وما تنظمه من قوانين ومعادلات في تنظيم هذا الكون المادي! بعقل جبار!.

---

(١) وقد جاء في ما أوحى الله إلى موسى بن عمران (ع): «يا ابن عمران، هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع، ثم أدعني في ظلم الليالي تجدني قريباً مجيباً».

فطوبى لنفوس توجهت إلى الحق بنفس لم تتلوث بآثامها ومظالمها، فآمنت بكل ما أنزل الله من آيات بينات وبمن أرسل من رسل وأنبياء مبشرين ومنذرين وآمنت بوحي من نفسها وعقل لم يدنسه شيطانها ولم تُزحه أجرامها بما غاب عنها: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[1] وصارت تعمل على ضوء تعاليم محمد والأئمة من بعده عليهم الصلاة والسلام للسير في مدارج الكمال البشري حتى تكون قمينة للخلود في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ وقد جاء في الحديث: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

حقاً، إن الوعظ والارشاد لا يؤثران إلا في نفوس تخشى الله في خلواتها، نفوس تراقب الله في السر كما تراقبه في العلن، تعمل وفق ما تمليه عليه الفطرة (فطرة الله التي فطر الناس عليها). ان نفوساً كهذه قمينة بأن تسير في معارج الكمال فتقطع مراحل التزكية وما ألذها! انه تعالى يقول: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه، وإلى الله المصير﴾[2].

ونختم هذا المقال بقوله تعالى:

﴿إعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (سورة الحديد: ٢٠ ـ ٢١).

فالله تبارك وتعالى قد هيأ لصالحي عباده جنة عرضها كعرض أرضنا وما يتلوها من سماء أي من أنجم وكرات وما بينها من مسافات شاسعة وذلك في

---

(١) سورة فاطر: ١٨

(٢) سورة فاطر: ١٨

فضاء لا يتناهى خارج هذا الفضاء الذي هو سماؤنا، أو بشكل آخر فعلم الفلك الحديث يخبرنا أنه قد اكتشفت مجموعة من مجموعات الكواكب تبعد عن الأرض $١٠^{٢١}$ × ٦ ميل. وإن شعاعه لا يصل الينا إلا بعد: (ألف مليون سنة ضوئية) ومعلوم أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل. فيجب أن يسير الضوء أو الشعاع الصادر من تلك المجموعة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل/ثانية خلال الف مليون سنة حتى يصل إلى كرتنا الأرضية.

فالله الذي قد عبأ في الشمس طاقة هائلة حتى كان الانفجار الذي قدحدث فيها قبل بضع سنين قد قدرت طاقته (الطاقة الناجمة نتيجة ذلك الانفجار) بقدر طاقة مائة مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة، قادر أن يخلق جنة عرضها كعرض السماء والأرض في ما لا يتناهى من مسافات وأبعاد خلقها بقدرته ودبرها بتدبيره.

فليس لهذا الانسان المحدود في تفكيره وملكاته ومحاكماته أن يقيس العوالم اللانهائية بمقياسه المقتضب المحدود، فمن درس أبحاث اللانهاية في الرياضيات العالية، يعلم أن من الخطأ الفاحش قياس العوالم اللانهائية بمقياس عالمنا المحدود بجميع ما فيه من مواضيع. وان فلسفة تبنى على مقاييسنا المحدودة، فلسفة واهية ليس لها من الواقع نصيب.

* * *

وهكذا تجعلنا العلوم الحاضرة أن نعتقد بما غاب عنا مما لا يدرك بالحواس الخمس أو لا يرى بالعين. وكلما تقدمت هذه العلوم مماشية طهارة النفس والتقوى تحقق لهذا البشر أن المادية ليست إلا نزعة شيطانية جاءت من جراء تلوث النفوس ولا حقيقة لها في عالم العلم والمكتشفات، وإن انسانية الانسان لا تتحقق إلا بالتجرد عن هذه المادية في العقيدة والسلوك والتمسك بالمقدسات والايمان بالغيب واتباع سنة الرسول الأمين وأهل بيته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

* * *

فلسفة المعاد

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾.

هكذا يخاطبنا الله تعالى في كتابه الكريم فمن شاهد هذه القوانين المحكمة الرصينة في عالم الوجود: عالم الذرة، وعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان، في الفيزياء والكيمياء والفلك العالي، وفي علم الأحياء والمستحاثات (المتحجرات)، يقطع بأن الذي رتبها ونظمها لا يلهو ولا يلعب. وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[٢]. وفي آية أخرى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[٣].

فإذا تتبع الانسان حياته النفسية في هذه الدنيا وما عليه نفسه من مساوىء أخلاقية: حسد وبغضاء وحقد، ونميمة وغيبة، ظلم وبغي وبطش بغير حق، ثم ما يراه من حيف وظلم وقسوة وجفاء وبهتان وغيرها من آخرين وما يرى من تشاجر وتطاحن لأمور مادية سخيفة أو لجشع بين الأمم، وما يرى من ظلم واستعمار وغمط للحقوق بين الدول، وما يشاهد من حروب لا تبقي ولا تذر، يقطع بأن الله الذي خلق هذا العالم المادي من سماء وأرض، وما خلق فيه من جماد وحيوان، وما أودع فيه من كمال ما بعده كمال، لا يريد بهذا الانسان إلا (الكمال)...

---

(١) نشر هذا البحث «فلسفة المعاد» في رسالة مستقلة من قبل «مكتب منابع الثقافة الاسلامية» بكربلاء.

وقد رأيت، مع تقديري وشكري للمكتب المذكور، أن أضيف شيئاً إلى البحث وأجعله من مواضيع الجزء الثالث لكتاب: «التكامل في الاسلام».

(٢) سورة الأنبياء: ١٧

(٣) سورة الدخان: ٣٩، ٤٠.

ذلك لأنه يقطع بأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، ويقطع بأن البشر غير كامل في هذه الدنيا من النواحي النفسية والأخلاقية والاجتماعية. وهو في هذه الحالة ـ إلا من شذَّ فصار يتكامل على ما رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أشبه بالحيوانات الضارية، يضر بعضه البعض، إن وجد إلى ذلك سبيلاً. يقطع بأن الله الذي أكمل كل شيء من مخلوقاته سوف يجعل لهذا الانسان عالماً آخر كله اطمئنان وخلود وكله حبور وسرور، عالماً فيه ﴿ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾[1]، عالماً لا تطاحنَ فيه ولا تشاجر ولا تجاوز ولا اعتداء، ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون[2]﴾. عالماً يقول عنه تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ اخواناً على سرر متقابلين﴾[3].

عالماً ليس فيه ما يلوث النفس الانسانية من ميسر (قمار) ولحم خنزير وفسق وفجور وخمرة تذهب بالعقل بل ﴿يطاف عليهم بكأس من معين[4] لا فيها غول[5] ولا هم عنها ينزفون[6] وعندهم قاصرات الطرف[7] عين[8] كأنهن بيض مكنون﴾[9]

---

(١) سورة الزخرف: ٧١

(٢) سورة الأعراف: ٤٣

(٣) سورة الحجر: ٤٦.

(٤) أي من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون أو نابع من العيون.

(٥) فساد كما في خمر الدنيا، أي ليس فيها غائلة تغتال العقل، واغتاله أي أخذه غيلة أو خلسة وهو غافل.

(٦) يسكرون: من أنزف الشارب أي ذهب عقله.

(٧) أي قصرن نظرهن على أزواجهن، فهن قاصرات العيون.

(٨) عين: أي واسعات العيون.

(٩) سورة الصافات: ٤٥ ـ ٤٩

عالماً فيه حياة اجتماعية رفيعة، لا تشبه ما نحن فيه من هذه الحياة الملوثة بالآثام والاجرام والاحن والبغضاء والتطاحن والتشاجر.

عالماً يقول فيه الفائزون: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن، إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب[1] ولا يمسنا فيها لغوب»[2][3].

فلا حزن ولا تعب ولا نصب ولا لغوب في ذلك العالم، بل كله طمأنينة وصفاء وراحة لا تقاس بالراحة التي ينالها الفرد بصورة مؤقتة وغير كاملة في الحياة الدنيا. وهذه من صفات ذلك العالم القدسي، المنزه من كل ما يشين النفس أو يزعجها أو ينغص راحتها: ﴿تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[4].

هل ترى في هذه الدنيا فرداً راضياً من حياته الدنيوية؟... لا من حيث ما منَّ الله عليه من نعم، فهي أعظم مما يستحقه هذا الانسان بمراتب لا تعد ودرجات لا تحصى: ﴿وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم﴾[5]، وهي بمقدار من الوفور والكثرة بحيث لا يقوى الانسان على أن يؤدي تجاهها ما يجب عليه من شكر مهما بلغ من مراتب الكمال. ولكن من حيث ما يشعر به من حياة ملؤها المشاكل، مشاكل اجتماعية، مشاكل خلقية، مشاكل عائلية، مشاكل مرضية، وما هنالك من نوائب وكوارث... فهو يشكو طوال حياته مشاكل كثيرة وسيود لو كانت هنالك حياة أخرى خالية عن هذه المشاكل وهذه النواقص وهذه النوائب وهذه التأثرات!...

نعم، كان حتماً في استطاعة الله تبارك وتعالى أن يجعل الحياة الدنيا، هذه التي نعيشها، حياة كاملة لا كدر فيها ولا أحزان، ولا تطاحن فيها ولا

(١) نصب: تعب.
(٢) لغوب: اعياء من التعب أو كلال.
(٣) سورة فاطر: ٣٥
(٤) سورة يونس: ١٠
(٥) سورة النحل: ١٨.

نقصان. إلا أن الله تبارك وتعالى أراد بهذا الانسان أن يتكامل في هذه الدنيا نفسياً، وأن يميز الخبيث من الطيب (مع علمه بها قبلاً) اتماماً للحجة: «ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة»، ليذهب هذا الانسان بعد هذه التصفية الحقيقية (بجهود يبذلها وبجدارة واقعية) إلى عالم الخلود، حيث الصفاء والسرور.

﴿فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر﴾. ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾[1]. أنه تعالى يقول: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها مَن لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾[2].

* * *

ثم إن المفكر في مخلوقات الله تعالى وما صدر عن الله من خوارق، وأعني بها هذه القوانين الفيزيائية التي تبهر العقول، يقطع بأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى جل أن يلهو، يخلق هذا الانسان، بهذه الكثرة المتكاثرة، ليفسد في الأرض ويلوثها ويكتفي بهذا وليس وراء ذلك هدف ولا غاية. وهو القائل: ﴿أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[3]. ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، ان رحمة الله قريب من المحسنين﴾[4].

يقطع بأن هذا لهو ولعب وجل أن يلهو ربنا سبحانه مع قوله تعالى: ﴿وذرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾.

يقطع من تفهم سنّة الكمال وشاهدها بصورة جلية واضحة في كل زاوية من زوايا هذا الكون: أن هذه الدنيا دار اختبار وامتحان: ﴿الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل﴾.

---

(١) سورة الشورى: ٥

(٢) سورة طه: ١٥ ـ ١٦

(٣) سورة ص: ٢٨

(٤) سورة الأنعام: ٦٩

يقطع بأن الدنيا مدرسة يتكامل فيها حسب دساتير الأنبياء والأوصياء من بعدهم عليهم السلام.

يقطع أن سنة الكمال توجب أن تكون هناك، بعد هذه الحياة الملوثة! حياة التهيؤ والتزود: «الدنيا مزرعة الآخرة» حياة خالدة، لا كدر فيها ولا اختبار ولا ابتلاء. حياة فيها: ﴿ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر﴾!.

يقطع هذا الانسان الذي يرى كمال الله تعالى متجلياً في كل ما خلق من مخلوقات أن وراء هذه الحياة الدنيا المضطربة، حياة البغي والجور: جنة «عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله»، جنة يصفها علي عليه الصلاة والسلام بقوله:

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت[1] نفسك من بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار[2] غُيبت عروقها في كثبان[3] المسك على سواحل أنهارها. وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها[4]، وأفنانها[5]، وطلوع تلك الثمار مختلفة في أغلف أكمامها[6]، تجني من غير تكلف، فتأتي على مُنية مُجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة[7] والخمور المروقة[8]، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلوا دار القرار وأمنوا نقلة الأسفار».

---

(١) عزفت: زهدت

(٢) تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت.

(٣) جمع كثيب وهو التل.

(٤) جمع عسلاج وعسلوج وهو ما اخضر ولان من قصبان الشجر.

(٥) جمع فنن وهو الغصن.

(٦) أكمام جمع كم (بكسر الكاف) وهو وعاء الطلع وغطاء النور.

(٧) المصفاة.

(٨) المروقة: المصفاة.

«فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة(1) لزهقت(2) نفسك شوقاً اليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وإياكم ممن سعى (بقلبه) إلى منازل الأبرار برحمته».

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿لقد خلقنا الانسان في كبد﴾. والكبد معناه التعب والشدة، إذ يكابد الانسان الشدائد منذ احتباسه في ضيق الرحم إلى الموت وما بعده، إن لم يُطهر ولم يكمل في دنياه: عالَم التكامل والتزود بالتقوى فلا بد لهذا الانسان أن يجهد نفسه وأن يتغلب على شهواته وأن يخالف هوى نفسه، كي ينال السعادة الأبدية: ﴿في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر﴾(3).

وهو القائل أيضاً: ﴿يا أيها الانسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾(4). والكدح معناه بذل أقصى مراتب الجهد. فالدنيا دار جهد وعناء وعمل متواصل لنيل درجات رفيعة والبلوغ إلى راحة أبدية سرمدية: ﴿لا يمسهم فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين﴾(5).

هذه هي فلسفة الحياة الحقة على وجه العموم. فلا تبديل لسنة الله وما قنن وقرر: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾(6). وان ما قرره الله تعالى حق تعلوه ورحمته: ﴿وسعت رحمته كل شيء﴾ يعترف بذلك العقل المتكامل والنفس غير الملوثة.

نعم، لم يخلق هذا الانسان عبثاً: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما

---

(1) المونقة: المعجبة

(2) زهقت: خرجت.

(3) سورة القمر: ٥٤ - ٥٥

(4) سورة الانشقاق: ٦

(5) سورة الحجر: ٤٨

(6) سورة الفتح: ٢٣

بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾. (سورة: ص: ٢٩).

فعدم القيام بما أمر الله تعالى من واجبات الشكر: من إنفاق وبذل واهتمام بإطعام المساكين ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾[1]، وبر الوالدين وصلة الأرحام وتواضع للفقراء والبؤساء والقيام بحوائجهم وحوائج سائر الناس، وصلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر وإرشاد الناس إلى معالم الدين، كل ذلك نتيجته الكفر والجحود. فإذا حل الكفر اضطربت المحاكمات المنطقية الصحيحة بشأن فلسفة الحياة وانسحب نتيجة لذلك العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان. وصار يقول هذا الفرد المتردي: ليست هنالك غاية من خلق هذا الكون ويتهم من لا يوافقه في الرأي بالرجعية، أو تكون هذه الكلمة (الرجعية) أقوى دليل لهرائه، دون أن يجعل للمنطق مجالاً للتحليل والتحقيق.

حتى إني سمعت ممن كونته المدنية الحاضرة، قبل حوالي ٣٢ عاماً وهو على فراش المرض، سمعته يقول: ما هذا النظام الأهوج في هذا الكون؟ ما هذا التبلبل، وما هذا التسيب؟ وكان يصم العالم بالانحلال والتبعثر وعدم وجود حكمة تربط ما في الكون بعضه ببعض، أو نظام تنتظم بموجبه أجزاء الكون بعضها مع بعض.

إنها رشحات نفسه الجاحدة لأنعم الله الكثيرة، المارقة عما حدد الله وسنه في جميع مجالات الحياة...

انه لا يجرؤ باتهام نفسه البهيمية ولا يعتبر بما أصابه من مرض وأوجاع كي يرجع عن طيشه وعيه، لكنه لذنوب كثيرة تلوثت بها نفسه أمسى جرثومة لا يفيد معها أي منبه أو إرشاد أو اصلاح، ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[2]. ونستجير بالله من هذه المرحلة التي مآلها النار، لا محالة.

---

(١) سورة الفجر: ١٨

(٢) سورة المطففين: ١٤

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾[1].

إنه يسلي نفسه المتسافلة بقوله: «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين». وبقوله: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم، ان هم الا يظنون». حقاً، انهم ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾. (سورة الروم: ٧).

وأظنك قد فكرت كثيراً: لماذا هذه الأمراض في هذه الدنيا؟ ولِمَ هذا الفقر في بعض الأوساط أو لبعض الأشخاص بصورة موقتة أو دائمية؟... ولماذا هذه الابتلاءات والنوائب؟ لماذا هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر؟ لماذا هذه الحرارة في الجو إلى درجة لا يستريح معها الفقير لعدم وجود وسائط لديه، ولماذا هذه البرودة في الشتاء إلى درجة يعجز عن مقاومتها البائس المسكين؟ أليس الله بقادر أن يجعل هذه الأرض فردوساً يتنعم فيه الانسان فيرتع فيه ويمرح بهناء؟.

فإنك بأسئلتك هذه قد شعرت أنه لا بد بعد هذه الدنيا الملوثة عالم آخر كله صفاء وكمال. ولعلك تصل إلى هذه النتيجة أن ليس في هذه الحياة الدنيا من نقص من جانب الله تعالى، وإنما سخر لهذا الانسان كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾[2]. وما يراه هذا الانسان نقصاً إنما هي مواد امتحانية من صميم النفس يريد الله- أن يختبر بها عباده في النوائب والكوارث. يختبر صبرهم في النوائب[3] فيطهرهم بها، ويختبر كذلك درجة شكرهم تجاه النعم

---

(١) سورة الاحقاف: ٢٠

(٢) سورة لقمان: ٢٠

(٣) ولا بأس بذكر هذا الحديث: «من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر، أعطاه الله ثواب الشاكرين».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من إنفاق وإيثار كي ينال كل فرد في الآخرة درجة تتناسب وعمله: ﴿لهم درجات عند الله والله بما تعملون بصير﴾. (آل عمران: ١٥٧). على أن هناك مسرات وأفراحاً مشروعة لا تعد ولا تحصى. لا يقوى الانسان على أن يقوم بأداء شكر جزء ضئيل منها: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

فإذا كنت أنت مع ما فيك من نقائص كثيرة، ترى ضرورة حياة كاملة مستكملة للشرائط، متوفرة فيها وسائل الراحة، يكافأ بها المؤمن تجاه صبره وشكره واجتيازه المواد الامتحانية بطاعة واختيار، فكيف بالله الذي: ﴿خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾ (سورة الانفطار: ٧).

إن الله قد جعل تلك الحياة السعيدة وأعني بها الحياة الآخرة المستكملة لشرائط الراحة جزاءاً موفوراً لصالحي عباده، أولئك الذين نجحوا في امتحاناتهم الدنيوية وجاهدوا في تزكية نفوسهم وتطهيرها من الدنس وسعوا للتكفير عن ذنوبهم لتسير نفوسهم نحو أوج الكمال.

انه تعالى يقول: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾. فيعرفنا الله تبارك وتعالى أن الغاية من إيجادنا بعد أن لم نكن شيئاً ومكثنا في الحياة الدنيا إنما هي للامتحان والاختبار ومعرفته تعالى ولكي ينال كل منا بعد الموت درجة يستحقها نتيجة عمله. وهو القائل: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولي الألباب﴾ . وفي آية أخرى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

فقد جاء في الحديث: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات. وفي حديث آخر: «لا يزال الهم والغم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً».

وفي حديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته». وكذلك عن أبي جعفر (ع): «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه». وكذلك عن أبي عبد الله عليه السلام: «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا وعرض له أمر يحزنه يذكر به».

وفي حديث آخر: «إن المؤمن لو كان في جحر ضب لسلط الله عليه من يؤذيه». وفي حديث آخر: «ان الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الطبيب المريض بالدواء». وفي حديث آخر: «ان الله إذا أحب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه». كل ذلك ليطهر الله تعالى عبده الآثم مما علق به من دنس ورجس كي يذهب من هذه الدنيا طاهراً نقياً لا اثم عليه. ونذكر تأييداً لهذه الحقيقة هذين الحديثين:

فعن الصادق (ع) قال قال رسول الله (ص): «ان الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى استوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده، أو بضيق في رزقه واما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت، حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة».

وعن الصادق عليه السلام أيضاً قال النبي (ص): قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أعذبه حتى أوفيه كل حسنة عملها، أما بسعة في رزقه أو بصحة في جسمه واما بأمن في دنياه فإن بقيت له بقية هونت عليه الموت حتى يأتي ولا حسنة له، فأدخله النار».

وهذا مصير مَن أتم الله عليه الحجة مرات، وأغدق عليه من النعم ما لا يُحصى فلم يُفده كل ذلك وتمادى في طيشه وغيه وظلمه وبغيه، فأمسى جرثومة فساد لا تصلحه ولا تزكيه إلا النار!.

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً، فإذنب ذنباً إتبعه بنقمة وذكره الاستغفار وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً اتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار». وقد بينا سبب ذلك. يقول الله تعالى: ﴿وذرني والمكذبين أولى النعمة وأمهلهم قليلاً﴾. (سورة المزمل: ١٠).

وقد روي علي بن ابراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (ص) يوماً لأصحابه: «ملعون كل مال لا يتزكى، ملعون كل جسد لا يُزكي ولو في كل أربعين يوماً مرة، فقيل يا رسول الله: أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة

الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بآفة». قال: فتغيرت وجوه الذي سمعوا ذلك منه، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم، قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا لا، يا رسول الله، قال: بلى، الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويقد القدة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «في كتاب علي عليه السلام: إن أشد الناس بلاء النبيون ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، وذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر. ومن سخف دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه، وإن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض».

وفي حديث آخر: «مَن صَفت له دنياه فاتهموه في دينه». كل ذلك يدل أن لا بد من من اجتياز مراحل هذا الاختبار الالهي العام، وهذا لا يتم إلا بنقص في العيش والصحة والهناء والأولاد والأنفس والثمرات إلى ما هنالك. فإنه تعالى يقول: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: انا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. (سورة البقرة: ١٥٧) ولا يكون إكمال هذا النقص الامتحاني إلا بآخرة سعيدة «وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين».

وهكذا يعتبر القرآن الدنيا متاع الغرور بقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. وبقوله: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾. وفي الحديث: «الدنيا والآخرة ضرتان».

ولا بأس بذكر الأحاديث الآتية لنزداد إيماناً ويقيناً بالآخرة: ففي حديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وفي آخر: «مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، حلاوة الدنيا مرارة الآخرة». ويراد بهذه المرارة تلك التي تطهرك من ذنوبك وتكفر بها عن سيئاتك. ويراد بالحلاوة تلك التي تأتيك من مورد

غير مشروع وبشكل غير شرعي. انه تعالى يقول: ﴿قلْ من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾. (سورة الاعراف: ٣١).

فالدنيا دار التصفية، ولا تصفية الا باختبار ولا اختبار لهذه النفس الانسانية إلا بالابتلاء، على حد قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾. (سورة محمد (ص): ٣١).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تقص علينا ما كان من اختبار الماضين وامتحانهم من جانب الله تعالى ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم، ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾. (سورة المائدة: ٩٧). ومعنى ذلك أن الله يمتحن عباده بأن يهيىء لهم ما يتمكنون من اصطياده في وقت يحرم عليهم الصيد، أي في حالة الاحرام. ذلك لأن الصيد حرام مع الاحرام. فالله تعالى يريد أن يعلم (وهو العالم بما سيكون)، بل يريد أن يعلم الانسان شخصه درجة نجاحه في هذا الاختبار الدنيوي أو الاختبار العالمي العام، كي يوقن بدرجة فضل الله عليه عندما يغدق عليه من عميم نعمه وعظيم رفده فيوفقه إلى توبة خالصة، ليدخله بها الجنة برحمته، فسبحانه من رحمن رحيم ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾. (سورة المؤمن: ٣).

وعن السجاد زين العابدين عليه السلام: (بكل ذلك يصلح شأنهم ويبلو أخبارهم وينظر كيف هم في أوقات طاعته ومنازل فروضه ومواقع أحكامه. ﴿ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

وقد يبلغ ضعف النفس في بعض الأفراد مرتبة يهرب بسببها عن مواجهة مشاكله الحياتية بكأس من الخمرة، ظناً منه أنه يستريح بذلك من مشاكل الحياة وما يكابد من عناء، فتتسافل نفسه ويقع في مهالك لا تقاس بمشاكله من قبل، ويمسي بهيمة من البهائم، بعيداً عن رحمة ربه، آثماً، ملوثاً نفسه بلوث الطيش والغرور.

وقد فاته أن الاسلام يكره الهروب من الواقع. انه دين مواجهة وجلادة، دين غلبة وجَلد وجهاد. وأعظم الجهاد هو جهاد هذه النفس الأمارة بالسوء. أنه تعالى يقول: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر. ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون﴾. ويقول الرسول صلى الله عليه وآله: «اجتنبوا الخمر، فهي أم الكبائر». وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: «والذي بعثني بالحق نبياً؛ إن شارب الخمر يموت عطشاناً وينادي واعطشاه ألف سنة، فيؤتى بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب، فينضح به وجهه وتتناثر أسنانه وعيناه في ذلك الاناء».

وقد يفرُّ هذا الانسان من ضعف إيمانه بالله تعالى ـ وان رحمته وسعت كل شيء ـ فيعمد عند تراكم المصائب عليه إلى الانتحار. والمؤمن لا ينتحر، معتقداً أن ما يصيبه من كوارث إنما هو لتزكيته وتطهيره. أنه يقول، كلما أصيب بمصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويعلم أن مآله ومآل كل أمر إلى الله تعالى. ولا يعبأ براحة هذه الدنيا الموقتة إن سلبت منه برهة من الزمن بغية الاختبار والتطهير. ولذلك يقع في كل سنة في أوساط الغرب (من شرقية وغربية) حوادث الانتحار. بعشرات الآلاف، رغم ما يتشدق به الغربي من تربية الارادة: (Volonté) ودراسات عميقة في التربية. تحدث في أمريكا في كل دقيقتين حادثة انتحار ويبتلي في كل ٣٠ ثانية شخص بمرض عقلي، ولا تسل عن عدد الجرائم التي تحدث في كل ثانية. والمجرمون جلهم من حملة الشهادات؟! كل ذلك، لضعف الايمان بالله وعدم الاعتقاد بنعيم الآخرة بعد تحمل شدائد الدنيا. كل ذلك لاخفاق هـذا التوجيـه المادي في التربية. تربية لا تعمل لربط الفرد بعوالم الآخرة.

لقـد خُلقنا لـلاختبار والامتحـان، ولا بد من اجتيـاز هذه المـراحل الامتحانية بصبر وأناة، وليس لأحد أن يفر من هذا الامتحان الالهي وهو القائل: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾ (سورة الملك: ٢٠).

فالانسان لم يخلق سُدى، يفسد في الأرض فلا حساب ولا كتاب، بل

لا بد له من أن يقطع مراحل التكامل النفسي، كما تقطع بقية الموجودات مراحلها التكاملية، كل بحسبه، وعلى ما أقره الله تعالى تفضلاً منه ورحمة. وهو القائل: ﴿أيحسب الانسان أن يُترك سُدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾[1]

يقول علي عليه السلام: «واعلموا أنه ما من طاعة لله شيء إلا ويأتي في كره، وما من معصية لله شيء إلا ويأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع شهوته، وقمع هوى نفسه. لأن هذه النفس أبعد شيء منزعاً. لا تزال تنزع إلى معصية في هوى، واعلموا أن المؤمن لا يُمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده، لا يزال زاوياً عليها ومستريباً بها، فكونوا كالسابقين أمامكم والماضين من قبلكم، توضوا للدنيا متقوين الراحل وطووها طي المنازل».

وهكذا يؤدِّ بنا الامام الرابع علي بن الحسين عليهما السلام، بقوله في دعاء له: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد. ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا بوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت وسوَّلت لي نفسي وغلبني هواي، وأعانني عليها شقوتي. فالآن من عذابك مَن يستنقذني، وبحبل مَن أتصل إن أنت قطعت حبلك عني. ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ومنعك إياي عن القنوط لقنطت، فهب لي من لدنك رحمة، أنك أنت الوهاب. فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك. إلى مَن يذهب العبد إلا إلى مولاه، وإلى من يلتجيء المخلوق إلا إلى خالقه».

* * *

أو ترى أن الله، وهو أرحم الراحمين، وهو الغفور الودود، أو ترى أن الله القائل: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ والقائل: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾. لا يريد لهذا الانسان حياة سعيدة وادعة تجاه مجاهدته في

(١) سورة القيامة: ٣٦ ـ ٤٠

الدنيا. فان عظيم رحمته وكمال لطفه يوجبان أن يوجد عالماً آخر عالماً سرمدياً أبدياً في غاية الكمال. يخلد فيه هذا الانسان جزاء لصبره وشكره وأعماله الصالحات، وعبادته لربه في هذه الدنيا ولو بعد عقوبة وتطهير. ويظهر من الآية المتقدمة: ان الله تعالى بقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ قد أوجب على نفسه إيجاد عالم آخر كله هناء ودعة وخلود ما بعده موت: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾[1].

* * *

إن الانسان ليعتقد بصورة فطرية: «إن كان ممن لم يلوث نفسه بالموبقات والمدنسات، أن وراء هذا العالم الدنيوي عالماً آخر، يقتص الله تعالى فيه من الظالمين، ويثيب الصالحين، لذلك يقول سُقراط لتلاميذه حين يقدم اليه السم: «أني ذاهب حيث يوجهني الله، وأني ذاهب إلى عالم سرمدي آخر، لا تحزنوا عليَّ». فيتناول السم بكل ارتياح لشدة يقينه. كيف لا يكون كذلك؟ وهو الذي كان يقول بوحدانية الله تعالى وعظيم لطفه. كان يقول: «إن الله أزلي أبدي غير متناهٍ، سميع، رقيب، بصير، مدبر حكيم».

ولكن إن تلوثت هذه النفس الانسانية وأظلمت وأمسى الفرد قليل الاعتقاد بالمعاد وما سيكون بعد الموت من سؤال وجواب وثواب وعقاب. فبمقدار ظلمات النفس يزول هذا الاعتقاد وقد ينعدم، فيعزو هذا المتسافل الاعتقاد بالمعاد والايمان بالعوالم التي ستكون بعد الموت لا محالة، إلى ضعف النفس وعدم تمكنها من المكافحة والمقاومة، وقد يصف ذلك بـ(أفيون الشعوب)، ويعتبر ذلك تسلية للعاجز المسكين، هذا ما يسوله له شيطانه، حتى يجعله لا يفكر في آخرته، فيرتكب ما شاء كيفما شاء: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ (سورة الزخرف: ٣٦).

---

(١) سورة الزخرف: ٧١

وقد تقوى هذه النظرية الخاطئة: أي عدم الاعتقاد بما بعد الموت، عند الماديين العوام[1] إلى درجة أنهم يسندونها إلى العلم والعلم كله منه براء.

كيف ومتى تمكن العلم: هذا العلم المادي الذي يدرس في جامعات العالم أن يتوصل إلى ما وراء الطبيعة وعوالم لا تُبصر بالآلات والأدوات ولا تُستقصى بمعادلات وقوانين حتى يحق له أن يقول: بأزلية المادة ونفي الخالق جل وعلا؟.

فالانسان الذي قد انفتحت بصائره لصفاء نفسه ولأعمال صالحة قد قام بها وعلى رأسها: البر بالوالدين وصلة الرحم، حتى من حملة شهادة الدكتوراه، ليوقن: أن الله الذي أودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم، من الذرة إلى الملائكة، في عالم المادة وفي عالم القوى والأرواح وقد ربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً متقناً بخواص ودساتير متقنة وقوانين رياضية رصينة: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾. سوف يكمل هذه الحياة الدنيوية: الناقصة من جهات شتى: نقصان في الكمال النفسي نقصان في النواحي الأخلاقية (من حيث التطبيق)، نقصان في النواحي الاقتصادية (من حيث التطبيق أيضاً)، نقصان في النواحي السياسية (ذلك لأن الاسلام دين ودولة)، نقصان في الروابط الدولية والانسانية: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين[2]﴾، نقصان في النواحي الصحية، نقصان في الطمأنينة والراحة الفكرية، (حتى بين بعض المتدينين)، نقصان في النواحي العلمية لجهل الانسان كثيراً من حقائق الكون، وفوق كل ذلك قلق في نواح

(١) إنما قلت: الماديين العوام: ذلك لأن المادي (في عقيدته) ان لم يكن قد درس الرياضيات العالية والفيزياء العالية، ولم يربط عصارات العلوم الحاضرة بعضها ببعض ربطاً فلسفياً فهو مادي علمي، لا يستند في هذيانه إلى ركن وثيق أو إلى برهان عميق. ولكن، لو تضلّع هذا المادي (في العقيدة) في شتى العلوم ونبغ فيها وترك شيئاً من خموره وفجوره فهو موحد لا محالة، ﴿ومن يدع مع الله آلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون﴾.

(٢) سورة البقرة: ٣٦

شتى، سوف يكمل هذه الحياة الناقصة بحياة سعيدة أخرى، كاملة من جميع الجهات، ألا وهي الحياة الآخرة: حياة ملؤها رفاهية وسرور وحبور، حياة كلها كمال: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾. وفي مكان آخر: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين﴾. (سورة الطور: ٢٠)[١]. كمال في النفس وتكامل للتطلع والوقوف على حقائق وأسرار الأكوان والعوالم المتنوعة بصورة سرمدية، كمال في الصحة، كمال في الحياة الفردية، كمال في الحياة الاجتماعية، كمال في الحياة الاقتصادية (إن قلنا بحياة اقتصادية هناك)، وفوق كل ذلك خلود ما بعده فناء ولا زوال: ﴿وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾[٢]. (سورة هود: ١٠٩).

﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا أنك على كل شيء قدير﴾. (سورة التحريم: ٨).

فإتمام النور للمؤمنين، هو الكمال الموعود، ذلك الكمال الذي به تزول نواقص هذا العالم الفاني، عالم العمل والاختبار. ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[٣].

فالكامل وهو الله تعالى حاشا أن يخلق شيئاً ناقصاً إلا ويريد لهذا الناقص (بسنن قد سنها) الكمال. وقد سنَّ طرق الكمال وسنن التكامل لهذا الانسان على لسان أنبيائه عليهم السلام، فما أوحى الله تعالى إلى أنبيائه كله سنن ودساتير تؤدي بصورة تدريجية إلى تكميل النفس الانسانية، كي تكون قمينة للانتقال إلى عالم آخر كله كمال.

---

(١) لا بد من زواج وازدواج حتى في عوالم الآخرة، تحقيقاً للزوجية في الكون ولتبقى الوحدانية خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها احد

(٢) غير مجذوذ: غير مقطوع

(٣) سورة النور: ٤٠

ولا مراء أن الله إنما أرسل الأنبياء عليهم السلام لتكميل البشر، لعلمه تعالى بما هنالك من نقائص شتى في هذا العالم الدنيوي وفي النفس الانسانية والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلى ما هنالك. ذلك لأن هذه الحياة حياة تهيؤ واستعداد، وما فيها من نقائص هي، في الحقيقة، مواد امتحانية يجتازها الانسان لبلوغ الكمال والانتقال إلى عالم آخر، عالم سرمدي خالد كله كمال في كمال. فما نسميه في هذه الحياة الدنيا نقائص هي ليست، في الحقيقة، نقائص، رغم تسميتنا إياها نقائص، وإنما هي: مراحل يتقدم فيها الانسان كما يتقدم الطالب في مدرسة ما من صف إلى صف.

فالانسان مريض في هذه الدنيا بأمراض معنوية، لنقائص كثيرة في نفسه، ولذلك يقول علي عليه السلام: «أرسل اليكم رسولاً ليزيل به علتكم».

وعن الرضا عليه السلام: خاطب رسول الله يوماً أصحابه قائلاً: «ألا أخبركم داءكم عن دواءكم، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: داؤكم الذنوب ودواؤكم الاستغفار!».

فالأنبياء عليهم السلام هم معدِّلو هذه النقائص بصورة تدريجية، لو أطيعوا، فطبقت دساتيرهم واتبعت تعاليمهم.

وأما المواد الامتحانية التي تظهر للانسان أنها نواقص أو نقائص فتبقى ثابتة تميز بين الفرد الصالح والفرد الطالح. ومن لم يتبع دساتير الأنبياء (ع) ومن بعدهم الأوصياء (ع) يذهب من هذه الدنيا وهو متسافل النفس، أعمى... ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. (سورة الأسراء: ٧٢).

ولما كان الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، وجب أن يكون، بعد الموت، عالم آخر كله كمال، خاص بعباد الله الصالحين. ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق

قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة[1] يوم القيامة﴾. (سورة الاعراف: ٣١).

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

وان الله يجازي الكافرين بعد أن أتم عليهم الحجة بعقل فطري: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾، وبإرسال الرسل: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾، وذلك بقوله: ﴿كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾[2].

فطوبى لنفوس تطهرت في هذه الفترة القصيرة الامتحانية وتكاملت في هذا العالم الدنيوي، فذهبت إلى رَوح وريحان بنفس مطمئنة: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

فما علينا إلا أن نستجيب لربنا[3] ونعمل كي لا نكون مصداق هذه الآية: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾. (سورة الكهف: ١٠٦). ولنتذكر هذه الآية دوماً: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾. (سورة الشورى: ٤٧).

---

(١) أي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، فلا يشاركهم فيها احد. لا كما في الدنيا حيث يشارك المؤمنين وغيرهم من غير المؤمنين.

(٢) سورة فاطر: ٣٧

(٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه إليه تحشرون﴾. (الأنفال: ٢٤).

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾. (سورة الشورى: ٤٤).

فليجرب المجربون وليختبر المختبرون ليروا صحة ما أقول. فكلما كان الانسان أقرب إلى التقوى والأعمال الصالحات، نقي الثوب، طاهر الضمير، كان اعتقاده بما بعد الموت وبالمعاد أقوى وأمتن. حتى وإن لم يكن قد بلغته دعوة الاسلام. وكلما تردى وتسافل كان اعتقاده بالمعاد أوهى وأضعف. ﴿ولا تطع كل حلاف مهين همّاز مشّاء بنميم مناع للخير مُعتدٍ أثيم عُتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾[1]. (همّاز أي كثير الطعن. عُتل: جاف غليظ. زنيم: دَعيٌّ، منسوب لغير قومه ـ أساطير: ما سطروه من خرافاتهم).

لذلك يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله، بعد نزول سورة النصر، فيقال له: يا رسول الله، أوَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيقول: «أين هول المطّلع وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال». وهو القائل: «معاشر الناس: إنه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل. أيها الناس لا يدع مدع ولا يَتمنَّ مُتمنٍّ، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل صالح مع رحمة، ولو عصيت لهويت».

فقضية إيمان الفرد بما بعد الموت من عوالم الآخرة والايمان بسؤال الملكين: (منكر ونكير) في القبر عن ربه وعن دينه وإمامه وصلاته و. . . الخ. وكذلك الايمان بالصراط[2] والميزان[3] وتكلم الجوارح[4] وتطاير

---

(١) سورة القلم: ٨ ـ ١٦.

(٢) الصراط: هو جسر جهنم، يمر عليه جميع الخلائق، فالمطيع يجوزه إلى الجنة، والعاصي هوى به في النار.

(٣) الميزان هو ما يقابل فيه بين الحسنات والسيئات، وليس هو بميزان مجسم. قال الله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾. (سورة الأعراف: ٨).

(٤) تكلم الجوارح: أي أن أعضاء الانسان تتكلم يوم القيامة بأمر الله وأذنه، وتشهد على =

الكتب[1] والحساب يوم البعث[2] والجنة والنار والشفاعة والحوض[3] وهكذا الايمان بكتابة الأعمال[4] إنما هي قضية طهارة النفس وتزكيتها. فكلما كانت النفس طاهرة، زكية صالحة نقية، زاد اعتقادها بالآخرة وعوالمها وتمنت الموت. وكلما كانت النفس ظالمة حالكة مظلمة، كانت جاحدة عوالم الآخرة، فلا تتمنى الموت. ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم

= صاحبها بما فعله في الدنيا من الذنوب، وهو على كل شيء قدير قال تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾. (سورة يس: ٦٥).

(١) ومعنى تطاير الكتب: هو أن الله تعالى بعد أن يحاسب العباد يوم القيامة يخرج لكل واحد منهم كتاباً يلقاه منشوراً. فيطير كل كتاب إلى صاحبه، فيجد فيه كل ما عمل في دار الدنيا «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها». فيقال له: إقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً». (سورة الاسراء: ١٤)... ﴿وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله مسروراً. وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً﴾ (سورة الانشقاق: ١١). (والثبور معناه: الهلاك، أي يدعو الله أن ينزل عليه الثبور).

(٢) معناه: ان الله تعالى يحاسب العباد بعد بعثهم من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم على أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا. ثم يجزى المحسن بإحسانه والمسيء باساءته: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. (سورة الزلزال: ٧ ـ ٨).

(٣) هو حوض النبي (ص) يوم القيامة. عرضه ما بين ايلة (بلد بين مصر والشام وصنعاء). فيه من الأباريق عدد نجوم السماء. والساقي عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

(٤) ومعنى ذلك: ان الله تعالى وكل بكل مكلف من عباده ملكين بالنهار وملكين بالليل، احدهما على اليمين، يكتب الحسنات، والآخر على الشمال، يكتب السيئات، فيكتبان جميع أعمال العبد. قال تعالى: ﴿وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾. ومن هم بحسنة كتبت له حسنة، فإذا فعلها كتبت له عشر حسنات. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، فان فعلها أمهل سبع ساعات فإن تاب منها لم تكتب عليه، وإن لم يتب منها كتبت عليه سيئة واحدة قال الله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾. (سورة الأنعام: ١٦٠).

بالظالمين﴾. (سورة الجمعة: ٧) ومنهم من ينسب جحوده هذا إلى العلم الحديث تبريراً لموقفه. والعلم قديمه وحديثه من كل ذلك براء.

نعم آفة العلم الحديث أنه لا يرافق التقوى والايمان بالله. وإنما تلقى مواضيعه على الطلاب مع نزعة الحادية مجردة عن عزو ذلك إلى قدرة الله تعالى وجليل صنعه. عدا ما هنالك من مجالات وحريات! تفسد الشاب وتذهب بحيائه الطبيعي، فإذا ذهب الحياء ذهب الايمان معه، وقد جاء في الحديث: «لا إيمان لمن لا حياء له».

* * *

أرأيت رجلاً عليه سيماء الخشوع والخضوع، ترتاح نفسك عند النظر اليه، يُلهمك التقوى ويجعلك تفكر في مصيرك وعاقبتك، ويذكرك الله وتطمئن إليه نفسك. أرأيت كيف يأخذ بمجامع قلبك، فلا يختلج في صدرك عند النظر إليه ما يفسد القلب ويلوث النفس!.

أرأيت رجلاً يخشع قلبه عند سماع ذكر الله تعالى وتدمع عيناه، أرأيت رجلاً غزير الدمعة جوف الليل من خوفه تعالى كيف يؤمن بالآخرة ويراها واضحة لا غبار عليها. أنه أحد أولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله: «وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذَّبون». لذلك ورد في دعاء يقرأ بعد نافلة المغرب: «أللهم أني أعوذ بك من نفس لا تقنع وبطن لا تشبع وعين لا تدمع وقلب لا يخشع وصلاة لا تُرفع وعمل لا ينفع ودعاء لا يُسمع... الخ».

كان يأتي بعض الأعراب محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: «والله ما هذا الوجه بوجه كذاب». ولقد جربت ذلك في بعض من مَنَّ الله عليهم بتوفيق الهداية. فبعد أن كان وجه أحدهم مكفهراً ذا تقاطيع خاصة لا ترتاح إليها النفوس أصبح بعد التوبة والانابة وضاء يستلهم الناظر منه الخير والطمأنينة.

ولكن نفساً يتطاير منها الشر والشرر والطيش والجور والبغي، نفساً متكبرة متحجرة، تشمئز منها نفسك، إن كانت قد بلغت مرتبة من التقوى.

فلو نظرت إلى وجه هذا الشخص لألفيته وجهاً مكفهراً، حالكاً لا ترتاح النفوس عند النظر إليه. إن نفساً كهذه لا تؤمن بالآخرة ولا تصدق بالبعث، بل ديدنها الاستهزاء بالمقدسات وشعارها التكذيب بآيات الله تعالى.

﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين﴾. (سورة النحل: ٢٢، ٢٣)...

وهكذا لا تؤمن بالآخرة نفوس دَيدَنها الخديعة والمكر والغدر. نفوس تنتهز الفرص لإيقاع الآخرين في المهالك. إن نفوساً كهذه لتفرح عندما تنجح في مكرها وخداعها وتظن أنها قد فتحت جبهة من الجبهات أو جاءت بأمر خطير. وقد فاتها أنها خانت نفسها وأبعدتها عن ساحة القدس. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس منا من ماكر مسلماً». وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس».

أوَ ترى نفساً هذا دَيدنها تؤمن بالحساب والجزاء وتوقن باليوم الآخر. ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. ﴿قتل الخراصون[1] الذين هم في غمرة[2] ساهون يسألون أيانَ يوم الدين؟ يوم هم على النار يُفتنون[3] ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾. (سورة الذاريات: ١٠ ـ ١٤).

فقضية التصديق بالبعث ليست قضية عقل ومنطق فحسب، وإنما العقل يحجب الذنوب، فتنكر النفس الملوثة كل ما كان التصديق به أمراً طبيعياً فطرياً. ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾[4].

ومنطق هذا الانسان إن كان قد لوث نفسه بالذنوب قد يصدق بالله

---

(١) الكذابون.

(٢) غمرة: جهل يغمرهم.

(٣) يفتنون: يعذبون

(٤) سورة الروم: ١٠

واليوم الآخر ويعترف بالمقدسات برهة ضئيلة من الزمن عندما تُملى عليه البراهين. إلا أنه سرعان ما يغلب على النفس المتسافلة شيطانها فيأتي دور الانكار والجحود بقوة وشدة لا مزيد عليها: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾[1].

﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[2].

فقضية التصديق بالبعث هي قضية تقوى ونفس زكية قبل كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾.

وقد أخذ بعض علماء النفس المحدثين يعترف للنفس الانسانية ببعد رابع: وهو الاعتقاد بالله واليوم الآخر بصورة فطرية. وهذا يشبه (الزمان) الذي جعله (آينشتاين) بعداً رابعاً لقياس المسافات الشاسعة ومقدار الكتلة والحجوم في تلك المسافات النائية، عدا الأبعاد الثلاثة. وان العلم الحديث أخذ يقترب مما أملاه الأنبياء عليهم السلام على البشر وما أخبرونا به عما وراء الطبيعة.

* * *

وإني لأتذكر جيداً، أني قرأت ذات يوم خطاب رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعا عشيرته الأقربين:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو: إني لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتنَّ كما تنامون. ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون. ولتُحاسُبنَّ بما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وأنها للجنة أبداً أو النار أبداً». على مدرس في إحدى الثانويات، فوضع إصبعه على هذا السطر: (ولتبعثن كما تستيقظون) قائلاً: «إن في قلبي شيئاً

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٥

(٢) سورة النمل : ١٤

من صحة هذا الكلام»! وأظهر أنه غير موقن بالمعاد. فسألت عن عمله، فعلمت أنه اندمج أخيراً في زمرة مَن بعدَّهم الله عن رحمته. ولكن الله تعالى شاء له أن يموت على الايمان. فضاقت أموره وتردَّت صحته، فرجع شيئاً فشيئاً عن غيِّه وطيشه، فصار يؤمن بالبعث: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾[1].

وكم في النكبات من فوائد وعبر ورجوع إلى إصلاح النفس ومعالجتها وأوبها إلى التوبة والانابة. فعن الرسول صلى الله عليه وآله: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل همٍّ فرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب».

وفي حديث آخر: «من تاب قبل أن يغرغر[2] تاب الله عليه». وهذا خير دليل على عظيم لطفه تعالى وفتحه باب التوبة إلى آخر لحظة من حياة الفرد. إلا أن الفرد سوف لا يوفق إلى التوبة إن رانت الذنوب على قلبه وغلبت وطبعت عليه. ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ (٨٨/٩). والرين أو الدنس إن استولى على القلب فلا يدع مجالاً لرؤية الحق والواقع ومعالجة النقص المتأصل في النفس. فيرى الفرد إذ ذاك الحقائق أساطير وخرافات على حد قوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (١٤/٨٣).

وقال تعالى: ﴿بل قالوا مثلَ ما قال الأولون قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون لقد وُعِدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع وربُ العرش العظيم؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾[3].

فبالتقوى يعمر القلب ويزول عنه الصدأ ويرتفع حجاب الظلمات، فلا

---

(١) سورة الاعراف : ١٦٧

(٢) غرغر : جاد بنفسه عند الموت

(٣) سورة المؤمنون : ٨٢ ـ ٨٨

يعتبر بآيات الله وما أنزل على رسله إلا المتقون، ﴿إلا من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾. وهو القائل: ﴿وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ (سورة يس: ١٠ ـ ١١).

ولا بأس بذكر هذا الحديث لأهميته، يستفيد منه من مَنَّ الله عليه بتوفيق الطاعة، فأدرك فلسفة الدين، فلسفة قد لا تتفق في جوهرها مع ما عليه كثير من الناس، اليومَ، من معاني الدين. ولكنها تفسير لما ذكر الله تعالى في كتابه المنزل.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان في ما وعظ به لقمان ابنه: يا بُني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا، ولم يبقَ من جمعوا له. وإنما أنت عبد مستأجر. قد أمرت بعمل ووُعدت عليه أجراً. فأوفِ عملك واستوفِ أجلك. ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر، فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها[1] عند سمنها. ولكن إجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جُزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر. إخربها ولا تعمرها، فانك لم تؤمر بعمارتها، واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع: شبابك في مَ (فيمَ) أبليته[2] وعمرك فيمَ أفنيته، ومالك مِمَّ اكتسبته وفيمَ أنفقته، فتأهب لذلك وأعدَّ له جواباً. ولا تأس على ما فاتك من الدنيا، فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤها. وكثيرها لا يؤمن بلاؤها، فخذ حذرك وجدَّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش[3] في فراغك، قبل أن يقصد قصدك[4] ويُقضى قضاؤك ويُحال بينك وبين ما تريده».

ولقد عرفت شخصاً ذرَّف على الستين، كان في ريب من وجود الإمام

---

(١) حتفها: هلاكها.

(٢) الثوب البالي هو الذي استعمل حتى اشرف على الاندراس. ابلى الثوب: صيره بالياً.

(٣) الكمش: السعي، أي أسرع وعجل

(٤) قصدك: نحوك، كناية عن توجه ملك الموت اليه ليقبض روحه أو توجه امراض وبلايا من الله اليه

الثاني عشر: الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه، وانه حي يُرزق، وسيظهر حين يأمره الله تعالى، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وكان يخالجه شك عندما يفكر في كيفية المعاد. وعندما رجعت إلى ما أعلمه من معاملاته السابقة، علمت أن ضعف عقيدته ناتج عما قام به من أعمال غير مرضية عند الله تعالى. إلا أنه، والحمد لله، قام بإصلاح نفسه أخيراً للتكفير عما اجترحت يداه من ذنوب بعزم رصين. ويوشك أن يرجع إلى ما كان عليه في صغره من عقيدة راسخة بحياة الحجة عجل الله تعالى فرجه. وبالمعاد. وذلك بعد تطهير نفسه وجعلها غير مشوبة بالذنوب، فقد جاء في الحديث: «التائب عن الذنب كمن لا ذنبَ له».

* * *

يرى هذا الانسان من الكمال الذي أودعه الله تعالى في خلقه: أن جعل تردُّد[1] صوت الرجل (١١٠) في الثانية وتردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أجمل وألطف من صوت الرجل. فينجذب الرجل اليها وتكون بينهما مودة ورحمة، فيسكن اليها وتسكن اليه[2]. فلا يتصدى الرجل إلى ما حرم الله ودنّسه من فسوق وفجور وشذوذ جنسي يدل على ضعة النفس وتدنسها وتلوثها وبُعدها عن الكمال كل البعد فيتسافل إلى أسفل سافلين وبئس المصير. فكل ما حرم الله تعالى إنما هو في ذاته ملوِّث، دنس يضاد الكمال وطهارة النفس، فقد جاء في الحديث: «من قبَّل غلاماً بشهوة ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». ولذلك يقول الله تعالى لردع الناس عن الشذوذ ومنعهم عما يضاد طهارة النفس ويؤدي إلى التسافل وإلى شذوذ جنسي:

﴿وأتـوهنَّ من حيث أمـركم الله ان الله يحب التـوابين ويحب

---

(١) التردد في الثانية: هو عدد اهتزازات الجسم الصائت او (المهتز)، أو عدد ذبذباته الكاملة في ثانية واحدة. كما نشاهد ذلك في الشوكة الرنانة.

(٢) « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون». (سورة الروم: ٢٠).

المتطهرين﴾. فمنع الله تعالى بكلمة (المتطهرين) عن كل شذوذ وكل ما يخالف الذوق السليم الطاهر ويخالف سنة الكمال الذي يريده الله لعباده ولجميع ما خلق. وأيد ذلك تحقيقاً للكمال الانساني وتوضيحاً لقوله: ﴿من حيث أمركم الله﴾ بقوله: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾. فنهى الله بقوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ عن كل شذوذ يخالف تحقيق مفهوم (الحرث)، وحذر الأزواج عن هذا الشذوذ المقيت، المحرم مع نسائهم بقوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾. وبقوله: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ كي لا يتسافل هذا الانسان بتدنيس نفسه وتلويث فراشه، فيتعدى حدود التكامل الذي أراده الله لعباده في هذه الدنيا. وكذا الحال في كل ما نهى عنه الله تعالى في محكم كتابه الكريم. فروح الاسلام هي التكامل والكمال في جميع مرافق الحياة: من اجتماعية وفردية وغيرهما. هذا ما نلاحظه في كتابنا المقدس القرآن العظيم الذي ﴿فيه تبيان لكل شيء﴾ وهو القائل: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1]. (سورة الأنعام: ٣٩).

* * *

إن التكامل غاية الغايات في هذا الكون[2]. فمن أيقن به علم أنه لا بد وأن تكون وراء هذه الحياة القلقة (المضطربة) حياة طمأنينة ودِعة وهدوء وسرور، وأن وراء هذه الحياة الناقصة حياة كاملة، بكل ما في الكمال من معنى، ليس لهذا الانسان أن يتصور مداه ما دام في هذه الدنيا.

لذلك يخبرنا الله تعالى عن حتمية يوم البعث في هذه الآية التي تدل على ما أودع الله من تكامل تدريجي عجيب في كل جزء من أجزاء هذا الكون، لا سيما تشكلات الجنين الذي هو معجزة الله في أرضه من معاجز لا تتناهى.

---

(١) ما فرطنا: ما تركنا من شيء.

(٢) قال رسول الله (ص) مخاطباً علياً (ع): يا علي، اربع من يكن فيه فقد كمل اسلامه: الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق.

أنه تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة[1] وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث مَن في القبور﴾[2].

فطوبى لنفوس تُدرك الكمالَ المودع في هذا الكون وكيف أن الله أحاط الجنين بظلمات ثلاث، أي بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء والضوء والحرارة[3] وذلك بقوله: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾[4]. ان نفوساً كهـذه تنزه الله تعـالى عن كل نقص وتسبِّحه ليلَ نهار، لا سيما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب:

﴿وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[5]. ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾[6].

وذلك لأن التسبيح يوحي أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعن كل عيب وأنه في غاية الكمال وما يصدر عنه أيضاً في غاية الكمال، فمعنى (سبحان الله) أي أن الله منزه عن كل نقص وعيب وهو في غاية الكمال، وما يصدر عنه كامل لا نقص فيه. فتكامل هذه الحياة الدنيوية بالحيـاة

---

(١) مصورة تامة الخلق

(٢) سورة الحج: ٤

(٣) وهذا ما توصل اليه اخيراً العلم الحديث: وتسمى الاغشية المذكورة باسم: المنبارية والأمنيونية والخوربونية.

(٤) سورة الزمر : ٦

(٥) سورة ق : ٣٩

(٦) سورة طه : ١٣١

الأخروية الدائمة السعيدة. ولذلك كانت التسبيحات الأربعة: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر) في الركعتين الأخيرتين من صلاتي الظهر والعصر وصلاة العشاء أفضل من تلاوة سورة الفاتحة.

* * *

ثم إن البعض يستبعدون إمكان البعث، بعد أن تبلى الأجساد من الناحية المادية. حين أن الله تعالى قد خلق في هذا الكون مقادير هائلة من الايدروجين والأوكسيجين والكاربون والكلس والحديد إلى ما هنالك من عناصر لتكوين القسم المادي من البدن الانساني وخلق طاقات بمقادير لا تحد. فباستطاعة الله تعالى أن يُرجع لكل انسان بدنه المكون من نفس العناصر فلا فرق بين عنصر وعنصر وبين ايدروجين وايدروجين آخر. وبين حديد وحديد آخر. فيكوِّن الله تعالى مما خلق أو ما يريد خلقه بمقدار لا يتناهى من حديد وايدروجين وعناصر أخرى الأجسام أو الأبدان التي كانت الأرواح تحل فيها وتسيطر عليها لمحاسبتها يوم البعث. ولا يُحاسب إلاالروح. أما البدن فيعذَّب إن كانت الروح التي تحل فيه عاصية لله. فتشعر الروح بهذا العذاب. ومما لا مراء فيه أن عمليات الهدم والبناء في الكيان العضوي لا تدع مجالاً لبقاء عضو محافظاً على نفس الخلايا والأنسجة، ذلك لأن الخلايا والأنسجة تتجدد وتتبدل من حين إلى آخر فلا يبقى البدن الانساني على ما هو عليه من حيث العناصر أو الخلايا والأنسجة. أي أن الخلايا والأنسجة بما فيها من عناصر تتبدل من حين إلى آخر.

يقول الله تعالى في (سورة المؤمن: ١٢): ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين﴾. أي من خلاصة سلّت من بين الكدر ومن خلاصة أخذت من الطين. ومعنى ذلك أن الانسان إنما خلق من مجموعة عناصر شتى: (كاربون، أوكسيجين، ايدروجين، فوسفور، كبريت، آزوت، كالسيوم، بوتاسيوم، صوديوم، كلور، مغنيسيوم، حديد، مانغانيز (منكانز) نحاس، يود (أيود)، فلورين، كوبالت، التوتيا: (Zinc)، سلكون، المنيوم. وان هذه العناصر هي العناصر المكوِّنة للتراب.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿خلق الانسان من صَلصال كالفخار﴾ والصلصال هو الطين اليابس. والطين هو التراب الذي أضيف اليه الماء وفي آية أخرى: ﴿من صلصال من حماء مسنون﴾.

ولا شك أن اتحاد الحيوان المنوي، الذي يفرزه الذكر، بالبويضة، التي تفرزه الأنثى، هو الذي يكوِّن نطفة الانسان. أي أن نُطفة الانسان تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي (من الذكر) بالبويضة (من الأنثى). والحيوان المنوي والبويضة كلاهما يتولدان من الدم، والدم يتولد من الغذاء الذي يتناوله الانسان، وهذا الغذاء اما نبات أو حيوان أو ماء. وكلها متكونة من عناصر التراب. أي من (ايدروجين، فوسفور، كبريت، سلكون... الخ). إذن قد خُلق الانسان من تراب. ذلك لأن ما في بدن الانسان من عناصر شتى (تلك التي ذكرناها) كلها موجودة في التراب. وهكذا أثبت العلم الحديث أن الانسان مخلوق من تراب على ما جاء في كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. وهذه إحدى معجزات القرآن الكريم.

وهو القائل: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[1]. وفي آية أخرى: ﴿أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. وليس للعلم الحديث أن يتوصل إلى أن قول الله تعالى (كن) كيف يؤدي إلى وجود موجودات شتى وكيف قوله: (كُن) أوجد التراب بعد مراحل شتى، أرادها الله تعالى عند قوله: (كن) أي أراد الله تعالى أن تتحقق كل هذه المراحلِ فيتكون إذ ذاك هذا التراب. ثم كيف قول الله تعالى للتراب أو للطين:. (كُن)، أوجد هذا الانسان بروحه وعقله الجبار: ﴿ما أشهدتُهم خلقَ السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[2]. (سورة الكهف: ٥٠).

---

(١) سورة الروم : ١٩

(٢) يرى العلم الحديث ان الكون بدأ من سديم : بدأ من ضباب رقيق ، من غاز وتراب وعفر. وتجاذبت جزيئاته وتجاذبت حباته بحكم قانون الجاذبية العام ، فتقاربت وهي من بعد تقارب تكتلت والتكتل انضغاط والانضغاط حرارة. وحسب رأي العالم =

ذلك لأن العلم الحديث، لا يتجاوز حدود المحسوسات، وأنى له أن يتعرف إلى ما وراء الطبيعة وإلى حقيقة الروح وكيفية خلقها من جانب الله تعالى وكذلك العقل. وما معنى التحليل العلمي في أمور تتعلق بما وراء المادة والطبيعة، ذلك لأن العلم الذي يُستند إليه في التحليلات العلمية إنما هو علم مادي ناقص، فلا يمكن تحليل القضايا غير المادية على ضوء العلم المادي الناقص! كما أن ما وصل اليه العلم الحديث في بعض الأمور النفسية إنما هو مظاهر وآثار لا ربط لها بحقيقة النفس وعوالم الأرواح وما وراء الطبيعة، وهو مع ذلك في آخر درجة من النقص! فلا معنى إذن لاستعمال كلمة: (التحليل العلمي) بالنسبة إلى ما هو مما وراء الطبيعة، إن كان يراد بهذا العلم: العلم المادي، أو العلم بظواهر المادة وظواهر الحوادث المادية من فيزيائية وكيميائية.

وزيادة في التوضيح نقول: إن العلم الحديث لا يزال عاجزاً عن التعرف إلى حقيقة الجاذبية وهي ظاهرة يعترف بها وبقوانينها ودساتيرها: (دستور اسحاق نيوتن، دساتير آينشتاين المعدلة لدستور نيوتون... الخ)... وهكذا نرى ليس للعلم الحديث أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة ويعطي رأياً صحيحاً عنه، وهو يعترف بالعجز عن التعرف إلى ما هو غير مادي وحتى إلى حقيقة المادة أو حقيقة العناصر: كالآزوت والايدروجين...

الفلكي السويدي: (هانس) ان المجالات المغناطيسية لعبت دوراً هاماً في تكتل السدم. وقد تأينت العناصر في هذه السدم وتحركت في المجالات المغناطيسية، فنجم عنها الحركة الميكانيكية التي هي أساس التكتل والتشكل وصياغة المجاميع الشمسية. وقد انتهى في تحقيقه وبحثه ان: تكون الكواكب لأغلب الشموس. هو الحال السوي الطبيعي لها. وقال: «ان الحساب يشير الى ان نجماً بحجم شمسنا يكون له كواكب، ثالثها يكون بمثل حجم الأرض، ومكوناً من مثل عناصرها ،وعلى حال كحالها». ومعلوم ان الارض ثالث كواكب الشمس، «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» (سورة الملك :) والكواكب كلها تدور حول نفسها وكذا الشمس، وكلها تدور حول نفسها في اتجاه واحد من الغرب الى الشرق!

فالحديد مثلاً مؤلف من ذرات وكل ذرة مكوَّنة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات، والعلم الحديث يعترف بعجزه عن بيان حقيقة الالكترون وماهيته وكذا عن حقيقة البروتون وحقيقة النيوترون وكلها قوى وليست من المادة في شيء.

فإذن: العلم الحديث عاجز عن أن يُبدي رأياً صحيحاً عن حقيقة المادة!؟

فالماديون يتمسكون بشيء هم عاجزون عن التعرف اليه وتفهم حقيقته: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾. (سورة النجم: ٢١).

* * *

ثم ان الله تعالى يُنطق يومَ القيامة هذه الأعضاء من: لسان ويد ورجل! وهي هي دونما فرق. لأن الكاربون الذي يشكل البدن هو نفس الكاربون الذي كان يشكل بدن هذا الانسان وهو في عالم الدنيا. وهكذا بالنسبة إلى بقية العناصر التي كان يتكون منها البدن الانساني: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ (سورة النور: ٢٥).

﴿ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾. (سورة فصلت: ١٩ ـ ٢١).

والدليل على عدم بقاء نفس هذه العناصر المؤلفة للبدن الانساني قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً﴾. (سورة النساء: ٦٠).

ويقول الله تعالى رداً على أولئك الفلاسفة الجهلاء الذين كانوا يرون

إعادة الأبدان مستحيلاً يومَ البعث بعد البلى والاندثار: ﴿أفعيينا بالخلق الأول[1] بل هم في لَبس من خلق جديد﴾[2]. (سورة ق: ١٥).

* * *

وأرى من المناسب أن أذكر هنا فضيلة صلاة علّمها رسول الله (ص) جعفراً الطيار (رض). فهي صلاة لها تأثيراتها العجيبة في النفوس من حيث الاعتقاد بالمعاد وبكل ما يؤدي إلى تكامل هذا الانسان. وأوصي كل من يشك في عوالم الآخرة: من سؤال منكر ونكير والبعث وتطاير الكتب والميزان والصراط. . . الخ أن يواظب عليها، لا سيما يومَ الجمعة قبل الزوال. فإنها العلاج الوحيد لقمع الشكوك والأوهام أو بالأحرى: لطرد الشيطان ووساوسه وشركه وحبائله، ولحصول اليقين بيوم الجزاء وبكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فليجرب من شاء. فإن التجربة سند العلوم الحديثة والأساس الذي تبتني عليه المكتشفات. فليجرب من شاء وليعلن نتيجة تجربته كي يقتفي به الآخرون، فيكونوا من الناجين[3]، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى

(١) أي: عجزنا من ان نخلق الاشياء من العدم، ذلك لأن المخلوقات كلها انما خلقت من جانب الله تعالى لا من شيء سابق بل من العدم وبقوله تعالى: كن. وقد قال علي (ع) عند وصفه كيفية خلق الله الخلق: « الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه ». وقال ايضا: « أنشأ الخلق انشاء وابتداه ابتداء بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها ». وقال عليه السلام في صفة خلق آدم عليه السلام: « ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت. . الخ ».

(٢) اي بل هم في شك من ان نخلق من جديد ما بلى واندثر وهذا دليل الى ان البدن يخلق عند البعث من جديد.

(٣) في ما اوصى النبي (ص) علياً (ع): يا علي، ثلاث موبقات، وثلاث منجيات. فأما الموبقات: فهوى متبع وشح مطاع واعجاب المرء بنفسه. واما المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخوف الله في السرّ والعلانية كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك ». (القصد: نقيض الافراط: اي الاعتدال).

الله بقلب سليم﴾. ﴿يومَ تشخص[1] فيه الأبصار مهطعين[2] مقنعي[3] رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم[4] وأفئدتهم هواء[5]﴾.

تسمى صلاة جعفر الطيار رضي الله عنه بصلاة التسبيح. وهي من المستحبات المؤكدة. فعن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر، ألا أمنحك، ألا أعطيك، ألا أحبوك. فقال جعفر: بلى يا رسول الله. قال: فظن الناس أنه يعطيه ذهباً وفضة. فتشوق الناس لذلك. فقال له: «أني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها. فإن صنعته بين يومين غفر لك ما بينهما أو كل جمعة أو كل شهر أو كل ستة أشهر غفر لك ما بينهما».

وهي أربع ركعات بتسليمتين. أي كأنه يصلي صلاة الصبح مرتين: كل ركعتين بسلام.

ينوي قائلاً في خَلَده: أصلي ركعتين قربة إلى الله تعالى. يقرء في الركعة الأولى سورة الفاتحة (الحمد) وسورة أخرى والأفضل أن يقرأ في الركعة الأول بعد الحمد سورة (إذا زلزلت الأرض زلزالها)، وبعد الانتهاء من السورة يقول: ١٥ مرة، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر».

ثم يركع ويقول هذه التسبيحات: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر» عشر مرات.

ثم يرفع رأسه من الركوع ويقول نفس التسبيحات وهو واقف: ١٠ مرات.

ثم يسجد السجدة الأولى ويقولها ١٠ مرات.

---

(١) لهول ما ترى. يقال: شخص بصر فلان، أي فتحه فلم يغمضه.
(٢) مهطعين: مسرعين.
(٣) مقنعي: أي رافعي
(٤) طرفهم: بصرهم
(٥) سورة الحجر: ٤٥

ثم يجلس بين السجدتين ويقول التسبيحات نفسها: ١٠ مرات.
ثم يسجد للسجدة الثانية ويقولها ١٠ مرات.
ثم يرفع رأسه من السجدة الثانية ويقولها وهو جالس: ١٠ مرات.
يكون مجموع التسبيحات في الركعة الأولى: ٧٥ مرة وهكذا في الركعة الثانية، وهكذا في الركعة الأولى من الصلاة الثانية، وهكذا في الركعة الثانية من الصلاة الثانية. فيكون مجموع التسبيحات في الركعات الأربع: ٤ × ٧٥ = ٣٠٠ تسبيحة.

ويفضل أن يقرأ في الركعة الثانية (من الصلاة الأولى) بعد الحمد سورة (العاديات).

وبعد الانتهاء من الصلاة الأولى يقوم ينوي كما نوى أولاً للصلاة الثانية: (أصلي ركعتين قربة إلى الله تعالى). ويعمل كما عمل في الصلاة الأولى. إلا أن ها هنا يفضل أن يقرأ في الركعة الأولى، بعد الحمد، سورة النصر (إذا جاء نصر الله والفتح) وفي الركعة الثانية، بعد الحمد، سورة الاخلاص: (قل هو الله أحد).

ويستحب أن يقول في السجدة الأخيرة (أي في السجدة الثانية من الركعة الأخيرة (أي الركعة الرابعة):

«سبحان مَن لبس العزَّ والوقار، سبحان من تعطَّف بالمجد وتكرَّم به، سبحانَ من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان مَن أحصى كل شيء علمه. سبحانَ ذي المنِّ والنعم، سبحان ذي القدرة والكرم. اللهم أني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تمت صدقاً وعدلاً أن تصلي على محمد وأهل بيته وأن تفعل بي كذا وكذا... ويذكر حاجاته». فإذا انتهى من صلاته يستحب أن يقرأ هذا الدعاء:

«اللهم إني أسألك توفيقَ أهل الهدى، وأعمالَ أهل التقى، ومناصحة أهل التوبة، وعزمَ أهل الصبر، وحذرَ أهل الخشية، وطلبَ أهل الرَّغبة وعرفانَ أهل العلم، وفقه أهل الورع، حتى أخافك اللهمّ مخافةً تحجزني

عن معاصيك، وحتى أعمل بطاعتك عملاً استحق بـه كرامتـك، وحتى أناصحك في التوبة خوفاً منك، وحتى أخلص لك في النصيحة حباً لك، وحتى أتوكل عليك في الأمور كلها بحسن ظني بك».

سبحان خالق النور. سبحان الله وبحمده.

أللهم صلِّ على محمد وأهله وتفضل عليَّ في أموري كلها بما لا يملكه غيرك ولا يقف عليه سواك. واسمع ندائي وأجب دعائي واجعله من شأنك. فانه عليك يسير وهو عندي عظيم، يا أرحم الراحمين».

وروى لنا مفضل بن عمر أنه رأى ذات يوم الامام الصادق عليه السلام يصلي هذه الصلاة، فبعد أن أتم صلاته رفع يديه فقال: (يا ربِّ، يا رب) حتى انقطع نفسه، ثم قال: (يا رباه، يا رباه) حتى انقطع نفسه. وهكذا: (ربِّ، ربِّ)، (يا الله، يا الله) (يا حيُّ، يا حي) [يا رحيم، يا رحيم] حتى انقطع نفسه، ثم قال: (يا رحمان) سبع مرات، ثم قال (يا أرحم الراحمين) سبع مرات. ثم قال: «أللهم أني أفتتح القول بحمدك، وانطق بالثناء عليك وأمجدك ولا غاية لمدحك. وأثني عليك، ومَن يبلغ غـاية ثنـائك وأمـد مجدك، وأنى لخليقتك كنه معرفـة مجدك، وأي زمن لم تكن ممـدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجدك، عواداً على المذنبين بحلمك. تخلَّف سكان أرضك عن طاعتك، فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جواداً بفضلك، عوَّاداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والاكرام».

يروي لنا المفضل: أن الصادق عليه السلام بعد أن انتهى من الدعاء، قال لي يا مفضل، إن كانت لك حاجة، صلِّ صلاة جعفر وادع الله بهذا الدعاء وسل منه قضاء حاجتك، فانها تُقضى إن شاء الله.

ويجوز الفصل بين الصلاتين إذا أعسرته حاجة، فانه يصلي ركعتين ويقضي حاجته، ثم يصلي ركعتين أخريين.

ويجوز تأخير التسبيحات إلى ما بعد الصلاة مع الاستعجال. أي يصلي الأربع ركعات ثم يسبِّح.

ولو سَها عن بعض التسبيحات أو كلها ولم يأت بها في محلها أتى بها في محل آخر مضافاً إلى وظيفته، وإن ذكر بعد الصلاة قضاها بعدها.

* * *

إن الأنبياء عليهم السلام كلهم أخبرونا عن الله تعالى: أن هناك عالماً آخر بعد الموت. وأن الناس يحشرون جميعاً يوم القيامة، فيؤخذ بالمحسن إلى الجنة وبالمسيء إلى النار. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد ذلك. منها: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾[1]. ومنها: ﴿أوَ ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾[2]. ومنها: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[3].

فإذا ثبتت نبوة الأنبياء بمعاجزهم وصحة دساتيرهم وتعاليمهم ومطابقتها مع العقل السليم ثبتت صحة ما أخبرونا به ومنه المعاد.

* * *

وفي الآيات ما يدل دلالة واضحة على وقوع المعاد الجسماني، أي أن الناس يُحشرون بأجسادهم وبأرواحهم. منها قوله تعالى: ﴿أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوِّي بنانه﴾. وإنما خص البنان دون سائر الأعضاء لدقة هناك ولاختلاف ما على البنان من خطوط ونقوش على عدد الناس: «سبحانه وتعالى عما يشركون».

ومنها قوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لِم شهدتم علينا﴾. ومنها: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾.

وأما ما قاله بعض القدماء من الفلاسفة من أن المعاد لا يقع جسمانياً وإنما هو روحاني بحت، فذلك لمحدودية ما كان لديهم من معلومات عن

---

(١) سورة الكهف: ٤٦

(٢) سورة يس: ٨١

(٣) سورة الروم: ٢٧

الكون المادي والقوى المسيطرة باذن الله على هذا الكون، وقياس الأمور على ما كانوا يرونه في حياتهم من ممكنات. ولو كانوا أحياء في مثل هذا العصر، عصر الذرَّة والمعادلات التفاضلية، عصر النظرية النسبية والنظائر المشعة، لعلموا أن آفاق العلم لا تحد وما يراه الانسان في عالم الممكنات مستحيلاً في وقت، يراه ممكناً بعد تقدم البشر في التعرف إلى بعض مظاهر الكون وما أودع الله فيه من نظم وخواص وقوانين تبهر العقول.

﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(١).

* * *

ثم إن الانسان ليرى أن هناك ثلة من الناس بالغوا في الظلم والطغيان حتى أنهم أنكروا وجود الله جل جلاله، وان الله لم ينتقم منهم في دنياهم ولم يقتصَّ للمظلوم من الظالم، فيحكم، لعلمه بعدالة الله تعالى: أن هناك عالماً آخر يُكافأ فيه المحسن ويُعاقب فيه الظالم.

* * *

إن للكبر أثراً عجيباً في ردع الانسان عن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر. إن الله تعالى يقول: ﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون أنه لا يحب المستكبرين وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم(٢) كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾(٣).

فالنفس المتحجرة المتكبرة لا تخشع ولا تخاف عقاب الله تعالى،

---

(١) سورة الرعد: ٥

(٢) الوزر: الأثم، الحمل الثقيل. يزرون يحملون

(٣) سورة النحل: ٢٥

فتعصى الله تبارك وتعالى في أرضه. فيقسو القلب نتيجة ذلك الانكار والاستهزاء بما أنزل الله من آيات فتتصورها أسطورة وخُرافة ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ وإن هؤلاء بفعالياتهم السلبية يضلون كثيراً من الناس دون سند علمي: «بغيرعلم» فيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم.

لذلك يسأل أبو عبد الله عليه السلام عن أدنى الالحاد؟ فيجيب (ع): «إن الكبر أدناه».

وعنه سلام الله عليه: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذرَّ، يتوطَّأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب».

إن المتكبر يعزو جميع المواهب والقابليات إلى نفسه، وهكذا كل ما يتفضل الله عليه من نعم لا تعد ولا تحصى. وهذا جحود وكفر. والكافر مطرود عن ساحة القدس. مبعد إلى حيث يستحق من الدرك الأسفل من النار.

إن الظلم وما يتبعه من كبرياء يسدَّان على البشر أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1].

وهكذا أثر الغش في إبعاد البشر عن الايمان بيوم المعاد. ﴿ويومَ يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ (سورة الأحقاف: ٢٠).

إن هؤلاء المتكبرين[2] يصمون معطيات العقل السليم بالخرافة. والمنطق بالقدم. ويزعمون أن المنطق البشري قابل للتغيير: فالشيء يكون صحيحاً وخطأ في وقت واحد، ويجتمع الضدان في وقت واحد وفي صقع واحد إلى ما هنالك من خرافات بل جنون ما أنزل الله بها من سلطان. ويعدون هذا منطقاً جديداً! وأما المنطق الفطري: هذا المنطق الذي كان هو

(١) سورة الاحقاف: ١٠

(٢) واعني بهم: الشيوعيين

الأساس في ما اكتشفه البشر من مكتشفات منذ تدوينه علوماً شتى، أي منذ ٢٥٠٠ سنة حتى اليوم، فهو في نظرهم منطق شكلي! يا لها من مغالطة خادعة! تخدع السُذَّج والقلوب المريضة وذوي العاهات. انهم يخدعون السُذج بكلمة: جديد!... تقدم!... وكلمة: قديم!... بالٍ، خرافة، رجعية!... تأخر...

ولولا ما دوَّنه اليونانيون ومن بعدهم المسلمون من رياضيات وطبيعيات وطب وعلوم أخرى، استناداً على المنطق الطبيعي. (هذا المنطق الذي يموِّه فيه الشيوعي الواقع والحق فيسميه منطقاً شكلياً)، لما وجد هذا الصاروخ الذي يتشدق به خطيب من خطبائهم حُرم موهبة التفكير الرياضي والتحقيق العلمي، لما في نفسه من كبر وغرور.

وقال موسى: «أني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب». (سورة المؤمن: ٢٩). وفي آية أخرى: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾. (سورة المؤمن: ٣٨).

أسفاً لنفوس تلوثت بشتى الجرائم. فوجدت الشيوعية وكراً تستتر تحتها مما حل بها من نقص وضعة في النفس. أسفاً لنفوس أمست محجوبة عن رؤية الحق والواقع ومطرودة عن مقامات القدس لما اجترحت من موبقات ومنكرات، فصارت تتشدق مستكبرة، مترنمة بكلمة: تقدم، ثقافة. كأن من لوازم الثقافة والتقدم الانحلال الخلقي، والتسافل، والتفكك في كل مقياس وإنكار الفضائل وبالتالي إنكار المعاد!.

لم تفد هؤلاء ما مَنَّ الله عليهم من سمع وبصر وقلب، لأنها أمست لجرائم لا تعد محجوبة عن التطلع إلى ما وراء المادة الصماء. فهم ومع الأسف مصداق هذه الآية المباركة: ﴿ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[1].

---

(١) سورة الاحقاف: ٢٦

إن الله تعالى جلَّ أن يظلم أحداً. وإنما يصل الفرد إلى نتيجة عمله: إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وفي الحديث: «إنما أعمالكم تَردُ عليكم». وقد قال الله تعالى: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[1].

وقد جاء في الحديث أيضاً: «من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من قفاه وآخر من قدامه يلتبهان ناراً». وفي حديث آخر: «من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار». وفي آخر أيضاً: «إن في الجنة غرفاً يسكنها من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام».

إذن، فطريق الجنة: العمل الصالح مع عبادة مقبولة. وطريق النار هو الفسق والكذب والنميمة والغيبة وترك العبادة وما إلى ذلك.

* * *

إن العوالم القدسية ثابتة منذ الأزل، ولا تتبدل حسب الأهواء: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾. ﴿وإن تطع اكثر مَن في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله﴾. ﴿الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين﴾. نعم جل ما عند هؤلاء: كلمات فارغة لا يستطيعون تحديدها تحديداً علمياً، لا شائبة فيه: الرجعية، أساطير، خرافة، قديم، بالٍ، أفيون الشعوب، إلى ما هنالك من كلمات مسلِّية!.

فالصدق عند هؤلاء أسطورة. والفضيلة خرافة والاعتقاد بما وراء الطبيعة رجعية، والصلاة تناقض المادية! إلى ما هنالك مما يخالف المنطق السليم الذي نجده في قلب سليم. نجده في نفس فيها شيء من الحياء والتواضع والاذعان للحق وفيها شيء من الفضيلة ومرتبة من السمو. أنه تعالى يقول: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

ولقد تتبعت هؤلاء المهوِّسين، الذين لا يركنون في أهوائهم إلى ركن ركين، تتبَّعتهم فألفيتهم منفلتين عن الفضائل، منغمرين في أنواع الرذائل:

---

(١) سورة الاحقاف: ٣٥

فأمسوا لا يرون ما هم عليه من كثرة النقائص والمفاسد، فهم حقاً من ذوي العاهات! ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[1].

انهم عما قريب مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرَّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾.

فلكل نفس رشحات تتناسب مع درجة كمالها، ومرتبة تسافلها، فتكون فلسفتها في الحياة وفيما بعد الممات تابعة لهذه الدرجة وتلك المرتبة: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. هذه حقيقة الحقائق، حقيقة ما بعدها حقيقة، تنكرها النفس المتسافلة وتسلِّم بها النفس المتكاملة.

فالذي كان دأبه الإفك والاثم وسوء الخلق وجرح الخواطر وإيذاء الناس والكذب، تكون عاقبة أمره: إنكار آيات الله تعالى والاستهزاء بما أمر الله، على حد قوله تعالى: ﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ماكسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم﴾[2]. أفَّاك = كذاب).

* * *

إن الشيطان ليعقب أولئك الذين لم يطهروا أنفسهم تطهيراً كاملاً قبل نفاد عمرهم إلى آخر ساعة من حياتهم فهو لهم بالمرصاد. فقد قال أبو عبد اللهعليه السلام: «ما من أحد يحضره الموت إلا وكل به ابليس من شياطينه مَن يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه. فمن كان مؤمناً لا يقدر عليه. فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حتى يموتوا».

---

(١) سورة الحشر: ١٩

(٢) سورة الجاثية: ٧ ـ ١٠

ومما يؤثر كثيراً في أن يوفق الشخص للاقرار بالشهادتين المواظبة على الصلوات الخمس باخلاص عند مواقيتها كما جاء في مفاد حديث. فـ«الناس هَلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم... الحديث».

قد ذكر لي أحدهم: أنه كان عند صديق له عندما حضرته الوفاة، وكان صديقه هذا ممن يصلي ويصوم ويؤدي ما في ماله من حقوق، ويتقي الله في أموره، وكان عنده ساعة موته أصدقاؤه الآخرون. فيُلقن شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن علياً ولي الله، فلم ينطق بها وأبى، وأخذ يبصق. ولكن الله تعالى لم يشأ أن يموت الرجل على هذه الحالة، فعادت بإذن الله، اليه روحه، فصحتُه. وسئل بعد ذلك عن عدم إقراره بالشهادة، فأجاب: «أني كنت أسمع ما القن به من شهادة... ولكني أمسيتُ في تلك الآونة عطشاناً إلى حدٍّ لا يُطاق. فقرَّب ألي شخص قدحاً مملوءاً ماءاً، وأخذ يقول لي: لا تقرَّ بالشهادة، كي أرويك من هذا الماء. فصرت أبصق في القدح كي لا أستسيغه. وأشكر الله على إنجائه إياي من ذلك الموقف الحرج».

وهكذا حصل لرجل آخر حينما حضرته الوفاة. فأبى الاقرار بالشهادتين وصار يرمق ببصره إلى رف في غرفته فيه اناء مرصع. ثم رُدَّت بإذن الله اليه روحه، وسئل عن عدم اقراره بالشهادتين، فقال: «أني كنت شديد العلاقة بالاناء المرصع، ورأيت شخصاً[1] رافعاً الاناء وهو يقول لي: إياك أن تقر بالشهادتين. فإني سأرمي به على الأرض إن أنت أقررت بهما. ولذلك ترددت في الاقرار رغبة في ذلك الاناء المرصع، وأشكر الله على إنقاذه إياي».

وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». فطوبى لنفوس تهيأت

(١) انه الشيطان، يرافق الانسان الى آخر لحظة من حياته.

ليوم: ﴿يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولاً﴾[1]، فلم يقو الشيطان على اغوائها حين خروج الروح.

وقد جاء في أخبار آل محمد عليهم السلام: «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين غضّت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله». وفي خبر آخر، في ما أوصى به النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام: يا علي، كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله».

وفي الكافي: «إذا قبضت الروح فهي مُظلّة على الجسد».

* * *

ولا بأس بذكر هذه الحادثة، فهي مفاد الحديث المتقدم. يقال: ان أحد العظماء صاحب المؤلفات العظيمة والخدمات المشكورة تعاهد مع أحد أصدقائه: أن يأتي كل من مات قبلاً إلى حلم (طيف) صديقه، ليخبره عما شاهده حين موته وبعد الموت. وقد مات هذا العالم الكبير قبلاً، فلم يَرَه صديقه في منامه حتى مضت سنة كاملة. عند ذلك رآه في حلمه. فعاتبه على تأخره هذه المدة. فأجاب قائلاً: «علامَ تعاتبني يا أخي، كنت مشغولاً بالحساب، أحاسب حساباً دقيقاً عسيراً». فأجابه صديقه: «أوَ تحاسب أنت، مع ما لك من خدمات جمة». فأجاب قائلاً: «كلها لم تفدني».

ثم قال: «عندما حضرتني الوفاة، جاءني ملك الموت، فمسح على رجليَّ فذهب ما بهما من وجع، وهكذا بقية أعضاء بدني، فخرجت روحي وصارت تُشرف وتُطل على البدن. وأهلي يبكون. فصرت أقول لهم: ما لكم تبكون، وقد ذهب عني ما كان بي من ألم. ثم أمرت بتعقيب البدن، فصرت أتبع بدني حتى وارَوني في رمسي. فبدأ السؤال، وصار الملكان

---

(١) سورة المزمل: ١٧، (يوم يجعل الولدان شيباً: اي كيف تدفعون شر يوم تشيب لهوله الولدان، تنشق فيه السماء، ويتحقق وعد الله).

يستنطقانني، فأجبت بلطفه تعالى عما سألا. ثم بدأ الحساب، وأيَّ حساب!.

فصرت أشرح ما قمت به من أعمال، قلت: ألفت كتاباً ضخماً، وموسوعة إسلامية. فقيل لي: إنك فرحت وسُررت عندما مدحوك لأجل ذلك المؤلَّف الضخم ومؤلفاتك الأخرى، فذاك جزاؤك... إلى ما هنالك. فأوشكت أن أقنط، فقيل لي، قد أدخرنا لك عملين كانا لوجه الله تعالى لا شائبة فيهما:

إنك عندما ذهبت لمقابلة الملك، استقبلك رجال الملك، وأخذت الشرطة تنحي الناس بعنف، فقلت إذ ذاك، إن كان هذا لي، فأني لا أرضى بذلك، ورفضت الاستقبال.

ثم ان الملك قدم لك تفاحة في غير موسمها. خرجت من عند الملك، فبينما أنت سائر في طريقك وإذا بولد يتيم صار ينظر إلى تلك التفاحة، فدفعتها إليه لوجه الله[1]. فهذان عملان لك، لم تقم بهما إلا لوجه الله، قد أدَّخرناهما لك، تدخل بهما الجنة».

يقول عدد من الفيزياويين المحدثين: «إن هنالك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، إن العالم الآخر وحدة روحية أو عقلية وما المادة سوى مظهر من مظاهرها، ان العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وان المادة هي من مخلوقات العقل!؟». وصاروا يعلنون هذا الرأي بنفس القوة التي أعلن فيها أسلافهم الماديون قبل ٥٠ سنة، وذلك: أن المادة وحدها هي الشيء الحقيقي، وان العقل ما هو إلا انبعاث طفيف من انبعاثات المادة!!.».

ويظهر بعد هذا الاعتراف من علماء الفيزياء مع ما فيه من جوانب ضعيفة وخاطئة، أنهم سوف يؤمنون يوماً ما بالبعث والمعاد، كما اعترف

(١) «وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى». (سورة الليل: ٢٠ ـ ٢٢)

الكثير منهم بخلود الروح وأنها لا تفنى بعد تفسخ المادة. ولقد أصبحت دراسة الروح والنفس موضوعاً هاماً مرموقاً في جامعات العالم. وأخذ العالم يلفظ رويداً رويداً الفكرة المادية الخاطئة معترفاً بالروح وخلودها، وأن المادة مسخرة من قبل النفس والنفس تستخدمها لأغراضها.

لقد ثبت في الفيزياء أن المادة تتحول إلى قوى وطاقات بنتيجة الاشعاع. أي أن المادة تشع فتتحول إلى طاقات. كما أن الطاقات (القوى) تتكدس بإذن الله تعالى فتكون مادة (عنصراً من العناصر) أو جسماً من الأجسام. وهكذا النفس الانسانية هي من أجل مظاهر الطاقة. طاقة تختلف عن الطاقات الناشئة عن إشعاع المادة وتحولها إلى قوى. فإن النفس تبقى خالدة إلى ما شاء الله، ولا تتلاشى بتلاشي الجسد. لأنها ليست مادة حتى تتحول إلى طاقات بالاشعاع، ولأنها هي التي تدير الجسد وتؤثر فيه.

ولا تناسبَ بين الروح والجسد تناسباً يؤدي إلى اختلاف كمال النفس باختلاف الجسد من حيث قوة العضلات وجسامة الأعضاء. والنفس في غنىً عن الجسد في حالات شتى تبرهن ذلك الأحلام (الأطياف) وحوادث جمة.

* * *

وقد ذكر لي صديق لي وهو ممن يوثق بكلامه: أنه كان لأحد أرحامه خادمة من أسرة فقيرة عمرها ١١ سنة، اسمها: أنور، كانت تصدر منها الأعاجيب. كانت تأخذ من الفضاء ما يطلب منها من فواكه نادرة في غير موسمها، وتأخذ من الفضاء دراهم كثيرة بصورة سريعة دون أن يكون مما تأخذ من الفضاء أثر في البيت. وهكذا تلبي طلب من يطلب اليها احضار شيء من الخارج بصورة سريعة جداً إلى حد يدهش الألباب.

وفي يوم من الأيام حبسها سيدها في الغرفة كي لا تقوم بما تقوم به من العجب العجاب، وإذا بها ترى وسط البيت، فتسأل عن كيفية خروجها من الغرفة والباب مغلق، فتجيب قائلة: أنها قد خرجت من بين شقوق الباب!.

كان يصدر من (أنور) أنواع الأعاجيب والخوارق، حتى إذا تزوجت

وأصبحت امرأة كغيرها من النساء ذهبت عنها هذه الميزة والملكة الموهوبة وتلك الخوارق العجيبة.

هل للعلم الحديث أن يفسر لنا ما كانت عليه هذه الخادمة من ملكات محيرة للعقول وما كانت تأتي به من أعمال خارقة. وكم من حوادث كهذه الحادثة وأعجب منها تحدث من نساء ورجال في الهند وفي غير الهند وليس للعلم الحديث أن يتكلم فيها بكلمة واحدة.

نحن نعيش في أودية من المجاهيل لا سيما في عوالم النفس ومما يتعلق بما وراء الطبيعة، ولكن الغرور لا يدع مجالاً لهؤلاء الماديين للاعتراف بالله خالق الأشياء ومرتبها ومنظمها إلى أقصى حد من التنظيم، تنظيماً يحير الألباب، وللاعتراف بالآخرة وعوالم ما بعد الموت...

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

* * *

إن العلم الحديث يوضح لنا بقدر ما اطلع على العالم المادي (وهو ضئيل وضئيل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من حقائق ودساتير لا تتناهى في هذا الكون)[2] ما سيقع قبل يوم المعاد، ويفسر لنا إلى حدٍ ما قوله تعالى: «إذا الشمس كُوِّرت».

ذلك، لأن الذرة على ما هو معروف مؤلفة من نواة في الوسط (وهي مجموعة نيوترونات وبروتونات) والكترونات في المحيط أو الأطراف، تدور حول النواة.

ومعدل قطر الذرة = $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠}$ من الميليمتر، أي = $\frac{١}{١٠^{٧}}$ مم ومعنى

---

(١) سورة السجدة: ٥٣

(٢) «ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفذت كلمات الله».

ذلك: لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض (شريطة أن تكون كرويَّة كلها) كان طول هذه الذرات الموضوعة بهذا الشكل ميليمتراً واحداً.

وإن قطر نواة الذرة: (أي مجموعة البروتونات والنيوترونات) = $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ من قطر الذرة. ومعنى ذلك أن

قطر النواة = $\frac{١}{١٠^{١٢}}$ مم (من الميليمتر).

ولا يمكن أن ترى الذرة وهذه النواة مع أقوى الميكروسكوبات الحديثة.

وقد عبَّأ الله تعالى قوة هائلة في جوف النواة، تعرف بالطاقة النووية. فإذا حُرِّرت هذه الطاقة بوسيلة ما، هدمت ما حواليها، فلا تبقي ولا تذر.

إن ذرة الـ(أورانيوم) مثلاً تنشق، فتتفرق أجزاؤها، فتنتج مع هذا الانشقاق الحرارة والطاقة الهائلة، أما الأجزاء التي انقسمت اليها الذرة فهي عناصر دون الأورانيوم وزناً، وإذا فرضنا أننا جمعنا هذه الأجزاء ووزناها لكانت أقل مما استخدم من الـ(أورانيوم) وزناً. فأين ذهب الشيء الناقص؟ أنه تحول إلى (طاقة)، إلى (حرارة) وإلى (نور) إلى (إشعاعات أخرى). أي أن المادة تحولت إلى طاقة وقوى. إن الغرام الواحد من المادة يتحول إلى طاقة، فينتج منها ما يعادل ٢٢ مليون مليون سعرة[1] من السعرات الحرارية.

فذرة (الأورانيوم) تعطي من مادتها، فتنتج الطاقة بالتقسيم والتجزؤ والتفرق. وذرة (الايدروجين) تعطي من مادتها لا بالتشقق والتفرق، ولكن بالتجمع، وهكذا تتحول بعض المادة أو كلها (مع تقدم العلم الحديث) إلى طاقات هائلة جداً.

وقد ثبت أن المادة إنما وجدت من تكدس طاقات هائلة أوجدها الله تعالى بقوله: (كن). فترتبت بأمره عناصر تحت نظام بديع وقانون ثابت، وان هذه العناصر تختلف بعضها عن بعض من حيث عدد البروتونات

(١) السعرة: مقدار الحرارة اللازم لرفع درجة حرارة (غرام واحد من الماء) درجة واحدة مئوية، أي من درجة ١٤ مئوية مثلا الى درجة ١٥ مئوية.

والالكترونات. أي تختلف من حيث بنية النواة وما يدور حولها من الكترونات. فكانت، فاذن الله وأمره، هذه العناصر المختلفة كالايدروجين والاكسيجين والحديد والراديوم والأورانيوم إلى ما هنالك، فقد عبّأ الله تعالى في ملعقة واحدة من الزئبق: طاقة تكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الأرضية سبع مرات.

وقد جعل الله فضاء واسعاً بين النواة والالكترونات التي تدور حولها. ومعنى ذلك أن الالكترونات في الذرة تبعد عن النواة مسافة شاسعة (مع حفظ النسبة بين صغر الالكترون والنواة والمسافة التي بينهما وقطر الذرة). وهذه المسافة (مع مراعاة النسبة) بين النواة والالكترونات هي كالمسافة بين الشمس وبين أبعد كوكب سيار يدور حولها.

فإذ انفصلت الالكترونات في يوم من الأيام عن الذرات في الكرة الأرضية، وذلك بأمر الله تعالى، واندمجت البروتونات بعضها ببعض، ستصبح أرضنا هذه كبرتقالة ثقيلة جدا، وزنها بقدر وزن أرضنا هذه التي نعيش عليها ولكن حجمها بحجم البرتقالة.

وإن علماء الفلك المحدثين يخبروننا أن الشمس سيكون مصيرها التلاشي وذلك باندماج نواة ذراتها بعضها ببعض. فيتحقق قوله تعالى: ﴿وإذا الشمس كورت[1] وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت﴾[2]. وذلك من مقدمات يوم المعاد. ﴿يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾. (سورة إبراهيم ١٥ : ٤٨).

وإن قوانين (ديناميكا الحرارية)، أو علم الحرارة الحوكية من أبحاث الفيزياء تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجه من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق! ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة. وهكذا تدل الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة على أن لها بداية... وقد أثبت

---

(١) سورة التكوير : ١ . ومعنى كورت هنا اي رفعت.

(٢) انكدرت : اظلمت . سيرت : أي ذهبت .

العلم فوق ذلك أن لهذا الكون بداية وأنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة.

* * *

وهكذا سيكون مصير (القمر) على ما استنبط ذلك بعض علماء العصر الحاضر. فأنهم يقولون: يأتي يوم فيتجزأ القمر بالتأكيد، فيصبح قمرين فأكثر. ثم تنفجر هذه الأجزاء انفجاراً هائلاً وتستحيل إلى ألف شظية أو أكثر، فإذا قربت هذه الشظايا من الأرض تستحيل إلى آلاف من الشهب الصغيرة. وقد قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾. فتبدأ في الأرض سلسلة من الزلازل ويشتد نشاط البراكين وتقذف ما فيها إلى الخارج وتعمل الهزات في القشرة الأرضية عملها، فتسوى أعالي الجبال وقممها إلى سوية قاع البحار. ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعيَ لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمان ورضى له قولا﴾.

* * *

ولقد توصل ثمانية من العلماء، من رجال الفلك بمرصد: (مولارد) نتيجة بحث استغرق ٨ سنوات: أن هذه الأرض إنما هي شظية من إحدى الشظايا التي تطايرت نتيجة لانفجار هائل حدث قبل عشرة آلاف مليون سنة على حد قوله تعالى في (سورة الأنبياء: ٣٠)، أو لم يَرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً (أي كانتا مرتوقتين: مضمومتين ملتحمتين، أي أن السماوات والأرض كانتا جميعاً كتلة واحدة فَفَتقناهما (أي ففصلنا بعضها عن بعض وجعلناها شموساً وكواكب ونجوماً وأقماراً «توابع للنجوم» ومجرات إلى ما هنالك).

وقد استعمل هؤلاء في استكشاف الفضاء عدة أجهزة جبارة من بينها تلسكوب (مِرقب) وجهاز التقاط للاشارات، وحكموا أن الكون سوف ينتهي

في يوم من الأيام. ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾. (سورة ابراهيم عليه السلام: ٤٩).

واعترفوا أن في الكون مسافات هائلة يعجز الذهن عن تخيلها: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون﴾[١].

كما أثبتوا أن هناك أجساماً شمسية ميتة فوق حافة الكون، وهذا ما يؤكد أن الكون يقترب من نهايته. وهذا هو عين ما درسته عندما كنت طالباً في الجامعة في فرع (الفيزياء الرياضية العالية): من أن الشمس آخذة بالأفول والتضاؤل والاندثار.

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير﴾. (سورة لقمان: ٣٤).

وإن هؤلاء العلماء الثمانية توصلوا أيضاً إلى أن كل الأجسام الموجودة في الكون من كواكب ونجوم وشموس وغير ذلك تنطلق في الفضاء بسرعة خيالية تاركة ثغرة في الوسط.

وأنه قد كانت لهذا الكون بداية قطعاً، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير﴾[٢]. وان الكون لن يدوم إلى الأبد وانه يتغير مع الزمن حتى تقترب النهاية، لشروع عالم آخر تتحقق فيه عوالم يوم القيامة.

وهكذا ذهب هؤلاء العلماء يعتقدون أن الانفجار الهائل الذي وقع منذ الوف الملايين من السنين في عدة كتل من المادة أسفر عن انتشار شظايا مادية في مختلف الاتجاهات، ثم تطورت هذه الشظايا إلى الكواكب والنجوم التي نراها اليوم.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧

(٢) سورة العنكبوت: ١٨، ١٩

فنرى أن العلم الحديث يقترب من الاعتراف بما جاء في القرآن الكريم عن البداية والنهاية كلما أتيح له من آلات دقيقة ومعلومات رياضية عميقة. وان مُعطياتِ العلم لم تكن لتخالف ما جاء في كتاب الله المجيد إلا لضآلة ما وصل اليه العلم وعجز الآلات المكتشفة عن الاستقصاء.

* * *

يعترف العلم الحديث: أن الذرات قد استحدثت منذ زمان لا يتجاوز جملة قليلة من بلايين السنين، وأن عمر أكثر النجوم ٣ بلايين من السنين، كما أن عمر المحيطات عدد قليل من بلايين السنين وأن النظام النجمي كان موجوداً قبل زمن يتراوح بين بليونين وخمسة ملايين من السنين وأن عمر الصخور المختلفة ـ ونعني بذلك الزمان الذي انقضى منذ أن تصلبت بعد أن كانت مائعة ـ (١٩٨٠) مليون سنة. وقد قدر ذلك بكل دقة بواسطة «الطريقة الزمنية للنشاط الاشعاعي»(Radioactve — Clock method) .

كما عُلم بنفس الطريقة أن عمر قشرة الأرض لا يقل عن بليونين من السنين. ومن هنا نرى أن البحث عن عمر أية ناحية من نواحي الكون ينتهي إلى جواب تقريبي واحد: هو بضعة بلايين من السنين قدماً.

وقد رفض العلم الحديث «فرضية الكون الثابت غير المتغير»، ويعتقد اليوم جازماً أن الكون لم يكن فكان، وأخذ يتطور تحت نظام وحساب دقيق وتدبير عميق منذ بضعة بلايين من السنين، وأن الكون كان في الماضي السحيق أقل تعقداً مما هو الآن. كما يعترف العلم أن صورة مجموع الفضاء الكوني وما يأهل به من بلايين (المجرات) هو في حالة انتشار سريع وأن كل أعضائه يبتعد بعضها عن بعض بسرعة مرهقة. ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[١].

كما أن العلم الحديث يقدر أنه: عند بلوغ سنة ٤٧٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ بعد الميلاد سوف تتلقى شمسنا وثيقة إعدامها.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

ومن الأمور المعروفة عند علماء الطبيعة والفلك أن مادة الكون الصلدة آخذة في الانحلال والتلاشي أثناء تحولها إلى إشعاع. وأن وزن الشمس يقل كل يوم ٣٦٠ ألف مليون طن. أي أن هذا القدر من مادتها يتلاشى لكي تشع كل ما تشعه يومياً. وهذه الأشعة التي تنطلق منها تسير في الكون، وستظل سائرة فيه إلى نهاية الدنيا. وتحول المادة إلى اشعاع عمل جار الآن في كل النجوم. وان الأرض تخسر من وزنها يومياً بالاشعاع تسعين رطلاً!.

والله تعالى يقول: ﴿أو لم يَروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب﴾. (سورة الرعد: ٤٢). وفي آية أخرى: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر. أفـلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾. (سورة الأنبياء: ٤٦). فتشير الآيتان الكريمتان أن الأرض منذ أن خلقها الله تتناقص من أطرافها وهي ظاهرة كونية لم يلتفت إليها العلماء إلا في السنوات الأخيرة إذ أثبتت الأبحاث العلمية عن شكل الأرض: أن قطرها الواصل بين القطبين يتناقص بكمية ضئيلة جداً، إلا أن عملية التناقص هذه مستمرة مـذ أن خلق الله الأرض، حتى أن شكلها تطور بمرور الزمن من الشكل الكروي إلى الشكل البيضاوي تطوراً مستمراً لا إنقطاع فيه.

وقد علم أنه ليس لهذا التحول الذي ذكرناه ما يقابله من تحول الاشعاع إلى مادة حسب قواعد الفيزياء. أي ليس ما تفقده الأرض والشمس والنجوم في ناحية من نواحي الكون يعوض في ناحيـة أخرى: بتحـول الاشعاع (الطاقة) إلى مادة. أي ليست القضية كتحول المياه إلى بخار ثم تحول البخار إلى مياه وهكذا دواليك. ذلك لأن المادة حين الاشعاع تتحول من قوة ذات موجة قصيرة إلى قوة أخرى ذات موجة أطول منها. ويتعذر تحول قوة ذات موجة أطول إلى قوة ذات موجة قصيرة حسب قواعد الفيزياء. وان هذا الانحطاط ـ أو التحول ـ في القوة لا يمكن أن يمضي كذلك إلى الأبد، إذ لا بد أن يجيء وقت تتحول فيه آخر وحدة من القوة الصالحة للعمل إلى قوة غير صالحة للعمل وعندئذ تجيء نهاية الكون ويخبرنا الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إذا السماء

انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت﴾[1]. وبقوله: ﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقت﴾[2].

ويعترف العلم الحديث أن الطاقات (الاشعاعات) التي حدثت نتيجة تحول المادة (كل ما في الكون) إلى طاقات لا يمكن أن ترجع إلى مادة من جديد إلا بقوة خارجة عن الكون. ذلك لأن الكون، حسب قواعد علم الفيزياء، خاسر يوماً ما كل القوة الصالحة للاستعمال التي كانت فيه والكون الذي لا توجد فيه قوة صالحة للاستعمال، كون ميت. فنهاية الكون تحين متى انحل كل جوهر من جواهر المادة وانطلق في الفضاء اشعاعاً قوياً قصير الأمواج. ولا بد من قوة خارجية هي: إرادة الله تعالى لارجاع هذه الطاقات إلى عوالم أخرى من جنَات عدن «عرضها السماوات والأرض» وغيرها من عوالم لا يعلمها إلا الله ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾. (سورة ابراهيم (ع): ٤٨). ويقول الله تعالى في سورة التكوير: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ أي أزيلت.

فكل شيء آئل إلى زوال وفناء، حتى يبدأ بعد ذلك باذن الله وإرادته عالم من جديد: ﴿كل مَن عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾.

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿فارتقب يومَ تأتي السماء بدخان مبين﴾[3]، وفي هذه الآية إشارة إلى يوم القيامة، وتخبرنا بعلامة من علاماتها. فالمعروف علمياً أن كل نجم أو شمس كشمسنا لا بد وأن تطرأ عليه حالة يتمدد فيها سطحه قبل أن يصل إلى حالة الاستقرار. وشمسنا بالذات لم تمرَّ بعد بهذا الدور وهي لا تزال في مقتبل عمرها. وعندما تتمدد يصل لهبها وغازات جوها المستعرة إلى الأرض حسب قوله تعالى: ﴿وجمع الشمس والقمر.

---

(١) سورة الانفطار: ١ ـ ٣

(٢) سورة الانشقاق: ١ ـ ٢

(٣) سورة الدخان: ١٠

يقول الانسان يومئذ أين المفر؟ كلا لا وزرَ إلى ربك يومئذ المستقر﴾[١].
﴿فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾[٢].

إن الله يصف حالة هؤلاء الكافرين بعد أن أُدخلوا نار جهنم، يصفهم بقوله: ﴿وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾[٣]، فيجيبهم الله تعالى بقوله: ﴿أوَ لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾. نستجير بالله من سوء العاقبة! من ﴿لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى﴾[٤]. جمع الأموال، فلم ينفقها في سبيل الله.

* * *

إن الله يصف حالة الأرض بعد أن يبلغ أهلها ذروة الطيش والغرور وكيف أنها تكون هباء منثوراً في طرفة عين بقوله جل من قائل: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك تفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[١].

العلم الحديث يخبرنا بالمارد الذري السابح في الفضاء وهو (البروتون: Proton) السالب الذي إذا اصطدم بشيء من الأشياء أرجعه في طرفة عين إلى اشعاعات وطاقات! بل جعله نسياً منسياً. وقالوا: إن هذا المارد يفني ما يصطدم به من مادة، فيتحقق «إفناء المادة»[٦] بهذا الاصطدام، فلا يبقى شيء.

ثم ان الله تعالى بقوله في الآية المتقدمة: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾.

---

(١) سورة القيامة: ٩ ـ ١١
(٢) سورة المدثر: ٩ ـ ١٠
(٣) سورة فاطر: ٣٧
(٤) سورة المعارج.
(٥) سورة يونس: ٢٤

(6) Annihilation de la Matiére .

يشير إلى حركة الأرض حول نفسها، وذلك: لأن الليل والنهار يكونان على الكرة الأرضية في وقت واحد. والله تعالى لا يتردد في علمه ولا يتردد في وقت يريد فيه إفناء الأرض: هل يكون ذلك ليلاً أم نهاراً؟ وهو خالق كل شيء والعالم بما سيكون. فيشير قوله تعالى: ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الإفناء من جانب الله تعالى، ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة، يتلقى هذا الأمر نهاراً. وهذا لا يتم إلا بحركة الأرض حول نفسها وحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران!...

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾. (سورة الحج: ٣).

وقال تعالى: ﴿وإذا البحار سجرّت﴾، وقد ثبت أنه عندما تنطلق ذرة الايدروجين المتحدة مع الاوكسجين نتيجة للانفجار الذري يجعل كافة البحار ناراً في أقل من لمح البصر.

وإذا انضمت ذرتان من ذرات الايدروجين نتج عنهما (الهليوم) ونتج عن ذلك أتون مشتعل يشمل الكون وما فيه، فتصبح السماء ناراً: ﴿فإذا انشقّت السماء فكانت وردة كالدهان﴾[1].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾. وقد أخبرنا الفلكيون أن نجمة (سيريوس) التي تشاهد كل ليلة باستخدام التلسكوب قد استحالت في طرفة عين أو أقل إلى نجمة صغيرة جداً، مظلمة، وان نواة ذراتها قد اندكت بعضها ببعض.

وهكذا سيكون مصير منظومتنا الشمسية ويتحقق كل ما أخبرنا الله تعالى في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم

(١) سورة الرحمان: ٣٧. (اي ان السماء صارت حمراء مذابة كالدهن).

حميد﴾[1]. يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾[2].

* * *

وهكذا يخبرنا الله تعالى في سورة زمر: ٦٧:

﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. ومعنى ذلك: أنه إذا كان يوم القيامة تكون الأرض جميعاً مقبوض عليها في يده تعالى (أي تكون تحت قدرته وطوع إرادته). ذلك: لأن الله ليس بجسم حتى تكون له يد، وتكون السماوات على أبعادها غير المتناهية مطويات بيمينه، فسبحانه أي فتنزيهاً له عما يشركون. وهذا يدل أن هناك تبديلاً هائلاً في الكون عند حلول يوم القيامة؛ يخبر عنه ربُّنا جلَّ جلاله في آيات عدة، كي نتزوَّد بالتقوى، ونتهيأ في دنيانا هذه لـ ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين﴾.

إن الله تبارك وتعالى يبيِّن لنا أيضاً بوضوح ما سيقع في الأرض أولاً ثم ما سيقع ثانياً حين تتبدل هذه الأرض بأرض أخرى وكذا السماء بسماء أخرى أيضاً وذلك بقوله تعالى في (سورة زمر: ٦٨). ﴿ونفخ في الصور فصعق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنـور ربها ووضـع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ووُفِّيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾[3] ومعنى ذلك: أن (إسرافيل) ينفخ في بوق يوم القيامة، فيموت كل حيٍّ، ثم ينفخ مرة أخرى، فيقومون للبعث. وإن النفخ في البوق لا يشبه ما نفهمه نحن اليوم من كلمتي النفخ والبوق، وإنما علم ذلك عند الله. وهذا إيذان بمجيء يوم القيامة ثم إيذان بـالبعث. (ومعنى صعق: أي خرَّ ميتاً أو مغشياً عليه).

فلا سبيل لهذا الانسان إذا أراد تصحيح معتقداته إلا التمسك بالعمل

---

(١) سورة فصلت : ٤٢

(٢) سورة الانبياء: ١٠٤

(٣) سورة الزمر : ٦٨ ـ ٧٠

المبين، وأما الذين كفروا، أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم، واستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين، وإذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها، قلتم ما ندري ما الساعة، إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾[1].

* * *

نسأل الله تعالى تطهير نفوسنا وتكفير ذنوبنا، لنخرج من الظلمات إلى النور باذنه، فنتذكر يوم المعاد: ﴿يومَ يقوم الناس لرب العالمين﴾ عند كل عمل نقوم به، فلا يصدر منا إلا ما يُرضي الله تعالى، كي نذهب من هذه الدنيا، طاهرين، مطهَّرين، زكيين، نقيين، إلى رَوح ورَيحان وخلود في جنان، دونما قلق واضطراب وذلك هو الفوز المبين.

﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾[2][3].

(١) لا بأس بذكر الحديثين عن رسول الله (ص): لأهميتها، لا سيما في مثل هذه الظروف. فإن عاقبة الانسان منوطة بعمله ودرجة تطهير نفسه. قال رسول الله (ص): «من زوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة ولايصعد له عمل إلى السماء ولا يستجاب له دعاء ولا يقبل منه صرف ولا عدل».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « اي امرأة رضيت بتزويج فاسق فهي منافقة وجلست في النار. وإذا ماتت فتح في قبرها سبعون بابا من العذاب. وان قالت: لا اله الا الله، لعنها كل ملك بين السماء والارض وغضب الله عليها في الدنيا وكتب الله عليها في كل يوم وليلة سبعين حطيئة».

(٢) نكير: اي ما تستطيعون من انكار لما اقترفتموه من الذنوب.

(٣) سورة الشورى: ٤٧.

من آثار الايمان باليوم الآخر

للإيمان باليوم الآخر آثار ثمينة جداً. منها:

(١) إن الانسان يراقب نفسه في كل عمل يقوم به خوفاً من العقاب الأخروي، فلا يتصدى إلى ما حرم الله من ظلم وفسق وإجحاف بحقوق الآخرين. وإن أغواه الشيطان يوماً، فهو يتوب حالاً ويعالج بصورة فعلية وعملية ما كان منه من إجحاف بحقوق الغير أو جرح الخواطر إلى ما هنالك.

(٢) أنه يرى أن الحياة ليست بالشيء الذي ينقطع مع الموت، بل هي خالدة مستمرة إلى ما بعد الموت بصورة دائمة، وأن «الدنيا مزرعة الآخرة»، كما جاء في الحديث، فيقوم في هذه الدنيا بأعمال صالحات وما يقربه إلى الله من عبادات كي يجني ثمرها الجني في الحياة الآخرة، ان هذه العقيدة نفسها خير مؤدِّب للفرد وعامل قوي لايجاد حياة اجتماعية سعيدة يعلوها الهدوء والاطمئنان. فمن تجرد عن عقيدة المعاد لا يردعه شيء عن إرتكاب ما تهواه نفسه الطائشة إلا هذه القوانين الوضعية. وان هذه القوانين البشرية لا أثر لها في تعديل الأخلاق الشخصية الفردية والأخلاق العائلية والاجتماعية، لأنها أبعد من أن تستوعب كل ذلك. فالعقيدة بالمعاد خير حافز لاصلاح النفس الانسانية وقطعها مراحل الكمال الانساني.

(٣) إن المعتقد بالمعاد يقوم بما أوجب عليه الاسلام بالنسبة إلى الوالدين والأرحام والأصدقاء وبقية المؤمنين من برٍّ وإحسان وخدمات اجتماعية «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» وهذا مما يؤدي إلى تساند اجتماعي وتكوين مجتمع متكافل هو مصداق هذا الحديث: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

الصالح[1] وبر الوالدين[2] وصلة الرحم[3]، وصدقات، وإحسان وقضاء حوائج الناس[4] والتفاني (إن أمكن) في هذا المضمار. وتطهير المأكل والمشرب مما حرم الله، وإرجاع حقوق الناس اليهم، وتجنب الحسد والبخل والكبر وهي أصول الكفر كما جاء في الحديث. وتجنب الغيبة[5] والنميمة والخداع والكذب وكل ما يلوث هذه النفس من خمر وميسر (قمار) وفسق وفجور وغمط حقوق الناس واعتباره مكسباً. والقيام بصلاة[6] فيها خشوع وخضوع، ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[7]. وصوم لوجه الله (لا إرضاء للوالدين أو حياءاً من الناس) وحج أداء للواجب الديني[8] وأداء خمس الأرباح[9] وأداء الزكاة الواجبة[10] والزكاة الباطنة ﴿وفي

---

(١) قال رسول الله (ص): « ان على كل مسلم في كل يوم صدقة ، قالوا ومن يطيق هذا ؟ قال (ص): اماطتك الاذى عن الطريق صدقة ، وإرشادك الطريق صدقة ، وعيادتك المريض صدقة ، واتباعك الجنازة صدقة ، وامرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وردك السلام صدقة ». (الاذى في الطريق كالشوك والحجارة).

(٢) وعن النبي (ص) : « وأبويك فبرهما واطعمعما حيين وميتين ، فان امراك ان تخرج من اهلك ومالك فافعل ، فان ذلك من الايمان ».

(٣) في الحديث : « صلة الارحام تطيل الاعمار وتعمر الديار وان كانوا كفارا ». وفي خبر : « اتقوا الحالقة ، فانها تميت الرجال ، قيل وما الحالقة يا ابن رسول الله ؟ قال : قطيعة الرحم . وفي حديث آخر : « لا صدقة وذو رحم محتاج ». وفي حديث آخر : « ان الله خلق الجنة وطيبها وطيب ريحها ولا يجد ريحها عاق او قاطع رحم ».

(٤) عن أبي عبد الله عليه السلام : « لقضاء حاجة امرىء مؤمن احب الى الله من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة الف ».

(٥) قال رسول الله (ص) : اجتنبوا الغيبة فانها ادام كلاب النهار. وقد سئل النبي (ص) ما كفارة الاغتياب ؟ فقال : « تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته ».

(٦) عن النبي (ص) : « من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ملة الاسلام ».

(٧) سورة المؤمنون : ١ ـ ٢ .

(٨) عن النبي (ص) : من وجد الى الحج سبيلا ، فلم يحج، فليمت ان شاء يهوديا او نصرانيا .

(٩) عن النبي (ص) : ان مانع الخمس يحشر مع الظالمين لال محمد حقهم .

(١٠) عن النبي (ص): من ضيع قيراطا من الزكاة فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانياً.

أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[1]، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات أخرى، كي يرى كيف تذهب عنه الشكوك رويداً رويداً وتنقشع عن نفسه الشبهات شيئاً فشيئاً، بل يدخل في عوالم القدس، حيث اليقين والطمأنينة، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3] فيكون إذ ذاك مصداق هذه الآية المباركة: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[4].

وهذا غاية التكامل لهذا الانسان.

* * *

ولكن إذا تمادى الشخص في طيشه وإجرامه ومكره وظلمه[5] ونكرانه ما عليه من حقوق الناس وواجب الشكر تجاه خالقه، وارتدى رداءً الكبرياء وثابر على فسوقه وفجوره، كان من المبطلين الذين خسروا أنفسهم على حد قوله تعالى حيث يقول: ﴿يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية[6] كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته، ذلك هو الفوز

---

(١) سورة الذاريات : ١٩.

(٢) قال رسول الله (ص) : ان الله ليبغض المؤمن الضعيف ، قيل يا رسول الله ، من المؤمن الضعيف ؟. قال : الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر. وفي حديث آخر : « ويل لقوم لا يدينون بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ».

(٣) سورة الرعد: ٢٨

(٤) سورة الفجر : ٢٨ ـ ٣٠.

(٥) قال رسول الله (ص) : « اجتنبوا دعوة المظلوم ولو كان كافرا . فانه ليس دونها حجاب » وفي حديث آخر : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم ، فقد خرج من الاسلام » وفي حديث آخر ايضا « من اعان ظالما ليدحض بباطله حقا فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ». وفي حديث آخر : « من ارضى سلطانا بما اسخط الله خرج من دين الاسلام ».

(٦) سورة الجاثية : ٢٦ ـ ٣٣: (جاثية : باركة على ركبها).

وقد قال بعضهم: إن الاعتقاد بالآخرة يعوق الفرد عن السير في أمور الدنيا قدماً بجدٍّ ونشاط. ولكنا نرى أن المسلمين الأوائل قد قاموا بأعمال جبارة في حقول شتى من تجارية وصناعية وزراعية وعمرانية وان أكثر من ربع المعمورة كانت للمسلمين، وما كان ليُعيقهم الاعتقاد بالآخرة للعمل في عمارة الدنيا بشكل لا يؤدي إلى فساد في الأرض وتسافل النفوس ونسيان الآخرة. فقد قال رسول الله (ص) لأصحابه: «إن أخوف ما أخافه عليكم إثنان: اتباع الهوى وطول الأمل. فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق وإما طول الأمل فيُنسي الآخرة»...

على أن الانسان بطبيعته ميال إلى الدنيا، يحرص على عمرانها والتزود منها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. لذلك يحث الدين الاسلامي الانسان على التفكير في حياة أخروية خالدة والتهيؤ لها كي لا تميل النفس إلى المادة فحسب، فتتسافل. وفي الخبر «تذكروا هادمَ اللذات».

وإن للاعتقاد بالمعاد أثراً بالغاً في تهدئة النفوس إذا ما حُرموا (لحكمةٍ ما) من بعض زخارف الدنيا أو أصيبوا ببعض النكبات. فالله تبارك وتعالى سوف يعوِّضهم عن ذلك جزاءً موفوراً في نعيم خالد لا يُقاس بنعيم الدنيا بحال. يقدر ذلك علماء النفس.

وصفوةُ القول: إن الاعتقاد بالمعاد خير رقيب لهذا الانسان يصده عما يؤدي إلى فساد أو إفساد. ويحثه على ما هو خير وصلاح. فتكون الحياة الاجتماعية قد بلغت شأواً قاصياً من تحابب وتوادٍ وتراحم... «إنما المؤمنون اخوة».

فما على المسلمين في أرجاء البسيطة إلا أن يقوموا بتطبيق تعاليم الاسلام لتحقيق حياة اجتماعية سعيدة على وجه الأرض وجعل الاسلام ديناً عالمياً خالداً كما تنبأ بذلك كثير من العلماء.

* * *

﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت

الـوهاب ربنـا إنك جـامعُ النـاس ليـومٍ لا ريبَ فيـه إن الله لا يُخلف الميعاد﴾[1].

«إنتهى الجزء الثالث، والحمد لله، وسيليه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى».



---

(١) سورة آل عمران : ٨. (الزيغ : العدول عن الحق).

جدول بأسماء العناصر المستكشفة لحد الآن

مع العلم أن كل ما عرفناه من مواد يتكون من واحد أو أكثر من العناصر الآتية:

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط	العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
أيدروجين	١	١,٠٠٨	زرنيخ	٣٣	٧٤ ,٩٦
ليثيوم	٣	٦,٩٤٠	هيليوم	٢	٤,٠٠
بورون	٥	١٠,٨٢	بيريليوم	٤	٩,٠٢
نيتروجين	٧	١٤,٠٠٨	كربون	٦	١٢,٠١
فلور	٩	١٩,٠٠	أوكسيجين	٨	١٦,٠٠٠
صوديوم	١١	٢٢,٩٩٧	نيون	١٠	٢٠,١٨
ألومنيوم	١٣	٢٦,٩٧	ماغنيسيوم	١٢	٣٤,٣٢
فوسفور	١٥	٣٠,٩٨	سليكون	١٤	٢٨,٠٦
كلور	١٧	٣٥,٤٥٧	كبريت	١٦	٣٢,٠٦٤
بوتاسيوم	١٩	٣٩,٠٩٦	أرجون	١٨	٣٩,٩١
سكانديوم	٢١	٤٥,١٠	كالسيوم	٢٠	٤٠,٠٧
فاناديوم	٢٣	٥٠,٩٦	تيتانيوم	٢٢	٤٧,٩٠
منجنيز	٢٥	٥٤,٩٣	كروم	٢٤	٥٢,٠١
كوبلت	٢٧	٥٨,٩٤	حديد	٢٦	٥٥,٨٤
نحاس	٢٩	٣٦,٥٧	نيكل	٢٨	٦٨,٦٩
جاليوم	٣١	٦٩,٧٢	خارصين	٣٠	٦٥,٣٨
جرمانيوم	٣٢	٧٢,٦٠	لوتيسيوم	٧١	١٧٥,٠

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط	العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
سيلينيوم	٣٤	٧٨,٩٦	تاتنالوم	٧٣	١٨٠,٨٨
بروم	٣٥	٧٩,٩١٦	رينيوم	٧٥	١٨٦,٣١
روبيديوم	٣٧	٨٥,٤٤	كريبتون	٣٦	٨٣,٨
بتريوم	٣٩	٨٨,٩٢	سترنشيوم	٣٨	٨٧,٦٣
نيوبيوم	٤١	٩٢,٩١	زركوليوم	٤٠	٩١,٢٢٠
تكنيتيوم	٤٣	٩٩,٠٠	مولبدنوم	٤٢	٩٥,٩٥
روديوم	٤٥	١٠١,٩١	روتينيوم	٤٤	١٠١,٧
فضة	٤٧	١٠٧,٨٨٠	بلاديوم	٤٦	١٠٦,٧
إنديوم	٤٩	١١٤,٨	كدميوم	٤٨	١١٢,٤١
أنتيمون	٥١	١٢١,٧٧	قصدير	٥٠	١١٨,٧٠
يود	٥٣	١٢٦,٩٣	تليريوم	٥٢	١٢٧,٥٩
سيزيوم	٥٥	١٣٢,٩١	زينون	٥٤	١٣١,٣
لاتنانوم	٥٧	١٣٨,٩٠	باريوم	٥٦	١٣٧,٣٧
براسيوديميوم	٥٩	١٤٠,٩٢	سيريوم	٥٨	١٤٠,٢٥
ألينيوم	٦١	١٤٦,٠	نيوديميوم	٦٠	١٤٤,٢٧
أوربيوم	٦٣	١٥٢,٠	سماريوم	٦٢	١٥٠,٤٣
تيربيوم	٦٥	١٥٩,٢	جادولينيوم	٦٤	١٥٧,٢
هوليوم	٦٧	١٦٤,٩٤	ديسبروزيوم	٦٦	١٦٢,٥
ثوليوم	٦٩	١٦٩,٤	أربيوم	٦٨	١٦٧,٧
يتربيوم	٧٠	١٧٣,٦	أينشتنيوم	٩٩	٢٥٣,٠٠
هفنيوم	٧٢	١٧٨,٦	مندلفيوم	١٠١	٢٥٦,٠٠
تنجستون	٧٤	١٨٣,٩٢	بلاتين	٧٨	١٩٥,٢٣
أوزميوم	٧٦	١٩٠,٢	زئبق	٨٠	٢٠٠,٦١

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط	العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
إيريديوم	٧٧	١٩٣,١	رصاص	٨٢	٢٠٧,٢١
ذهب	٧٩	١٩٧,٢	بولونيوم	٨٤	٢١٠,٠٠
ثاليوم	٨١	٢٠٤,٣٩	رادون	٨٦	٢٢٢,٠٠
بزموت	٨٣	٢٠٩,٠٠	راديوم	٨٨	٢٢٦,٠٥
استاتين	٨٥	٢١٨,٠٠	ثوريوم	٩٠	٢٢٣,١٢
فرانسيوم	٨٧	٢٢٣,٠٠	يورانيوم	٩٢	٢٣٨,٠٧
اكتينيوم	٨٩	٢٢٧,٠٠	بلوتونيوم	٩٤	٢٣٩,٠٠
بروتاكتينيوم	٩١	٢٣١,٠٠	كيوريوم	٩٦	٢٤٢,٠٠
نيبتونيوم	٩٣	٢٣٧,٠٠	كالفرنيوم	٩٨	٢٤٤,٠٠
أمرسيوم	٩٥	٢٤١,٠٠	فرميوم	١٠٠	٢٥٤,٠٠
بركليوم	٩٧	٢٤٣,٠٠	نوبليوم	١٠٢	٢٥٧,٠٠

فهرس الجزء الثالث




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





